

أصل الأنواع



تأليف : تشارلس داروين
ترجمة : مجدى محمود المليجى
تقديم : سمير حنا صادق

المشروع القومي للترجمة

628

أصل الأنواع

نشأة الأنواع الحية
عن طريق الانتقاء الطبيعي
أو
الاحتفاظ بالأعراق المفضلة
في أثناء الكفاح من أجل الحياة

تأليف : تشارلس داروين

ترجمة : مجدى محمود المليجى

تقديم : سمير حنا صادق



- العدد : ٦٢٨
- أصل الأنواع
- تشارلس داروين
- مجدى محمود المليجى
- سمير حنا صادق
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

**The Origin of Species
by means of Natural Selection
or
The Preservation of Favored Races
In the Struggle For Life
By
Charles Darwin**

الإصدار الأول: ٢٤ نوفمبر ١٨٥٩
الإصدار السادس : يناير ١٨٧٢ وهو الذى أضيف إليه الباب السابع
(وهذا هو الإصدار الذى قمنا بترجمته)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٢٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

15 تقديم الكتاب
25 مقدمة المترجم
31 السيرة الذاتية للمؤلف
37 نبذة تاريخية عن تطور المعتقدات حول نشأة الأنواع الحية
51 إضافة للنبذة التاريخية
55 مقدمة المؤلف

الباب الأول - التمايز تحت تأثير التدجين

	أسباب القابلية للتمايز - تأثيرات السلوك ، والاستخدام أو عدم الاستخدام للأجزاء - التمايز المتلازم - الوراثة - الطابع الخاص بالضروب الداجنة - صعوبة التمييز بين الضروب والأنواع - نشأة الضروب الداجنة من واحد أو أكثر من الأنواع - الحمائم الداجنة ، اختلافاتها ونشأتها - قواعد الانتقاء التي اتبعت قديما وتأثيراتها - الانتقاء المذهجى وغير المتعمد - المنشأ المجهول لمنتجاتنا الداجنة - الظروف المواتية لقدرة الإنسان على الانتقاء
61

الباب الثانى - التمايز تحت تأثير الطبيعة

	القابلية للتمايز - الاختلافات الفردية - الأنواع غير المؤكدة - الأنواع الواسعة المآلف، والكثيرة الانتشار، والشائعة هي الأكثر تمايزا - الأنواع التابعة للطبقات الكبرى فى كل قطر تتمايز بشكل أكبر بكثير من الأنواع التابعة للطبقات الصغرى - الكثير من الأنواع التابعة للطبقات الكبرى تماثل الضروب فى كونها مرتبطة ببعضها بشكل حميم جدا ، ولكن بقدر غير متساو ، وفى حيازتها لمآلف محدودة
108

الباب الثالث - التنازع من أجل البقاء

تأثيره على الانتقاء الطبيعي - المصطلح يستخدم على نطاق واسع - النسبة الهندسية للزيادة - الزيادة السريعة للحيوانات والنباتات المؤقلمة - طبيعة الضوابط الخاصة بالزيادة - عالمية التنافس - تأثيرات المناخ - الحماية من عدد الأفراد - العلاقات المعقدة لجميع الحيوانات والنباتات فى كل أرجاء الطبيعة - التنازع من أجل الحياة يكون أكثر شراسة بين الأفراد والضروب التابعة لنفس النوع : وكثيراً ما يكون قاسياً بين الأنواع التابعة للطبقة نفسها - العلاقة بين كائن وكائن هي الأكثر أهمية من بين جميع العلاقات

135

الباب الرابع - الانتقاء الطبيعي أو البقاء للأصلح

الانتقاء الطبيعي - قدرته بالمقارنة للانتقاء الإنسانى - قدرته على الصفات ذات الأهمية التافهة - قدرته عند جميع الأعمار وعلى كل من الشقيين الجنسيين - الانتقاء الجنىسى - ما يتعلق بشيوع التهاجئات المتبادلة بين الأفراد التابعين لنفس النوع - الظروف المواتية وغير المواتية لنتائج الانتقاء الطبيعي ، ألا وهى : التهاجن المتبادل ، والعزل ، وعدد الأفراد - المفعول البطيء - الانقراض بسبب الانتقاء الطبيعي - تشعب الطابع وعلاقته بتنوع القاطنين لأى مساحة صغيرة ، وبالتأقلم - المفعول الخاص بالانتقاء الطبيعي من خلال التشعب فى الطابع، على المنحدرين من أب مشترك - يفسر التقسيم لجميع الكائنات العضوية إلى مجموعات - الترقى فى التعضية - الأشكال الدنيئة مصانة - تقارب الطابع - التضاعف غير المحود للأنواع - ملخص

159

الباب الخامس - قوانين التمايز

تأثيرات الظروف المتغيرة - الاستخدام وعدم الاستخدام ، بالاشترك مع الانتقاء الطبيعي ، الأعضاء الخاصة بالطيران والخاصة بالرؤية - التأقلم - التمايز المتلازم - التعويض ونظام النمو - التلازمات الزائفة - التراكيب المتعددة، غير المكتملة والمتواضعة التعضية ، قابلة للتمايز -

الأجزاء التي تتكون بطريقة استثنائية تكون شديدة القابلية للتمايز ،
والصفات النوعية أكثر قابلية للتمايز من العرقية: والصفات الجنسية
الثانوية تكون قابلة للتمايز - الأنواع التابعة لنفس الطبقة تتمايز بطريقة
متناظرة - الارتدادات إلى الصفات المفقودة منذ مدة طويلة - ملخص

229

الباب السادس - الصعوبات الخاصة بالنظرية

الصعوبات الخاصة بنظرية النشوء مع التعديل - انعدام أو ندرة وجود
الضروب الانتقالية - المراحل الانتقائية فى سلوكيات الحياة - السلوكيات
المتنوعة الموجودة فى نفس النوع - الأنواع المتمتعة بسلوكيات مختلفة
تماما عن تلك الخاصة بنوات قرباها - الأعضاء التي بلغت أقصى درجات
الكمال - أساليب التحول - حالات الصعوبة - الطبيعة لا تقبل الطفرة -
الأعضاء ذات الأهمية الصغيرة - الأعضاء التي ليست فى جميع الحالات
كاملة بشكل قاطع - القانون الخاص بتضافر النمط والخاص بشروط
البقاء على قيد الحياة فى نطاق نظرية الانتقاء الطبيعي

275

الباب السابع - اعتراضات مختلفة على نظرية الانتقاء الطبيعي

طول العمر - التعديلات غير المتزامنة بالضرورة - تعديلات تبو أنها
عديمة الفائدة المباشرة - النشوء الارتقائى - الصفات ذات الأهمية
الوظيفية الصغيرة، هى الأكثر بواماً - العجز المفترض للانتقاء الطبيعي
عن تفسير المراحل البدائية للتراكيب المفيدة - الأسباب التي تعوق
اكتساب التراكيب المفيدة من خلال الانتقاء الطبيعي - تدرجات التراكيب
مع التغيير فى الوظائف - الأعضاء الشديدة الاختلاف الموجودة فى
التابعين لنفس الرتبة، والتي نشأت من مصدر واحد بذاته - أسباب عدم
الاعتقاد فى التعديلات الكبيرة والفجائية

335

الباب الثامن - الغريزة

الغرائز متشابهة مع العادات، ولكنهما مختلفان فى منشأهما - الغرائز
تدرجت - المن والنمل - الغرائز قابلة للتمايز - الغرائز الداجنة، منشأها -

الغرائز الطبيعية للوقواق، والملطروس، والنعام، والنحل الطفيلي - النمل
صانع العبيد - نحل الملاجئ، وغريزته فى عمل الخلايا - التغيرات فى
الغريزة والتركيب ليسا متزامنين بشكل ضرورى - الصعوبات الموجودة
فى النظرية الخاصة بالانتقاء الطبيعى للغرائز - الحشرات المحايدة
جنسياً أو العواقر - ملخص 393

الباب التاسع - التنغيل

التمييز بين العقم الخاص بالتهاجنات الأولى والخاص بالأنغال - العقم
مختلف فى الدرجة ، وليس شاملا ، و يتأثر بالتهجين البينى الحميم ،
ويزول عن طريق التدجين - القوانين التى تتحكم فى العقم الخاص
بالأنغال - العقم ليس مسحة خاصة ، ولكنه شىء طارئ على اختلافات
أخرى ، وليس متراكما بواسطة الانتقاء الطبيعى - أسباب العقم الخاص
بالتهاجنات الأولى والخاص بالأنغال - التطابق الموجود بين التأثيرات
الخاصة بظروف الحياة المتغيرة والخاصة بالتهجين - تننية الشكل وتثليث
الشكل - العقم الخاص بالضروب عندما تتهاجن والخاص بذريتها
المهجنة ليس شاملا - المقارنة بين الأنغال والمهجنين بشكل مستقل
عن الخصوبة الخاصة بهما - ملخص 443

الباب العاشر - ما يتعلق بالنقص الموجود فى السجل الجيولوجى :

ما يتعلق بانعدام وجود الضروب المتوسطة فى الوقت الحاضر - ما يتعلق
بالطبيعة الخاصة بالضروب المتوسطة المنقرضة ، وما يتعلق بعددهم -
ما يتعلق بمرور الزمن ، كما يستدل عليه من المعدل الخاص بالتعرية
والخاص بالتراكم - ما يتعلق بالفترة الزمنية كما تم تقديرها بالسنوات -
ما يتعلق بتواضع المجموعات الإحاثية الخاصة بنا - ما يتعلق بالتقطع
الموجود بالتكوينات الجيولوجية - ما يتعلق بالتعرية الخاصة بالمناطق
الجرانيتية - ما يتعلق بانعدام وجود الضروب المتوسطة فى أى تركيب
جيولوجى واحد - ما يتعلق بالظهور الفجائى لمجموعات من الأنواع -
ما يتعلق بظهورهم الفجائى فى أسفل الطبقات الأحفورية المعروفة -
القدم الخاص بالكرة الأرضية المسكونة 493

الباب الحادى عشر - ما يتعلق بالتعاقب الجيولوجى

الخاص بالكائنات العضوية

ما يتعلق بالظهور البطيء والمتعاقب الخاص بأنواع حية جديدة - ما يتعلق بمعدلات تغييرهم المختلفة - بمجرد فقدان أنواع حية فإنها لا تعود للظهور- مجموعات الأنواع الحية تتبع نفس القواعد العامة فى ظهورها واختفائها مثلما يفعل النوع الحى المنفرد - ما يتعلق بالانقراض - ما يتعلق بالتغيرات المتزامنة فى أشكال الحياة فى جميع أنحاء العالم - ما يتعلق بصلات القرابة الخاصة بالأنواع المنقرضة تجاه بعضها الآخر وتجاه الأنواع التى مازالت حية - ما يتعلق بالحالة التى وصل إليها تطور الأشكال الحية القديمة - ما يتعلق بالتعاقب الخاص بالأنماط الحية نفسها فى داخل المناطق نفسها - ملخص الباب السابق والباب الحالى

537

الباب الثانى عشر - التوزيع الجغرافى

التوزيع الحالى لا يمكن تفسيره على أساس الاختلافات الموجودة فى الظروف المادية - الأهمية الخاصة بالحوارج - الصلة العرقية الخاصة بالمنتجات التابعة لنفس القارة - المراكز الخاصة بابتداء الكائنات - الوسائل الخاصة بالانتشار عن طريق التغيرات الخاصة بالمناخ و الخاصة بمستوى اليابسة ، والخاصة بالوسائل العارضة - الانتشار فى أثناء العصر الجليدى - العصور الجليدية المتناوبة فى الشمال وفى الجنوب

581

الباب الثالث عشر - التوزيع الجغرافى (تكملة)

التوزيع الخاص بمنتجات المياه العذبة - ما يتعلق بالقاطنين فى الجزر الأوقيانوسية - عدم الوجود الخاص بالحيوانات البرمائية والخاص بالحيوانات الثديية الأرضية - ما يتعلق بعلاقة القاطنين فى الجزر مع هؤلاء المستوطنين لأقرب أرض قارية - ما يتعلق بالاستعمار القادم من أقرب مصدر وما يتلوه من تعديل - ملخص الباب السابق والباب الحالى ..

627

**الباب الرابع عشر - الصلات العرقية المتبادلة الخاصة
بالكائنات العضوية : علم التشكل : علم الأجنة: الأعضاء
الأثرية غير المكتملة**

التصنيف ، مجموعات تابعة لمجموعات - المنظومة الطبيعية - القواعد
والصعوبات الموجودة في التصنيف ، مفسرة على أساس النظرية الخاصة
بالنشوء مع التعديل - التصنيف الخاص بالضروب - النشأة تستخدم
دائماً في التصنيف - الصفات المتناظرة أو المتهاينة - الصلات العرقية،
عامة ، ومعقدة ، ومتشعبة - الانقراض يميز بين ويحدد المجموعات - علم
التشكل ، بين الأعضاء التابعين لنفس الطائفة ، وبين الأجزاء الخاصة
بنفس الفرد - علم الأجنة ، قوانينه ، وتفسيره عن طريق تمايزات ليست
طارئة عند عمر مبكر ، ويتم توريثها عند عمر متطابق - الأعضاء الأثرية
غير المكتملة : تفسير أصولها - ملخص 659

الباب الخامس عشر - استرجاع وختام

استرجاع للاعتراضات على نظرية الانتقاء الطبيعي - استرجاع للملابسات
العامة والخاصة التي تؤيدها - أسباب الإيمان السائد بثبات الأنواع
الحية - المدى الذي قد تمتد إليه نظرية الانتقاء الطبيعي - تأثيرات
اتباعها على دراسة التاريخ الطبيعي - ملاحظات ختامية 737

مسرديات الكتاب

779 مسرد المصطلحات العلمية الرئيسية المستخدمة في المجلد الحالى

857 مسرد للسيرة الذاتية المختصرة للعلماء الواردين بالكتاب

879 مراجع الترجمة

إلى سورية

التي بدون صبرها وتشجيعها

ما كان هذا العمل قد تم إنجازه

مجدى

تعليقات بعض المفكرين على الكتاب

"أما بالنسبة إلى العالم المادى ، فإنه من الممكن لنا أن نصل على الأقل إلى هذا الحد : نحن نستطيع أن نستوعب أن الوقائع قد تم إحداثها ، ليس عن طريق تدخلات منعزلة خاصة بالقوة الإلهية ، تمت ممارستها فى كل حالة بذاتها ، ولكن عن طريق التطبيق لقوانين عامة "

Whewell: Bridge water Treatise

"هويل : رسالة بريدج ووتر"

* *

"المعنى الجلى الوحيد لكلمة "طبيعى" قد أعلن وترسخ أو استقر ، فنظرا لأنه بقدر ما هو طبيعى فإنه يستلزم ويحتاج إلى عامل عاقل لجعله هكذا ، أى ليؤثر عليه بشكل مستمر ، أو فى أوقات معينة ، بينما ما تقوم به العوامل فوق الطبيعية و الإعجازية هو التأثير عليه لمرة واحدة "

* *

Butler :Analogy of Revealed Religion الموحاة بالديانة الموحاة

"وهكذا نخلص إلى أنه لا داعى لأى إنسان بدافع من وهم كاذب بالرصانة ، أو تطبيق سقيم للاعتدال ، لأن يفكر أو يعتقد ، أنه بإمكان أحد الأشخاص بلوغ أقصى مدى فى البحث أو بلوغ أقصى مدى فى الدراسة فى كتاب كلمة الرب ، أو كتاب أفعال الرب ، سواء فى اللاهوت أو الفلسفة ، ولكن الأحرى بالإنسان أن يسعى إلى التقدم والبراعة بلا حدود فى كليهما "

Bacon : Advancement of learning

بيكون : التقدم الخاص بالمعرفة

تقديم الكتاب

سمير حنا صادق

فى سنين المراهقة المبكرة ، زرت حديقة الحيوان ولاحظت أن النعام يثنى ركبته إلى الأمام . ذهبت بهذه الملاحظة إلى مدرس علم الأحياء فلفت نظرى إلى أن ما ظننته ركبة هو فى الحقيقة رسغ الرجل ، وأن عظام مشط القدم بعد ذلك تلتحم ببعضها البعض لتكون ما يشبه الساق وتعجبت .

ثم تعلمت أن كل عظمة فى الحصان والأرنب والكلب والأسد لها ما يماثلها فى الإنسان ، بل وعلمت فى الكبر أن حفريات الحوت **Basilosaurus isis** التى اكتشفت فى صحراوات الفيوم منذ سنوات قليلة والتى أرسلت إلى أمريكا لدراستها ولم تعد حتى الآن ، علمت أن حفريات هذه الحيتان لها أربعة أقدام صغيرة تستعمل فى الاتصال الجنسى .

ثم تعلمت ما هو أهم من ذلك : أن كل الكائنات الحية تنقل خواصها الوراثية على شريط من مادة تدعى دنا (**Desoxyribo nucleic acid (DNA)** . وأن الجهاز المسئول عن قراءة الدنا فى الشجر يستطيع أن يقرأ شفرة الدنا فى الخلايا البشرية . وأنه يمكن (وقد تم بالفعل) تغيير الدنا فى خلايا بكتريا البراز المتواضعة **E.coli** لتتحول إلى مصانع للأنسولين البشرى الذى حل مكان الأنسولين الذى كنا نستخلصه من بنكرياس الخنازير . وتعلمت أن خلية خميرة البيرة " تمثل " (**metabolizes**) السكر بنفس العمليات التى يمثله بها الإنسان .

لعل أكثر العلوم أهمية للإنسان الآن هو علم البيولوجيا . فبعد أن حقق الإنسان طفرات هائلة فى تعرفه على ما حوله فى ميادين الفيزياء والفلك ، أصبح من حقه فى المعرفة أن يعرف مزيدا عن نفسه ، والطريق إلى ذلك هو التفهم الأعمق لعلوم البيولوجيا .

ويعتقد جانب كبير من المفكرين أنه إذا كانت العقود الماضية هى عقود رقائى السيليكون **Microchips** التى يصنع منها الكمبيوتر والتى أدخلتنا فيما نطلق عليه اسم " عصر المعلومات " ، فإن العقود المقبلة هى عقود الهندسة الوراثية **Genetic engineer-ing** والبيولوجيا الجزيئية **Molecular biology** والبيوتكنولوجيا **Biotechnology** عموما ، وهى كلها ترتبط بعلم البيولوجيا .

ومنذ ما يزيد على قرن ، قدم داروين ، بعد رحلة طويلة على سفينة الأبحاث "بيجل **Beagle**" تلتها دراسة مستفيضة لمدة عشرين عاما، نظريته التى جعله ، بما صنع للبيولوجيا ، يعادل كبلر وجاليليو بما صنعا للفلك ، ونيوتن وأينشتين بما صنعا للفيزياء .

ويقول ناعوم تشومسكى ، عالم اللغويات المعروف ، فى أحد أحدث كتبه "إن تقدم شعب من الشعوب يمكن أن يقاس بمدى تفهمه للتطور". ويقول ستيفن هوكنز ، أهم علماء الفيزياء فى العصر الحديث ، فى كتابه الرائع " تاريخ موجز للزمن(*)" ، إنه "من المستحيل تفهم علم الفيزياء الآن دون أخذ تطور المخ البشرى وخواصه الأساسية ومقدراته التى تكونت خلال ملايين السنين من الانتخاب الطبيعى بالاعتبار " .

وتخصص أهم متاحف العالم ، كمتحف التاريخ الطبيعى فى كنزنجتون بلندن ، ومتحف سميثسونيان بواشنطن ، قاعات ضخمة لشرح التطور البيولوجى وآلياته. إذ لم يعد التطور نظرية ، فكل الدلائل تؤكده ، ولم توجد ظاهرة واحدة تنفيه ، وقد أصبح موضعه فى العلم مثل كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، وأصبح من

(*) الذى ترجمه الصديق الأستاذ الدكتور مصطفى إبراهيم فهمى .

يرفضه كمن يرفض هذه الحقائق وكل الخلافات التي تدور حول التطور إنما تناقش آلياته.

وتكمن أهمية التطور البيولوجي في أنه ، إلى جانب قيمته العلمية المطلقة ، يضع أساسا صلبا للعديد من المعلومات المهمة اللازمة لرخاء البشر وسعادتهم وصحتهم : ففي مجال العلوم الطبية مثلا لا يمكن أن نتفهم بعمق علوما مثل علم التشريح **Anatomy** ، أو علم الكيمياء الحيوية **Biochemistry** ، أو علم وظائف الأعضاء **Physiology** ، أو علم الأمراض **Pathology** ، أو علوم الوراثة **Genetics** بدون تفهم التطور البيولوجي . وتصدق هذه المقولة على العديد من العلوم الأخرى كعلم الاجتماع **Sociology** ، وعلم اللغويات **Linguistics** ، ناهيك عن علم الإنسان **Anthropology** .

وعلاوة على المحتوى العلمي للنظرية ، فإنها تثبت مفهوما مهما بل وخطيرا : وهو أن التطور المستمر أو التغيير إلى الأفضل والأحسن والأكثر مواكبة للبيئة حقيقة واقعة لا بد من التعايش معها .

ولد شارلز روبرت داروين **Charles Robert Darwin** (١٨٠٩ - ١٨٨٦) في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩ . كان والده طبيبا معروفا وكانت والدته من أسرة غنية . لم يكن تشارلز حتى سن السادسة عشرة يبشر بأى نجاح مهني ، فقد كان ، كما وصفه والده " يهوى الصيد ومطاردة الفئران والكلاب " . حاول والده إلحاقه بكلية الطب بأدنبرة ، ولكن تشارلز ترك أدنبرة بمجرد رؤية جثث الموتى وغرف العمليات . واتخذ والده قرارا بأن يصبح ابنه من رجال الدين ، فأرسله إلى كامبريدج للحصول على المؤهل اللازم . أدى تشارلز واجبه نحو والده واندمج في الدراسة بغير حماس واجتاز الامتحانات اللازمة وحصل على المؤهل .

تعرف داروين في أثناء دراسته بكامبريدج على العديد من علماء النبات والحيوان ، وقرأ الكثير من الكتب في هذه المواضيع .

وجاءت لداروين فرصة عمره : فقد تقدم للانضمام كباحث بدون مرتب إلى طاقم سفينة الأبحاث " بيجل " وقبل طلبه . وبعد اعتراض من والده ، ووساطة من والدته وأسرتها ، حصل داروين على موافقة مترددة من الوالد .

بدأت رحلة البيجل في ٢٧ ديسمبر ١٨٣١ ، في الجزء الأول من الرحلة قرأ داروين كتابا لعالم الجيولوجيا الشهير سير شارلز لايل Sir Charles Lyell (١٧٩٧ - ١٨٧٥) . كان لايل يحاول أن يثبت في كتابه أن وديان وسهول الأرض قد نتجت عن الأمطار والرياح والزلازل والبراكين . وقد كانت هذه الحقائق العلمية البسيطة تدخل في تلك الأيام في مجال الكفر .

في ١٦ يناير ١٨٣٣ رست البيجل في ميناء برايا Praia في جزر كيب فرد Cape Verde Islands ورأى داروين في هذه الجزر لأول مرة في حياته شجر التمر الهندي والموز والنخيل . وعندما بدأ داروين في دراسة جيولوجيا المنطقة ، لاحظ في أحد التلال المواجهة للبحر طبقة بيضاء ترتفع مئات الأمتار عن سطح البحر وتمتد أميالا عديدة . وعندما تفقد هذه الطبقة وجدها مليئة بالأصداف البحرية المماثلة للأصداف الموجودة في قاع البحر في تلك المنطقة . وهكذا تأكد داروين بنفسه مما وصفه لايل في كتابه : وهو أن هذه المنطقة المرتفعة كانت في وقت من الأوقات غارقة في قاع البحر ، وثبت في ذهن داروين أن البيئة المحيطة في حالة تغيير مستمر .

سارت البيجل في طريقها إلى البرازيل وهي تسحب خلفها شبكة تجمع الحيوانات والنباتات البحرية التي كان داروين يضعها كل يوم محل دراسته المتعمقة . ويحفظ منها مئات النماذج لترسل لإنجلترا لمزيد من الدراسة .

في مجارى الأنهار في الأرجنتين مر داروين بتجربة مهمة : فقد اكتشف حفريات حيوانات منقرضة . اكتشف أن أحدها (توكسودون Toxodon) يعادل الفيل حجما ويشابه الخرثيت في الأسنان ويمائل فرس النهر في وضع الأذنين والعينين والأنف ، مما يشير إلى أن هذا الحيوان كان يعيش في الماء . واكتشف أيضا هياكل حيوان ضخّم يشابه الأرماديلو Armadillo الحديث الصغير الحجم . واكتشف أيضا أسنانا لحصان مما يثبت أنه كان من الحيوانات القارضة ولكنه انقرض إلى أن وصل

المستوطنون الإسبان بالحصان العربى . وكتب داروين فى مذكراته " إن هذه حقيقة مذهلة فى تاريخ الثدييات : أن يثبت أن بعضها قد وجد ثم اندثر " .

ووصلت السفينة إلى ميناء تيرا ديل فويجو **Terra del Fuego** قرب القطب الجنوبى ورست هناك . ووجد داروين فى هذه المناطق نوعا غريبا من البشر ، يسير عاريا فى مياه شديدة البرودة . وسجل فى مذكراته " أن هذا النوع من البشر مزود باستعداد بيولوجى لتحمل هذا العذاب " . وبالفعل ، ثبت فيما بعد ارتفاع معدل الأيض (التمثيل الغذائى) عند هذا الجنس ليساعده على تحمل درجات الحرارة المنخفضة .

واكتسب داروين فى زيارته لجزر جلاباجوس **Galapagos Islands** كثيراً من المعلومات . فهذه الجزر معزولة تماما عن باقى القارات ، ويتكون سطحها من صخور بركانية وهى قليلة النباتات . ووجد داروين فى هذه الجزر نوعا غريبا من السحالى لا يوجد مثيل له فى أى مكان آخر . فقد كان حيوانا بحريا يعيش على النباتات المائية . واكتشف أيضا نوعا ضخما من السلاحف التى يصل وزن بعضها إلى ما يزيد على مائة كيلو جرام ، ووجد أن لكل جزيرة من الجزر سلاحفها الخاصة المميزة، ولعل أجمل اكتشافاته هو أنه فى الجزر التى لا توجد بها إلا نباتات مرتفعة الأوراق فإن نوع السلاحف الموجود بها له فى ظهورها الصلبة (القصعة) فتحة فوق الرقبة تمكنها من رفع رأسها لقطف أوراق النباتات المرتفعة .

كان أكثر ما يقلق داروين هو طريقة وصول هذه النباتات والحيوانات إلى هذه الجزر البعيدة المنعزلة عن القارات الرئيسية ، فقد زعم علماء النبات أن بنور النباتات لا يمكن أن تعيش فى الماء المالح لمدة طويلة. فأجرى داروين تجارب على بنور بوضعها فى ماء مالح بارد لمدة طويلة ، ووجد أنها تنمو طبيعيا لو زرعت بعد ذلك ، وبذلك أثبت إمكان انتقال بنور النباتات مع تيارات المحيط . بل أنه أطعم بعض هذه البنور لأسماك وأطعم الأسماك لبعض الطيور المهاجرة ، ولاحظ داروين أيضا أن أقدم الطيور المهاجرة عليها الكثير من الحشائش التى يعلق عليها أنواع من القواقع تهاجر معها من مكان إلى مكان . ولعل أجمل ما لاحظته داروين هو أنه يستحيل على الضفادع والثدييات اجتياز المحيطات بمثل هذه الطرق . وبالفعل ، فإن هذه الجزر كانت خالية تماما من هذه الحيوانات .

فى ٢ أكتوبر ١٨٢٦ بعد رحلة دامت حوالى خمس سنوات عادت البيجل إلى شواطئ إنجلترا . كانت مجموعات داروين من الحيوانات والنباتات والمذكرات قد سبقته إلى منزله ، وكان سنه فى ذلك الوقت ٢٧ سنة . عكف منذ وصوله على دراسة مجموعات ومذكراته وبدأ يفكر فى نظريته التى أوقفت علم البيولوجيا على قدميه ، وأصدر كتابه "عن أصل الأنواع" **On the Origin of Species** بعد ما يزيد على عشرين عاما من الدراسة .

وخلال دراسته لهيكل ضخم لأكل النمل **Anteater** لاحظ الشبه الواضح بين هذا الحيوان الضخم المنذر وبين أكل النمل الحديث المعاصر ، فقد كان الحيوان المعاصر نسخة طبق الأصل من الحيوان المنقرض . وسجل داروين فى مذكراته بعد ذلك بسنين عديدة أن هذه هى اللحظة التى واجه فيها فكرته الثورية . وأثناء كتابة ونشر يوميات رحلة البيجل لم يستطع داروين أن يتجاهل التشابه العجيب بين الأنواع ، ولهذا كان إصراره على التعبير " تغيير الأجناس **Transmutation of Species** " كعنوان لمقالات عديدة قام بنشرها .

لم يكن داروين أول من افترض أصلا واحدا للحياة : ففى القرن السادس قبل الميلاد ، قال طاليس **Thales** بعد دراسته للحياة فى بحر إيجه أن " مياه البحر هى الأم التى نشأت منها كل أنواع الحياة " وقال زميله وصديقه أناكسمندر **Anaximander** "إن الحياة قد نشأت من الطين على شكل سمكة مزودة بأشواك خارجية " . بل وقد افترض أرسطو أن الحياة قد بدأت بالنبات وتطورت إلى " النباتات الحيوانية " ثم الحيوانات ثم بخطوات متطورة وثيدة إلى الإنسان .

وخلال الثورة الفرنسية كان عالم الأحياء الفرنسى جان باتيست بيير أنطوان دى مونييه ، فارس لامارك **Jean-Baptiste Pierre Antoine de Monet, Chevalier de La-marck** (١٧٤٤ - ١٨٢٩) يقوم بدراسة الحيوانات اللا فخرية ويحاول تقسيمها إلى فروع متجانسة . فاكتشف من دراساته التى امتدت إلى الفقرات ، أن مظاهر الحياة تتطور تدريجيا من نوع إلى نوع . وأصدر بيانا لأهل باريس بهذا المعنى . وافترض لامارك أن التغيير الذى ينتاب الأشكال المختلفة من الحياة ينتج مباشرة عن ضغوط

البيئة . فالزرافة مثلا التي لا تجد غذاها إلا فى أوراق الأشجار المرتفعة ، تمتد رقبتها وتنتج صغارا لها رقبة طويلة ، أو بمعنى آخر ، أن الخواص المكتسبة يمكن توريثها . وحسب هذا الوهم ، فإنه من الممكن بعد قطع ذيل مئات من الأجيال من الفئران أن تنتج فئراناً بدون ذيل . وهذا طبعا غير حقيقى . فنحن الساميين أدرى الناس بهذا ، فرغم مئات الأجيال من عملية "ختان الذكور" لم ننجح فى إنتاج أطفال لا يحتاجون إلى هذه العملية !

كانت الأدلة على إمكان تغيير الحيوانات واضحة . فقد أوضحت الدراسة لداروين ما أمكن تغييره من أنواع الكلاب والماشية والنباتات ، وإمكانية "إحداث" تغيير فى المملكة الحيوانية والنباتية . ولكن ما حيره هو كيفية حدوث ذلك فى الطبيعة ، إلى أن خطرت له يوما فكرة "الصراع" . لم يكن داروين يقصد بالصراع صراع المخالب والأنياب فقط ، إنما قصد صراع نبات على حافة الصحراء أو فى المناطق الثلجية الباردة للبقاء على قيد الحياة ، وبدأ يعرض فكرته فى أوراق صغيرة ينشرها استعدادا لكتابه .

تأخر داروين فى نشر كتابه سنين عديدة ، فقد اكتشف مثلا فى وقت ما أنواعا من القواقع الدقيقة **Barnacles** تعيش فى شيلى لم تكن قد وصفت فيما قبل . وأدى دأبه فى البحث العلمى إلى العمل لمدة ثمانى سنوات متواصلة درس فيها ما يقرب من عشرة آلاف من هذه القواقع قبل أن يفكر فى أن يجيء نكراها فى كتابه .

وكان من الممكن أن يتأخر نشر كتابه أكثر من ذلك ، ولكن فى عام ١٨٥٤ وصلتته مقالة من صديق يعمل فى الملايو ويدعى ألفريد رسل والاس **Alfred Russel Wallace** (١٨٢٣ - ١٩١٣) بعنوان " عن اتجاه الأشكال المختلفة للحياة إلى التباعد المستمر عن النوع الأسمى **On the tendency of varieties to depart indefinitely from the original type** " واكتشف داروين أن والاس قد تمكن فى صفحات قليلة من تلخيص أهم ما وصل إليه هو فى دراساته المستفيضة التى استمرت طويلا .

صعق داروين وحاول البعض إقناعه بتأجيل نشر ورقة والاس إلى أن ينشر كتابه ، ولكنه قال إنه يفضل حرق كتابه على أن يفعل هذا العمل الدنى .

واتفق أهم العلماء فى ذلك الوقت على أن تقرأ ورقة والاس مع ورقة لداروين كان قد نشرها فى عام ١٨٤٤ (قبل عشر سنوات) يقدم فيها بعض أفكاره .

وفى محاولة لإرضاء أصدقائه انتهى داروين سريعا من كتابه "عن أصل الأنواع" ونشر الكتاب فى نوفمبر ١٨٥٩ وأثار الكتاب زوبعة .

كانت نظرية داروين مبنية على حقائق واضحة لا جدال فيها وهى :

- أن كل أفراد الكائنات الحية تختلف عن بعضها البعض . فلا يوجد إنسان مشابه للآخر تماما ولا توجد يمامة أو ضفدعة أو بقرة مطابقة للآخرى تماما .

- أن كل الكائنات الحية تتكاثر بمتابعة هندسية (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦) .

- أنه رغم هذه القاعدة فإن عدد أفراد كل نوع من الأنواع يبقى ثابتا إلى حد ما .

- أنه فى ظل هذا التكاثر هناك صراع على المكان والغذاء والبقاء . وقد أطلق

داروين على هذا الصراع اسم "الانتخاب الطبيعى **Natural selection**" ولكنه قبل أيضا التعبير الذى أطلقه صديقه هربرت سبنسر **Herbert Spencer** (١٨٢٠ - ١٩٠٣) البقاء للأصلح "**Survival of the fittest**" .

- أن هذا الانتخاب الطبيعى يؤدى إلى "تراكم الخواص الأكثر ملاءمة للبيئة المحيطة" ، فإذا استمر لآلاف الملايين من السنين فإنه كفيل بإحداث التطور. وبعبارة أخرى ، وبعودة إلى مثال الزرافة ، فإن الزرافات تولد باختلافات ضئيلة فى طول الرقبة ، ولكن فرص أصحاب الرقبة الأطول فى الغذاء والمعيشة وبالتالي فى التكاثر أكبر . ومن هنا فتدريجيا وجيلا بعد جيل خلال ملايين السنين ، يتزايد طول الرقبة إلى أن يصل لما هو عليه الآن .

كان علم البيولوجيا قبل رحلة البيجل سداحا مداحا مباحا لكل مغامر وأفاق . وكان يقتصر على الوصف الخارجى للمخلوقات مع إضافة الكثير من التوابل الخرافية . فكانت هناك مخلوقات برءوس متعددة ، وطيور بأربع أرجل ، وتنينات تخرج من فمها النيران . وكان يمارس هذا العلم فى الكثير من الأحيان أمراء وملوك هواة يلهون به ليملاؤوا فراغ حياتهم وليضيفوا مجموعاتهم ومذكراتهم إلى ما يجمعونه من

مهرجى البلاط وعازفى الموسيقى . وبلغت بهم الجراءة فى تحدى الحقيقة أن زعم
أحدهم أنه أثبت أن طيور الأوز المهاجر تنمو على الأشجار فى مناطق بعيدة .

هكذا كان علم البيولوجيا قبل رحلة البيجل .

وبعد رحلة البيجل تأصل العلم ووضع على قواعده الثابتة ، وربطت المعرفة بين
أشكال الحياة المختلفة ، وأخذت النظرية من العلم أدلة جديدة ، وأخذ العلم من النظرية
توجهها سليما ، ونمت شجرة المعرفة ، وأثمرت كل ما نراه من تكنولوجيات متقدمة من
زراعة الأعضاء إلى عمليات القلب المفتوح إلى دراسات البيئة إلى الهندسة الوراثية .

فكل مريض تجرى له عملية فى القلب مدين لرحلة البيجل .

وكل مريض يتعاطى أنسولين بشرى لعلاج السكر مدين لرحلة البيجل .

وكل مريض يتعاطى أنترفيرون مدين لرحلة البيجل .

وكل مريض تنقل له كلى أو كبد أو قلب أو رئة مدين لرحلة البيجل .

وهكذا يكون حب الإنسانية والتفانى فى خدمتها .

وبعد .

يسعدنى ويشرفنى أن أقدم ترجمة الأستاذ الدكتور مجدى المليجى لهذا الكتاب
الجميل الرائع .

وأنا أعلم ما بذله المترجم من مجهود خلال شهور طويلة ، وأنا أعلم أيضا مدى
صعوبة ترجمة مادة علمية بما تحتويه من تعبيرات جديدة . وقد اجتهد الأستاذ
الدكتور مجدى المليجى فى إيجاد ما يعتقد أنه يعبر عن المعنى وكان فى هذا أمينا وحرصاً .

أرجو أن يكون فى هذا الكتاب ما يرتقى بحبنا للعلم ، وما ينفع أمتنا ، ويقوى
قوميتنا لنجتاز ما نمر به من محن .

مقدمة المترجم

كل كلمة كتبها "داروين" وكل التعبيرات التي استخدمها في كتابه موجودة في هذا المجلد. وقد تعمدت التزام الأمانة العلمية التامة في ترجمة كتاباته، كما وضعها "داروين" في منتصف القرن التاسع عشر.

هذا الكتاب يتناول نشأة الأنواع الحية في مجموعها، ولم يأت فيه ذكر الإنسان أو القرد، ولم يتم التعرض فيه لما يتشدد به الكثيرون من أشباه العلماء الذين يدعون أنه قد جاء في هذا الكتاب وهذه النظرية ما يفيد أن الإنسان قد كان في الأصل قرداً، وربما يرجع ذلك إلى أن معظمهم لم يقرأ الكتاب بلغته الإنجليزية، ولم تتوافر لديه فرصة الاطلاع على نسخة معربة منه - وأنا أرجو بمجهودى المتواضع أن أقوم بوضع هذا الكتاب بين أيديهم وأيدي المثقفين عامة لأعفيهم مشقة القراءة بلغة أجنبية كتبت ببلاغة أهل القرن التاسع عشر، وأتمنى أن يتيح لى الزمن الفرصة لى أقوم بترجمة كتاب "داروين" الثانى الذى قام بنشره فى عام ١٨٧١ بعنوان "نشأة الإنسان" **The Descent of man** فإنه هو الذى تعرض فيه للعلاقة بين الإنسان والقرد، وبعد قراءته فقد يحق لهؤلاء المتشددىن أن يقوموا بنقد ومناقشة ما جاء بكتابات "داروين" ونظرياته.

ولقد تبين لى بوضوح فى أثناء قيامى بترجمة هذا المجلد الكم الهائل من الأخطاء الشائعة والخلط بين المعانى الموجود فى تعريب المصطلحات العلمية، وأنا أشير هنا بالتحديد إلى علم الأحياء المتضمن علم الحيوان وعلم النبات، علاوة على علم طبقات الأرض، وعدم وجود تعبيرات عربية محددة لمعظم المصطلحات العلمية الجارى تداولها فى مؤسساتنا العلمية، ويزيد الطين بلة الخلط الموجود ، والذى يزيد ، فى التعبيرات التى تستخدم فى مصر وتلك التى تستخدم فى بلاد عربية أخرى، بناء على الاجتهادات الخاصة بعلمائها، وبدون التنسيق مع باقى المتواصلين باللغة العربية. كل ذلك علاوة على النقص المريع الموجود فى المعاجم المختصة بتعريب المصطلحات الإحيائية العلمية

من اللاتينية، والتي نراها قد استقرت بشكل ثابت في جميع اللغات الأوروبية. وحتى المنشورات الخاصة بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمتضمنة على مجهودات أعضائه العظماء في ترجمة كافة المصطلحات الأجنبية، فإنني اكتشفت أنها ليست في متناول يد جميع العلميين أو العامة، وليست متوافرة بالمكتبات سواء الجامعية أو الخاصة.

ومن أجل التغلب على هذه الصعوبة فقد قمت بالاستعانة في تعريب المصطلحات التي وردت بالكتاب، بما توافر لي من مراجع ومعاجم، وما لم أجده فيها حاولت العثور عليه في مجهودات الأستاذ/ إسماعيل مظهر الذي عانى الكثير كما هو واضح في ترجمة هذا المجلد في مطلع القرن العشرين، وتلك المصطلحات التي قمت باستعارتها منه وضعت أمامها في الهوامش نجمتين "*" لحفظ حقه فيها، ولكنني وجدت نفسى مضطرا إلى التطوع بالقيام بترجمة بعض المصطلحات، أو التعديل في بعضها الآخر بما يحمل معناها الحقيقي، وليس انسياقا مع المقولة بأنه من الأسلم استخدام " خطأ شائع " ، وهذه الاجتهادات من جانبي قمت بوضعها في الهوامش وأمامها نجمة واحدة " * " ، وذلك لكي أكون مسئولا عنها أمام أى من العلميين الراغبين في مناقشتها.

وأنا أرجو أن أكون قد قمت بدورى في الترجمة ، وأتمنى أن يقوم غيرى بدوره في قراءة هذا المجلد والتفكر فيما جاء به، فإن نظرية " داروين " الخاصة بنشأة الأنواع الحية، وتطورها، وارتقائها عن طريق التنازع من أجل البقاء، تماثل في قلبها للمفاهيم الجامدة القديمة، ما قام به " جاليليو جاليلي " منذ ما يربو على النصف ألفيه، عندما نادى بكروية الأرض وورانها حول الشمس. فإن كليهما يمثل إحدى العلامات المهمة في سبيل توجيه العقل البشرى، نحو التفكير العلمى السليم إلى ما هو مفيد لتقدم البشرية، ونبذ المعتقدات المتجمدة التي كانت دائما سببا في تأخرها ، وقد استقر فى الأذهان نهائيا ما نادى به "جاليليو" ولكن يبدو أن الدور لم يحن بعد على ما قام "داروين" بإثباته، فلا زالت لاجاة المتشككين ومتحجري التفكير تحيط بنظريته، بالرغم مما نراه حولنا من تقدم علمى مبنى عليها.

عن المصطلح .. وحق الاجتهاد

كان التصدى لترجمة هذا الكتاب الذى يعتبر من أهم الكتب فى تاريخ العلم حلاً بطاردنى طوال حياتى . وكان أصعب ما فى ذلك الأمر ، هو ما يراه كافة المترجمين للكتب العلمية ، من صعوبة المصطلحات التى وردت به . وبعد عدة طبعات من الكتاب الأسمى والإصدار الثانى له ، تقدم كثير من القراء ، حتى للنسخ المكتوبة باللغة الإنجليزية ، بالشكوى من أن الكثير من المصطلحات التى تم استخدامها فيه كانت مبهمه ، أو غير معلومة لهم على الإطلاق . ولهذا السبب فقد قام "السيد و. س. دالاس" ، بالتبرع بوضع ما ارتأه من مصطلحات صعبة ، أو مبهمه ، وردت فيه ، فى مسرد ، تمت إضافته للطبعات اللاحقة من الكتاب ، مع ما يقابلها من شرح بلغة مبسطة ، لتوصيل مفهومها إلى القارئ بهذه اللغة ، ولا شك فى أن أى ترجمة تمت لهذا الكتاب إلى اللغات الأخرى ، قد تضمنت على ترجمة مقابلة لهذا المسرد ، وهذا ما قد قمت به فى الترجمة العربية الحالية .

ولكننى فى غمار قيامى بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ، وجدت أن هناك الكثير من المصطلحات الأخرى ، التى قد يستعصى فهمها على القارئ العادى ، وقد يختلط فهم معناها ، حتى على القارئ المتخصص ، وهذه المصطلحات لم يسبق ترجمتها إلى اللغة العربية ، وقد اضطلعت بمهمة الاجتهاد بإيجاد الترجمة لها ، وذلك بالرجوع إلى أصولها الإنجليزية أو اللاتينية ، وأرجو أن يكون قد أصابنى الصواب فيها ، وذلك بدلاً من نسخ منطوقها بالتعبيرات اللاتينية ، كما اعتاد بعض المترجمين ، لإراحة بالهم ، ولتجنب الانتقادات والاعتراضات التى قد تصدر من الآخرين ، كما هو متوقع .

وقد وجدت أيضاً فى سياق عملى ، أن هناك العديد من المصطلحات ، التى قد استقرت ترجمتها الخاطئة ، أو المحرفة ، أو غير الدقيقة ، وغير القادرة على حمل

المعنى كاملاً ، أو التي من الممكن أن تختلط مع مصطلحات أخرى ، وقد قمت أيضاً بالمجازفة بالتمحيص فيها واستبدالها ، بالرغم من تأكدي مما أجلبه على نفسي من تجنب السير والاستطراد في استخدام مصطلح خاطئ ، ولكنه أصبح شائعاً ، وقد أوردت في الهوامش شرح الأسباب التي دعنتني إلى هذا التصحيح ، الذي أرجو أن أكون قد وفقت فيه .

وأنا أرجو أن يكون لاجتهادي في هذا المجال ، نصيب من العناية من قبل المتخصصين ، فقد ينتج عن اختلاف وجهات النظر ، ما يفيد التصحيح لبعض المصطلحات ، وإيجاد صيغة جديدة للمفاهيم العلمية المكتوبة باللغة العربية ، كمجهود متواضع من جانبي ، لزيادة ثرائها ، والحفاظ على مواكبتها للإنجازات العلمية الحديثة .

وقد قمت في سبيل ذلك بكتابة مسرد إضافي ، للقارئ باللغة العربية ، يتضمن المصطلحات الغربية ، والاجتهادات التي قمت بها في ترجمة بعض المصطلحات ، والموجودة في الهوامش السفلية لصفحات هذا المجلد . ولتجنب وضع مسردين منفصلين للكتاب ، فقد قمت بإدماج المسرد الأصلي الموجود في الكتاب مع المسرد الذي قمت بإضافته ، وإدماج ترتيبهما معاً حسب الأبجدية الإنجليزية ، مع الإشارة والتمييز للإضافات والاجتهادات الخاصة بي بوضع علامة (*) أمام كل منها ، وذلك لتحديد مسؤوليتي عنها ، ووضعها في المكان المحدد لها ، والتي أتمنى أن تلقى قبولاً ، أو تحرك المياه الراكدة على الأقل .

وكل كلمة أو اصطلاح جديد ، أو غير معتاد ، ورد في هذا المجلد ، قد تم شرح الأسباب التي دعنتني لاختياره ، أو تفضيله ، سواء في الهوامش السفلية للصفحات أو في المسرد ، ولقد استغرق ، على سبيل المثال ، الشرح لاختياري لكلمة "تمايز" لترجمة مصطلح **Variation** صفحة كاملة ، وكذلك تم الشرح بالتفصيل لأسباب استخدامي لمصطلح نحل الملاجئ لترجمة **Hive-bees** ، بدلاً من نحل الخلايا لاعتقاد عدم التفرقة في الترجمة لكلمتي **Cell , Hive** وتسمية كلاهما "خلية" ، مما يسبب البلبلة فيما بينهما ، وخاصة عند تكرارهما سوياً في الموضوع نفسه ، أو في الصفحة نفسها ، أو في السطر ، وإنني قد فضلت كلمة انتقاء لترجمة **Selection** ، حيث إن اختيار كلمة

انتخاب لا تترك كلمة أخرى لترجمة **Election** ، وقمت بقصر ترجمة **Genus** على "طبقة" و **Race** إلى "عرق" ، لتخصيص كلمة "جنس" لترجمة **sex** . وقمت أيضاً بوضع جدول آخر في صفحة المسرد لترجمة المصطلحات الخاصة بالعصور المختلفة لعلم طبقات الأرض . وهذا المسرد موجود في آخر الكتاب .

وكل ما أرجوه من العلماء المتخصصين الأفاضل هو تقليب الفكر فيما قمت باستحدثه أو التصرف فيه من مصطلحات ، فإنني إن أصبت نالني عن ذلك ثوابان ، أما إذا أخطأت فإنه يتوجب عليّ الاعتذار ، ولكن يتبقى لي ثواب واحد .

المرجم

السيرة الذاتية للمؤلف

جاء في كتاب " تشارلس داروين : حياته ورسائله" الذى نشره ابنه " فرانسيس داروين" Francis Darwin فى عام ١٨٨٨ ما يلى :

هو الابن الخامس "لروبرت وارنج داروين" ، وثانى أبنائه من زوجته الثانية "سوزان ودچوود" Suzan Wedgewood ، الذى كان طبيبا مشهورا مما وفر له حياة منعمة ومستقرة ، وكانت أمه كريمة المحتد وذكية وكانت ذات فضل فى تشجيعه على البحث والمعرفة مع أنها توفيت وهو فى الثامنة من عمره ، ويذكر عنها أنها أعطته زهرة عند ذهابه إلى المدرسة فى يوم ما ، وأخبرته أنه يستطيع أن يعرف صفة النبات بالنظر إلى داخلها .

أما جده فكان " الدكتور إراسموس داروين " Erasmus Darwin وكان بدوره طبيبا مشهورا ومن أصدقاء العالمين المشهورين "وات " Watt" وپريستلى "Pristley ونشر العديد من الكتب فى موضوعات مختلفة ، من أشهرها كتابه المعنون "أسماء الحيوانات" (١) ، وقد كان من المؤيدين لنظرية التطور التى وضعها "دى ميل" De Mille وغيره من العلماء والتى كانت المقدمة لظهور مذهب "لامارك" Lamarck .

نشأ "تشارلس داروين" فى الريف ، وكان فى صباه قويا ونشيطا ذا قدرة عقلية متألمة وناقدة وليست محدودة بوجهات النظر الأحادية ، وكان واسع الاطلاع فى العديد

من الموضوعات التي تستهويه وذا دأب شديد على العمل واشترك مع أخيه الأكبر في إجراء التجارب الكيميائية في معمل صغير، وهي التي استغرقت من وقته الكثير إلى حد أن زملاءه أطلقوا عليه لقب "السيد غاز" **Mr. Gas** .

وكان شديد الشغف بالأدب خاصة كتابات "شكسبير"، و"التر سكوت"، و"بيرون"، وقصائد "هوراس"، وكان رفيقه في رحلته حول العالم ديوان "ملتون" الشعري، ولعل هذا يبدو واضحاً من طريقة كتابته للمجلد الذي نحن بصده، فقيمه الأدبية في الكتابات باللغة الإنجليزية تضارع القيمة العلمية للمعلومات والاستنتاجات التي جاءت به، ولعل هذا من الأسباب الرئيسية في صعوبة ترجمة أعماله إلى اللغات الأخرى .

التحق داروين في بداية تعليمه بمدرسة "شروزبرى"، وأمضى بها سبع سنوات عجاف من الوجهة التعليمية، حيث اقتصر التعليم فيها على الحفظ عن ظهر قلب للأدب القديم والمقطوعات الشعرية، أي على نفس صورة تحفيظ القرآن وألفية ابن مالك في كتابتي القرى القديمة، وقد اعتبر "داروين" هذه الفترة التي قضاه في المدرسة على أنها مضيعة للوقت، ولم ير المدرسون في داروين غير أنه تلميذ بليد الذهن، وكان من أثر ذلك أن شغل معظم وقته بالصيد والرياضة والكلاب واقتناص الفئران . وعندما يئس والده من قدرة هذه المدرسة على تعليمه، أرسله إلى "إدنبره" **Edinburgh** ليلحق بشقيقه الأكبر "إراسموس" ويلتحق بكلية الطب معه، ولكن كليهما لم يكن جادا في الحصول على إجازة الطب اعتماداً على ثراء والدهما، وربما كانت صلة "تشارلس" بزميلين له هما "كولد ستريم" **Cold Stream**، و"جرانت" **Grant** اللذين أصبحا من كبار علماء الحيوان، هي الدافع وراء اتجاهه إلى دراسة الأحياء المائية، والتردد على جمعية "قرنر" **Werner**، وهناك تعرف على العلامة "ماك جلفارى" **Mac Galvery** عالم الطيور^(١) المعروف، وعن طريقه "اتصل بأوزوبون **Ozobun** الذي كان يكن حبا شديداً للطيور وقام برسمها وصور مختلف تصرفاتها بدقة شديدة، وذلك بالإضافة

إلى تعلمه فن تحنيط الطيور من رجل زنجى كان يرافق الرحالة "ووترتون" **Watertone** فى رحلاته قبل استقراره فى إدينبره .

ولا شك فى أن داروين قد تعلم الكثير أثناء عامين قضاهما فى " أيقوسيا " ، ولو أن ذلك لم يكن له أى علاقة بالدراسة الأكاديمية . ولا شك أيضا أن أساتذته فى جامعة إدينبره كان لهم تأثير سلبى عليه ، إلى حد كرهه لحضور المحاضرات والمواد التى تلقى فيها . وقد عبر كثيرا - فيما بعد - عن كرهه واحتقاره لأساتذته ، باستثناء "الدكتور هوب" **Dr. Hope** أستاذ مادة الكيمياء . ووصف بعد أربعين عاما محاضرات أستاذ مادة " المواد الطبية " ^(١) بأنها "تكرى مخيفة" ووصف أستاذ علم التشريح بعبارات غاية فى القسوة ، أما أستاذا مادتي علم طبقات الأرض والحيوان فوصفهما بأنهما بلغا من الغباء درجة لا تصدق ، إلى درجة تجعل من يستمع إلى محاضراتهما يعاهد نفسه على عدم قراءة أى كتاب من علم طبقات الأرض أو يقدم على دراسته مدى الحياة .

وعندما رأى والده بعد عامين ، عدم جديته فى دراسة الطب وحضور محاضرات التشريح (بالرغم من افتقاره إليه فيما بعد) وتجنبه مشاهدة العمليات الجراحية ، قرر أن يوجهه نحو دراسة التاريخ اللاهوتى مع تعارض ذلك مع هوايات "تشارلس" التى تنحصر فى جمع نماذج لدراسة التاريخ الطبيعى والصيد فى الغابات ، واختار له جامعة "كمبردج" **Cambridge** التى التحق بها فى أكتوبر ١٨٢٧ ، ولكنه لم يعد يتذكر إلا النذر اليسير من الأدب القديم وحروفاً قليلة من اللغة اللاتينية ، ولكنه فى خلال ثلاثة أشهر كان فى استطاعته أن يترجم بسهولة بعض المقطوعات من أعمال "هوميروس" **Homeros** ومن الأصل اليونانى للإنجيل **New testament** . ولكن السنوات الثلاث التى قضاهما فى كمبردج كانت ضياعا من حيث التحصيل الأكاديمى شأنها شأن السنوات السابقة التى ضاعت فى إدينبره وفى مدرسة شرورزبرى ، وهذا ما حرره بنفسه فى سيرته الشخصية .

ظهرت غريزة وهواية جمع نماذج الأحياء منذ طفولة "داروين" وكانت تنحصر في منافسة أخته في الحصول على أكبر عدد منها ، وقد زادت هذه الهواية أثناء إقامته في جامعة كمبردج ، وتحولت إلى الحصول على أكبر عدد من النماذج النادرة من الخنافس بدون أن يكون وراء ذلك أى دافع علمي ، حتى إنه لم يهتم بالتعرف على أسمائها . كما قضى الكثير من الوقت في ركوب الخيل والتجول بذهن شارد لساعات طويلة في أرجاء الريف .

وأثناء دراسته في كمبردج عزف عن حضور محاضرات الأستاذ سدچويك الجيولوجي المعروف ، وذلك لسابق كرهه لهذه المادة منذ أيام إدنبره ، غير أنه التحق بشعبة النبات مع أنه لم يكن شديد الولوج به ، ولكن لحبه للرحلات العلمية المرححة التي كان يقوم بها "هنسلو" أستاذ علم النبات ، والذي كان أيضا ملما بالكثير عن التاريخ الطبيعي ، وتحول داروين مع الوقت إلى صديق شتخصى "لهنسلو" وهي صداقة لم تنته إلا بوفاة الأخير في عام ١٨٦١ ، وبقي داروين دائم الذكر له ويصفه بأستاذه القديم العزيز في العلم الطبيعي . واستطاع هنسلو أن يعيد داروين إلى درسه علم طبقات الأرض ، وسعى لدى الأستاذ "سدچويك" لاصطحابه في رحلة علمية إلى مقاطعة "ويلز" Wales ، وكذلك وجهه إلى قراءة الجزء الأول من كتاب "مبادئ الجيولوجيا" من تأليف "سير تشارلس لایل" . ولعل أعظم الأعمال التي قام داروين بها في علم الأحياء قد قامت على المبادئ العلمية الموجودة في هذا الكتاب . وزالت فكرة دراسة اللاهوت بعد قراءة داروين لكتاب "سيرتي الذاتية" من تأليف "همبولد" ، ثم كتاب "لهرشل" عنوانه "مقدمة لدراسة الفلسفة الطبيعية" .

أما الخدمة الكبرى التي أسداها هنسلو لداروين ، هي حثه على الالتحاق بالبعثة العلمية التي قامت برحلة حول الأرض على متن السفينة "البيجل" لدراسة التاريخ الطبيعي . وكانت السفينة بيجل سفينة حربية صغيرة أقصى حمولتها ٢٤٢ طنا تحت قيادة القبطان "منزروي" ، وكان المفروض أن يلتحق بالبعثة عالم في التاريخ الطبيعي ، ولكن "هنسلو" أوصى بالتحاق داروين بها لما رآه من نكائه وصبره على جمع العينات وتكوين الملاحظات . وامتدت هذه الرحلة العلمية إلى خمس سنوات . وبدأ اهتمامه بالدراسات الجيولوجية بعد ثلاثة أشهر عند إلقاء مراسي السفينة في "جزر الرأس

الأخضر" ومشاهدته تضاريسها البركانية ، ثم عند الوصول إلى أمريكا الجنوبية . أما الشاطئ الغربي لأمريكا الجنوبية فقد أثار شهيته العلمية لدراسة الشعاب المرجانية . وكان لما شاهده من صور لكائنات حية ومندثرة شبيهة من بعيد أو قريب من الموجودة فى الأحافير ، وكذلك تباين الأحياء فى كل جزيرة من جزر "جالا باجوس" ، الأثر الأكبر نحو توجيه فكره نحو تطور الكائنات والأنواع الحية ، وبدابة لمشوار تكوين نظريته .

فى يوليو ١٨٢٧ . بعد عودته من الرحلة ، بدأ فى توين الحقائق التى جمعها والمتعلقة بتحول الأنواع الحية وتسلسل بعضها من بعض ، ولكنه لم يقتنع بصورة تامة بأن الأنواع الحية هى كائنات متحولة ، إلا بعد مضى عامين أو ثلاثة . وكان قد استغرق تماما فى دراسة علم الحيوان بجانب اهتمامه السابق بعلم طبقات الأرض والأحافير ، لما فى ذلك من إجابات تدور فى ذهنه حول النظرية التى بدأت فى التبلور لديه .

اكتملت نظرية " نشأة الأنواع الحية" فى عقل داروين فى عام ١٨٤٤ ، بل إنه كتبها مع التوصية بنشرها فى حالة وفاته ، ولكنه أمضى خمسة عشر عاما بعد ذلك فى جمع الحقائق العلمية التى تؤيدها قبل نشرها لأول مرة فى عام ١٨٥٩ . وفى هذه الأثناء قام بنشر كتابه عن الجزر البركانية التى شاهدها فى عام ١٨٤٤ ، ثم فى عام ١٨٤٥ نشر كتابه "صحيفة البحوث العلمية فى رحلة البيجل" ، وفى عام ١٨٤٦ نشر كتابا آخر عن " المريجيات " أو الحيوانات النباتية (١) .

وبعد رجوعه من الرحلة ، أقام لفترة قصيرة فى كمبردج ، ثم انتقل إلى مدينة لندن حيث شغل لمدة خمس سنوات وظيفة سكرتير للجمعية الجيولوجية وقد استمر يتمتع بصحة جيدة إلى أن أصابه مرض غريب الأعراض عند رسو السفينة فى ميناء "فلباريزو" فى عام ١٨٢٤ ، برأ منه بالكاد ، إلا أنه ترك آثارا على بنيته لم تفارقه باقى حياته ، وكانت تعاوده نوبات فى نورات متعاقبة من الغثيان مصحوبة بانحطاط كبير فى عافيته ، وكان يقضى الشطر الأكبر من يومه ، وقد تمتد النوبات إلى أشهر متصلة فى شعور بالألم والتعاسة .

وتزوج داروين فى عام ١٨٣٩ ولكن عندما ساءت صحته فى عام ١٨٤٢ ، اضطر إلى ترك لندن ، واشترى منزلا ومزرعة فى مقاطعة كنت ، حيث عاش البقية الباقية من عمره ، حيث استمر فى تأليف كتبه المستمدة من كراسات ملاحظاته ، ومنها مقاله المهم عن "إخصاب الأزهار" فى عام ١٨٥٧ وكتابه "وسائل التخصيب المختلفة للسحليات بواسطة الحشرات " الذى نشر فى عام ١٨٦٢ . واستمر فى أبحاثه إلى أن نشر كتابه المهم " تأثير التهجين والإخصاب الذاتى فى المملكة النباتية" فى عام ١٨٧٦ ، ثم كتابه "الأشكال المختلفة للزهور فى النباتات التابعة لنوع معين " فى عام ١٨٧٧ . وقبل ذلك كان قد نشر كتابا بعنوان " النباتات المفترسة" فى عام ١٨٧٥ . وكتاب "النباتات المتسلقة " فى عام ١٨٧٥ ، وتلاههما بكتاب " القدرة على الحركة فى النباتات " فى عام ١٨٨٠ ، وجميعها نبعت من ملاحظات طرأت له أثناء تجوله فى أرجاء الطبيعة . وذلك خلاف كتب أخرى منها " التعبير عن الانفعالات" و "تكوين الفطريات بفعل الديدان" وخلافه .

وفى عام ١٨٨٢ ساءت صحته وبدأت تنتابه نوبات من الدوار والغيبوبة إلى أن توفى فى ١٩ أبريل عام ١٨٨٢ وتم دفنه فى الرابع والعشرين من الشهر نفسه فى كنيسة "ستمنستر Westminster" وحمل جثمانه عشرة من كبار العلماء ، منهم اثنان من الأسرة المالكة ، وتوالت الاكتتابات من جميع أنحاء العالم إلى أن أقيم له تمثال نصب فى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى فى عام ١٨٥٥ .

وقد صدرت أول طبعة للكتاب الذى يحتوى على نظرية "نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعى ، أو الحفاظ على الأجناس المفضلة فى أثناء الكفاح من أجل الحياة " فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٥٩ وكانت مكونة من أربعة عشر بابا ، زيد عليهم باب هو الباب السابع المحتوى على الاعتراضات التى قامت ضد النظرية ، والرد عليها ، فى الطبعة السادسة المطبوعة فى عام ١٨٧٢ ، ليصبح الكتاب مكونا من خمسة عشر بابا ، هى التى بين أيدينا مترجمة فى هذا المجلد .

ويبدو أن داروين طرأت عليه فكرة تطبيق مذهبه على الجنس البشرى فى عام ١٨٥٩ ، وظل يعمل على هذه الفكرة إلى أن أصدر كتابه المعنون " نشأة الإنسان" فى عام ١٨٧١ وهى ما نرجو أن يمتد بنا العمر لنقوم بترجمته .

نبذة تاريخية

عن تطور المعتقدات حول نشأة الأنواع الحية (قبل نشر الطبعة الأولى لهذا العمل)

سوف أقوم هنا بتقديم نبذة مختصرة عن التطور العقائدي حول نشأة الأنواع الحية . فالى وقت قريب ، كانت الغالبية العظمى من علماء التاريخ الطبيعي تؤمن بأن الأنواع الحية هي إنجازات ثابتة وغير قابلة للتغيير ، وأنه قد تم خلقها على نحو منفصل عن بعضها . وقد استمر الكثير من الكتاب في التمسك الشديد بهذه الفكرة . وعلى الجانب الآخر ، كان القليل من علماء التاريخ الطبيعي يؤمنون بأن الأنواع الحية تخضع للتعديل ، وأن الأشكال الحية الموجودة ما هي إلا أشكال منحدرتة عن طريق التوالد الحقيقي من أشكال أخرى سابقة لها في الوجود . وبغض النظر عن التلميحات التي وردت عن هذا الموضوع في أعمال الكتاب التقليديين ^(١) ، فإن أول كاتب في

(١) جاء في كتاب أرسطو Aristotle إنصارات طبيعية * (lib.2, Physicae Auscultationes Cap. 8, S. 2) بعد تعليقه على أن المطر لا يسقط من أجل جعل الحبوب تنمو ، أكثر من سقوطه لإفساد حبوب الفلاح عندما يقوم بدرسها في الخلاء ، فإنه يطبق الاستنتاج نفسه على التعضية ، ويضيف (كما جاء في ترجمة "السيد كلير جريس" Mr. Clair Grece ، الذي كان أول من لفت نظري إلى هذه العبارة) " فما الذى يمنع الأجزاء المختلفة (من الجسم) من أن يكون لها مثل هذه العلاقة ذات الطبيعة العرضية البحتة . فإن الأسنان على سبيل المثال ، تنمو طبقا للضرورة ، فالأسنان الأمامية حادة ومعدة للقطع ، والطواحن مسطحة وتستخدم فى مضغ الطعام ، وبالرغم من أنه يتم تشكيل الأسنان من أجل هذه الأغراض ، إلا أنه قد حدث ذلك عن طريق الصدفة . ونفس الشيء ينطبق على الأجزاء الأخرى ، التى يبدو فيها أن هناك تكيفا ما نحو غاية ما . وبالتالي وبشكل عام ، فإن مجموع الأشياء معا (أى جميع الأجزاء التى فى كيان واحد) قد حدثت وكأنها قد صنعت من أجل شيء ما ، وهذه الأحداث قد تم الاحتفاظ بها ، وذلك لكونها قد تكونت بعفوائية داخلية ، والأشياء التى لم تتكون بهذه الطريقة نفسها قد اندثرت ، ومازالت تندثر " . ونستطيع هنا أن نرى أن مبدأ الانتقاء الطبيعي قد بدأت ظلاله فى الوجود ، ولكن الذى يظهر المدى البسيط لاستيعاب أرسطو الكامل لهذا المبدأ ، فإنه يظهر من تعليقاته على تكوين الأسنان .

العصور الحديثة عالج هذا الأمر بروح علمية ، كان هو "بوفون" Buffon . ولكن بما أن آراءه كانت متقلبة بشكل كبير على مدار فترات طويلة ، وبما أنه لم يورد أى شىء عن الأسباب أو الوسائل التى تم بها التحول الذى حدث للأنواع الحية ، فأنا لست مضطراً إلى الدخول فى أى تفاصيل.

ولقد كان "لامارك" Lamarck ^(١) هو أول إنسان أثارت استنتاجاته عن الموضوع الكثير من الانتباه . فهذا العالم الشهير بجدارته فى مجال التاريخ الطبيعى قد نشر آراءه فى عام ١٨٠١ ، وأضاف إليها الكثير فى عام ١٨٠٩ فى كتابه "الفلسفة الحيوانية" Philosophie Zoologique ، وبعد ذلك فى عام ١٨١٥ فى كتابه "التاريخ الطبيعى للحيوانات اللافقارية" Hist.Nat.des Animaux sans Vertebres . وقد رفع فى هذه الأعمال مبدأ أن جميع الأنواع الحية - بما فيها الإنسان - قد انحدرت من أنواع أخرى . وكان هو أول من قام بالخدمة الجليلة التى تتمثل فى لفت الانتباه لوجود احتمال بأن جميع التغيرات فى العالم العضوى ، وكذلك العالم غير العضوى ، ناتجة عن قانون ، وليست نتيجة تدخل إجازى . ويبدو أن "لامارك" كان مدفوعاً بشكل أساسى فى استنتاجاته عن التغيير التدريجى للأنواع الحية ، بالصعوبة المتمثلة فى

(١) لقد اخترت تاريخ أول عمل منشور "لامارك" من كتاب "إيزانور جيوفروي سانت هيلارى" . Isid Geoffroy Saint-Hilaire ، المعنون "التاريخ الطبيعى العام * Hist. Nat. Generale (الجزء الثانى ، صفحة ٤٠٥ ، سنة ١٨٥٩) والذى يعتبر مرجعاً ممتازاً عن تاريخ الرأى فى هذا الموضوع ، وقد جاء فى هذا الكتاب سرد كامل لاستنتاجات "بوفون" Buffon فى هذا الموضوع . وإنه لشىء مثير للدهشة مدى التوسع الذى أبداه جدى ، الدكتور "إراسموس داروين" Dr. Erasmus Darwin فى التنبؤ بخطأ الآراء والأسس التى اعتمد عليها لامارك وجاءت فى كتابه "عالم الحيوان" * Zoonomia (الجزء الأول ، ص ٥٠٠-٥١٠) والذى نشر فى عام ١٧٩٤ . ونقلاً عن "إيزانور جيوفروي" ، فإنه لا يوجد شك أن "جوته" Goethe كان مشايحاً متطرفاً لأفكار مماثلة ، وهذا يظهر فى مقدمة عمل له كتب فى عامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ ، ولكن لم يتم نشره إلا بعد مدة طويلة ، وقد جاء فى تعليقه بالتحديد (Goeth als Natur Forscher Von Dr. Karl Meding, S.34). إن سؤال المستقبل لعلماء التاريخ الطبيعى ، سوف يكون على سبيل المثال "كيف اكتسبت الماشية قرونها ، وليس فى أى شىء تستخدم القرون" . وهذا لا يتعدى أن يكون مثالا فردياً عن الطريقة التى ظهرت بها آراء مماثلة فى التوقيت نفسه ، مثل "جوته" فى ألمانيا ، و"دكتور داروين" فى إنجلترا ، و"جيوفروي سانت هيلارى" (كما سنرى فى الحال) فى فرنسا ، الذين وصلوا إلى الاستنتاج نفسه عن نشأة الأنواع الحية فى عام ١٧٩٤-١٧٩٥ .

التفرقة ما بين الأنواع والضروب ، وبالتدرجات المتكاملة إلى حد بعيد للأشكال التابعة لمجموعات معينة ، وبالتماثل الشديد بين المنتجات الداخلة . وفيما يتعلق بالوسائل التي تمت عن طريقها التعديلات ، فإنه قد عزا بعضاً منها إلى التأثير المباشر للعوامل الطبيعية للحياة ، وبعضاً منها إلى التهجين بين الأشكال الموجودة بالفعل ، والكثير منها إلى الاستخدام وعدم الاستخدام ، وهذا ما يعنى ، لتأثيرات السلوك. ويبدو أنه يعزو إلى هذا العامل الأخير كل التكيفات الجميلة فى الطبيعة ، مثل العنق الطويل للزراف من أجل الرعى على أغصان الأشجار ، ولكنه كان يؤمن أيضاً بمبدأ خاص بالنشوء الارتقائى ^(١) ، وبما أن جميع الأشكال الحية تميل إلى التقدم بهذه الطريقة ، فلكى يفسر التواجد لبعض المنتجات الحية البسيطة ، فإنه يؤكد أن مثل هذه الأشكال يتم إنتاجها حالياً بشكل تلقائى .

"جيوغرافى سانت هيلارى" **Geoffroy Saint-Hilaire** ، كما جاء فى الكتاب الذى نشره ابنه عن حياته ، قد ساوره الشك ، فى وقت مبكر يرجع إلى عام ١٧٩٥ ، فى أن ما نسميه "أنواعاً" ، ماهى إلا تفسخات مختلفة عن نفس الطراز . ولم يتم نشر أى شىء عن هذا حتى عام ١٨٢٨ ، وعندئذ تم نشر اقتناعه بأن نفس الأشكال لم تستمر خالدة وبدون تغيير منذ بداية كل الأشياء . ويبدو أن "جيوغرافى" قد اعتمد بشكل أساسى على ظروف الحياة ، أو "العالم المحيط" **Monde ambiant** فى إحداث التغيير ، وقد كان حريصاً فى وضعه للاستنتاجات ، وكذلك لم يكن يؤمن بأن الأنواع الحية الموجودة تمر حالياً فى مراحل تطورية ، وكما جاء فى إضافة من ابنه : "إنه هى مشكلة يجب الاحتفاظ بها كلية للمستقبل ، بفرض أن المستقبل سوف يكون له سيطرة عليها"

وفى عام ١٨١٣ ، ألقى "الدكتور و. س. ويلس" **Dr. W. C. Wells** أمام الجمعية الملكية بحثاً عنوانه "وصف لأنثى بيضاء ، يتشابه جزء من جلدها مع جلد أى زنجى" ، ولكن هذا البحث لم يتم نشره حتى ظهور كتابه الشهير "مقالتان عن الرؤية المبهمة"^(٢)

Progressive development

Dew Vision

(١) "النشوء الارتقائى"

(٢) "الرؤية المبهمة"

والرؤية الواضحة " **Two Essays on Dew and single vision** ، فى عام ١٨١٨ . وهو يعترف فى هذه المقالة بشكل واضح بمبدأ الانتقاء الطبيعى ، وكان هذا هو أول اعتراف بالمبدأ تمت الإشارة إليه ، ولكنه قصر تطبيقه على أعراق الإنسان ، وعلى بعض الصفات فقط . وبعد أن أبدى تعليقاته عن أن الزنوج والأخلاس^(١) يتمتعون بمناعة ضد بعض أمراض المناطق الحارة^(٢) ، ولاحظ التالى : أولاً : أن جميع الحيوانات تميل إلى التمايز عن بعضها إلى درجة ما ، وثانياً : أن المزارعين يقومون بتحسين حيواناتهم الداجنة عن طريق الانتقاء ، ثم بعد ذلك أضاف ، أن ما يتم عمله فى الحالة الأخيرة " بواسطة المهارة ، يبدو أنه يتم عمله بنفس الكفاءة بواسطة الطبيعة ، ولو أن ذلك يتم بمعدل أكثر بطناً ، وذلك فى تشكيل الضروب المختلفة للجنس البشرى ، وذلك لملاعبة القطر الذى يقطنونه . أما عن الضروب العرضية للجنس البشرى التى كانت توجد بين العدد القليل من السكان الأوائل المتفرقين فى المناطق الوسطى من أفريقيا ، فإننا نجد أن أحد هذه الضروب كان هو الأكثر استعداداً من الآخرين لاحتمال الأمراض الشائعة فى هذا القطر . وبالتالي فإن هذا العرق كان من شأنه أن يتكاثر ، بينما سوف تتناقص الأعراق الأخرى ، وذلك ليس فقط نتيجة لعدم قدرتها على احتمال هجمات الأمراض ، ولكن لعدم قدرتها على التنافس مع جيرانها الأكثر نشاطاً . وأنا أعتبرها قضية مسلماً بها ، إن لون هذا العرق النشيط - بناء على ما سبق لى قوله - سيكون هو الداكن . ولكن مادامت نفس النزعة لتكوين الضروب موجودة ، فعلى مر الزمن سوف يحدث تكوين لأعراق أكثر فأكثر اكتساباً للون الداكن ، ومادام العرق الأكثر دكاًنة سيصبح هو الأكثر ملاعبة للمناخ ، فإنه سوف يكون على المدى الطويل هو الأكثر شيوعاً ، إن لم يصبح العرق الوحيد فى هذا القطر المعين الذى كانت فيه بدايته . وهو بعد ذلك يطبق هذه الآراء على السكان البيض للأقاليم ذات المناخ الأبرد . وأنا مدين "للسيد رولى" **Mr. Rowley** من الولايات المتحدة ، لأنه قد جذب انتباهى ، من خلال "السيد براس" **Mr. Brace** إلى الفقرة السابقة التى وردت فى أعمال الدكتور "ويلس".

Mulatto

(١) خلاسى = مولد: شخص مولود من جنسين (أبيض وزنجى مثلاً)

Tropical diseases

(٢) أمراض المناطق الحارة

وقد أعلن السيد " المحترم والمبجل و. هيربرت " **The Hon. And Rev. W. Herbert** والذى أصبح فيما بعد عمدة مانثسستر ، فى الجزء الرابع من موسوعته المعنونة "المعاملات البستانية" * **Horticultural transaction**. المنشورة فى ١٨٢٢ ، وكذلك كتابه عن الفصيلة النرجسية ^(١) (١٧٣٧ ص ٢٣٩، ١٩) ، الذى يعلن فيه أن "الأبحاث التى أجريت فى علم البساتين قد أثبتت بدون أى احتمال للتفنيد، أن الأنواع فى العلوم النباتية ^(٢) ماهى إلا طائفة أعلى وأكثر نواما من الضروب " . وهو يبسط نفس الوجهة من النظر على الحيوانات . ويؤمن العميد بأن الأنواع المنفردة من كل طبقة قد تم ابتداعها فى الأصل بحالة مرنة جدا ، وأنها بالتالى قد أنتجت عن طريق التهجين بشكل أساسى ، ولكن بالمثل أيضا عن طريق التمايز ، جميع الأنواع الموجودة حاليا .

وفى عام ١٨٢٦ ، أعلن الأستاذ "جرانت" **Professor Grant** بوضوح ، فى الفقرة الاستخلاصية من مقاله المعروف جدا المنشور فى جريدة إدنبره الفلسفية **Edinburgh Philosophical Journal** ، (الجزء ١٤ ، ص ٢٨٣) عن الأسفنجيات ^(٣) ، إيمانه بأن الأنواع قد انحدرت من أنواع أخرى ، وأنه قد حدث لها تحسين من خلال التعديل . وقد ورد نفس الرأى فى محاضراته الخامسة والخمسين ، التى نشرت فى مجلة "لانسييت" **Lancet** فى عام ١٨٢٤ .

وفى عام ١٩٢١ ، نشر السيد "باتريك ماتيو" **Mr. Patrich Matthew** البحث الذى قام به على "الأخشاب المناسبة للبحر وزراعة الأشجار" **"Naval Timber and Arboculture"** والتى يورد فيها وجهة نظر عن نشأة الأنواع الحية مائة بالضبط لتلك (التى نلمح إليها حاليا) التى أعلنت بواسطة السيد "والاس" **Mr.Wallas** وبواسطتى فى "الدورية اللينينية" ^(٤) **Linnean Journal** ، وكما جاءت هنا بتوسع فى هذا المجلد الحالى . ولسوء

Amaryllidaceae

(١) الفصيلة النرجسية أو العنقودية

Botanical

(٢) نباتى

Spongilla

(٣) الأسفنجيات *

Linnean Society & Journal (٤) الجمعية والمجلة اللينينية : المتعلقة بعالم النبات السويدى كارلوس

(Karl Von Linne 1707- 1778)

لينىوس (كارل فون لينى)

الحظ فإن هذه الواجهة للنظر قد تقدم بها السيد ماثيو بشكل مختصر جدا فى صفحات متفرقة فى ملحق لبحث مكتوب عن موضوع مختلف ، وقد أدى ذلك إلى بقائها غير ملحوظة من أحد حتى جذب السيد "ماثيو" بنفسه الانتباه إليها فى "العرض التاريخى "لجاردنر" *Gardener's chronicle* فى السابع من أبريل سنة ١٨٦٠ . والخلافات الموجودة بين وجهة نظر السيد ماثيو ووجهة نظرى ليست ذات أهمية كبيرة : فيبدو أنه يعتبر أن العالم قد كان غير مأهول تقريبا على مدى فترات متلاحقة ، ثم حدث أن أعيد امتلاؤه ، وهو يعطى كبديل لهذا ، أن الأشكال الجديدة من الممكن أن تكون قد تولدت بدون التواجد لأى فطر أو جرثومة ذات تجمعات سابقة " . وأنا لست واثقا من أنى قد وصلت إلى فهم بعض العبارات ، ولكن يبدو أنه يعزو الكثير من الأهمية إلى التأثير المباشر لظروف الحياة . وبالرغم من ذلك ، فقد تبين له بوضوح القوة الكاملة لمبدأ الانتقاء الطبيعى .

أما عالم طبقات الأرض والتاريخ الطبيعى المشهور ، "قون بوش" *Von Bush* فى كتابه المعنون "الوصف المادى لجزر الكنارى" *Description Physique des Isles Canaries* (عام ١٨٣٦ ، ص ١٤٧٠) ، فإنه يبدى بوضوح إيمانه بأن الضروب قد حدث لها تحول تدريجى إلى أنواع دائمة ، غير قابلة بعد ذلك للتهجين .

وكتب رافينيك *Rafinesque* فى كتابه "الحياة النباتية الجديدة فى أمريكا الشمالية" *New Flora of North America* ، الذى نشر فى عام ١٨٣٦ (ص ٦) ، التالى: "من الممكن أن جميع الأنواع قد كانت ضروبا فى وقت ما ، وأن الكثير من الضروب قد تحولت إلى أنواع عن طريق اكتساب صفات ثابتة وخاصة " ، ولكنه يضيف فيما بعد (ص ١٨) " فيما عدا الطرازات الأصلية أو أسلاف الطبقة نفسها " .

وفى عام ١٨٤٣-١٨٤٤ قام الأستاذ (هالديمان) *Professor Haldeman* فى مجلة بوسطن للتاريخ الطبيعى للولايات المتحدة ، الجزء الرابع (ص ٤٦٨) *Boston Journal of Nat. Hist U. States* ، بتقديم البراهين المثبتة والداحضة للافتراضات الخاصة بنشوء وتعديل الأنواع الحية: ويبدو أنه قد كان يميل إلى جانب التغيير .

وقد ظهر كتاب "الأثار المتبقية من الخليقة" *Vestiges of Creation* فى عام ١٨٤٤ ، وجاء فى الطبعة العاشرة ، والمعدلة بشكل كبير (عام ١٨٥٣) ما قاله ذلك الكاتب

المجهول (ص ١٥٥) : " والاقترح الذى تقرر بعد تقليب كثير للفكر ، أن التسلسلات العديدة من الكائنات المتحركة ^(١) ، ابتداء من أقدمها وأبسطها إلى أعلاها ارتفاعاً وأكثرها حداثة، هي نتائج - تحت تأثير العناية الإلهية - لما يلي : أولاً : لحافز قد أضفى على أشكال الحياة، أدى إلى تقدمها، فى أزمان محددة وبواسطة التولد من خلال مراحل متعددة من التعضية ، إلى أعلى النباتات نوات الفلقتين ^(٢) والحيوانات الفقارية ^(٣) ، وبما أن هذه المراحل عددها قليل ، وعادة ما تكون محددة بمراحل فاصلة ذات صبغة عضوية، فإننا نجد أن هذا يمثل صعوبة عملية فى التأكد من الصلات البيولوجية التى تدل على وحدة الأصل - وثانياً : لحافز آخر متصل بالقوى الحيوية ، التى تميل فى خلال عمليات التوالد إلى تعديل التركيبات العضوية بناء على الظروف الخارجية المحيطة ، مثل الطعام ، وطبيعة الموطن ، والعوامل الجوية ، والتى تمثل " التكيفات " التى يتحدث عنها علماء الطبيعة اللاهوتية ^(٤) . ويبدو أن الكاتب يؤمن بأن التعضية تتقدم بطفرات مفاجئة ^(٥) ، وأن التأثيرات الناتجة عن ظروف الحياة هي ذات طبيعة ثابتة وغير قابلة للتعديل . ولكنى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن لهذين الحافزين أن يكونا المسببين ، بطريقة علمية ، لهذا الكم العديد من التكيفات المتبادلة التى نراها فى كل شىء فى الطبيعة ، ولا أستطيع أن أرى ماذا يمكن لنا أن نكتشفه بهذا الشكل عن - مثلاً - كيف أصبح ناقر الخشب ^(٦) متكيفاً مع سلوكياته الغريبة فى الحياة ، وهذا العمل من شدة جماله وأسلوبه الباهر ، ومع أنه قد تكشف ، فى الطبقات المبكرة عن قليل من المعلومات الدقيقة ، ومع الاحتياج الشديد للحيلة العلمية ، إلا أنه قد اكتسب انتشاراً واسعاً فى الوقت الحالى. وفى رأيب أنه قد أدى خدمة جليلة فى هذا البلد

Animated beings

(١) الكائنات المتحركة

Dicotyledons

(٢) النباتات نوات الفلقتين

Vertebrata

(٣) الحيوانات الفقارية

Natural theologian

(٤) عالم الطبيعة اللاهوتية

Sudden leap

(٥) طفرة مفاجئة

Wood Pecker

(٦) ناقر الخشب

لجذب الانتباه إلى الموضوع ، ولإزالة التعصب ، وهو بذلك قد مهد الطريق لاستقبال الأفكار التي تسير على هذه الوتيرة.

وفى عام ١٨٤٦ قام عالم طبقات الأرض " م . ج . بوماليوس دهاالوى " M. J. d'Omalius d'Hallooy ، بنشر بحث مختصر ممتاز (فى نشرات معهد بروكسل الملكى ، **Bulletins de l'Acad. Roy. Brauxelles** الجزء ١٣ ، ص ٥٨١) وكان من رأيه أن الاحتمال الأكبر هو أن الأنواع الجديدة قد تم إنتاجها عن طريق النشوء مع التعديل ، عن احتمال أن تكون قد تخلقت بطريقة منفصلة عن بعضها ، وقد أعلن الكاتب عن هذا الرأى للمرة الأولى فى عام ١٨٣١ .

وقد قام الأستاذ " أوين " Professor Owen فى عام ١٨٤٩ ، فى كتابه بعنوان "طبيعة الأطراف" **Nature of limbs** ، (ص ٨٦) ، بكتابة التالى " لقد تجسدت فكرة النموذج الأسمى ^(١) بشكل حقيقى فى صورة تلك التعديلات المتنوعة التى حدثت على سطح هذا الكوكب ، منذ زمن أبعد بكثير من تواجد هذه الأنواع الحيوانية ، التى تمثله بالفعل . ونحن نجهل إلى الآن لأى من القوانين الطبيعية أو من المسببات الثانوية تستجيب منظومة التوالى والتقدم لمثل هذه الظواهر العضوية " . وتكلم فى الخطاب الذى وجهه إلى "الجمعية البريطانية" **British Association** فى عام ١٨٥٨ (ص ٥١) عن " الحقيقة البديهية للعملية المستمرة للقوة الخالقة ، أو عن القدر المرسوم للأشياء الحية " . ثم أضاف فيما بعد ، بعد الإشارة إلى التوزيع الجغرافى أن "هذه الظواهر تهبز ثقتنا فى الاستنتاج بأن طائر الكيوى ^(٢) الخاص بنيوزيلاند **New Zealand** والطهيوج الأحمر ^(٣) الخاص بإنجلترا ، هما مخلوقان استثنائيان ، فى ومن أجل هذه الجزر على التوالى . وأيضا أنه من المستحسن دائما أن يستقر فى الأذهان أنه بكلمة "خلق" ، فإن الخبير بعلم الحيوان يقصد "عملية لا يدرى كنهها" ، وتكلم بإسهاب عن

Archetypal

(١) النموذج الأسمى = الطراز البدئى

Apteryx

(٢) طائر الكيوى : طائر لا جناحى من طيور نيوزيلاند

Red grouse

(٣) طائر الطهيوج الأحمر : القطة الأحمر : طائر من رتبة الدجاج

هذه الفكرة ، بأن أضاف ، أنه فى حالات الطهيوج الأحمر "عندما يسردها عالم من علماء الحيوان كدليل على الخلق الاستثنائى للطائر فى ومن أجل مثل هذه الجزر ، فإنه يعبر بشكل أساسى كمن لا يعرف شيئاً عن الكيفية التى تواجد بها الطهيوج الأحمر هناك ، وفى هذا المكان على وجه القصر والتحديد ، وهذا يعتبر دلالة أيضاً ، بهذه الطريقة المعبرة عن مثل هذا الجهل ، عن إيمانه بأن كلا من الطائر والجزر تدين بأصلها إلى سبب خلقى أولى عظيم " . و إذا ما فسرنا هذه الجمل الواردة فى نفس الخطاب ، الواحدة تلو الأخرى ، فإنه يبدو أن هذا الفيلسوف البارز شعر فى عام ١٨٥٨ باهتزاز ثقته فى أن كلا من طائر الكيوى والطهيوج الأحمر قد ظهرا لأول مرة فى مواطنهما الخاصة ، فهو " لم يعرف كيف " ، أو فيما يتعلق بطريقة ما فهو "لم يعرف ماهى" .

وقد تم تقديم هذا الخطاب بعد تقديم الأبحاث التى نشرت بواسطة السيد والاس" ، و بواسطتى عن نشأة الأنواع الحية ، التى نحن فى مجال الإشارة إليها الآن، والتى تمت قراءتها أمام الجمعية اللينائية . وعندما تم نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، كنت ومعى الكثيرون مخدوعين بدرجة تامة بتعبيرات مثل : "العملية المستمرة للقوة الخالقة " ، إلى درجة أنى أدخلت "الأستاذ أوين" Owen فى زمرة علماء الإحاثة^(١) الآخرين على أساس أنه مقتنع بشدة بعدم قابلية الأنواع الحية للتغيير^(٢) ، ولكن ظهر فى كتاب (علم التشريح الخاص بالفقاريات Anat. Of Vertebrates الجزء الثالث ، ص ٧٩٦) أن ذلك كان خطأ غير منطقى من جانبى . وقد قمت فى الطبعة الأخيرة من هذا الكتاب بالتلميح ، ومازال هذا التلميح يبدو فى موضعه تماما ، إلى عبارة تبدأ بالكلمات "لا شك فى أن الشكل الطرزى " ^(٣) وخلافه (الكتاب نفسه ، الجزء الأول ، ص ٣٥) ، وأن "الأستاذ أوين" قد اعترف بأن الانتقاء الطبيعى قد يكون له

Palaeontology

(١) علم الإحاثه : علم أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية القديمة

كما تمثلها المستحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية

Immutability

(٢) عدم القابلية للتغيير = الثبات

Type-form

(٣) الشكل الطرزى *

بعض التأثير في تكوين نوع جديد ، ولكن يبدو أن ذلك غير صحيح ولا يوجد دليل عليه (نفس الكتاب جزء ٣ ، ص ٧٩٨) . وقد قمت أيضا بتقديم بعض المقتطفات من مراسلة بين "الأستاذ أوين" والمحرر "لجريدة لندن النقدية" *London Review* ، وقد ظهر فيها بشكل واضح لكل من المحرر ولى أنا شخصيا ، أن الأستاذ قد ادعى أنه قد قام بإعلان نظرية الانتقاء الطبيعي قبل قيامي أنا بذلك ، وقد قمت بالتعبير عن دهشتي ورضائي عن هذا التصريح ، ولكن بقدر ما يمكن من فهم بعض العبارات المعينة المنشورة حديثا (نفس الكتاب ، جزء ٣ ، ص ٧٩٨) فقد وقعت مرة أخرى في الخطأ ، إما بشكل جزئي أو كلى . وما يعزىنى هو أن الآخرين وجدوا أن كتابات "الأستاذ أوين" المثيرة للخلاف والجدل ، صعبة على الفهم وعلى التوافق مع بعضها البعض ، وأنا أوافقهم على هذا . وفيما يتعلق بمجرد الإعلان عن مبدأ الانتقاء الطبيعي ، فإنه شيء لا قيمة له ، إن كان "الأستاذ أوين" قد سبقنى إلى ذلك أم لا ، حيث إن كلامنا ، كما يظهر فى هذه النبذة التاريخية ، كنا مسبقين "بالدكتور ويلس" و"السيد ماثيو" .

وقد قام "إيزابور جيو فروى سانت هيلارى" *Isid . Geoffroy Saint-Hilaire* ، فى المحاضرات التى قام بإلقائها فى عام ١٨٥٠ (والتى ظهر ملخص لها فى النشرة والمجلة الخاصة بعلم الحيوان ، عدد يناير ١٨٥١) *Revue et Mag. De Zoolog* بتقديم عرض مختصر عن سبب إيمانه بأن صفات معينة " هى ثابتة ، من أجل كل نوع حى ، طالما كانت تتكاثر تحت تأثير نفس الظروف : وهى تتعدل إذا ما بدأت الظروف البيئية المحيطة فى التغيير " . " بالاختصار فإن ملاحظة الحيوانات الوحشية توضح مدى القابلية المحدودة للتمايز الخاصة بالأنواع الحية . والتجارب التى أجريت على الحيوانات الوحشية التى أصبحت داجنة ، وعلى الحيوانات الداجنة التى أصبحت وحشية تثبت ذلك أيضا بشكل أوضح . والأكثر من ذلك أن نفس هذه التجارب تثبت بوضوح أكثر أن الاختلافات الناتجة قد تكون ذات قيمة بالتصنيف الأحيائي " (الجزء الثانى ، صفحة ٤٣٠ ، عام ١٨٥٩) وهو يقوم بالمبالغة أيضا فى استنتاجات مماثلة .

ويبدو من قراءة بورية صدرت حديثا ، أن "الدكتور فريك" *Dr. Freke* فى عام ١٨٥١ (صدرت من مطبعة دبلن الطبية ، من ٣٢٢ *Dublin Medical Press*) ، قد أعلن مبدأ

أن جميع الكائنات العضوية قد انحدرت عن شكل أصلى بدائى (١) واحد. ومن الواضح اختلافه التام عنى فى الخلفيات الخاصة بإيمانه وطريقة معالجته للموضوع . ولكن بما أن "الدكتور فريك" قد قام الآن (١٨٦١) بنشر مقالته عن "نشأة الأنواع الحية عن طريق الصلة العرقية العضوية" * **Origin of Species by means of Organic Affinity** ، فإن صعوبة محاولة إعطاء أى فكرة عن آرائه تبدو كأنها موضوع لا جدوى منه من جانبى .

وقد قام "السيد هيربرت سبنسر" **Mr. Herbert Spencer** ، فى مقالة (نشرت فى الأصل فى "مجلة القائد" **Leader** فى مارس ١٨٥٢ ، ثم أعيد نشرها فى مجموعة مقالاته فى عام ١٨٥٨) بالمقارنة بين نظريات "الخلق" و"النشوء" للكائنات العضوية وذلك بمهارة وقوة ملحوظتين . وهو يجادل فى أنه نتيجة للتماثل الموجود بين المنتجات الداجنة ، ونتيجة للتغيرات التى تمر بها أجنة أنواع عديدة ، ونتيجة لصعوبة التفرقة ما بين الأنواع والضروب ، ونتيجة لبدأ التدرج العام ، فإنه قد تم تعديل الأنواع الحية وهو يعزو هذا التعديل إلى التغير فى الظروف . وقد قام الكاتب أيضاً (فى عام ١٨٥٥) بمعالجة موضوع علم القدرات العقلية (علم النفس) على أساس الامتلاك الضرورى لأى قوة أو مقدرة عقلية عن طريق التدرج .

وفى عام ١٨٥٢ أعلن عالم النبات المشهور "م. نودين" **M. Naudin** بشكل واضح ، فى مقالة جديرة بالتقدير عن نشأة الأنواع الحية (مراجعة عن البساتين ، ص ١٠٢ **Revue Horticole**) التى أعيد نشرها جزئياً فى السجلات الحديثة للمتحف **Nouvelles Archives du Museum** الجزء الأول . ص ١٧١) ، عن إيمانه بأن الأنواع قد تتكون بشكل متقارب لطريقة تكون الضروب تحت الرعاية ، وهو يعزو العملية الأخيرة إلى قدرة الإنسان على الانتقاء . ولكنه لا يبين كيف يعمل الانتقاء تحت تأثير الطبيعة . وهو يؤمن مثل "العמיד هيربرت" **Dean Herbert** ، بأن الأنواع ، فى بدء نشوئها ، قد كانت فى حالة أكثر مرونة عما هى عليه الآن . وهو يضع أهمية كبرى على ما يسميه مبدأ

Primordial

(١) بدائى = أصلى = أساسى

"الحقيقة المطلقة" ^(١) وذلك بقوله إنها "قوة غامضة غير محبودة ، قاتلة للبعض ، أما بالنسبة للبعض الآخر فإنها تؤثر بشكل مستمر على الكائنات الحية بحيث تحدد لهم على مدى جميع مراحل التواجد للعالم ، الشكل والحجم ، ومدة البقاء ، بسبب القدرة على ترتيب الأشياء التي تنتمي إليها . وإنها القوة التي تجعل كل عضو يتوافق مع المجموعة ، وذلك عن طريق منحه الوظيفة التي يجب عليه أن يشغلها في المنظومة العامة للطبيعة ، وهي الوظيفة التي تعطيه سببا للوجود" ^(٢) .

وفى عام ١٨٥٣ اقترح عالم مشهور فى علم طبقات الأرض ، هو "الكونت كيسرلنج" Count Keyserling فى نشرة الجمعية الجيولوجية *Bulletin de la Soc. Geolog* (المجلد الثانى ، الجزء العاشر ، ص ٢٥٧) أنه بما أن الأمراض الجديدة قد نتجت عن بعض الأبخرة العفنة المنبعثة من مستنقع ^(٣) ، وظهرت للوجود وانتشرت فى جميع بقاع العالم ، فكذلك من الممكن أن يكون قد حدث تأثير كيميائى فى فترات معينة ، على البذور الأولية للأصناف الحية الموجودة حاليا ، عن طريق الجزيئات المحيطة بها ذات الطبيعة الخاصة ، مما كان السبب فى إنتاج أشكال جديدة .

(١) الحقيقة المطلقة = شىء لا نهائى = النهائية = الحسمية
 Finality
 (٢) من مراجع وردت فى كتاب "برون" Bronn المعنون "Untersuchungen Über die Entwick- elungs- Gesetze فإنه يبدو أن عالم النبات والبساتين المشهور "أنجر" Unger ، قد نشر عام ١٨٥٢ - إيمانه بأن الأنواع تمر خلال نشوء وتعديل . وأدلى "دالتون" Dalton بالمثل فى كتاب "باندر" Pander ودالتون عن "كسالى الأحافير" Fossil Sloths ، الذى ظهر فى عام ١٨٢١ ، بما يفيد إيمانه المشابه . وقد جاء تأكيد لآراء مماثلة ، كما هو معروف جيدا ، بواسطة "أوكن" Oken ، فى كتابه الرمزى فلسفة الطبيعة "Natur- Philosophie" ويبدو من مراجع أخرى فى كتاب "جوربون" " Gordon عن الأنواع "Sur L'Espece ، أن "بورى سانت فنسنت" Bory St. Vincent ، و"بورداك" Burdach ، و"بواريه" Poiret ، و"فريس" Fries ، فى مجموعهم قد اعترفوا بأن الأنواع الجديدة فى حالة إنتاج مستمرة . ومن الممكن أن أضيف أنه من بين المبدعين الأربعة والثلاثين الواردة أسماعهم فى هذه النبذة التاريخية ، والذين يؤمنون بتعديل الأنواع ، أو على الأقل الذين لا يؤمنون بالأعمال المنفصلة للخلق ، فإنه يوجد سبعة وعشرون منهم قد نشروا أعمالا فى الفروع الخاصة بالتاريخ الطبيعى أو علم طبقات الأرض .

Miasma (٣) بخار عفن منبعث من مستنقع = الميزم

وفى نفس السنة، أى عام ١٨٥٣، نشر "الدكتور شكافهوزن" Dr. Schaaffhausen كتيباً ممتازاً (Verhand. des Naturhist. Vereins der Preuss. Rheinlands, & C.) الذى سجل فيه نشوء وتطور الأشكال العضوية على الكرة الأرضية. وهو يشير إلى أن العديد من الأنواع الحية ظلت على أصلها لفترات طويلة، بينما حدث تعديل للقليل منها. ويفسر التمييز بين الأنواع على أنه نتيجة اندثار الأشكال الوسيطة فى سلسلة التدرج". وهكذا فإن النباتات والحيوانات الحية غير بعيدة عن الفناء عن طريق مخلوقات جديدة، ولكنها قد تعتبر على أنها أساس ذراتها من خلال التوالد المستمر".

وكتب عالم نبات فرنسى معروف جداً، هو "م. ليكوك M. Lecoq، فى عام ١٨٥٤ (التعلم فى الجغرافيا النباتية Etudes sur Geograph. Bot.، الجزء الأول، ص ٢٥٠)، "بالنظر إلى أبحاثنا المنصبة على الثبات أو التغير الخاص بالأنواع الحية، نجد أنها تقوينا مباشرة إلى الآراء المنشورة لرجلين شهيرين هما "جيفروى سانت هيلارى" و"جوتة". وبعض الفقرات الأخرى المتفرقة فى كتاب "م. ليكوك" الكبير، تبعت القليل من الشك عن المدى الذى ذهبت إليه آراؤه الخاصة بتعديل الأنواع.

وقد تمت معالجة "فلسفة الخلق" (١) بطريقة متمكنة بواسطة "السيد الميجل بادن پاويل" The Rev Baden Powell، فى مقالاته عن "اتحاد العوالم" "Uinity of worlds"، فى عام ١٨٥٥. ولا يمكن أن يكون هناك أى شىء أكثر لفتاً للنظر عن الطريقة التى يبين بها أن استحداث أنواع جديدة هى "ظاهرة نظامية وليست ظاهرة عرضية"، أو كما يوضحها "السير جون هيرشل" Sir John Herschel، بقوله إنها "عملية طبيعية بالمخالفة للعمليات الإعجازية".

ويحتوى الجزء الثالث من "جريدة الجمعية اللينائية" Journal of the Linnean Society الذى تمت قراءته فى الأول من يوليو، عام ١٨٥٨ بواسطة "السيد والاس" وبواسطتى، والذى نجد فيه، كما جاء فى الملاحظات المقدمة لهذا الجزء، أن نظرية الانتقاء الطبيعى قد أعلنت بواسطة السيد والاس، وذلك بشكل شديد القوة والوضوح.

أما "فون بير" **Von Baer** الذى يكن له جميع علماء الحيوان الاحترام الشديد ، فإنه صرح حوالى عام ١٨٥٠ (انظر كتاب "الأستاذ رودلف فاچنر" **Prof. Rudolph Wagner** بعنوان "علم الحيوان - من الوجهة الأنتروبولوجية" **Zoologisch - Anthro-po-logische Untersuchungen**، عام ١٨٦١ ، ص ٥١) بأن إيمانه يعتمد بشكل أساسى على قوانين التوزيع الجغرافى ، وأن الأشكال الحية المتباينة عن بعضها بصورة تامة حاليا ، قد انحدرت من شكل أبوى واحد .

وفى يونيو عام ١٨٥٩ ، ألقى الأستاذ "هوكسلى" **Professor Huxley** ، محاضرة أمام المؤسسة الملكية **Royal Institution** ، عن " الأنماط الدائمة الخاصة بالحياة الحيوانية " **Persistent types of animal life** ، مشيرا إلى مثل هذه الحالات ، وجاء فى تعليقه " إنه من الصعب أن نستوعب معنى مثل هذه الحقائق ، إذا افترضنا أن كل نوع من أنواع الحيوانات أو النباتات ، أو أن كل طراز عظيم فى التعضية ، قد تم تكوينه ووضع على سطح الكرة الأرضية ، على مدى فترات طويلة ، عن طريق عمل استثنائى للقوة الخالقة ، وأنه لمن المستحسن أن نستعيد التفكير فى أن مثل هذا الافتراض هو غير معضض بالناموس أو الوحي ، مثلما هو معارض للتناظر العام للطبيعة . وعلى الوجه الآخر ، فإذا نظرنا إلى " الأنماط الدائمة" وعلاقتها بهذه الفرضية التى نعتقد أن الأنواع التى تعيش فى أى وقت هى نتيجة التعديل التدريجى لأنواع سابقة فى الوجود ، فإننا نجد أنها فرضية ، مع أنها غير مثبتة وأصابها الضرر بشكل مؤسف بواسطة بعض مؤيديها ، إلا أنها الفرضية الوحيدة التى يعيرها علم وظائف الأعضاء أى اعتبار ، ووجود هذه الأنماط يبدو أنه يظهر أن كمية التعديل التى مرت بها الكائنات الحية فى خلال الأزمنة الجيولوجية ، ماهى إلا شىء قليل بالنسبة إلى مجموع سلسلة التغيرات التى تعرضت لها .

وفى ديسمبر ١٨٩٥ ، نشر " الدكتور هوكر " **Dr. Hooker** كتابه المعنون " مقدمة إلى الحياة النباتية الأسترالية" **Introduction to Australian Flora** . وهو يعترف فى الجزء الأول من هذا العمل العظيم ، بحقيقة نشوء وتعديلات الأنواع ، ويؤيد هذا المبدأ بالعديد من المشاهدات الأصلية . وقد صدر الإصدار الأول من هذا الكتاب فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٥٩ ، والإصدار الثانى فى ٧ يناير عام ١٨٦٠ .

إضافة للنبذة التاريخية

(مختصرة من الترجمة المنشورة للكتاب بواسطة الأستاذ إسماعيل مظهر^(١))

بدأ التفكير فى أصل ونشأة المخلوقات الحية ، النباتية فيها والحيوانية منذ بداية قدرة العقل البشرى على التفكير للاستقصاء والاستفادة مما حوله . ونجد آثارا لهذه الأفكار مازالت باقية فى المتناثرات التى بقيت من حضارات الأمم البائدة التى استقرت فى المناطق الزراعية حول ضفاف الأنهار مثل وادى النيل والرافدين والهند والصين ، ثم انتشرت إلى المناطق الزراعية فى المناطق الأكثر برودة مع المد الحضارى الذى وصل إليها . فقد وجد المقيمون فى هذه المناطق الكثير من الظواهر والمخلوقات تحت أبصارهم ، فنشطوا للتفكير فيما يزيد تنظيم حياتهم من كتابة وتأريخ وتقويم وقوانين وديانات تفكر من أين جاؤا وإلى أين يذهبون .

(١) الأستاذ إسماعيل مظهر هو أول من جرؤ على معالجة كتابات داروين بالترجمة وذلك فى النصف الأول من القرن العشرين ، وقام بترجمة المجلد الذى نحن بصدده الآن وسماه " أصل الأنواع " وهو العنوان الذى نستطيع العذر فى تغييره إلى "نشأة الأنواع الحية" . وجميع العلميين الناطقين باللغة العربية لا يستطيعون أن ينكروا فضل من سبق إلى معالجة هذا الموضوع الصعب من الجهة اللغوية سواء الإنجليزية بما فيها من كتابة باللغة الإنجليزية التقليدية القديمة الرفيعة المستوى، أو العربية بما فيها من مصطلحات علمية معربة، وقصور هذا التعريب على استيعاب كل المعانى ، والصعب أيضا من الواجهة العقائدية لجميع الأديان الإبراهيمية الثلاثة ، بما فيها من طواغيت متصلبة الأذهان من الكهان المعارضين لأى تطور فكري أو علمي، بدافع من التعنت فى الفكر ، وليس بالاطلاع والمناقشة ، وللإبقاء على التبعية لهم وليس للسماح بحرية انطلاق الفكر والمعرفة . ولكن الرجل قد جرؤ وله لدينا عظيم الامتنان وعلينا استكمال مسيرة التنوير التى تجرأ على اقتحامها فى هذا الوقت المبكر نسبيا .

ونتجت أفكار كثيرة عن نشأة الكائنات الحية ومنها الإنسان ، منها أن بدء التكوين كان كتلة لزجة بلا شكل أو صورة تحتوي على نفثة من الخالق ، ثم تعرضت لتأثير الطبيعة ، فتطورت فى أطوار من النشوء حتى بلغت حدها الأخير فى الصورة البشرية ، وقد آمن أيضا القدماء بأن النجوم والكواكب لها تأثير على عناصر الأرض وصور الحياة .

وأقدم ما وصل إلينا مما عثر عليه إلى الآن من تراث الأقدمين هو ما قاله الفيلسوف الإغريقى "أنتكسمندر" (٦١٠ ق.م.) " أن نشأة الكائنات الحية هو نتيجة تأثير الشمس على الأرض ، وتميز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة ، وأن الأرض كانت فى البداية طينية ورطبة أكثر مما هى عليه الآن ، فلما وقع فعل الشمس ، دارت العناصر الرطبة فى جوفها ، وخرجت منها على شكل فقاقيع ، وتولدت الحيوانات الأولى ، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة ، وكانت مغطاة بقشرة كثيفة تمنعها من الحركة والتناسل وحفظ الذات، فكان لابد من نشوء مخلوقات جديدة ، أو بسبب ازدياد فعل الشمس فى الأرض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها ، أما الإنسان فإنه ظهر بعد الحيوانات كلها ، ولم يخل من التقلبات التى طرأت عليها ، فخلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب ، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة " (١) وهذه الفقرة تحمل معظم مبادئ أصل الحياة والنشوء والارتقاء ، والانتقاء والتمايز وتأثير الظروف المحيطة . وإذا كانت قد كتبت من ستة قرون قبل الميلاد ، فلا بد من وجود تلال من المحررات المماثلة السابقة لهذه الحضارة المتوسطة الموضع فى سجل الحضارات .

ثم جاءت الحضارة العربية اللسان ، وأورد إخوان الصفا ما يمكن أن يستخلص منه من مبادئ أولية ومصطلحات مثل : الوراثة ، والرجعى ، والانتخاب الطبيعى ، والانقراض . واحتوت الكتابات العربية على أول ذكر للوحدة ما بين عوالم الحيوان والنبات والجماد ، لا يفصل بينها إلا حدود انقلابية دقيقة ، فاعتبروا أن نبات خضراء

(١) دائرة المعارف العربية للبستاني

الدمن هو أول منزلة من منازل النبات فيما يلي التراب^(١) ، وأن النخل يأتى فى أعلى المراتب النباتية مما يلي الحيوانية ، وهو ما يتفق مع رتبته الحالية لكونه من نوات الفلقتين . ثم وضعوا الحلزون على أساس أنه أدون الحيوانات وأنقصها وذلك لأنه ليس له إلا حاسة واحدة ، هى اللمس ، وبذلك قاربوا بينه وبين النبات . والأمر فى مجموعه أنهم كونوا سلسلة تمتد من الجماد والنباتات إلى الحيوان فى ذلك العصر السحيق ، مماثلة وسابقة لسلاسل التطور فى العصور الحديثة .

وكتب أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن (توفى ٤٢١ هـ) كتابين هما الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق ، قسم النباتات فى أولهما إلى ثلاث مراتب تبدأ من الفطريات والطحالب وتنتهى بالنباتات البذرية نوات الفلقتين ، وهذا مماثل للتقسيم الذى نتبعه حالياً ، ثم تدرج بداية بانقلاب النبات إلى الصورة الحيوانية التى لها حس عام يقال له حس اللمس كما فى الصدف وأنواع الحلزون ، وقال بأن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم ، وإنه قابل للارتقاء حتى مرتبة أعلى من مراتب البشر ، وعن المراتب التى تدرج فيها الإنسان حتى حصل على صورته الحاضرة إنها " مراتب القرود وأشباهاها من الحيوان الذى قارب الإنسان فى خلقته الإنسانية وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا " . وتمر عشرة قرون على هذه الكتابات لنبدأ فى مهاجمة داروين على عقده صلات بين الإنسان والقرود . واستطرد فى كتابه "تهذيب الأخلاق" فى شرح التطور فى نكاء القرود والمجتمعات البدائية إلى أن تصل إلى الإنسان المتحضر ، ويرجع ذلك إلى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات .

(١) إخوان الصفا : الرسالة العاشرة " واعلم يا أختى أن أول مرتبة النباتية أو بونها مما يلي التراب هى خضراء الدمن ، وأخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداء خضراء كأنها نبت زرع وحشائش ، فإذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ، ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما " .

ثم ننتقل إلى مقدمة ابن خلدون (١٣٣٢ م) (المقدمة الثالثة ص ٦٩) التي شرح فيها أن لون الجلد يتعلق بالمناخ وكمية الضوء وأن السودان اختصوا باللون الأسود لحرارة الجو ، وليس لما جاء في القصة التوراتية عن أنهم ولد حام بن نوح ودعوة أبيه عليه بالعبودية ، ولو كان قد أضاف إلى ذلك تأثير السلوك على الكائنات العضوية ، لما افترق عما جاء به "لامارك" ونظرياته في النشوء بعد خمسة قرون . ثم تدرج في المقدمة الرابعة إلى أثر الهواء على صفات البشر الخارجية والداخلية . ثم ذكر في المقدمة الخامسة تأثير الخصب والجوع ، وهو ما يماثل ما جاء به "أندرو نايت" فيما بعد .

أما الجاحظ ، فقد أورد في كتابه " الحيوان " مشاهدات تغتبر من مقومات مذهب النشوء ومنها ما قاله في التلاقح وتزاوج الضروب وإنتاج الأنسال الجديد .

مقدمة (*)

عندما كنت أعمل كأخصائى فى التاريخ الطبيعى ، على متن السفينة "بيجل" Beagle التابعة لخدمة جلالة الملكة ، اصطدمت بشدة مع بعض الحقائق المتعلقة بتوزيع الكائنات العضوية التى تستوطن أمريكا الجنوبية، والمتعلقة بالعلاقات الجيولوجية الخاصة بالقاطنين حاليا وفى الماضى لهذه القارة . وهذه الحقائق ، كما سنرى فى الفصول الأخيرة من هذا المجلد ، بدت وكأنها تلقى بعض الضوء على نشأة الأنواع الحية ، وهو " سر الأسرار " ، كما سبق أن أطلق عليه بواسطة أحد كبار فلاسفتنا . وعند عودتى للوطن ، فقد عنّ لى فى عام ١٨٣٧ ، أنه من الممكن أن أقوم بشيء ما عن هذا السؤال ، وذلك عن طريق التجميع وإمعان الفكر بصبر على جميع أنواع الحقائق التى من المحتمل أن تكون ذات صلة به . وبعد مضى خمس سنوات من العمل ، سمحت لنفسى بأن أتأمل فى هذا الموضوع وأن أستخلص بعض المذكرات القصيرة ، التى قمت بتوسيعها فى عام ١٨٤٤ فى صورة مسودة مؤقتة عن الاستنتاجات ، التى بدت لى محتملة فى ذلك الحين . " وقد استمر ، منذ هذه الفترة إلى الوقت الحالى ، تتبعى الدعوب لنفس هذا الموضوع . وأنا أرجو المعذرة فى تطرقى إلى هذه التفاصيل الشخصية ، وأنا أقوم بتقديمهما لأبين أننى لم أكن فى عجلة للوصول إلى أى قرار .

وقد قارب بحثى الآن (١٨٥٩) على الانتهاء ، ولكن بما أن إتمامه سيستغرق منى عدة سنوات أخرى ، وبما أن حالتى الصحية هى بعيدة كل البعد عن القدرة ، فقد وجدت نفسى مضطرا لأن أنشر هذه الخلاصة ، كما كنت مدفوعا إلى فعل ذلك بشكل أكثر خصوصية ، لأن " السيد والاس " ، الذى يدرس حاليا التاريخ الطبيعى لأرخبيل^(١)

(*) هذه هى المقدمة الأصلية " لداروين" كما جاءت بكتابه .

Archipelago

(١) أرخبيل = مجموعة جزر

الملايو ، قد توصل بالكامل تقريبا إلى نفس الاستنتاجات العامة التي توصلت إليها عن نشأة الأنواع الحية . وقد أرسل لى فى عام ١٨٥٨ مذكرة عن هذا الموضوع مع طلب أن أرسلها إلى "سير تشارلس لايل" Sir Charles Lyell الذى أرسلها بدوره إلى "الجمعية اللينائية" ، وتم نشرها فى الجزء الثالث من جريدة هذه الجمعية . و"السير س . لايل" و"الدكتور هوكر" ، وكلاهما على علم بأبحاثى - فالأخير قد قرأ المسودة الخاصة بى عام ١٨٤٤ - قد أضفيا على الشرف بأن فكرا فى أنه من السيد أن ينشر مع مذكرة "السيد والاس" الممتازة ، بعض الخلاصات المختصرة من مخطوطاتى .

وهذه الخلاصة التي أنشرها الآن ، هي بالضرورة ليست كاملة ، فأننا لا أستطيع أن أسرد مراجع أو استشهادات لتصريحاتى العديدة ، ويجب أن أطلب من القارئ أن يضع بعض الثقة فى الدقة المعهودة عنى . ولا شك فى أن بعض الأخطاء قد حدثت ، بالرغم من أنى أمل فى أن أكون قد توخيت الدقة فى الثقة بصحة المراجع المعتمدة فقط . وأنا أستطيع أن أقدم هنا فقط الاستنتاجات العامة التي توصلت إليها ، مع بعض الحقائق القليلة بغرض التوضيح ، ولكنى أرجو أن تكون كافية فى معظم الحالات . ولا يوجد أحد يستطيع أن يشعر بالاعتناء أكثر منى بضرورة النشر فيما بعد لجميع الحقائق ، المدعمة بالمراجع ، والمتعلقة بالأسس التي تعتمد عليها استنتاجاتى ، وأنا أرجو أن أتمكن من عمل هذا فى أعمال قادمة . وذلك لعلمى التام بأن عدم مناقشة نقطة واحدة وردت بهذا الكتاب بشكل كاف قد يؤدي إلى عدم القدرة على الوصول إلى الحقائق ، وهذا بدوره كثيرا ما يؤدي إلى استنتاجات مضادة تماما للاستنتاجات التي قد توصلت إليها ، فإن النتيجة الصحيحة يمكن الوصول إليها فقط عن طريق السرد الكامل ، والموازنة للحقائق والاعتراضات على كل جانب من كل تساؤل ، وهذا مستحيل فى هذا المجال .

ويؤسفنى جدا أن الافتقار إلى المساحة فى الكتابة يمنعنى من الشعور بالرضا عن الاعتراف بالمساعدة السخية التي تلقيتها من العدد الكبير من علماء التاريخ الطبيعى ، مع أن البعض منهم لم يسبق لى معرفته . وعلى كل حال ، فأننا لا أستطيع أن أدع هذه الفرصة تمر بدون التعبير بخالص تقديرى "للدكتور هوكر" ، الذى قام

بمساعدي خلال فترة الخمسة عشر عاما الماضية ، بكل طريقة ممكنة وذلك بمخزونه العظيم من المعرفة وقدرته الممتازة فى الحكم على الأمور .

عند التأمل فى نشأة الأنواع الحية ، فمن المؤكد جداً تصور أن عالماً فى التاريخ الطبيعى ، يقرب الفكر فى الصلات المشتركة بين الكائنات العضوية ، وفى علاقاتها الجينية ، وفى توزيعها الجغرافى ، وفى تعاقبها الجيولوجى ، والحقائق الأخرى المماثلة ، فإنه قد يصل إلى استنتاج أن الأنواع الحية لم تخلق بصورة مستقلة عن بعضها ، ولكنها قد انحدرت ، مثلما حدث للضروب ، عن أنواع أخرى . وعلى الرغم من ذلك ، فإن مثل هذا الاستنتاج ، حتى ولو كان على أسس متينة ، فإنه قد يكون غير كاف ، إلى أن يمكن إظهار الكيفية التى قد تعدل بها هذا العدد الكبير من الأنواع التى تقطن هذا العالم ، إلى حد اكتساب هذا الكمال فى التركيب والتعايش الذى يثير إعجابنا بجدارة . وعلماء التاريخ الطبيعى يشيرون باستمرار إلى الظروف الخارجية ، مثل المناخ والطعام وخلافه ، على أساس أنها السبب المحتمل الوحيد للتمايز . وقد يكون هذا حقيقياً فى اتجاه محدد واحد فقط ، كما سنرى فيما بعد ، ولكنه من غير المعقول أن يعزى للظروف الخارجية وحدها ، نشوء تركيب مثل ما لدى نكار الخشب بما لديه من أرجل وذيل ومنقار ، ولسان معدين بطريقة تثير الإعجاب لاصطياد الحشرات الموجودة تحت لحاء الأشجار . وفى حالة نبات الهدال ^(١) الذى يستمد غذاءه من بعض الأشجار ، والذى يحوذ بنورا من المحتم انتقالها بواسطة طيور معينة ، ولديه زهور ذات هويات جنسية منفصلة محتاجة بشكل مطلق إلى مساعدة بعض الحشرات لنقل اللقاح من إحدى الزهور إلى زهرة أخرى . ومن غير المعقول بشكل مماثل إيجاد تفسير لتركيب هذا النبات الطفيلى ، وعلاقاته مع العديد من الكائنات العضوية المختلفة عن بعضها على أساس تأثيرات العوامل الخارجية ، أو على أساس تأثير السلوك ، أو على أساس إرادة النبات نفسه .

وهكذا ، فمن المهم جداً أن يكون لدينا رؤيا واضحة عن الوسائل المتبعة للتعديل والتعايش . وقد بدا لى عند بداية مشاهداتى ، أنه من الممكن بالدراسة الدقيقة

Mistletoe

(١) نبات الهدال = الدبق : نبات طفيلى

للحيوانات المدجنة والنباتات المتعهدة بالرعاية أن تتوفر لدينا أفضل الفرص لإيجاد حل لهذه المشكلة الغامضة . ولم يحدث أن أصبت بخيبة أمل من هذا الموضوع أو من جميع الحالات المحيرة ، التي وجدت فيها بصورة دائمة أن معرفتنا ، بالرغم من قصورها ، عن التمايز تحت تأثير التدجين كانت هي التي قدمت أفضل وأسلم حل لهذا اللغز . وقد أغامر بالتصريح باقتناعي بالقيمة العالية لمثل هذه الدراسات ، بالرغم من أنها كانت مهملة بشكل شائع جدا من علماء التاريخ الطبيعي .

ومن أجل كل هذه الاعتبارات ، فإنني سأخصص الباب الأول من هذه الخلاصة إلى " التمايز تحت تأثير التدجين " . وعندها سوف نرى أن كمية كبيرة من التعديلات الوراثية هي على الأقل شيء ممكن ، وأن ما هو معادل ، إن لم يكن أكثر في الأهمية ، هو أننا سوف نرى مدى عظمة قدرة الإنسان على التكديس عن طريق انتقائه ، للتمايزات البسيطة المتعاقبة . وبعد ذلك سأعالج موضوع تمايز الأنواع في الظروف الطبيعية ، ولكني للأسف ، سوف أكون مضطرا لمعالجة هذا الموضوع بشكل مختصر جدا ، حيث إنه من المستطاع معالجته فقط بإعطاء قوائم طويلة من الحقائق . ومع ذلك ، فسوف يكون بإمكاننا مناقشة ما هي الظروف الأكثر مناسبة للتمايز . وفي الفصل التالي سوف نتفكر في " الكفاح من أجل البقاء " فيما بين جميع الكائنات العضوية ، في جميع أنحاء العالم ، والذي لا مناص من أنه تابع للمتوالية الهندسية العالية لتزايد أعدادهم . وهذا هو مبدأ " مالثوس " ^(١) ، **Malthus** ، المطبق على كل الممالك الحيوانية والنباتية . وبما أن عدد الذين يولدون من كل نوع هو أكبر من أن يعيش ، وبما أنه بالتالي ، هناك صراع يتكرر كثيرا من أجل البقاء ، فالذي يحدث بعد ذلك هو : لو أن أى كائن تمايز بأى قدر بسيط ، وبأى وسيلة مفيدة له ، تحت تأثير ظروف الحياة المعقدة والكثيرة التغيير ، فسوف تكون له فرصة أفضل للاستمرار فى الحياة ، وبالتالي سوف يتم انتقاؤه طبيعيا ، وبناء على المبدأ القوى للوراثة ، فإن أى ضرب منتقى ، سيميل إلى الإكثار من شكله الجديد والمعدل .

(١) العالم مالثوس (١٧٦٦-١٨٢٤) صاحب نظرية أن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق **Malthus** زيادة الموارد الغذائية ، وأن النسل يجب أن يحد

سوف تتم معالجة الموضوع الرئيسى ، وهو الانتقاء الطبيعى ببعض الإسهاب فى الفصل الرابع ، وسنرى حينئذ كيف أن الانتقاء الطبيعى يسبب بصورة لا مناص منها تقريبا ، الكثير من الاندثار لأشكال الحياة الأقل تحسنا ، ويؤدى إلى ما قد أطلقت عليه "تشعب الطابع"^(١)، وفى الباب التالى سوف أناقش قوانين التمايز المعقدة وغير المعروفة إلا قليلا . وفى الأبواب الخمسة التى بعد ذلك سأقدم الصعوبات الكبيرة والظاهرة جدا أمام قبول النظريات ، وهى : أولا : صعوبة التحولات : أو كيف يستطيع كائن بسيط أو عضو جسدى بسيط أن يتغير ويكتمل فى صورة كائن على التكوين أو عضو مشيد بدقة . ثانياً : موضوع الغريزة : أو القوة العقلية للحيوانات ، وثالثاً : موضوع التنغيل:^(٢) ، أو عدم قدرة الأنواع على الإنجاب وخصوبة الضروب عندما يختلط التناسل بينها. ورابعاً : النقص الموجود فى السجل الجيولوجى . وفى الباب التالى سوف أناقش التعاقب الجيولوجى للكائنات الحية على مدى الزمن ، وفى البابين الثانى عشر والثالث عشر ، سأتناول توزيع هذه الكائنات على مدى المكان . وفى الباب الرابع عشر ، تقسيم هذه الكائنات ، أو الصلات المشتركة فيما بينها ، فى كل من حالتها التامة النضج ، أو حالتها الجنينية ، وفى الفصل الأخير ، سوف أقدم إعادة مختصرة لنقاط الأساسية فى كل هذا البحث ، بالإضافة إلى البعض القليل من الملاحظات .

ويجب ألا يشعر أحد بالدهشة من القدر الكثير الذى مازال غير مفهوم فيما يتعلق بنشأة الأنواع والضروب الحية ، إذا ما سمح بالتالى لجهلنا الشديد فيما يتعلق بالعلاقات المشتركة التى بين الكثير من الكائنات التى تعيش حولنا . فمن منا يستطيع أن يفسر لماذا يرمى أحد الأنواع على نطاق واسع ومع ذلك فأعداده كبيرة ، ولماذا ينحصر رعى نوع آخر متقارب فى نطاق ضيق ، ولكننا نجد نادر الوجود .

ومع ذلك فهذه العلاقات فى غاية الأهمية ، وذلك لأنها تقرر الصالح العام الحالى ، وكما أعتقد ، النجاح والتعديل فى المستقبل لكل القاطنين فى هذا العالم . ومازالت

(١) تشعب الطابع * = انحراف الصفات: اكتساب المتعضيات الشقيقة صفات Divergence of Character

متباينة فى البيئات غير المتماثلة = اختلاف = انحراف

Hybridism

(٢) التنغيل = التهجين = التوليد من نوعين مختلفين

معرفتنا أقل عن العلاقات المشتركة لقاطنى العالم العديدين أثناء العهود الجيولوجية السابقة فى تاريخ هذا العالم . وبالرغم من أن الكثير مازال مستغلقا ، وسيبقى مستغلقا لمدة طويلة، فليس لدى أى شك، بعد قيامى بكل ما فى استطاعتى من دراسة متأنية واجتهاد هادئ ونزيه ، فى أن وجهة النظر التى دأب معظم علماء التاريخ الطبيعى على اتباعها إلى وقت قريب ، والتى سبق لى اتباعها فى الماضى ، ألا وهى ، أن كل نوع حى قد تم خلقه بشكل مستقل ، ماهى إلا وجهة نظر خاطئة . وأنا مقتنع تماما بأن الأنواع الحية ليست ثابتة وليست قابلة للتغيير ، ولكن أن هذه الأنواع التابعة لما يسمى بنفس الطبقات ماهى إلا سلائل منحدره مباشرة من بعض الأنواع الحية الأخرى المنثرة تماما ، وب نفس الصورة التى نجد فيها أن الضروب المعروفة التابعة لأى نوع معين ماهى إلا سلائل لهذا النوع . والأكثر من هذا ، فأنا مقتنع بأن الانتقاء الطبيعى قد كان الوسيلة الأكثر أهمية ، ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة للتعديل .

الباب الأول

التمايز^(١) تحت تأثير التدجين^(٢)

أسباب القابلية للتمايز - تأثيرات السلوك ، والاستخدام أو عدم الاستخدام للأجزاء - التمايز المتلازم^(٣) - الوراثة - الطابع الخاص بالضروب^(٤) الداجنة - صعوبة التمييز بين الضروب والأنواع^(٥) - نشأة^(٦) الضروب الداجنة من واحد أو أكثر من الأنواع - الحمائم الداجنة ، اختلافاتها ونشأتها - قواعد الانتقاء^(٧) التي اتبعت قديما وتأثيراتها - الانتقاء المنهجي وغير المتعمد^(٨) - المنشأ المجهول لمنتجاتنا الداجنة - الظروف المواتية لقدرة الإنسان على الانتقاء.

Variation	(١) تمايز = اختلاف = شكل مختلف = تباين = انحراف = تغير = تغيير (يرجع إلى المسرد)
Domestiation	(٢) التدجين = الترويض = التآليف على الحياة المنزلية
Correlated variation	(٣) التمايز المتلازم * (وهذا المصطلح يحمل المعنى أفضل من الاختلاف المتبادل الجارى استخدامه)
Variety	(٤) ضرب = نوع = صنف = سلالة = تشكيلة = مجموعة منوعة
Species	(٥) النوع = الأنواع
Origin	(٦) نشأة = منشأ = مصدر = منبت = أرومة = محتد = ابتداء
Selection	(٧) الانتقاء = الاصطفاء = الاختيار = (الانتخاب)
Unconscious	(٨) غير المقصود = الغير متعمد = غير الدار = اللاوعى

أسباب التمايز

عندما نعقد مقارنة بين الأفراد التابعين لنفس الضرب ، أو فرع من الضرب^(١) من النباتات والحيوانات التي تعدها منذ قديم الأزل ، فإن إحدى النقاط الأولى التي صدمتنا هي أنها تختلف على وجه العموم عن بعضها بعضا بشكل أكبر، عن الاختلاف الموجود بين الأفراد التابعة لأي نوع أو ضرب ما موجود في البيئة الطبيعية.^(٢) وعندما نفكر مليا في التنوع الهائل للنباتات والحيوانات التي تم وضعها تحت التعهد والرعاية ، والتي قد تمايزت في خلال جميع العصور تحت تأثير أشد الاختلافات في الأجواء والمعالجة ، فإننا نجد أنفسنا مساقين إلى استنتاج أن هذا التمايز الكبير إنما هو نتيجة أن منتجاتنا الداجنة قد ترعرعت تحت ظروف حياتية ليست بمثل الاتساق ، ومختلفة بعض الشيء ، عن تلك الظروف التي تعرضت لها الأنواع الأصلية الأبوية في ظل الطبيعة . كما يوجد أيضا بعض الاحتمال - من وجهة النظر المقترحة من "أندرونايت" **Andrew Knight** . أن هذه القابلية للتمايز قد تكون مرتبطة جزئيا بوفرة الطعام . ويبدو واضحا أن الكائنات العضوية يجب أن تتعرض ، في خلال العديد من الأجيال ، إلى ظروف جديدة ، حتى يحدث فيما بينها أى قدر كبير من التمايز ، وأنه بمجرد ابتداء الاختلاف في التعضية^(٣) ، فإن التمايز عادة ما يستمر لعدة أجيال . ولا توجد أى حالة مسجلة لتوقف أى كائن قابل للتمايز عن التغيير تحت تأثير التعهد بالتهذيب.^(٤) وأقدم نباتاتنا المتعهدة ، مثل القمح ، ما زالت تدر ضروبا جديدة - وأقدم حيواناتنا المدجنة ما زالت قادرة على التحسن السريع أو التعديل^(٥) .

وبقدر استطاعتي على الحكم على الأشياء ، وبعد مدة طويلة من الانكباب على هذا الموضوع ، فإنه يبدو لى أن ظروف الحياة تعطى تأثيراتها من خلال طريقتين : إما

(١) ضرب فرعى = فرع من الضرب = تحت الصنف = تحت الضرب = الضرب * Sub variety

(٢) حالة طبيعية = ظروف طبيعية = تحت تأثير الطبيعة = بيئة طبيعية * state of nature

(٣) التعضية = التعضى = التنظيم = النظام = منظمة Organization

(٤) تعهد = رعاية = تهذيب = عناية = صقل Cultivation

(٥) تعديل = تكيف = تغيير = تحور Modification

بطريقة مباشرة على كل نظام التعضية ، أو على أجزاء معينة منه فقط ، أو بطريقة غير مباشرة على النظام التكاثرى ^(١) ، أما فيما يتعلق بالتأثير المباشر ، فمن الواجب أن نضع فى اعتبارنا - كما أصر مؤخرا "الأستاذ وايزمان" **Professor Weismann** ، وكما وضحته أنا فى البحث الخاص بى عن "التمايز تحت تأثير التدجين" - أنه يوجد فى كل حالة عاملان محددان . ألا وهما: طبيعة الكائن ، وطبيعة الظروف . ويبدو أن العامل الأول هو ذو الأهمية الكبرى إلى حد بعيد ، وذلك لأن تمايزات متماثلة تقريبا قد تنشأ فى بعض الأحيان تحت - ما يبدو حسب تقديرنا- ظروف غير متماثلة ، وعلى الوجه الآخر فإن تمايزات أخرى غير متماثلة تنشأ تحت ظروف تبدو متطابقة تماما . والتأثيرات الناتجة على الذرارى هى إما أن تكون نهائية أو غير نهائية . فإنه من الممكن اعتبارها نهائية عندما يتعدل بنفس الطريقة كل ، تقريبا ، ذرارى الأفراد التى تعرضت إلى ظروف معينة فى خلال أجيال عديدة . وأنه لمن الصعب جدا الوصول إلى أى استنتاج فيما يتعلق بمدى التغيرات التى قد تم إدخالها بشكل نهائى من خلال هذه المؤثرات ، وعلى كل حال فهناك قليل من الشك فيما يتعلق بالكثير من التغييرات البسيطة : مثل الحجم نتيجة للمناخ ، وخلافه . وكل من هذه التمايزات اللانهائية التى نراها فى ريش ^(٢) طيورنا لا بد من أنه قد كان لها سبب كاف ، وإذا كان لنفس السبب أن يستمر فى التأثير بشكل منتظم على أفراد كثيرين من خلال سلسلة طويلة من الأجيال ، فمن الغالب أن جميعهم كانوا سيتعدلون بنفس الأسلوب . وتلك الحقائق مثل التورمات ^(٣) الخارجة عن المألوف والتى تنتج بشكل غير عادى من إيلاج نقطة دقيقة من السم عن طريق حشرة مسببة للتقرحات ^(٤)، تظهر لنا ماهية التحورات الاستثنائية التى قد تنشأ فى حالة النباتات، نتيجة تغير كيميائى ما فى طبيعة "النسغ" ^(٥) .

Reproductive

(١) التوالدى = التكاثرى = الإنتاجى = التناسلى

Plumage

(٢) ريش الطيور

Out -growth

(٣) تورم = نمو زائد *

Gall-producing insect

(٤) حشرة مسببة للتقرحات *

Sap

(٥) النسغ : السائل الذى يجرى فى أوعية النباتات حاملا الماء والغذاء

والتمايز غير المحدد هو نتيجة أكثر شيوعاً بكثير للظروف المتغيرة عن التمايز المحدد ، وقد لعب في الغالب دوراً أكثر أهمية في تكوين أعراقنا الداجنة . ونحن نرى تمايزاً غير محدود في الخصوصيات البسيطة اللانهائية التي تستخدم في التفرقة بين الأفراد التابعين لنفس النوع ، والتي لا يمكن أن تعزى إلى الوراثة من أى من الأبوين أو من سلف أكثر بعداً . ويصل الأمر إلى أن هناك اختلافات ملحوظة بشدة تظهر أحياناً على صغار نتاج البطن نفسها ^(١) ، وعلى النباتات ^(٢) الصغيرة الناتجة من عليبة البنور نفسها ^(٣) ويحدث على مدى فترات طويلة من الزمن أن نجد بين ملايين الأفراد الذين نشأوا في نفس البلد ، واقتاتوا على نفس الطعام تقريباً ، انحرافات شديدة الوضوح في البنية، حتى إنها تستحق أن تسمى ظواهرًا شاذة ^(٤) ، ولكن هذه الظواهر الشاذة لا يمكن تفرقتها بخط واضح عن التمايزات الأكثر بساطة . وكل مثل هذه التغيرات في البنية التي تظهر بين الكثير من الأفراد الذين يعيشون معاً ، سواء كانت غاية في البساطة أو شديدة الوضوح ، من الممكن اعتبار أنها تأثيرات غير محددة لظروف الحياة على كل كائن مستقل ، وبنفس الطريقة تقريباً التي يؤثر بها البرد على أناس مختلفين بطريقة غير محددة ، اعتماداً على حالة جسددهم أو بنيتهم ، فقد يسبب لهم نزلات من السعال أو البرد ، أو الرثية ^(٥) ، أو التهاباً في أعضاء مختلفة .

أما فيما يتعلق بما أطلقت عليه تعبير "التأثير غير المباشر للظروف المتغيرة" ، وبالتحديد من خلال التأثير على الجهاز التكاثرى ، فإننا من الممكن أن نستنتج أن التمايز يحدث بهذه الطريقة ، وذلك نابع جزئياً من أن هذا الجهاز حساس بدرجة شديدة لأى تغير في الظروف ، والجزئية الثانية نابعة من التماثل - طبقاً لتعليقات "كولرويتر" **Kolreuter** وآخرين - بين النتاج المتميز الناتج من تهجين الأنواع المنفصلة،

Litter	(١) نتاج البطن = البطن : مجموع الجراء التي يلدها حيوان دفعة واحدة
Seedling	(٢) نبتة = نبتة صغيرة = شجيرة صغيرة
Seed -capsule	(٣) عليبة البنور = كبسولة البنور
Monstrosities	(٤) ظواهر شاذة
Rheumatism	(٥) الرثية = الروماتيزم

وهو الذى قد نشاهده فى النباتات والحيوانات عندما تربي تحت ظروف جديدة أو غير طبيعية . والكثير من الحقائق تظهر بوضوح مدى عرضة الجهاز التكاثرى الشديدة للتغيرات البسيطة جدا التى تحدث فى الظروف المحيطة . فلا يوجد شئ أكثر سهولة من استئناس حيوان ما ، ولكنه توجد أشياء قليلة أكثر صعوبة من حثه على الإنجاب بتلقائية فى ظل الأسر ، حتى إذا حدث اتحاد بين الذكر والأنثى . وكم هناك من الحيوانات التى سوف لا تنجب ، بالرغم من الاحتفاظ بها فى حالة شبه حرة فى موطنها الأصلي : وهذا بصورة عامة ، ولكنها خاطئة ، يعزى إلى اختلاف الغرائز . والكثير من النباتات المتعمدة ^(١) تبرز العنفوان اللامتناهى ، ولكنها فى نفس الوقت من النادر أن تنتج أو لا تنتج على الإطلاق أى بنور ! وفى بعض الحالات القليلة فإنه تم اكتشاف أن حدوث تغييرات فى منتهى التفاهة مثل أن الكمية الضئيلة الأكثر أو الأقل من الماء عند مرحلة معينة ما من النمو ، سوف يحدد ما إذا كان أحد النباتات سوف ينتج أو لن ينتج بنورا . وأنا لا أستطيع أن أقدم هنا التفاصيل التى قد قمت بجمعها ونشرها فى كتابات أخرى عن هذا الموضوع المثير للفضول ، ولكن لإظهار مدى استثنائية القوانين التى تتحكم فى تكاثر الحيوانات تحت الأسر ، فإنه يعنى لى أن أنكر أن الحيوانات الآكلة للحم ^(٢) ، حتى الواردة من المناطق الاستوائية ، تتكاثر فى هذا البلد (بريطانيا) بصورة مطلقة جدا تحت الأسر ، باستثناء الحيوانات الأخصمية السير ^(٣) أو عائلة الدببة ، التى من النادر أن تنتج صغيرا . أما بالنسبة للطيور الآكلة للحوم ، مع بعض الاستثناءات النادرة جدا ، فمن الصعوبة بمكان أن تضع بيضا مخصبا . والكثير من النباتات الغربية جدا والدخيلة علينا ^(٤) لها لقاح ^(٥) لا قيمة له على الإطلاق ، وفى نفس الحالة التى نجدها فى معظم الأنغال ^(٦) العقيمة . وعلى الجانب الآخر ،

Cultivated	(١) متعمدة = مصقولة = مهذبة = منشأة بالناية والتعهد
Carnivorous animals	(٢) الحيوانات الآكلة للحم = آكلة اللحوم = لاحمة = لواحم
Plantigrades	(٣) أخصمية السير: تمشى على باطن القدم وقد مس عقبها الأرض (كإنسان والذب)
Exotic	(٤) دخيل = مجلوب = غريب جدا (فى اللون أو الطراز)
Pollen	(٥) لقاح = غبار الطلع
Hybrid	(٦) النغل = هجين = مختلط = موالد

فعندما نرى حيوانات ونباتات مدجنة ، بالرغم من أنها تبدو ضعيفة ومريضة المظهر ، إلا أنها تتكاثر على نطاق واسع في ظل الأسر، ومن جهة أخرى عندما نرى أفرادا ، بالرغم من انتزاعها وهي مازالت صغيرة من بيئتها الطبيعية ، إلا أننا نجدها في حالة استئناس تام ، وتتمتع بعمر مديد وصحة موفورة (وفي استطاعتى أن أسرد حالات عديدة من هذا النوع)، ولكنها تعاني من تأثيرات خطيرة على جهازها التكاثرى، عن طريق أسباب غير مفهومة ، كالفشل فى الأداء مثلا ، فلا حاجة بنا لأن نصاب بالدهشة من هذا الجهاز الذى عندما يعمل تحت تأثير الأسر ، فإنه يعمل بطريقة غير منتظمة وينتج ذرية تختلف بعض الشيء عن آبائها . وربما أضيف أنه بما أن بعض الكائنات تتكاثر بانطلاق تحت أكثر الظروف افتقارا للطبيعية ، (على سبيل المثال : الأرنب وفضيلة ابن مقرض^(١) عندما يحتفظ بهم فى الأقفاص) مما يثبت عليها أن أعضائها التكاثرية لا تتأثر بسهولة ، فإن هذا ينطبق أيضا على بعض الحيوانات والنباتات التى تتحمل التدجين أو الاستزراع وتتغير بشكل بسيط جدا ، ربما أكثر قليلا جدا مما يحدث فى بيئتها الطبيعية .

بعض علماء التاريخ الطبيعى متمسكون بأن كل التمايزات مرتبطة مع عملية التكاثر الجيسى ، ولكن هذا اعتقاد خاطئ، حيث إنى قد قدمت فى أحد الأبحاث الأخرى قائمة طويلة من "النباتات اللعوبة"^(٢) - كما يطلق عليها البستانية - وهى نباتات تنتج فجأة برعما واحدا ذا صفة جديدة و أحيانا يكون مختلفا بشكل كبير عن البراعم الأخرى الموجودة على النبات نفسه . وهذه التمايزات فى البراعم ، كما يمكن أن تسمى ، من الممكن الإكثار منها بواسطة الطعومات^(٣) أو الفسائل^(٤) وخلافه ، وفى بعض الأحيان بواسطة البنور . وهذه النباتات من النادر تواجدها فى الطبيعة ، ولكنها أكثر ندرة بشكل كبير فى ظل الاستزراع . كما يحدث لبرعم واحد من بين عدة

Ferret

Sporting plants

Graft

Offset

(١) ابن مقرض : حيوان شبيهه بابن عرس

(٢) النباتات اللعوبة = الرياضية = العابثة *

(٣) تطعيم النبات = الطعم المستخدم فى التطعيم

(٤) الفسيلة من النبات = فرع منبثق

آلاف برعم ، يظهر سنة بعد سنة على الشجرة نفسها تحت الظروف نفسها ، ثم يعرف عنه فجأة أنه قد اتخذ صفة جديدة ، وكما يحدث لبراعم على نوع من الأشجار عندما تنمو تحت ظروف مختلفة ، قد تنتج في بعض الأحيان نوعا مقاربا لإنتاجها نفسه تقريبا - على سبيل المثال : براعم شجر الخوخ التي تنتج رحيقانيات^(١) ، وبراعم شجر الورد العادى التي تنتج وردا طحلبيا^(٢) - فذلك يجعلنا نرى بوضوح أن طبيعة الظروف هى ذات أهمية ثانوية ، بالمقارنة مع طبيعة الكائن الحى ، فى تحديد كل شكل معين من أشكال التمايز ، وربما ليست أكثر أهمية من طبيعة الشرارة التي تشعل كتلة من مادة ملتهبة ، وما لهذه الشرارة من قدرة على تحديد طبيعة أسنة اللهب .

تأثيرات السلوك و الاستخدام أو عدم الاستخدام للأجزاء ،

التمايز المتلازم - الوراثة

السلوكيات التي تتغير تحدث تأثيرا وراثيا ، ومثال ذلك ما يحدث فى الفترة التي تزهر فيها النباتات عندما تنقل من مناخ إلى مناخ آخر . أما فى الحيوانات ، فإن الزيادة فى استخدام أو عدم استخدام الأجزاء قد كان له تأثير أكثر وضوحا ، ومصداقا لهذا فإننى قد وجدت فى البط الداكن ، أن عظام الجناح تزن أقل وعظام الساق تزن أكثر ، عند مقارنتها بمجمل وزن الهيكل العظمى ، وذلك يظهر بصورة أكبر مما نراه فى نفس العظام الموجودة فى البط الوحشى . ومن الممكن أن نعزو هذا التغيير ، ونحن مطمئنون ، إلى أن البط الداكن يطير بصورة أقل بكثير ، ويمشى بصورة أكثر من أبويه الوحشيين . والتكوين الكبير والموروث لأثدية الأبقار والماعز فى البلاد التي اعتادت حلب هذه الحيوانات ، عند مقارنتها بهذه الأعضاء نفسها فى بلاد أخرى ، من الممكن أن تظهر لنا حالة أخرى من حالات تأثيرات الاستخدام . ولا يمكن

Nectarine

(١) الرحيقانى = ضرب من الخوخ له رحيق حلو جدا

Moss-rose

(٢) زردة طحلبية = رجلة أفرنجى

أن نشير إلى نوع واحد من حيواناتنا الداجنة ليس له أذان متدلّية فى أى بلد ما ، ووجهة النظر التى تم اقتراحها هى أن تدلى الأذان هو نتيجة لعدم استخدام عضلات الأذن وذلك نتيجة لندرة الحاجة إلى تنبه الحيوانات للخطر ، وهذا الاتجاه فى التفكير يبدو أنه هو الاتجاه الراجح .

الكثير من القوانين ينظم التمايز ، البعض القليل منها لا نراه بوضوح ، وهو الذى سنتناوله باختصار فيما بعد. أما هنا فسوف أشير إلى ما يمكن أن يسمى التمايز المتلازم ^(١) . فإن أى تغيرات مهمة فى الجنين أو فى اليرقة ^(٢) ، سوف يتبعها غالباً تغيرات فى الحيوان البالغ . وفى الظواهر الشاذة ، نجد أن الارتباطات فيما بين الأجزاء المختلفة عن بعضها جدا شىء فى منتهى الغرابة ، وهناك الكثير من هذه الحالات المذكور فى العمل العظيم الذى قام به "إيزانور جيوفروى سانت هيلارى" **Isidore Geoffroy St. Hillaire** فى هذا الموضوع . والذين يقومون بتربية الحيوانات يؤمنون بأن الأطراف الطويلة فى جميع الحالات تقريبا متلازمة مع الرأس المستطيل . وبعض حالات التلازم تعتبر من الأطوار الغربية ^(٣) تماماً : فمثلاً : القطط البيضاء تماما ولها عيون رزقاء ، تعاني بشكل عام من الصمم ، ولكننا نجد أن السيد "تيت" **Mr.Tait** قد صرح أخيراً ، بأن هذا مقصور على الذكور . واللون والمميزات الجسمانية الخاصة أشياء متلازمة ، ومن الممكن أن نسوق الكثير من الحالات الملفتة للنظر الموجودة فى الحيوانات والنباتات . ويبدو من الحالات التى قام بجمعها "هيوسينجر" **Heusinger** ، أن الخراف والخنازير البيضاء تؤذيها بعض النباتات ، بينما مثيلاتها الداكنة اللون تنجو من ذلك - ومن فترة بسيطة بلغنى من "الأستاذ وايمان" **Profesor Wymann** مثال جيد يوضح هذه الحقيقة ، فعندما سأل بعض العاملين فى المزارع فى ولاية فرجينيا **Virginia** كيف تأتى أن جميع خنازيرهم سوداء اللون ،

Correlated variation

(١) التمايز المتلازم * (التمايز المتبادل **)

Larva

(٢) يرقة = يرقانة = سرء

Whimsical

(٣) غريب الأطوار = كثير النزوات = نزوى = غريب

فإنهم أخبروه بأن الخنازير قد أكلت من جنور نبات الصبغة^(١) (نبات الصابوغ)^(٢) الذى تسبب فى اكتساب عظامهم اللون الأحمر الوردى كما تسبب فى تساقط حوافر جميع الخنازير فيما عدا الضروب السوداء منهما، وأضاف أحد المواطنين المحليين^(٣) (المقيمين فى فرجينيا) نحن ننتقى الأفراد السوداء منذ الصغر بغرض التربية ، وذلك لأنها الصنف الوحيد الذى لديه فرصة جيدة للاستمرار فى الحياة . والكلاب عديمة الشعر لديها أسنان معيوبة-والحيوانات ذات الشعر الطويل أو الشعر المجعد قابلة ، طبقا لتأكيد الكثيرين ، لأن يكون لها قرون طويلة أو قرون متعددة - والحمام التى يوجد لديها ريش فى قدمها ، يتصل الإصبعان الخارجيان فى أقدامها بقطعة جلد بينهما - والحمام نو المناقير القصيرة لديه أقدام صغيرة ، أما نو المناقير الطويلة فإن أقدامه كبيرة . ومن ثم ، فإذا استمر الإنسان فى الانتقاء ، وبالتالى تجميع أى صفة فريدة ، فإنه سوف يعدل بدون قصد أجزاء أخرى فى البنية ، بناء على قوانين التلازم الغامضة .

قوانين التمايز المختلفة وغير المعروفة ، ولو أنها مفهومة بشكل غامض ، لها نتائج معقدة ومتشعبة بشكل لا نهائى . وإنه لمن المهم جدا أن ندرس بعناية الأبحاث المختلفة التى تمت عن بعض نباتاتنا المزروعة منذ القدم ، كالدراسات التى تمت عن نباتات السنبل^(٤) والبطاطس والدهلية^(٥) وخلافه ، وإنه لمن المثير للدهشة حقا ملاحظة نقاط الاختلافات البسيطة اللانهائية فى التركيب والتكوين التى تختلف فيها الضروب وفروع الضرب عن بعضها البعض . ويبدو أن مجمل مراحل التعضية قد أصبحت مرنة ، وتحدد بدرجة قليلة عن تعضية النوع الأبوى.

Paint-root	(١) جنور نبات الصبغة : شبيهة بجذر الشمندر (البنجر) *
Lachnanthes	(٢) نبات الصابوغ **
Crackers	(٣) مواطن محلى *
Hyacinth	(٤) نبات السنبل = الياقوتية = الخزام : نبات نو زهرة جميلة من الزنبقيات
Dahlia	(٥) نبات الدهلية = الأضاليا : نبتة طويلة ذات زهرات كبيرة جميلة

أى تمايز لا يتم توريثه لا يمثل لنا أية أهمية. ولكن عدد وتنوع الانحرافات الموروثة فى التركيب لا نهاية لها . سواء كانت بسيطة أو ذات أهمية وظيفية كبيرة . والرسالة المقدمة من "الدكتور بروسبر لوكاس " Dr. Prosper Lucas ، والتي تقع فى جزأين كبيرين ، هى أكمل وأفضل المراجع عن هذا الموضوع . ولا يشك أحد من العاملين فى تربية الحيوانات فى مقدار القوة التى تحملها القابلية للوراثة، والإيمان الأساسى لكل واحد منهم هو أن " المثيل ينتج مماثلا " . أما بالنسبة للشكوك التى ألقيت على هذا المبدأ ، فقد كانت بواسطة الكتاب النظريين فقط . وعندما يظهر أى انحراف فى التركيب فى أحوال كثيرة نستطيع أن نشاهده فى الأب والطفل ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن كان هذا ليس نتيجة لنفس السبب الذى قد أثر على كليهما . ولكن عندما يحدث ذلك بين أفراد من الواضح أنهم تعرضوا لنفس الظروف ، فإن أى انحراف نادر جداً ، نتيجة لأى مجموعة من الظروف الإستثنائية ، قد يظهر على الأب - ولنقل مرة من ضمن عدة ملايين من الأفراد- ثم يعود للظهور على الطفل ، فى هذه الحالة فإن مجرد تطبيق مبدأ أو نظرية الاحتمالات^(١) ، يجبرنا تقريبا على أن نعزو هذه العودة للظهور إلى الوراثة . وكل إنسان لابد وأن يكون قد سمع عن حالات المهق^(٢) ، والجلد الشائك^(٣) ، والأجساد المشعرة وخلافه ، التى قد تظهر فى أعضاء عديدة من نفس العائلة، وإذا كانت الانحرافات الغريبة والنادرة فى التركيب هى أشياء موروثة بالفعل، فإنه يصبح بالأحرى أن نعترف بقابلية الانحرافات الأقل قرابة والأكثر شيوعا للوراثة. وربما كانت الطريقة الصحيحة للإحاطة بالموضوع بأكمله ، هى أن ننظر إلى وراثة كل صفة أيا كانت كقاعدة عامة ، وإلى عدم توارثها على أساس أنها شنود عن هذه القاعدة.

القوانين التى تتحكم فى الوراثة هى فى معظمها مجهولة . ولا يوجد أحد يستطيع أن يفسر لماذا فى بعض الأحيان يجرى توارث نفس الخاصية فى أفراد مختلفين من

Doctrine of chances

(١) مبدأ أو نظرية الاحتمالات

Albinism

(٢) المهق : بياض الجلد والشعر الخلقى

Prickly skin

(٣) الجلد الشائك

التابعين لنفس النوع، أو فى أنواع مختلفة، وفى بعض الأحيان لا يحدث ذلك ، ولماذا يعود الطفل فى بعض الصفات إلى جده أو جدته ، أو إلى بعض أسلافه الأكثر قدما ، ولماذا تنتقل خاصية معينة من نوع جنسى واحد (مذكراً كان أو مؤنثاً) إلى كل من الجنسين ، أو لجنس واحد منهما فقط ، هو فى معظم الحالات ، ولكن ليس بصفة مطلقة، إلى الجنس المماثل . وهناك حقيقة ذات قيمة لنا ، هى أن بعض الصفات الخاصة التى تظهر على الذكور من سلالاتنا الداجنة ، كثيرا ما يكون انتقالها مقصورا بالتحديد ، أو إلى درجة كبيرة جدا ، على الذكور فقط من هذه السلالات. وتوجد قاعدة أكثر أهمية بكثير ، والتى أعتقد أنه من الممكن الوثوق بها ، ألا وهى أنه قد تظهر خاصية معينة لأول مرة عند أى مرحلة من العمر ، ثم تميل إلى العودة إلى الظهور مرة أخرى فى الذرارى عند بلوغهما نفس العمر ، وقد يحدث ذلك أحيانا من سن أكثر تبكيرا. وفى حالات كثيرة فإنه لا يمكن حدوث عكس ذلك ، ومن ثم فإن الصفات الخاصة الموروثة فى قرون الماشية قد تظهر فقط فى الذرارى عند اقترابها من بلوغ سن النضج. ومن المعروف أن الصفات الخاصة بدودة الحرير^(١) تظهر فقط عند بلوغها مرحلة اليسروع^(٢) أو الشرنقة^(٣) المماثلة . ولكن الأمراض الوراثية وبعض الحقائق الأخرى تدفعنى إلى الاعتقاد بأن هذه القاعدة لها أبعاد أخرى ، وهذا عندما لا نجد سببا واضحا يفسر لنا لماذا تظهر خاصية ما عند سن معينة ، ولكنها لا تميل إلى الظهور فى الذرارى عند نفس المرحلة التى ظهرت فيها لأول مرة فى الآباء . وأنا أعتقد أن هذه القاعدة ذات أهمية قصوى عند التصدى لتفسير القوانين الخاصة بعلم الأجنة^(٤)، وبالطبع فإن هذه الملاحظات مقصورة على البزوغ الأول للخاصية المعينة ، وليس على السبب الابتدائى الذى يكون قد أعطى تأثيرا على البويضات^(٥) أو على العنصر الذكرى ، تقريبا بنفس الطريقة التى يحدث بها زيادة فى طول القرون فى

Silk-worm

(١) دودة الحرير = دودة القز

Caterpillar

(٢) اليسروع = يرقانة الفراشة

Cocoon

(٣) الشرنقة = الفيلجة

Embryology

(٤) علم الأجنة

Ovule

(٥) بويضة = بيضة = بذيرة

نزارى بقرة ذات قرون قصيرة عندما يتم تلقيحها من ثور طويل القرون ، فمع أن هذا التأثير يظهر متأخرا فى العمر ، إلا أنه من الواضح أنه ناتج عن العنصر الذكري.

أما وقد أشرت بشكل غير مباشر إلى موضوع الارتداد^(١) ، فإنه أصبح بإمكانى هنا أن أشير إلى تصريح كثيرا ما يدلى به علماء التاريخ الطبيعى ، ألا وهو أن ضروبنا الداجنة ، عندما تطلق على حريتها وتتبع هواها ، فإنها ترتد تدريجيا ، ولكن بشكل مؤكد ، فى الطباع إلى أصولها الأرومية^(٢) . ومن ثم فقد حدث تضارب فى الآراء حول أنه لا يمكن الوصول إلى استنتاجات من دراسة الأعراق الداجنة ، يمكن تطبيقها على أنواع تعيش فى ظل الطبيعة. وقد حاولت السعى عبثا للبحث عن أى من الحقائق القاطعة التى قد أقيم عليها مثل هذا التصريح السابق ، و الذى يتم إلقاؤه بصورة جريئة ومتمكرة دائماً . وسوف يكون من الصعب جداً إثبات صحة ذلك إلا أنه من الممكن أن نصل بأمان إلى استنتاج أن الكثير جدا من الضروب الداجنة الشهيرة جداً ، لا تستطيع العيشة فى حالة الوحشية . ففى حالات كثيرة نحن لا نعرف ماذا كانت أصولهم الأرومية ، وبالتالي فإننا لا يمكن لنا أن نحدد إذا ما كان قد حدث لهذه الحيوانات ارتداد شبه كامل ، أم لا . ومن أجل منع تأثيرات التهجين فيما بينها^(٣) ، فإنه من الضرورى أن تطلق الحرية لنوع واحد من الكائنات فى مقامه الجديد. وبالرغم من ذلك ، فبما أنه من المؤكد أن أنواعنا الداجنة ترتد أحيانا فى بعض صفاتها إلى أنواعها الأرومية ، فإنه يبدو لى أنه ليس مستحيلا لو نجحنا فى تطبيع ، أو كان لنا أن نستزرع ، من خلال أجيال كثيرة ، الأعراق المتعددة ، من الكرنب مثلا ، فى تربة مجدبة (وبالطبع فى هذه الحالة فإن بعض التأثير يجب أن يعزى إلى التأثير المؤكد لهذه الأرض الجذباء) ، فإنه من المتوقع إلى حد كبير أو حتى كلية ، أن ترتد هذه النباتات إلى أصلها الأرومى البدائى . أما فيما يتعلق بكون التجربة سوف تنجح أم لا ، فإن ذلك ليس ذا قيمة كبيرة فى مجال مناقشتنا ، حيث إن ظروف الحياة قد تغيرت

Reversion

(١) الارتداد = الردة = الارتجاع = العودة إلى الأصل

Aboriginal stocks

(٢) أصول أرومية = أصول بدائية

Intercross

(٣) التهجين فيما بينها

فى التجربة نفسها . وإذا كان من الممكن إظهار أن أنواعنا الداجنة قد أبدت قابلية كبيرة للارتداد ، أى أن تفقد صفاتها المكتسبة أثناء بقائها تحت نفس الظروف ، وأثناء الحفاظ عليها فى مجموعة كافية العدد تمكنها من التهجين فيما بينها على نطاق واسع، مما قد يحد عن طريق التمازج فيما بينها ، من أى انحراف بسيط قد يحدث فى تركيبها ، فإننى أضمن أننا لن نستطيع أن نستنتج أى شىء من الضروب الداجنة فيما يتعلق بالأنواع . ولكن لا توجد أى ظلال من الأدلة تؤكد هذه الوجهة من النظر : لكى نتأكد أننا لا نستطيع أن نستولد جياندا الخاصة بجر العربات والخاصة بالسباق ، أو المشية ذات القرون الطويلة وذات القرون القصيرة ، أو الواجن التابعة لسلالات مختلفة ، أو المزروعات الصالحة للأكل^(١) ، وذلك لعدد غير محدود من الأجيال ، فإن ذلك سيكون متعارضا مع مجمل خبراتنا .

الطابع الخاص بالضروب الداجنة - صعوبة التمييز بين الضروب والأنواع

نشأة الضروب الداجنة من واحد أو أكثر من الأنواع

عندما تلقى نظرة على الضروب أو الأعراق التابعة لها حيواناتنا و نباتاتنا الداجنة ، فإننا نلاحظ عموما ، وكما سبق وبيّنا ، أن هناك فى كل من الأعراق الداجنة ، تماثلا أقل فى الصفات عما يمكن ملاحظته فى الأنواع الحقة. فإننا فى الغالب نجد أن الأعراق الداجنة لديها إحدى الصفات الشاذة^(٢) بعض الشىء، والذي أقصده أنها بالرغم من اختلافها فى اعتبارات تافهة عديدة عن بعضها البعض ، وعن الأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة، إلا أنها تختلف بدرجة قصوى فى جزء واحد ما، إما عند مقارنة أحدها بالآخر ، والأكثر خصوصية هو عند مقارنتها بالأنواع الطبيعية التى تنتسب^(٣) إليها عن قرب . ومع هذه الاستثناءات (ومع استثناء الخصوبة التامة

Esculent

(١) صالح للأكل

Monstrous character

(٢) طابع شاذ

Allied

(٣) ينتسب إلى = قريب = صهر = متخالف = شقيق = متحد

للضروب عندما تتجهن ، هو موضوع سنناقشه فيما بعد) فإن الأعراق الداجنة التابعة لنفس النوع تختلف عن بعضها البعض بنفس الطريقة التي تختلف بها الأنواع المتقاربة بشدة التابعة لنفس الطبقة فى البيئة الطبيعية ، ولكن الاختلافات فى معظم الحالات هى أقل فى الدرجة. ويحب الاعتراف بأن هذه حقيقة ، لأن أعراقا داجنة لحيوانات ونباتات كثيرة قد تم تصنيفها بواسطة بعض الخبراء الأكفاء على أنها منحدره من أصول أنواع أرومية متباينة، وبواسطة بعض الخبراء الأكفاء الآخرين تم تصنيفها على أنها مجرد ضروب. فإذا كان يوجد خط واضح للتفرقة بين ما هو عرق وما هو نوع من الحيوانات الداجنة، فإن هذا المصدر للشك سوف يتوقف عن التكرار للعودة. وكثيرا ما تم التصريح بأن الأعراق الداجنة لا تختلف عن بعضها البعض فى صفة ذات قيمة عرقية عامة ^(١). ومن الممكن إظهار أن هذا التصريح ليس صحيحاً ، ولكن علماء التاريخ الطبيعى يختلفون فيما بينهم كثيرا فى تحديد أى من الصفات هى ذات قيمة عرقية عامة ، وكل هذه التقييمات تعتمد فى الوقت الحالى على التجربة العملية وحدها من غير اعتبار للعلم أو النظريات . وعندما تفسر كيفية نشوء الطبقات تحت الظروف الطبيعية ، فإنه سيبدو واضحا أنه ليس لدينا الحق فى توقع أن نجد، فى أحوال كثيرة، كمية من الاختلافات فى الأصول العرقية العامة فى أعراقنا المدججة.

عند محاولة تقدير كمية الفروق فى التركيب بين الأعراق الداجنة القريبة من بعضها، سرعان ما نجد أنفسنا فى دائرة من الشك، وذلك لعدم معرفتنا إذا ما كانت قد نشأت من واحد أو أكثر من الأنواع الأبوية. وإذا ما تمكنا من توضيح هذه النقطة ، فإنه سيكون من المثير إذا تبين مثلا، أن أصناف الكلاب المختلفة التى تتضمن الكلب السلوقى ^(٢) والكلب الدموم ^(٣) والكلب الأرضى ^(٤) والكلب السببيلى ^(٥) والكلب الطورى ^(٦) ،

Generic	(١) عرقى = عام = شامل =
Greyhound	(٢) الكلب السلوقى : كلب من كلاب الصيد
Bloodhound	(٣) الكلب الدموم : كلب ضخمة لتعقب طريدى العدالة
Terrier	(٤) الكلب الأرضى = الترير : كلب صغير نشيط نكى من كلاب الصيد *
Spaneil	(٥) الكلب السببيلى: كلب صغير قصير القوائم طويل الشعر متموجه ، كبير الأنين مسترخيا
Bull-dog	(٦) الكلب الطورى = البلدغ : كلب قوى جرىء ، ضخمة الرأس ، قصير الشعر

وكلنا يعلم أنها تكثر من أصنافها بدقة عن طريق التناسل ، إنما هي من أنسال أى نوع منفرد ، فإن هذه الحقائق سوف يكون لها وزن كبير فى جعلنا نشك فى الموقف الثابت للعديد من الأنواع الطبيعية القريبة الصلة، وعلى سبيل المثال ، الكثير من أصناف الثعالب التى تقطن مناطق مختلفة من العالم. وأنا لا أعتقد كما سنرى الآن، أن مجموع كمية الفرق بين السلالات المختلفة من الكلاب قد تم إنتاجها تحت تأثير التدجين ، فأننا أو من أن جزءاً صغيراً من الفرق هو نتيجة لنشأتها من أنواع متباينة، وفى حالة الأعراق المشهورة جداً التابعة لبعض الأنواع الداجنة الأخرى ، فإنه لا يوجد افتراض أو حتى دليل قوى، على أن جميعها قد نشأت من أصل وحشى منفرد.

كثيراً ما زعم أن الإنسان قد اختار لغرض التدجين حيوانات ونباتات ذات قابلية للتمايز متأصلة فيها بشكل غير عادى ، وبالمثل لأن تحتل الاختلافات الشديدة فى المناخ . وأنا لا أعتز على أن هذه القدرات قد أضافت الكثير إلى قيمة معظم نتاجنا المدجن: ولكن كيف كان يعرف الإنسان البدائي^(١) عندما استأنس حيواناً ما لأول مرة، إذا ما كان هذا الحيوان قابلاً للتمايز فى الأجيال التالية ، وإذا ما كان قادراً على تحمل الأجواء الأخرى ؟ - وهل استطاعت قابلية التمايز القليلة لدى الحمار و الأوزة ، أو قدرة حيوان الرنة^(٢) الصغيرة على احتمال الحرارة ، أو قدرة الجمل المعتاد الصغيرة على احتمال البرودة ، من أن تمنع تدجينها ؟ - أنا لا أستطيع أن أشك فى أن حيوانات ونباتات أخرى مساوية فى العدد لكل نتاجنا المدجن ، وتابعة لطوائف وبلدان مساوية فى الاختلاف ، إذا تم انتزاعها من بيئتها الطبيعية ، وكان من الممكن دفعها إلى التكاثر لعدد مساو من الأجيال تحت ظل التدجين ، فإنها قد تتمايز فى المتوسط بنفس النسبة العالية التى تمايزت بها الأصول الأبوية لحيواناتنا المدجنة الموجودة حالياً.

أما فيما يخص معظم حيواناتنا و نباتاتنا المدجنة منذ القدم ، فإنه من المستحيل أن نصل إلى قرار محدد ، فيما لو كانت نشأتها نابعة من نوع واحد أم من العديد من

Savage
Reindeer

(١) بدائي = همجي = غير متمدن
(٢) حيوان الرنة = نوع من الأيائل

الأنواع الوحشية ، والمجادلة التي قد اعتمد عليها أساسا هؤلاء الذين يؤمنون بالأصل المتعدد لحيواناتنا الداجنة ، هي أننا نجد في أكثر العصور ضربا في القدم ، مثلما وجد على الأنصاب الأثرية المصرية ، وما وجد في مستوطنات بحيرات سويسرا ، تنوعات كبيرة في السلالات ، وأن بعض هذه السلالات العتيقة تماثل بشكل قريب أو حتى تتطابق مع سلالات مازالت موجودة في عصرنا الحالي . ولكن هذا لن يفيد إلا في الرجوع بتاريخ المدنية إلى الخلف كثيرا ، وإظهار أن الحيوانات قد تدجنت في عهود أبعد بكثير مما قد استقر عليه رأى العلماء . فإن ساكنى منطقة سويسرا القدامى قد زرعوا أصنافاً من القمح والشعير والبسلة والخشخاش^(١) للحصول على الزيت ، والكتان^(٢) ، علاوة على امتلاكهم للعديد من الحيوانات المدجنة . وكانوا يقومون بالتجارة مع الأقوام الأخرى التي تحيط بهم ، وكل هذا يظهر بوضوح - كما علق "هير" Heer - من أنهم كانوا متقدمين حضاريا بشكل ملحوظ في هذا العهد المعين في القدم، وهذا بدوره يشير إلى فترة طويلة مستمرة من الحضارة الأقل تقدما، والتي يحتتمل أنه في خلالها قد تم التمايز بين الحيوانات المدجنة التي تحتفظ بها القبائل المختلفة المنتشرة في المناطق المختلفة ، وكانت النتيجة هي التوصل إلى أعراق متميزة من الحيوانات . ومنذ اكتشاف أدوات قدح النار^(٣) في الطبقات السطحية من التكوينات الجيولوجية في أرجاء عديدة من العالم ، فإن جميع الخبراء في علم طبقات الأرض يؤمنون بأن الإنسان البدائي قد عاش في عهود سحيقة جدا ، ونحن على تمام العلم أنه في وقتنا الحالي ، فإنه من الصعب لنا أن نجد قبيلة ، مهما بلغت درجة بدائيتها ، لم تمارس تدجين الحيوانات ، حتى ولو الكلاب على الأقل .

من المحتمل أن تظل نشأة حيواناتنا الداجنة شيئا مبهما إلى الأبد . ولكنه يعن لى أن أوضح هنا ، أنه بالنظر إلى الكلاب الداجنة في العالم كله ، فإننى قد توصلت بعد مجهود شاق فى جمع كل الحقائق المعروفة ، إلى استنتاج أن العديد من الأنواع

(١) نبات الخشخاش : نبات يستخرج منه الأفيون أو يستخرج منه زيوت (للتزيين) Poppy

(٢) نبات الكتان Flax

(٣) أدوات قدح النار Flint tools

الوحشية من العائلة الكلبية^(١) قد تم استئناسها ، وأن دماغها مختلطة مع بعضها البعض فى عروق سلالاتنا الداجنة . أما فيما يتعلق بالخراف والماعز فإنى لا أستطيع أن أضع قرارا حاسما . ومن الحقائق التى أرسلها إلى "السيد بليث" Mr. Blyth ، عن العادات ، والصوت، والبنية، والتركيب الخاصة بالأبقار الهندية الحدياء^(٢) ، فإنه من شبه المؤكد أنها قد انحدرت من أصل أرومى مختلف عن أصل أبقارنا الأوروبية ، وبعض الخبراء القديرين فى هذا الموضوع يعتقدون أن تلك الأخير قد كان لها اثنان أو ثلاثة أسلاف وحشيين ، وذلك بغض النظر عما إذا كانوا يستحقون أن يطلق عليهم أنواع أم لا . وهذا الاستنتاج ، علاوة على التمييز القاطع بين الأبقار الحدياء والمعتادة، هو شىء ينظر إليه على أساس أنه موضوع قد تأسس على الأبحاث الجديرة بالإعجاب، التى قام بها الأستاذ روتيمير Professor Rutimeyer . أما فيما يتعلق بالجياد ، ولأسباب لن أستطيع أن أدلى بها فى هذا المقام ، فأنا أميل للشك - بعكس العديد من الكتاب- فى أن جميع أعراقها تابعة لنفس النوع . وبما أنى قد قمت بتربية جميع السلالات تقريبا من الدجاج الإنجليزي ، وقمت باستيلاها وتهجينها ، وفحصت هياكلها العظمية ، فإنه يبدو لى أنه من المؤكد تقريبا أن جميعها قد انحدر من الدجاجة الهندية الوحشية^(٣) ، أو دجاجة الأدغال الحمراء^(٤) ، وهذا هو نفس استنتاج "السيد بليث" Mr. Blyth وغيره من العلماء الذين درسوا هذا الطائر فى الهند. أما فيما يتعلق بالبط والأرانب ، فبالرغم من أن بعض سلالاتها تختلف فى كثير من الأوجه فيما بينها ، إلا أن جميع الدلائل تقطع بأن جميعها قد انحدر من الأصل المشترك لكل من البط والأرانب .

مبدأ نشوء أعراقنا الداجنة من أصول أرومية عديدة هو مبدأ تبناه بعض العلماء إلى مدى غير معقول ، فهم يؤمنون بأن كل عرق يتوالد بشكل أصلى - فيما عدا فروق

Canidae family

(١) العائلة الكلبية

Humbed indian cattle

(٢) الأبقار الهندية الحدياء = الأبقار الدربائية ***

Gallus bankiva

(٣) الدجاجة الهندية الوحشية

Red jungle Fowl

(٤) دجاجة الأدغال الحمراء

بسيطة فى بعض الصفات المميزة - قد كان له نموذج أصلى فى حياة الوحشية . وعلى هذا الأساس فلا بد وأنه قد كان هناك على الأقل عدد كبير يربو على العشرين من أنواع الأبقار الوحشية ، ونفس العدد من أنواع الخراف الوحشية ، والعديد من أنواع الماعز الوحشية ، فى قارة أوروبا وحدها ، والعديد من هذه الأصول الوحشية من المفروض أنها قد كانت موجودة فى بريطانيا العظمى وحدها . ويؤمن أحد الباحثين بأنه كان يوجد فى الماضى أحد عشر نوعاً مختلفاً من الخراف الأرومية خاصة ببريطانيا العظمى! وعندما نضع فى الاعتبار أن بريطانيا ليس فيها حالياً أى نوع خاص بها من الحيوانات الثديية ، وأن فرنسا ليس لديها غير أنواع قليلة من الثدييات المتباينة عما هو موجود فى ألمانيا، وأن هذا هو نفس الحال مع المجر وإسبانيا وخلافه ، ولكن أن كلا من هذه الممالك والبلدان تمتلك العديد من السلالات الخاصة بها من الأبقار والخراف وخلافه ، فإننا يجب أن نعترف بأن العديد من السلالات الداجنة قد بدأ أصلاً فى أوروبا ، وإلا فمن أين تم إستمداها ؟ وهذا هو نفس الحال بالنسبة إلى الهند. وحتى فى حالة سلالات الكلب الداجن فى جميع أنحاء العالم، والتي أنا أقر بأنها قد انحدرت من العديد من الأنواع الوحشية ، فإنه لا مجال للشك فى أنه قد كانت هناك كمية هائلة من التمايزات المتوارثة ، ولناخذ على سبيل المثال بعض حالات الكلاب الخاصة مثل الكلب السلوقى الإيطالى ، أو الكلب الدموم، أو الكلب الطورى أو الكلب البج^(١) ، أو الكلب السبيلى الخاص بمقاطعة "بلنهايم" **Blenhiem** وخلافها - وكلها مختلفة بصورة ملحوظة عن جميع الكلاب الوحشية - فمن الذى سوف يصدق أن حيوانات تشبه إلى حد كبير مثل هذه السلالات، قد استطاعت البقاء فى البيئة الطبيعية - وقد سبق فى كثير من الأحيان أن صدرت تصريحات بشكل غير دقيق عن أن جميع الأعراق الخاصة بكلابنا قد نتجت من تهجين القليل من الأنواع الأرومية ، ولكننا بالتدجين نستطيع أن نحصل فقط على أشكال متوسطة إلى درجة ما بين أبويها ، وإذا حاولنا أن نفسر ما حدث للعديد من أعراقنا الداجنة على أساس هذه

العملية ، فإنه يجب علينا أن نعترف بوجود أشكال بدائية فى الحالة الوحشية لأكثر الأشكال تطرفا ، مثل الكلب السلوقى الإيطالى ، أو الكلب الدموم ، أو الكلب البلدى وخلافها . والأكثر من ذلك ، فإنه قد حدثت مبالغة كبيرة فى إمكانية الحصول على أعراق متباينة عن طريق التهجين. ويوجد العديد من الحالات التى قد تم تسجيلها التى تظهر أن أحد الأعراق قد يتم تعديله عن طريق تهاججات عرضية ، إذا ما تمت مساعدته عن طريق الانتقاء الدقيق للأفراد التى تظهر عليها الصفة المطلوبة ، ولكن لى نحصل على عرق متوسط ما بين عرقين مختلفتين تماما ، فذلك شىء صعب جداً . وقد قام "السير ج. سبرايث " Sir J. Sebright بمحاولات جادة فى هذا الاتجاه ولكنه منى بالفشل . فالذرية الناتجة عن أول تهجين بين سلالتين نقيتين تكون متسقة بشكل مقبول أو حتى أحيانا (كما وجدت بنفسى مع الحمام) تكون متسقة تماما فى الطابع ، وكل شىء يبدو فى منتهى البساطة ، ولكن عندما تمتزج هذه الهجائن مع بعضها البعض لعدة أجيال ، فإنه من الصعب أن نجد اثنين متشابهين منها ، وعندئذ تظهر صعوبة المهمة بشكل واضح .

سلالات الحمام الداكن ، اختلافاتها وأصلها

لإيمانى بأنه من الأفضل دائما دراسة إحدى المجموعات الخاصة ، فإننى بعد التروى فى التفكير ، قمت باختيار الحمام الداكن . و بالتالى فقد قمت باقتناء كل سلالة استطعت الحصول عليها أو شراؤها ، وحبانى الحظ بتلقى جلود خاصة بالحمام من أرجاء عديدة على سطح الأرض ، وبشكل خاص جدا من "السيد المبجل هـ. إليوت " Hon. W. Elliot من الهند و"السيد المبجل س. موراي " Hon.C.Murray من فارس. ووجدت أن الكثير من الوثائق قد تم نشرها عن الحمام باللغات المختلفة . والبعض منها كان فى منتهى الأهمية ، وذلك لأنها كانت على قدر كبير من القدم . وقمت بمزاملة العديد من الهواة البارزين، وسمح لى بالاشتراك فى اثنين من نوادى لندن للحمام . واكتشفت أن التنوع فى سلالات الحمام هو شىء مدهش . فلك أن تقارن بين الحمام

الزاجل (١) الإنجليزي والحمام البهلوانى (٢) قصير الوجه ، لترى الاختلاف المدهش بين مناقيرها ، والتي يتبعها اختلاف مماثل فى جماجمها . والحمام الزاجل ، وخاصة الطائر الذكر منه ، هو أكثر تميزا من خلال العرف (٣) الجلدى الذى على رأسه ، والذى تصحبه استطالة كبيرة فى أجفان العيون ، و اتساع كبير فى الفتحات الخارجية للأنف ، وانفراج عريض فى فتحة الفم . والحمام البهلوانى قصير الوجه ويمتلك منقارا مماثلا تقريبا فى الشكل لمنقار العصفور الدورى (٤) والحمام البهلوانى الشائع لديه عادة موروثه فريدة ، ألا وهى الطيران على ارتفاعات شاهقة فى سرب كثيف ، ثم يهوى متقلبا إلى أسفل متشقلبا رأسا على عقب. والحمام البادن (٥) هو طائر ذو حجم كبير، وله منقار طويل ضخم الحجم وأقدامه كبيرة ، وبعض السلالات الفرعية منه لديها أعناق طويلة جداً ، وبعضها الآخر له أجنحة وذبول غاية فى الطول ، وغيرها يتميز بذبول قصيرة. والحمام المغربى (٦) هو ضرب من الحمام قريب الصلة بالحمام الزاجل، ولكنه بدلا من المنقار الطويل فهو يحوز منقارا قصيرا جدا وعريضا . والحمام العابس (٧) له جسد وأجنحة وأقدام طويلة جدا ، وحوصلته (٨) الزائدة جدا فى التكوين والتي يتباهى بنفخها بالهواء ، قد تثير حقا الدهشة والضحك . والحمام التربييت (٩) لديه منقار قصير و مخروطى الشكل ، وخط من الريش المعكوس الاتجاه يجرى على صدره ، ولديه عادة التوسيع البسيط للجزء الأعلى من بلعومه بشكل مستمر . والحمام اليعقوبى (١٠) لديه كمية كبيرة من الريش المعكوس الاتجاه على طول الجزء الخلفى من

Carrier	(١) الحمام الزاجل
Tumbler pigeons	(٢) الحمام البهلوانى
Coracle	(٣) عرف الطائر
Finch	(٤) العصفور الدورى
Runt	(٥) الحمام البادن **
Barb	(٦) الحمام المغربى **
Pouter	(٧) الحمام العابس **
Crop	(٨) حوصلة الطائر
Turbit	(٩) الحمام التربييت = الحمام المخروطى المنقار **
Jacobin	(١٠) الحمام اليعقوبى = * = الحمام ذو الهالة *

الرقبة إلى درجة تعطى شكل القلنسوة ، ولديه ، بالمقارنة إلى حجمه ، ريش زائد فى الطول على الجناح والذيل . والحمام البواق^(١) والضاحك^(٢) ، كما يوحى اسماهما ، يصدر عنهما هديل^(٣) مختلف جداً عن السلالات الأخرى . والحمام المروحي الذيل^(٤) لديه ثلاثون أو حتى أربعون ريشة فى ذيله بدلا من العدد الطبيعي لريش الذيل الموجود لدى جميع أعضاء الطائفة الكبيرة للحمام ، والذي يتراوح ما بين اثنى عشر إلى أربع عشرة ريشة ذيل ، وهذا الريش يبقية الحمام منشوراً ويحملة بشكل منتصب ، إلى درجة أنه فى الطيور الجيدة نجد أن الرأس يلمس الذيل ، ونجد أن الغدد الزيتية ضامرة تماماً . ومن الممكن أن نحدد العديد من السلالات الأخرى الأقل تباينا من سلالات الحمام .

بفحص الهياكل العظمية للعديد من السلالات المختلفة ، فإننا نجد اختلافات كبيرة فى عظام الوجه فيما يتعلق بالطول والعرض والتقوس . وعسلوج^(٥) الفك السفلى فى الطيور يختلف بشكل ملحوظ بشدة فيما يتعلق بالشكل علاوة على العرض والطول . وفقرات العمود الفقارى الذيلية^(٦) والعجزية^(٧) تختلف فى العدد ، كما يختلف عدد الأضلاع^(٨) وما يتبعها من عرضها النسبى وتواجد النتوءات بها . ونجد أن الأحجام والأشكال الخاصة بالفتحات الموجودة فى عظمة القص^(٩) متنوعة جدا ، وكذلك درجة الانفراج والحجم النسبى لذراعى عظام الترقوة^(١٠) . وبالنسبة إلى العرض النسبى

Trumpeter	(١) الحمام البواق = العازف على البوق *
Laugher	(٢) الحمام الضاحك ** - **
Coo	(٣) هديل الحمام
Fantail	(٤) الحمام المروحي الذيل * = الهزاز * -
Ramus	(٥) عسلوج = شعبة = فرع
Caudal vertebrae	(٦) الفقرات الذيلية
Sacral vertebrae	(٧) الفقرات العجزية
Ribs	(٨) الأضلاع
Sternum	(٩) عظمة القص
Furcupa	(١٠) عظام الترقوة

لفتحة الفم ، والطول النسبي لأجفان العيون ، وفتحات الأنف واللسان (والذى لا يتناسب دائما مع طول المنقار)، وحجم الحوصلة والجزء الأعلى من المرئى، والتكوين والابتسار للغدد الزيتية ، وعدد الريش فى قوادم الأجنحة والذيل ، والطول النسبي للجناح والذيل بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة لطول الجسم ، والطول النسبي للأرجل والأقدام ، وعدد الحراشيف الموجودة على أصابع القدمين ، وتكون جلد فيما بين أصابع القدمين ، فإن كل ما سبق ذكره هو نقاط اختلاف فى التكوين . وكذلك تختلف الفترة التى يكتسب فيها الطائر الهيئة المتكاملة لريشه ، كما تختلف حالة الزغب^(١) الذى تكتسب به أفراخ الطيور عندما تنفقس من البيض كما يختلف شكل وحجم البيض، وطريقة الطيران . وفى بعض السلالات يختلف الصوت والتصرفات بشكل ملحوظ . وأخيرا ، فإننا نجد فى بعض السلالات أن الذكور والإناث تختلف بدرجة بسيطة عن بعضها البعض.

ويلزم اختيار مجموعة مكونة من عشرين حمادة على الأقل ، التى لو عرضت على خبير بعلم الطيور^(٢) وتم إخباره بأنها طيور وحشية ، فمن المؤكد أنه سوف يصنفها على أساس أنها نوع محدد بذاته . والأكثر من ذلك ، فأنا لا أصدق أن أى عالم مختص بالطيور سوف يعتبر فى هذه الحالة أن الحمام الزاجل الإنجليزى ، والحمام البهلوانى القصير الوجه ، والحمام البادن ، والحمام المغربى ، والحمام العابس ، والحمام المروحي الذيل تابع لنفس الطبقة، والأكثر من ذلك أنه قد يظهر له فى كل واحدة من هذه السلالات العديد من السلالات الفرعية أو الأنواع التى قد توارثت بشكل حقيقى ، التى قد يدعوها كما يحلو له .

ومهما تكن الاختلافات كبيرة بين سلالات الحمام ، إلا أنى مقتنع تماما بقيمة الرأى العام الشائع بين علماء التاريخ الطبيعى ، ألا وهو أن جميعها قد انحدرت من حمام الصخور^(٣) (حمام ليثيا)^(٤) ، ويندرج تحت هذا المصطلح العديد من

Down

(١) زغب

Ornithology

(٢) علم الطيور

Rock-pigeon= *Columba livia*

(٣) حمام الصخور *

Columba livia

(٤) حمام ليثيا

الأعراق أو الأنواع الفرعية ، ذات التوزيع الجغرافى ، والتي تختلف عن بعضها البعض فى أكثر الاعتبارات تفاهة . وبما أن العديد من الأسباب التى قادتنى إلى هذا الإيمان هى التى تنطبق إلى حد ما على حالات أخرى ، فأنا سوف أقوم بتقديمها الآن باختصار. إذا كانت السلالات المختلفة ليست ضروريا ، ولم تنبثق من حمام الصخور ، فإنه سيصبح من الضرورى أن تكون قد انحدرت من سبعة أو ثمانية أصول أرومية على الأقل ، لأنه من المستحيل الحصول على السلالات الداجنة الحالية بالتهجين من أى عدد أقل من هذه الأصول : فعلى سبيل المثال ، كيف يمكن إنتاج الحمام العابس بالتهجين بين سلالتين ، إلا إذا كان أحد الأصول الأبوية يمتلك الحوصلة الهائلة المميزة لهذا النوع؟- والأصول الأرومية المقترحة لابد وأنها قد كانت كلها من حمام الصخور ، وهذا يعنى أنها لم تجثم برغبتها أو تتناسل على الأشجار . ولكن علاوة على حمام ليفيا وأنواعه الفرعية الجغرافية ، فإنه يوجد نوعان أو ثلاثة أنواع أخرى فقط معروفة من حمام الصخور ، وكل هذه الأنواع ليس لديها أى من الصفات الخاصة بالسلالات الداجنة . وعلى هذا الأساس فإن الأصول الأرومية المقترحة إما أنها ما تزال موجودة فى البلدان التى قد تم فى الأصل استئناسها فيها ، ولكنها ليست معلومة إلى الآن لعلماء الطيور ، وهذا يبدو أنه غير محتمل ، وذلك عند الوضع فى الاعتبار حجم هذا الحمام الأرومى وعاداته وصفاته الملحوظة والاحتمال الثانى هو أنها قد أصبحت مندثرة فى الحالة الوحشية . ولكنه من غير الوارد أن تنقرض الطيور التى تتكاثر على حواف الجروف والتى تجيد الطيران ، وحمام الصخور المعتاد ، والذى يتبع نفس عادات الحمام الداجن ، لم ينقرض إلى الآن حتى من على العديد من الجزر البريطانية الصغيرة جداً ، أو من على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . و من ثم فالانقراض المفترض لمثل هذا العدد الكبير من أنواع الحمام التى تتمتع بنفس العادات الخاصة بحمام الصخور ، هو أمر يبدو كادعاء ليس مبني على أساس سليم . والأكثر من هذا ، فإن السلالات الداجنة العديدة التى سبق لنا سردها ، قد تم انتشارها فى جميع أرجاء العالم ، وبهذا فإن البعض منها لابد وأنه قد تم إعادة نقله مرة أخرى إلى موطنه الأصلية ، ولكن لم يحدث أن انقلبت واحدة من هذه الحمام إلى الحالة البرية

أو الوحشية^(١) ، مع أن حمام الأبراج^(٢) ، والذي ما هو إلا حمام الصخور فى صورة معدلة بصورة بسيطة جدا ، قد أصبح وحشيا فى أماكن كثيرة . ومرة أخرى فكل التجارب الحديثة قد أظهرت أنه من الصعب جعل الحيوانات الوحشية تتناسل بحرية تحت تأثير التدجين ، مع أنه بتطبيق احتمال الأصل المتعدد لأنواع حمامنا ، فإنه من المحتم افتراض أنه يوجد على الأقل سبعة أو ثمانية أنواع قد تم تدجينها فى العهود القديمة ، بواسطة إنسان نصف متمدين ، لكى تصبح شديدة القدرة على التكاثف فى ظل الأسر .

وتوجد حجة ذات وزن كبير ، وتنطبق على العديد من الحالات الأخرى ، ألا وهى أن السلالات السابق توصيفها ، مع توافقها العام مع حمام الصخور الوحشى فى التكوين والعادات والصوت والألوان وفى معظم أجزاء تركيبها ، إلا أنها بالتأكد على درجة عالية من الاختلاف عن المعتاد فى أجزاء أخرى ، وقد نبحت بلا جدوى فى خلال جميع أعضاء فصيلة الحمام الكبرى عن منقار الحمام الزاجل الإنجليزى ، أو منقار الحمام البهلوانى ، أو الحمام المغربى ، أو عن ريش معكوس الاتجاه مثل ما لدى الحمام اليعقوبى ، أو عن حوصلة كالتى لدى الحمام العابس ، أو عن ريش ذيل مثل هذا الذى لدى الحمام المروحي الذيل . ومن ثم فإنه من الواجب افتراض أن هذا الإنسان النصف متمدين قد نجح ليس فقط فى تدجين أنواع عديدة من الحمام بشكل شامل ، ولكنه نجح أيضاً ، إما قصداً أو عن طريق الصدفة ، فى انتقاء أنواع غير طبيعية بشكل غير عادى ، وعلاوة على ذلك ، فإن هذه الأنواع نفسها قد أصبحت منقرضة أو غير معروفة منذ ذلك الحين . وهذا يمثل مجموعة كبيرة من المصادفات بعيدة الاحتمال على أعلى الدرجات .

بعض الحقائق التى تتعلق بتلوين أنواع الحمام تستحق التأمل حقا . فحمام الصخور لونه أزرق إربوازى^(٣) مع خواصر بيضاء ، بينما يميل هذا الجزء فى النوع

Feral

(١) وحشى

Dovecot

(٢) برج الحمام

Slate

(٣) اللون الإربوازى : رمادى داكن ضارب إلى الأرجوانى

الفرعى الهندي المسمى الحمام المتوسط ^(١) الخاص بستريكلاندر **Strickland** إلى اللون الأزرق . والذيل فيه شريط طرفى داكن ، وريشه الخارجى تنتهى حوافه الخارجية عند قواعده باللون الأبيض . والأجنحة فيها شريطان باللون الأسود . وبعض السلالات شبه داجنة ، علاوة على أن بعض السلالات التامة الوحشية تحتوى أجنحتها على بقع مبرقشة باللون الأسود بجانب الشريطان الأسودان ، وهذه العلامات العديدة لا تجتمع كلها فى أى نوع آخر من أنواع العائلة . وحاليا ، فإن كل نوع من السلالات الداجنة ، بما فيها الطيور الصحيحة النسب ، فإن كل العلامات السابق ذكرها ، حتى إلى حد الحواف البيضاء للريش الخارجى للذيل ، قد تتكون بشكل عام فى بعض الأحيان . والأكثر من هذا فعندما تتهاجن طيور تابعة إلى اثنين أو أكثر من الأنواع المتميزة ، ليس من بينها فرد ذو لون أزرق ، أو أى من العلامات السابق توصيفها ، فإن الذرية المهجنة تكون قابلة لاكتساب هذه الصفات بشكل مفاجئ . و لإعطاء مثل واحد من ضمن العديد من الأمثلة التى شاهدتها : فقد قمت بتهجين بعض الحمام الأبيض ذى الذيل المروحي ، والذى يتناسل بصورة طبق الأصل جداً ، مع بعض الحمام المغربى الأسود ، وبالمصادفة فإن الضرب الأزرق اللون من الحمام المغربى هو من النادر جدا لدرجة أنه لم يصل إلى علمى أى حالة وجدت منه فى إنجلترا - وكان الهجين الناتج ذا لون أسود وبنى ومرقش ، وقمت أيضا بتهجين حمامة مغربية مع حمامة مرقطة ^(٢) ، وهى طائر أبيض له ذيل أحمر وبرقطة حمراء على جبهتها ، التى تتناسل بصورة طبق الأصل بشكل غريب ، فكان الناتج الهجين داكن اللون ومرقش . وبعد ذلك قمت بتهجين واحدة من الهجين الناتج من الحمام المغربى والحمام ذا الذيل المروحي مع أحد نتاج تهجين الحمام المغربى والحمام المرقط ، وكان الناتج طيرا فى مثل جمال اللون الأزرق مع خواصر بيضاء ، وشريط مزوج أسود على الأجنحة ، وريش ذيل مخطط وله حواف بيضاء ، مثلما نجده فى أى حمامة صخور وحشية -! ومن الممكن أن نستوعب هذه الحقائق ، على أساس المبدأ المعروف جداً والخاص بالارتداد إلى الصفات الأرومية ،

Columba intermedia
Spool

(١) الحمام المتوسط *

(٢) الحمام المرقط *

إذا كانت جميع السلالات الداجنة قد انحدرت من الحمام الصخري . ولكننا إذا أنكرنا ذلك ، فإنه يصبح من الواجب علينا أن نقدم واحدا من الفرضين البعيدي الاحتمال التاليين : أولهما إما أن جميع الأصول الأرومية العديدة المتخيلة كانت ذات ألوان وعلامات مماثلة للحمام الصخري ، بالرغم من أنه لا يوجد أى نوع آخر من الأنواع المتواجدة حاليا له مثل هذه الألوان والعلامات ، وهذا يؤدي إلى أنه فى كل سلالة منفصلة قد توجد قابلية للارتداد إلى نفس الألوان والعلامات بالضبط . أو الاحتمال الثانى ، ألا وهو أن كل سلالة حتى أكثرها نقاء فى الأصل ، قد تهجنت مع حمام صخري فى خلال اثنى عشر أو على الأكثر فى عشرين جيلا، وأنا أقول خلال اثنى عشر أو عشرين جيلا ، لأنه لا توجد حالة معروفة لارتداد ذرارى مهجنة إلى حد أعلى من دم غريب عنها ، وبعيد فى درجة القرابة بعدد أكثر من الأجيال . وفى سلالة تم تهجينها مرة واحد فقط ، فمن الطبيعى أن القابلية للارتداد لأى صفة قد تم اكتسابها من خلال مثل هذا التهجين سوف تصبح أقل فأقل ، وذلك لأنه فى كل جيل تال سيكون هناك قدر أقل من الدم الغريب ، ولكن عندما لا يكون هناك تهجين وهناك اتجاه فى السلالة للارتداد إلى صفة قد سبق فقدها فى خلال جيل سابق ما ، فإن هذه القابلية -- على الرغم من كل ما نراه خلاف ذلك -- قد تنتقل بدون نقصان إلى أى عدد لا نهائى من الأجيال . وهاتان الحالتان المتميزتان للارتداد قد تم بحضهما فى أحوال كثيرة بواسطة هؤلاء الذين أجروا أبحاثا وكتبوا عن الوراثة .

وأخيراً ، فإن الأخلاس^(١) والمهجنين من بين جميع سلالات الحمام هم فى حالة ثانوية من الخصوبة ، وذلك ما أستطيع تأكيده من مشاهداتى الخاصة والتى أجريتها قصدا على أكثر السلالات تمايزا واختلافا عن بعضها . أما الآن فمن الصعب أن نجد أى حالات قد حدثت لإنتاج أنسال خلاسية ناتجة من تهجين أنواع تامة التمايز من الحيوانات وتحفظ بخصوبتها التامة . وبعض الباحثين يؤمن بأن الاستمرار الطويل فى التدجين يقضى على هذه القابلية القوية للعقم فى الأنواع . ومن التاريخ الخاص بالكلب وبعض أنواع الحيوانات الداجنة الأخرى ، نجد أن هذا الاستنتاج هو غالبا

صحيح تماماً ، إذا ما طبق على أنواع متقاربة جداً من بعضها البعض . ولكن أن نمذ هذه القاعدة إلى حد افتراض أن أنواعاً أرومية قد أصبحت متباينة عن بعضها مثل الحمام الزاجل ، والحمام البهلواني ، والحمام العايس ، والحمام مروحي الذيل ، قادرة على إنتاج ذرية على درجة تامة من الخصوبة بين بعضها البعض^(١) ، فإن ذلك يمثل تصريحاً متسرعاً إلى أقصى حد .

بناءً على هذه الأسباب المتعددة ، ألا وهي : عدم احتمال قيام الإنسان في الماضي بدفع سبعة أو ثمانية أنواع مفترضة من الحمام على التناسل على نطاق واسع تحت تأثير التدجين - وأن هذه الأنواع المفترضة لم يسبق تواجدها إطلاقاً في حالة الوحشية ، ولم يسبق لها أن كانت في حالة برية في أي مكان - وأن هذه الأنواع تمتلك بعض الصفات الشاذة جداً ، ذلك بالمقارنة بباقي أنواع عائلة الحمام ، ولو أنها مماثلة جداً لحمام الصخور في معظم الاعتبارات - و العودة أحياناً إلى ظهور اللون الأزرق والعلامات السوداء المختلفة في كل السلالات ، سواء تم الاحتفاظ بنقاء سلالاتها أو تم تهجينها - وأخيراً ، احتفاظ النسل الهجين بخصوبته التامة - فبالأخذ بكل هذه الأسباب العديدة ، فإنه يمكن لنا أن نخلص إلى أن جميع سلالاتنا الداكنة قد انحدرت من حمام الصخور أو حمام ليفيا وأنواعه الجغرافية الفرعية .

وتأييداً لهذه الوجهة من النظر ، فإنه بإمكاننا أن أضيف : أولاً : أنه قد وجد أن حمام ليفيا الوحشي هو قابل للتدجين في كل من أوروبا وفي الهند ، وأنه يتوافق في العادات وفي الكثير جداً من خواص التركيب مع جميع السلالات الداكنة . وثانياً : أنه بالرغم من أن كلا من الحمام الزاجل الإنجليزي والحمام البهلواني قصير الوجه يختلفان تماماً في بعض الصفات عن حمام الصخور ، إلا أنه بمقارنة السلالات الفرعية العديدة من هذين الجنسين ، وبالأخص المجلوبة من بلاد بعيدة ، فإنه بإمكاننا أن نكون فيما بينهم وبين حمام الصخور سلسلة تامة تقريباً . ومن الممكن لنا أن نفعل نفس الشيء في بعض الحالات الأخرى ، ولو أننا لا يمكن أن نطبقه على كل السلالات.

وثالثاً : هذه الصفات التى هى فى الأساس من الصفات المميزة لكل سلالة ، نجد أنها متباينة بشكل واضح فى كل منها، مثل الألفاد^(١) وطول المنقار فى الحمام الزاجل ، وقصر منقار الحمام البهلوانى ، وعدد الريش الموجود فى ذيل الحمام المروحي الذيل، وتعليل هذه الحقيقة سوف يبدو واضحاً عندما نعالج موضوع الانتقاء . ورابعاً : فإن الحمام قد حظى بالاهتمام والرعاية بمنتهى الجدية وحظى بالحب من أقوام عديدة. والحمام قد تم تدجينه لعدة آلاف من السنين فى أرجاء عديدة من العالم، وأكثر تسجيل عن الحمام ضرباً فى القدم يرجع إلى الأسرة الخامسة فى التاريخ المصرى القديم ، حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وذلك ما وجه نظرى إليه "الأستاذ لىسيوس" Professor Lepsius، ولكن السيد "بيرتش" Mr. Birch أخبرنى أن الحمام قد ذكر فى قائمة الطعام^(٢) الخاصة بالأسرة السابقة الذكّر. وفى زمن الرومان ، وكما ورد لنا عن طريق "بيلنى" Plliny، فقد كانت تدفع مبالغ باهظة ثمناً للحمام، وحسب ما جاء فى كتاباته : " ليس هذا فحسب ، فإنهم قد جاؤا إلى هذا الموقع حتى يتمكنوا من التعرف على عراقة نسبهم وعلى جنسهم ". وكان للحمام تقدير كبير عند المهرجا "أكبر خان" Akbar Khan فى الهند حوالى عام ١٦٠٠ ميلادية ، وبلاطه قد احتفظ بما لا يقل عن عشرين ألفاً من الحمام . " وقد أرسل إليه أحد ملوك إيران Iran وتوران Turan بعض الطيور النادرة جداً "ثم يتابع مؤرخو البلاط الكتابة " وقد استطاع جلالته عن طريق التهجين بين السلالات ، وهى طريقة لم تكن متبعة قبل ذلك ، من تحسين هذه السلالات بشكل مدهش ". وحوالى نفس هذه الحقبة من الزمن ، كان الهولنديون Dutch شديدي الولع بالحمام مثلما كان الرومان القدامى . والأهمية العظمى التى نعطيها لهذه الاعتبارات لتفسير هذا القدر الهائل من التمايز الذى مرت به سلالات الحمام ، سوف تتضح أيضاً عندما نتناول موضوع الانتقاء . فسوف نرى عندئذ كيف أنه كثيراً ما يظهر فى السلالات المختلفة طابع شاذ بعض الشيء. وأن من أفضل الظروف المتاحة لإنتاج سلالات متباينة ذات طابع خاص ، هى توفير الظروف المناسبة لزواج من ذكر وأنثى من

Wattle

Bill of fare

(١) اللغد = الغيب = زائدة لحمية تتدلى من أعناق الطيور

(٢) قائمة طعام

الحمام للتزاوج بسهولة مدى الحياة ، وبهذا يمكن الاحتفاظ بسلالات مختلفة من الحمام مع بعضها البعض فى نفس المطير^(١) .

وقد تناولت فى الحديث الأصل المحتمل للحمام الداكن ببعض الإسهاب ، ولو أن ذلك غير كاف ، وذلك لأننى عندما قمت فى أول الأمر بتربية الحمام وراقبت أصنافه العديدة ، مع معرفتى التامة بكيفية التزامهم بنقاء الأصل أثناء التكاثر ، فقد انتابنى الشعور الشديد بالصعوبة فى تصديق أنه منذ القيام بتدجين سلالات الحمام فإن جميعها قد انبثق من أبوين مشتركين ، وذلك كما يمكن أن يصل إليه استنتاج أى عالم فى التاريخ الطبيعى فيما يتعلق بالأنواع الكثيرة من العصافير الدورية ، أو مجموعات أخرى من الطيور الموجودة فى الطبيعة . وقد أصابتنى إحدى الحقائق بصدمة قوية ، ألا وهى ، أنه على وجه التقريب ، فجميع القائمين بتربية الحيوانات الداكنة المختلفة وجميع القائمين بزراعة النباتات، الذين عقدت محادثات معهم، أو الذين قرأت أبحاثهم، مقتنعون تماماً بأن العديد من السلالات التى تولها أى منهم بالرعاية ، قد انحدرت من أصول أرومية مختلفة ومتعددة . ولك أن تسأل ، كما سألت أنا مريباً مشهوراً للأبقار الخاصة بمقاطعة "هيرفورد" Hereford إذا ما كانت هذه الأبقار قد انحدرت من نسل الأبقار ذات القرون الطويلة^(٢) ، أو أن كليهما قد انبثق من أصل أبوى مشترك ، وستجد أنه سيضحك منك إلى حد الاستهزاء . وأنا لم أقابل أى محب للحمام أو الدجاج أو البط أو الأرناب، لم يكن مقتنعاً تماماً بأن كل سلالة رئيسية من هذه الأنواع قد انحدرت من نوع متميز منفصل. وقد بين "فان مونس" Van Mons فى رسالته الخاصة بالكثيرى والتفاح ، مدى عدم تصديقه الشديد بأن الأنواع العديدة من التفاح الريبستونى^(٣) أو التفاح الكودلينى^(٤) ، من الممكن أن تكون قد تم إنتاجها من البنور الخاصة بنفس الشجرة . ومن الممكن إعطاء أمثلة لا حصر لها من الحالات الأخرى . وأنا اعتقد أن هناك تفسيراً بسيطاً لكل هذا: فإنه نتيجة للدراسة الطويلة

Aviary

Long-horn cattle

Ribston-pippin

Codlin -apple

(١) المطير : قفص كبير لحفظ الطيور

(٢) الأبقار ذات القرون الطويلة *

(٣) التفاح الريبستونى

(٤) التفاح الكودلينى

المستمرة فقد حدث لديهم انطباع قوى بالاختلافات الموجودة بين الأعراق المتعددة ، ومع معرفتهم الحقبة بأن كل عرق يتميز بشكل بسيط ، إلا أنهم قد حصلوا على جوائزهم من خلال انتقاء مثل هذه الفروقات البسيطة ، ولكنهم مع ذلك يتجاهلون كل البراهين العامة ، ويرفضون أن يجمعوا في أذهانهم الاختلافات البسيطة التي تتراكم من خلال أجيال كثيرة متعاقبة . أفلا ينبغي لهؤلاء العلماء في التاريخ الطبيعي الذين لا علم لهم بقوانين الوراثة أكثر من إلمام المربين العاديين ، ولا علم لهم بأى شىء عن حلقات الوصل الوسيطة فى سلاسل النشوء الطويلة ، أن يعترفوا بأن الكثير من أعرافنا الداجنة قد انحدرت من نفس الأصول الأبوية – أفلا ينبغي لهم أن يتعلموا درسا فى توخى الحذر عندما يسخرّوا من فكرة أن الأنواع فى حالاتها الطبيعية ما هى إلا الذرارى المباشرة لأنواع أخرى.

مبادئ الانتقاء^(١) المتبعة قديما وتأثيراتها

دعنا نتأمل الآن قليلا فى الخطوات التى قد تم من خلالها إنتاج أعرافنا الداجنة، سواء من نوع واحد أو من أنواع عديدة متقاربة . وبعض التأثير قد يعزى إلى المفعول المباشر والمحدد لظروف الحياة الخارجية ، وبعضه إلى السلوك ، ولكن الإنسان الأحمق فقط هو الذى يعدّ بمثل هذه العوامل لإحداث مثل هذه الفروقات ما بين جواد جر العربات وجواد السباق ، وبين الكلب السلوقى والكلب الدموم ، وبين الحمام الزاجل والحمام البهلوانى . فإنه من أكثر الصفات بروزا فى أعرافنا المدجّنة ، هى أننا نستطيع أن نشاهد فيها تكيفا ، ليس بالضرورة للمنفعة الخاصة بالحيوان أو النبات ، ولكن لاستخدام الإنسان أو لبيوله الخاصة . فقد يكون من المحتمل أن بعض التمايزات المفيدة له قد ظهرت فجأة ، أو بدأت بخطوة واحدة ، فالعديد من علماء النبات مثلا ، يعتقدون أن نبات الدبساسية^(٢) الذى يستخدم فى تقصير الأنسجة

Selection

(١) الانتقاء *

Teasel

(٢) فصيلة نبات الدبساسية وتشمل زهرة الجرب وشوك الدراج أو مشط الراعى

الصوفية^(١) ، و الكلابات الخاصة به ، والتي لا يمكن مضارعتها بأي أداة ميكانيكية مخترعة ، ماهو إلا ضرب من مجموعة الدبساق^(٢) البرى ، وأن هذا القدر من التغيير قد انبثق فجأة فى إحدى النباتات . ومن المحتمل أن هذا هو ما حدث مع الكلب السفودى^(٣) ، والمعروف أن هذا ما حدث فى حالة الخراف المرفقية^(٤) . ولكننا عندما نقارن ما بين جواد العربات وبين جواد السباق ، أو ما بين الجمل العربى وحيد السنام^(٥) والجمل ذى السنامين ، والسلالات المختلفة من الخراف الملائمة للأرض المنزرعة أو لعشب الجبال ، وصوف أحد السلالات الصالح لغرض ما ، وصوف سلالة أخرى الصالح لغرض آخر ، وعندما نقارن السلالات الكثيرة للكلاب ، وكل منها مفيد للإنسان بطرق مختلفة ، وعندما نقارن بين ديك المصارعة وعناده الواضح فى التعارك مع السلالات الأخرى من الديوك القابلة للتعارك بشكل قليل ، وما بين الدجاج الدائم الوضع للبيض^(٦) والتي لا تبدى أى رغبة فى الجلوس وبين دجاج البنطم^(٧) الصغير الحجم جدا والأنيق ، وعندما نقارن ما بين حشد من أعراق النباتات الزراعية والخضراوات القابلة للأكل^(٨) والسحلبيات وزهور الحدائق ، والمفيدة للإنسان عند مواسم مختلفة ولأغراض متنوعة ، والجميلة جداً أمام عينه ، عندئذ ، أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى ما هو أبعد من مجرد التمايز، ونحن لا نستطيع أن نفترض أن جميع السلالات قد نتجت فجأة بمثل هذا الكمال ومثل هذا الشكل المفيد كما نراها الآن ، فنحن نعلم جيدا أنه فى حالات كثيرة لم يكن هذا هو تاريخها . والمفتاح لكل ما حدث هو فى قدرة الإنسان على الانتقاء التراكمى^(٩) : فالطبيعة تعطى تمايزات متعاقبة ،

Fuller	(١) القصّار : المادة المقصرة للنسيج الصوفى
Dipsacus	(٢) نبات الدبساق *
Turspit dog	(٣) الكلب السفودى : كلب صغير يشبه السفود *
Ancom Sheep	(٤) الخراف المرفقية = خراف صغيرة قصيرة السيقان *
Dromedary	(٥) الجمل العربى وحيد السنام
Everlasting layers	(٦) الدجاج الدائم الوضع للبيض *
Bantam	(٧) دجاج البنطم : دجاج صغير الحجم
Culinary	(٨) خضراوات قابلة للأكل = مطبخى = طهوى
Accumulative selection	(٩) الانتقاء التراكمى *

والإنسان يجمعها معا فى اتجاهات معينة مفيدة له . ويمكن أن يقال من هذا المنطلق إنه قد حقق لنفسه سلالات مفيدة .

القوة الكبرى فى هذا المبدأ للانتقاء ليست قوة افتراضية . فمن المؤكد أن العديد من المربين البارزين لدينا قد نجحوا فى خلال فترة حياتية واحدة لأى منهم ، فى التعديل إلى حد كبير لسلالاتهم من الماشية والخراف ، ومن أجل التحقق بشكل كامل مما قد وصلوا إليه ، فإنه من الضروري تقريبا قراءة العديد من الكثير من الأبحاث المنشورة المخصصة لهذا الموضوع ، وإلى فحص هذه الحيوانات. والمربون يشيرون بطريقة معتادة إلى تعضية الحيوان وكأنها شىء مرن يستطيعون أن يشكوه كيفما شاعوا تقريبا . ولو كان لدى مساحة للكتابة لكنت قد سردت العديد من المقاطع التى تدور حول هذا الموضوع والصادرة عن خبراء لا يشق لهم غبار. ومن المحتمل أن "يوأت" Youatt كان على دراية أكبر بأعمال خبراء الزراعة من أى إنسان آخر تقريبا ، وكان هو ذاته خبير تحكيم ممتاز للحيوانات ، وهو يتحدث عن مبدأ الانتقاء على أساس أنه "هذا الذى يمكن المزارع ، ليس فقط من تعديل الصفات الخاصة لقطيعه ، ولكن بتغييرها كلية . وإنما لعصا سحرية تلك التى يستطيع بها أن يستحضر إلى الحياة أى شكل أو هيئة يرغب فيها " . وقد صرح "اللورد سمرفيل Lord Somerville بما صنعه المستولدون للخراف ، وجاء فى أقواله " يبدو وكأنهم قد رسموا بالطباشير على الحائط شكلا مثاليا بالنسبة إليهم ، وقاموا بعد ذلك بإعطائه الوجود ، وفى مقاطعة "ساكسونى" Saxony فإن أهمية مبدأ الانتقاء فيما يتعلق بالخراف الإسبانية من نوع الميرينوس^(١) شىء معترف به تماما ، والرجال هناك يتبعونه كمهنة : فالخراف توضع على منضدة وتدرس مثلما تدرس لوحة بواسطة خبير مطلع ، ويجرى عمل ذلك ثلاث مرات على فترات تمتد كل منها إلى شهور ، وفى كل مرة يتم إعطاء الخراف علامات ودرجات ، وذلك حتى يمكنهم انتقاء أكثرها صلاحية للتكاثر .

أما عن التأثير الذى أحدثه العاملون الإنجليز فى تربية الحيوانات فهو شىء تثبتته الأسعار الباهظة التى تدفع فى الحيوانات ذات الأصل العريق ، وهذه الحيوانات

قد وجدت طريقها إلى التصدير إلى جميع ربوع العالم . وهذا التحسين فى الحيوانات لا يمكن أن يعزى بصورة عامة إلى تهجين سلالات مختلفة ، فجميع المربين الكبار يعارضون بشدة هذه الطريقة، إلا فى بعض الأحيان، وبين سلالات فرعية متقاربة جداً. وعندما يقومون بمثل هذا التهجين فإن الانتقاء الدقيق من بين الذرية الناتجة يصبح ضروريا أكثر مما يحدث فى الحالات العادية ، فإذا كان الانتقاء يتوقف على فصل ضرب متباين جداً ، ثم الاستيلاء منه ، فإن المبدأ يصبح بهذا الشكل فى شدة الوضوح ومن الصعب أن يستحق أى اهتمام . ولكن أهميته تتمثل فى التأثير العظيم الناتج عن التكريس فى اتجاه واحد من خلال أجيال متعاقبة ، لفروقات لا قيمة لها إطلاقاً فى نظر العين غير الخبيرة – وأنا أحد الذين حاولوا فهم وتقدير هذه الفروقات ولكن بدون جدوى ، ولا يوجد إنسان من كل ألف من الناس لديه دقة العين والمقدرة على التقدير الكافية ليصبح من المربين البارزين . فإذا كان هناك شخص ما بهذه المميزات ، وانكب على دراسة هذا الموضوع لسنين طويلة ، وكرّس حياته لهذا الغرض بإصرار لا يقهر ، فإنه بهذه الطريقة سوف ينجح ، وقد يتوصل إلى إحداث تعديلات كبيرة فى النتاج ، أما إذا كان مفتقراً إلى أى واحدة من هذه المميزات فإن نصيبه بالتأكيد سيكون الفشل . وقليل من الناس هو الذى يستطيع أن يصدق فى أن القدرة الطبيعية والسنوات الطوال من الممارسة، هى أشياء ضرورية لكى يصبح حتى مجرد هاو من هواة الحمام .

ونجد أن نفس المبادئ هى المتبعة بواسطة خبراء البساتين^(١)، ولكن التمايزات فى هذا المجال قد تكون فجائية فى أحوال كثيرة . ولا يمكن لأحد أن يفترض أن محاصيلنا المفضلة قد كانت نتاجاً لتعديل أو تمايز مفرد من أصولها الأرومية . ولدينا الأدلة على أن هذا لم يحدث فى العديد من الحالات التى توجد لها لدينا سجلات دقيقة تتعلق بها ، وبالتالي ، فلكى نعطى مثالا فى غاية التفاهة ، فإننا نستطيع أن نذكر الزيادة المطردة التى نراها فى حجم ثمار عنب الثعلب^(٢) المعتاد . ونحن نرى تحسنا

Horticulturist (١) خبير فى البساتين : علم زراعة الأشجار المثمرة والخضراء ونباتات الزينة

Gooseberry (٢) عنب الثعلب = عنب الأوز = الكشمش = الريباس = الكرز الأفرنجى

مدهشا فى الكثير من الزهور التى لدى بائعى الزهور ، وهذا يبينواضحا عند مقارنة الزهور التى نراها فى زمننا الحالى ، مع أشكال الزهور التى تم رسمها منذ عشرين أو ثلاثين عاما فقط . وبمجرد أن يصبح أحد النباتات متوطدا بشكل جيد جدا ، فإن زارعى البنور لا يقومون بقطف أفضل النباتات ، ولكنهم يكتفون بمجرد المرور على أحواض بنورهم ، ونزع "الشوارد"^(١)، كما يطلقون على النباتات التى تحيد عن المستوى المطلوب . وفى الحقيقة فإن هذه الطريقة فى الانتقاء هى التى تتبع أيضا ، لأنه من المستبعد أن نجد شخصا مهملا إلى حد الاستيلاء من أسوأ حيواناته .

أما فيما يتعلق بالنباتات ، فإنه توجد وسائل أخرى لملاحظة التأثيرات التراكمية للانتقاء ، وذلك بمقارنة التنوع فى الزهور الموجودة فى الضروب المختلفة التابعة للنوع نفسه من أنواع حديقة الزهور . والتنوع الموجود فى الأوراق ، والقرنات^(٢) والدرنات^(٣) ، أو أى جزء أيا كانت قيمته فى نباتات حديقة المطبخ ، مع المقارنة بالزهور التابعة لنفس الضروب ، وكذلك التنوع فى الثمار الخاصة لنفس النوع من السحليات ، بالمقارنة بالأوراق والزهور التابعة لنفس المجموعة من الضروب . ولك أن ترى مدى الاختلاف الموجود فى أوراق نبات الكرنب^(٤)، ومدى الاختلاف الهائل فى شكل الزهور ، وكيف تختلف زهور الثالوث البرية^(٥) فى حين أن أوراقها تتماثل ، ومدى الاختلاف فى ثمار الأنواع المختلفة من نبات عنب الثعلب، فيما يتعلق بالحجم واللون والشكل والتشعر^(٦)، بينما لا توجد بين الزهور إلا اختلافات بسيطة جداً . وهذا لا يعنى أن الضروب التى تختلف كثيرا فى أحد الجوانب ، لا تختلف إطلاقا فى جميع الجوانب الأخرى ، فإن ذلك الاحتمال قد يكون غير محتمل على الإطلاق ، وأنا أقول ذلك بعد الملاحظة الدقيقة . وقانون التمايز المتلازم الذى يجب ألا نغفل أهميته أبداً ،

Rogues

(١) الشوارد *

Pod

(٢) قرنة

Tuber

(٣) درنة

Cabbage

(٤) نبات الكرنب

Heartsease

(٥) زهرة الثالوث البرية : نوع من البنفسج

Hairiness

(٦) التشعر : كثرة الشعر وطوله

سوف يتسبب فى إحداث بعض الاختلافات ، ولكن كقاعدة عامة ، فإنه لا يمكن الشك فى أن الانتقاء المستمر لمتايزات بسيطة، إما فى الأوراق أو فى الزهور أو الثمار سوف ينتج أعراقا تختلف عن بعضها البعض بشكل أساسى فى هذه الصفات .

وقد يعترض البعض على أن مبدأ الانتقاء قد انحصر فى ممارسة منهجية قد استمرت لأكثر قليلا من ثلاثة أرباع قرن ، وأن الاهتمام به قد زاد فى السنوات الأخيرة ، وأن العديد من الأبحاث قد تم نشرها عن هذا الموضوع ، وأن النتيجة قد كانت إلى درجة معادلة وسريعة ومهمة . ولكن البعيد جدا عن الحقيقة هو القول بأن المبدأ هو اكتشاف جديد . فأننا أستطيع أن أقدم العديد من المراجع عن أعمال فى غاية القدم ، والتي يظهر فيها أن الأهمية الكاملة لما ينطوى عليه المبدأ كانت معروفة . ففى الفترات الفجة والهمجية من التاريخ الإنجليزى كان يتم فى أحيان كثيرة استيراد الحيوانات الممتازة ، وكانت تسن قوانين لمنع تصدير تلك الحيوانات: وكان يؤمر بإعدام الجياد التى تنقص عن حجم معين ، ومن الممكن مقارنة ذلك بالتخلص من الشوارد فى النباتات بواسطة عمال المشاتل الزراعية^(١) . وقد وجدت مبدأ الانتقاء مونوا بشكل واضح فى موسوعة صينية قديمة . وكذلك قواعد محددة موضوعة بواسطة بعض الكتاب الرومانيين التقليديين . ويبدو واضحا فى بعض فقرات سفر التكوين^(٢) فى التوراة أن لون الحيوانات المداجنة كان موضع عناية فى هذه الفترة المعنة فى القدم . والسكان البدائيون يقدمون أحيانا فى وقتنا الحاضر على تهجين كلابهم مع الحيوانات الكلبية الوحشية ، لتحسين السلالة ، وقد قاموا بهذا الشيء من قبل ، كما تشهد بهذا فقرات من كتابات "بلىنى" . والسكان البدائيون فى جنوب أفريقيا يزاوجون أبقار جر الأثقال^(٣) الخاصة بهم المتماثلة فى اللون ، وهذا ما يقوم به بعض شعوب الإسكيمو^(٤) فى فرق الكلاب الخاصة بهم . وقد ذكر " ليفينجستون " Livingstone أن

Nurserymen

(١) عمال المشاتل الزراعية

Genesis

(٢) سفر التكوين فى التوراة

Draught cattle

(٣) أبقار جر الأثقال

Esquimaux = Eskimo

(٤) الإسكيمو : بعض شعوب تقطن شمال كندا وجرينلاند

وألaska وسيبيريا الشرقية

السلالات الداجنة الجيدة لها قيمة عالية لدى الزوج المقيمين فى قلب القارة الأفريقية والذين لم يحدث احتكاك بينهم وبين الأوروبيين . بعض هذه الحقائق لا يبرز فيها انتقاء فعلى ، ولكنها تظهر أن استيلاء الحيوانات الداجنة قد تم السهر عليه باهتمام فى العهود الضاربة فى القدم ، وأنه ما زال موضع عناية من أدنى درجات البداوة فى البشر . وفى الواقع فإنها كانت ستصبح من الأشياء الغريبة إذا لم تُعط العناية الكافية للاستيلاء، فإن وراثة الخواص الجيدة أو السيئة هى شىء واضح جداً .

الانتقاء غير المقصود (١)

المستولون البارزون للحيوانات يقومون فى وقتنا الحالى بمحاولات عن طريق الانتقاء المنهجي ، واضعين نصب أعينهم غرضاً محدد لإنتاج عترات^(٢) أو سلالات فرعية ، متميزة عن أى شكل موجود فى البلد ، ولكن ما يخصنا فى هذا الموضوع ، أنه يوجد نوع من الانتقاء هو أكثر أهمية وهو الذى يسمى الانتقاء غير المقصود ، والذى ينتج من محاولة كل فرد أن يمتلك ويستولد من أفضل الحيوانات الفردية. وهكذا ، فإن الإنسان الذى ينوى تربية كلاب الصيد المؤشرة ، فمن الطبيعى أن يحاول الحصول بقدر استطاعته على أفضل الكلاب ، ثم بعد ذلك يستولد من بين أفضل الكلاب التى لديه ، مع أنه لا توجد لديه أى رغبة أو توقع لتغيير السلالة بشكل دائم . ومع ذلك فقد نستنتج أن هذه العملية ، لو استمرت لعدة قرون ، فإنها ستؤدى إلى تحسين وإلى تغيير أى سلالة ، وبنفس الطريقة كما حدث مع "باكويل" Bakwell وخلافهم ، باتباعهم نفس العملية ولكنهم باستخدامها بشكل أكثر منهجية ، فإنهم قد نجحوا فى إحداث تعديل كبير ، حتى أثناء فترة حياتهم ، فى أشكال ومواصفات أبقارهم . والتغيرات البطيئة وغير المحسوسة من هذا القبيل ، لا يمكن التعرف عليها إطلاقاً إلا إذا تم عمل قياسات حقيقة أو رسومات دقيقة للسلالات موضع الاعتبار منذ مدة طويلة سابقة ، والتى قد تستخدم فى إجراء المقارنة ، ومع ذلك فإننا نجد فى بعض

Unconscious selection

Strain

(١) الانتقاء غير المقصود

(٢) عترة = سلالة = أرومة = أصل

الأحيان أفرادا تابعين لنفس السلالة لم تتغير أو حدث لها تغيير بسيط ، وذلك لأنها تعيش فى مناطق أقل تحضرا ، وبالتالي فقد حدث لها تحسن ضئيل فى السلالة . وهناك أسباب للاعتقاد بأن الكلاب السبيلية الخاصة بالملك تشارلس **King Charles** قد تم تعديلها بشكل غير مقصود إلى حد كبير منذ عهد هذا الحاكم ، وبعض الخبراء القديرين مقتنعون أن الكلب الساطر^(١) هو مشتق مباشرة من الكلب السبيلي ، وأنه غالبا قد اختلف عنه من خلال تغييرات كبيرة فى خلال القرن الماضى ، وأنه لمن المعروف أن كلب الصيد المرشد الإنجليزى قد حدثت له تغييرات كبيرة فى خلال القرن الماضى ، وأنه من المعتقد أن هذه التغيرات فى هذه الحالة قد حدثت أساساً عن طريق التهجين مع الكلب صائد الثعالب^(٢)، ولكن المهم لنا فى هذا الموضوع ، هو أن التغير قد تم بطريقة غير مقصودة وبالتدرج ، ومع ذلك فقد كان مؤثراً جداً إلى درجة أنه مع العلم بأن كلب الصيد المرشد الإشباني هو بالتأكيد قد جاء من إسبانيا فإن " السيد بورو " **Mr. Borrow** كما أخبرنى بأنه لم يشاهد أى كلب مستوطن فى إسبانيا يشبه كلبنا المرشد الإنجليزى .

وعن طريق عملية مماثلة للانتقاء ، وبلاستعانة بالتدريب الدقيق ، فإن جيات السباق الإنجليزى قد استطاعت أن تتفوق فى السرعة والحجم على أبائها العربية ، حتى وصل الأمر إلى أن الأخيرة ، وطبقا للوائح المنظمة لمسابقات "جوبود" **Good Wood** أصبحت تحابى فى الأوزان التى قد تستطيع حملها. وقد وضع اللورد سبنسر **Lord Spencer** وآخرون كيف أن المشية فى إنجلترا قد ازدادت فى الوزن وفى النضوج المبكر ، وذلك بالمقارنة مع الأصل الذى كان موجودا من قبل فى الدولة . وعن طريق مقارنة التعليقات التى وردت فى الأبحاث المنشورة القديمة عن الحالة الأولية والحالية للحمام الزاجل والحمام البهلوانى فى بريطانيا وفى فارس ، فإنه من الممكن أن نتتبع المراحل التى قد مرت بها هذه الأنواع من الحمام بشكل تدريجى غير ملحوظ ، إلى أن وصلت إلى هذا الاختلاف الكبير بينها وبين حمام الصخور .

Setter

(١) الكلب الساطر : من كلاب الصيد = الكلب المستطيل *

Foxhound

(٢) الكلب صائد الثعالب : كلب ضخيم يستخدم فى صيد الثعالب

ويعطى "يوات" Youtt توضيحا عن التأثيرات الناتجة عن عملية انتقاء ، والتي تعتبر انتقاء غير مقصود ، من حيث إن المستولدين لم يكونوا متوقعين ، أو حتى كانوا يرغبون فى الحصول على هذه النتيجة التى انتهت إليها الأمور ، ألا وهى إنتاج عترتين مختلفتين تماما . فهذان القطيعان من الأغنام فى منطقة ليستر **Leicester** والذنان كان يقوم بتربيتهما كل من "السيد بكلى" **Mr. Buckley** و"السيد بورچس" **Burgess** ، وكما يعلق "يوات" فإنه يقول "قد استمر استيلادهما بشكل نقى من الأصل الذى بدأ به "السيد بيكويل" **Mr. Bakewell** لفترة تربو على الخمسين عاما . ولم يكن يوجد أى شك يدور فى ذهن أحد ملم بهذا الموضوع على الإطلاق ، فى أن أى مالك لأى من هذين القطيعين قد انحرف ولو مرة واحدة عن الاستيلاد من الدم النقى الخاص بعتره قطع السيد بيكويل ، إلا أن الاختلافات الموجودة بين الأغنام المملوكة لهذين السيدين كانت كبيرة إلى درجة الظهور و كأنهما ضربان مختلفان تماما ."

وإذا كان يوجد أناس بدائيون بلغوا من الهمجية شأننا يبلغ حد عدم التفكير فى الصفات الوراثية لزرارى حيواناتهم الداجنة ، ومع ذلك فإن حيوانا معينا أثبت أنه مفيد لهم لأى غرض ما ، وعنوا بالاحتفاظ به أثناء فترات المجاعة والحوادث الأخرى التى قد يتعرض لها هؤلاء البدائيون ، وبالتالي فإن هذه الحيوانات قد تركت خلفها ذرية أكثر من الحيوانات الأخرى الأقل منها شأننا ، وبهذا فإن هذه الحالة تصلح لأن تكون مجالا ومثالا لنوع من أنواع الانتقاء غير المقصود . ونحن نرى أن القيمة التى تقدر على الحيوانات ، حتى بواسطة السكان البدائيين لجزيرة أرض النار **Tierra del Fuego** ممثلة فى أنهم يقتلون ويلتهمون نساءهم كبار السن ، فى أوقات المجاعة ، على أساس أن قيمتهن أقل من قيمة كلابهم.

وتحدث نفس عملية التحسين المتدرج فى النباتات ، وذلك من خلال الحفاظ العارض بأفضل الأفراد ، سواء كانت متباينة بشكل كاف إلى درجة توصيفها عند أول ظهورها كضروب متميزة منفصلة أم لا ، وسواء كان اثنان أو أكثر من الأنواع أو الأعراق قد تم اختلاطهما معا عن طريق التهجين أم لا ، وهذا قد يبدو واضحا من خلال الزيادة فى الحجم أو فى الجمال الذى نراه حاليا فى الضروب من زهور الثالوث،

والورد^(١) ، والغرنوقى^(٢) ، والداليا ، ونباتات أخرى ، عندما يتم مقارنتها مع الضروب الأقدم منها ، أو مع أصولها الأبوية ، ولا يمكن أن يتوقع أحد أبدا أن يحصل على زهور ثالوث أو داليا من الدرجة الأولى من بذور نبات برى^(٣). ولا يمكن لأحد أن يتوقع أن يستزرع شجرة من نوع الكمثرى اللينة^(٤) من بذور شجرة كمثرى برية ، مع أنه قد ينجح فى ذلك من نبتة ضعيفة تنمو فى حالة برية ، إذا كانت قد جاءت من شتلة من شتلات الحدائق ، ومع أن الكمثرى كانت تزرع فى العصور الكلاسيكية ، إلا أنها تبدو من الوصف الوارد فى كتابات "پليني" ، على أساس أنها كانت فاكهة من النوع الرديء جداً . ولقد شاهدت تعبيرات عن الدهشة الشديدة فى مجال أعمال البساتين من المهارة المدهشة للمشتغلين بالحدائق ، لنجاحهم فى إنتاج مثل هذه النتائج الباهرة من مثل هذه الموارد الحقيمة ، ولكن الطريقة كانت بسيطة ، أما فيما يتعلق بالنتيجة النهائية ، فإن العملية قد تتابعت بشكل غير مقصود تقريبا . وقد انحصر الأمر فى الزراعة لأفضل الضروب المعروفة دائماً ، وحصاد بذورها ، وعندما يظهر بالمصادفة أى ضرب أفضل ولو قليلا ، فإنه ينتقى، وهكذا يستمر الأمر على نفس المنوال . ولكن العاملين بالحدائق فى العصر الكلاسيكى ، الذين قاموا بزراعة أفضل أنواع الكمثرى التى استطاعوا الحصول عليها ، لم يدر بخلاصهم مدى روعة الفاكهة التى سنأكلها ، ولو أننا مدينون فيما يتعلق بامتياز ثمارنا ولو بدرجة قليلة ، إلى أنهم بالطبع قد اختاروا واحتفظوا بأفضل الضروب التى استطاعوا أن يجوها .

وقد تراكمت بهذه الطريقة كمية كبيرة من التغيرات ببطء وبشكل غير مقصود ، وهذا يفسر كما أعتقد ، الحقيقة المعروفة أنه فى عدد من الحالات لا نستطيع أن نتعرف على ، وبالتالي لا نستطيع أن نعرف الأصول الأبوية للنباتات التى قد مر على زراعتها فى حدائق زهورنا وخضراواتنا المأكولة ، أطول مدة . وإذا كان الأمر قد استغرق قرونا

Rose	(١) زهرة الورد
Pelargonium	(٢) زهرة الغرنوقى = الجرانيوم = العطر
Wild	(٣) برى = وحشى
Melling pear	(٤) الكمثرى اللينة : التى تنوب فى الفم *

أو آلاف من السنين لتحسين أو تعديل معظم نباتاتنا إلى أن وصلت إلى مستواها الحالي من الفائدة للإنسان ، فإننا نستطيع أن نفهم كيف أن أيا من إستراليا أو رأس الرجاء الصالح **Cape of Good Hope** ، أو أى منطقة أخرى مأهولة بواسطة أناس غير متمدينين ، لم تقدم إلينا نباتا واحدا يستحق الزراعة . والأمر لا يرجع إلى أن هذه البلاد الغنية جدا بالأنواع لا تمتلك عن طريق المصادفة الغريبة الأصول الأرومية لأى نبات مفيد ، ولكن لأن النباتات المحلية لم يتم تحسينها عن طريق الانتقاء المستمر لتصل إلى مستوى الكمال ، بالمقارنة إلى المستوى الذى حازته النباتات فى البلاد المتمدنية منذ القدم .

أما فيما يتعلق بالحيوانات الداجنة التى قام بتربيتها أناس غير متمدينين ، فيجب ألا يفوتنا أنها قد كانت مضطرة إلى أن تكون فى حالة صراع دائم تقريبا للحصول على الطعام ، أو على الأقل فى أثناء مواسم معينة . وما الذى يحدث فى بلدين مختلفين تماما فى الظروف ، فإن الأفراد التابعين لنفس النوع ، التى بينها اختلافات بسيطة فى البنيات والتركيب ، قد تكون فى معظم الأحيان لديها فرصة أفضل للنجاح فى البقاء فى بلد منهما أكثر مما فى البلد الآخر ، وهكذا فعن طريق عملية "الانتقاء الطبيعى"^(١) ، وكما سيتم توضيحه بالكامل فيما بعد ، فمن المحتمل أنه قد حدث تكوين لنوعين فرعيين ، وربما يكون فى ذلك رد على التساؤل الذى أبداه بعض الباحثين عن السبب فى أن الضروب التى تقوم بتربيتها الأقوام البدائية لديها من الصفات الموجودة فى الأنواع الأصلية ، أكثر من الضروب التى يقوم بتربيتها مواطنو البلاد المتحضرة .

أما بالنسبة لوجهة النظر التى وردت هنا عن الدور المهم الذى لعبه الانتقاء بواسطة الإنسان ، فإنه يصبح واضحا على الفور ، كيف يظهر على أعراقنا الداجنة القابلية للتأقلم فى تركيبها أو فى عاداتها على احتياجات أو ميول الإنسان . وأظن أننا نستطيع أن نكون أكثر إدراكا للصفات غير العادية التى تتكرر فى أعراقنا الداجنة ، وكذلك الاختلافات التى تبو فى غاية الضخامة فى الصفات الخارجية ، بينما هى فى

منتهى البساطة فى الأجزاء أو الأعضاء الداخلية. ولا يستطيع الإنسان، أو قد يستطيع بصعوبة كبيرة ، أن ينتقى أى انحراف فى التركيب ، إلا ما يستطيع مشاهدته خارجيا بوضوح ، ومن المؤكد أنه من النادر أن يهتم بما هو فى الداخل . وهو لا يستطيع إطلاقا أن يقوم بعملية الانتقاء إلا على الضروب التى منحتها له الطبيعة، ولو بدرجة بسيطة فى المقام الأول . فلا يمكن لإنسان أن يحاول أن يصنع حمامة ذات ذيل مروحي حتى يرى بنفسه حمامة لها ذيل قد تم تكوينه بدرجة بسيطة على شكل غير عادى ، أو يحاول أن يصنع حمامة عابسة حتى يرى حمامة لها حوصلة ذات حجم غير عادى ، وكلما زادت درجة الشنوذ أو عدم الاعتيادية لأى صفة عندما تظهر لأول مرة ، زادت قابليتها لجذب انتباهه . ولكن لكى يستخدم تعبير مثل "يحاول أن يصنع" حمامة ذات ذيل مروحي ، فإن ذلك و بدون شك ، وفى معظم الأحيان ، هو تعبير خاطئ . والإنسان الذى كان أول من انتقى حمامة لها ذيل أكبر قليلا من أقرانها لم يكن يحلم بما ستصير إليه نرارى هذه الحمامة من خلال عملية انتقاء طويلة ومستمرة ، وجزء منها غير مقصود والجزء الآخر منهجى . وربما كان الطائر الأبوى لجميع الحمام المروحي الذيل لديه فقط أربع عشرة ريشة فى ذيله ، منتشرة بعض الشيء ، مثلما هو الحال فى الحمام الموجود فى جزيرة "جاوه" Java ، أو مثلما هو الحال فى بعض الأنواع التابعة لسلاسل أخرى مختلفة ، والتي بالحصص قد وصل عددها فى بعضهم إلى سبع عشرة ريشة ذيلية . وربما لم تقم الحمامة العابسة الأولى بنفخ حوصلتها إلى حد أكبر بكثير مما ينفخ الحمام المخروطى المنقار (التربيت) الجزء الأعلى من مريئه ، وهى عادة لا يعيرها هواة الحمام أى اعتبار ، على أساس أنها ليست من الصفات المميزة لهذه السلالة.

ويجب ألا نستطرد فى التفكير فى أن بعض الانحرافات العظيمة فى التركيب هى شىء ضرورى للفت نظر الهاوى ، فإنه يستشعر الاختلافات المتناهية فى الصغر ، وإنه لمن الطبيعة البشرية الاهتمام بأى بدعة مستجدة مهما تكن بسيطة ، فيما يقع ضمن ممتلكاته . ويجب ألا نحكم على القيمة التى قد وضعها من قبل على أى من الاختلافات البسيطة فى الأفراد التابعين لنفس النوع ، بنفس الحكم الذى نضعه على القيمة المقدرة عليهم الآن ، وذلك بعد أن توطد تكوين العديد من السلالات بصورة حسنة ،

ومن المعروف أنه يظهر الآن فى الحمام ، فى بعض الأحيان الكثير من التمايزات البسيطة، ولكن هذه التعديلات ترفض على أساس أنها عيوب أو انحرافات عن المستوى الموضوع لكل سلالة . والأوزة المعتادة لم يتفرع منها أى ضروب واضحة ، وعلى هذا الأساس فإن سلالة الأوز بمقاطعة تولوز Toulouse والسلالة الشائعة، واللتين تختلفان فقط فى اللون ، وهو من الصفات العابرة جدا ، قد تم عرضهما مؤخرا فى معارضنا لتطوير الداجنة ، على أساس أنهما سلالتان متباينتان.

ويبدو أن هذه الآراء تفسر ما قد تم ملاحظته فى بعض الأحيان ، ألا وهو ، أننا بالكاد نعرف أى شىء عن الأصل أو التاريخ الخاص بأى من سلالاتنا الداجنة . ولكن فى الحقيقة فإن السلالة هى مثل لهجة فى إحدى اللغات ، ومن الصعب أن توصف بأن لها أصل منفصل . فالإنسان يحتفظ ويستولد من فرد به بعض الانحرافات البسيطة فى التركيب ، أو يولى عناية أكبر من المعتاد فى تزويج أفضل حيواناته ، وهو بالتالى يعمل على تحسينها ، وهذه الحيوانات المحسنة تنتشر ببطء فى المناطق المجاورة المباشرة ، ولكنه من الصعب أن تطلق عليها أسماء خاصة بها فى هذه المرحلة ، ولكونها مازالت غير مقدرة إلا بشكل بسيط ، فإن تاريخها سوف يتم إهماله. وعندما يجرى تحسينها إلى حد أكبر بنفس العملية البطيئة المتدرجة ، فإنه من المتوقع أن يزيد انتشارها ، ويعترف بها على أساس أنها شىء خاص منفصل وثمانين ، وعندئذ فغالبا ما قد يطلق عليها اسما إقليميا لأول مرة . وفى البلاد شبة المتحضرة ، التى تقل فيها وسائل الاتصالات الحرة ، فان انتشار أى سلالة فرعية جديدة ، سيكون عملية بطيئة . وبمجرد أن يتم الاعتراف بالنواحي القيمة الموجودة فيها فإن مبدأ الانتقاء غير المقصود - كما أسميه - سوف يقوم دائما - ربما أكثر فى فترة من فترة أخرى ، على حسب إذا ما زاد أو قل الطلب على السلالة - وربما فى منطقة أكثر من المنطقة الأخرى ، اعتمادا على حالة التحضر السائدة بين المواطنين - فى الإضافة ببطء - للصفات المميزة للسلالة ، أيا كانت هذه الصفات . ولكن الفرص المتاحة لحفظ أى سجلات خاصة بمثل هذه التغيرات البطيئة والمختلفة وغير المحسوسة ستكون ضئيلة إلى حد لا نهائى.

الظروف المواتية لقدرة الإنسان على الانتقاء

سأذكر الآن بعض الكلمات عن الظروف المواتية ، أو عكس ذلك ، لقدرة الإنسان على الانتقاء ، فإنه من الواضح أن الدرجة العالية من القابلية للتمايز ، هي من العوامل المواتية ، وذلك بمثابة السخاء فى منح المواد اللازمة للانتقاء لى يؤدي مفعوله ، وليس ذلك لأن مجرد الاختلافات الفردية وحدها غير كافية بدرجة تامة ، حتى مع اتباع العناية الفائقة ، لأن تسمح بتراكم قدر كبير من التعديلات ، فى أى اتجاه مرغوب فيه تقريبا ، ولكنه بما أن التمايزات التى يبدو واضحا أنها مفيدة أو تسر الإنسان ، قد تظهر فى بعض الأحيان فقط ، فإن فرصة ظهورها سوف تزيد كثيرا فى حالة تربية عدد كبير من الأفراد . ومن ثم ، فإن العدد له أهمية كبرى فى النجاح . وقد علق "مارشال" Marshall على هذا المبدأ ، فيما يتعلق بالخراف الموجودة فى أجزاء من مقاطعة "يوركشير" Yorkshire بقوله "بما أنهم عموما يتبعون لقوم فقراء ، ويوجدون فى الغالب فى مجموعات صغيرة فإنهم لا يمكن أن يتحسنوا " . وعلى الجانب الآخر ، فإن العاملين فى المسائل الزراعية ، نتيجة لقيامهم بتربية أعداد كبيرة من النبات نفسه ، فإنهم عادة أكبر نجاحا بكثير من الهواة فى زراعة ضروب جديدة وقيمة . ومن الممكن رعاية عدد كبير من الأفراد الخاصة بأحد الحيوانات أو النباتات فى المكان الذى تتوفر فيه ظروف مناسبة للتكاثر . وعندما يقل عدد الأفراد ، فإن الجميع سوف يسمح له بالتوالد ، مهما تكن مميزاتهم ، وهذا سوف يؤدي إلى منع الانتقاء . ولكن ربما كان أكبر العوامل أهمية ، هو أن يكون الحيوان أو النبات له تقدير عال جدا عند الإنسان ، إلى درجة أن يوليه أكبر اهتمام ممكن ، حتى إلى أبسط الانحرافات فى مميزاتة أو تركيبه . ومالم بيد مثل هذا الاهتمام فلا يمكن إنجاز أى شىء . وقد شاهدت ذلك بشكل ملحوظ جدا فى أنه كان من ضربات الحظ السعيد أن بدأت ثمار الفريز^(١) فى التمايز عندما بدأ المزارعون فى العناية بهذا النبات ، ولا يوجد شك فى أن نبات الغريز قد كان دائم التمايز منذ أن بدأت زراعته ، ولكن الضروب البسيطة منه قد تم إهمالها ،

Strawberry

(١) الفريز = الفراولة = الشليك

ومع ذلك فبمجرد أن انتقى المزارعون نباتات فردية تتميز بثمار أكبر قليلا أو مبكرة بعض الشيء أو أفضل قليلا ، وبدأوا فى زراعة شتلات منها ، ثم عابوا إلى انتقاء أفضل الشتلات ، وأنتجوا سلالات منها ، فعندئذ (مع بعض المساعدة عن طريق تهجين الأنواع الممتازة منها) تمت زراعة هذه الأعداد الكبيرة من أصناف الفراولة المثيرة للإعجاب ، والتي ظهرت فى خلال نصف القرن الأخير (المقصود هو النصف الأول من القرن التاسع عشر).

أما فى الحيوانات ، فإن إمكانية منع التزاوج عامل مهم فى تكوين أعراق جديدة - على الأقل فى قطر مزدهم بالفعل بأعراق أخرى . وفى هذه الحالة ، فإن إحاطة الأرض بالأسوار يلعب نورا . فإننا نجد أن البدائيين الرحالة أو المقيمين فى سهول مفتوحة ، من النادر أن يمتلكوا أكثر من سلالة واحدة من نفس النوع . ومن الممكن تزويج الحمام مدى الحياة ، وهذا شىء ملائم جدا للهاوى ، حيث يستطيع أن يحسن العديد من الأعراق ويحتفظ بنقاء سلالاتها ، مع بقائها مختلطة فى داخل نفس المطير ، ولا بد أن هذا الوضع قد أثر بطريقة إيجابية كبيرة على تكوين سلالات جديدة . وقد يعنى لى أن أضيف ، أنه من الممكن الإكثار من الحمام بأعداد كبيرة وبسرعة كبيرة جدا ، ومن الممكن التخلص بحرية من الطيور المنحطة ، وذلك لأنه عندما يتم قتلها ، فإنه من الممكن استخدامها كأحد أنواع الطعام . وعلى الجانب الآخر ، فإن القلط ، ونتيجة لعاداتها الخاصة بالهيام على وجوهها ليلا ، فلا يمكن تزويجها بسهولة ، وبالرغم من أنها محببة جداً للنساء والأطفال ، فإنه من النادر أن نرى أحدا يحتفظ بسلالة مميزة لمدة طويلة ، ومثل هذه السلالات التى نراها أحيانا هى فى الغالب دائما مستوردة من أحد البلاد الأجنبية الأخرى . وبالرغم من أننا لا أشك فى أن بعض الحيوانات الداجنة تتمايز بدرجة أقل من غيرها ، إلا أن ندرة أو عدم وجود سلالات منفصلة من القلط ، أو الحمير ، أو الطاووس^(١) ، أو الأوز وخلافه ، قد يعزى الجزء الأكبر منه إلى عدم قيام الانتقاء بأى نور فى عملية التكاثر : فى القلط نتيجة الصعوبة فى جعلها أزواجا - وفى الحمير نتيجة لعددها القليل الذى يربيه أناس فقراء،

ولا تلقى سوى عناية قليلة عند القيام باستئصالها ، لأنه قد حدث مؤخرا فى بعض المناطق فى إسبانيا وفى الولايات المتحدة ، أن حدث تعديل وتحسين بشكل مدهش لهذا الحيوان وذلك عن طريق الانتقاء الدقيق - وفى طيور الطاووس نتيجة لصعوبة تربيته ، ولعدم الاحتفاظ بأعداد كبيرة منه - وفى الأوز نتيجة لانحصار فائدته فى غرضين فقط ، هما الأكل والريش ، والسبب الأكثر خصوصية ، هو انعدام الشعور بالسرور المستمد من استعراض أنواع متميزة منه ، ولكن الأوزة ، وتحت الظروف التى تتعرض لها عندما تستدجن ، يبدو أنها قد انفردت بطريقة تعضوية غير قابلة للتغيير ، بالرغم من أنها قد تمايزت من قبل بدرجة بسيطة ، كما جاء وصفه فى موضع آخر .

ويصر بعض الباحثين على أن كمية التمايز لإنتاجنا الداجن قد بلغت أقصى مداها ، وأنه لا يمكن أن تزيد عن ذلك فيما بعد . وأنه لمن التهور بعض الشيء تأكيد أن الحد الأقصى قد تم الوصول إليه فى أى من الحالات ، لأن جميع حيواناتنا الداجنة ونباتاتنا تقريبا قد تم تحسينها بشكل كبير وبطرق عديدة فى خلال الحقبة الأخيرة ، وهذا يقتضى ضمنا حدوث التمايز . ومن التهور بشكل مماثل التأكيد على أن الصفات قد وصلت إلى حدها الأقصى ، وأنها لا تستطيع بعد أن استمرت ثابتة لعدة قرون أن تتغير مرة أخرى تحت ظروف جديدة للحياة . ولا يوجد شك ، كما علق السيد "والاس" **Mr. Wallace** بكثير من المصادقية ، أن هناك حداً لسرعة الجرى الخاصة بأى حيوان أرضى ، لأن ذلك سيعتمد على الاحتكاك الذى لا بد من التغلب عليه ، ووزن الجسم الذى لا بد من حمله ، وقوة الانقباض لألياف العضلات . ولكن كل ما يعنينا هو أن الضروب الداجنة التابعة لنفس النوع تختلف عن بعضها بعضا تقريبا فى جميع الصفات ، التى قد اعتنى بها الإنسان وانتقاها ، أكثر من الاختلاف الموجود بين الأنواع المتباينة التابعة لنفس الطبقات . وقد قام "إيزاتور جيوفورى سانت هيلارى **Isidore Geoffroy St. Hilaire** بإثبات ذلك فيما يتعلق بالحجم ، ونفس الشيء مع اللون ، ومن المحتمل مع طول الشعر . أما فيما يتعلق بالسرعة فى الجرى ، والتى تعتمد على العديد من الصفات الجسدية ، فإن "إكلبس" **Eclipse** (وهى كلمة تعنى كسوف الشمس أو خسوف القمر - وقد يكون الكاتب قد عنى بها اسم حصان شهير فى هذه الفترة) كان الأشد سرعة ، وحصان جر العربات هو بدون وجه للمقارنة أقوى من اثنين من

الأنواع الطبيعية التابعة لنفس الطبقة . ونفس الشيء مع النباتات ، فإن البنور التابعة لضروب مختلفة من الفول^(١) أو الذرة من المحتمل أن تختلف بصورة أكبر فى الحجم عن البنور التابعة لأنواع متباينة فى أى طبقة تابعة لنفس الفصيلة من الفصيلتين النباتيتين . ونفس الملحوظة تنطبق جدا فيما يتعلق بالثمار الخاصة بالضروب العديدة من شجر البرقوق^(٢) ، وبدرجة أكبر فيما يتعلق بالشمام^(٣) ، وكذلك مع العديد من الحالات الأخرى المماثلة.

لكى نصل إلى نتيجة عن نشأة^(٤) أجناس حيواناتنا ونباتاتنا الداجنة . فإن الظروف المتغيرة للحياة هى التى لها الأهمية الكبرى فى إحداث التمايزات ، عن طريق كل من التأثير مباشرة على التعضية^(٥) والتأثير غير المباشر بالتأثير على الجهاز التوالدى^(٦) . وليس من المحتمل أن تكون القابلية للتمايز هى مصادفة متأصلة أو ضرورية ، تحت جميع الظروف . والزيادة أو القلة فى قدرة الوراثة والارتداد هى التى تحدد إذا ما كان التمايز سوف يبقى ثابتا . والتمايز محكوم بواسطة الكثير من القوانين غير المعروفة ، والمرجح أن النمو المتلازم هو الأكثر أهمية فيها . ويوجد شىء ، ولكننا لا نعرف إلى أى مدى ، قد يعزى إلى الزيادة فى التأثير المباشر لظروف الحياة . وبعض التأثير ، وقد يكون كبيرا ، قد يعزى إلى الزيادة فى الاستخدام أو عدم الاستخدام للأجزاء . والنتيجة النهائية ستصبح بالتالى معقدة إلى حد لا نهاية له . ويبدو فى بعض الحالات أن التهجين بين الأنواع الأرومية المتباينة قد لعب دورا مهما فى نشأة سلالاتنا . وبمجرد أن تتكون عدة سلالات فى أى قطر ، فإن التهجين فيما بينها ، مع مساعدة الانتقاء ، قد ساعد بدون شك فى تكوين سلالات فرعية جديدة ،

Bean	(١) فول / فاصوليا ، لوبيا
Plum	(٢) برقوق = أجاص
Melon	(٣) شمام / بطيخ / قاوون
Origin	(٤) نشأة
Organization	(٥) التعضية
Reproductive system	(٦) الجهاز التوالدى = الجهاز التناسلى

ولكن أهمية التهجين قد بولغ فيها كثيرا ، فيما يتعلق بكل من الحيوانات والنباتات التي تنتشر بواسطة البذور. أما بالنسبة للنباتات التي تنتشر مؤقتا بواسطة الشتلات^(١) ، أو البراعم ، وخلافه ، فإن أهمية التهجين هائلة ، لأن المزارعين فى هذه الحالة قد يتغاضون عن القابلية المتطرفة للتمايز فى كل من الأنغال^(٢) والمهجين^(٣) ، والعقم بين الأنغال ، ولكن النباتات التي لا تنتشر بواسطة البذور هى ذات فائدة قليلة لنا ، وذلك لأن بقاءها مؤقت فقط . وفوق هذه الأسباب "للتغير" ، فإن التأثير التراكمى للانتقاء ، سواء تم تطبيقه بطريقة منهجية وسريعة ، أو بطريقة غير مقصودة وبطيئة ، ولكنها أكثر فاعلية ، يبدو أنه كان هو القوة المهيمنة .

Cuttings
Hybrids
Mongrels

(١) الشتلات
(٢) الأنغال = المولدين = الهجناء
(٣) المهجين

الباب الثانى

التمايز تحت تأثير الطبيعة

القابلية للتمايز^(١) - الاختلافات الضردية - الأنواع غير المؤكدة^(٢) - الأنواع الواسعة المآلف^(٣)، والكثيرة الانتشار^(٤)، والشائعة^(٥) هي الأكثر تمايزا^(٦) - الأنواع التابعة للطبقات^(٧) الكبرى فى كل قطر تتمايز بشكل أكبر بكثير من الأنواع التابعة للطبقات الصغرى - الكثير من الأنواع التابعة للطبقات الكبرى تماثل الضروب فى كونها مرتبطة ببعضها بشكل حميم جدا، ولكن بقدر غير متساو، وفى حيازتها لمآلف^(٨) محدودة.

Variability	(١) القابلية للتمايز * = المتقلبية = المتغيرة *
Doubtful	(٢) غير مؤكد = مشكوك فيه = مبهم = ملتبس = مريب *
Wide ranging	(٣) واسعة المآلف = واسعة التجول أو التطواف *
Diffused	(٤) منتشر
Common	(٥) شائع = مشترك - عام - عادى = معتاد
Vary	(٦) يتمايز * = يتغير = يتنوع = يختلف = يتفاوت = ينحرف عن نوعه الطرازى
Genera	(٧) طبقات
Range	(٨) مآلف * = مجال = مسافة = مدى = مساحة = رقعة = مرعى

قبل تطبيق المبادئ التي تم التوصل إليها في الباب السابق على الكائنات العضوية التي في البيئة الطبيعية ، فإننا يجب أن نناقش باختصار إذا ما كانت هذه الكائنات قابلة لأي تمايز أو تغيير . ولمعالجة هذا الموضوع بطريقة صحيحة ، فإننا يجب أن نستعرض قائمة طويلة من الحقائق الجافة ، ولكنى سوف أدخر ذلك لعمل فى المستقبل . وكذلك لن أضع هنا موضع المناقشة التعريفات المختلفة التى قد أطلقت على مصطلح "نوع حى" ^(١) . فلا يوجد تعريف واحد كان مرضيا لجميع علماء التاريخ الطبيعى، ومع ذلك فكل عالم منهم يعلم بشكل مبهم ماذا يعنيه عندما يتكلم عن نوع ما . وبشكل عام ، فإن المصطلح يتضمن العنصر المجهول من عمل سحيق القدم للخليقة . ومصطلح " ضرب " ^(٢) متساو تقريبا فى صعوبة التعريف ، ولكنه فى هذا المقام فإن الاتحاد فى المنشأ ^(٣) هو المعنى المفهوم ضمنا على وجه العموم ، مع أنه من النادر التمكن من إثباته . ولدينا أيضا ما يسمى الشواذ فى الخليقة ^(٤) ، ولو أنهم يندرجون تحت الضروب . وأنا أفترض به أن معنى مصطلح "الشذوذ فى الخليقة" هو الانحراف الكبير فى التركيب، الذى يكون على وجه العموم ضارا، أو غير مفيد للنوع . وبعض الكتاب يستخدمون مصطلح " التمايز " بمعناه التطبيقي ، أى بما ينم عن تعديل ما نتيجة الظروف الطبيعية للحياة ، و"التميزات" بهذا المعنى من غير المفروض أن تتوارث ، ولكن من يستطيع أن يقول إن الحالة المقرمة ^(٥) للقواقع الموجودة فى مياة بحر البلطيق القليلة الملوحة ، أو النباتات المقرمة على قمم جبال الألب، أو الفراء البالغ الكثافة لحيوان ما فى أقصى المناطق الشمالية ، لن يكون فى بعض الحالات أشياء متوارثة حتى ولو لبضعة أجيال على الأقل ؟ - وفى هذه الحالة فإننا أسلم بأن هذا الشكل الحى سوف يطلق عليه "ضرب" .

وقد يكون من المشكوك فيه إن كانت الانحرافات الفجائية والمهمة فى التركيب ، مثل تلك التى نراها أحيانا فى منتجاتنا الداجنة ، وخاصة فى حالة النباتات ، يمكن

Species (pl. species)	(١) نوع حى (جمعها أنواع حية)
Variety	(٢) ضرب حى
Community of descent	(٣) الاتحاد فى المنشأ = وحدة النشأة *
Monstrosities	(٤) شواذ الخليقة * = الشواذ = الهولات *
Dwarfed	(٥) مقرم : صغير فى الحجم نسبيا *

على الإطلاق أن تنتقل بشكل دائم الى الذرارى فى البيئة الطبيعية . فإننا نجد أن كل جزء تقريبا من كل كائن عضوى هو مرتبط بشكل جميل مع الظروف المعقدة الخاصة بحياته، إلى درجة أنه يبدو أنه من المستحيل أن يكون أى جزء جسدى قد تم إنتاجه فجأة بشكل مكتمل ، وهذا مثل الآلة المعقدة التركيب التى قد يتم الإنسان اختراعها فى حالة مكتملة . وقد ينتج فى بعض الأحيان شواذ فى الخلقة تحت تأثير التدجين ، وهى تشابه التراكيب العادية الموجودة فى الحيوانات المختلفة عن بعضها بشكل كبير. وهكذا فإن بعض الخنازير قد تولد أحيانا ولها ما يشابه الخرطوم^(١) . وإذا ما امتك بشكل طبيعى أى نوع وحشى تابع لنفس الطبقة خرطومًا ، فقد يكون هذا مجالًا للجدال فيما إذا كان هذا الخرطوم قد ظهر كإحدى الظواهر الشاذة فى الخلقة ، ولكنى لم أوفق إلى الآن ، بالرغم من البحث الجاد ، فى العثور على حالات من الشذوذ فى الخلقة التى تشابه التراكيب الطبيعية فى الأشكال الحية المتقاربة بشكل حميم، وهؤلاء هم الوحيدون الذين يتحملون وطء التساؤل. وإذا حدث وظهرت على الإطلاق أشكال شاذة فى الخلقة من هذا النوع فى البيئة الطبيعية، وكانت قادرة على التكاثر (وهذا ليس المعتاد دائماً) ، وبما أن هذه الحالات من النادر أن تحدث وإذا حدثت فبصورة حالات فردية ، فإن بقاها سوف يعتمد على ظروف مواتية بشكل غير معتاد . وسيحدث أيضاً تلاقح بينها وبين الأشكال العادية أثناء الجيل الأول والأجيال التالية ، وهذا سيؤدى حتماً إلى فقدان الكلى تقريباً لهذه الصفة غير الطبيعية ، ولكنى سأعود فى باب مقبل إلى الحفاظ والاستدامة للتمايزات الفردية والعرضية .

الاختلافات الفردية

الاختلافات الفردية البسيطة التى تظهر على الذرارى التابعة لنفس الأبوين ، أو التى قد يكون من المفترض أنها قد قامت بهذا الشكل، وذلك نتيجة لمشاهدتها فى الأفراد التابعة لنفس النوع التى تقطن فى نفس المنطقة المحيطة ، من الممكن أن يطلق عليها "الاختلافات الفردية". ولا يفترض أى إنسان أن جميع الأفراد التابعة لنفس

النوع قد تم صبها في نفس القالب الأصلي . فهذه الاختلافات الفردية في غاية الأهمية لنا ، لأنها غالبا ما تكون موروثه ، وهو ما يجب أن يكون معروفا لكل إنسان ، وهي بذلك تزود الانتقاء الطبيعي بالأنوات اللازمة للعمل عليها ، وعلى تكديسها ، بنفس الطريقة التي يكسب بها الإنسان الاختلافات الفردية في أى اتجاه مطلوب في منتجاته المدجنة . وهذه الاختلافات الفردية تؤثر عادة فيما يعتبره علماء التاريخ الطبيعي أجزاء جسدية غير مهمة ، ولكنى أستطيع أن أبين بواسطة قائمة طويلة من الحقائق أن الأجزاء الجسدية التي من المحتم أن يطلق عليها أنها مهمة ، سواء تم النظر إليها من وجهة النظر الوظيفية للأعضاء أو التصنيفية، فإنها تختلف أحيانا في الأفراد التابعة لنفس النوع . وأنا مقتنع بأن عالم التاريخ الطبيعي الأكثر خبرة ستصيبه الدهشة من عدد حالات القابلية للتمايز ، حتى في الأجزاء المهمة من البنيان ، التي يستطيع أن يجمعها على أساس جيد ، على غرار ما قمت أنا بجمعه على مدى سنوات عديدة . ويجب أن نتذكر أن خبراء التصنيف هم بعيدون كل البعد عن الشعور بالارتياح عند العثور على قابلية للتمايز في الصفات المهمة ، ولا يوجد هناك أناس كثيرون من الصنف الذى سوف يفحص بجهد الأعضاء الداخلية والمهمة ، ويقوم بمقارنتها في العديد من العينات التابعة لنفس النوع . فإنه لم يكن من المتوقع إطلاقا أن تفرع الأعصاب الرئيسية بالقرب من العقدة العصبية ^(١) المركزية لحشرة ما ، قد يكون قابلاً للتمايز في نفس النوع . وقد يكون من المتصور أن التغييرات التي من هذا القبيل تحدث بخطوات بطيئة فقط ، ولكن " السير ج . لوبوك Sir J. Lubbock قد أثبت وجود درجة من القابلية للتمايز في هذه الأعصاب الرئيسية في حشرة القرمز ^(٢) ، من الممكن مقارنتها تقريبا مع التفرع غير المنتظم للأغصان على جذع شجرة . ومن الممكن أن أضيف أن هذا العالم في التاريخ الطبيعى الفلسفى النزعة ، قد بين أيضاً أن العضلات الموجودة في اليرقات التابعة لبعض الحشرات بعيدة كل البعد عن أن تكون كلها متطابقة. ويجرى نقاش في بعض الأحيان بين الخبراء في دائرة مفرغة ، عندما يتكلمون عن أن الأعضاء الجسدية المهمة لا تختلف عن بعضها أبدا ، وذلك لأن هؤلاء

Ganglion

(١) عقدة عصبية

Coccus

(٢) حشرة القرمز : جنس من الحشرات كثير الصور والضروب **

الخبراء هم الذين يقومون بتصنيف هذه الأجزاء بالفعل على أنها مهمة (وقد اعترف بذلك البعض القليل من علماء التاريخ الطبيعي الأمناء) وأنها الأعضاء التي تتمايز . وبتطبيق هذه الواجهة من النظر ، فهذا يعنى أنه لا توجد أى حشرة على الإطلاق لديها القابلية على التمايز فى أجزائها المهمة ، ولكن تحت أى وجهة نظر أخرى، فمن المؤكد أنه من الممكن إعطاء العديد من الحالات التي تبين عكس ذلك .

وهناك نقطة واحدة متعلقة بالاختلافات الفردية نجد أنها محيرة إلى درجة كبيرة، وأنا أشير إلى تلك الطبقات التي قد أطلق عليها "المتقلبة" ^(١) أو "المتعددة الأشكال" ^(٢) ، والتي تبدى فيها الأنواع قابلية جامحة للتمايز . وفيما يتعلق بالعديد من هذه الأشكال الحية ، فإنه من النادر أن نجد اتفاقاً بين اثنين من علماء التاريخ الطبيعي على تصنيفها باعتبار أنها أنواع أو باعتبار أنها ضروب. ومن الممكن لنا أن نسرد على سبيل المثال من بين النباتات أصناف التوت الشوكى ^(٣) والنسرين ^(٤) وأذان الفأر ^(٥) ، وأجناس عديدة من الحشرات ، ومن القواقع خيشوميات الأقدام ^(٦) . وفى معظم الطبقات المتعددة الأشكال ، نجد أن بعض الأنواع لديها صفات ثابتة ومحددة . ويبدو أن الطبقات المتعددة الأشكال الخاصة بأحد الأقطار ، هي متعددة الأشكال أيضاً فى الأقطار الأخرى ، وذلك مع بعض الاستثناءات القليلة ، ونجد هذا بالمثل فى القواقع خيشومية الأقدام بناء على ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة . وهذه الحقائق محيرة جداً ، حيث يبدو أنها تظهر أن هذا الشكل من القابلية للتمايز لا يعتمد على ظروف الحياة . وأنا أميل إلى الشك فى أننا نرى - على الأقل فى بعض من هذه الطبقات المتعددة الأشكال - تمايزات غير مفيدة أو ضارة للنوع ، وهى بالتالى لم يتم اقتناصها وجعلها نهائية عن طريق الانتقاء الطبيعي ، كما سيأتى شرحه فيما بعد .

Protean	(١) متقلبة
Polymorphic	(٢) متعددة الأشكال
Rubus	(٣) التوت الشوكى = التوت البرى = العليق = ورد السياج = الورد الصينى
Rosa	(٤) النسرين = ورد الكلب = الورود
Hieracium	(٥) أذان الفأر = الأرقيون = حشرة الصقر
Brachiopods	(٦) خيشوميات الأقدام : رتبة من القشريات فى أقدامها خياشيم

وكما هو معلوم للجميع ، فإنه كثيرا ما يظهر على الأفراد التابعين لنفس النوع ، اختلافات كبيرة فى التركيب ، مستقلة تماما عن التمايز ، كالموجود بين الذكور والإناث الخاصة بالحيوانات المختلفة ، وفى الاثنتين أو الثلاثة مظاهر الخاصة بالإناث (العقيمة أو العاملة) الموجودة فى الحشرات ، وفى الأطوار غير البالغة واليرقانية الخاصة بالعديد من الحيوانات الدنيئة . ويوجد أيضا حالات من ثنائيات الشكل وثلثيات الشكل فى الحيوانات والنباتات . وعلى هذا الأساس فإن السيد "الاس" - الذى جذب الانتباه مؤخرا إلى هذا الموضوع - قد بين أن الإناث التابعة لنوع معين من الفراشات ، التى تعيش فى الأرخبيل المالىزى ، تظهر بصورة منتظمة فى شكلين أو حتى ثلاثة أشكال مختلفة عن بعضها بشكل واضح ، وغير مترابطة عن طريق ضروب وسيطة فيما بينها . وقد وصف "فريتز مولر" Fritz Miller حالات مماثلة ولكنها أكثر غرابة تحدث فى الذكور التابعة لبعض الحيوانات القشريات البرازيلية المعينة. وهكذا فإن الذكر فى القشريات التنائية^(١) يبدو بصورة منتظمة فى شكلين مختلفين عن بعضهما ، أحد هذين الشكلين له كلابات قوية ومختلفة عن بعضها فى الشكل ، والشكل الآخر لديه قرون استشعار مزودة بكمية كبيرة من الشعر الخاص بالششم^(٢) . وبالرغم من أنه لا يوجد - فى معظم هذه الحالات - ترابط حالى بين الاثنتين أو الثلاثة أشكال من هذه الحيوانات والنباتات ، عن طريق تدرجات وسيطة، إلا أنه من المحتمل أنها كانت مترابطة بهذا الشكل مع بعضها فى وقت ما . وعلى سبيل المثال ، فإن "السيد والاس" يصف فراشة معينة تقدم فى نفس الجزيرة سلسلة كبيرة من الضروب المتصلة مع بعضها عن طريق حلقات وسيطة ، والنهايات الطرفية لهذه السلسلة تشابه إلى حد بعيد الشكلين الخاصين باثنتين من الأنواع المتقاربة التى تقطن جزءا آخر من الأرخبيل المالىزى . وهذا هو الحال أيضاً مع النمل، فإن الأشكال العديدة من العاملات ، هى بصفة عامة ، مختلفة عن بعضها تماماً ، ولكن فى بعض الأحيان ، كما سنرى فيما بعد ، فإننا نجد أن الأشكال مترابطة مع بعضها عن طريق ضروب متدرجة بشكل دقيق . وهذا هو

Tanais

Smelling -hair

(١) التنايس : نوع من القشريات

(٢) الشعر الخاص بالششم

الحال أيضا ، كما شاهدت بنفسى ، مع بعض النباتات ذات الشكلين المختلفين . ومن المؤكد أنه يبدو من الوهلة الأولى أنها حقيقة ذات قيمة عالية ، أن نجد أن نفس الفراشة الأنثى قد يكون لديها القدرة على الإنتاج فى نفس الوقت لأشكال ثلاثة متباينة من الإناث وذكر ، وأن أحد النباتات المختنة قد نستطيع أن تنتج من نفس عليبة البنور ، ثلاثة أشكال مختنة متباينة ، تحمل ثلاثة أصناف مختلفة من الإناث وثلاثة أو حتى ستة من الأصناف المختلفة من الذكور . وبالرغم من ذلك فإن هذه الحالات ما هى إلا مبالغت فقط للحقيقة العامة أن الإناث تنتج ذرارى من الإناث والذكور التى تختلف عن بعضها البعض فى بعض الأحيان بشكل مدهش .

الأنواع غير المؤكدة

الأشكال التى تمتلك بدرجة جديرة بالاعتبار الطابع الخاص بالأنواع ، ولكنها مماثلة بشكل قريب جداً إلى أشكال أخرى ، أو هى مرتبطة بها بدرجة كبيرة عن طريق تدرجات بسيطة ، إلى درجة أن علماء التاريخ الطبيعى لا يفضلون تصنيفها على أنها نوع منفصل ، هى الأكثر أهمية لنا وذلك لاعتبارات عديدة . ونحن لدينا جميع الأسباب التى تدعونا للاعتقاد بأن العديد من هذه الأشكال غير المؤكدة والقريبة من بعضها بشكل شديد قد احتفظت بشكل دائم بصفاتهما لزمان طويل ، ضارب فى القدم ، بقدر ما نعلم ، إلى زمن الأنواع الأصلية الحقيقية . وعمليا ، فإنه عندما يستطيع عالم من علماء التاريخ الطبيعى أن يقوم بالربط بين أى اثنين من الأشكال عن طريق الحلقات الوسيطة ، فإنه يتعامل مع أحدهما على أساس أنه ضرب من الآخر ، مصنفا الأكثر منهما شيوعا ، ولكن فى بعض الأحيان الشكل الذى تم وصفه أولا ، على أساس أنه النوع ، والآخر على أساس أنه الضرب . ولكن تظهر فى بعض الأحيان حالات تمثل صعوبة كبيرة - والتى لن أقوم بسردها هنا - فى اتخاذ قرار فيما إذا كنا نستطيع أو لا نستطيع أن نصنف أحد الأشكال على أساس أنه ضرب تابع لضرب آخر ، حتى لو كانا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً عن طريق حلقات وسيطة ، أو حتى لو توافرت الصفات المشتركة المفترض وجودها فى الهجين الناتج ، فإن هذا قد يكون كافيا لتدليل هذه

الصعوبة . ومع ذلك ففي الكثير جداً من الحالات ، فإن أحد الأشكال قد يتم تصنيفه على أساس أنه ضرب تابع لضرب آخر ، وذلك ليس بسبب أن الحلقات الوسيطة قد تم العثور عليها فعلا ، ولكن لأن التقارب يدفع الملاحظ إلى أن يفترض أنه إما أن هذه الحلقات الوسيطة موجودة بشكل ما حالياً ، أو أنها قد كانت موجودة في وقت سابق ، وهنا ينفرج باب واسع لدخول الشك والتخمين .

ومن ثم ، فإنه لتحديد ما إذا كان يجب تصنيف أحد الأشكال على أساس أنه أحد الأنواع ، فإن السبيل هو اتباع رأى علماء التاريخ الطبيعى الذين يتمتعون بالقدرة على الحكم المتزن ونوى الخبرة الواسعة . ومع ذلك ، فيجب علينا فى العديد من الحالات ، أن نصدر أحكاما بواسطة أغلبية من أصوات علماء التاريخ الطبيعى ، على عدد قليل من الضروب المحددة جدا والمعروفة جيدا ، والتي يمكن سرد أسمائها ، ولم يتم تصنيفها على أساس أنها أنواع بواسطة بعض الخبراء الأكفاء.

ولا يمكن التنصل من حقيقة أن الضروب ذات الطبيعة غير المؤكدة هي بعيدة كل البعد عن كونها شيئا غير معتاد . ولك أن تقارن النباتات العديدة التي تعيش فى بريطانيا العظمى ، وفى فرنسا ، وفى الولايات المتحدة ، والتي تم رسم تفاصيلها بواسطة علماء مختلفين فى علم النباتات ، ثم لاحظ مدى العدد المثير للدهشة من الأشكال التي قد تم تصنيفها بواسطة أحد علماء الطبيعة على أنها أنواع صحيحة وبواسطة عالم آخر على أساس أنها مجرد ضروب . وقد قام "السيد هـ . س . واتسون" **Mr. H.C. Watson** ، والذي أعتبر نفسى مدينا له بعمق لمساعداته فى جميع المجالات ، بتوجيه نظرى إلى ١٨٢ نباتا بريطانيا ، التي تعتبر عادة من الضروب ، ولكنه مع ذلك قد تم تصنيفها بواسطة بعض خبراء علم النبات على أساس أنها أنواع ، وفى أثناء قيامه بإعداد هذه القائمة ، فإنه قد أغفل ذكر العديد من الضروب التافهة ، ولكن مع ذلك فإنه قد تم تصنيفها بواسطة بعض الخبراء فى علم النبات على أساس أنها أنواع ، وقد قام بالإغفال التام للعديد من الطبقات ذات القابلية العالية للتعدد فى الأشكال . وتحت مسمى الطبقات ، متضمنا الأشكال الشديدة التعدد فى الأشكال ، فقد قام "السيد بابنجتون" **Mr. Babington** ، بسررد ٢٥١ نوعا ، بينما سررد "السيد بنتام" **Mr. Bentham** ، ١١٢ نوعا فقط - وهذا يشكل فرقا يقدر بـ ١٣٩ شكلا غير مؤكد ! - أما

بين الحيوانات التي تتحد جنسيا من أجل كل ولادة والقادرة بدرجة عالية على التحرك ، فإننا نجد أن الأشكال غير المؤكدة التي قد تم تصنيفها بواسطة أحد خبراء علم الحيوان على أساس أنها أحد الأنواع وبواسطة خبير آخر على أساس أنها أحد الضروب ، هو شيء نادرا ما يحدث في نطاق نفس القطر ، ولكن هذا شيء شائع في المناطق المنفصلة عن بعضها . وما عدد الطيور والحشرات الموجودة في أمريكا الشمالية وفي أوروبا ، التي تختلف بشكل بسيط عن بعضها البعض ، التي تم تصنيفها وبواسطة عالم فذ في التاريخ الطبيعي على أساس أنها أنواع مؤكدة وغير مشكوك فيها ، وبواسطة عالم آخر على أساس أنها ضروب ، أو كما يطلق عليها في الغالب أنها "أعراق جغرافية" (١) - وقد بين "السيد والاس" في العديد من الأبحاث المنشورة القيمة عن الحيوانات المختلفة ، وخاصة عن الحشرات القشرية الجناح (٢) التي تقطن في الجزر المكونة للأرخبيل الماليزي العظيم ، أنه من الممكن تقسيمها إلى أربعة مجموعات تحت المسميات التالية : أشكال متقلبة ، وأشكال محلية ، وأعراق جغرافية أو أنواع فرعية ، وأنواع نموذجية صحيحة. والأشكال الأولى أو المتقلبة تختلف بصورة كبيرة في داخل حدود نفس الجزيرة . والأشكال المحلية هي متوسطة الثبات وذات مميزات خاصة في كل جزيرة منفصلة، ولكن عند مقارنة جميع الأشكال الموجودة في الجزر المختلفة ببعضها البعض ، يظهر أن الاختلافات بسيطة جدا وأنها متدرجة ، إلى درجة عدم المقدرة على تحديدها أو وصفها ، وفي نفس الوقت فإننا نجد أن الأشكال المتطرفة هي متباينة بدرجة كافية . والأعراق الجغرافية أو الأنواع الفرعية هي أشكال محلية ثابتة تماما ومنعزلة ، ولكن بما أنها لا تختلف عن بعضها البعض بصفات ملحوظة بشدة ومهمة ، فإننا نجد أنه "لا يوجد أي اختبار يمكن إجراؤه ولكن الاعتماد الأساسي هو على الرأي الفردي لتحديد أي منها سوف يتم اعتبارها أنواعا وأي منها سوف يعتبر ضروبا " . وأخيراً ، فإن النوع النموذجي يحتل نفس المكانة في الثروة

Geographic races

Lepidoptera

(١) أعراق جغرافية

(٢) الحشرات القشرية الجناح

الطبيعية لكل جزيرة ، مثل الأنواع المحلية ، والأنواع الفرعية فإن هذا النوع النموذجي يتم تصنيفه عالميا تقريبا بواسطة علماء التاريخ الطبيعي على أساس أنه نوع قائم بذاته . ومع ذلك فلا يمكن وضع قواعد معينة يستطاع بها التعرف والتفرقة بين الأشكال المتقلبة ، والأشكال المحلية ، والأنواع الفرعية ، والأنواع النموذجية .

منذ سنوات عديدة ماضية ، أثناء قيامي بالمقارنة ومشاهدة الآخرين يقارنون الطيور المجلوبة من الجزر القريبة جداً من بعضها فى أرخبيل جالا بيغوس Galapagos ، كل منها مع الآخر ، ومع تلك الطيور المجلوبة من البر الأمريكى الأسمى ، فقد صدمنى بشدة الطريقة المبهمة والاعتباطية التى تتم بها التفرقة بين الأنواع والضروب . وعلى الجزيرات المكونة لمجموعة "ماديرا" Madeira الصغيرة من الجزر ، يوجد العديد من الحشرات التى تم توصيفها على أساس أنها ضروب فى العمل المثير للإعجاب الذى قام به " السيد والاستون" Mr. Wollaston ، ولكنه من المؤكد أنها كان يجب أن تصنف على أساس أنها أنواع متميزة بواسطة العديد من الخبراء فى علم الحشرات . وحتى فى أيرلندا Ireland فإنه يوجد القليل من الحيوانات التى تعتبر بصفة عامة حالياً أنها ضروب ، ولكنه قد تم تصنيفها كأشكال بواسطة بعض الخبراء فى علم الحيوان . والعديد من الخبراء المتمرسين فى علم الطيور يعتبرون أن طائر القطا (١) الأحمر البريطانى ما هو إلا عرق مشهور جداً من أحد أنواع الطيور النرويجية ، بينما العدد الأكبر من الخبراء يصنفونه على أساس أنه نوع مؤكد غير مشكوك فيه خاص ببريطانيا العظمى . والمسافة الطويلة التى تفصل بين موطن اثنين من الأشكال غير المؤكدة ، تدفع العديد من خبراء التاريخ الطبيعى إلى تصنيف كل منهما على أساس أنه نوع منفصل ، ولكن ثار التساؤل حول طول المسافة الفاصلة الكافية ، هل المسافة ما بين أمريكا وأوروبا كافية ، أم المسافة ما بين أوروبا وجزر الأزور Azores ، أو جزر ماديرا Madeira ، أو جزر الكنارى Canaries ، أو بين الجزيرات العديدة المكونة لهذا الأرخبيل الصغير ، هى المسافة الكافية .

وقد وصف " السيد ب . د. والش " **Mr.B.D.Walsh**، العلامة المشهور فى علم الحشرات ، ما أطلق عليه " الضروب الآكلة للنباتات"^(١) و" الأنواع الآكلة للنباتات " . ومعظم الحشرات التى تقتات على الخضراوات تعيش على صنف معين من النبات أو على مجموعة معينة من النباتات ، وبعضها يقتات بدون تمييز على أصناف عديدة ، ولكن الحشرات لا تتمايز عن بعضها نتيجة لهذا . ومع ذلك فإنه قد وجد فى حالات كثيرة أن الحشرات التى تعيش على نباتات مختلفة ، والتى وضعها "السيد والش" تحت الملاحظة ، تظهر عليها فى الأطوار اليرقانية أو البالغة ، أو فى كليهما ، اختلافات بسيطة ولكنها ثابتة فى اللون ، أو فى الحجم أو فى طبيعة إفرازاتها . وقد لوحظ فى بعض الحالات أن الذكور فقط ، وفى حالات أخرى أن كلاً من الذكور والإناث ، تختلف عن بعضها بهذا الشكل بدرجة بسيطة . وعندما تكون الاختلافات أشد وضوحا بكثير ، وعندما يشمل هذا التأثير كلا من الذكور و الإناث ، ويمتد إلى جميع الأعمار ، فإن هذه الأشكال توصف بواسطة جميع علماء الحشرات على أساس أنها أنواع صحيحة . ولكنه لا يوجد ملاحظ يستطيع أن يحدد للملاحظ آخر ، حتى لو كان فى استطاعته أن يقوم بذلك مع نفسه ، أيا من هذه الأشكال من الحشرات الآكلة للنباتات التى يجب أن يطلق عليها أنواع وأيها يطلق عليها ضروب . ويقوم "السيد والش" بتصنيف الأشكال التى من المفترض أن فى استطاعتها أن تتهاجن فيما بينها بحرية على أساس أنها ضروب وتلك التى من المفترض أنها قد فقدت هذه القدرة على أساس أنها أنواع . أما فيما يتعلق بأن الاختلافات تعتمد على أن الحشرات قد استمرت لمدة طويلة فى الاقتيات على نوع معين من النباتات ، فإنه من غير المتوقع أن نعثر الآن على حلقات وسيطة تربط بين هذه الأشكال المتعددة . وبهذا فإن الخبير فى التاريخ الطبيعى يفقد أفضل دليل لديه لتقدير ما إذا كان فى استطاعته أن يصف الأشكال غير المؤكدة على أساس أنها ضروب أم أنواع . وهذا بالمثل من الضرورى أن يحدث مع الكائنات الشديدة القربى ، التى تقطن قارات أو جزرا منفصلة . فعلى الجانب الآخر ، عندما ينتشر حيوان أو نبات على مدى نفس القارة ، أو يقطن العديد من الجزر الموجودة فى

نفس الأرخبيل ، ويتجلى في صورة عدة أشكال في المناطق المختلفة ، فدائماً ما توجد فرصة جيدة لاكتشاف الأشكال الوسيطة التي تربط الحالات المتطرفة مع بعضها ، وعندئذ سوف يتم اعتبار هذه الحالات على أساس منحها رتبة ضروب .

البعض القليل من علماء التاريخ الطبيعي يؤكد أن الحيوانات لا تتجلى أبداً في صورة ضروب ، ولكنه في نفس الوقت فإن نفس هؤلاء العلماء الطبيعيين يقيمون أى اختلاف بسيط على أساس أنه ذو قيمة معينة ، وعندما يتم العثور على نفس الشكل المطابق في قارتين متباعدتين ، أو في اثنتين من التكوينات الجيولوجية ، فإنهم يعتقدون أن هناك نوعين مختلفين يختلفان تحت نفس الرداء . وبهذا فإن مصطلح "نوع" يصبح مجرد تعبير تجريدى لا فائدة له ، يلمح إلى ويفترض فعلاً منفصلاً من أفعال الخلق . وإنه لمن المؤكد أن أشكالاً كثيرة ، قد تم اعتبارها بواسطة خبراء على درجة عالية من المقدرة على أساس أنها ضروب ، تتماثل تماماً في الصفات مع بعض الأنواع ، إلى درجة أنه قد تم تصنيفها على أساس أنها أنواع بواسطة خبراء آخرين على درجة عالية من الكفاءة أيضاً . ولكن حتى يمكن أن نناقش إذا ما كان من الواجب أن ندعوها أنواعاً أم ضروباً ، قبل أن يتم الاتفاق العام على أى تعريف لهذين المصطلحين ، فإن هذا يعتبر كالضرب فى الهواء بلا هدى .

الكثير من الحالات الخاصة بالضروب الواضحة المعالم ، أو الأنواع غير المؤكدة تستحق الكثير من الاعتبار ، وذلك من خلال العديد من مسارات المناقشة المشوقة ، التى تتضمن التوزيع الجغرافى ، والتمايز المتناظر^(١) ، والتنغيل^(٢) ، وخلافه ، والتي قد تم إثارتها لتحمل ثقل المحاولة لتجديد مراتبها . ولكن المساحة المتاحة هنا لا تسمح لى بالدخول فى تفاصيلها . ومما لا شك فيه أن البحث الدقيق فى الكثير من الحالات سوف يدفع خبراء التاريخ الطبيعى على الاتفاق على طريقة تصنيف الأشكال غير المؤكدة . ومع ذلك فإنه يجب الاعتراف بأننا نجد أكبر عدد من هذه الأشكال فى أكثر الدول المعروفة . وقد أصابتنى صدمة من حقيقة أنه إذا كان أى حيوان أو نبات فى

Analogical variation

(١) التمايز المتناظر *

Hybridism

(٢) اختلاط الأجناس = التنغيل *

البيئة الطبيعية قد أصبح ذا فائدة كبيرة للإنسان ، أو استطاع أن يجذب انتباهه لأى سبب ، فإن ضرورياً منه سوف توجد مسجلة على مستوى العالم كله تقريباً . والأكثر من هذا ، أن هذه الضروب سوف تصنف فى أحيان كثيرة بواسطة بعض الخبراء على أساس أنها أنواع . فلك أن تنظر إلى شجرة البلوط ^(١) المعتادة ، وكيف أنه قد تمت دراستها بدقة ، ومع ذلك فإن أحد الخبراء الألمان قد استطاع أن يؤلف أكثر من اثنى عشر نوع من أشكال مختلفة لها ، تعتبر كلها على المستوى العالمى تقريباً بواسطة خبراء علم النبات على أساس أنها ضروب ، وفى هذا البلد (بريطانيا) فإن على السلطات المختصة بالنباتات، والرجال العمليين فى هذا المجال من الممكن أن يذكر عنهم أنهم قد بينوا أن البلوط الجالس^(٢) وذا السويقات^(٣) هما إما من الأنواع الصحيحة والمتباينة عن بعضها ، أو مجرد ضروب .

وربما كان لى أن أشير هنا الى مذكرة جديدة بالاعتبار تم نشرها مؤخراً بواسطة "أ. دى كاندول " **A.de Candolle**، عن أشجار البلوط فى جميع أنحاء العالم . ولا يوجد أحد قد توافرت لديه مثل هذه الإمكانيات الكافية للفرقة بين الأنواع ، أو قد يقدم على العمل عليها بأكثر من هذا الحماس والحصافة . فهو يبدأ بالسرد المفصل لجميع التفاصيل الدقيقة للبنيان التى تختلف فى الأنواع المختلفة ، ويقدر بطريقة عديدة التواتر النسبى^(٤) لحدوث التمايز وهو يحدد أكثر من اثنتى عشرة من الصفات التى قد توجد بصورة مختلفة حتى على نفس الفرع من الشجرة ، فى بعض الأحيان، اعتماداً على العمر أو التكوين ، وفى بعض الأحيان، بدون أى سبب محدد. ومثل هذه الصفات ليس لها بالطبع أى قيمة خاصة ، ولكنها كما جاء فى تعليق "أسا جراى" **Asa Gray** على هذه المذكرة ، مثل إدخال العمومية فى التعريفات المحددة. ويستطرد " دى كاندول" بعد ذلك فى القول بأنه قد منح رتبة الأنواع إلى الأشكال التى تختلف عن طريق صفات

Oak	(١) شجرة البلوط
Sessile	(٢) الجالس : متصل بالقاعدة مباشرة *
Pedunculated	(٣) نو السويقات *
Relative frequency	(٤) التواتر النسبى *

لا تتمايز أبداً على نفس الشجرة ، ولا يمكن العثور عليها إطلاقاً متصلة ببعضها عن طريق حالات وسيطة . وبعد هذه المناقشة ، الناتجة عن مثل هذا العمل المجهد ، فإنه يعلق بمنتهى التاكيد "هم مخطئون، هؤلاء الذين يكررون أن الجزء الأكبر من أنواعنا محددة بصورة واضحة ، وأن الأنواع غير المؤكدة أقلية ضئيلة . فإن هذا يبدو حقيقياً ، مادامت إحدى الطبقات قد كانت معروفة بشكل غير كامل، وأن أنواعها قد تم تقييمها بناءً على القليل من العينات ، وذلك يعنى أنها كانت بصورة مؤقتة . وبمجرد أن استطعنا أن نتعرف عليها بشكل أفضل ، بدأت الأشكال الوسيطة تتدفق ، والشكوك فى الحدود الدقيقة تزداد " . وهو يضيف أيضاً أن الأنواع المعروفة جداً هى التى تقدم العدد الأكبر من الضروب والأنواع الفرعية التى تنشأ بطريقة تلقائية . وبهذا الشكل فإن البلوط الصلد^(١) يتضمن ثمانية وعشرين ضرباً ، جميعها فيما عدا ستة ، ملتفة حول ثلاثة من الأنواع الفرعية ، هى بالتحديد ، البلوط نو السويقات^(٢) ، والبلوط الجالس الزهور^(٣) ، والبلوط نو الزغب^(٤) . والأشكال التى تربط ما بين هذه الأنواع الفرعية الثلاثة هى نادرة نسبياً ، ومرة أخرى طبقاً لتعليق "أسا جراى" ، فإنه إذا انقرضت تماماً هذه الأشكال الرابطة ، التى هى نادرة حالياً ، فإن الأنواع الفرعية الثلاثة ستحتفظ بنفس العلاقة تماماً من بعضها البعض ، كما تفعل الأربعة أو الخمسة أنواع التى قد تم الاتفاق عليها بصورة مؤقتة ، والتى تحيط عن كثب بالبلوط الصلد النموذجى . ويعترف أخيراً "دى كاندول" بأنه من بين الثلاثمائة نوع التى سوف يسردها فى "مقدمته"^(٥) على أساس أنها تابعة للفصيلة البلوطية ، فإننا نجد أن ثلثها على الأقل هى أنواع مؤقتة ، وهذا يعنى أنه من غير المعروف عنها وفاعها بشكل جازم بالتعريف الذى سبق ذكره عن الأنواع الصحيحة . ويجب أن نضيف أن "دى كاندول" لم يعد يصدق فى أن الأنواع مخلوقات ثابتة وغير قابلة للتغيير ، ولكنه يقرر أن

Quercus robur

(١) البلوط الصلد ** = بلوط أسود إنجليزى

Quercus pedunculata

(٢) البلوط نو السويقات *

Quercus sessiliflora

(٣) البلوط الجالس الزهور *

Quercus pubescens

(٤) البلوط نو الزغب *

Prodrum

(٥) مقدمة *

"نظرية الاشتقاق"^(١) هي أكثر نظرية ملائمة ، وهي الأكثر تطابقاً مع الحقائق المعروفة فى علم المستحجرات الحيوية ، وعلم النبات الجغرافى ، وعلم الحيوان ، فيما يتعلق بالصفات التشريحية للنبات والتصنيف .

عندما يبدأ أخصائى فى التاريخ الطبيعى صغير العمر فى دراسة مجموعة من الكائنات غير المعروفة تماما له ، فإنه يقع فى البداية فريسة للحيرة عند محاولته تقرير أى من الاختلافات يستطيع أن يعتبرها محددة وأيها متقلبة ، وذلك لأنه لا يعلم شيئاً عن كمية أو نوع التمايز الذى قد تعرضت له هذه المجموعة ، وهذا يظهر على الأقل مدى عمومية تواجد بعض التمايز . ولكنه إذا حصر انتباهه فى طائفة واحدة موجودة فى نطاق قطر واحد ، فإنه سريعا ما يصل إلى قرار فيما يتعلق بكيفية التصنيف لمعظم الأشكال غير المؤكدة . وسوف يكون ميالا إلى اختراع العديد من الأنواع ، وذلك لأنه سوف يكون متأثراً ، مثلما يحدث لهواة الحمام أو النواجن السابق الإشارة إليهم ، بكمية الاختلاف الموجود فى الأشكال التى يدرسها بصورة مستمرة ، مع حيازته بالبيانات عامة قليلة عن التمايز المتناظر الموجود فى مجموعات أخرى وفى أقطار أخرى ، التى قد تفيد فى تعديل انطباعاته الأولية . وكلما توسع فى مدى ملاحظاته ، فإنه سيتقابل مع عدد أكبر من الحالات الصعبة ، وسوف يلقى عدداً أكبر من الأشكال المتقاربة بشكل حميم . ولكن إذا اتسعت دائرة ملاحظاته بشكل كبير ، فإنه على العموم فى النهاية سوف يصبح قادرا على أن يتوصل إلى قرار ، ولكنه سوف ينجح فى ذلك على حساب السماح بالاعتراف بالكثير من التمايز ، - وستكون مصداقية هذا الاعتراف ، فى الكثير من الأحوال ، هى مثار اعتراض من علماء آخرين فى التاريخ الطبيعى ، وعندما يصل إلى دراسة الأشكال المتقاربة المجلوبة من الأقطار الأخرى ، والتى لا تتوافر حالياً بصورة مستمرة ، وفى هذه الحالة فإنه لن يستطيع أن يأمل فى إيجاد حلقات وسيطة ، وذلك سيدفعه إلى أن يكون مضطراً للاعتماد تماما تقريبا على التناظر والتشابه ، وعندها ستصل مصاعبه إلى ذروتها .

لا يوجد بالتأكيد خط واضح للتفرقة قد تم وضعه إلى الآن بين الأنواع والأنواع الفرعية - وهذا يعنى الأشكال التى اقتربت جداً ، فى رأى بعض خبراء التاريخ الطبيعى ، ولكنها لم تصل تماماً إلى مرتبة الأنواع ، أو مرة أخرى ، للتفرقة ما بين الأنواع الفرعية والضروب المحددة بدقة ، أو بين الضروب الصغرى والاختلافات الفردية . فهذه الاختلافات تتداخل فى بعضها البعض وهى متتالية غير منضبطة ، ومتتالية تعطى انطباعاً قوياً على العقل بالتفكير فى وضع قرار بالفعل .

ولهذا فأننا أنظر إلى الاختلافات الفردية ، مع أنها قليلة القيمة عند خبير التصنيف^(١) ، على أساس أنها ذات أهمية قصوى لنا ، وذلك لأنها كانت الخطوات الأولى فى اتجاه تكوين مثل هذه الضروب البسيطة التى كان من النادر أن يعتقد أنها تستحق التسجيل فى الأبحاث التى أجريت فى مجال التاريخ الطبيعى . وأنا أنظر إلى الضروب التى قد تكون متميزة ودائمة لأى درجة أكبر من الدرجات ، على أساس أنها خطوات فى اتجاه ضروب أكثر تحديداً ودواماً ، وفى النهاية على أساس أنها ستؤدى إلى أنواع فرعية وبعد ذلك إلى أنواع . والمرور من إحدى مراحل الاختلاف إلى المرحلة الأخرى ، قد يكون فى حالات كثيرة هو النتيجة البسيطة لطبيعة الكائن الحى والعوامل الطبيعية المختلفة التى كان قد تعرض لها منذ زمن بعيد ، ولكن فيما يتعلق بالصفات الأكثر أهمية والمعتمدة على التكيف ، فإن المرور من أحد الاختلافات إلى المرحلة الأخرى ، قد يعزى بأمان إلى التأثير التراكمى للانتقاء الطبيعى ، الذى سنبأتى شرحه فيما بعد ، وإلى التائثرات الناتجة عن الزيادة فى الاستخدام أو عدم الاستخدام لأجزاء الجسم . وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن يطلق على ضرب معروف جداً صفة نوع ابتدائى ، ولكن إذا ما كان من الممكن تبرير مثل هذا الاعتقاد ، فإن ذلك يجب أن يحكم عليه بتقييم الحقائق والاعتبارات المختلفة التى سيتم تقديمها على مدى هذا الكتاب .

لا توجد حاجة لافتراض أن جميع الضروب أو الأنواع الابتدائية يجب أن ترقى إلى مصاف الأنواع ، فإنها قد تنقرض أو تبقى فى شكل ضروب لفترات طويلة من

الزمن ، كما تم إيضاحه بواسطة " السيد والاستون" مع الضروب الخاصة بأحافير بعض القواقع الأرضية الموجودة فى "جزر ماديرا" ، ومع النباتات فى أبحاث "جاستون دى سابورتا" **Gaston de Saporta** . وإذا كان باستطاعة أحد الضروب أن يزدهر إلى حد أن يتعدى فى أعداده تعداد نوعه الأبوى ، فإنه فى هذه الحالة سيتم تصنيفه على أساس أنه النوع ، أما النوع الأصلي فسيصنف على أساس أنه الضرب ، أو أن الأمر قد ينتهى إلى أن يستأصل ويندثر النوع الأبوى ، أو من المحتمل أن يتعايش كل منهما مع الآخر ، ويوصف كلاهما على أساس أنهما نوعان مستقلان . ولكننا سنعود فيما بعد إلى هذا الموضوع .

ولسوف نرى من هذه الملاحظات أننى أنظر إلى مصطلح " نوع" على أساس أنه مصطلح قد تم إطلاقه بشكل اعتباطى ، وذلك ابتغاء لراحة البال ، على مجموعة من الأفراد تشابه بعضها البعض بشدة ، وأنه لا يختلف بشكل أساسى عن مصطلح "ضرب" ، الذى قد أطلق على أشكال أقل تباينا وأكثر تقلبا . ومرة أخرى ، فمصطلح "ضرب" بالمقارنة مع مجرد الاختلافات الفردية ، هو أيضاً ينطبق بشكل اعتباطى ، وذلك بغرض إراحة البال .

الأنواع الواسعة المآلف ، والكثيرة الانتشار ، والشائعة تكون أكثر تمايزا

استرشادا بالاعتبارات النظرية ، فقد خطر لى أننا قد نحصل على بعض النتائج المشوقة التى تتعلق بطبيعة وعلاقات الأنواع التى تمثل أعلى معدل للتمايز ، وذلك عن طريق ترتيب جميع الضروب التى وردت فى الأبحاث الجيدة عن الحيوانات النباتية . وفى البداية ، بدا الأمر ، وكأنه مهمة يسيرة ، ولكن "السيد هـ . س . واتسون" **H.C. Watson** ، الذى أنا مدين له بشدة لنصائحه الثمينة ومساعدته لى فى هذا الموضوع ، سريعا ما أقتنعنى بأن هناك الكثير من الصعوبات ، وذلك ما كرره فيما بعد "الدكتور هوكر" **Dr. Hooker** ، وحتى بصورة أقوى ، وأنا سأقوم بتأجيل المناقشة فى تلك الصعوبات وعرض الجداول الخاصة بالعدد النسبى للأنواع المختلفة ، إلى عمل سأقوم بنشره فى المستقبل . وقد سمح لى "الدكتور هوكر" بأن أضيف أنه بعد قراءته بعناية لمخطوطى ، وفحصه

للجداول ، فإنه يعتقد أن التصريحات التالية مقامة على أساس معد بعناية . ومع ذلك ، فالموضوع برمته ، قد تم طرحه هنا بإيجاز شديد كما يلزم في هذا المجال ، وهو فعلا موضوع مثير للبلبله ، ولا يمكن تجنب التلميحات الواردة فيه عن " الصراع من أجل البقاء" ^(١) ، و " انحراف الطابع" ^(٢) ، وأسئلة أخرى سيأتى ذكرها فيما بعد .

وقد أوضح " ألفونس دى كاندول **Alphonse de Candolle** وآخرون ، أن النباتات التى تتمتع بمآلف واسعة جدا تنتج فى العادة ضرويا ، وقد يكون هذا متوقعا ، وذلك لتعرضها إلى ظروف طبيعية مختلفة ، وعندما يصل الأمر إلى التنافس (والذى ، كما سنرى فيما بعد ، هو ظرف مهم بشكل مماثل أو بشكل أكثر أهمية) مع مجموعات أخرى من الكائنات العضوية. ولكن الجداول الخاصة بى تظهر فوق ذلك ، أنه فى وطنى المحدود (بريطانيا) ، فإن الأنواع التى هى أكثر شيوعا ، أى الأكثر زخرا بالأفراد ، والأنواع الشديدة الانتشار على نطاق واسع فى حدود مواطنها (وهذا اعتبار مختلف عن سعة المآلف ، وإلى حد ما عن الشروع) ، تؤدى فى أحوال كثيرة إلى إنتاج ضروب مشهورة بدرجة كافية إلى حد تسجيلها فى الأعمال الخاصة بعلم النبات ، وبهذا فإنها الأكثر نجاحا ، أو كما قد يطلق عليها ، الأنواع المهيمنة^(٣) - وهذه هى التى تتمتع بمآلف واسعة ، هى الأكثر انتشاراً فى مواطنها الخاصة ، وهى الأكثر تعدادا فى الأفراد - وهى التى فى أكثر الأحيان، تنتج ضرويا مشهورة جدا ، أو كما أعتبرها شخصيا أنها أنواع ابتدائية^(٤) . وربما كان هذا شيئا متوقعا ، حيث إنه لكى تصبح الضروب دائمة إلى أى درجة ، فإنه من الضرورى لها أن تتصارع مع المقيمين الآخرين فى الموطن ، والأنواع المهيمنة بالفعل ، هى التى ستكون صاحبة المقام الأول فى إنتاج ذرية ، التى بالرغم من أنها ستكون معدلة بدرجة بسيطة ، إلا أنها ستكون مازالت الوريثة لهذه المزايا التى قد مكنت أباها من أن تصبح مهيمنة وسائدة على

Struggle for existence

(١) الصراع من أجل البقاء *

Divergence of character

(٢) انحراف الطابع *

Dominant species

(٣) الأنواع المهيمنة *

Incipient species

(٤) الأنواع الابتدائية *

رفقائها في الوطن . ويجب أن يكون معلوما ، أنه في هذه الملاحظات عن السيادة ، فإن الإشارة تعنى فقط تلك الأشكال التي يحدث تنافس بين بعضها البعض ، وبالأكثر خصوصية إلى الأعضاء التابعة لنفس الطبقة أو الطائفة التي تتمتع بعادات معيشية متماثلة تقريبا . أما فيما يتعلق بعدد الأفراد أو شيوع النوع ، فإن المقارنة بالطبع تنطبق فقط على الأعضاء التابع لنفس المجموعة ، وقد يقال عن أحد النباتات العليا إنه مهيمن أو سائد إذا حدث و كان أكثر تعداداً في الأفراد ، وأوسع انتشاراً من النباتات الأخرى الموجودة في نفس الوطن ، التي تعيش تقريباً تحت تأثير نفس الظروف . ونبات من هذا الصنف لن يكون الأقل هيمنة بسبب أن طحلباً^(١) ما قد استوطن المياه، أو أن أحد الفطريات الطفيلية قد زاد في العدد بشكل مطلق بين أفرادها وأصبح واسع الانتشار . ولكن إذا تعدى الطحلب أو الفطر الطفيلي حلفاءه في الخصوصيات السابق ذكرها، فإنه سيصبح حينئذ مهيمناً في حدود طائفته ذاتها .

الأنواع التابعة للطبقات الكبرى في كل قطر تتمايز بمعدل أكبر

من الأنواع التابعة للطبقات الصغرى

إذا كان من الممكن تقسيم النباتات التي تقطن في أحد الأقطار، كما هو موصوف في أى بحث عن تجمع النباتات الإقليمية^(٢) ، إلى جزأين متساويين ، وذلك بوضع جميع النباتات التابعة للطبقات الكبرى (أى هذه الطبقات التي تتضمن الكثير من الأنواع) في أحد الجوانب ، وجميع النباتات التابعة للطبقات الصغرى في الجانب الآخر ، فإننا سنجد أن الجزء الأول سيتضمن عدداً أكبر بعض الشيء من الأنواع الشائعة جداً والكثيرة الانتشار أو المهيمنة . وهذا قد يكون متوقعا ، وذلك ناتج عن مجرد الحقيقة القائلة بأن الكثير من الأنواع التابعة لنفس الطبقة التي تقطن أى موطن،

Conferva

Flora

(١) طحلب

(٢) تجمع النباتات الإقليمية *

قد يبدو عليها أن هناك شيئاً ما فى الظروف العضوية أو غير العضوية الموجودة فى هذا الموطن هى مواتية لهذه الطبقة ، وبالتالي فإننا قد نتوقع أن نكون قد عثرنا فى الطبقات الكبرى، أو تلك التى تتضمن الكثير من الأنواع ، على عدد أكبر نسبياً من الأنواع المهيمنة. ولكن هناك الكثير من الأسباب التى تميل إلى إلقاء الظلال على هذه النتيجة ، إلى درجة أنى مندهش من أنه حتى الجداول التى قد قمت بإعدادها ، فإنها توضح أغلبية قليلة فى جانب الطبقات الكبرى . وسوف أشير هنا إلى سببين فقط من أسباب هذا الغموض . فنباتات المياه العذبة والمحبة للملح هى فى العادة تتمتع بمآلف واسعة جداً وهى شديدة الانتشار ، ولكن يبدو أن هذا مرتبط مع طبيعة المواقع التى تستوطنها ، وأن هذا له علاقة بسيطة أو ليس له علاقة على الإطلاق بحجم الطبقات التى تتبعها الأنواع . ومرة أخرى ، فإن النباتات الوضيعة فى ميزان التعضية هى فى العادة أكبر انتشاراً بكثير من النباتات العليا فى هذا الميزان ، وهنا أيضاً ، فإنه لا توجد هناك علاقة حميمة مع حجم الطبقات . والسبب فى أن النباتات الوضيعة التعضية تنشر فى المآلف بشكل واسع سوف يكون موضع مناقشة فى بابنا المنصب على التوزيع الجغرافى.

نتيجة للنظر إلى الأنواع على أساس أنها مجرد ضروب شديدة الوضوح ومحددة بدقة ، فقد وجدت نفسى منقاداً لأن أتوقع أن الأنواع التابعة للطبقات الكبرى الموجودة فى كل قطر سوف تنتج ضروباً فى أحوال كثيرة ، أكثر من الأنواع التابعة للطبقات الصغرى ، وذلك لأن أى مكان يتم فيه تكوين عدد كبير من الأنواع المتقاربة بشكل حميم (أى الأنواع التابعة لنفس الطبقة) ، فإنه يتعين أن تتكون فيه الآن ، اتباعاً للقاعدة العامة ، الكثير من الضروب أو الأنواع الابتدائية . وحيثما تنمو أشجار كبيرة ، فإننا نتوقع أن نجد شجيرات ⁽¹⁾ . وعندما يتم تكوين الكثير من الأنواع التابعة لإحدى الطبقات من خلال التمايز ، فإن الظروف قد كانت مواتية للتمايز ، وبالمثل فقد نتوقع أن الظروف بشكل عام مازالت مواتية للتمايز . وعلى الجانب الآخر ، إذا نظرنا إلى كل نوع على أساس أنه فعل خاص من أعمال الخلق ، فإنه لا يوجد سبب واضح يفسر لنا

لماذا تستجد ضروب أكثر فى مجموعة تحتوى على أنواع كثيرة ، عنها فى مجموعة تحتوى على أنواع أقل .

ولاختبار مصداقية هذا التوقع فقد قمت بترتيب النباتات الخاصة باثنتى عشرة نولة، والحشرات المغمدة الأجنحة^(١) التابعة لمقاطعتين ، إلى جزأين متساويين تقريبا ، ووضعت الأنواع التابعة للطبقات الكبرى على أحد الجوانب ، والأنواع التابعة للطبقات الصغرى على الجانب الآخر، وقد ثبت بشكل قاطع أن نسبة أكبر من الأنواع التى فى جانب الطبقات الكبرى قد أنتجت ضروبا ، عما حدث فى الجانب المحتوى على الطبقات الصغرى . والأكثر من هذا ، فإن الأنواع التابعة للطبقات الكبرى والتى قد أنتجت أى ضروب ، فإنها قد أنتجت بلا شك عددا نسبيا أكبر من الضروب ، عما حدث فى الأنواع التابعة للطبقات الصغرى . وكل من هاتين النتيجتين تتكرر عندما نقوم بإجراء تقسيم آخر ، بعد استبعاد جميع الطبقات الصغيرة جدا ، التى تتكون من واحد إلى أربعة أنواع فقط ، من الجداول . وهذه الحقائق لها مغزى واضح من وجهة نظر أن الأنواع ما هى إلا ضروب شديدة الوضوح ودائمة ، ولذلك فإنه أينما كان يوجد العديد من الأنواع التابعة لنفس الطبقة ، أو أينما - إذا كان لنا أن نستخدم التعبير - كانت صناعة الأنواع مازالت سارية ، فإنه يتعين عامة أن نجد أن هذه الصناعة مازالت مستمرة فى العمل ، وبالأخص أكثر إذا كان لدينا كل الأسباب التى تدفعنا إلى أن نصدق أن عملية إنتاج أنواع جديدة ، هى عملية بطيئة . وهذا شئ حقيقى بالتاكيد ، إذا كان لنا أن ننظر إلى الضروب على أساس أنها أنواع ابتدائية ، وذلك لأن جداولى تبين كقاعدة عامة أنه حيثما تم تكوين العديد من الأنواع التابعة لإحدى الطبقات ، فإن الأنواع التابعة لهذه الطبقة تنتج عددا ما من الضروب ، وهو ما يعنى الأنواع الابتدائية ، أكثر من المتوسط المعتاد . وهذا لا يعنى أن جميع الطبقات الكبرى تتغير بكثرة حاليا ، وأنها بالتالى تزيد من عدد أنواعها ، أو أنه لا توجد طبقات صغيرة تتمايز وتزداد حاليا ، فإنه إذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا سوف يكون قاتلاً لنظريتي ، ولا سيما أن علم طبقات الأرض يقول لنا بوضوح إن الطبقات الصغيرة قد

ازدادت ، على مر الزمن ، بشدة فى الحجم ، وأن الطبقات الكبيرة قد وصلت فى كثير من الأحوال إلى أقصى حد لها ، ثم انحدرت ثم اختفت . وكل ما نود أن نلفت النظر إليه هو أنه عندما تتكون أنواع عديدة تابعة لإحدى الطبقات ، فعلى نفس المستوى فإن هناك العديد منها مازال تحت التكوين ، وهذا ما قد ثبت صحته بالتاكيد .

الكثير من الأنواع التى تقع ضمن الطبقات الكبرى تماثل الضروب فى كونها

مرتبطة ببعضها بشكل حميم جدا ، ولكن بقدر غير متساو

وفى حيازتها لمآلف محدودة

هناك علاقات أخرى بين الأنواع التابعة للطبقات الكبرى والضروب المسجلة الخاصة بها ، وهذه العلاقات تستحق الملاحظة . فقد شاهدنا أنه لا يوجد أى معيار معصوم من الخطأ نستطيع أن نفرق به بين الأنواع والضروب شديدة الوضوح ، وعندما لا توجد حلقات وسيطة بين الأشكال غير المؤكدة ، فإن خبراء التاريخ الطبيعى يضطرون للوصول إلى قرار عن طريق كمية الاختلافات الموجودة بينهم ، معتمدين فى حكمهم على التناظر فيما لو كانت أو لم تكن هذه الكمية كافية لرفع أحدهما أو كليهما إلى مرتبة الأنواع . وبهذا فإن كمية الاختلاف هى أحد المعايير المهمة جدا فى الاستقرار على ما إذا كان يجب تصنيف شكلين من أشكال الحياة على أساس أنهما أنواع أم ضروب . وكان تعليق " فرايس " **Fries** فيما يتعلق بالنباتات ، و"ستود" **Westwood** ، فيما يتعلق بالحشرات ، أن كمية الاختلاف بين الأنواع فى الطبقات الكبيرة ، هى غالبا ما تكون فى غاية الصغر . وأنا قد حاولت أن أقيم ذلك حسابيا باستخدام المعدلات ، وحسبما ذهبنا إليه نتائجى غير المؤكدة ، فإنها تؤكد هذه الوجهة من النظر ، وقد قمت أيضا باستشارة بعض المراقبين النابهين والمحنكين ، وبعد تقليب الرأى ، فقد اتفقوا على هذا الرأى . وهكذا فى هذا المقام ، فإن الأنواع التابعة للطبقات الكبرى تماثل الضروب ، بشكل أكثر من الأنواع التابعة للطبقات الصغرى . أو أننا قد نستطيع أن نضع الموضوع بشكل آخر ، فمن الممكن أن يقال ،

إن الطبقات الكبرى ، التي يوجد فيها عدد من الضروب أو الأنواع الابتدائية ، أكبر من المتوسط ، تنتج حالياً ، الكثير من الأنواع التي قد تم إنتاجها بالفعل ومازالت إلى حد ما تماثل الضروب ، وذلك لأنها تختلف عن بعضها البعض بدرجة أقل من الكمية المعتادة من الاختلاف .

والأكثر من هذا ، أن الأنواع التابعة للطبقات الكبرى مرتبطة ببعضها البعض ، بنفس الطريقة المماثلة للارتباط الموجود بين الضروب التابعة لأي نوع ما . ولا يدعى أى خبير فى التاريخ الطبيعى أن جميع الأنواع التابعة لإحدى الطبقات منفصلة عن بعضها البعض بقدر متساو ، فإنه يتم تقسيمها فى العادة إلى طبقات فرعية ، أو قطاعات ، أو مجموعات أصغر . وكما أبدى " فريس " ملاحظة جيدة ، مؤداها أن المجموعات الصغيرة من الأنواع تتجمع فى العادة مثل التوابع حول الأنواع الأخرى . وما الضروب إلا مجموعات من الأشكال ، مرتبطة مع بعضها البعض بشكل غير متكافئ، ومتجمعة حول بعض الأشكال المعينة - وهذا يعنى ، حول أنواعها الأبوية . ومما لا شك فيه أن هناك نقطة فى غاية الأهمية خاصة بالاختلاف الموجود بين الضروب والأنواع ، ألا وهى ، أن كمية الاختلاف بين الضروب ، عندما نقارنها ببعضها أو مع أنواعها الأبوية ، أقل بكثير من كمية الاختلافات الموجودة بين الأنواع التابعة لنفس الطبقة. ولكن عندما نصل إلى مناقشة المبدأ، الذى سأطلق عليه ، "انحراف الطابع" ، فإننا سنرى كيف يمكن تفسير ذلك ، وكيف أن الاختلافات الأبسط الموجودة بين الضروب تميل إلى الزيادة لتصل إلى الاختلافات الأكبر الموجودة بين الأنواع .

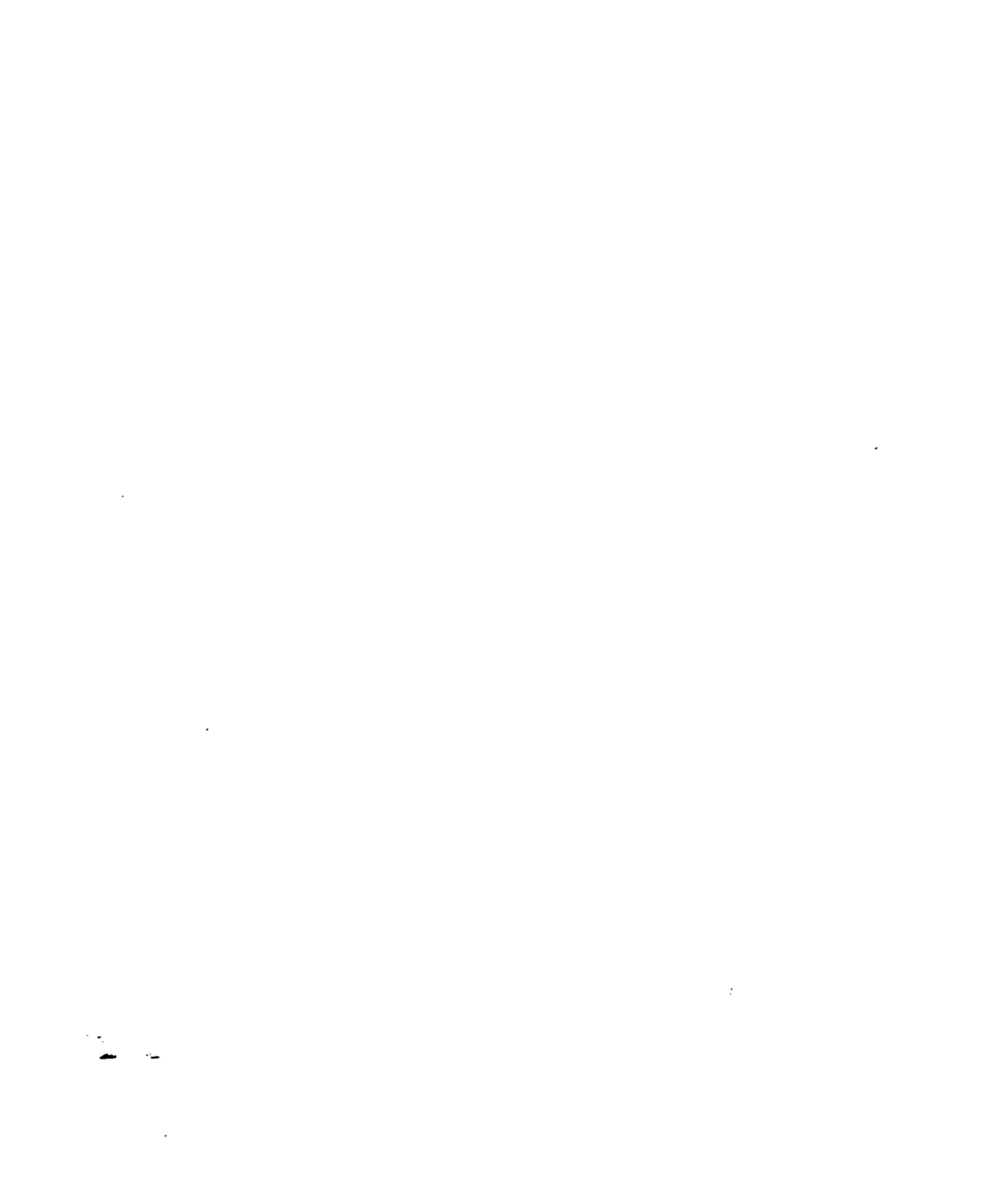
وهناك نقطة أخرى تستحق الملاحظة . فإن الضروب على العموم لديها مآلف محدودة جداً : وهذا التصريح فى الواقع لا يتعدى بكثير جوهر الحقيقة ، وذلك لأنه إذا وجد أن أحد الضروب لديه مآلف أوسع مما هو مفترض أن يكون لنوعه الأبوى المفترض، فإن ألقابها سوف يتم عكسها . ولكن هناك سبباً للاعتقاد بأن الأنواع المتقاربة بشكل حميم جدا من أنواع أخرى ، وبناء على ذلك فإنها تشبه الضروب ،

غالباً ما يكون لديها مآلف محدودة جداً. وعلى سبيل المثال ، فإن "السيد هـ. س. واتسون" قد أشار في " بيان لندن المصور للنباتات " (الطبعة الرابعة) . London Cat- **alogue of plants** المختار بعناية، إلى الثلاثة وستين نباتا المصنفة فيه على أساس أنها أنواع ، ولكنه يعتبرها متقاربة بشكل حميم جدا مع أنواع أخرى إلى حد يجعلها ذات قيمة غير مؤكدة : وهذه الـ ٦٣ نوعاً المشار إليها تألف على مساحة تربو على ٦,٩ من المقاطعات التي قد قام "السيد واتسون" بتقسيم بريطانيا العظمى إليها . ونحن نجد في نفس البيان المصور ، تسجيلاً لـ ٥٣ ضرباً معترفاً به تستوطن أكثر من ٧,٧ من المقاطعات : بينما الأنواع التي تتبعها هذه الضروب تألف في أكثر من ١٤,٣ من المقاطعات . وهكذا فإن الضروب المعترف بها تتمتع تقريبا بنفس المساحة النسبية المحددة من المؤلف ، كالتى لدى الأشكال المتقاربة بشكل حميم، والتي أشار إليها السيد "واتسون" على أساس أنها أنواع غير مؤكدة ، ولكنها مصنفة على المستوى العالمى تقريبا بواسطة خبراء علم النبات البريطانيين على أساس أنها أنواع صحيحة وجيدة .

ملخص

بشكل نهائى ، لا يمكن تفريق الضروب عن الأنواع - باستثناء: أولاً : باكتشاف أشكال وسيطة رابطة - وثانياً : بواسطة كمية ما غير محددة من الاختلاف بينها ، لأنه إذا اختلف شكلان بشكل قليل جدا ، فإنهما عموماً يصنفان فى العادة على أساس أنهما ضربان ، على الرغم من أنهما لا يمكن أن يكونا مرتبطين بشكل حميم، ولكن لأن كمية الاختلاف التى تعتبر ضرورية لمنح أى من الشكلين رتبة النوع لا يمكن تحديدها . وفى الطبقات التى لديها عدد أكبر من المتوسط من الأنواع فى أى قطر ، فإن الأنواع التابعة لهذه الطبقات لديها عدد أكبر من المتوسط من الضروب . وفى الطبقات الكبيرة فإن الأنواع تميل إلى أن تكون متقاربة ، ولكن بشكل غير متساو ، بشكل حميم مع بعضها ، مكونة تجمعات صغيرة حول أنواع أخرى . والأنواع المتقاربة بشكل حميم جدا مع أنواع أخرى يبدو أنها تحوز مآلف محدودة. ولكن بناء على هذه الاعتبارات فالأنواع التابعة للطبقات الكبيرة تبدى تناظراً شديداً مع الضروب . ونحن نستطيع أن نتفهم بوضوح هذه التناظرات، إذا كانت الأنواع قد وجدت من قبل فى شكل ضروب ، وأنها نشأت بهذا الشكل ، بينما تكون هذه التناظرات كشيء غير قابل للشرح والتفسير إطلاقاً إذا كانت الأنواع مخلوقات مستقلة .

وقد رأينا أيضاً أن الأنواع الأكثر ازدهاراً أو هيمنة فى الطبقات الكبرى فى حدود كل طائفة ، هى التى تنتج فى المتوسط العدد الأكبر من الضروب، وأن الضروب ، كما سنشاهد فيما بعد ، تميل إلى أن تتحول إلى أنواع جديدة ومتباينة . وهكذا فإن الطبقات الكبرى تميل إلى أن تصبح أكبر ، وفى كل أرجاء الطبيعة نجد أن أشكال الحياة المهيمنة حالياً ، تميل إلى أن تصبح أكثر هيمنة، عن طريق ترك العديد من الذرارى المعدلة والمهيمنة خلفها . ولكن عن طريق خطوات سيأتى شرحها فيما بعد ، فإن الطبقات الكبرى تميل أيضاً إلى أن تنقسم إلى طبقات صغرى . وهكذا ، فإن أشكال الحياة فى كل أرجاء العالم تصبح مقسمة إلى مجموعات تابعة لمجموعات .



الباب الثالث

التنازع^(١) من أجل البقاء^(٢)

تأثيره على الانتقاء الطبيعي - المصطلح يستخدم على نطاق واسع - النسبة الهندسية^(٣) للزيادة - الزيادة السريعة للحيوانات والنباتات المؤقلمة^(٤) - طبيعة الضوابط الخاصة بالزيادة - عالمية التنافس^(٥) - تأثيرات المناخ^(٦) - الحماية من عدد الأفراد - العلاقات المعقدة لجميع الحيوانات والنباتات في كل أرجاء الطبيعة - التنازع من أجل الحياة أكثر شراسة بين الأفراد والضروب التابعة لنفس النوع ؛ وكثيراً ما يكون قاسياً بين الأنواع التابعة لنفس الطبقة - العلاقة بين كائن وكائن هي الأكثر أهمية من بين جميع العلاقات .

Struggle	(١) تنازع = كفاح = نضال = صراع *
Existence	(٢) البقاء = كينونة = وجود = حياة *
Geometrical ratio	(٣) النسبة الهندسية
Naturalised	(٤) مؤقلم = متبنى - متطبع : يجلب كائننا إلى منطقتة ويجعله يزدهر فيها *
Competition	(٥) تنافس
Climate	(٦) مناخ

قبل أن ندخل فى الموضوع الخاص بهذا الباب ، يجب على أن أبدي بعض الملاحظات التمهيدية ، وذلك لإظهار كيف يؤثر الكفاح من أجل البقاء على الانتقاء الطبيعى. وقد تم فى الفصل السابق توضيح أنه توجد هناك بعض التمايزات الفردية بين الكائنات العضوية الموجودة فى البيئة الطبيعية : وفى الحقيقة فإنه لا توجد لدى أى معلومات تفيد أن هذا موضع خلاف. ومن غير المهم لنا إذا ما تم تصنيف حشد من الأشكال غير المؤكدة على أساس أنها أنواع أو أنواع فرعية أو ضروب ، فمثلاً ، ما الرتبة التى تستحق أن تحوزها المائتان أو الثلاثمائة من الأشكال غير المؤكدة من النباتات البريطانية ، إذا ما تم الاعتراف بتواجد أى من الضروب المشهورة جداً. ولكن مجرد التواجد للقابلية الفردية للتمايز والبعض القليل من الضروب المشهورة ، مع أن ذلك ضرورى على أساس أنه قاعدة للعمل ، فإن ذلك من شأنه أن يساعدنا ولو قليلاً فى تفهم كيف تنشأ الأنواع فى الطبيعة . وكلف تم اكتمال جميع هذه التكيفات الرائعة لأحد الأجزاء من نظام التعضية مع جزء آخر ، ومع ظروف الحياة ، وتكيف أحد الكائنات العضوية مع كائن آخر؟. ونحن نرى هذه التكيفات المتبادلة الرائعة بصورة واضحة جدا فى "نقار الخشب" ونبات الهدال^(١) ، وبصورة واضحة بشكل أقل بقليل فقط فى أكثر الطفيليات تواضعا والتى تتعلق بالشعر الخاص بأحد الحيوانات الرباعية الأجل أو بالريش الخاص بأحد الطيور ، وفى بنيان الخنفساء التى تغوص فى الماء ، وفى البذرة ذات الريش^(٢) التى تساق عبر الهواء بواسطة أرق النسومات ، وباختصار ، فإننا نرى تكيفات رائعة فى كل مكان وفى كل جزء من أجزاء العالم العضوى .

ومرة أخرى ، فقد يثور تساؤل هو : كيف تم فى النهاية تحويل الضروب ، التى سميتها أنواعاً ابتدائية^(٣)، إلى أنواع صحيحة ومتباينة والتى تختلف بشكل واضح فى معظم الحالات عن بعضها البعض أكثر مما يحدث فى الضروب التابعة لنفس النوع ؟- وكيف تنشأ هذه المجموعات من الأنواع التى تكون ما نسميه بالطبقات المتباينة، والتى تختلف عن بعضها البعض أكثر مما يحدث فى الأنواع التابعة لنفس الجنس ؟- وكل

Mistletoe

Plumed seed

Incipient species

(١) نبات الهدال = الدبق : نبات طفيلى

(٢) البذرة ذات الريش *

(٣) أنواع ابتدائية = أنواع أولية *

هذه النتائج كما سوف نشاهد بشكل أكثر اكتمالا فى الباب القادم ، هى من تبعيات الكفاح والتنازع من أجل البقاء . وبسبب هذا التنازع ، فإن التمايزات ، مهما تكن بسيطة ومهما يكن سبب انبثاقها ، وإذا كانت مفيدة إلى أى درجة لأفراد أحد الأنواع ، فى علاقاتهما المعقدة بصورة لا نهائية مع الكائنات العضوية الأخرى ومع ظروفهما الطبيعية فى الحياة ، سوف تميل إلى الاحتفاظ بمثل هذه الأفراد ، وسوف تصبح بشكل عام متوارثة عن طريق الذرارى. وهذه الذرارى أيضاً ، سوف يكون لديها بهذا الشكل فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة ، وذلك لأنه من بين العديد من الأفراد التابعين لأى نوع الذين تتم ولادتهم بصورة تورية ، فلا يستطيع إلا عدد قليل منهم البقاء على قيد الحياة . وأنا قد أطلقت على هذا المبدأ الذى عن طريقه يتم الاحتفاظ بأى تمايز بسيط إذا كان مفيداً ، مصطلح "الانتقاء الطبيعى" ، وذلك من أجل تمييز علاقته بقدرة الإنسان على الانتقاء . ولكن التعبير الذى كثيراً ما يستخدم بواسطة "السيد هيربرت سبنسر" **Mr. Herbert Spencer** وهو "البقاء للأصلح"^(١) أكثر دقة ، وملامئ بدرجة مساوية فى بعض الأحيان . وقد رأينا أن الإنسان يستطيع بالتاكيد أن يحرز نتائج عظيمة عن طريق الانتقاء ، وأنه يستطيع أن يكيف كائنات عضوية لما فيه فائدة له ، وذلك من خلال تكديس تمايزات بسيطة ولكنها مفيدة ، قدمت إليه عن طريق الطبيعة. ولكن الانتقاء الطبيعى ، كما سوف نرى فيما بعد ، هو قوة مستعدة باستمرار للعمل ، وهى أقوى بشكل غير قابل للقياس من جهود الإنسان الضعيفة ، مثل تفوق أعمال الطبيعة على أعمال المهارة .

وسوف نتطرق الآن إلى مناقشة موضوع الكفاح أو التنازع من أجل البقاء بتفصيل أكبر قليلا . وسوف يعامل هذا الموضوع فى أعمالى القادمة بما يستحقه حقاً وبتطويل أكبر . وقد بين كل من "دى كاندول **De Candol** الكبير ، و"لايل" **Lyell** بشكل موسع وفلسفى أن جميع الكائنات العضوية معرضة للتنافس العنيف . أما فيما يتعلق بالنباتات ، فلم يعالج أى إنسان هذا الموضوع بعزم ومقدرة أكثر من "و. هيربرت" **W. Herbert** ، عميد جامعة مانشستر ، ومن الواضح أن ذلك كان نتيجة لتوسعه الشديد فى المعارف البستانية. ولا يوجد شيء أسهل من الاعتراف شفوياً بحقيقة التنازع

العالمى من أجل الحياة ، أو الأكثر صعوبة - كما تبين لى أنا على الأقل - هو أن يضع هذا الاستنتاج نصب عينيه بصفة مستمرة . ومع ذلك فما لم تكن هذه الحقيقة مغروسة بشدة فى الأذهان ، فإن مجمل المنظومة الخاصة بالطبيعة ، متضمنة جميع الحقائق عن التوزيع ، والندرة ، والوفرة ، والانقراض ، والتمايز ، سوف يتم رؤيتها فى ضوء شاحب أو سوف يساء فهمها تماما . ونحن نشاهد بسرور وجه الطبيعة المشرق ، وكثيراً ما نرى وفرة زائدة فى الغذاء ، ولكننا لا نرى أو نحن ننسى أن الطيور التى تغنى حولنا بدون طائل تعيش على الحشرات أو الحبوب ، وأنها بذلك تدمر الحياة بشكل مستمر ، ونحن ننسى أن هذه الطيور المغردة ^(١) ، وبيضها ، وأفراخها ، يتم تدميرها على نطاق واسع بواسطة الطيور والحيوانات المفترسة ، ونحن لا نفكر دائماً أنه مع أن الغذاء قد يكون الآن متوافراً جداً ، فإنه لا يكون بهذا الشكل فى جميع الفصول وفى كل سنة متكررة.

استخدام مصطلح التنازع من أجل البقاء بشكل واسع

يجب على أن أبدأ الحديث بأن استخدام هذا المصطلح على نطاق واسع بشكل مجازى متضمنا الاعتماد الخاص بأحد الكائنات على كائن حى آخر ، و متضمنا (وهو الشئ الأكثر أهمية) ليس فقط الحياة الخاصة بالفرد ، ولكن النجاح فى ترك ذرية . ومن الممكن أن يقال بشكل حقيقى أن اثنين من حيوانات الفصيلة الكلبية^(٢) ، فى وقت مجاعة ، قد قاما بالتنازع مع بعضهما بعضا على من سوف يحصل منهما على الطعام ويعيش . ولكن نبات ما موجود على حافة الصحراء قد يقال عنه إنه يتنازع من أجل الحياة ضد الجفاف ، بالرغم من أن الأصح أنه يجب أن يقال عنه إنه يعتمد على الرطوبة . وأحد النباتات الذى ينتج سنويا ألفا من البنور ، التى تصل منها واحدة فى المتوسط إلى مرحلة النضج ، من الممكن أن يقال عنه حقيقة بشكل أكثر إنه يتنازع مع النباتات التابعة لنفس الصنف أو بصنف آخر من تلك التى تغطى الأرض . ونبات

Songsters

(١) الطيور المغردة

Canine animals

(٢) حيوانات الفصيلة الكلبية تشتمل الكلاب والذئاب والثعالب

الهدال الطفيلي يعتمد على أشجار التفاح والقليل من الأشجار الأخرى ، ولكن من الممكن أن يقال عنه بشكل متكلف إنه يتنازع مع هذه الأشجار ، وذلك لأنه إذا نما عدد كبير من هذه الطفيليات على نفس الشجرة ، فإنها تذبل^(١) وتموت . ولكن العديد من النباتات المختلفة من نبات الهدال ، التي تنمو مع بعضها على نفس الفرع ، من الممكن بشكل أكثر صدقا أن يقال عنها إنها تتنازع مع بعضها الآخر . وبما أن نبات الهدال يتم انتشاره بواسطة الطيور ، فإن بقاءه على قيد الحياة يعتمد عليها ، ومن الممكن أن يقال عنه بشكل منهجي إنه يتنازع مع النباتات الأخرى الحاملة للثمار ، فى سبيل إغراء الطيور لكى تلتهم ، وبالتالي لكى تنتشر بذوره . وفى تلك النواحي المختلفة التى تتداخل مع بعضها الآخر ، فأنا أستخدم كوسيلة من سبل الراحة المصطلح العام الخاص "بالتنازع من أجل البقاء على قيد الحياة".

النسبة الهندسية للزيادة

التنازع من أجل البقاء نتيجة حتمية للمعدل العالى للزيادة الذى تميل إليه جميع الكائنات العضوية . فكل كائن ينتج أثناء مدة حياته الطبيعية العديد من البيض أو البذور ، لابد من أن يعانى من الهلاك أثناء فترة ما مع حياته ، وفى أثناء فصل ما ، أو سنة عارضة ما ، وخلافا لذلك ، طبقا لمبدأ الزيادة الهندسية ، فإن أعدادهم سريعا ما سوف تصبح كبيرة بشكل مغالى فيه إلى درجة إنه قد لا يوجد أى بلد يستطيع أن يعول هذا النتاج ، ومن ثم ، فبما أنه يتم إنتاج أفراد أكثر مما يحتمل أن يعيش ، فلا بد أن يوجد تنازع من أجل البقاء فى كل حالة ، إما بين أحد الأفراد مع فرد آخر تابع لنفس النوع ، أو مع الأفراد التابعين لنوع مختلف ، أو مع الظروف المادية للحياة . وما هذا إلا تطبيق لقانون " مالثوس " **Malthus** المتشعب القوة على مجموع الممالك الحيوانية والنباتية ، لأنه فى هذه الحالة فإنه لا يمكن أن يكون هناك أى زيادة مصنعة فى الغذاء ، ولا كبح متعقل عن التزاوج . وبالرغم من أن بعض الأنواع قد تكون حاليا فى حالة زيادة شبه سريعة فى العدد ، إلا أن جميع الأنواع لا تستطيع أن تفعل نفس الشيء ، وذلك لأن العالم لا يتسع لها .

ولا يوجد أى استثناء من قاعدة أن كل كائن عضوى فى حالة تزايد طبيعى بمعدل عال ، إلى درجة أنه إذا لم يتعرض للهلاك ، فإن الكرة الأرضية سوف تصبح قريباً مغطاة بالذرية الناتجة عن زوج واحد منه . فحتى الإنسان البطيء التناسل قد تضاعف تعداده فى خلال خمسة وعشرين عاما ، وإذا استمر فى هذا المعدل ، ففى خلال أقل من ألف عام ، فإنه لن يكون هناك بالمعنى الحرفى أى مساحة لوقوف ذريته . وطبقا لحسابات "ليناس" Linnaeus فإنه إذا أنتج نبات سنوى بذرتين فقط - و لا يوجد هناك نبات قليل الإنتاج بهذا الشكل - وأنتجت كل من نباتاتهما الصغيرة فى العام التالى اثنتين ، وهلم جرا ، فسوف يكون من المحتم أن يوجد مليون من النباتات فى خلال عشرين عاماً . ويعتبر أن الفيل هو أبطأ كل الحيوانات المعروفة فى التوالد ، وقد عانيت من بعض الصعوبات فى محاولة تقدير أقل معدل ممكن للزيادة الطبيعية فى أعداده، وسيكون من الأسلم أن نفترض ، أنه يبدأ بالتوالد عندما يبلغ الثلاثين عاماً من العمر ، ويستمر فى التوالد إلى أن يبلغ سن التسعين عاماً من العمر ، منتجا ستة من الصغار فى خلال هذه الفترة ، وأنه سوف يعيش إلى أن يبلغ المائة عام من العمر ، فإذا حدث ذلك، فإنه بعد مدة تتراوح ما بين ٧٤٠ و ٧٥٠ سنة فإنه سوف يكون هناك حوالى تسعة عشر مليوناً من الأفيال الحية ، التى انحدرت جميعها من الزوج الأول .

ومع ذلك فإنه يوجد لدينا دليل أفضل فى هذا الموضوع من مجرد الحسابات النظرية ، ألا وهو ، الحالات العديدة المسجلة عن الحالات المثيرة للدهشة للزيادة السريعة فى أعداد الحيوانات المختلفة فى البيئة الطبيعية ، عندما تكون الظروف مواتية لهم فى أثناء فصلين أو ثلاثة فصول متتالية . والشئ الأكثر لفتاً للأنظار ، هو الدليل المأخوذ من حيواناتنا الداجنة المتعددة الأنواع ، التى قد انتشرت ببنون ضابط أو نظام فى أجزاء عديدة من العالم ، وإذا كانت التصريحات عن معدل الزيادة للماشية والحياد البطيئة التوالد فى جنوب أمريكا، ومؤخراً أستراليا، لم يتم إثبات صحتها بشكل جيد ، فإنها كانت ستصبح غير معقولة . وهذا هو الحال مع النباتات ، فإنه من الممكن تقديم حالات لنباتات قد تم إدخالها حديثاً للمرة الأولى ، والتى قد أصبحت شائعة فى جميع أرجاء بعض الجزر فى خلال مدة أقل من عشر سنوات . والعديد من النباتات ، مثل

الحرشف^(١) وشوكة الجمل^(٢) والتي هي حالياً أكثر النباتات شيوعاً على جميع سهول منطقة "لاپلاتا" **La Plata** (بأمريكا الجنوبية) ، وتكسو الفراسخ^(٣) المربعة من سطح الأرض إلى حد الاستبعاد تقريباً لكل النباتات الأخرى ، قد تم إدخالها لأول مرة من أوروبا ، وكما سمعت من "الدكتور فالكونر" **Dr. Falconer** ، فإنه توجد بعض النباتات التي تنتشر حالياً في الهند ، في المنطقة الممتدة من "رأس كومورين" **Cape Comorin** إلى "الهمالايا" **Himalaya** ، والتي قد تم استيرادها من أمريكا منذ اكتشافها . في مثل هذه الحالات ، وحالات أخرى من الممكن سردها بدون نهاية ، فلا يفترض أحد ، بأى درجة من التعقل ، أن خصوبة الحيوانات أو النباتات قد ازدادت فجأة وبشكل مؤقت . والتفسير الواضح هو أن ظروف الحياة قد كانت مواتية إلى أعلى مستوى ، وأنه كان هناك بالتالى إهلاك أقل لكبار السن واليافعين ، وأن جميع الصغار تقريباً كانوا قادرين على التوالد . وبهذا فإن المعدل الهندسى لزيادتهم ، ونتيجته التي لا تخيب أبداً في أن تكون مثيرة للدهشة ، تفسر ببساطة زيادتهم السريعة غير العادية وانتشارهم العريض في أوطانهم الجديدة .

في البيئة الطبيعية نجد تقريباً أن كل نبات تام النمو ينتج بذوراً كل سنة ، والقليل جدا من الحيوانات هي التي لا تتزاوج سنوياً . ومن ثم ، فإنه من الممكن لنا أن نؤكد أن جميع النباتات والحيوانات تميل إلى أن تزداد بنسبة هندسية - وأن جميعها سوف تملأ بسرعة كل موضع تستطيع التواجد فيه بأى شكل - وأن هذه القابلية الهندسية للزيادة من الضروري أن يتم كبحها بواسطة الهلاك عند فترة ما من الحياة . وأنا أعتقد أن اعتيادنا على هذه الحيوانات الداجنة الكبرى يميل إلى تضليلنا: فنحن لا نرى هلاكاً كبيراً يحدث لها ، ولكننا لا نحتفظ في أذهاننا بأن الآلاف منها تذبح سنوياً من أجل الغذاء . وأن عدداً مساوياً سوف يتم التخلص منه بطريقة ما في البيئة الطبيعية .

(١) نبات الحرشف البرى = قردون = شوك الحمير = هيشر : نبات كالأرضى الشوكى ، Cardoon

حولى ، من الفصيلة المركبة من جنس الخرشوف ، ينمو في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا **

Tall thistle

(٢) شوكة الجمل **

Leauge

(٣) فرسخ : قياس للطول يتراوح ما بين ٢,٤ و ٤,٦ من الميل

الفرق الوحيد بين الكائنات التي تنتج سنويا آلافا من البيض أو البنور ، وهذه التي تنتج أعدادا فى منتهى القلة ، هو أن بطيئة التوالد سوف تحتاج إلى سنوات قليلة أكثر لتشعر، تحت ظروف مواتية، منطقة كاملة، مهما بلغ كبرها . فالنسر الأمريكى^(١) يضع زوجا من البيض ، والنعامه تضع عشرين بيضة ، ومع ذلك ففى نفس القطر فإن النسر الأمريكى قد يكون هو الأكثر عددا فى الاثنين ، وطائر الفلمار^(٢) من نوع طيور النوء^(٣) لا يضع سوى بيضة واحدة ، ومع ذلك فمن المعتقد أنه أكثر الطيور تعدادا فى العالم ، وأحد أنواع الذباب يضع المئات من البيض ، ونوع آخر مثل البرغش^(٤) يضع بيضة واحدة ، ولكن هذا الاختلاف لا يقرر ما عدد الأفراد التابعين لأى من النوعين المستطاع إعالتهما فى منطقة ما . والعدد الكبير من البيض هو شىء له بعض الأهمية لتلك الأنواع التى تعتمد على كمية غير ثابتة من الغذاء ، لأن ذلك يسمح لها بالزيادة السريعة فى العدد . ولكن الفائدة الحقيقية للكمية الكبيرة من البيض أو البنور هى تعويض الهلاك الكثير الذى يحدث عند فترة ما من الحياة ، وهذه الفترة فى الغالبية العظمى من الحالات فترة مبكرة . وإذا استطاع أحد الحيوانات بأى طريقة حماية بيضه أو صغاره ، فإنه قد ينتج عددا صغيرا منها ، ومع ذلك يبقى متوسط تعداده على نفس المستوى الكامل ، ولكن إذا كان الهلاك هو مصير الكثير من البيض أو الصغار ، فإنه يصبح من اللازم إنتاج الكثير ، وإلا تعرض النوع للانقراض . وقد يكفى للاحتفاظ بالعدد الكامل من صنف ما من الأشجار التى تعيش فى المتوسط لمدة ألف عام ، إذا ما تم إنتاج بذرة واحدة كل ألف سنة، مع الافتراض بأن هذه البذرة سوف لن تدمر أبداً، وأنه من المؤكد أنها سوف تنبت فى مكان مناسب . وبهذا الشكل ، فإن متوسط عدد أى حيوان أو نبات ، فى جميع الحالات ، يعتمد بشكل غير مباشر فقط على عدد بيضه أو بنوره .

Condor

(١) النسر الأمريكى الضخم

Fulmar

(٢) طائر الفلمار : طائر بحرى من طيور القطب الشمالى

Petrel

(٣) طائر النوء : طائر بحرى صغير الجناحين ، يمعن فى الطيران بعيدا عن اليابسة

Hippobosca

(٤) البرغش : نوع من الذباب منه الخاص بالجمال أو الكلاب أو الخيول

(و) يمتص دم عائله

بالنظر إلى الطبيعة ، فإنه فى غاية الأهمية أن نضع نصب أعيننا الاعتبارات التالية: ألا ننسى بتاتا أن كل فرد من الكائنات العضوية قد يقال عنه إنه يبذل قصارى جهده للزيادة فى العدد ، إلى حد أن كل فرد يعيش عن طريق نزاع عند فترة ما من حياته ، وأن الهلاك الشديد يقع بشكل محتوم إما على الصغار أو على الكهول ، فى خلال كل جيل أو عند فترات متكررة. وعند تخفيف وطأة أى كبح، أو الإقلال من الهلاك ، مهما يكن قليلا ، فإن عدد أفراد النوع سوف يزداد إلى أى كمية تقريباً فى الحال .

طبيعة الضوابط الخاصة بالزيادة

الأسباب التى تكبح الميل الطبيعى الموجود لدى كل نوع للزيادة غامضة إلى أقصى حد. انظر إلى أكثر الأنواع نشاطا ، فبقدر احتشادها بالأعداد ، بقدر ميلها إلى الزيادة بشكل أكثر. ونحن لا نعرف بالضبط ما الضوابط التى تتحكم فى ذلك حتى فى حالة واحدة . ولن يسبب هذا دهشة لأى إنسان يقرب الفكر فى مدى جهلنا فى هذا الموضوع ، حتى ولو كان يتعلق بالجنس البشرى^(١) ، بالرغم من أن المعلومات المتوافرة عنه أفضل بدون وجه للمقارنة من أى حيوان آخر . وهذا الموضوع المتعلق بضوابط الزيادة قد تمت معالجته بمقدرة بواسطة العديد من الخبراء ، وأنا أمل فى مناقشته باستطراد كبير فى عمل مستقبلى ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالحيوانات الوحشية^(٢) الخاصة بجنوب أمريكا . أما هنا فسوف أورد بعض الملاحظات فقط ، لمجرد استرجاع بعض النقاط الأساسية إلى عقل القارئ . فإنه يبدو أن البيض والحيوانات الصغيرة جدا فى السن هى التى تقع عليها أكبر المعاناة ، ولكن هذا ليس الواقع بشكل ثابت . فإنه يوجد مع النباتات إهلاك واسع للنبور ، ولكن نتيجة لبعض المشاهدات التى قد أجريتها ، فإنه يبدو أن النباتات الصغيرة هى الأكثر معاناة نتيجة للإنبات فى أرض حاشدة بغزارة بالفعل بنباتات أخرى ؟ . والنباتات الصغيرة أيضا

Mankind

Feral

(١) الجنس البشرى = الصنف البشرى

(٢) وحشى = ضار = أبدا

تعانى من الإهلاك بأعداد كبيرة بواسطة أعداء مختلفين : فمثلا ، قمت بحفر وتنظيف قطعة من الأرض مساحتها ثلاثة أقدام فى الطول وقدمان فى العرض ، وذلك حتى لا يحدث أى اختناق من نباتات أخرى ، ثم قمت بوضع علامات على جميع النباتات الصغيرة الخاصة بأعشابنا المحلية بنفس ترتيب بزوغها ، ووجدت أنه من مجموع ٢٥٧ نبتة ، فقد هلك ما لا يقل عن ٢٩٥ نبتة ، وقد تم ذلك بشكل أساسى بواسطة البزاقات^(١) والحشرات ، وإذا تركت الطبقة العليا من التربة^(٢) التى قد تم جز ما عليها منذ مدة طويلة ، ونفس الحالة سوف تنطبق على الطبقة العليا من التربة التى قد تم الرعى عليها من رباعيات الأرجل وجز حشائشها تماما ، لكى تنمو عليها النباتات ، فإن النباتات الأكثر نشاطا سوف تقتل تدريجيا تلك الأقل نشاطا ، بالرغم من كونها نباتات مكتملة النمو ، وبهذا الشكل فقد فنى تسعة أنواع من بين عشرين نوعا من الأنواع التى سمح لها بالنمو بحرية على قطعة صغيرة من سطح التربة المجزوة (تربو على ثلاثة أقدام فى أربعة أقدام) .

وكمية الغذاء المخصصة لكل نوع هى بالطبع التى تعطى الحد الأقصى الذى يستطيع أن يزيد إليه كل نوع منها ، ولكن فى أحوال كثيرة جداً ، فإن الأمر ليس الحصول على الغذاء ، ولكن السقوط فى صورة فريسة للحيوانات الأخرى ، هو العامل الذى يحدد متوسط الأعداد الخاصة بالنوع . وبهذا الشكل ، فإنه يبدو أنه لا يوجد سوى مجال بسيط للشك فى أن وجود حشد كبير من طيور الحجل^(٣) ، والطهيوج^(٤)، والأرانب البرية ، على سطح أرض أى مزرعة كبيرة ، هو شئ يعتمد بشكل أساسى على هلاك الكائنات الضارة^(٥) . وإذا لم يتم إطلاق النار على أى رأس من الطرائد^(٦) فى خلال العشرين عاما القادمة فى إنجلترا ، وفى نفس الوقت ، إذا لم يتم هلاك أى

Slug	(١) بزاقة = بزاقة عريانة
Turf	(٢) الطبقة العليا من التربة
Partridge	(٣) طائر الحجل
Grouse	(٤) الطهيوج = القطا
Vermis	(٥) الكائنات الضارة
Game	(٦) الطرائد = الحيوانات المصيدة

من الضواري ، فكل الاحتمالات تشير إلى أنه سوف يكون هناك طرائد أقل مما هو موجود حالياً ، وذلك بالرغم من أنه يتم إطلاق النار على مئات الآلاف من حيوانات الصيد كل عام حالياً . وعلى الجانب الآخر ، فإنه فى بعض الحالات ، مثلما يحدث مع الأفيال ، فإنه لا يتم إهلاك أحد منها بواسطة الحيوانات الضارية ، وذلك لأنه حتى النمر فى الهند من النادر جداً أن يجروء على مهاجمة فيل صغير وهو فى حماية أمه^(١).

المناخ يلعب دوراً مهماً فى تحديد متوسط العدد الخاص بنوع ما، والفصول التى تتعاقب دورياً من البرودة الشديدة أو الجفاف يبدو أنها صاحبة التأثير الأكبر من بين الضوابط . وطبقاً لتقديراتي (اعتماداً بشكل أساسى على الأعداد التى قد انخفضت لأعشاش الطيور فى الربيع) أن شتاء عام ١٨٥٤ - ١٨٥٥ قد أهلك أربعة أخماس الطيور الموجودة فى الأراضى الخاصة بى ، وهذا يعتبر إهلاكاً هائلاً ، عندما نتذكر أن نسبة العشرة فى المائة هى نسبة وفاة عنيفة بشكل غير عادى فى حالات الأوبئة التى قد تنتشر بين البشر . ويببو لأول وهلة أن تأثير المناخ منفصل تماماً عن التنازع من أجل البقاء ، ولكن بما أن المناخ يؤثر بشكل رئيسى على نقصان الغذاء ، فإن هذا يجلب أكثر الصراعات شراسة بين الأفراد ، سواء كانت تابعة لنفس النوع أو تابعة لأى نوع من الأنواع المختلفة التى تعيش على نفس النوع من الغذاء . وحتى إذا كان المناخ الشديد البرودة مثلاً ، له تأثير مباشر، فإن هذه الأفراد الأقل نشاطاً ، أو تلك التى لديها أقل كمية من الغذاء الكافى لمدة الشتاء الذى يتقدم ، هى التى سوف تعانى أكثر من غيرها . عندما نرحل من الجنوب إلى الشمال ، أو من منطقة رطبة إلى منطقة جافة ، فنحن نرى بشكل ثابت بعض الأنواع تأخذ فى الندرة ثم الندرة ، إلى أن تختفى فى النهاية ، و يكون التغيير فى المناخ قد أصبح واضحاً ، فإن ذلك يغيرنا على أن نعزو كل هذا التأثير إلى مفعوله المباشر، ولكن هذه وجهة نظر زائفة ، حيث إننا ننسى أن كل نوع ، حتى الموجود منها فى المكان الذى يكون فيه الأكثر سيادة ، فإنه يعانى باستمرار من هلاك هائل فى فترة ما من فترات حياته ، من الأعداء أو المنافسين

على نفس المكان والغذاء ، وإذا كانت تلك الأعداد أو المنافسين محاباة بأقل درجة من التغيير البسيط فى المناخ ، فإنها سوف تزداد فى الأعداد ، وبما أن كل منطقة هى بالفعل محشودة بالكامل بالقاطنين ، فإن الأنواع الأخرى يتحتم عليها أن تتناقص . وعندما نرحل فى اتجاه الجنوب ونرى أحد الأنواع يتناقص فى العدد ، فمن الممكن أن نشعر بالتأكد أن السبب ينحصر فى أن أنواعا أخرى قد نالت المحاباة ، بنفس القدر الذى يضير النوع الذى نحن بصدده ، وهذا هو الحال عندما نرحل فى اتجاه الشمال ، ولكن إلى درجة ما أقل ، وذلك لأن الأعداد الخاصة بالأنواع من جميع الأصناف ، وبالتالى المنافسين ، تتناقص كلما اتجهنا شمالا ، ومن ثم فبالذهاب فى اتجاه الشمال ، أو بالصعود لأحد الجبال ، فإننا نتقابل فى أحيان أكثر من المعتاد مع أشكال معاقة النمو^(١) ، نتيجة للتأثير المؤدى المباشر للمناخ ، أكثر مما يحدث لنا أثناء تقدمنا فى اتجاه الجنوب ، أو نزولنا من الجبال . وعندما نصل إلى المناطق القطبية أو القمم المغطاة بالثلوج ، أو الصحارى القاحلة ، فإن التنازع من أجل الحياة مقصور تقريبا مع العوامل .

وأما بالنسبة إلى أن المناخ يؤثر فى جزء رئيسى بشكل غير مباشر عن طريق محاباة أنواع أخرى ، فإننا نراه بوضوح فى العدد المذهل للنباتات التى تستطيع احتمال مناخنا بشكل تام الاكتمال فى حدائقنا البريطانية ، ولكنها لا تصبح متأقلمة ، وبذلك لا تستطيع التنافس مع نباتاتنا المحلية ، ولا تستطيع مقاومة الإهلاك بواسطة حيواناتنا المحلية .

وعندما يزداد أحد الأنواع فى العدد ، نتيجة لظروف مواتية بشكل كبير ، فى قطعة صغيرة من الأرض ، فإن الأوبئة - ويبدو أن هذا يحدث بصورة عامة على الأقل مع طرائدنا الحيوانية - غالباً ما تتلو ذلك ، ولدينا هنا ضابط محدد مستقل عن التنازع من أجل الحياة . ولكن يبدو أن بعضاً مما يقال عنها أوبئة حتى هذه ، فإنها نتيجة ديدان طفيلية ، التى أصبحت نتيجة لسبب ما ، من المحتمل جزئياً من خلال

سهولة الانتشار بين الحيوانات المزدحمة ، مدعمة بشكل غير متكافئ ، وهنا يدخل نوع من التنافس بين الطفيلي وفريسته .

وعلى الجانب الآخر ، فإننا نجد في العديد من الحالات ، أن تواجد حشد كبير من الأفراد التابعين لنفس النوع، بشكل متناسب مع أعداد أعدائه، شىء ضرورى بشكل مطلق. وبهذا الشكل فإنه من اليسير علينا أن نربى القدر الوفير من الحنطة^(١) وبذر اللفت^(٢) وخلافه ، فى حقولنا وذلك لأن البنور كميته كبيرة بالمقارنة بعدد الطيور التى تتغذى عليها ، ولا تستطيع الطيور ، بالرغم من أن لديها وفرة زائدة عن الحد من الغذاء فى هذا الفصل المعين ، أن تزيد فى العدد بدرجة تتناسب مع الإمداد بالبنور ، وذلك لأن أعدادها سوف تكون مكبوحة فى أثناء فصل الشتاء . ولكن أى فرد قد أقدم على محاولة الحصول على البذر من القليل من نباتات القمح أو النباتات الأخرى المماثلة الموجودة فى الحديقة ، يعلم مدى الصعوبة التى تقابله : وقد فقدت فى هذه المحاولة كل بذرة منها. وهذه الوجهة من النظر الخاصة بضرورة وجود حشد كبير من نفس النوع من أجل الحفاظ عليه ، تفسر كما أعتقد ، بعض الحقائق المنفردة فى الطبيعة ، مثل أن نباتات نادرة جداً قد توجد فى بعض الأحيان بوفرة شديدة ، فى البقاع القليلة التى تحيا فيها ، وتلك المتعلقة ببعض النباتات الاجتماعية فى كونها اجتماعية ، وهذا يعنى أنها تعج بالأفراد ، حتى عند الحافة القصوى لمآلفها . وذلك لأنه فى مثل هذه الحالات ، فإنه من الممكن لنا أن نعتقد ، أن أحد النباتات يستطيع البقاء فقط فى المكان الذى تتوافر فيه ظروف موالية لحياته ، إلى درجة أن العدد الكبير من أفراده يستطيع التواجد مع بعضه البعض ، وبهذا الشكل يتم إنقاذ النوع من الهلاك التام . ويجب أن أضيف أن التأثيرات الحميدة للتهجين المتبادل^(٣) ، والتأثيرات الضارة للاستيلاد المتبادل الحميم^(٤) ، تلعب بدون شك نوراً فى الكثير من هذه الحالات ، ولكنى لن أتوسع هنا فى هذا الموضوع .

Corn

(١) الحنطة : ذرة ، شعير ، شوفان ، قمح

Rape- seed

(٢) بذر اللفت = بذر الشلجم

Inter- crossing

(٣) التهجين المتبادل *

Close interbreeding

(٤) الاستيلاد المتبادل الحميم *

العلاقات المعقدة الموجودة بين جميع الحيوانات والنباتات

فيما يتعلق بالتنازع من أجل البقاء

الكثير من الحالات الموجودة فى السجلات تظهر مدى التعقيد وعدم التوقع للضوابط والعلاقات بين الكائنات العضوية ، التى عليها أن تتنازع فيما بينها فى نفس القطر . وأنا سوف أعطى مثالا واحدا ، بالرغم من بساطته ، قد أثار اهتمامى . فى إقليم "ستافورد شاير" Staffordshire ، وفى إقطاعية أحد أقاربنى ، وهو المكان الذى وجدت فيه وسائل متوافرة للاستقصاء ، كان يوجد هناك مرج كبير وقاحل بشدة ، ولم يسبق إطلاقا أن لمست يد إنسان ، ولكنه كان يوجد هناك عدة مئات من الأفدنة التى كانت على نفس هذه الطبيعة تماما وتم تطويقها منذ خمسة وعشرين عاما ماضية ، وزراعتها بأشجار التنوب الإسكتلدى^(١) . وقد كان التغيير الذى حدث فى الحياة النباتية^(٢) لهذا الجزء المزروع من المرج ملحوظ على أعلى مستوى ، وأكثر من المشاهد عامة أثناء التنقل من تربة مختلفة تماما إلى غيرها : فلم ينحصر التغيير الشامل فى الأعداد النسبية لنباتات المروج ، ولكن لأن اثنى عشر نوعا من أنواع النباتات (بنون إحصاء للأعشاب^(٣) والكاريبيات^(٤)) قد ازدهرت فى المزارع ، والتى لم يمكن العثور عليها فى المرج . ولا بد من أن التأثير على الحشرات كان أكثر من ذلك ، وذلك لأن ستة أنواع من الطيور الأكلة للحشرات كانت شائعة جداً فى المزارع، والتى لم تكن من الممكن أن ترى على المرج ، والمرج نفسه كان يتردد عليه نوعان أو ثلاثة أنواع متباينة من الطيور الأكلة للحشرات . وهنا نرى إلى أى مدى وصلت فاعلية تأثير إدخال شجرة واحدة ، و لم يكن هناك أى شىء آخر على الإطلاق قد تم عمله ، باستثناء أن الأرض قد سيجت ، وذلك لمنع الماشية من الدخول . ولكن

Scotch Fir

Vegetation

Grasses

Carices

(١) شجر التنوب الإسكتلدى

(٢) الحياة النباتية

(٣) الأعشاب

(٤) الكاريبيات *

ما هو مدى أهمية عامل التسييج ، فإن هذا هو ما شاهدته بوضوح بالقرب من "فارنهام Farnham ، بمقاطعة "سارى" Surrey . فهناك توجد مروج شاسعة ، مع تجمعات قليلة من أشجار التنوب الإسكتلندي القديمة على قمم التلال البعيدة : وفي خلال العشر سنوات الماضية ، تم تسييج مساحات واسعة من الأرض ، والنتيجة كانت بروز الأعداد الوفيرة من أشجار التنوب الذاتية الانتشار إلى الوجود ، والتي كانت ملتصقة ببعضها إلى درجة استحالة الحياة لجميعها . وعندما تيقنت من أن هذه الأشجار اليافعة لم يتم نثر بذورها أو تستزرع ، أصابتنى الدهشة من أعدادها إلى درجة أنني ذهبت إلى العديد من البقاع لمشاهدتها ، وهناك استطعت أن أفحص المئات من الأفدنة من المروج غير المسيجة ، والتزاما بالأمانة ، فأنا لم أتمكن من مشاهدة شجرة واحدة من أشجار التنوب فيها ، ماعدا تلك المجموعات المستزرعة القديمة . ولكن بتدقيق النظر بين سويقات المروج ، فإني وجدت العديد من النباتات الصغيرة والشجيرات الصغيرة التي قد تم قضمها واجتثاثها بصورة مستمرة بواسطة الماشية . فى ياردة مربعة واحدة ، وعند نقطة تبعد حوالى المائة ياردة من واحدة من المجموعات القديمة ، تمكنت من إحضار اثنين وثلاثين من الأشجار الصغيرة ، وكانت واحدة منهما تحتوى على ست وعشرين حلقة من حلقات النمو . وكانت تحاول أثناء العديد من السنين أن ترفع رأسها فوق مستوى السويقات الموجودة بالمروج ، ولكنها منيت بالفشل . فلا مجال للتعجب من أنه بمجرد أن سيجت الأرض ، فإنها قد أصبحت مكسوة بكثافة بأشجار التنوب الصغيرة النشيطة النمو . ومع ذلك فإن المروج كان شاسعا وكان قاحلا بدرجة شديدة إلى درجة أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يتخيل أن الماشية قد نقبت فيه عن الغذاء إلى هذه الدرجة الغربية والمؤثرة .

ونحن نرى هنا أن الماشية تحدد بكل ما فى الكلمة من معنى تواجد أشجار التنوب الإسكتلندي ، ولكن فى مناطق عديدة من العالم فإن الحشرات هى التى تحدد تواجد الماشية . وربما تقدم " پاراجواى " Paraguay أغرب الأمثلة على ذلك ، لأنه فى هذا المكان لم يحدث أبدا أن زادت الأعداد بدون ضابط لكل من الماشية أو الجياد أو الكلاب ، مع أن المكان يجيش بها فى حالة وحشية جنوبا وشمالا ، وقد أوضح كل من "أزارا" Azara ، و"رنجر" Rengger أن هذا سببه الارتفاع الشديد فى عدد ذبابة

معينة فى باراجواى ، وهى التى تضع بيضها فى "السّرر"^(١) الخاصة بهذه الحيوانات بمجرد ولادتها . والزيادة فى أعداد هذا النوع من الذباب ، وهى أعداد كبيرة بالفعل ، يجب وضع ضوابط لها بشكل مألوف بواسطة بعض الوسائل ، من المحتمل أن تكون عن طريق حشرات طفيلية أخرى . ومن ثم ، فإذا تناقصت أعداد بعض الطيور الآكلة للحشرات فى باراجواى ، فمن الأرجح أن تزيد أعداد الحشرات الطفيلية ، وهذا بدوره سوف يخفض عدد الذباب الذى يتردد على السرر ، وعندها سوف تصبح الماشية والحياد مستوحشة ، وهذا بالتأكيد سوف يغير كثيراً (كما شاهدت بالفعل فى بعض أجزاء أمريكا الجنوبية) فى المزروعات : وهذا بدوره سوف يؤثر بشكل كبير على الحشرات ، وهذا كما شاهدناه منذ لحظات فى "ستافوردشير" ، سوف يؤثر على الطيور الآكلة للحشرات ، ويستمر الأمر بهذا الشكل فى نواثر معقدة دائمة الاتساع . ولا يمكن أن تكون أبدا العلاقات فى البيئة الطبيعية بسيطة بهذا الشكل . فمن المحتم أن يحدث تعاقب لمعركة من خلال معركة بصورة مستمرة مع اختلافات فى فرص النجاح ، وبالرغم من ذلك ، وعلى المدى البعيد ، فإن القوى تتوازن بشكل جميل ، حتى يبقى وجه الطبيعة منتظماً لفترات طويلة من الزمن ، بالرغم من أنه من المؤكد أن مجرد حدوث تغيير تافه سوف يؤدى إلى نصره كائن عضوى على كائن آخر . وبالرغم من ذلك ، فإنه بلغ من عمق جهلنا ، ومن ارتفاع نبرة ادعائنا ، أننا نتعجب عندما يصل إلى أسماعنا أخبار انقراض أحد الكائنات العضوية ، وبما أننا لا نستطيع أن نرى السبب ، فإننا نستشهد بالكوارث التى تدمر العالم ، أو نخترع القوانين التى تحدد الفترة المحددة لحياة الأشكال ! .

وأنا أميل إلى تقديم مثال واحد آخر يبين كيف أن النباتات والحيوانات المتباعدة فى الميزان الطبيعى ، مرتبطة مع بعضها عن طريق شبكة من العلاقات المعقدة . وسوف أحصل على فرصة فيما بعد لأبين أن نبات " اللوبيليا البراقة "^(٢) الغربى لم تقم الحشرات بزيارته إطلاقاً فى حديقتى ، وبالتالي ، فنتيجة لتكوينه الفريد ، فإنه

Navel

Lobelia Fulgens

(١) السرة (جمع = سرر)

(٢) اللوبيليا البراقة *

لم يطلق بذرة واحدة . وجميع نباتاتنا السحلبية^(١) تقريباً محتاجة بشكل قاطع إلى زيارات الحشرات لها لإزالة كتل اللقاح الخاصة بها وبالتالي لتلقيحها . ووجدت من التجارب أن النحل الطنان^(٢) لا غناء عنه تقريباً لتلقيح نبات زهرة الثالوث البرية^(٣) (البنفسج ثلاثي الألوان)^(٤) ، وذلك لأن أنواع النحل الأخرى لا تتردد على هذه الزهرة . وقد وجدت أيضاً أن زيارات النحل شئ ضرورى لتلقيح بعض الأنواع من البرسيم^(٥) ، فعلى سبيل المثال ، فإن عشرين رأساً من البرسيم الهولندى (البرسيم اليانع)^(٦) قد أنتجت ٢٢٩٠ بذرة ، ولكن عشرين رأساً أخرى تمت حمايتها من النحل لم تنتج أى بذور - ومرة أخرى فإن مائة من رعوس البرسيم الأحمر (البرسيم المرجى)^(٧) أنتجت ٢٧٠٠ بذرة ، ولكن نفس العدد من الرعوس المحمية لم تنتج ولو حتى بذرة واحدة . والنحل الطنان هو الوحيد الذى يتردد على البرسيم الأحمر وذلك لأن الأنواع الأخرى من النحل لا تستطيع الوصول إلى الرحيق^(٨) . وقد كان من المقترح أن الفراشات قد تستطيع تلقيح البرسيم الأحمر ، ولكنى أشك فى إذا ما كان بإمكانها القيام بذلك فى حالة البرسيم الأحمر ، وذلك لأن وزنها غير كاف لخفض التويجات الجناحية^(٩) . ومن ثم فإنه بإمكاننا أن نستنتج أنه من المرجح جدا ، أن جميع أفراد طبقة النحل الطنان ، لو أصبحت منقرضة أو شديدة الندرة فى إنجلترا ، لأصبحت زهور الثالوث البرية والبرسيم الأحمر شديدة الندرة أو لاختلفت كلية . ويعتمد عدد النحل الطنان فى كل مقاطعة بقدر كبير على عدد فئران الحقل^(١٠) ، التى تدمر

Orchidaceous plants	(١) النباتات السحلبية
Humble-bees = Bumble-bees	(٢) النحل الطنان
Heartsease	(٣) زهرة الثالوث البرية = الپانسية
Viola Tricolor	(٤) نبات البنفسج الثلاثى الالوان = الپانسية
Clover	(٥) برسيم
Dutch Clover= Trifolium repens	(٦) البرسيم الهولندى = البرسيم اليانع *
Red Clover = Trifolium Pratence	(٧) البرسيم الأحمر = برسيم المروج = رطبة *
Nectar	(٨) الرحيق
Wing petals	(٩) التويجات الجناحية *
Field-mice	(١٠) فئران الحقل

أمشاطه وأعشاشه . ويعتقد "الكولونيل نيومان" Col. Newman، الذى راقب لمدة طويلة عادات النحل الطنان ، أن أكثر من ثلثيه يهلك بهذا الشكل فى جميع أرجاء "إنجلترا" ، وكما يعرف كل إنسان الآن ، فإن عدد الفئران يعتمد بشكل كبير على عدد القطط ، ويقول "الكولونيل نيومان" : "على مقربة من القرى والمدن الصغيرة ، وجدت أن أعشاش النحل الطنان أكثر عددا من أى مكان آخر ، وأنا أعزو ذلك إلى عدد القطط التى تهلك الفئران " . ومن ثم فإنه من الممكن تصديق أن تواجد حيوان من السنوريات^(١) بأعداد كبيرة فى مقاطعة ما قد يحدد ، من خلال التدخل فى حياة الفئران أولا ثم النحل بعد ذلك، انتشار بعض الزهور فى هذه المقاطعة .

فى حالة كل نوع ، فمن الجائز تواجد العديد من الضوابط المختلفة ، التى تلعب دوراً عند فترات مختلفة من الحياة، وأثناء فصول أو سنوات مختلفة، البعض منها يحد، والبعض القليل منها قد يكون على العموم هو الأكثر فاعلية ، ولكنها جميعا سوف تتعاون فى تقرير معدل الأعداد أو حتى التواجد للنوع . وفى بعض الحالات فإنه يمكن إظهار أن الضوابط المختلفة بشكل كبير، تؤثر على نفس النوع فى المقاطعات المختلفة . فعندما ننظر إلى النباتات والشجيرات التى تكسو جرفا متشابكا ، فإننا نجد أنفسنا تحت تأثير الإغراء بأن نعزو أعدادها وأصنافها النسبية إلى ما نسميه المصادفة . ولكن ما مدى زيف هذه النظرة!- وكل إنسان قد بلغ سمعه أنه عندما تجتث إحدى الغابات الأمريكية ، فإننا نجد أن أنواعا مختلفة من الزراعات تبرز إلى الوجود ، ولكنه قد لوحظ أن الخرائب الهندية القديمة فى جنوبى الولايات المتحدة ، والتى من الضرورى أنه قد تم إخلاؤها من الأشجار فى الماضى ، تتكشف الآن عن نفس التنوع والتناسب الجميل للأصناف كالموجودة فى الغابة العذراء المحيطة بها . وما الصراع الذى لا بد وأنه قد استمر خلال قرون طويلة بين الأنواع العديدة من الأشجار التى تبعثر بنورها بالآلاف ، وما الحرب التى قد دارت بين الحشرة والحشرة الأخرى ، وبين الحشرات ، والحرزونات^(٢) ، والحيوانات الأخرى مع الطيور والحيوانات المفترسة ، وجميعها

Feline animal

(١) حيوان من السنوريات = السنائير (القطط والأسود والنمور)

Snail

(٢) حلزون = بزاقة = قوقع

تجاهد للزيادة ، وجميعها تتغذى على بعضها البعض ، أو على الأشجار ، وبذورها ، ونباتاتها الصغيرة ، أو على النباتات الأخرى التي قد غطت الأرض في أول الأمر وبهذا كبح نمو الأشجار !- ولك أن تلقى بحفنة من الريش ، وستسقط كلها على الأرض بناء على قوانين محددة ، ولكن ما مدى بساطة المشكلة عندما سوف تسقط كل واحدة منها ، على وجه المقارنة مع ، الفعل ورد الفعل للعدد اللانهائي من النباتات والحيوانات التي قد حددت ، على مدى قرون ، الأعداد والأصناف النسبية للأشجار التي تنمو حاليا على الخرائب الهندية القديمة .

اعتماد أحد الكائنات العضوية على كائن آخر ، كما هو الحال مع الطفيليات على فرائسها ، يقع عادة بين الكائنات المتباعدة عن بعضها في ميزان الطبيعة . وفي بعض الأحيان فإن هذا هو نفس الحال مع هؤلاء الذين يقال عنهم بالتحديد إنهم يتنازعون مع بعضهم البعض من أجل البقاء ، كما في حالة الجراد^(١) والحيوانات رباعيات الأرجل التي تقتات بالأعشاب . ولكن التنازع سوف يكون بالتأكيد تقريبا ، في أشد حالات الضراوة بين الأفراد التابعين لنفس النوع، وذلك لأنها تتردد على نفس المناطق ، ومحتاجة إلى نفس الطعام ، ومعرضون لنفس الأخطار . وفي حالة الضروب التابعة لنفس النوع ، فإن التنازع سيكون على وجه العموم على مثل هذه الضراوة تقريبا ، ونحن نرى في بعض الأحيان أن المنافسة يتم حسمها سريعا : فعلى سبيل المثال ، إذا نثرت ضروبا عديدة من القمح في وقت واحد ، وأعيد نثر البنور المختلطة الناتجة ، فإن بعض الضروب الأكثر ملاءمة للتربة أو المناخ ، أو الأكثر خصوبة بطبيعتها ، سوف تتغلب على الأخرى، وبذلك سوف تنتج بنورا أكثر، وبالتالي سوف تحل محل الضروب الأخرى على مدار سنوات قليلة . وللحفاظ على حشد مختلط حتى من هذه الضروب الشديدة التقارب ، مثل البازلاء الحلوة^(٢) المختلفة الألوان ، فإنه من الضروري أن يتم حصادها كل عام على انفراد ، ثم تخلط البنور بالنسبة المطلوبة ، وخلاف ذلك فإن الأصناف الأضعف سوف تتناقص بالتدرج في العدد وتختفي . ونفس الشيء مرة

Locusts

Sweet peas

(١) الجراد

(٢) البازلاء الحلوة = زهرة البسلة *

أخرى مع ضروب الأغنام ، فإنه قد تم التأكد من أن بعض الضروب الجبلية تقتل من الجوع ضروبا جبلية أخرى ، إلى درجة أنه لا يمكن الاحتفاظ بهما سويا . ونفس النتيجة قد ترادفت من الاحتفاظ في نفس المكان بضرروب مختلفة من العلقات الطبية^(١). وحتى إنه من الممكن أن يتطرق الشك إلى ما إذا كانت الضروب الخاصة بأى من نباتاتنا أو حيواناتنا الداجنة لديها بالضبط نفس القوة ، والعدادات ، والبنيان ، إلى درجة أن النسب الأصلية الخاصة بحشد مختلط (مع منع التهجين بينها) من المستطاع أن تتم المحافظة عليها لفترة نصف دسنة من الأجيال ، إذا ما سمح لها بالتنازع مع بعضها البعض ، بنفس الطريقة كما لو كانت في البيئة الطبيعية ، وإذا لم تتم المحافظة على البذرة أو الياغ منها كل عام بالنسبة المطلوبة .

التنازع من أجل الحياة يكون أكثر شراسة

بين الأفراد والضروب التابعة لنفس النوع

بما أن الأنواع التابعة لنفس الطبقة لديها عادة ، ولو أن هذا شىء غير مؤكد بأى شكل من الأشكال ، الكثير من أوجه التشابه فيما بينها فى العادات والبنيان ، ودائماً فى التركيب ، فإن التنازع بينها سيكون بشكل عام أكثر ضراوة ، إذا ما حدث تنافس بين بعضها البعض ، أكثر مما يحدث بين الأنواع التابعة لطبقات مختلفة . ونحن نشاهد ذلك فى الامتداد الحديث عبر أجزاء من الولايات المتحدة الذى حدث لأحد أنواع طائر الخفاف^(٢) ، الذى أدى إلى التناقص فى أعداد نوع آخر . والزيادة الحديثة فى طائر الدج الدبقي^(٣) فى أجزاء من إسكتلندا الذى قد أدى إلى النقصان فى طائر الدج المغنى^(٤) . وكيف تكرر سماعنا عن أحد أنواع الجرذان الذى يأخذ مكان نوع آخر تحت تأثير أكبر اختلاف فى المناخ !

Medicinal leech

(١) العلقات الطبية : العلقات التى تمتص الدماء

Swallow

(٢) طائر الخفاف = السنونو : طائر طويل الجناحين ومشقوق الذيل

Missel - thrush

(٣) طائر الدج الدبقي *

Song- thrush

(٤) طائر الدج المغنى *

وفى روسيا فإن الصرصار الآسيوى الصغير قد اكتسح أمامه فى كل مكان مجانسه^(١) الصرصار الكبير . وفى إستراليا فإن نحل الملاجى^(٢) المستورد يستأصل النحل المحلى الصغير غير المزود بزبانى^(٣) . وأحد أنواع نبات الخردل البرى^(٤) عرف عنه أنه يستأصل نوعا آخر ليحل محله ، وهذا هو الأمر فى حالات أخرى . ونحن نستطيع أن نرى على الأقل بشكل مبهم لماذا يجب أن تكون المنافسة على أشدها بين الأشكال المتقاربة ، التى تشغل تقريبا نفس المكان فى المنظومة الخاصة بالطبيعة ، ولكن من المحتمل أنه لا توجد حالة نستطيع أن نحدد فيها بدقة لماذا خرج أحد الأنواع منتصرا على نوع آخر فى المعركة الكبرى من أجل الحياة .

ونتيجة طبيعية ذات أهمية قصوى من الممكن استنتاجها من الملاحظات السابق سردها ، ألا وهى ، أن التركيب الخاص بكل من الكائنات العضوية له علاقة ، فى معظم السمات الأساسية ولو أنها متوارية فى أحوال كثيرة ، بتركيب جميع الكائنات العضوية الأخرى ، التى تتنافس معها على الطعام أو المسكن ، أو التى يتحتم أن تهرب منها ، أو التى تعيش على افتراسها . وهذا يبدو واضحا فى تركيب الأسنان والمخالب^(٥) الخاصة بالنمر ، وفى الأرجل والبرائن^(٦) الخاصة بالطفيلى الذى يتعلق بالشعر الموجود على جسد النمر . ولكن فى البذرة المريشة بشكل جميل الخاصة بنبات الهندباء البرية^(٧) ، والأرجل المفلطحة وذات الأهداب الخاصة بحشرة خنفساء الماء^(٨) ، فإنه يبدو لأول وهلة أن هذه العلاقة منحصرة فى عناصر الهواء والماء . ومع ذلك فإن ميزة البنور المريشة تتوقف لا شك على علاقة أوثق بأن تكون الأرض بالفعل مغطاة

Congener	(١) مجانس = مشاكل : حيوان أو نبات من فصيلة حيوان أو نبات آخر
Hive - bees	(٢) نحل الملاجى (نحل الخاليا) *
Stingless	(٣) غير المزود بزبانى أو حمة أو إبرة *
Charlock	(٤) نبات الخردل البرى = كبر عفريت = حرشاء = كولة = ليسان
Talon	(٥) مخلب = برثن
Claws	(٦) برائن = مخالب
Dandelion	(٧) نبات الهندباء البرية = الطرخشقون = خس برى = أسنان الأسد
Water-beetle	(٨) خنفساء الماء

بغزارة بنباتات أخرى ، وذلك حتى تتمكن البذور من الانتشار على نطاق عريض وتسقط على أرض غير محتلة بالغير. وفي حالة خنفساء الماء ، فإن التركيب الخاص بأرجلها ، المعدة جيدا للغطس ، يمكنها من التنافس مع الحشرات المائية الأخرى ، ومن السعى وراء فرائسها ، ومن الهرب من أن تكون فريسة للحيوانات الأخرى .

ويبدو لأول وهلة أن مخزون الغذاء المدخر بداخل البذور الخاصة بنباتات كثيرة ، ليس له أى علاقة بالنباتات الأخرى . ولكن النمو القوى للنباتات اليافعة الناتجة من مثل هذه البذور ، مثل البازلاء والبقول ، عندما تنثر فى وسط أعشاب طويلة ، قد يثير الشك فى أن الفائدة الأساسية للغذاء الموجود فى البذور هى لإعطاء ميزة لنمو النباتات الصغيرة ، فى أثناء صراعها مع النباتات الأخرى المحيطة بها .

انظر إلى أحد النباتات الموجودة فى منتصف مآلفه ، وتساءل لماذا لا يزيد من أعداده إلى الضعف أو الأربعة أمثال ؟ - نحن نعلم أنه يستطيع بشكل جيد جداً احتمال زيادة قليلة فى درجة الحرارة أو البرودة ، والرطوبة أو الجفاف ، وذلك لأنه فى أى مكان آخر يآلف فى مناطق أكثر حرارة أو برودة ، وأكثر رطوبة أو جفاف . وفى هذه الحالة فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أنه إذا أردنا فى الخيال أن نعطي النبات القدرة على الزيادة فى العدد ، فإننا يجب أن نعطيه ميزة ما على منافسيه ، أو على الحيوانات التى تفترسه . وعند الحدود المرسومة لمآلفه الجغرافى . فمن الواضح أن أى تغيير فى البنيان يتعلق بالمناخ سوف يكون بمثابة ميزة لنباتنا ، ولكن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نؤمن أن العدد القليل فقط من النباتات أو الحيوانات هى التى قد تستطيع أن تتجول إلى هذا المدى البعيد ، وأنه سوف يتم إبادتها بالكامل بواسطة صرامة المناخ . لن نتوقف المناقشة إلا عندما نصل إلى الحدود القصوى للمعيشة ، وذلك فى المناطق القطبية ، أو على الحدود من صحراء قاحلة . فإن الأرض قد تكون فى غاية البرودة أو الجفاف ، ومع ذلك فسوف تكون هناك منافسة بين بعض الأنواع القليلة ، أو بين الأفراد التابعين لنفس النوع ، من أجل أكثر البقاع دفئاً أو رطوبة .

ومن ثم فإنه بإمكاننا أن نرى أنه عندما يوضع نبات أو حيوان فى بلد جديد بين منافسين جدد ، فإن ظروف حياته سوف تتغير عموماً بصورة جذرية مع أن المناخ قد

يكون مماثلاً تماماً لما هو في وطنه السابق . وإذا كان لمتوسط أعداده أن يزيد في وطنه الجديد ، فإنه سوف يكون من الواجب علينا أن نقوم بتعديله بطريقة مختلفة إلى ما كان يجب علينا أن نفعله في موطنه الأصلي ، وذلك لأنه يجب علينا أن نمنحه ميزة ما على مجموعة مختلفة من المنافسين أو الأعداء .

وهكذا فإنه من المستحسن أن نحاول في الخيال أن نعطي لنوع ما ميزة على الآخر . ومن المحتمل أننا لن نعرف من خلال مثال واحد ، ماذا نفعل . ويجب أن يقنعنا هذا بجهلنا في موضوع العلاقات المتبادلة^(١) لجميع الكائنات العضوية ، وهو اقتناع ضروري ، مثلما هو صعب في أن يكتسب . وكل ما نستطيع أن نفعله ، هو أن نضع نصب أعيننا أن كل كائن عضوي يكافح في سبيل الزيادة بنسبة هندسية ، وأن كل كائن عند فترة ما من حياته ، أو أثناء فصل ما من فصول السنة ، وأثناء كل جيل أو عند مراحل معينة، يجب أن يكافح ويتنازع من أجل الحياة ، وأن يعاني من إهلاك هائل . وعندما نقلب الفكر في هذا التنازع ، فإننا نعزى أنفسنا بالإيمان التام ، بأن حرب الطبيعة غير متواصلة، وأنه لا يوجد شعور بالخوف، ومن أنه من المعتاد أن يكون الموت حثيثاً ، وأن النشاط والمتعافى والسعيد يعيش ويتكاثر .

الباب الرابع

الانتقاء الطبيعي^(١) أو البقاء للأصلح^(٢)

الانتقاء الطبيعي - قدرته بالمقارنة للانتقاء الإنساني - قدرته على الصفات ذات الأهمية التافهة - قدرته عند جميع الأعمار وعلى كل من الشقين الجنسيين - الانتقاء الجنسي^(٣) - ما يتعلق بشيوع التهاجات المتبادلة بين الأفراد التابعين لنفس النوع - الظروف المواتية وغير المواتية لنتائج الانتقاء الطبيعي، ألا وهي؛ التهاجن المتبادل، والعزل، وعدد الأفراد - المفعول البطيء - الانقراض بسبب الانتقاء الطبيعي - تشعب الطابع^(٤)، وعلاقته بتنوع القاطنين لأي مساحة صغيرة، وبالتأقلم^(٥) - المفعول الخاص بالانتقاء الطبيعي من خلال التشعب في الطابع، على المنحدرين من أب مشترك - يفسر التقسيم لجميع الكائنات العضوية إلى مجموعات - الترقى في التعضية^(٦) - الأشكال الدنيئة مصانة - تقارب الطابع^(٧) - التضاعف غير المحدود للأنواع - الخلاصة.

Natural Selection	(١) الانتقاء الطبيعي : مصطلح أفضل من الانتخاب الطبيعي * (المسرد)
Survival of the fittest	(٢) البقاء للأصلح : بقاء الأكثر لياقة على قيد الحياة
Sexual selection	(٣) الانتقاء الجنسي : بمعنى انتقاء الذكر للأنثى والعكس *
Divergence of character	(٤) تشعب الطابع = انحراف الطابع *
Naturalization	(٥) التأقلم = يطبع = يجنس : جلب كائن الى منطقة وجعله يزهر فيها *
Advance in Organization	(٦) الترقى في التعضية *
Convergence of character	(٧) تقارب الطابع

ماذا سيكون تأثير التنازع على البقاء ، الذى تمت مناقشته باختصار فى الباب السابق ، فيما يتعلّق بالتمايز ؟ - وهل من الممكن تطبيق مبدأ الانتقاء ، الذى رأينا مدى فاعليته فى أيدى الإنسان ، فى ظل الطبيعة ؟ - أنا أعتقد أننا سوف نرى أنه يستطيع التأثير على أعلى درجة من الكفاءة . دعنا نضع نصب أعيننا العدد اللانهائى من التمايزات البسيطة والاختلافات الفردية التى تحدث فى منتجاتنا الداجنة ، وبدرجة أقل ، لتلك التى تحدث فى ظل الطبيعة ، علاوة على قدرة القابلية الوراثية . فمن الممكن أن يقال بإخلاص ، إن مجمل عملية التعضية بأكملها تصبح مرنة بدرجة ما ، تحت تأثير التدجين . ولكن القابلية للتمايز ، التى نقابلها بدون استثناء تقريباً فى منتجاتنا الداجنة ، لا يتم إنتاجها بشكل مباشر بواسطة الإنسان ، وذلك ما علق عليه "هوكر" و"آسا جراى" ، فإن الإنسان لا يستطيع استحداث ضروب ، ولا يستطيع أن يمنع ظهورها ، ولكنه يستطيع أن يحتفظ ويكسب كل ما يحدث على علته . وهو يقوم بتعريض كائنات عضوية بشكل غير مقصود لظروف حياتية جديدة ومتغيرة ، والتمايزية تتبع ذلك ، ولكن مثل هذه التغيرات المائلة فى الظروف من الممكن أن تحدث ، وهى تحدث فى ظل الطبيعة . وليكن من الأشياء الموضوعية نصب أعيننا أيضاً مدى التعقيد والتقارب اللانهائى الذى تتميز به العلاقات المتبادلة الخاصة بالكائنات العضوية فيما بين بعضها البعض ، وفيما بينها وبين ظروف حياتها الطبيعية ، وبالتالي مدى التنوعات المختلفة اللانهائية فى التركيب التى قد تكون ذات فائدة لكل كائن تحت ظروف الحياة المتغيرة . وهل من الممكن حينئذ ، أن يتطرق التفكير فى أنه من غير المحتمل ، رؤية أن التمايزات المفيدة للإنسان قد حدثت ، بدون شك ، وأن تمايزات أخرى مفيدة بطريقة ما لكل كائن فى المعركة الهائلة والمعقدة من أجل الحياة ، من الضرورى أن تحدث على مدى أجيال كثيرة متتالية ؟ وإذا حدث مثل ذلك ، فهل نستطيع أن نرتاب (مع تذكر أن عدد الأفراد الذين يولون أكبر بكثير من العدد الذى يمكن أن يعيش) فى أن الأفراد التى لديها أى ميزة ، مهما تكن بسيطة ، عن الأخرى ، سوف يكون لديها أحسن فرصة للبقاء على قيد الحياة وعلى زيادة أنسال صنفها؟ - وعلى الجانب الآخر ، فقد نشعر بالثقة فى أن أى تمايز مضر بأى درجة قليلة سوف

يتم تدميره بصرامة. وهذا الحفاظ على الاختلافات والتميزات الفردية المواتية ، والتدمير للاختلافات والتميزات الفردية الضارة ، قد أطلق عليه مصطلح "الانتقاء الطبيعي" ، أو "البقاء للأصلح" . والتميزات التي ليست مفيدة أو ضارة لن تتأثر بالانتقاء الطبيعي ، وسوف يتم إهمالها إما كعامل متقلب ، كما هو من المحتمل أن نراه فى بعض الأنواع المتعددة الأشكال، أو سوف تصبح فى النهاية ثابتة، وذلك يعتمد على طبيعة الكائن وطبيعة الظروف .

العديد من الكتاب قد أخطأوا الفهم أو اعترضوا على مصطلح " الانتقاء الطبيعي". وبعضهم وصل إلى أنه تخيل أن الانتقاء الطبيعي يسبب التمايز ، مع أنه لا يتضمن إلا الحفاظ فقط على مثل هذه التمايزات كما تظهر ، وكانت مفيدة للكائن تحت تأثير ظروف حياته. ولا يعترض أحد على أن يتكلم الزراعيون عن التأثيرات الفعالة للانتقاء الإنسانى ، وفى هذه الحالة فإنه من الضرورى أن تحدث أولا الاختلافات الفردية التى تمنحها الطبيعة ، التى ينتقها الإنسان لغرض ما . وقد اعترض آخرون على أن المصطلح " انتقاء" يلمح إلى الاختيار المتعمد للحيوانات التى تصبح معدلة ، وحتى إن الجدل قد تطرق إلى أنه ، بما أن النباتات ليس لديها إرادة^(١) ، فإن الانتقاء الطبيعي غير قابل للتطبيق عليها !- ولا شك فى أن الانتقاء الطبيعي مصطلح زائف، ولكن على الإطلاق قد أعترض على الكيميائيين عندما يتكلمون عن القابليات الاختيارية^(٢) للعناصر المختلفة - ومع ذلك فإنه من غير المستطاع أن يقال إن أحد الأحماض قد اختار القاعدة التى يفضل أن يتحد بها. وقد سبق أن قيل إنى أتحدث عن الانتقاء الطبيعي وكأنه قوة فعالة أو "إله"^(٣)، ولكن من الذى يقوم بالاعتراض على مؤلف يتحدث عن التقارب بالجابية على أساس أنه المسيطر على حركات الكواكب ؟- كل إنسان يعلم ما الذى يعنيه أو ما الذى ينطوى عليه استخدام مثل هذه التعبيرات المجازية ، وهذه التعبيرات غالبا ما تكون ضرورية بغرض الإيجاز . وهكذا للمرة الثانية

Volition

Elective Affinities

Deity

(١) إرادة

(٢) القابليات الاختيارية

(٣) إله = معبود

فإنه، من الصعب تجنب تجسيد كلمة "طبيعة"، ولكنى أعنى فقط بكلمة "طبيعة"، المفعول الإجمالى والنتيجة للكثير من القوانين الطبيعية، وأعنى بكلمة "قوانين" تعاقب الأحداث كما تم التحقق منها بواسطة. ومع القليل من الألفة والاعتیاد فإن مثل هذه الاعتراضات السطحية سوف تجد طريقها إلى النسيان .

أفضل طريقة سوف نتمكن بها من فهم المسار المحتمل للانتقاء الطبيعي هو بأخذ حالة قطر ما يمر ببعض التغير الطبيعي البسيط، على سبيل المثال فى المناخ . فإن ذلك سوف يتبعه حدوث تغيير فى الأعداد النسبية للقائنين فى الحال تقريبا، ومن المحتمل أن تنقرض بعض الأنواع . وقد نستطيع أن نستنتج مما شاهدناه من الطريقة الحميمة والمعقدة التى يرتبط بها القاطنون بكل قطر ببعضهم إلى درجة أن أى تغيير فى النسب العددية للقائنين بغض النظر عن التغيير فى المناخ نفسه، سوف يكون له تأثير خطير على الآخرين . وإذا كانت حدود هذا القطر مفتوحة، فمن المؤكد أن أشكالا جديدة سوف تهاجر إليه، وبطريقة مماثلة فإن هذا سوف يسبب اضطرابا خطيراً فى العلاقات الموجودة بين القاطنين السابقين فيه . ودعنا نتذكر مدى التأثير القوى الذى شاهدناه يحدث نتيجة إدخال شجرة واحدة أو حيوان ثديى واحد إلى مكان ما لأول مرة. ولكن فى حالة إحدى الجزر، أو أحد الأقطار المحاطة جزئيا بالحواجز، والتى لا تستطيع الأشكال الجديدة أو الأفضل تكييفا أن تدخله بحرية، فمن المحتم حينئذ أن نجد مواضع فى المنظومة الخاصة بالطبيعة التى سوف يكون من الأفضل ملؤها بالتأكيد إذا ما تم تعديل بعض القاطنين الأصليين بأى شكل من الأشكال، وذلك لأنه بترك المنطقة مفتوحة للهجرة، فإن هذه الأماكن نفسها سوف يستحوذ عليها الدخلاء . وفى مثل هذه الحالات فإنه سيكون هناك ميل إلى الاحتفاظ بالتعديلات الطفيفة، التى تحابى بأى طريقة الأفراد التابعين لأى نوع، عن طريق تحسين تكييفها مع ظروفها التى قد تم تعديلها، وسيكون للانتقاء الطبيعي حرية المجال للقيام بوظيفة التحسين .

لدينا سبب قوى يدفعنا إلى الإيمان، كما بينا فى الفصل الأول، بأن التغييرات فى ظروف الحياة تؤدي إلى ميل للزيادة فى القابلية للتمايز، وفى الحالات السابقة فإن الظروف قد تغيرت، وهذا سوف يكون ملائماً بصورة واضحة للانتقاء الطبيعي، وذلك بمنحه فرصة أفضل لحدوث التمايزات المفيدة . وإذا لم يحدث ذلك، فإن الانتقاء

الطبيعى لا يستطيع أن يقوم بشيء . وتحت تعبير أو مصطلح "تمايزات"^(١) ، يجب ألا ننسى إطلاقاً أنه يشمل حتى مجرد الاختلافات الفردية . وبما أن الإنسان يستطيع أن يخرج بنتيجة عظيمة مع حيواناته ونباتاته الداجنة بإضافة اختلافات فردية فى أى اتجاه محدد ، فكذاك يستطيع الانتقاء الطبيعى أن يقوم بنفس الشيء ، ولكن بسهولة أكبر بكثير من استغراق مثل هذا الوقت الطويل بشكل لا يقارن لإعطاء هذا التأثير ، وأنا لا أصدق أن أى تغيير طبيعى كبير فى المناخ مثلاً ، أو أى درجة غير عادية من الانعزال لضبط الهجرة ، هو شيء ضرورى من أجل ترك الأماكن الجديدة وغير المأهولة ، لكى يملؤها الانتقاء الطبيعى عن طريق تحسين بعض القاطنين الذين فى سبيلهم إلى التغيير ، فإنه بينما يتنازع جميع القاطنين فى كل قطر مع بعضهم البعض بقوى متوازنة بشكل حسن ، فإن أى تعديلات حتى ولو كانت غاية فى البساطة فى التركيب أو السلوكيات قد تحدث فى أحد الأنواع ، من شأنها غالباً أن تعطى هذا النوع ميزة على الآخرين ، وأى تعديلات إضافية من نفس النوع فى المستقبل سوف تزيد غالباً بشكل إضافى فى المستقبل من هذه الميزة ، مادام هذا النوع الحى قد استمر تحت تأثير نفس الظروف للحياة فى الاستفادة عن طريق الوسائل المماثلة من الموارد والدفاع . ومن غير المستطاع أن يذكر قطر واحد يوجد فيه حالياً جميع القاطنين الأصليين فى حالة تكيف كامل مع بعضهم البعض ومع الظروف المادية التى يعيشون فى ظلها ، إلى درجة أنه لا يوجد أحد منهم من الممكن أن يتكيف أو يتحسن بشكل أفضل فى المستقبل ، وذلك لأن القاطنين الأصليين فى جميع الأقطار قد تم اكتساحهم بواسطة المنتجات المتأقلمة ، إلى درجة أنهم سمحوا لبعض الأغراب بأن يستحوذوا على الأرض بشكل راسخ . وبما أن هؤلاء الأغراب الأجانب قد تغلبوا بهذا الشكل فى كل قطر على بعض من القاطنين الأصليين ، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج بأمان أن هؤلاء المستوطنين المحليين قد كان من الممكن تعديلهم بطريقة أفضل ، من أجل مقاومة الدخلاء بشكل أقوى .

وبما أن الإنسان يستطيع أن يحرز ، وبالتأكيد أنه قد أحرز نتائج باهرة عن

طريق وسائل المنهجية ووسائله اللاواعية فى الانتقاء ، فما الذى قد لا يستطيع الانتقاء الطبيعى أن يفعله ؟ - فالإنسان يستطيع أن يؤثر فقط على الصفات الخارجية والمرئية: أما الطبيعة ، إذا كان مسموحا لى بأن أتصور ما هو الاحتفاظ الطبيعى أو بقاء الأصلح على قيد الحياة ، فلا يهتمها شىء من المظاهر ، إلا فيما يتعلق بكونها مفيدة لأى كائن. وهى تستطيع التأثير على كل عضو داخلى، وعلى كل ظل من الاختلاف البدنى ، وعلى مجمل آليات الحياة . والإنسان ينتقى فقط لما فيه مصلحته: أما الطبيعة فتنتقى فقط لما فيه مصلحة الكائن الذى ترعاه . وهى تتعامل بالكامل مع كل صفة منتقاة كما تقتضيه الواقعية الخاصة باختيار هذه الصفات. والإنسان يربى مستوطنين معتادين على أجواء عديدة فى نفس القطر ، ومن النادر أن يتعامل مع كل صفة منتقاة ببعض الطرق الخاصة والمناسبة، فهو يقوم بتغذية الحمام ذى المنقار الطويل وذى المنقار القصير على نفس النوع من الطعام ، وهو لا يقوم بتدريب ربايعات الأرجل الطويلة الظهر أو الطويلة الأرجل بأى طريقة خاصة ، وهو يقوم بتعريض الأغنام ذات الصوف الطويل أو القصير لنفس المناخ . وهو لا يسمح لأشد الذكور فحولة بالتصارع حول الإناث . هو لا يدمر بشكل صارم كل الحيوانات الرديئة ، ولكنه يحمى جميع منتجاته ، أثناء كل فصل متغير ، إلى أبعد ما يكون فى قدرته . وهو كثيرا ما يبدأ انتقاه بشكل شبه شاذ ، أو على الأقل بأحد التعديلات البارزة والملفتة للنظر بشكل شاذ ، أو التى قد تكون مفيدة له بصورة واضحة . أما تحت تأثير الطبيعة ، فإن أبسط الاختلافات فى التركيب أو البنيان قد يسبب انقلابا فعليا للميزان المتوازن بشكل جيد فى التنازع من أجل الحياة ، وبهذا يتم الاحتفاظ بهذه الاختلافات . أما عن مدى تشبعت رغبات وجهود الإنسان !- ومدى القصر فى أجله!- وبالتالي مدى القصور الذى ستكون عليها نتائجه، بالمقارنة مع النتائج المتراكمة بواسطة الطبيعة فى خلال أحقاب جيولوجية كاملة !- فهل نستطيع عندئذ أن نتعجب ، من أن منتجات الطبيعة يجب أن تكون "أكثر مصداقية" فى الطابع عن منتجات الإنسان ، وأنها يجب أن تكون أفضل تكييفا بشكل لا نهائى مع أكثر ظروف الحياة تعقيدا ، وأنها يجب أن تحمل بوضوح بصمة الامتياز الفائق فى براعة الأداء .

وقد يقال على سبيل المجاز إن الانتقاء الطبيعي دائم التنقيب كل يوم وكل ساعة ،
فى جميع أرجاء العالم ، بحثاً عن أكثر التمايزات بساطة ، لافظاً ما هو ردىء منها ،
ومحتفظاً ومدخراً لكل ما هو جيد ، عاملاً بصمت وتمهل ، كلما وعندما تلوح له الفرصة ،
على إدخال التحسينات على كل كائن عضوى فيما يتعلق بظروف حياته العضوية
وغير العضوية . ونحن لا نرى شيئاً من هذه التغييرات البطيئة أثناء قيامها ، إلى أن
تترك يد الزمن علامات مرور العصور ، ويبدو أن ذلك هو نتيجة لعدم كمال نظرنا إلى
العصور الجيولوجية البالغة القدم ، فإننا لا نرى سوى أن الأشكال الحية مختلفة حالياً
عما كانت عليه فى الماضى .

ولكى ينتج أى قدر كبير من التعديل فى أحد الأنواع ، فإنه بمجرد تكوين أحد
الضروب فإنه يتعين عليه مرة أخرى ، ربما بعد فترة طويلة من الزمن ، أن يتغير أو أن
تظهر عليه اختلافات فردية لها نفس الطبيعة المواتية كما سبق ، وهذه الاختلافات
يتعين مرة أخرى المحافظة عليها ، وهكذا يستمر الحال خطوة بخطوة . وبمشاهدة أن
الاختلافات الفردية التى من نفس النوع تعود للظهور بشكل متكرر ، فإنه من الصعب
اعتبارها كافتراض بدون مبرر . ولكن عما إذا كان هذا شيئاً حقيقياً ، فإننا نستطيع
الحكم عليه فقط عن طريق رؤية إلى أى مدى يتوافق هذا الافتراض مع ، ويفسر
الظواهر العامة الخاصة بالطبيعة . وعلى الجانب الآخر ، فإن الاعتقاد المعتاد بأن مقدار
التمايز الممكن هو كمية محددة بشكل صارم فإنه بالمثل افتراض ساذج .

وبالرغم من أن الانتقاء الطبيعى يستطيع أن يؤثر فقط من خلال ومن أجل الخير
لكل كائن ، إلا أن الصفات والتراكيب ، التى نحن نميل إلى اعتبار أنها ذات فائدة
تافهة جداً ، من الممكن التأثير عليها بهذا الشكل . فعندما نرى الحشرات الآكلة لأوراق
الشجر^(١) لونها أخضر ، والمقتاتة على لحاء الشجر^(٢) بلون رمادى مبرقش ، وطائر

Leaf eating insects

Bark - feeder

(١) حشرات آكلة لأوراق الشجر

(٢) مقتاتة على لحاء الشجر

الترمجان الألبى^(١) لونه أبيض في الشتاء ، وطائر الطهيوغ الأحمر^(٢) بلون نبات الخلنج^(٣) ، فإننا يجب أن نؤمن بأن هذه الدرجات من اللون ذات فائدة لهذه الطيور والحشرات للحفاظ عليها من الخطر . وطيور الطهيوغ إذا لم يتم إهلاكها عند فترة معينة من حياتها فإنها سوف تتزايد بأعداد غير قابلة للعد ، ومن المعلوم عنها معاناتها بشكل كبير من الطيور المفترسة، وأن الصقور تنقاد عن طريق الإبصار إلى فراشها - إلى درجة أنه في مناطق من القارة الأوروبية يتم إنذار الأشخاص من تربية الحمام الأبيض ، على أساس أنه الأكثر قابلية للهلاك . ومن ثم ، فإن الانتقاء الطبيعي قد يكون مؤشرا بمنح اللون المناسب لكل نوع من أنواع طيور الطهيوغ ، وفي الاحتفاظ بهذا اللون ، بمجرد اكتسابه ، بشكل صحيح ودائم . ويجب علينا أيضاً ألا ننظر أن الهلاك العارض لحيوان ما ذي لون معين سوف يحدث تأثيراً ضئيلاً : فإنه يجب علينا أن نتذكر كيف أنه من الضروري في قطيع من الأغنام البيضاء القضاء على الحمل^(٤) الذي لديه أي أثر من السواد . وقد رأينا كيف أن لون الخنازير^(٥) ، التي تتغذى على نبات الصابوغ^(٦) ، والتي تعيش في ولاية فرجينيا ، هو الذي يقرر ما إذا كانت سوف تحيا أو تموت . وفي النباتات فإن الزغب^(٧) الذي يوجد على الثمرة واللون الخاص باللب^(٨) يتم اعتبارها بواسطة خبراء في علم النبات على أنها صفات ذات أهمية غاية في التفاهة : مع أننا نسمع من خبير ممتاز في البساتين وهو " داوننج " **Downing** ، أنه وجد في الولايات المتحدة ، أن الثمار ذات الجلد الناعم تعاني بصورة أكبر بكثير من أحد أنواع الخنافس وهي خنفساء الفاكهة^(٩) ، عن الثمار المغطاة بالزغب ، وأن

Alpine Ptarmigan	(١) طائر الترمجان بجبال الألب : طائر من رتبة الدجاج في الأصقاع
Red Grouse	(٢) طائر الطهيوغ الأحمر : طائر من رتبة الدجاج
Heather	(٣) الخلنج = حشيشة المكسة : نبات منقط أو مرقط بألوان مختلفة
Lamb	(٤) حمل : الصغير من الغنم
Hog	(٥) خنزير
Paint - root	(٦) جنور نبات الصابوغ
Down	(٧) زغب
Flesh	(٨) لب النباتات والثمار
Curculio	(٩) خنفساء الفاكهة

البرقوق الأرجوانى^(١) يعانى بصورة أكبر بكثير من مرض معين من البرقوق الأصفر ، بينما يوجد مرض آخر يهاجم الخوخ ذا اللب الأصفر^(٢) بصورة أكبر بكثير من الخوخ الذى لبه نولون آخر . وإذا كانت هذه الاختلافات البسيطة ، مع كل المساعدات الخاصة بالمهنة ، تمثل اختلافا كبيرا فى زراعة الضروب العديدة المختلفة، فإنه من المؤكد ، فى البيئة الطبيعية ، وعندما تكون الأشجار مضطرة إلى التنازع مع أى أشجار أخرى ، ومع حشد من الأعداء ، فإن هذه الاختلافات هى التى سوف تحسم تماما أى من الضروب ، سواء كان ناعما أو ذا زغب ، أصفر أو أرجوانى اللب ، هو الذى سوف يتفوق.

وعند النظر إلى العديد من النقاط الصغيرة للاختلاف بين الأنواع التى قد تبدو غير مهمة إطلاقا إلى الحد الذى يسمح لنا به جهلنا بالتقدير ، فإننا يجب ألا ننسى أن المناخ ، والغذاء وخلافه ، قد أحدثا بونون شك بعض التأثير المباشر . ومن الضرورى أيضا أن نضع نصب أعيننا أنه طبقا لقانون العلاقة المتبادلة^(٣) ، فإنه عندما يتمايز أحد الأجزاء ، وتتراكم التمايزات من خلال الانتقاء الطبيعى ، فغالبا ما سوف ينتج عن ذلك شىء نو طبيعى أبعد ما تكون عن التوقع.

وكما نرى فإن هذه التمايزات التى تظهر تحت تأثير التدجين عند أى مرحلة معينة من الحياة ، تميل إلى العودة للظهور فى الذرارى عند نفس المرحلة – وعلى سبيل المثال، فى الشكل ، والحجم ، والرائحة الخاصة بالبذور التابعة للضروب الكثيرة الخاصة بنباتاتنا المأكولة والزراعية ، وفى مراحل اليسروع والشرنقة الخاصة بالضروب الخاصة بدودة الحرير ، وفى بيض الدجاجيات ، وفى اللون الخاص بزغب أفراخنا ، وفى القرون الخاصة بأغنامنا ومواشينا عندما تصبح قريبة من الوصول إلى سن النضج – وهكذا فإنه فى البيئة الطبيعية ، فإن الانتقاء الطبيعى سوف يمكنه أن يؤثر ويقوم بتعديل الكائنات العضوية عند أى مرحلة من العمر ، عن طريق تكديس

Purple Plums

Yellow-Fleshed Peaches

Law of Correlation

(١) البرقوق الأرجوانى = الأحاص *

(٢) الخوخ نو اللب الأصفر *

(٣) قانون العلاقة المتبادلة

التمييزات المفيدة عند هذه المرحلة من العمر ، وبواسطة توارثها عند مرحلة عمر متطابقة . وإذا كانت هناك فائدة لنبات ما فى أن تكون بذوره أكثر فأكثر انتشارا عن طريق الريح ، فأنا لا أرى أن هناك صعوبة زائدة فى أن يحدث ذلك من خلال الانتقاء الطبيعى ، عما يحدث فى حالة زيادة زارع القطن وتحسينه عن طريق الانتقاء للزغب الموجود فى القرنات^(١) التى على أشجار القطن الخاصة به . والانتقاء الطبيعى قد يقوم بتعديل وتكييف اليرقانة الخاصة بإحدى الحشرات إلى حدود غير متوقعة ، مختلفة تماما عن تلك التى قد تكون محل اهتمام الحشرة التامة للنمو ، وهذه التعديلات قد تؤثر ، عن طريق العلاقة المتبادلة على تركيب الحشرة البالغة . وكذلك ولكن بشكل مضاد ، فإن التعديلات التى تحدث فى الحشرة البالغة قد تؤثر على تركيب اليرقانة ، ولكن فى جميع الحالات فإن الانتقاء الطبيعى سوف يكفل أن هذه التعديلات لن تكون مضره ، لأنها إذا كانت بهذا الشكل ، فإن النوع سوف يكون مصيره الانقراض .

الانتقاء الطبيعى سوف يقوم بتعديل التركيب الخاص باليافاع فيما يتعلق بالوالدين، وبالوالدين فيما يتعلق باليافاع ، وفى الحيوانات الاجتماعية فإنه سوف يكيف التركيب الخاص بكل فرد لما فيه فائدة للمجتمع ككل . وما لا يستطيع الانتقاء الطبيعى القيام به ، هو أن يقوم بتعديل التركيب الخاص بنوع واحد ، بدون منحه أى ميزة ، لصالح نوع آخر ، ومع أن التصريحات التى بهذا المعنى من الممكن العثور عليها فى أعمال التاريخ الطبيعى ، إلا أننا لا نستطيع أن نعثر على حالة واحدة قد تحتمل الاستقصاء . وأى تركيب ما يستخدم لمرة واحدة فى خلال فترة حياة حيوان ، إذا كان ذا أهمية عالية له ، قد يتم تعديله إلى أى مدى عن طريق الانتقاء الطبيعى ، ونسرد على سبيل المثال: الفكوك العظيمة التى تحوزها بعض الحشرات المعينة، والتى تستخدم على وجه القصر لفتح الشرنقة - أو الطرف الصلب من منقار الطيور التى لم تفسس بعد ، والذى يستخدم لكسر البيضة . وقد تم التأكد من أن الأعداد التى تهلك بداخل البيض من ضمن أفضل أصناف الحمام البهلوانى القصير المنقار^(٢) هى أكبر من

Pods

Short-Beaked Tumbler-Pigeons

(١) قرنات

(٢) الحمام البهلوانى القصير المنقار

عدد التي تستطيع الخروج منها ، ولهذا فإن الهواة يقومون بمساعدة هذا النوع من الحمام فى عملية الفقس من البيض . وفى حالة إذا كان لابد للطبيعة من أن تصنع المنقار الخاص بحمامة مكتملة النمو بشكل قصير جداً وذلك من أجل منح ميزة للطائر ، فإن عملية التعديل سوف تصبح فى منتهى البطء ، وسوف يكون هناك فى نفس الوقت عملية انتقاء فى منتهى الصرامة لجميع الطيور اليافعة بداخل البيضة ، لتلك التي لديها المناقير الأكثر قوة وصلابة ، وذلك لأن جميع من لديها منقار ضعيف سوف تندثر ، أو قد يتم انتقاء قشر البيض الأكثر رقة والأسهل فى الكسر ، وذلك لأنه من المعروف عن سمك هذه القشرة أنه يتغير مثل كل تركيب آخر .

وقد يكون من المستحسن هنا أن نذكر ملحوظة ، وهى أنه لابد أن يكون هناك مع جميع الكائنات الحية ، الكثير من الإهلاك الذى يحدث بالصدفة ، والذى يستطيع أن يكون له تأثير قليل أو لا يكون له أى تأثير على مسار الانتقاء الطبيعى . فعلى سبيل المثال : فإن هناك عددا ضخما من البيض أو البنور يتم التهامه كل عام ، ومن الممكن تعديل هذه المنتجات من خلال الانتقاء الطبيعى فقط إذا ما حدث لها تغيير بشكل ما يحميها من أعدائها . ومع ذلك فالكثير من البيض أو البنور ربما كانت سوف تنتج ، إذا لم يتم القضاء عليها ، أفراداً متكيفة بطريقة أفضل على ظروفها الحياتية أكثر من تلك التي حدثت وبقيت على قيد الحياة . وكذلك فإن عدداً ضخماً من الحيوانات والنباتات التامة النمو ، سواء كانت الأفضل تكيفا مع ظروفها أم لا ، من المحتم أن يتم إهلاكها سنويا عن طريق أسباب عارضة ، وهذا العدد لن يتم تخفيضه إلى أى درجة أقل بواسطة إحداث بعض التغييرات المعينة فى التركيب أو البنيان ، التي قد تكون بطرق أخرى مفيدة للنوع . ولكن لندع الإهلاك للبالغين ليكون فى أشده ، إذا كان العدد الذى فى استطاعته التواجد فى أى منطقة لا يمكن أن يبقى منخفضا بشكل كلى عن طريق مثل هذه الأسباب - أو مرة أخرى ، دع الإهلاك للبيض والبنور يكون بهذا القدر الكبير إلى حد أن جزءاً من مائة أو جزءاً من ألف منها سوف ينمو - وحتى من ضمن تلك التي سوف تبقى على قيد الحياة ، فإن الأفراد الأفضل تكيفا ، مع الافتراض أن هناك قابلية للتمايز فى اتجاه مواتى ، سوف تميل إلى الإكثار من صنفها بأعداد ضخمة عن تلك التي هى أقل منها فى حسن التكيف . وإذا ما تم الاحتفاظ

بالأعداد فى مجموعها منخفضة عن طريق الأسباب التى قد تمت الإشارة إليها الآن ، وكما سوف يصير إليه الحال فى كثير من الأحيان ، فإن الانتقاء الطبيعى سوف يصبح عديم القدرة فى بعض الاتجاهات المفيدة المعينة ، ولكن هذا اعتراض ليس له قيمة على كفايته فى أوقات أخرى ويطرق أخرى ، وذلك لأننا بعيديون كل البعد عن أن يكون لدينا أى سبب لافتراض أن العدد الكبير من الأنواع قد يخضع لحدوث تعديل وتحسين فى نفس الأوان وفى نفس المكان .

الانتقاء الجيسى (*)

فيما يتعلق بأن بعض الصفات الخاصة كثيراً ما تظهر تحت تأثير التدجين ، فى أحد الشقين الجنسيين ، وتصبح مرتبطة وراثياً بهذا الشق الجيسى ، فلا شك فى أنها سوف تظهر بهذا الشكل تحت تأثير الطبيعة . وهكذا فإنه يصبح من الممكن للشقين الجنسيين أن يتعدلا من خلال الانتقاء الطبيعى فيما يتعلق بعادات الحياة المختلفة ، كما هو الحال أحيانا ، أو لشق جنسى واحد أن يتعدل بالنسبة إلى الشق الجيسى الآخر ، كما يحدث عادة . وهذا يقودنى إلى أن أصرح ببعض كلمات عما سميتها "الانتقاء الجيسى" . فهذا النوع من الانتقاء لا يعتمد على تنازع من أجل البقاء على قيد الحياة فيما يتعلق بالكائنات العضوية الأخرى ، أو بالظروف الخارجية ، ولكنه يعتمد على تنازع بين الأفراد التابعين لشق جنسى واحد ، وهو عادة الذكور ، من أجل الاستحواذ على الشق الجيسى الآخر . والنتيجة ليست هى الموت للمنافس الذى يفشل ، ولكنها تنحصر فى إنجاب القليل من الذرارى أو عدم الإنجاب . ولهذا السبب فإن الانتقاء الجيسى يكون أقل صرامة من الانتقاء الطبيعى . وعادة فإن أكثر الذكور قوة ،

(*) بما أن كلمة "جنس" باللغة العربية تستخدم عادة للكناية عن التناسل وعن شق من شقى الكائنات المنقسمين من أجل التناسل إلى ذكر وأنثى ، إلا أن نفس الكلمة تستخدم للكناية عن قسم كبير من شجرة الحياة " Genus " . والتي قصرنا تعريبها على مصطلح "طبقة" ، كما قصرنا استخدام مصطلح "عرق" على " Race " . ولنتجنب اللبلة فقد دأبنا على استخدام تعبير " الشق الجيسى " للكناية عن نوع الفرد من كونه مذكرا أو مؤنثا .

والذين هم الأفضل ملائمة لشغل أماكنهم فى الطبيعة ، سوف يتركون خلفهم معظم الذرارى . ولكن النصر لا يعتمد كثيرا فى حالات كثيرة على القوة العامة ، بقدر اعتماده على الحيازة لأسلحة خاصة مقصورة على الشق الجنسى الذكرى . فإن أحد الأيائل^(١) بدون قرون ، أو ديك بدون شوكة فى ساقه^(٢) ، سوف يكون لدهما فرصة ضئيلة لأن يتركا وراءهما العديد من الذرارى ، فالانتقاء الجنسى عن طريق السماح دائما للمنتصر بأن يتوالد، فإنه يعطى بالتأكيد شجاعة لا تقهر ، وطولا لشوكة الساق ، وقوة للجناح لكى يضرب فى الساق ذات الشوكة ، تقريبا بنفس الطريقة التى يتبعها مصارع الديوك^(٣) القاسى فى الانتقاء الدقيق لأفضل الديوك لديه . وأنا لا أعلم شيئا عن المدى الذى ينحدر إليه قانون القتال فى ميزان الطبيعة ، فذكور التماسيح الأمريكية^(٤) وصفت بأنها تتقاتل وتخور وتتقلب ، ويخورون ، ويتقلبون ، مثل الهنود (الحمير) فى رقصة الحرب ، وذلك من أجل الاستحواذ على الإناث ، وذكور أسماك السلمون قد تمت مشاهدتها وهى تصارع طوال اليوم ، وذكور الخنافس من نوع الحنظب^(٥) تصاب أحيانا بجروح ناتجة عن الفكوك الهائلة التى لدى الذكور الأخرى ، وذكور بعض الحشرات الغشائية الأجنحة^(٦) قد تمت مشاهدتها بصورة متكررة بواسطة هذا المراقب الذى لا يضاهاى " م . فابر " **M. Fabre**، وهى تتقاتل على أنثى معينة ، كانت فى الجوار وتبدو وكأنها غير مهتمة بالنزاع الدائر حولها ، ثم انسحبت بعده مع المنتصر. وربما تكون الحرب على أقصى الدرجات بين ذكور الحيوانات المتعددة التزاوج^(٧) ، والتى يبدو أنها كثيرا ما تكون مزودة بأسلحة خاصة . فذكور الحيوانات الآكلة للحوم هى بالفعل مسلحة بشكل جيد ، وبالرغم من ذلك ، فإنه من

Stag	(١) أيل
Spur	(٢) شوكة فى ساق الديك = منخاس = مهماز
Cock fighter	(٣) مصارع الديوك
Alligator	(٤) التماسيح الأمريكية = القاطور
Stag-Beetle	(٥) الحنظب : ضرب من الخنافس لذكوره فكان طويلان شبيهان بقرون الأيائل
Hymenopterous insects	(٦) الحشرات غشائية الأجنحة
Polygamous	(٧) متعددة التزاوج

الممكن منح وسائل خاصة للدفاع ، سواء لها أو لغيرها ، من خلال الانتقاء الجنسي ، مثل المعرفة^(١) الخاصة بالأسد ، والفك المعقوف لذكر سمك السلمون ، وذلك لأن الدرع قد تكون على نفس الدرجة من الأهمية ، مثل السيف أو الرمح .

أما فيما بين الطيور ، فإن المباراة غالبا ما تأخذ شكلا سلميا . وجميع الذين قد اهتموا بهذا الموضوع يؤمنون بوجود أقصى درجات التنافس بين الذكور التابعة لكثير من الأنواع لجذب الإناث عن طريق الغناء . فنجد أن الدج الصخري^(٢) الموجود في "جيانا" **Guiana** ، وطيور الجنة^(٣) ، والبعض الآخر من الطيور المغردة ، تحتشد ، وتتتابع الذكور في العرض بمنتهى العناية التامة ، وفي التباهى بأفضل طريقة بريشها الرائع ، وهي تقوم كذلك بتقديم استعراضات غريبة أمام الإناث ، التي تقف على مقربة كمشاهدات ثم تقوم في النهاية باختيار الشريك الأكثر جاذبية . وهؤلاء الذين قاموا بالمراقبة عن كثب للطيور في محابسها ، يعلمون جيدا أن لها في كثير من الأحيان ميولا فردية للتفضيل والكرهية: وهكذا فإن " السيد ر. هيرون " **Sir R. Heron** قد وصف طاووسا متعدد الألوان^(٤) كان جذاباً بشكل بارز لجميع إناث الطيور الخاصة به . وأنا لا أستطيع أن أدخل هنا في التفاصيل اللازمة ، ولكن إذا كان الإنسان يستطيع في وقت قصير أن يعطي الجمال والقامة الأنيقة إلى دجاجاته من فصيلة البنطم^(٥) ، بناء على معايير الجمالية ، فأنا لا أرى أى سبب وجيه للشك في أن إناث الطيور ، قد تُحدث تأثيرا واضحا عن طريق الانتقاء ، وفي خلال الآلاف من الأجيال ، لأكثر الذكور رخامة في الصوت أو جمالا ، بناء على معاييرها الخاصة بالجمال . وبعض القوانين المعروفة جيدا ، فيما يتعلق بريش الذكر والأنثى من الطيور ، بالمقارنة بريش الطيور اليافعة ، يمكن تفسيرها جزئيا من خلال مفعول الانتقاء الجنسي على التمايزات التي تحدث عند فترات مختلفة من العمر ، وتم انتقالها إلى الذكور فقط ، أو إلى كل من

Mane

Rock - Thrush

Birds of Paradise

Pied Peacock

Bantam

(١) معرفة : الشعر الذى على العنق

(٢) طائر الدج الصخري = السمعة الصخري *

(٣) طيور الجنة = طيور الفريوس *

(٤) طاووس متعدد الألوان = طاووس أرقط *

(٥) البنطم : دجاج صغير الحجم

الشقين الجنسيين عند فترات متطابقة من العمر ، ولكنى لا أملك مساحة كافية هنا للدخول فى هذا الموضوع .

وهكذا فالأمر كما أعتقد أنه عندما تكون الذكور والإناث التابعة لأى حيوان لديها نفس سلوكيات الحياة العامة ، ولكنها تختلف فى التركيب ، أو اللون ، أو الزينة ، فإن مثل هذه الاختلافات تكون قد نتجت أساسا عن طريق الانتقاء الجيسى: وهذا يعنى ، عن طريق أن أفراداً من الذكور قد حازت ، خلال أجيال متعاقبة ، على ميزة بسيطة ما أكثر من الذكور الأخرى، فيما يتعلق بأسلحتها ، أو طرق دفاعها ، أو مفاتها ، والتي قد قامت بنقلها إلى ذريتها من الذكور فقط . ومع ذلك ، فأنا لا أريد أن أعزو جميع الاختلافات فى الشقين الجنسيين إلى هذا العامل ، وذلك لأننا نرى فى حيواننا الداجنة بعض الخواص التى تنشأ وتصبح مرتبطة بالشق الجيسى الذكرى ، والتي من الواضح أنه لم تحدث بها زيادة عن طريق الانتقاء بواسطة الإنسان . فخصلة الشعر^(١) الموجودة على صدر الديك الرومى الوحشى لا يمكن أن يكون لها فائدة ، ومن المشكوك فيه أنها كان من الممكن أن تبسو كشيء زخرفى فى عيون أنثى الطائر ، -ومن المؤكد أنه لو كانت هذه الخصلة قد ظهرت تحت تأثير التدجين ، فإنه قد كان من المحتم أن يقال عنها إنها ظاهرة شاذة.

أمثلة موضحة خاصة بمفعول الانتقاء الطبيعى ، أو البقاء للأصلح

من أجل توضيح ، كيف يعمل الانتقاء الطبيعى ، حسب اعتقادى فأنا أستطيع الإذن فى تقديم واحد أو اثنين من الأمثلة الموضحة المتخيلة . دعنا نأخذ حالة أحد الذئاب الذى يعيش على افتراس حيوانات مختلفة ، مقتنصا البعض بواسطة المهارة ، والبعض بواسطة القوة ، والبعض بواسطة السرعة ، ودعنا نفترض أن أسرع فريسة ، ولتكن أحد أنواع الأيائل مثلاً ، قد زادت أعداده نتيجة لحوث أى تغير فى الإقليم ، أو أن نوعا آخر من الفرائس قد تقلصت أعداده، فى أثناء هذا الفصل من السنة عندما

Tuft of hair

(١) خصلة الشعر

كان الذئب محتاجا بشدة إلى الغذاء. فتحت هذه الظروف فإن الذئب الأكثر سرعة والأشد نحافة سوف تكون هي التي سوف تحصل على أفضل الفرص للبقاء على قيد الحياة وعلى أن يتم الحفاظ عليها أو انتقاؤها - وذلك بشرط أنها سوف تحتفظ دائماً بقوتها للسيطرة على فرائسها فى هذه الفترة أو فى أى فترة أخرى من السنة ، عندما تكون مضطرة لافتراس حيوانات أخرى . وأنا لا أستطيع أن أرى سببا أكثر للشك فى أن هذه هي النتيجة ، يزيد عن أن الإنسان يجب أن يكون قادرا على تحسين سرعة كلابه السلوقية عن طريق الانتقاء الدقيق والمنهجي ، أو عن طريق هذا النوع من الانتقاء اللواعى الذى ينبع من أن كل إنسان يحاول أن يحتفظ بأفضل الكلاب بدون أى تفكير فى القيام بتعديل السلالة . وقد يعن لى أن أضيف أنه بناء على تصريح من "السيد بيرس" **Mr. Pierce** فإنه يوجد ضربان من الذئب التى تقطن جبال كاتسكيل **Catskill Mountains** بالولايات المتحدة ، أحدهما له شكل مشابه للكلب السلوقى ، وهو الذى يطارد الأيائل ، والآخر أكثر ضخامة وأقصر أرجلا ، وهو الذى يهاجم دائماً قطعان الرعاة .

ومما يجب ملاحظته هو أننى فى المثال الموضح السابق ، فإننى أتكلم عن أكثر الذئب الفردية نحافة، وليس عن أى تمايز منفرد من التمايزات الملحوظة بشدة ، والتى قد تم الحفاظ عليها. وقد حدث فى الطبقات السابقة لهذا الكتاب أننى قد تكلمت فى بعض الأحيان ، كما لو كان البديل الأخير هو الذى حدث بشكل متكرر . وأنا قد رأيت الأهمية الكبيرة للاختلافات الفردية ، وهذا ما قادنى بالكامل إلى مناقشة نتائج الانتقاء اللواعى عن طريق الإنسان ، والذى يعتمد على الحفاظ على جميع الأفراد ذات القيمة تقريبا ، وعلى الإهلاك للردىء منها. وقد رأيت أيضاً أن الحفاظ فى البيئة الطبيعية على أى انحراف عارض فى التركيب ، مثل ظهور حالة شاذة ، سوف يكون حادثاً نادراً ، وأنه إذا تم الاحتفاظ بهذا الانحراف فى أول الأمر ، فإنه فى العادة سوف يتم التخلص منه من خلال التهاجن المتبادل المستقبلى مع أفراد عاديين . وبالرغم من ذلك ، فإلى أن قرأت مقالا بارعا وقيما فى مجلة "مراجعة شمال بريطانيا" **North British Review** (١٨٦٧) ، لم أكن أقدر كيف أنه من النادر استطاعة جعل التمايزات الفردية دائمة ، سواء كانت مثل هذه التمايزات بسيطة أو ملحوظة بشدة . وقد أخذ الكاتب حالة زوج

من الحيوانات الذى ينتج خلال فترة حياته مائتين من الذرارى ، ونتيجة لأسباب الهلاك المختلفة ، فإنه يبقى على قيد الحياة منها اثنان فقط فى المتوسط ، للعمل على الحفاظ على توالد نوعها. وهذا فى الواقع تقدير مبالغ فيه بالنسبة لمعظم الحيوانات العليا ، ولكنه ليس كذلك إطلاقاً بالنسبة إلى الكثير من الكائنات الدنيئة. ثم بعد ذلك فهو يبين أنه إذا حدث وولد فرد واحد، وتمايز هذا الفرد بطريقة ما ، تعطيه ضعف الفرصة الجيدة للحياة أكثر من فرص الأفراد الآخرين، إلا أن فرص عدم بقائه على قيد الحياة سوف تكون قوية . ولنفترض أنه قد عاش وأنه قد توالد ، وأن نصف صغاره قد ورثت هذا التمايز المفيد - وما زال الكاتب مستمرا فى بيانه - فإن الصغار سوف يكون لديها فرصة أفضل قليلاً فقط للبقاء على قيد الحياة وعلى التوالد ، وهذه الفرصة سوف تستمر فى التناقص فى الأجيال التالية . والدقة فى هذه الملاحظات لا يمكن - كما أعتقد- أن يطعن فيها أحد . وعلى سبيل المثال ، إذا استطاع طائر ما من أى صنف الحصول على غذائه بطريقة أسهل عن طريق أن يكون منقاره مقوساً ، وإذا حدث وولد طير له منقار مقوس بشدة ، وبالتالي فقد ازدهرت أحواله ، فبالرغم من ذلك ، فإنه سوف تكون هناك فرصة ضئيلة جداً لهذا الفرد الوحيد للإكثار من صنفه إلى حد استبعاد الشكل المعتاد ، ولكنه من الصعب أن يكون هناك شك ، بناء على ما نشاهده يحدث تحت تأثير التدجين ، فى أن هذه النتيجة سوف تكون نتيجة المحافظة فى خلال أجيال كثيرة على عدد كبير من الأفراد الذين يتمتعون بالمناكير المقوسة بشدة ، ومن الإهلاك لعدد أكبر من الأفراد ذات المناكير الأكثر استقامة .

ومع ذلك يجب عدم إغفال أن بعض التمايزات المعينة الملحوظة بشدة ، والتي قد لا يعتبرها أى إنسان إلا على أساس أنها مجرد اختلافات فردية ، إلا أنها تعود للظهور بكثرة نتيجة لأن تعضية مماثلة قد تم التأثير عليها بنفس الطريقة - ومن الممكن أن يساق العديد من الأمثلة ، على هذه الحقيقة ، فى نطاق منتجاتنا الداجنة . وفى مثل هذه الحالات ، فإن الفرد المتمايز إذا لم ينقل بالفعل إلى ذريته طابعه الذى قد اكتسبه حديثاً ، فإنه بدون شك سوف ينقل إليها ، مادامت الظروف الموجودة مازالت على ما هى عليه ، قابلية أقوى للتمايز بنفس الطريقة . ويوجد أيضاً شك قليل فى أن القابلية للتمايز بنفس الطريقة كانت فى أحوال كثيرة قوية إلى درجة أن جميع الأفراد

التابعين لنفس النوع قد حدث لهم تعديل بنون المساعدة من أى شكل من أشكال الانتقاء . أو قد يحدث تأثير بهذا الشكل على واحد من كل ثلاثة ، أو واحد من كل خمسة ، أو واحد من كل عشرة من الأفراد ، ومن المستطاع إعطاء الكثير من الأمثلة على هذه الحقيقة . وهكذا فإن "جرابا" **Graba** يقدر أن حوالى واحد من كل خمسة من طيور الغلموت^(١) الموجودة فى "جزر فارو" **Faroe Islands**، مطابق لأحد الضروب المشهورة جداً ، إلى درجة أنه قد كان يصنف سابقاً على أساس أنه نوع متباين تحت مسمى "يوريا لاكريمانس"^(٢) . والحالات التى من هذا الصنف، إذا كان التمايز له طبيعة مفيدة ، فإن الشكل الأصيل سوف يتم اغتصاب مكانه بواسطة الشكل المعدل ، وذلك من خلال البقاء للأصلح .

وسوف أعود مضطراً إلى تأثيرات التهجن المتبادل على التخلص من التمايزات بجميع أنواعها ، ولكن الشيء الذى قد يلاحظ هنا، هو أن معظم الحيوانات والنباتات تلتزم بالبقاء فى مواطنها الأصلية ، ولا تتجول فى كل مكان بدون داع ، ونحن نرى ذلك حتى فى الطيور المرتحلة، والتى غالباً ما تعود دائماً إلى نفس البقعة . وبالتالي فإن كل ضرب حديث التكوين سوف يكون فى العادة محلياً فى أول الأمر، ويبدو أن ذلك هو القاعدة العامة للضروب فى البيئة الطبيعية، وبالمثل فإن الأفراد المعدلة سريعاً ما سوف تتواجد معاً فى جماعة صغيرة، وغالباً ما سوف تتوالد فيما بينها. وإذا خرج الضرب الجديد منتصراً فى معركة من أجل الحياة، فإنه سوف ينتشر ببطء من منطقة مركزية، منافساً ومنتغلباً على الأفراد التى لم تتغير الموجودة على الحواف الخاصة بدائرة دائمة الاتساع.

وقد يكون من الجدير أن أعطى مثالا موضحا آخر أكثر تعقيدا عن المفعول الخاص بالانتقاء الطبيعى : فإن بعض النباتات المعينة تفرز رحيقا حلو المذاق ، ويبدو أن ذلك من أجل التخلص من شىء ضار موجود بالنسج^(٣) ، وهذا يحدث على سبيل

Guillemot

Uria lacrymans

Sap

(١) طائر الغلموت : طائر من طيور البحار الشمالية

(٢) طائر يوريا لاكريمانس

(٣) النسج : سائل يجرى فى أوعية النباتات

المثال بواسطة عدد موجودة عند قواعد الأذنان^(١) فى بعض البقوليات، وعلى ظهور أوراق نبات الغار^(٢) الشائع، وهذا الرحيق ، مع أنه قليل الكمية ، إلا أن الحشرات تقبل عليه بنهم ، ولكن ترددها على النبات لا يفيد به أى شكل من الأشكال . والآن ، دعنا نفترض أن العصير أو الرحيق كان يتم إفرازه من داخل الأزهار الخاصة بعدد معين من النباتات التابعة لأى نوع . فإن الحشرات فى أثناء سعيها وراء الرحيق سوف يتم تلوثها باللقاح ، وسوف تنقله فى الغالب من زهرة إلى أخرى . والزهور الخاصة بفردين متباينين من الأفراد التابعة لنفس النوع سوف تتهاجن بهذا الشكل ، وعملية التهجين ، كما يمكن إثباته تماما ، سوف تؤدى إلى نباتات صغيرة قوية ، والتي بناء عليه سوف يكون لديها أفضل فرصة للزدهار والبقاء على قيد الحياة . والنباتات التى قد أنتجت زهورا مزودة بالغدد أو مفرزات الرحيق^(٣) الأكبر فى الحجم ، التى تفرز أكبر كمية من الرحيق ، سوف تتردد عليها الحشرات بشكل أكبر ، وسوف تتهاجن بشكل أكبر ، وبهذا الشكل فإنها على المدى البعيد سوف تكون لها اليد العليا وسوف تصبح ضربا محليا . وأيضا فإن الأزهار التى نجد أن أسديتها^(٤) ومدقاتها^(٥) موضوعة فى أماكن لها علاقة بحجم وسلوكيات هذه الحشرات الخاصة التى تتردد عليها ، وذلك من أجل التشجيع بأى درجة من الدرجات على انتقال اللقاح ، سوف تكون ذات ميزة بالمثل . وقد يكون فى استطاعتنا أن نأخذ حالة الحشرات التى تتردد على الزهور من أجل جمع اللقاح بدلا من الرحيق ، وبما أن اللقاح يتكون بغرض التلقيح وحده ، فيبدو أن تدميره خسارة بسيطة للنبات ، ومع ذلك فإنه إذا تم حمل القليل من اللقاح ، بين الفينة والأخرى فى أول الأمر ، ثم بصورة معتادة ، بواسطة الحشرات الملتزمة للقاح ، من زهرة إلى زهرة ، وتحقق نوع من التهاجن بهذا الشكل ، فبالرغم من أن تسعة أعشار اللقاح قد تم تدميره ، فإنه قد يكون مازال هناك مكسب

Stipule	(١) الأذنة = الزنمة : زائدة ورقية مزبوجة فى قاعدة معلق الورقة
Lourel	(٢) نبات الغار
Nectaries	(٣) مفرزات الرحيق *
Stamen	(٤) السداة : العضو الذكري فى الزهرة
Pistils	(٥) المدقة : عضو التانيث فى النبات

للنبات أكبر من أن يستلب منه بهذا الشكل ، والأفراد التي قد أنتجت مقداراً أكبر
فاكبر من اللقاح ، والتي لديها مثابر^(١) أكبر ، هي التي سوف يتم انتقاؤها .

وعندما أصبح نباتنا ، عن طريق العملية المستمرة الطويلة السابق وصفها ، جذاباً
بصورة شديدة للحشرات ، فإنها سوف تقوم ، بشكل غير مقصود من جانبها ، بحمل
اللقاح بصورة منتظمة من زهرة إلى أخرى ، وستقوم بذلك بشكل فعال ، أستطيع
بسهولة أن أوضحه بواسطة العديد من الحقائق المدهشة . وأنا سوف أقوم بتقديم
حقيقة واحدة فقط منها ، كمثال يوضح خطوة واحدة في سبيل التفرقة بين الشقين
الجنسيين للنباتات . فإن بعض النباتات من أشجار البهشية^(٢) تحمل زهوراً مذكرة
فقط ، والتي تحتوى على أربعة أسدية تنتج كمية قليلة إلى حد ما من اللقاح ، ومدقة
غير مكتملة^(٣) . وأشجار بهشية أخرى تحمل زهوراً مؤنثة فقط ، وهذه لديها مدقة
كاملة الحجم ، علاوة على أربعة أسدية بمثابر زاوية ، والتي لا يمكن أن نتبين وجود أى
حبة من اللقاح بها . وعندما وجدت شجرة مؤنثة على بعد ستين ياردة فقط بالضبط من
شجرة مذكرة ، قمت بوضع المياسم الخاصة بعشرين زهرة ، والتي كنت قد التقطتها
من فروع مختلفة ، تحت المجهر ، ووجدت على جميعها بدون استثناء ، القليل من حبوب
اللقاح ، وعلى البعض الآخر كان يوجد فيض منها . وبما أن الرياح كانت تهب لمدة
أيام عديدة فى الاتجاه من الأشجار المؤنثة إلى الأشجار المذكرة ، فإن اللقاح لا يمكن
أن يكون قد تم حمله بهذه الطريقة . وقد كان المناخ بارداً وعاصفاً ، وهو بهذا الشكل
لم يكن ملائماً للنحل ، وبالرغم من ذلك فإن كل زهرة مؤنثة فحصتها كانت ملقحة
بشكل فعال عن طريق النحل ، الذى قام بالطيران من شجرة إلى شجرة بحثاً عن
الرحيق . ولكن لكى نعود إلى حالتنا الخيالية : فبمجرد أن أصبح النبات على مثل هذه
الدرجة من الجاذبية للحشرات إلى حد أن اللقاح كان يجرى حمله بصورة منتظمة من
زهرة إلى أخرى ، فإنه من الممكن أن تبدأ عملية أخرى . لا يوجد أحد من علماء

Anther

Holly Trees

Rudimentary

(١) مثبر : جزء السداة المحتوى على اللقاح

(٢) أشجار البهشية = شجر خشب القديسين

(٣) مبتسر = غير مكتمل *

التاريخ الطبيعي يشك في فائدة ما قد أطلق عليه " التقسيم الوظيفي للعمل" (١) ، ومن ثم فمن الممكن أن نصدق أنه سوف يكون من المفيد لنبات ما أن ينتج أسديه فقط في إحدى الزهور ، أو على شجرة واحدة بأكملها ، ومدقات فقط في زهرة أخرى أو على نبات آخر . وفى النباتات التى تحت تأثير الزراعة والموضوعة تحت تأثير ظروف جديدة للحياة ، فإننا نجد فى بعض الأحيان أن الأعضاء الذكورية، وفى بعض الأحيان أن الأعضاء الأنثوية، تصبح تقريباً فى حالة عجز جنسى ، وفى هذه الحالة فإنه إذا افترضنا أن هذا قد يحدث بأى درجة متناهية من الصغر تحت تأثير الطبيعة ، عندها ، فبما أن اللقاح يجرى حمله بالفعل بصورة منتظمة من زهرة إلى زهرة ، وبما أنه من المفيد أن يكون هناك انفصال تام بين الشقين الجنسيين لنباتاتنا اتباعاً لمبدأ تقسيم العمل، فإن الأفراد التى لديها هذه القابلية سوف تزداد بصورة أكثر فأكثر ، وسوف تكون مفضلة أو منتقاة باستمرار ، إلى أن ينتهى الأمر إلى حدوث انفصال كامل للشقين الجنسيين . وسوف يشغل الأمر مساحة كبيرة لتوضيح الخطوات المختلفة ، من خلال ازواج الهيئة (٢) والوسائل الأخرى ، التى بواسطتها يبدو أن الانفصال بين الشقين الجنسيين فى النباتات المختلفة الأنواع فى سبيله إلى الزيادة حالياً ، ولكنه من الممكن لى أن أضيف أن بعض الأنواع من نبات البهشية فى أمريكا الشمالية ، وذلك نقلاً عن " آسا جراى" ، هى حالة متوسطة بالضبط ، أو كما يعبر هو عنها ، أنها تقريباً متعددة التزاوج بشكل منفصل جنسياً (٣) .

ودعنا الآن نلتفت إلى الحشرات التى تقتات على الرحيق ، فإنه من الممكن لنا أن نفترض أن النبات ، التابع لذلك التى كنا نزيد ببطء من رحيقه بواسطة الانتقاء المستمر قد أصبح نباتاً شائعاً، وأن حشرة معينة قد اعتمدت بشكل أساسى على رحيقه للغذاء . وأنا أستطيع أن أقدم الكثير من الحقائق التى تظهر مدى تلهف النحل لتوفير الوقت : وعلى سبيل المثال ، تلك العادة الخاصة به لعمل ثقب وامتصاص

physiological division of labour

(١) التقسيم الوظيفي للعمل *

Dimorphism

(٢) ازواج الهيئة = ازواج الشكل

Diociously polygamous

(٣) متعدد التزاوج بشكل منفصل جنسياً *

الرحيق عند القواعد الخاصة بزهور معينة ، ولكى تستطيع عن طريق بذل القدر القليل جداً من الجهد ، من إدخال أفواهاها إلى الزهرة. ومع وضع مثل هذه الحقائق فى الاعتبار ، فمن الممكن الاعتقاد بأنه تحت ظروف معينة فإن الاختلافات الفردية فى درجة انحناء أو طول الخرطوم ، إلى آخره ، مهما يكن بسيطاً إلى درجة عدم الاهتمام به من جانبنا ، فإنها قد تفيد نحلة أو حشرة أخرى ، إلى درجة أن بعض الأفراد المعينة سوف تستطيع أن تحصل على غذائها بسرعة أكبر من غيرها ، وبهذا الشكل فإن المجتمعات التى تنتمى إليها تزدهر وتطرح العديد من الأسراب الوارثة لنفس الخواص . ولا يبدو على أنابيب التويج^(١) الخاصة بنباتى البرسيم الأحمر^(٢) الشائع والبرسيم اللحمى^(٣) ، للوهلة الأولى أنها تختلف فى الطول ، إلا أن نحلة الملاجئ^(٤) تستطيع أن تمتص الرحيق بسهولة من البرسيم اللحمى ، ولكن ليس من البرسيم الأحمر الشائع ، والذى يتردد عليه . النحل الطنان^(٥) فقط ، إلى درجة أن حقولاً بأكملها من البرسيم الأحمر تهدى بلا جدوى فيضاً وفيراً من الرحيق الثمين لنحل الملاجئ . و من المؤكد أن هذا الرحيق هو شئ محبب جداً لنحل الملاجئ ، وذلك لأننى قد شاهدت بصورة متكررة ، ولكن فى فصل الخريف فقط ، أن العديد من نحل الملاجئ يقوم بامتصاص الزهور ، من خلال ثقب مقصومة بواسطة النحل الطنان ، فى قاعدة الأنبوبة . والاختلاف فى طول التويج فى هذين النوعين من البرسيم ، هو الذى يحدد أن الزيارات التى يقوم بها نحل الملاجئ يجب أن تكون طفيفة ، وذلك لأنه قد تأكد لى أنه عندما يتم جز البرسيم الأحمر ، فإننا نجد أن زهور المحصول الثانى هى أصغر بعض الشئ فى الحجم ، وأن الأخيرة يتردد عليها الكثير من نحل الملاجئ . وأنا لا أرى إذا ما كان هذا التصريح صحيحاً ، أو إذا ما كان تصريح منشور آخر هو الذى يمكن الوثوق به ، ألا وهو أن النحل الخاص بمقاطعة "ليجوريا" Liguria بإيطاليا والذى يعتبر عادة أنه مجرد ضرب من ضروب نحل الملاجئ الشائع ، والذى

Corolla	(١) التويج : الغلاف الداخلى المحيط بالأسدية والمدقة
Red Clover = Trifolium Pratense	(٢) البرسيم الأحمر *
Incarnate Clover = Trifolium incarnatum	(٣) البرسيم اللحمى *
Hive - bee	(٤) نحلة الملاجئ (نحلة الخلايا) *
humble- bees = Bumble - bees	(٥) النحل الطنان

يتهاجن بحرية معه ، يستطيع أن يصل ويمتص رحيق زهور البرسيم الأحمر . وبهذا الشكل ، فإنه فى أى بلد يتوافر فيه هذا الصنف من البرسيم ، فإنه سوف يكون هناك ميزة كبيرة لنحلة الملاجئ فى أن يكون لديها خرطوم أطول قليلا أو مصمم بشكل مختلف . وعلى الجانب الآخر ، بما أن خصوبة هذا النوع من البرسيم تعتمد اعتماداً كلياً على زيارات النحل للزهور ، فإذا أصبح النحل الطنان نادرا فى أى بلد ، فإنه سوف تكون هناك ميزة كبيرة للنبات فى أن يحوز تويجات أقصر أو مقسمة بشكل أعمق حتى يتمكن نحل الملاجئ من امتصاص زهوره . وبهذا الشكل فأنا أستطيع أن أفهم كيف أن زهرة ما ونحلة ما من الممكن أن تصبحا ببطء ، سواء فى وقت متزامن ، أو الواحدة تلو الأخرى ، معدلتين ومتكيفتين لكل منهما للأخرى على أكمل وجه ممكن ، عن طريق الحفاظ المستمر بجميع الأفراد التى قد بدت عليها انحرافات بسيطة فى التركيب فيها المصلحة المتبادلة لكل منهما مع الآخر .

وأنا على يقين تام من أن هذا المبدأ الخاص بالانتقاء الطبيعى ، ممثلا فى الحالات المتخيلة السابقة ، يكون عرضة إلى الاعتراضات نفسها التى تم تقديمها فى أول الأمر ضد الآراء القيمة التى تقدم بها " السير تشارلس لايلى " عن التغيرات الحديثة للأرض ، كما يوضحها علم طبقات الأرض - " **The modern changes of the earth, as illustrated by the principles of geology** " ، ولكننا من النادر أن نسمع الآن عن العوامل التى نرى أنها مازالت منكبدة على العمل . والتى يجرى الحديث عنها على أساس أنها تافهة وغير ذات أهمية ، عندما تستخدم فى تفسير الحفريات التى تجرى فى أعماق الأودية ، أو فى التكوين الخاص بالخطوط الطويلة التى فى الجروف الموجودة بداخلىة البلاد . والانتقاء الطبيعى يعمل فقط عن طريق الحفاظ والتراكم لتعديلات صغيرة مورثة ، كل منها مفيد للكائن الذى يتم الاحتفاظ به ، وبما أن علم طبقات الأرض الحديث قد ألغى تقريبا بعضا من وجهات النظر مثل الشق لواد عظيم عن طريق موجة طوفانية^(١) واحدة ، فكذلك فإن الانتقاء الطبيعى سوف يلغى الإيمان بالخلق المستمر لكائنات عضوية جديدة ، أو بحدوث أى تعديل كبير ومفاجئ فى تركيبها .

ما يتعلق بالتهجين المتبادل للأفراد

يتحتم علىّ هنا أن أقدم استطرادا قصيرا . فإنه فى حالة الحيوانات والنباتات ذات الشقين الجنسيين المنفصلين ، فإنه من الواضح طبعا أنه يجب دائما على فردين (مع الاستثناء للحالات الغريبة والتي ليست مفهومة بشكل واضح الخاصة بالتوالد العذرى^(١)) أن يتحدا من أجل كل ولادة، ولكن فى حالة الخناث^(٢) فإن هذا بعيد جداً عن أن يكون واضحاً . ومع ذلك فهناك سبب للاعتقاد بأنه مع الخناث ، فإننا نجد فى جميع الحالات أنه يحدث التقاء بين فردين ، سواء بشكل عارض أو معتاد من أجل الإكثار من صنفهما. وهذه الوجهة من النظر قد سبق اقتراحها بشكل مشكوك فيه منذ وقت طويل بواسطة "سپرنجل" Sprengel، و"نايت" Knight، و"كولرويتر" Kolreuter . ونحن سوف نرى أهميتها الآن ، ولكنى يجب أن أعالج الموضوع فى هذا المقام باختصار شديد ، مع أنى أمتلك المعلومات المعدة لمناقشة فياضة ، ونحن نجد مثلاً أن جميع الحيوانات الفقارية ، وجميع الحشرات ، وبعض المجموعات الكبيرة من الحيوانات تتزاوج من أجل كل ولادة . وقد أنقصت الأبحاث الحديثة إلى حد كبير عدد الحالات المفترضة لتواجد الخناث، ولتواجد عدد كبير من حالات التزاوج التى تحدث بين الخناث الحقيقية ، أى أن هناك فردين يتحدان بشكل منتظم من أجل التكاثر ، وهذا هو كل ما يهمنى فى هذا الأمر، ولكنه ما زال يوجد الكثير من الحيوانات الخنثى التى بالتاكيد لا تتزاوج بشكل معتاد ، والأغلبية الكبرى من النباتات هى فى الواقع خناث . وقد يثور التساؤل عما هو السبب الموجود للافتراض أنه يحدث على الإطلاق فى هذه الحالات تلاق بين فردين فى عملية التكاثر ؟- وبما أنه من المستحيل فى هذا المجال أن ندخل فى التفاصيل ، فيجب أن أعتد على بعض الاعتبارات العامة وحدها .

وقد قمت فى المقام الأول بجمع مجموعة كبيرة جدا من الحقائق ، وأجريت العدد الكبير من التجارب ، التى بينت ، بالتوافق مع الاعتقاد العام تقريبا للمستولدين ، أن

(١) التوالد العذرى = التكاثر البكرى : حمل من غير إخصاب أو لقاح Parthenogenesis

(٢) الخنثى : الكائن المحتفظ بالشقين الجنسيين معا Hermaphrodite

التهاجن في الحيوانات والنباتات بين الضروب المختلفة ، أو بين الأفراد التابعة لنفس الضرب ولكنها من عترة^(١) أخرى ، يعطى حيوية وخصوبة للذرية الناتجة ، وعلى الجانب الآخر ، فإن التزاوج المتبادل بين الأقارب ينقص الحيوية والخصوبة ، وأن هذه الحقائق وحدها تجعلنى أميل إلى الاعتقاد فى أنه قانون عام فى الطبيعة ألا يلحق أى كائن عضوى نفسه لفترة دائمة من الأجيال ، وأن التهجين مع فرد آخر أحيانا - ربما على فترات طويلة من الزمن - شىء لا غنى عنه.

بناء على الإيمان - أن هذا هو أحد قوانين الطبيعة ، فإننا نستطيع ، كما أعتقد ، أن نفهم العديد من المجموعات الكبيرة من الحقائق ، مثل التالية ، والتي من أى وجهة نظر أخرى يكون غير قابلة للشرح . فإن كل من يقوم بخلط الأعراق^(٢) يعلم مدى عدم مناسبة التعرض للبلل لعملية التلقيح الخاصة بأى زهرة ، ومع ذلك فما عدد الزهور التى تتعرض مئابرها وأسديتها بشكل كامل للجو! وإذا كان لا بد من حدوث تهاجن بين الحين والآخر ، بغض النظر عن أن المتأبر والمدقات الخاصة بالنبات نفسه تقف منتصبية على مقربة من بعضها الآخر كما لو كانت تقريبا تؤكد حدوث التلاقح الذاتى ، فإن الحرية التامة المكفولة لدخول اللقاح من فرد لآخر هى التى سوف تفسر ما سبق ذكره عن انكشاف الأعضاء . وعلى الجانب الآخر ، فإننا نجد أن أعضاء الإخصاب^(٣) الخاصة بالكثير من الزهور تكون مسيجة بإحكام ، كما هو الحال فى الفصيلة الفراشية^(٤) أو فصيلة البازلاء الكبيرة ، ولكن هذه الزهور تقدم دائما أمثلة جميلة ولافتة للأنظار من التكيفات المتعلقة بزيارات الحشرات لها . وزيارات النحل شىء ضرورى للكثير من زهور الفصيلة الفراشية ، إلى درجة أن خصوبتها تنتقص بشدة إذا ما امتنعت هذه الزيارات . وفى هذه الحالة فإنه من أندر الممكنات للحشرات أن تطير من زهرة إلى زهرة ، ولا تحمل لقاحا من واحدة إلى أخرى ، وذلك فيه مصلحة

Strain	(١) عترة *
Hybridize	(٢) يخلط الأعراق = ينغها *
Fructification	(٣) الإخصاب = الإثمار : يجعله مثمرا
Papilionaceous	(٤) الفصيلة الفراشية

كبيرة للنباتات . فالحشرات تعمل مثل الفرشاة المصنوعة من شعر الجمل ، ويكفى للتأكد من إحداث التلقيح ، مجرد أن يلمس بنفس الفرشاة المنبر الخاص بأحد الزهور ، ثم المدقة الخاصة بزهرة أخرى ، ولكن يجب ألا يفترض أن النحل سوف ينتج بهذا الشكل أنغالا من بين الأنواع المتباينة عن بعضها ، وذلك لأنه إذا تم وضع اللقاح الخاص بأحد النباتات مع ذلك المستخلص من نبات آخر على نفس الميسم ، فإن الأول يكون من القوة إلى درجة أنه دائماً ما يدمر دائماً وبشكل كامل ، كما تم إظهاره بواسطة " جارتنر " **Gartner** ، التأثير الخاص باللقاح الغريب .

عندما تطفر فجأة الأسدية الخاصة بزهرة ما فى اتجاه المدقة ، أو تتحرك ببطء الواحدة تلو الأخرى فى اتجاهها ، فإنه يبدو أن هذه الوسيلة قد تم تصميمها لغرض واحد فقط ، هو لتأكيد حدوث التلقيح الذاتى ، ولا شك فى أنها مفيدة من أجل هذه النتيجة : ولكن الأمر يحتاج فى أحوال كثيرة إلى وساطة الحشرات لجعل الأسدية تطفر إلى الأمام ، وهذا ما قام به " كولرويتزر " بإظهار أنه يحدث مع نبات البرباريس^(١) ، وفى هذه الطبقة نفسها التى يبدو أنها تمتلك وسيلة خاصة للتلقيح الذاتى ، فإنه من المعروف جيدا أنه إذا تم زرع شكلين أو ضربين متقاربين إلى حد بعيد ، بجوار بعضهما البعض ، فإنه من الصعب التمكن من الحصول على نباتات صغيرة نقية الأصل ، وذلك لأنها تتهاجن بشكل طبيعى على نطاق واسع . وفى حالات عديدة أخرى ، بعيدا عن كون التلقيح الذاتى هو الطريقة المفضلة ، فإن هناك وسائل خاصة تمنع الميسم تماما من تلقى اللقاح من الزهرة الخاصة به ، وذلك ما يمكننى أن أبينه من أبحاث " سبرنجل " وآخرين ، علاوة على الملاحظات الخاصة بى: فعلى سبيل المثال ، فإنه توجد فى نبات اللوبيليا المتأققة^(٢) وسيلة جميلة فعلا ومنتقنة ، هى التى يتم عن طريقها إزالة جميع حبيبات اللقاح التى لا حصر لها من على المتأثر المشتركة الخاصة بكل زهرة ، قبل أن يصبح الميسم الخاص بتلك الزهرة ذاتها مستعدا لاستقبالها ، وبما أن هذه الزهرة لم يسبق إطلاقا أن تردد عليها أية حشرات - على

(١) نبات البرباريس = اعقدة = عود الريح = أنبر باريس: شجرة شائكة ذات زهر أصفر **Barberry**

(٢) نبات اللوبيليا المتأققة = الدخان الهندى = عشب الربو * **Lobelia fulgens**

الأقل فى حديقتى - فإنه لم يحدث إطلاقاً أنها قد كومت بذرة واحدة ، مع أنه بوضع لقاح من إحدى الزهور على ميسم زهرة أخرى ، فإننى قد تمكنت من تربية الكثير من النباتات الصغيرة . ويوجد نوع آخر من اللوبيليا الذى يتردد عليه النحل ، وهو ينتج بنورا بانطلاق فى حديقتى . وفى الكثير جدا من الحالات الأخرى ، بالرغم من عدم وجود أى وسيلة ميكانيكية خاصة لمنع الميسم من استقبال لقاح من نفس الزهرة ، إلا أنه يحدث، كما بينه " سبرنجل" وحديثاً جدا " هيلدبراند" **Hildebrand**، وآخرون ، وكما أستطيع تأكيده بنفسى ، أنه إما أن تنفجر المنابر قبل أن يستعد الميسم للتلقيح ، أو أن الميسم يصبح مستعداً قبل أن يكون اللقاح الخاص بتلك الزهرة مستعداً ، وهكذا فإن هذه النباتات التى تسمى " النباتات المتفاوتة البلوغ"^(١) لديها فى الواقع شقان جنسيان منفصلان ، ومن الضرورى لها أن يتم تهاجنها بشكل معتاد . وهذا هو الحال مع النباتات الثنائية الشكل والثلاثية الشكل بشكل متبادل التى سبق الإشارة إليها . ما مدى غرابة هذه الحقائق ! ما مدى غرابة أن اللقاح وسطح الميسم الخاصين بنفس الزهرة ، بالرغم من وضعهما القريب جدا من بعضهما البعض ، كما لو كان لغرض التلقيح الذاتى بالذات ، سوف يكون فى كثير من الحالات عديم الفائدة لكل منهما الآخر ! وما مدى سهولة تفسير هذه الحقائق على ضوء أن التهجين العارض مع فرد متباين هو شىء مفيد أو شىء لا غنى عنه.

إذا ما سمح لضروب مختلفة من الكرنب^(٢) ، و الفجل^(٣) ، والبصل^(٤) ، وبعض النباتات الأخرى ، بأن تنتج بنورا وهى قريبة من بعضها الآخر ، فإن الغالبية العظمى من النباتات الصغيرة التى تنمو بهذا الشكل سوف تنتهى ، كما تبين لى ، إلى أن تصبح أنغالا : وعلى سبيل المثال ، فقد قمت بإنماء ٢٢٣ نبتة صغيرة من الكرنب من بعض النباتات التابعة لضروب مختلفة تنمو بجوار بعضها الآخر ، وكانت النتيجة أن ٧٨ من هذا العدد قد نبت بشكل أصيل لنوعها ، وحتى إن البعض من هذا

(١) النباتات المتفاوتة البلوغ : عدم نضوج المياسم والمبهر فى وقت واحد Dichogamous Plants

(٢) كرنب = ملفوف Cabbage

(٣) فجل Radish

(٤) بصل Onion

العدد لم يكن أصيلاً بشكل كامل . ومع ذلك فإن المدقة الخاصة بكل زهرة كرنب كانت محاطة ليس فقط بواسطة الستة أسدية الخاصة بهذه الزهرة ، ولكن بواسطة الأسدية الخاصة بالعديد من الزهور الأخرى الموجودة على نفس النبات ، وكان اللقاح الخاص بكل زهرة يقع على الميسم التابع له بدون وساطة من حشرات ، وذلك لأنني وجدت أن النباتات المحبة بعناية من الحشرات تنتج عددا كاملاً من القرنات . فكيف حدث إذن أن مثل هذا العدد الهائل من النباتات الصغيرة قد تم تحويلها إلى هجائن مختلطة؟ - لا بد أن هذا قد حدث بسبب أن اللقاح الخاص بضرب متباين كان له تأثير متفوق عن اللقاح الخاص بالزهرة نفسها ، وأن هذا جزء من القانون العام الذي ينص على أن الخير يأتي من التهاجن المتبادل بين الأفراد المتباينة عن بعضها، التابعة لنفس الجنس. أما عندما يحدث تهاجن بين أنواع متباينة عن بعضها فإن الحال ينعكس ، وذلك لأن اللقاح الخاص بالنبات نفسه يكون متفوقاً بشكل شبه دائم على اللقاح الغريب ، ولكننا سنعود إلى هذا الموضوع في فصل قادم .

قد تتور بعض الاعتراضات ، في حالة وجود شجرة ضخمة مغطاة بعدد لا يحصى من الزهور ، على أنه من النادر أن يستطيع اللقاح أن ينتقل من شجرة إلى شجرة ، وأنه على الأكثر يستطيع الانتقال فقط من زهرة إلى زهرة موجودة على نفس الشجرة ، وأنه من الممكن اعتبار الزهور الموجودة على نفس الشجرة على أساس أنها أفراد مختلفة عن بعضها بشكل محدد فقط . وأنا أعتقد أن هذا اعتراض وجيه ، ولكن على أساس أن الطبيعة قد استعدت ضده بشكل كبير عن طريق منح الأشجار قابلية قوية لحمل أزهار لها شقان جنسيان منفصلان . وعندما ينفصل الشقان الجنسيان ، وبالرغم من أن الأزهار المذكورة والأزهار المؤنثة قد تكون موجودة على نفس الشجرة ، فإنه من المحتم نقل اللقاح بشكل منتظم من زهرة إلى زهرة ، وهذا سوف يعطى فرصة أفضل للقاح لإمكانية نقله أحياناً من شجرة إلى شجرة . وقد وجدت في هذا القطر (إنجلترا) ، أن الأشجار التابعة لجميع الرتب⁽¹⁾ ، تتميز غالباً بالانفصال في الشقين الجنسيين أكثر مما يوجد في باقى النباتات الأخرى . وقد قام " الدكتور

هوكر "Dr.Hooker، بناء على طلبى ، بتبويب الأشجار الموجودة فى " نيوزيلاندا " ، والدكتور أسا جراى " بتبويب أشجار الولايات المتحدة ، وكانت النتيجة كما توقعت . وعلى الجانب الآخر . فإن " الدكتور هوكر" قد أبلغنى أن هذه القاعدة لا يمكن تطبيقها فى "أستراليا" ، ولكن إذا كانت معظم الأشجار الأسترالية متفاوتة البلوغ ، فإنه من الممكن الوصول إلى نفس النتيجة ، كما لو كانت هذه الأشجار تحمل زهورا ذات شقين جنسيين مفصلين . وقد أبدت هذه الملاحظات القليلة عن الأشجار ، وذلك لمجرد جذب الانتباه إلى الموضوع.

ولنتجه لمسافة مختصرة إلى الحيوانات : فإن أنواعا مختلفة من الأنواع الحية الأرضية^(١) حيوانات خنثى ، مثل الرخويات الأرضية^(٢) وديدان الأرض^(٣) ، ولكن جميع هذه الأنواع تتزاوج . وإلى الآن فأنا لم أتمكن من العثور على حيوان أرضى واحد يستطيع أن يلحق نفسه . وهذه الحقيقة الملفتة للنظر التى تكشف عن أوجه اختلاف صارخة عند مقابلتها بالنباتات الأرضية ، تصبح مفهومة على أساس أن حدوث تهاجن عارض هو شىء لا غنى عنه ، وذلك بناء على طبيعة عدم وجود أى وسائل لعنصر التخصيب ، مماثلة لمفعول الحشرات والرياح مع النباتات ، والتى عن طريقها من الممكن أن يحدث تهجين عارض بين الحيوانات الأرضية بدون الالتقاء بين اثنين من الأفراد . أما بالنسبة للحيوانات المائية^(٤) ، فإنه يوجد هناك الكثير من الخنثى الذاتية التخصيب^(٥) ، ولكن فى حالتنا هذه ، فإن التيارات المائية توفر وسيلة واضحة لحدوث أى تهجين عارض . وأنا قد فشلت حتى الآن ، كما حدث فى حالة الزهور ، بعد الاستشارة مع واحد من أرفع الخبراء ، ألا وهو "الأستاذ هوكسلى" Professor Huxley ، فى أن أكتشف أى حيوان خنثى واحد ، الأعضاء التناسلية لديه

Terrestrial animals

Land - mollusca

Earth - worms

Aquatic animals

Self- Fertilising

(١) حيوانات أرضية : تعيش على اليابسة

(٢) الرخويات الأرضية

(٣) ديدان الأرض

(٤) حيوانات مائية

(٥) ذاتية التخصيب *

مغلقة بشكل كامل إلى درجة تظهر الاستحالة الجثمانية لوجود وسيلة للتخصيب من الخارج ، والتأثير العارض لأحد الأفراد المختلفين عنه . وقد بدا لي لفترة طويلة أن الحيوانات هدايية الأرجل^(١) ، تمثل طبقاً لهذه الوجهة من النظر ، حالة ذات صعوبة شديدة ، ولكنى تمكنت بضربة من ضربات الحظ ، من إثبات أن الاثنين من الأفراد ، بالرغم من كون كليهما خنثى ذاتية التخصيب ، فإنهما يتهاجانان مع بعضهما فى بعض الأحيان .

ولابد أن معظم علماء التاريخ الطبيعى قد صدمتهم كظاهرة شاذة غريبة ، أنه يوجد فى كل من الحيوانات والنباتات ، بعض الأنواع التابعة لنفس الفصيلة أو حتى لنفس الطبقة، وبالرغم من وجود توافق حميم بين بعضهم الآخر فى مجموع نظام التعضية ، فهم خناث والبعض من هذه الأنواع هم وحيود الجنس^(٢) . ولكن فى الحقيقة ، إذا كانت جميع الخناث تتهاجن فيما بينها فى بعض الأحيان ، فإن الفرق بينها وبين الأنواع الوحيدة الجنس ، فيما يتعلق بالأداء صغير جداً .

من مجموع هذه الاعتبارات المختلفة ، ومن الكثير من الحقائق الخاصة التى قمت بجمعها ، ولكن التى لا أستطيع أن أقدمها هنا ، فإنه يبدو فى الحيوانات والنبات ، أن حدوث تهاجن عارض بين أفراد مختلفين عن بعضهم ، هو قانون شائع جداً ، إن لم يكن قانوناً عاماً ، من قوانين الطبيعة .

الظروف المواتية لإنتاج أشكال جديدة من خلال الانتقاء الطبيعى

هذا موضوع معقد للغاية . فإن كمية كبيرة من القابلية للتمايز ، والتى تندرج الاختلافات الفردية دائماً تحت مسماه ، سوف تكون مواتية بشكل واضح . فإن عدداً كبيراً من الأفراد ، عن طريق منحهم فرصة أفضل فى خلال أى مدة محددة لظهور

Cirripedes

Unisexual

(١) الحيوانات هدايية الأرجل : رتبة من القشريات

(٢) وحيود الجنس

تمايزات مفيدة ، سوف يقومون بالتعويض عن أى كمية أقل من القابلية للتمايز الموجودة عند كل من الأفراد ، وهو ، كما أعتقد ، عنصر عالى الأهمية لإحراز النجاح . وبالرغم من أن الطبيعة تمنح فترات طويلة من الزمن للانتقاء الطبيعي للقيام بعمله ، إلا أنها لا تمنح فترة لا نهائية : وذلك لأنه بما أن جميع الكائنات العضوية تسعى للاستحواذ على كل من الأماكن الموجودة فى منظومة الطبيعة^(١) ، وإذا لم يقم أى واحد من الأنواع بإدخال تعديلات أو تحسينات بدرجة متطابقة مع منافسيه ، فإنه سوف يستأصل . وما لم تحدث التمايزات المواتية بواسطة على الأقل بعض الذرية ، فلا شىء يمكن أن يحدث عن طريق الانتقاء الطبيعي . والقابلية إلى الارتداد من المحتمل فى كثير من الأحوال أن تكبح أو تمنع عمله ، ولكن بما أن هذه القابلية لم تمنع الإنسان من تكوين سلالات داجنة عن طريق الانتقاء ، فما الذى سوف يجعلها تنتصر على الانتقاء الطبيعي ؟.

فى حالة الانتقاء المنهجي ، فإن المستولد يقوم بالاختيار بناء على هدف محدد ، وإذا سمح للأفراد بأن تتهاجن فيما بينها بحرية ، فإن مجهوده سوف يفشل تماما . ولكن عندما يكون لدى عدد كبير من الناس ، مع عدم توافر النية لديهم لتغيير النسل ، مستوى شبه معتاد من الكمال ، وكان جميعهم يحاولون الحصول على الأنسال من أفضل الحيوانات، فإن التحسين سوف يتبع بالتأكيد ، حتى ولو كان ببطء على هذه العملية للانتقاء ، على الرغم من عدم وجود فصل بين الأفراد المنتقاء . وبهذا الشكل فإنها سوف تكون تحت تأثير الطبيعة ، لأنه فى نطاق مساحة محدودة ، ومع وجود مكان غير مشغول بالكامل فى التشكيل الطبيعي^(٢) ، فإن جميع الأفراد التى تتمايز فى الاتجاه الصحيح ، حتى ولو بدرجات مختلفة ، سوف تميل إلى أن يتم الاحتفاظ بها . ولكن إذا كانت المساحة كبيرة ، فإنه من المؤكد تقريبا أن مناطقها المتعددة سوف تقدم ظروفًا حياتية مختلفة، وعندها ، فإنه إذا حدث لنفس النوع تعديلات فى هذه المناطق المختلفة ، فإن الضروب الحديثة التكوين سوف تتهاجن فيما بينها على التخوم الخاصة بكل

Economy of nature

Natural Polity

(١) منظومة الطبيعة *

(٢) التشكيل الطبيعي *

منطقة . ولكننا سوف نرى فى الفصل السادس أن الضروب الوسيطة^(١) ، التى تقطن فى مناطق وسيطة ، سوف يتم اغتصاب مواطنها عادة على المدى البعيد بواسطة أحد الضروب المجاورة . والتهاجن المتبادل سوف يؤثر بشكل أساسى على الحيوانات التى تتحد لكل ولادة والتى تتجول كثيراً ، والتى لا تتوالد بمعدل سريع جداً . ومن ثم ففى الحيوانات التى لها هذه الصفات ، وعلى سبيل المثال ، الطيور ، فإن الضروب سوف يكون تواجدها فى العادة مقصورا على أقطار مفصولة عن بعضها ، وقد وجدت بنفسى أن هذا ما يحدث . ومع الكائنات الخنثى التى تتهاجن أحيانا فقط ، ونفس الشيء مع الحيوانات التى تتحد من أجل كل ولادة ، ولكنها التى تتجول قليلا والتى تستطيع أن تزداد بمعدل سريع ، فإنه من الممكن لها أن تكون ضرباً جديداً ومعدلا فى أى بقعة ما ، ومن الممكن أن تحافظ على نفسها هناك فى صورة جماعة ثم بعد ذلك تنتشر ، وبهذا الشكل فإن الأفراد التابعة لهذا الضرب الجديد سوف تتهاجن بشكل أساسى فيما بينها . وعلى هذا الأساس ، فإن عمال المشاتل يفضلون دائماً أن يختزنوا البنور الناتجة من جماعة كبيرة من النباتات ، وذلك لأن فرصة التهجين المتبادل سوف تقل بهذا الشكل .

وحتى مع الحيوانات التى تتحد من أجل كل ولادة ، والتى لا تتكاثر بسرعة ، فإننا يجب ألا نفترض أن التهاجن المتبادل سوف يزيل دائماً تأثيرات الانتقاء الطبيعى ، وذلك لأننى أستطيع أن أقدم مجموعة محترمة من الحقائق التى تظهر أنه فى نطاق نفس المساحة ، من الممكن لضربين تابعين لنفس الحيوان أن يستمرا لمدة طويلة متباينين عن بعضهما ، وذلك نتيجة الملازمة لمواقع مختلفة ، أو نتيجة التوالد عند فصول من السنة مختلفة قليلاً ، أو نتيجة تفضيل الأفراد التابعة لكل من الضربين للتراوح فيما بينها .

والتهجين المختلط يلعب دوراً مهماً للغاية فى الطبيعة ، وذلك عن طريق الإبقاء على الأفراد التابعة لنفس النوع ، أو لنفس الضرب ، بصورة طبق الأصل وبشكل مماثل

تماماً ، وبهذا فمن الواضح أنه سوف يؤثر بشكل أكثر فاعلية بكثير على هذه الحيوانات التي تتحد من أجل كل ولادة ، ولكن ، كما جاء ذكره بالفعل ، فإن لدينا سبباً للاعتقاد بأن تهاجمات مختلطة عارضة تحدث مع كل الحيوانات والنباتات. وحتى إذا كانت هذه التهاجمات تحدث على مدى فترات طويلة من الزمن ، إلا أن اليافعة الناتجة عن ذلك سوف تتفوق بشكل كبير في الحيوية والخصوبة على الذرية الناتجة عن التلقيح الذاتى المستمر لفترة طويلة ، وأنه سوف يكون لديها فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة والإكثار من صنفهما ، وبهذا فعلى المدى البعيد فإن تأثيرات التهاجمات ، حتى لو حدثت على فترات نادرة ، سوف تكون عظيمة . أما فيما يتعلق بالكائنات العضوية المتدنية جداً فى الميزان ، والتي لا تتكاثر جنسياً ، ولا تتزاوج ، والتي من غير الممكن أن تقوم بالتهاجن المختلط ، عن طريق قانون الوراثة فقط ، وعن طريق الانتقاء الطبيعى الذى سوف يقوم بإهلاك أى فرد يحيد عن الطراز الصحيح . أما إذا تغيرت ظروف الحياة وحدث تعديل للشكل ، فإن التماثل فى الطبع من الممكن أن يتم منحه إلى الذرية المعدلة ببطء عن طريق احتفاظ الانتقاء الطبيعى بالتمايزات المواتية المماثلة .

العزل ، أيضاً ، هو من العناصر المهمة فى عملية التعديل للأنواع من خلال الانتقاء الطبيعى . ففى أى مساحة محددة ومنعزلة ، إذا لم تكن كبيرة جداً ، فإن ظروف الحياة العضوية وغير العضوية فيها ستكون عادة متماثلة تقريباً ، إلى درجة أن الانتقاء الطبيعى سوف يميل إلى تعديل جميع الأفراد المقاربة التابعة لنفس النوع ، بنفس الطريقة. وسوف يمتنع بهذا الشكل التهجين المتبادل مع القاطنين فى المناطق المحيطة. وقد نشر "موريتز فاغنر" **Moritz Wagner** " مؤخراً مقالاً مشوقاً عن هذا الموضوع ، وقد بين أن الخدمة التى يقدمها الانعزال فيما يتعلق بمنع التهاجمات فيما بين الضروب الحديثة التكوين من المحتمل أن تكون أكبر مما قد سبق لى افتراضه . ولكن بناء على أسباب سبق تحديدها بالفعل ، فإنه من غير الممكن لى أن أتفق مع هذا العالم فى التاريخ الطبيعى ، فى أن الارتحال والانعزال هما عاملان ضروريان من أجل تكوين الأنواع الجديدة . وأهمية الانعزال كبيرة أيضاً فى منع هجرة الكائنات التى قد تكيفت بشكل أفضل ، عندما يحدث أى تغيير مادى فى الظروف مثل تغير المناخ أو حدوث ارتفاع فى الأرض، وخلافه ، وهذا يؤدى إلى ترك أماكن جديدة مفتوحة فى منظومة

الطبيعة الخاصة بالمنطقة لى تمتلئ بالتعديلات الخاصة بالقاطنين القدامى . وأخيراً ، فالانعزال سوف يوفر الوقت الكافى لأى ضرب جديد لى يتحسن بمعدل ببطء ، وهذا قد يكون أحياناً ذا أهمية كبرى . ومع ذلك ، فإذا كانت إحدى المساحات المنعزلة صغيرة جداً ، وذلك لكونها محاطة بحواجز ، أو لتمتعها بظروف طبيعية غريبة جداً ، فإن العدد الإجمالى للقاطنين فيها سوف يكون صغيراً جداً ، وهذا سوف سيؤدى إلى التأخير فى إنتاج أنواع جديدة من خلال الانتقاء الطبيعى ، وذلك نتيجة الإنقاص من فرص التمايزات الملائمة .

ومجرد مرور الوقت وحده لا يؤدى إلى شىء من أجل أو ضد الانتقاء الطبيعى . وأنا أعلن ذلك لأنه قد تم التأكيد بطريق الخطأ على أن عامل الوقت قد تم اعتباره بواسطتى على أساس أنه يلعب نورا له كل الأهمية فى تعديل الأنواع ، كما لو كانت جميع الأشكال الموجودة فى الحياة من الضرورى أن يحدث فيها تغيير من خلال قانون فطرى . ومرور الوقت شىء مهم بالطبع ، وأهميته فيما يتعلق بهذا الموضوع كبيرة ، وذلك لأنه يعطى فرصة أفضل للتمايزات المفيدة لى تنشأ ولى يتم انتقاؤها ، وتكديسها وتثبيتها . وهذا العامل يميل بالمثل إلى زيادة التأثير المباشر المادية للظروف للحياة ، فيما يتعلق بالتركيب الخاص بكل كائن حى .

وإذا لجأنا إلى الطبيعة لاختبار مصداقية هذه الملاحظات ، ونظرنا إلى أى مساحة صغيرة منعزلة ، مثل إحدى الجزر الأوقيانوسية ، فبالرغم من أن عدد الأنواع التى تقطنها صغير ، فكما سوف نرى فى فصلنا عن "التوزيع الجغرافى"^(١) فإننا مع ذلك سوف نجد أن نسبة كبيرة من هذه الأنواع أنواع مستوطنة ، وهذا يعنى أنه قد تم إنتاجها هناك وليس فى أى مكان آخر فى العالم . ومن ثم ، فإن أى جزيرة فى الأوقيانوس تبدو للوهلة الأولى وكأنها قد كانت ملائمة جداً من أجل إنتاج الأنواع الجديدة . ولكننا قد نخدع أنفسنا بهذه الطريقة ، وذلك لأنه من أجل التأكد من سواء كانت مساحة صغيرة منعزلة ، أو مساحة كبيرة مفتوحة مثل إحدى القارات ، هى

الأكثر ملاءمة لإنتاج الأشكال العضوية الجديدة ، فإنه يجب علينا أن نقوم بعقد المقارنة فى حدود أوقات متساوية ، ونحن غير قادرين على القيام بذلك .

وبالرغم من أهمية الانعزال الكبرى فى عملية الإنتاج للأشكال الجديدة ، فأنا أميل فى مجمل الأمر إلى الاعتقاد بأن اتساع المساحة مازال هو العامل الأكثر أهمية ، وخاصة فيما يتعلق بإنتاج الأنواع التى سوف تثبت إنها قادرة على التحمل لفترة طويلة، وعلى الانتشار على نطاق واسع . وفى جميع أرجاء مساحة كبيرة ومفتوحة ، فإنه لن تكون هناك فرصة أفضل فحسب ، لحدوث التمايزات الملائمة ، والتى تنشأ عن عدد كبير من الأفراد التابعة لنفس النوع التى يعولها هذا المكان ، ولكن ظروف الحياة سوف تكون أكثر تعقيدا نتيجة للعدد الكبير من الأنواع الموجودة بالفعل، وإذا كان بعض من هذه الأنواع الكثيرة قد أصبح متعددا ومتحسنا ، فإن على الآخرين أن يتحسنوا بدرجة متطابقة ، أو أنهم سوف يباون . وبالمثل فإن كل شكل جديد ، بمجرد أن تدخل عليه تحسينات كبيرة ، فإنه سوف يكون باستطاعته أن ينتشر فوق المساحة المفتوحة والممتدة ، وسوف يواجه المنافسة مع العديد من الأشكال الأخرى . والأكثر من ذلك ، فإن المساحات الكبيرة ، بالرغم من أنها حالياً متصلة ، فمن الغالب أنها تكون قد نشأت بشكل متقطع ، وذلك نتيجة للتذبذبات السابقة فى المستوى ، وبهذا فإن النتائج الحسنة المستمدة من الانعزال سوف تصبح عادة قد حدثت بدرجة معينة . وأنا أستنتج فى النهاية ، أنه بالرغم من أن المساحات الصغيرة المنعزلة قد كانت فى بعض الجوانب ملائمة بشكل كبير لإنتاج الأنواع الجديدة ، إلا أن مسار التعديل قد كان من الممكن فى الغالب أن يكون أكثر سرعة على المساحات الكبيرة ، والشئ الأكثر أهمية ، هو أن الأشكال الجديدة التى يتم إنتاجها على المساحات الكبيرة ، والتى قد كانت بالفعل منتصرة على الكثير من المنافسة لها ، ستكون هى الأنواع التى سوف تنتشر إلى أوسع مدى ، والتى سوف ينتج عنها العدد الأكبر من الضروب والأنواع الجديدة . وهى التى سوف تلعب دوراً أكثر أهمية فى التاريخ المتغير للعالم العضوى .

وطبقاً لهذه الواجهة من النظر ، فربما نستطيع أن نستنتج بعض الحقائق التى سوف نشير إليها مرة أخرى فى فصلنا عن " التوزيع الجغرافى " : وعلى سبيل المثال ،

الحقيقة المتعلقة بالمنتجات الخاصة بالقارة الأسترالية الصغرى التي تستسلم الآن أمام هذه المنتجات الخاصة بالمنطقة الأورو - آسيوية الكبرى . وبهذا الشكل أيضا ، فإن تلك المنتجات القارية هي التي قد أصبحت في كل مكان متوطنة بشكل كبير على الجزر. فإننا نجد أن السباق من أجل الحياة من الممكن أنه سوف يكون أقل عنفا على جزيرة صغيرة، وأنه سوف يكون هناك تعديلات أقل وإبادة أقل . ومن ثم ، فإننا نستطيع أن نفهم كيف حدث أن الحياة النباتية في جزر " ماديرا" ، بناء على ما صرح به "أوزوالد هيرز" Oswald Heer ، تماثل إلى حد ما الحياة النباتية التي بادت في العصر الجيولوجي الثالث لقارة أوروبا . وجميع أحواض المياه العذبة إذا ما اجتمعت مع بعضها ، فإنها تكون مساحة صغيرة بالمقارنة بمساحة البحر أو اليابسة . وبالتالي فإن المنافسة ما بين منتجات المياه العذبة من الضروري أنها سوف تكون أقل عنفا من أى مكان آخر ، ومن الضروري إذن أن الأشكال الجديدة قد كان سيتم إنتاجها بشكل أكثر بطئا ، وأن الأشكال القديمة سوف تتم إبادتها بمعدل أكثر بطئا . وأن أحواض المياه العذبة سوف تكون المكان الذى نجد فيه سبع طبقات من الأسماك البراقة^(١)، وهى الباقية من رتبة من الأسماك كانت شائعة^(٢) فى وقت من الأوقات : وفى المياه العذبة فإننا نجد بعضنا من أكثر الأشكال شنوذا^(٣) المعروفة حاليا فى العالم ، مثل خلد الماء^(٤) واليردوغ^(٥) ، والتي تربط إلى حد ما، مثلما تفعل الأحافير ، رتبا متباعدة عن بعضها البعض بشكل عريض حاليا فى الميزان الطبيعى . وهذه الأشكال الشاذة من الممكن أن يطلق عليها أنها أحافير حية ، قد تمكنت من البقاء إلى الوقت الحالى ، نتيجة لكونها قد استوطنت مساحة محددة ، ونتيجة لكونها قد تعرضت إلى منافسة أقل تمايزا وبالتالي أقل شراسة .

Ganoid Fishes

(١) الأسماك البراقة = الأسماك اللامعة

Preponderant

(٢) شائعة = متفوقة = راجحة *

Anomalous Forms

(٣) أشكال شاذة

Ornithorhynchus

(٤) خلد الماء : حيوان ثديى ولكنه يبيض

Lepidosiren

(٥) اليردوغ : من نوات التنفيس للماء والهواء **

ولكى نصل إلى قرار ، بالقدر الذى يسمح به التعقيد الشديد للموضوع ، حول الظروف الملائمة وغير الملائمة لإنتاج الأنواع الجديدة من خلال الانتقاء الطبيعي ، فأننا أستنتج أنه بالنسبة لمنتجات الأرض اليابسة ، فإن المساحة القارية الكبيرة ، التى كانت قد تعرضت إلى تذبذبات كثيرة فى المستوى ، سوف تكون هى الأكثر ملاءمة من أجل الإنتاج للكثير من الأشكال الجديدة للحياة ، المعدة للبقاء لمدة طويلة وللانتشار بشكل عريض ، ومادامت المساحة قائمة كقارة ، فإن القاطنين سوف يكون عددهم كبيرا فى الأفراد وفى الأصناف ، وسوف يكونون قد تعرضوا للمنافسة القاسية . وعندما تتحول المساحة القارية بتأثير الغور إلى جزر كبيرة منفصلة ، فسوف يظل موجودا هناك الكثير من الأفراد التابعين لنفس النوع على كل جزيرة : والتلاقح المتبادل على التخوم الخاصة بالمآلف الخاصة بكل نوع جديد سوف يكون قد تم كبحه. وبعد حدوث التغييرات المادية من أى نوع ، فإن الهجرة سوف يكون قد تم منعها، وبهذا الشكل فإن الأماكن الجديدة فى التشكيل الخاص بكل جزيرة سوف يكون من الضرورى ، شغرها عن طريق التعدل للقاطنين القدامى : والوقت سوف يكون متاحا للضروب الموجودة فى كل جزيرة لى تصبح معدلة بشكل جيد ومكتملة . وعندما يحدث عن طريق ارتفاع مستجد فى مستوى الأرض أن تتحول الجزر مرة أخرى إلى مساحة قارية ، فإنه سوف يكون هناك مرة أخرى منافسة شديدة جداً : فإن الضروب الأكثر ملاءمة وتحسن سوف يسمح لها بأن تنتشر : وسوف تكون هناك إبادة على نطاق واسع للأشكال الأقل تحسنا ، والأعداد النسبية المتعلقة بالقاطنين المختلفين للقارة التى عادت إلى الاتحاد سوف يحدث فيها اختلاف ، ومرة أخرى سوف يكون هناك مجال واسع للانتقاء الطبيعي لى يستمر فى تحسين القاطنين ، وبهذه الطريقة إلى إنتاج أنواع جديدة .

وأنا مقتنع تماما بأن الانتقاء الطبيعي يعمل عادة ببطء شديد . وهو يستطيع أن يعمل فقط عندما يكون هناك أماكن فى التشكيل الطبيعي لإحدى المناطق من الممكن أن تشغل بشكل أفضل بواسطة التعديل لبعض من القاطنين الموجودين فيها. والتواجد لمثل هذه الأماكن سوف يكون فى الغالب معتمدا على التغييرات المادية ، التى تحدث فى العادة ببطء شديد ، وعلى المنع لهجرة الأشكال المتكيفة بشكل أفضل . وبما أن البعض القليل من القاطنين القدامى قد أصبح معدلا ، فإن العلاقات المتبادلة للآخرين

سوف تضطرب غالبا ، وهذا من شأنه أن يخلق أماكن جديدة ، مستعدة لأن تمتلئ بواسطة أشكال متكيفة بشكل أفضل ، ولكن كل هذا سوف يحدث بمنتهى البطء . وبالرغم من أن جميع الأفراد التابعة لنفس النوع قد تختلف بدرجة بسيطة ما عن بعضها الآخر ، فإنه سوف يمر في الغالب وقت طويل قبل أن تحدث اختلافات في الطبيعة الأساسية في الأجزاء المختلفة من التعضية . والنتيجة سوف تتأخر بشكل شديد غالبا عن طريق التهاجن المتبادل الحر . وكثير من الأشخاص سوف يعلن أن هذه الأسباب المختلفة كافية بشكل فياض للقضاء على قدرة الانتقاء الطبيعي . وأنا لا أعتقد في ذلك، ولكنى أعتقد أن الانتقاء الطبيعي سوف يعمل عامة ببطء شديد ، وعلى فترات فاصلة طويلة من الزمن فقط ، وعلى القليل فقط من القاطنين في نفس المنطقة . والأكثر من ذلك فأنا أعتقد أن هذه النتائج البطيئة المتقطعة تتوافق جداً مع ما يقوله لنا علم طبقات الأرض عن المعدل والطريقة التي تم بها تغيير القاطنين في العالم .

وبالرغم من أن عملية الانتقاء قد تكون بطيئة ، إلا أنه إذا كان الإنسان الضعيف قد استطاع أن يفعل الكثير بواسطة الانتقاء المصطنع ، فأنا لا أستطيع أن أرى أى حد لكمية التغيير ، ولجمال وتعقيد التكييفات المتبادلة بين جميع الكائنات العضوية ، الواحد مع الآخر ومع الظروف الطبيعية لحياتهما، والتي كانت نتيجة لمدى طويل من الزمن من خلال قدرة الطبيعة على الانتقاء ، وهذا يعنى عن طريق البقاء للأصلح .

الانقراض بسبب الانتقاء الطبيعي

هذا الموضوع سوف تتم مناقشته باستطراد أكبر في بابنا عن علم طبقات الأرض، ولكن من الضروري الإشارة إليه في هذا المكان وذلك لارتباطه الوثيق مع الانتقاء الطبيعي . فالانتقاء الطبيعي يعمل ببطء من خلال الحفاظ على التمايزات المفيدة بطريقة ما ، والتي بالتالى تصبح ثابتة . ونتيجة للمعدل الهندسى المرتفع للزيادة في أعداد جميع الكائنات العضوية ، فإن كل مكان أصبح ممتلئاً بالفعل بالقاطنين ، والذي

يستتبع ذلك ، هو أنه بينما تزداد الأشكال المفضلة فى العدد ، ففى العادة تنقص أعداد الأشكال المفضلة بشكل أقل وتصبح نادرة . والندرة كما ينبئنا علم طبقات الأرض ، هى النذير للانقراض . ونستطيع أن نشاهد أن أى شكل ممثل بواسطة أفراد قليلين سوف يواجه فرصة كبيرة للانقراض التام ، فى أثناء التقلبات الكبيرة فى الطبيعة الخاصة بفصول السنة ، أو نتيجة للزيادة المؤقتة فى عدد أعدائه ، ولكننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، وذلك أنه بينما يجرى إنتاج أشكال جديدة ، فمادما لا نعترف بأن هناك أشكالا خاصة تستطيع أن تستمر فى الزيادة فى العدد بشكل لا نهائى ، فإن الكثير من الأشكال القديمة كان لابد لها من أن تصبح منقرضة . وفيما يتعلق بأنه لم يحدث أن أشكالا معينة قد ازدادت فى العدد بشكل لا نهائى ، فإن علم طبقات الأرض يؤكد لنا ذلك ، وسوف نحاول حاليا أن نوضح لماذا لم يصبح عدد الأنواع الموجودة فى جميع أنحاء العالم كبيرا بشكل لا يحصى .

وقد سبق لنا أن رأينا أن الأنواع التى تمتاز بأنها صاحبة الأغلبية العديدة فى الأفراد ، هى التى لديها أفضل فرصة لإنتاج التمايزات الملائمة فى خلال أى مدة متاحة . ولدينا دليل على حدوث ذلك فى الحقائق التى تم ذكرها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، والتى توضح أن الأنواع الشائعة والمنتشرة أو الأنواع المهيمنة هى التى تمثل العدد الأكبر من الضروب المسجلة . ومن ثم ، فالأنواع النادرة سوف تكون أقل سرعة فى حدوث تعديل أو تحسين فيها فى خلال أى مدة متاحة ، وبالتالي فإنه سوف تتم هزيمتها فى التسابق من أجل الحياة بواسطة الذرارى المحسنة للأنواع الأكثر شيوعا .

ونتيجة لكل هذه الاعتبارات المختلفة ، فأنا أعتقد أنه لا مفر من أن تكون نتيجة ذلك ، أنه مادامت هناك أنواع جديدة يجرى تكوينها على مر الزمن من خلال الانتقاء الطبيعى ، فإن أنواعا أخرى سوف تصبح أندر فأندر ، وفى النهاية سوف تنقرض . والأشكال التى تأخذ موقف المنافسة الشديدة جدا مع الأشكال الآخذة فى التعديل والتحسين سوف تكون معاناتها طبعيا هى الأشد . ونحن قد رأينا فى الفصل المخصص " للتنازع من أجل البقاء " أن الأشكال الأكثر التصاقا فى القربى - أى

الضروب التابعة لنفس النوع ، والأنواع التابعة لنفس الطبقة أو للطبقات المتقاربة - والتي بناء على حيازتها لنفس التركيب ، والبنيان ، والعادات تقريبا ، فإنها فى العادة هى التى سوف تواجه أقصى درجات التنافس فيما بينها ، والنتيجة أن كل ضرب أو نوع جديد ، أثناء التقدم فى تكوينه ، سوف يضغط فى العادة بأقصى عنف على أقرب أقربائه ، وسوف يميل إلى استئصالها . ونحن نرى نفس عملية الاستئصال تجرى بين منتجاتنا المدجنة ، من خلال الانتقاء للأشكال المحسنة بواسطة الإنسان . ومن الممكن ضرب الكثير من الأمثلة الغربية التى توضح مدى سرعة السلالات الجديدة من الماشية ، والأغنام ، والحيوانات الأخرى ، وضروب الأزهار ، فى الحلول مكان الأصناف الأكثر قدما والأقل منزلة . ومن المعروف تاريخيا فى مقاطعة "يوركشير" Yorkshire (بشمال إنجلترا) أن الماشية السوداء القديمة قد أزيحت واستبدلت بواسطة الماشية ذات القرون الطويلة ، وأن هذه الأخيرة "قد تم اكتساحها بواسطة الماشية قصيرة القرون" و (أنا هنا أنقل كلمات أحد الكتاب الزراعيين) " كما لو كان ذلك بواسطة وباء^(١) قاتل " .

تشعب الطابع

المبدأ الذى أعنيه بهذا المصطلح ذو أهمية كبرى ، وهو يفسر كما أعتقد ، العديد من الحقائق المهمة . وفى المقام الأول ، فإن الضروب حتى المشهورة جدا ، بالرغم من حيازتها لبعض ما من الطابع الخاص بالأنواع - وهذا يتضح من الشكوك غير المجدية فى الكثير من الحالات فيما يتعلق بكيفية تصنيفها - إلا أنه من المؤكد أنها تختلف عن بعضها البعض بشكل أقل بكثير مما يحدث بين الأنواع الأصلية والمتباينة . وبالرغم من ذلك ، وبناء على وجهة نظرى ، فإن الضروب ماهى إلا أنواع فى مرحلة التكوين ، أو أنها ، كما أطلقت عليها ، أنواع ابتدائية^(٢) . فكيف حدث إذن أن تلك

Pestilence

Incipient Species

(١) وباء = طاعون

(٢) أنواع ابتدائية

الاختلافات الصفري الموجودة بين الضروب قد ازدادت إلى أن أصبحت هذه الاختلافات الكبرى بين الأنواع ؟- وعما إذا كان هذا يحدث بشكل معتاد ، فإننا يجب أن نستدل عليه من معظم الأنواع التي لا تحصى الموجودة في جميع أرجاء الطبيعة والتي تورى اختلافات شديدة الوضوح ، بينما الضروب ، وهي المفترض أن تكون النماذج الأولية والأبوية للأنواع المشهورة في المستقبل ، فهي تورى اختلافات بسيطة وغير واضحة . والمصادفة البحتة ، كما يمكن أن نطلق عليها ، قد تؤدي إلى أن يحدث اختلاف لأحد الضروب في بعض من طابعه عن أبويه ، وأن تختلف نزية هذا الضرب مرة أخرى عن أبويها في نفس هذا الطابع بذاته وبدرجة أكبر، ولكن هذا وحده لن يكون إطلاقاً تفسيراً كافياً لهذه الدرجة المعتادة والكبيرة من الاختلافات كالتى توجد بين الأنواع التابعة لنفس الطبقة.

وكما كانت دائماً هي طريقي ، فأنا قد اهتديت إلى هذا العنوان من خلال منتجاتنا الداجنة . وسوف نجد هنا شيئاً مماثلاً ، فإنه من المعترف به أن إنتاج السلالات التي في غاية الاختلاف عن بعضها مثل الماشية ذات القرون القصيرة وتلك الخاصة بمقاطعة " هيرفورد " Hereford، وحياد السباق وحياد جن العربات ، والأنسال المختلفة للحمام ، وخلافه ، كان لا يمكن أن يحدث عن طريق مجرد التكديس بالمصادفة لتمييزات متماثلة في خلال العديد من الأجيال المتتابة. أما عملياً ، فإنه يحدث على سبيل المثال ، أن ينجذب الهاوى إلى حمامة تتميز بمنقار قصير بشكل بسيط ، وهاو آخر تجذبه حمامة تتميز بمنقار أطول بعض الشيء ، وعملاً بالمبدأ المعترف به أن "الهواة لن يعجبهم المستوى المتوسط ، ولكنهم يعجبون بالتطرفات" . فإن كليهما سوف يستمر (كما حدث بالفعل في السلالات الفرعية للحمام البهلوانى) في الاختيار والأنسال من طيور لها مناقير أطول فأطول ، أو لها مناقير أقصر فأقصر . ومرة أخرى ، من الممكن أن نفترض أنه عند مرحلة مبكرة من التاريخ. فإن الرجال فى إحدى الأمم أو إحدى المناطق قد كانوا فى حاجة إلى جياذ أكثر سرعة ، بينما كان الرجال فى منطقة أخرى فى حاجة إلى جياذ أقوى وأضخم فى الجسم . ومن المحتمل أن الاختلافات المبكرة كانت بسيطة جداً ، ولكن على مدى الزمن ، ونتيجة للانتقاء المستمر للجياذ الأكثر سرعة فى إحدى الحالات ، والأكثر قوة فى حالة أخرى ، فإن

الاختلافات سوف تكون أكبر ، وسوف تكون ملحوظة ، كما لو كان قد حدث تكوين سلالتين فرعيتين . وأخيراً ، وبعد مرور قرون ، فإن هاتين السلالتين الفرعيتين سوف تتحولان إلى سلالتين متوطدتين جداً ومتباينتين عن بعضهما . وكلما أصبحت الاختلافات كبيرة ، فإن الحيوانات الأقل شأناً والتي تتميز بصفات متوسطة ، مما يجعلها لا هي سريعة ولا شديدة القوة ، لن يجرى استخدامها بغرض الإنسال ، وسوف تميل بهذا الشكل إلى الاختفاء . وهكذا فنحن نرى هنا فى منتجات الإنسان التأثير الذى من الممكن أن نطلق عليه " مبدأ التشعب"^(١) ، الذى يسبب اختلافات من الممكن بالكاد تقديرها فى البداية ، وتستمر فى الزيادة باطراد، وإلى تباين السلالات فى الطابع سواء عن بعضها البعض أو عن آبائها المشتركة.

ولكن من الممكن أن يثور تساؤل، عن كيفية استطاعة تطبيق أى مبدأ مماثل فى الطبيعة؟—وأنا أعتقد أنه من المستطاع وأنه يتم بالفعل تطبيقه بأعلى كفاءة (بالرغم من أنه قد مر وقت طويل قبل أن أتبين كيف) ، وذلك مما يحدث ببساطة من أنه كلما زاد تشعب الذرارى المنحدرة عن أى نوع واحد فى التركيب ، والبنيان والسلوكيات ، فإنها بنفس القدر تستطيع بشكل أفضل أن تستحوذ على أماكن عديدة ومتنوعة بشكل عريض فى منظومة الطبيعة، وبذلك سوف يكون باستطاعتها الزيادة فى الأعداد.

ويمكننا أن نتبين هذا بوضوح فى حالة الحيوانات ذات العادات البسيطة . فلك أن تأخذ حالة حيوان رباعى الأرجل من أكلة اللحوم ، والذى وصل عدد أفراده التى من المستطاع أن يتم إعالتها فى أى قطر إلى أعلى معدلاته منذ عهد بعيد . فإذا تم السماح لقدرته الطبيعية للزيادة بأن تعمل ، فإنه سوف ينجح فى الزيادة (بينما القطر لا يمر بأى تغيير فى الظروف) ولكن فقط عن طريق حيازة نراريه المتميزة على الأماكن المحتلة حالياً بواسطة حيوانات أخرى : ويتمكن البعض منها مثلاً من الاعتداء على أنواع جديدة من الفرائس ، سواء كانت ميتة أو حية ، والبعض منها على الاستيطان فى مواقع جديدة ، أو على التسلق للأشجار أو على التردد على الماء ، وربما يصبح البعض منها أقل أكلًا للحوم . وكلما أصبحت الذرارى الخاصة بحيواناتنا

الأكلة للحوم متنوعة في السلوكيات والتركيب ، كانت قادرة على احتلال أماكن أكثر . وما ينطبق على حيوان واحد سوف ينطبق في خلال جميع العصور على جميع الحيوانات - هذا إذن ما حدث وإن تمايزت - لأنه إذا حدث خلاف ذلك ، فإن الانتقال الطبيعي لن يستطيع أن يحقق شيئاً . وهذا ما سوف يكون عليه الحال مع النباتات . وقد تم الإثبات من طريق التجارب ، أنه إذا تم زرع قطعة من الأرض بواسطة أحد الأنواع من الحشائش ، وتم زرع قطعة مماثلة من الأرض بواسطة طبقات متباينة ومنفصلة عن بعضها من الحشائش ، فإنه من الممكن الحصول على عدد أكبر من النباتات ووزن أكبر من الكلا^(١) الجاف في الحالة الأخيرة عما يمكن الحصول عليه في الحالة الأولى . وقد وجد أن نفس الشيء ينطبق تماما عندما تتم زراعة ضرب واحد وضروب مختلفة مختلطة من القمح على مساحتين متساويتين من الأرض . ومن ثم ، فإذا كان لأحد الأنواع من الحشائش أن يستمر في التمايز ، وللضروب أن تنتقى باستمرار بحيث تختلف عن بعضها البعض بنفس الشكل ، ولكن بدرجة بسيطة جداً ، كما يحدث في الأنواع والطبقات المتباينة عن بعضها من الحشائش ، فإنه سوف يكون من المتوقع أن عدداً أكبر من النباتات الفردية التابعة لهذا النوع ، متضمناً ذرائه المعدلة ، سوف ينجح في الحياة على نفس القطعة من الأرض . ونحن نعلم أن كل نوع وكل ضرب من الحشائش ينتج سنويا عددا لا يحصى من البذور ، وهو بذلك يكافح ، كما يقال ، في سبيل الحد الأقصى من الزيادة في العدد ، وبالتالي ، ففي خلال العديد من الآلاف من الأجيال ، فإن أكثر الضروب تباينا من تلك التابعة لأي نوع واحد من الحشائش ، سوف يكون لديها أفضل فرصة للنجاح وللزيادة في الأعداد ، وبالتالي إلى أن تقضى على وتحل محل الضروب الأقل تباينا ، والضروب عندما تصبح متباينة جدا عن بعضها الآخر ، فإنها تكتسب رتبة النوع .

وحقيقة المبدأ القائل بأنه من الممكن إعالة أكبر كمية من الحياة عن طريق حدوث تنوعات عظيمة في التركيب ، تشاهد تحت ظروف طبيعية كثيرة . ففي منطقة متناهية في الصغر ، وخاصة إذا كانت مفتوحة بحرية للهجرة ، والتي من المحتم أن يكون

الصراع فيها بين الفرد والفرد فى منتهى الشدة ، فإننا نجد دائما تنوعا هائلا للقائنين بها . وعلى سبيل المثال ، فأنا قد وجدت أن قطعة من التربة السطحية^(١) ، مساحتها ثلاثة أقدام فى أربعة أقدام ، والتي كانت معرضة لعدة سنوات إلى نفس الظروف بالضبط ، تعول عشرين نوعا من النباتات ، وهذه النباتات كانت تابعة إلى ثمانى عشرة طبقة وإلى ثمانى رتب ، وهذا يبين الحد الذى وصل إليه اختلاف هذه النباتات عن بعضها الآخر . وهذا هو الحال مع النباتات والحشرات الموجودة على الجزيرات الصغيرة والمتماثلة ، وأيضا فى برك المياه العذبة الصغيرة . ويجد المزارعون أنهم يستطيعون إنماء معظم أنواع الطعام عن طريق المناوبة فى زراعة نباتات تابعة لأكثر الرتب اختلافا : فالطبيعة تقتفى أثر ما قد يسمى "التناوب المتزامن"^(٢) . ومعظم الحيوانات والنباتات التى تعيش بالجوار القريب من أى قطعة صغيرة من الأرض ، تستطيع أن تعيش عليها (وذلك بفرض أن تكون طبيعتها ليست خاصة بأى طريقة ما) ، وقد يقال عنها إنها تكافح بأقصى جهدها للمعيشة هناك ، ولكنه من المشاهد أنها عندما تواجه بالمنافسة الحميمة جداً ، فإن ميزات التنوع فى التركيب ، مع الاختلافات المصاحبة فى السلوكيات والبنيان هى التى سوف تحدد إذا ما كان القاطنون ، الذين قد ناطحوا بهذا الشكل بعضهم الآخر عن قرب ، سوف يصبحون تابعين كقاعدة عامة إلى ما نطلق عليه طبقات أو رتب مختلفة .

ومن الممكن رؤية نفس المبدأ فى حالة أقلمة النباتات عن طريق وساطة الإنسان ، فى الأراضى الغريبة عليها ، وقد يكون من المتوقع من النباتات التى سوف تنجح فى أن تصبح متأقلمة فى أى أرض ، أنها كانت بشكل عام متقاربة بشكل حميم مع النباتات المحلية ، لأنه يتم النظر عادة إلى الأخيرة على أساس أنه قد تم ابتداعها وتكييفها بشكل خاص من أجل الوطن الخاص بها . وربما قد كان من المتوقع أن تكون النباتات المتأقلمة تابعة إلى مجموعات قليلة متكيفة بشكل أكثر خصوصية مع مواقع معينة فى موطنها الجديدة . ولكن الحالة مختلفة تماما ، وقد علق بشكل جيد على ذلك

Turf

(١) التربة السطحية : الطبقة العليا من التربة والمشملة على العشب وجذوره *

Simultaneous Rotation

(٢) التناوب المتزامن *

"ألفريد دى كاندول" فى بحثه العظيم والجدير بالإعجاب بأن التجمعات النباتية تكتسب عن طريق التأقلم، بشكل متناسب مع عدد الطبقات والأنواع المحلية ، قدرا أكبر بكثير من الطبقات الجديدة عن اكتسابها لأنواع جديدة. ولكى نقدم مثلا واحدا، فإننا نجد فى الطبعة الأخيرة من كتاب " الدكتور أسا جراى" بعنوان " الوجيز فى النباتات الإقليمية لشمالي الولايات المتحدة " **Manual of the Flora of the Northern United States**، أنه قد سرد ٢٦٠ من النباتات المتأقلمة ، وتلك كانت تابعة إلى ١٦٢ طبقة. وهكذا فنحن نرى أن هذه النباتات المتأقلمة ذات طبيعة غاية فى التنوع . والأكثر من ذلك ، أنها تختلف إلى حد كبير عن النباتات المحلية ، وذلك لأنه من ضمن المائة واثنين وستين طبقة متأقلمة ، كان هناك يوجد ما لا يقل عن ١٠٠ طبقة غير موجودة هناك محليا ، وهكذا فإن إضافة نسبية كبيرة قد حدثت للطبقات التى تعيش حالياً فى الولايات المتحدة .

وبالتفكير فى طبيعة النباتات أو الحيوانات التى قد تنازعت بنجاح فى أى قطر مع الأشكال المحلية، وأصبحت متأقلمة هناك ، فمن الممكن أن تتكون لدينا فكرة فجأة عن الطريقة التى يجب أن يتعدل بها بعض الحيوانات أو النباتات المحلية، من أجل اكتساب ميزة على منافستها ، ومن الممكن على الأقل أن نستنتج أن التنوع فى التركيب ، الذى قد يؤدى إلى اختلافات جنسية جديدة ، سوف يكون مفيدا لها .

وميزة تنوع التركيب فى القاطنين فى نفس المنطقة هى فى الحقيقة مماثلة لنفس ميزة التقسيم الوظيفى للعمل فى الأعضاء الخاصة بنفس الجسم الفردى - وهو موضوع تم شرحه بشكل جيد بواسطة " ميلن إواردز" **Milne Edwards** . ولا يشك أحد من الخبراء فى علم وظائف الأعضاء فى أن معدة ما مكيفة لكى تقوم بهضم مواد الخضراوات وحدها ، أو اللحوم فقط، تستطيع أن تستمد معظم المواد الغذائية من هذه المواد . وهذا هو الحال فى المنظومة العامة لأى أرض ، فكلما زاد تنوع الحيوانات والنباتات فى الاتساع وفى الاكتمال فيما يتعلق بالسلوكيات المختلفة للحياة ، سوف يصبح عدد أكبر من الأفراد قادرا على إعالة نفسه . فإننا نجد أن مجموعة من الحيوانات ، التى لا تتميز تعضيبتها إلا بتنوع بسيط ، سوف يكون من الصعب عليها أن تتنافس مع مجموعة أكثر تنوعا بشكل مكتمل فى التركيب . وعلى سبيل المثال ،

فإنه قد يكون مثارا للشك ما إذا كانت الحيوانات الجرابية الأسترالية ، المقسمة إلى مجموعات لا تختلف إلا قليلا عن بعضها البعض ، والتي تمثل بشكل ضعيف ، كما علق " السيد ووترهاوس " **Waterhouse** وآخرون ، حيواناتنا الآكلة للحوم ، وحيواناتنا المجترية ، وحيواناتنا الثديية القارضة ، تستطيع المنافسة بنجاح مع هذه الرتب الجيدة التكوين، ونحن نرى في حالة الثدييات الأسترالية ، أن عملية التنوع مرحلة مبكرة وغير مكتملة من التكوين .

النتائج المحتملة لمفعول الانتقاء الطبيعي من خلال تشعب الطابع

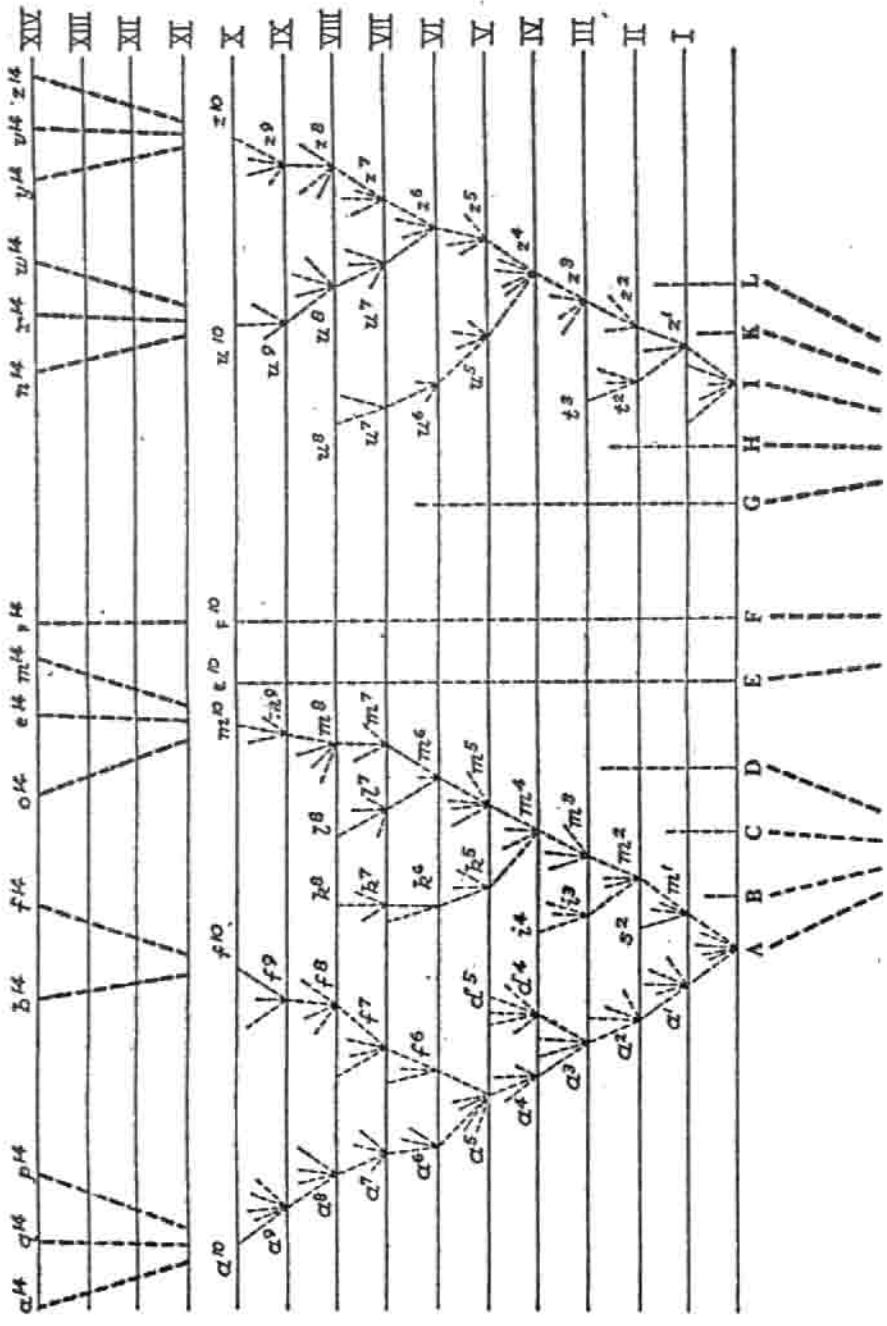
والانقراض على المنحدرين من سلف مشترك

بعد المناقشة السابقة ، والتي قد تم ضغطها بشكل كبير ، فإنه من الممكن لنا أن نفترض أن الذراري المعدلة التابعة لأي نوع واحد سوف تنجح بصورة أفضل بكثير عندما تصبح أكثر تنوعا في التركيب ، وبهذا تتمكن من التعدي على أماكن مختلفة بواسطة كائنات أخرى . والآن دعنا نرى كيف ينصرف إلى العمل هذا المبدأ الخاص بالاستفادة المستمدة من تشعب الطابع ، بالاشتراك مع المبادئ الخاصة بالانتقاء الطبيعي والانقراض .

والرسم البياني المرفق سوف يساعدنا على تفهم هذا الموضوع المحير إلى حد ما . (وقد فضل المترجم أن يضم صورة الرسم كما هي بنون تعريب للحروف والأرقام منعا للالتباس) ، دع الحروف من (A) إلى (L) تمثل الأنواع التابعة إلى طبقة كبيرة في وطنها ، ومن المفروض أن هذه الأنواع تماثل بعضها الآخر بدرجات غير متساوية ، وذلك طبقاً للموجود عادة في الطبيعة ، وكما هي ممثلة في الرسم في كون الحروف تقف على مسافات غير متساوية . وأنا قد حددت أنها طبقة كبيرة ، لأنه كما رأينا في الفصل الثاني، أن عددا أكبر من الأنواع يتميز في المتوسط في الطبقات الكبيرة عنه في الطبقات الصغيرة ، وأن الأنواع المتميزة التابعة للطبقات الكبيرة تنتج عددا أكبر من الضروب . وقد رأينا أيضا أن الأنواع الأكثر شيوعا والأوسع انتشارا ، تتميز

بشكل أكبر من الأنواع النادرة والمحددة الانتشار . وليكن (A) هو نوع شائع وواسع الانتشار والتمايز ، وتابع لطبقة كبيرة فى موطنه الخاص . أما الخطوط المتفرقة والمتشعبة المنقوطة وغير المتساوية فى الطول المنبثقة من (A) فقد تكون ممثلة لدراريه التمايزة . وهذه التمايزات من المفروض أن تكون فى منتهى البساطة ولكنها على أعلى مستوى من التنوع فى طبيعتها ، ومن غير المفترض أن تظهر كلها فى وقت متزامن ، ولكنها غالبا ما تفترق عن بعضها بفترات طويلة من الزمن ، وليس أيضا من المفترض أن جميعها سوف يستمر لفترات زمنية متساوية . وتلك التمايزات المفيدة بأى طريقة من الطرق هى الوحيدة التى سوف يتم الاحتفاظ بها أو سوف يتم انتقاؤها طبيعيا . وهنا تظهر أهمية المبدأ الخاص بالفائدة المستمدة من التنوع فى الطابع ، لأن ذلك على العموم سوف يؤدي إلى ظهور أكثر الضروب اختلافا وتباينا (ممثلة فى الخطوط الخارجية المنقوطة) والتي قد تم الاحتفاظ بها وتكديسها بواسطة الانتقاء الطبيعى . وعندما يصل أحد الخطوط المنقوطة إلى أحد الخطوط الأفقية ، وسنجد هناك مؤشرا عليه بحرف صغير مرقم ، فإنه من المفترض أن يكون قد حدث تكديس لكمية من التمايز كافية لكى تحوله إلى ضرب واضح تماما ، مثل تلك الضروب الجديرة بالتفكير فى أنها تستحق التسجيل فى أحد البحوث التصنيفية .

المسافات الفاصلة بين الخطوط الأفقية فى الرسم البيانى ، قد يمثل كل منها ألفا أو أكثر من الأجيال . فإنه من المفترض بعد ألف جيل ، أن يكون النوع (A) قد أنتج اثنين من الضروب المحددة بوضوح ، وهما (a1) و (m1) . وهذان الضريان سوف يكونان على العموم مازالا معرضين إلى نفس الظروف التى جعلت أباهما متميزة ، والقابلية للتمايز شىء متوارث فى حد ذاتها ، وبالتالي فإنهما سوف يميلان بالمثل إلى أن يتمايزا ، وفى المعتاد بنفس الطريقة التى قد تمايز بها والداهما تقريبا . والأكثر من ذلك أن هذين الضربين لكونهما مجرد شكلين معدلين بشكل بسيط فقط ، فإنهما سوف يميلان إلى وراثة هذه المزايا التى جعلت والدهما (A) أكثر عددا من معظم القاطنين الآخرين فى نفس الوطن ، وسوف يشتركان فى هذه المزايا الأكثر عمومية ، التى جعلت الطبقة التى يتبعها النوع الأبوى ، طبقة كبيرة فى الوطن الخاص به . وجميع هذه الظروف هى ظروف موالية لإنتاج الضروب الجديدة .



وإذا ما كان، هذان الضربان قابليين للتمايز ، فإن أكثر التشعب الذى يحدث فى تمايزهما سوف يتم الاحتفاظ به بوجه عام فى أثناء الألف جيل التالية . وبعد هذه الفترة ، فمن المفروض أن الضرب (a1) فى الرسم البيانى سوف يختلف عن النوع (A) بشكل أكثر مما حدث مع الضرب (a2)، والذى طبقاً لمبدأ التشعب، سوف يختلف عن النوع (A) بشكل أكثر مما حدث مع الضرب (a1) . أما الضرب (m1) فمن المفترض أنه قد أنتج اثنين من الضروب ، هما (m2) و (S2)، المختلفان عن بعضهما الآخر وبشكل أكبر عن والديهما النوع (A) . ومن الممكن لنا أن نستمر فى العملية عن طريق خطوات مماثلة لأى مدة طويلة من الزمن ، فالبعض من الضروب قد ينتج بعد كل ألف من الأجيال ضرباً واحداً ، ولكن تحت ظروف أكثر فاكتر تعديلاً ، فإن بعض الضروب قد تنتج نوعين أو ثلاثة أنواع من الضروب ، وبعضها قد يفشل فى إنتاج أى ضرب على الإطلاق . وبهذا الشكل فإن الضروب أو الذرارى المعدلة للوالد المشترك (A) سوف تستمر عموماً فى الزيادة فى العدد ، وفى التشعب فى الطابع . والعملية فى الرسم البيانى ممثلة إلى حدود عشرة آلاف جيل ، وتحت أحد الأشكال المكثفة والمبسطة إلى حد الأربعة عشر ألفاً من الأجيال.

ولكنه يجب على أن أعلق هنا على أننى لا أفترض أن العملية تظل ماضية على الإطلاق بهذا الشكل المنتظم كما هو موضح بالرسم البيانى ، مع أنه قد تم إيقاعها عليه بشكل غير منتظم بعض الشيء ، ولا أنها تظل مستمرة ، فالاحتمال الأكبر جداً أن كل شكل قد يظل بدون تغيير لفترات طويلة ، ثم بعد ذلك يمر فى مرحلة تعديل مرة أخرى . وأنا لا أفترض أنه من المؤكد الاحتفاظ بأكثر الضروب تنوعاً ، فإنه كثيراً ما يبقى شكل متوسط لمدة طويلة ، ومن الممكن أن ينتج أو لا ينتج أكثر من سليل معدل واحد ، وذلك لأن الانتقاء الطبيعى سوف يعمل بناء على الطبيعة الخاصة بالأماكن التى قد تكون إما غير محتلة أو ليست محتلة بشكل كامل بكائنات أخرى ، وهذا سوف يعتمد على علاقات معقدة بشكل لا نهائى . ولكن كقاعدة عامة ، فإنه كلما زاد تنوع الذرارى الناتجة عن أى نوع واحد فى التركيب ، زادت الأماكن التى سوف تستطيع أن تستولى عليها ، وكلما ازدادت نريتها المعدلة . ومن المشاهد فى رسمنا البيانى أن خط

التعاقب ينقطع عند فترات فاصلة منتظمة بواسطة حروف صغيرة مرقمة تحدد الأشكال المتعاقبة التي قد أصبحت متباينة بشكل يكفى لأن يجعلها تسجل على أساس أنها ضروب . ولكن هذه الفواصل فى الواقع متخيلة ، وقد كان من الممكن إقحامها فى أى مكان ، بعد فترات فاصلة تطول إلى حد السماح بتراكم كمية لها اعتبارها من الضروب المتنوعة.

وبما أن جميع الذرارى المعدلة المنحدرة من نوع شائع وواسع الانتشار ، والذي ينتسب إلى طبقة كبيرة ، سوف تميل إلى الاشتراك فى نفس المزايا التي جعلت آباءها ناجحة فى الحياة ، فإنها سوف تستمر على العموم فى التضاعف فى العدد بالإضافة إلى التشعب فى الطابع : ونجد هذا ممثلا فى الرسم البيانى بواسطة الفروع المتشعبة المختلفة المنبثقة من (A) . أما الذرية المعدلة من الفروع الأخيرة المحسنة بشكل أعلى بكثير فى خطوط النشأة ، فإنها فى الغالب سوف تأخذ فى كثير من الأحيان مكانا ، وبالتالي سوف تدمر ، الفروع الأحدث والأقل تحسنا ، وهذا يبدو فى الرسم البيانى فى صورة أن بعضا من الفروع السفلى لا يصل إلى الخطوط الأفقية العليا . وفى بعض الحالات لا يوجد شك فى أن عملية التعديل سوف تكون مقصورة على خط منفرد للنشأة وأن عدد الذرارى المعدلة سوف لن يزيد ، مع أن كمية التعديل المتشعب من المحتمل أن تكون قد زادت . وهذه الحالة سوف تكون موضحة على الرسم البيانى ، إذا ما أزيلت كل الخطوط المنبثقة من (A)، ما عدا الخطوط من (a1) إلى (a10) ويبدو أن ذلك هو ما قد حدث لكل من جواد السباق الإنجليزي والكلب الإنجليزي المرشد حيث يبدو واضحا أنه حدث لهما تشعب ببطء فى الطابع من أصولهما البدائية ، بدون أن يقوم أى منهما بأى فروع أو سلالات جديدة .

ومن المفروض بعد عشرة آلاف من الأجيال ، أن يكون النوع (A) قد أنتج ثلاثة أشكالا هى (a10) و (F10)، (m10)، التي نتيجة لتشعبها فى الطابع من خلال الأجيال المتتابعة ، سوف تكون قد اختلفت بشكل كبير ، ولكن ربما بقدر غير متساو ، عن بعضها الآخر وعن والدها المشترك . وإذا افترضنا أن كمية التغيير الموجودة بين كل من الخطوط الأفقية فى رسمنا البيانى متناهية فى الصغر ، فإن هذه الأشكال الثلاثة من الممكن أن تظل ضروبا محددة فقط ، ولكن علينا فقط أن نفترض أن الخطوات

الضرورية فى عملية التعديل قد تكون أكثر عدداً أو أكبر فى الكمية ، من أجل تحويل هذه الأشكال الثلاثة إلى أنواع مشكوك فيها أو على الأقل إلى أنواع محددة تماماً . وهكذا فإن الرسم البيانى يوضح الخطوات التى زادت عن طريقها الاختلافات الصغيرة التى تميز الضروب عن بعضها ، إلى الاختلافات الأكبر التى تميز ما بين الأنواع ، وعن طريق استمرار نفس العملية لعدد أكبر من الأجيال (كما هو موضح بالرسم البيانى بشكل مختصر ومبسط) ، فنحن نحصل على ثمانية أنواع ممثلة بالحروف الواقعة ما بين (a14) و (m14) وكلها قد نشأت من النوع (A)، وبهذه الطريقة ، حسب اعتقادى ، فإنه يحدث تضاعف للأنواع وتكون للطبقات .

من المحتمل فى إحدى الطبقات الكبيرة أن يحدث تمايز لأكثر من نوع واحد ، وقد افترضت فى الرسم البيانى أن نوعاً ثانياً هو (I) قد أنتج عن طريق خطوات متطابقة ، بعد عشرة آلاف من الأجيال ، اثنين من الضروب المحددة تماماً وهما (W10 و Z10) أو اثنين من الأنواع ، اعتماداً على كمية التغيير التى من المفترض أن تكون ممثلة بين الخطوط الأفقية . وبعد أربعة عشر ألفاً من الأجيال ، فمن المفترض أن يكون قد تم تكوين ستة أنواع جديدة ، ممثلة بالحروف من (n14) إلى (z14) . وفى أى طبقة، فإن الأنواع التى هى حالياً شديدة الاختلاف فى الطابع عن بعضها الآخر ، سوف تميل فى العادة إلى إنتاج أكبر عدد من الذرارى المعدلة ، وذلك لأن هذه الذرارى سوف تكون لديها أفضل فرصة للاستحواذ على مناطق جديدة ومختلفة بشكل عريض فى منظومة الطبيعة : ومن ثم ، فإننى قد اخترت فى الرسم البيانى النوع المتطرف (A)، علاوة على النوع المتطرف مثله تقريباً (I)، بصفتها يمثلان الأنواع التى قد تمايزت بشكل كبير ، ونتج عنها ضروب وأنواع جديدة . أما الأنواع التسعة الأخرى (المحددة بالحروف الكبيرة) التابعة للطبقة الأصلية التى نحن بصدها ، فقد تستمر لفترات طويلة ولكنها غير متساوية ، فى بث ذرارى غير متغيرة ، وهذا موضح فى الرسم البيانى بواسطة الخطوط المنقوطة الممتدة بشكل غير متساو إلى أعلى .

ولكن أثناء عملية التعديل، الممثلة فى الرسم البيانى ، فإن مبدأ آخر من مبادئنا ، ألا وهو المسمى مبدأ الانقراض ، سوف يكون قد لعب دوراً مهماً . وذلك لأنه فى كل موطن محتشد إلى آخره ، فإنه من الضرورى للانتقاء الطبيعى أن يعمل عن طريق أن

الشكل المنتقى سوف يكون لديه ميزة ما فى التنازع من أجل الحياة أكثر من الأشكال الأخرى ، وأنه سوف يكون هناك ميل مستمر لدى الذرارى المحسنة التابعة لأى نوع معين لكى تحل محل وتبيد ، فى كل مرحلة من مراحل النشوء ، أسلافها وأجدادها الأصليين . وذلك لأنه يجب أن نتذكر أن المنافسة سوف تكون فى العادة أكثر ضراوة بين هذه الأشكال التى هى أكثر قربا فى صلتها مع بعضها الآخر فى السلوكيات ، والبنيان ، والتركييب . ومن ثم فإن جميع الأشكال المتوسطة فيما بين الحالات البدائية والمتأخرة ، وذلك يعنى بين الحالات الأقل والحالات الأكثر تحسنا التابعة لنفس النوع ، علاوة على النوع الأبوى الأسمى نفسه ، سوف تميل على العموم إلى أن تصبح منقرضة . وغالباً ما سيحدث ذلك مع الكثير من الخطوط المتوازية للنشوء بأكملها ، التى سوف تقهر بواسطة الخطوط الأخيرة والمحسنة. ومع ذلك ، فإنه إذا انتقلت الذرية المعدلة الخاصة بأحد الأنواع إلى أحد المواطنين المختلفة ، أو أصبحت متكيفة بشكل سريع مع موقع جديد جداً ، والذى لا مجال فيه للتنافس بين الذرية والآباء الأصلية ، فإن كليهما قد يستطيع الاستمرار فى البقاء.

وعندئذ ، فإذا فرض أن رسمنا البيانى يمثل كمية محترمة من التعديل ، فإن النوع (A) وجميع الضروب المبكرة سوف تكون قد انقرضت ، وذلك بإحلالها بثمانية أنواع جديدة (a14 إلى m14) ، وأن النوع (I) سوف يحل مكانه ستة (n14 إلى Z14) من الأنواع الجديدة .

ولكننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا . فالمفروض أن الأنواع الأصلية الخاصة بالطبقة التى نحن بصددتها تماثل بعضها الآخر بدرجات غير متساوية ، كما هو الحال عموماً فى الطبيعة ، فالنوع (A) هو أقرب فى العلاقة إلى (B) و (C) و (D) عنه إلى الأنواع الأخرى ، والنوع (I) أقرب فى العلاقة إلى (G) و (H) و (K) و (L) عنه إلى الآخرين . وهذان النوعان (A) و (I) كان من المفروض أيضاً أن يكونا نوعين شديدي الشيعوع وواسعى الانتشار ، وذلك لأنهما كان يجب أن يكون ليهما ميزة ما على معظم الأنواع الأخرى التابعة للطبقة. والذرارى المعدلة الخاصة بها ، البالغ عددها أربعة عشر ، بعد أربعة عشر ألف جيل ، من المحتمل أنها سوف تترث بعضاً من نفس هذه الميزات : فقد حدث لها تعديل وتحسين بشكل متشعب عند كل مرحلة من مراحل

النشوء ، وذلك لكى تصبح متكيفة على أماكن كثيرة متعلقة بها فى النظام الطبيعى الخاص بموطنها . ولهذا فإنه يبدو أنه من المرجح جداً أنهم قد حلت محل ، وبالتالي استأصلت ليس فقط أبويها (A) و (I)، ولكنها فعلت نفس الشيء مع بعض الأنواع الأصلية التى كانت أكثر قربا فى العلاقة مع آبائها . ومن ثم ، فقليل جدا من الأنواع الأصلية سوف تتمكن من نقل ذريتها إلى حد أربعة عشر ألف جيل . ومن الممكن أن نفترض أن نوعا واحدا (F)، من بين النوعين (E) و (F) اللذين كانا على أقل درجة من الصلة بالأنواع التسعة الأصلية الأخرى ، هو الذى نجح فى نقل ذريته إلى هذه المرحلة المتأخرة من النشوء .

والأنواع الجديدة فى رسمنا البيانى التى انحدرت من الأنواع الأحد عشر الأصلية ، سوف تصبح الآن خمسة عشر فى العدد . ونتيجة للقابلية للتنوع الخاصة بالانتقاء الطبيعى ، فإن الحد الأقصى لكمية الاختلاف فى الطابع بين النوع (A14)، والنوع (z14) سوف يكون أكبر بكثير عنه بين أكثر الأنواع تباينا فى الأنواع الأحد عشر الأصلية . والأكثر من ذلك ، أن الأنواع الجديدة سوف تكون متقاربة إلى بعضها البعض بطريقة عريضة الاختلاف جداً . ومن ثمانية الأنواع المنحدرة عن (A) نجد أن ثلاثة منها وهى (a14) و (q14) و (p14) سوف تكون متقاربة جدا وذلك بناء على حداثة عهدا بالتفرع من (a10) و (b14) و (f14)، والتى نتيجة لتشعبها عند مرحلة مبكرة من (a5)، سوف تكون متباينة بدرجة ما عن ثلاثة الأنواع التى تم ذكر اسمها فى الأول . وأخيراً فإن (o14) و (e14) و (m14) سوف تكون متقاربة جداً إلى بعضها البعض ، ولكن بسبب تشعبها عند البداية الأولى لعملية التعديل ، فإنها سوف تكون مختلفة بشدة من الخمسة أنواع الأخرى ، وقد تكون طبقة فرعية أو طبقة منفصلة .

والذرائى الست المنحدرة من (I) سوف تقوم بتكوين اثنين من الطبقات الفرعية أو الطبقات المنفصلة . ولكن بما أن النوع الأسمى (I) مختلف بشكل كبير عن (A)، ويقف تقريبا عند النهاية القصوى للطبقة الأصلية ، فإن الذرائى الست المنحدرة من (I) بناء على الوراثة وحدها ، سوف تختلف بشكل ملحوظ عن الذرائى الثمانية المنحدرة من (A)، والأكثر من ذلك ، أنه من المفروض أن المجموعتين قد استمرتتا فى التشعب فى اتجاهات مختلفة . وأيضاً ، فإن الأنواع المتوسطة (وهذا اعتبار مهم جداً) التى

كانت تربط ما بين النوعين الأصليين (A)، و (I)، قد انقرضت جميعها ما عدا النوع (F)، ولم تترك وراءها أية نزية . ومن ثم ، فإن الذراري الست الجديدة المنحدرة من (I)، والذراري الثماني المنحدرة من (A)، يجب تصنيفها على أساس أنها طبقات منفصلة تماما ، أو حتى على أساس أنها فصائل فرعية منفصلة .

وهكذا فالأمر كما أعتقد ، أنه قد تم إنتاج اثنين أو أكثر من الطبقات عن طريق النشوء مع التعديل ، من اثنين أو أكثر من الأنواع التابعة لنفس الطبقة . والاثنتان أو أكثر من الأنواع الأبوية ، من المفروض أنها قد انحدرت من نوع واحد تابع لطبقة أكثر تبكيرا . وهذا موضح فى رسمنا البيانى بواسطة الخطوط المتقطعة الموجودة تحت الحروف الكبيرة المتقاربة فى شعب فرعية تهبط فى اتجاه نقطة واحدة ، وهذه النقطة تمثل أحد الأنواع ، المفترض أنه الجد الأعلى لمختلف طبقاتنا الفرعية وطبقاتنا الجديدة.

ومما يستحق الاعتبار تقلب الفكر لبعض الوقت فى الطابع الخاص بالنوع الجديد (F14)، والمفروض أنه لم ينحرف كثيراً فى الطابع ، ولكنه قد احتفظ بالشكل الخاص بالنوع (F)، إما بدون تغيير أو بتغيير بسيط فقط . وفى هذه الحالة فإننا نجد أن ارتباطاته مع الأنواع الأربعة عشر الجديدة الأخرى سوف تكون ذات طبيعة غريبة وغير مباشرة . فلأنه قد انحدر من شكل يقع بين الأنواع الأبوية (A)، (I)، المفترض أنها قد انقرضت وأصبحت غير معروفة ، فإنه سوف يكون ذا طابع متوسط بدرجة ما بين المجموعتين المنحدرتين من هذين النوعين . ولكن بما أن هاتين المجموعتين قد استمرتتا فى الانحراف فى الطابع عن النوع الخاص بأبويهما ، فإن النوع الجديد (F14) لن يكون متوسطا فيما بينها بشكل مباشر ، ولكن على الأصح سيكون متوسطا فيما بين الطرازات التابعة للمجموعتين ، وكل عالم فى التاريخ الطبيعى سوف يكون بإمكانه أن يستعرض مثل هذه الحالات فى ذهنه.

ومن المفروض حتى الآن فى الرسم البيانى ، أن كل خط أفقى يمثل ألفا من الأجيال ، ولكن كل واحد منها قد يمثل مليوناً أو أكثر من الأجيال ، وقد يمثل قطاعا من الطبقات المتتالية من القشرة الأرضية المتضمنة على البقايا المندثرة . وعندما نصل

إلى بابنا الخاص بعلم طبقات الأرض ، فسوف يكون من الواجب علينا أن نرجع مرة ثانية إلى هذا الموضوع ، وأعتقد أننا عندئذ سوف نرى أن الرسم البياني يلقي الضوء على الارتباطات الموجودة بين الكائنات المنقرضة ، والتي مع أنها تتبع على وجه العموم لنفس الرتب أو الفصائل ، أو الطبقات التي تعيش حالياً ، إلا أنها قد تكون فى كثير من الأحوال متوسطة فى الطبع ، بدرجة ما ، بين الأنواع الموجودة الآن ، ونحن نستطيع أن نفهم هذه الحقيقة ، وذلك لأن الأنواع المنقرضة قد عاشت فى عهود سحيقة مختلفة ، فى وقت كانت فيه التشعبات الخاصة بالخطوط المتفرعة للانحدار أقل .

وأنا لا أرى سببا لقصر عملية التعديل ، كما تم توضيحها الآن ، على تكوين الطبقات فقط . فإذا افترضنا فى الرسم البياني أن كمية التغيير الممتلئة بواسطة كل مجموعة متتالية من الخطوط المنقوطة المتشعبة هى كمية كبيرة ، فإن الأشكال التى تحمل العلامات من (a14) إلى (p14)، وتلك العلامات من (b14) إلى (f14) وتلك العلامات من (o14) إلى (m14)، سوف تكون ثلاث من الطبقات المتباينة تماماً . وسوف يكون لدينا أيضا اثنتان من الفصائل المتباينة ، أو الرتب المتباينة اعتمادا على كمية التعديل المتشعب المفترض أن يكون ممثلا فى الرسم البياني . وهاتان الفصيلتان أو الربتتان الجديدتان ، قد انحدرتا من اثنتين من الأنواع التابعة للطبقة الأصلية ، وهذه الطبقات من المفترض أنها قد انحدرت عن شكل غير معروف أكثر إيغالاً فى القدم .

وقد رأينا فى كل قطر أن النوع التابع للطبقات الكبرى هو الذى يكون فى الغالب ضروبا أو أنواعا ابتدائية . وهذا هو الذى قد يكون متوقعا بالفعل ، وذلك لأنه بما أن الانتقاء الطبيعى يعمل من خلال أن أحد الأشكال لديه ميزة ما عن أشكال أخرى فى أثناء التنافس من أجل البقاء ، فإنه سوف يعمل بشكل أساسى على هذه الأشكال التى لديها بالفعل ميزة ما ، والتوسع الذى يحدث لأى مجموعة يبين أن أنواعها قد ورثت من سلف مشترك ميزة مشتركة ما . ومن ثم ، فإن التنافس من أجل إنتاج زرارى جديدة ومعدلة سوف يقع أساساً بين المجموعات الكبرى التى نجد أن جميعها يحاول أن يزيد فى العدد . وسنجد أن مجموعة كبيرة سوف تتغلب ببطء على مجموعة كبيرة أخرى ،

وتنقص من أعدادها، وبذلك تقلل من فرصتها للاستمرار فى التمايز والتعديل . ومن ضمن نفس المجموعة الكبيرة فإن المجموعات الفرعية الأكثر تأخرا فى الظهور والأعلى اكتمالا ، نتيجة التوسع فى التفرع والحيازة للكثير من الأماكن الجديدة الموجودة فى منظومة الطبيعة ، وبالتالي فسوف تميل إلى أن تحل وتهلك المجموعات الفرعية المبكرة والأقل تحسنا . أما المجموعات والمجموعات الفرعية الصغيرة والمفككة فإنها سوف تختفى فى النهاية . وبالنظر إلى المستقبل ، فإنه من الممكن لنا أن نتنبأ بأن المجموعات الخاصة بالكائنات العضوية التى هى الآن كبيرة ومنتصرة، والتى هى الأقل فى التفكير، وهذا يعنى ، تلك المجموعات التى قد عانت إلى الآن من أقل قدر من الانقراض ، سوف تستمر لمدة طويلة فى الزيادة . ولكن فيما يتعلق بما المجموعات التى سوف تسود فى النهاية ، فإن ذلك شىء لا يمكن أن يتنبأ به أحد ، وذلك لأننا نعلم أن الكثير من المجموعات التى كانت من قبل على درجة عالية جداً من التكوين ، قد أصبحت منقرضة الآن . وبالنظر إلى المستقبل بدرجة أكبر ، فإنه من المحتمل أن نتنبأ بأنه نتيجة للزيادة المستمرة والمنظمة للمجموعات الكبرى ، فإن عددا كبيرا من المجموعات الصغرى سوف تصبح منقرضة تماما ، ولا تترك خلفها أى زرارى معدلة ، وبالتالي فإنه من ضمن الأنواع التى تعيش فى أى فترة زمنية ، فإن القليل النادر منها هو الذى سوف يتمكن من نقل زرارى له إلى مستقبل بعيد . وأنا سوف أكون مضطرا إلى العودة إلى هذا الموضوع فى الباب الخاص بالتصنيف ، ولكنى أستطيع أن أضيف التالى ، إنه بناء على هذه الوجهة من النظر ، فإن القليل النادر من الأنواع الأكثر تقدما قد استطاعت أن تنتقل زرارى لها إلى وقتنا الحاضر ، وبما أن جميع الزرارى التابعة لنفس النوع تكون طائفة ، فإنه من الممكن لنا أن نفهم كيف أنه يوجد هناك مثل هذا العدد القليل من الطوائف فى كل قسم رئيسى من أقسام الممالك الحيوانية والنباتية . وبالرغم من أن القليل من أكثر الأنواع إيغالا فى القدم قد خلفت وراعا زرارى معدلة ، إلا أنه فى الفترات الجيولوجية البعيدة ، فإن الأرض من المحتمل أنها قد كانت مأهولة بنفس الطريقة بالأنواع التابعة للكثير من الطبقات والرتب والطوائف مثلما يوجد فى وقتنا الحاضر.

ما يتعلق بالدرجة التي تميل التعضية إلى التقدم بها

الانتقاء الطبيعي يعمل على وجه القصر عن طريق الاحتفاظ والتكديس للتمايزات ، التي هي مفيدة تحت الظروف العضوية وغير العضوية التي يتعرض لها كل كائن حي في جميع فترات الحياة ، والنتيجة النهائية أن كل من الكائنات يميل إلى أن يصبح أكثر فأكثر تحسنا بالنسبة إلى ظروفه . وهذا التحسن يقود بالضرورة إلى التقدم التدريجي في التعضية الخاصة بالعدد الأكبر من الكائنات الحية في جميع أنحاء العالم. ولكننا هنا ندخل إلى موضوع معقد للغاية ، وذلك لأن علماء التاريخ الطبيعي لم يتوصلوا إلى تعريف يرضى الجميع عما يعنيه تعبير "تقدم في التعضية". فمن الواضح بين الحيوانات الفقارية ، أن درجة الذكاء والاقتراب في التركيب من الإنسان لهما دور يلعبانه . وقد يكون من المتصور أن كمية التغيير التي تمر بها الأجزاء والأعضاء المختلفة في أثناء تكوينها من مرحلة الجنين إلى مرحلة النضج سوف يكون فيها الكفاية كأساس للمقارنة ، ولكن هناك حالات ، مثل بعض القشريات الطفيلية المعينة ، والتي نجد فيها أن أجزاء كثيرة من التركيب تصبح أقل اكتمالا، إلى درجة أن الحيوان البالغ لا يمكن أن يطلق عليه أنه أعلى من يرقاته. ويبدو أن مقياس "فون بير" **Von Bear** هو الأوسع استخداما وأنه الأفضل ، وهذا يعني : الكمية الخاصة بتخليق^(١) الأجزاء التابعة لنفس الكائن العضوي - وأنا أميل إلى أنه يجب إضافة عبارة " في مرحلة النضوج" - وجعلها متخصصة^(٢) في الوظائف المختلفة . أو كما يعبر عنها "ميلن إواردز" **Milne Edwards** : "الاكتمال في تقسيم العمل الوظيفي"^(٣) . ولكننا سوف نرى مدى استغلاق هذا الموضوع ، إذا اتجهنا بأنظارنا إلى الأسماك مثلا ، فالبعض منها قد اعتبره بعض علماء التاريخ الطبيعي على أساس أنه الأعلى مرتبة ، وهي التي ، مثل أسماك القرش ، تصل إلى أقرب المراتب من البرمائيات^(٤) ، بينما

Differentiation

(١) التخليق = التخلق *

Specialization

(٢) تخصص

physiological labour

(٣) العمل الوظيفي

Amphibians

(٤) البرمائيات = القواذب : حيوانات تستطيع الحياة في الماء وعلى اليابسة

يصنف علماء تاريخ طبيعى آخرون الأسماك العظمية الشائعة أو الأسماك الكاملة العظام^(١) على أساس أنها الأعلى ، فيما يتعلق بكونها تتمتع بشكل السمك بالترام شديد ولكنها تختلف كثيرا عن الطوائف الفقارية الأخرى . ونحن نرى بوضوح أكثر مدى الغموض الذى يكتنف هذا الموضوع عند الالتفات إلى النباتات ، والى فيما بينها فإن مستوى الذكاء شىء مستبعد تماما ، وهنا نجد أن علماء النبات يصنفون النباتات العليا ، على أساس أنها تلك التى تحوز كل الأعضاء مثل الورقات الكأسية ، والتويجات ، والأسدية ، والمدقات ، فى صورة كاملة التكوين فى كل زهرة ، بينما نجد بعض علماء النبات الآخرين ، وربما بصدق أكثر ، ينظرون إلى النباتات التى تمتاز بأن أعضائها المختلفة معدلة بشكل كبير ومختصرة فى العدد ، على أساس أنها الأعلى فى التصنيف .

وإذا أخذنا كمقياس للمستوى العالمى من التعضية ، كمية التخليق والتخصص فى الأعضاء المختلفة الخاصة بكل كائن عندما يكون بالغا (وهذا سوف يتضمن الترقى فى المخ للأغراض الفكرية) ، فإن الانتقاء الطبيعى يقود بشكل واضح فى اتجاه هذا المستوى ، وذلك لأن جميع الخبراء فى علم وظائف الأعضاء يعترفون بأن تخصص الأعضاء ، ما هو إلا الحالة التى تقوم الأعضاء فيها بوظائفها بشكل أفضل ، وأن فى ذلك ميزة لكل كائن ، ومن ثم فإن تراكم التمايزات الذى يميل نحو التخصص هو فى مجال الانتقاء الطبيعى . وعلى الوجه الآخر ، فإننا نستطيع أن نرى ، واضعين نصب أعيننا أن جميع الكائنات العضوية تجاهد فى سبيل الزيادة بمعدل عال وفى سبيل الاستحواذ على كل مكان غير محتل أو محتل بشكل أقل اكتمالا فى منظومة الطبيعة ، إنه من المحتمل تماما للانتقاء الطبيعى أن يقوم بالترجيح بإعداد كائن حى على وضع تكون فيه أعضاء كثيرة مختلفة مجرد أعضاء زائدة وبدون فائدة ، وفى مثل هذه الحالات فإنه سوف يكون هناك تقهقر فى ميزان التعضية . وسواء كانت التعضية فى مجموعها قد تقدمت بالفعل منذ الفترات الجيولوجية الأكثر إمعانا فى القدم إلى وقتنا الحاضر ، فإن ذلك سوف تتم مناقشته بشكل أفضل فى بابنا المنصب على التعاقب الجيولوجى.^(٢)

Teleostean fishes

Geological Succession

(١) الأسماك كاملة العظام = الأسماك العظمية

(٢) التعاقب الجيولوجى *

ولكن قد يثور اعتراض على أنه إذا كانت جميع الكائنات العضوية تميل بهذا الشكل لأن ترتفع فى الميزان ، فكيف تسنى أن عددا كبيرا من الأشكال الدنيئة مازال موجوداً فى جميع أنحاء العالم ، وكيف تسنى أنه يوجد فى كل طائفة كبرى بعض من الأشكال الأكثر ارتفاعا فى مستوى التكوين عن أشكال أخرى؟ - وكيف أن الأشكال الأكثر ارتفاعا فى مستوى التكوين فى كل مكان ، لم تحل محل وتبيد الأشكال الأقل تكويناً؟ - ويبدو أن "لامارك" ، الذى يؤمن بالقابلية الفطرية والحتمية نحو الاكتمال فى جميع الكائنات العضوية ، قد شعر بهذه الصعوبة بشكل قوى ، إلى حد أنه قد تم استدراجه لافتراض أن الأشكال الجديدة والبسيطة يتم إنتاجها باستمرار عن طريق النشوء الذاتى^(١) . ولم يثبت العلم إلى الآن حقيقة هذا المعتقد ، ونحن فى انتظار ما يكشف عنه المستقبل . أما فى نظريتنا ، فإن استمرار تواجد الكائنات الدنيئة لا يشكل أى صعوبة ، وذلك لأن الانتقاء الطبيعى ، أو البقاء للأصلح ، لا يتضمن بالضرورة نشوءاً ارتقائياً - فإنه يستغل فقط مثل هذه التمايزات كلما ظهرت وكانت مفيدة لكل كائن حتى فى ظل علاقاته المتشابكة فى الحياة . وقد يثور تساؤل عن الميزة التى قد يكتسبها ، بقدر استطاعتنا على الرؤية ، أحد أشباه الحيوانات النقاعية^(٢) ، أو بودة معوية^(٣) ، أو حتى بودة أرضية ، من أن تكون على مستوى عال من التكوين . وإذا لم تكن هناك ميزة ، فإن هذه الأشكال سوف يتم تركها بواسطة الانتقاء الطبيعى ، بدون تحسين أو سوف تتحسن بشكل طفيف ، وقد تبقى لعهد بدون نهاية على حالتها المتدنية الحالية . وعلم طبقات الأرض يحدثنا عن أن بعضاً من الأشكال المتناهية فى الدناءة ، مثل النقايعات وجذريات الأقدام^(٤) ، قد استمرت لمدة هائلة على حالتها التى هى عليها الآن تقريباً . ولكن لكى نفترض أن معظم الأشكال الدنيئة الموجودة حالياً لم تتقدم ولو بشكل بسيط منذ بزوغ فجر التاريخ ، فإنه سوف يكون

Spontaneous generation

(١) النشوء الذاتى *

Infusorian animalcule

(٢) شبه حيوان نقاعى

Intestinal worm

(٣) بودة معوية

Rhizopods

(٤) جذريات الأقدام : شعبة حيوانات مجهرية وحيدة الخلية

افتراضا متسرعا ، وذلك لأن كل عالم فى التاريخ الطبيعى أتيح له أن يقوم بتشريح بعض الكائنات التى تصنف حاليا على أساس أنها متدنية جدا فى الميزان ، لا بد وأنه قد صدم بمشاهدة تعضيتها الرائعة والجميلة .

ونفس هذه الملاحظات تقريبا تنطبق إذا ما نظرنا إلى الدرجات المختلفة من التعضية الموجودة بداخل نفس أى مجموعة كبرى ، وعلى سبيل المثال ، فى مجموعة الحيوانات الفقارية ، حتى مرحلة تعاصر وجود الحيوانات الثديية والأسماك - وفيما بين مجموعة الأسماك ، حتى مرحلة تعاصر وجود الإنسان وخذ الماء - وفيما بين مجموعة الحيوانات الثديية ، حتى مرحلة تعاصر وجود سمك القرش والرميح^(١) ، وهذا النوع الأخير من الأسماك فى منتهى البساطة فى تركيبه إلى درجة الاقتراب من الطوائف اللافقارية . ولكن من النادر أن يحدث تنافس فيما بين الحيوانات الثديية والأسماك ، فإن التقدم الذى قد حدث فى كل طائفة الحيوانات الثديية ، أو فى بعض الأعضاء التابعة لهذه الطائفة ، على أعلى مستوى ، سوف لن يؤدي إلى أنها قد تأخذ مكان الأسماك . والخبراء فى علم وظائف الأعضاء يؤمنون بأن المخ يجب أن يكون مغمورا بالدم الدافئ لى يكون فى غاية النشاط ، وهذا يتطلب تنفسا هوائيا ، وبهذا الشكل فإن الحيوانات الثديية ذات الدماء الدافئة عندما تستوطن الماء ، فإنها تقع تحت عائق أنه يتحتم عليها أن تطفو إلى السطح لى تتنفس . وفيما بين الأسماك ، فإن فصيلة أسماك القرش لن تميل إلى الحلول محل أسماك الرميح ، وذلك لأن الرميح كما سمعت من "فريتز موللر" Fritz Muller ، لديه مصاحب ومنافس وحيد على الشاطئ الرملى القاحل لجنوب البرازيل ، وهو نودة حلقيه^(٢) شاذة . و الثلاث مراتب الدنيا من الحيوانات الثديية ، ألا وهى ، الحيوانات الجرابية^(٣) ، والدرديات^(٤) ، والقوارض ، يتصاحب وجودهم فى جنوب أمريكا فى نفس المنطقة مع العديد من

Lamcelet = Amphioxus

Annelid

Marsupials

Edentata

(١) الرميح : حيوان بحرى صغير

(٢) نودة حلقيه

(٣) الحيوانات الجرابية = الكيسبة

(٤) الدرديات : رتبة من البونيات لا أسنان لها (برداء)

القردة ، ومن المحتمل أنها قد تتعارض قليلا مع بعضها البعض . وبالرغم من أن التعضية ، فى مجموعها ، قد تكون قد تقدمت وقد تكون مازالت تتقدم فى جميع أنحاء العالم ، إلا أن الميزان سوف يظل دائماً يقدم درجات كثيرة من الكمال ، وذلك من أجل التقدم العالى لطوائف كاملة معينة ، أو لبعض الأعضاء التابعين لكل طائفة ، وهذا لن يقود بالضرورة إطلاقاً إلى الانقراض لهذه المجموعات التى لا تدخل فى منافسة حميمة معها . وفى بعض الحالات ، كما سوف نشاهد فيما بعد ، فإن الأشكال المتدنية فى التعضية يبدو أنه قد تم الاحتفاظ بها إلى يومنا الحاضر ، وهى موجودة حالياً فى جميع أرجاء العالم ، نتيجة لاستيطانها مواقع مغلقة أو خاصة ، وهى التى قد تعرضت فيها إلى منافسة أقل حدة ، والتى قد عملت على تأخير الفرصة لظهور التمايزات الملائمة.

وأخيراً ، فأننا نعتقد أن الكثير من الأشكال المتدنية فى التعضية موجودة حالياً فى جميع أرجاء العالم ، نتيجة لأسباب مختلفة ، وفى بعض الحالات ، من المحتمل أنه لم يحدث على الإطلاق أية تمايزات أو اختلافات فردية ذات طبيعة ملائمة ، لكى يقوم الانتقاء الطبيعى بالتأثير عليها وتكديسها . ومن المحتمل أنه لا توجد حالة واحدة كان الزمن فيها كافياً للوصول إلى أقصى كمية ممكنة من التطور . وفى بعض الحالات القليلة كان يوجد هناك ما يجب أن نسميه تقهقراً فى التعضية . ولكن السبب الأساسى يتمثل فى الحقيقة القائلة بأنه تحت الظروف البسيطة جداً للحياة ، فإنه سوف لن تكون هناك فائدة من أى تعضية عالية ، ومن المحتمل أنها قد تكون بالفعل ضارة ، وذلك لكونها ذات طبيعة أكثر رقة ، وأكثر تعرضاً لأن تتعطل عن العمل وأن تفسد .

وبالنظر إلى بزوغ فجر الحياة ، عندما كانت جميع الكائنات العضوية، كما نعتقد، تقدم التركيب المتناهى فى البساطة ، فقد ثار التساؤل ، كيف استطاعت أن تظهر إلى الوجود أولى الخطوات فى سبيل التقدم أو التخليق للأجزاء؟- وقد يقوم "السيد هيربرت سبنسر" Mr. Herbert Spencer بتقديم الإجابة على هذا التساؤل ، فبمجرد وصول أحد الكائنات البسيطة وحيدة الخلية ، عن طريق النمو أو الانقسام ، إلى أن يصبح مركباً من خلايا عديدة ، أو أنه قد أصبح متعلقاً بأى سطح يدعمه ، فسوف يتم تطبيق قانونه

الذى ينص على "أن الوحدات المتشاكله التابعة لأى رتبة تصبح متخلقة"^(١) بشكل يتناسب مع الاختلاف الحادث فى علاقاتها مع القوى المؤثرة ". ولكن بما أنه لا توجد لدينا أى حقائق لإرشادنا ، فإن التخمين فى هذا الموضوع هو بلا فائدة تقريبا . ومع ذلك فإنه من الخطأ افتراض أنه سوف لن يكون هناك تنازع على البقاء ، وبالتالي لن يكون هناك انتقاء طبيعى ، إلى أن يتم إنتاج عدد كبير من الأشكال : فإن التمايزات التى تحدث فى نوع واحد يقطن موقعا منعزلا قد تكون مفيدة ، وبالتالي فإن المجموع الكلى للأفراد قد يحدث له تعديل ، أو قد ينتج عن ذلك نشوء اثنين من الأشكال المتباينة عن بعضهما . ولكن كما سبق ونوهت فى نهاية مقدمة الكتاب ، فإنه يجب ألا يصاب أحد بالدهشة من الكم الكبير الباقي بدون تفسير إلى الآن فيما يتعلق بنشأة الأنواع الحية ، إذا ما سمحنا بقدر مماثل لجهلنا المطبق عن العلاقات المتبادلة للقائنين فى العالم فى وقتنا الحاضر ، وجهلنا الأكبر لهذا الموضوع فى أثناء العصور الماضيه.

تقارب الطابع

يظن " السيد ه . س . واتسون " **Mr. H. C. Watson** أننى قد أعطيت موضوع تقارب الطابع أكثر مما يستحق من الأهمية (بالرغم من وضوح أنه يؤمن به) ، وأن التقارب ، كما يمكن أن يطلق عليه ، قد لعب دوراً مهماً إلى هذه الدرجة . فإنه إذا وجد اثنان من الأنواع التابعة إلى اثنين من الطبقات المتباينة عن بعضها ولكنها متقاربة ، وكلاهما قد أنتج عددا كبيرا من الأشكال الجديدة والمتشعبة ، فإنه من الممكن تخيل أن هذه الأشكال قد تقترب من بعضها البعض بدرجة كبيرة إلى حد أنه سوف يكون من المحتم تصنيفها جميعا تحت نفس الطبقة: وبالتالي فإن الذرارى المنحدرة من اثنين من الطبقات المتباينة سوف تلتقى فى طبقة واحدة . ولكنه سوف يكون من النزق الشديد فى معظم الحالات أن يعزى إلى التقارب مثل هذا التماثل الحميم والعام فى التركيب الموجود فى الذرارى المعدلة الخاصة بأشكال متباينة عن بعضها بشكل عريض . فإن

(١) متخلقة: تصبح مختلفة أو متميزة من حيث الشكل أو الوظائف = متخصصة * Differentiated

شكل أى بللورة يتحدد فقط بواسطة القوى الجزيئية^(١) ، وليس من الغريب أن موادا غير متماثلة أن تقوم باتخاذ نفس الشكل ، ولكن مع الكائنات العضوية فإننا يجب أن نضع نصب أعيننا أن شكل كل واحد منها يعتمد على علاقات معقدة لا نهائية ، ألا وهى على التمايزات التى قد نشأت ، وهى التى كانت نتيجة لأسباب متشابكة بصورة شديدة إلى درجة أنه لا يمكن متابعتها - وعلى طبيعة التمايزات التى قد تم الاحتفاظ بها أو انتقاؤها ، وهذه تعتمد على الظروف الطبيعية المحيطة ، وبدرجة أعلى على الكائنات المحيطة التى يحدث تنافس بينها وبين كل كائن حى - وأخيراً على عامل الوراثة (وهو عامل متقلب فى حد ذاته) من أسلاف لا حصر لها ، جميعها قد تحددت أشكاله من خلال علاقات معقدة على نفس المستوى . وأنه لمن غير المعقول أن الذرارى المنحدرة من اثنين من الكائنات ، التى كانت مختلفة فى الأصل بشكل واضح سوف يحدث على الإطلاق أنها سوف تتقارب فيما بعد بدرجة شديدة إلى حد الوصول تقريبا إلى التماثل فى كل شىء من مجموع تعضيبتها . وإذا كان هذا قد حدث ، فإنه من المحتم أن نتقابل مع نفس الشكل ، بعيداً عن الارتباط الموروث^(٢) ، متكررا فى تكوينات جيولوجية متباعدة عن بعضها بشكل عريض ، ولكن ميزان الأدلة يسير فى اتجاه معاكس لأى اعتراف بهذا الشكل.

وقد اعترض "السيد واتسون" أيضا على أن التأثير المستمر للانتقاء الطبيعى ، علاوة على تشعب الطابع، سوف يميل إلى تكوين عدد لا نهائى من الأشكال المعينة . أما فيما يتعلق بمجرد الظروف غير العضوية ، فيبدو أنه من المحتمل أن عدداً كافياً من الأنواع سوف يصبح على المدى القريب متكيفا مع كل الاختلافات الشديدة فى الحرارة، والرطوبة، وخلافه ، ولكنى أعترف تماما بأن العلاقات المتبادلة الخاصة بالكائنات العضوية هى العامل الأكثر أهمية ، ومع استمرار عدد الأنواع الموجودة فى أى قطر فى الزيادة ، فإنه من المحتم أن تصبح الظروف العضوية للحياة أكثر فأكثر تعقيدا . وبالتالي فإنه يبدو لأول وهلة أنه لا توجد حدود لكمية التنوعات المفيدة فى

Mellower forces

(١) القوى الجزيئية

Genetic

(٢) موروث = جينى = علموراثى = أصلى = تاريخى = تطورى

التركيب ، وبالتالي لا توجد حدود لعدد الأنواع التي من الممكن أن تتكون . ونحن حتى لا نعلم إن كانت أكثر المناطق خصوبة حاشدة إلى نهاية سعتها بالأشكال المعينة : ففي رأس الرجاء الصالح **Cape of Good Hope**، وفي أستراليا ، وهي المناطق التي تعول مثل هذا العدد المدهش من الأنواع ، فإننا نجد أن العديد من النباتات الأوروبية قد حدث لها تأقلم فيها . ولكن علم طبقات الأرض يبين لنا أنه ابتداء من الجزء المبكر من العصر الثالث فإن عدد الأنواع من المحاريات ، وأنه من الجزء الأوسط من نفس هذا العصر فإن عدد الحيوانات الثديية ، لم يحدث بها أى زيادة كبيرة أو أنها لم تزد على الإطلاق . فما العامل الذى يضبط أى زيادة لا نهائية فى عدد الأنواع؟ - والإجابة هى أن كمية الحياة (وأنا لا أقصد العدد الخاص بأشكال معينة) التى تعال على إحدى المناطق يجب أن يكون لها حدود ، وذلك يعتمد بشكل كبير فى الواقع على الظروف المادية ، ولهذا ، فإذا كانت إحدى المساحات مستوطنة بواسطة العدد الكبير جدا من الأنواع ، فإن كل نوع - تقريبا - سوف يكون ممثلا بواسطة أفراد قليلة ، وكانت مثل هذه الأنواع ستصبح معرضة للانقراض نتيجة للتقلبات العرضية فى طبيعة الفصول أو فى عدد أعدائها . وعملية الانقراض فى هذه الحالات سوف تكون سريعة ، بينما الإنتاج للأنواع الجديدة يجب دائما أن يكون بطيئا . ولك أن تتخيل الحالة المتطرفة لتواجد مثل هذا العدد الكبير من الأنواع والأفراد فى إنجلترا ، ثم يودى أول شتاء قاس أو صيف جاف ، إلى انقراض الآلاف فوق الآلاف من الأنواع . والأنواع النادرة ، وكل نوع سوف يصبح نادرا إذا ما أصبح عدد الأنواع فى أى قطر زائدا بلا حدود ، سوف تظهر عليه طبعا للمبدأ الذى تم شرحه فى كثير من الأحوال ، بعض التمايزات الملائمة فى خلال وقت معين ، وبالتالي فإن عملية استيلاء أشكال جديدة معينة سوف تتأخر بهذا الشكل . وعندما يصبح أى نوع نادرا جدا ، فإن التهجين المتبادل الحميم سوف يساعد على انقراضه، وقد ظن بعض الخبراء أن هذا يودى نورا فى تفسير التدهور الذى حدث للثور البرى الأوروبى^(١) فى دولة "ليتوانيا" Lithuania.

والأيل الأحمر^(١) فى أسكتلندا ، والدببة فى النرويج Norway وخلافه، وأخيراً ، وأنا أظن أن هذا هو أكثر العوامل أهمية ، فإن النوع المهيمن ، والذي قد استطاع بالفعل أن يتغلب على الكثير من المنافسين له فى الوطن الخاص به ، سوف يميل إلى الانتشار وإلى أن يحل محل الكثير من الأنواع الأخرى. وقد بين ألفريد دى كانول أن هذه الأنواع التى تنتشر بشكل عريض ، تميل عموماً إلى الانتشار بشكل واسع جداً ، وبالتالي فإنها سوف تميل إلى الإزاحة والانقراض لأنواع كثيرة فى مناطق كثيرة ، وبهذا تحد من الزيادة الجامحة لأنواع معينة فى جميع أنحاء العالم . وقد بين "الدكتور هوكر" Dr. Hooker مؤخرًا ، أنه فى الركن الجنوبي الشرقى من أستراليا ، حيث يبدو أنه يوجد هناك الكثير من الغزاة القادمين من أرجاء الكرة الأرضية المختلفة، فإن الأنواع الأسترالية المستوطنة قد انخفض عددها بشكل كبير . أما عن الوزن الذى من الممكن أن نعزوه لهذه الاعتبارات العديدة ، فأنا لا أدعى القدرة على تقديره ، ولكنها بالاشتراك مع بعضها فإنه من المحتم إنها تحد فى كل قطر من القابلية لأى زيادة غير محدودة لأشكال معينة .

ملخص

إذا كان يحدث تحت تأثير الظروف المتغيرة للحياة ، أن تظهر على الكائنات العضوية اختلافات فردية فى كل جزء تقريباً من تركيبها ، وهذا ما لا يمكن الطعن فيه، وإذا كان سوف يحدث هناك نتيجة لمعدلهم الهندسى فى الزيادة ، تتنازع شديد من أجل الحياة عند عمر ، أو فصل أو سنة معينة ، وبالتأكيد فهذا ما لا يمكن الطعن فيه ، إذن ، مع الوضع فى الاعتبار التعقيدات اللانهائية للعلاقات الموجودة بين جميع الكائنات العضوية سواء فيما بين بعضها البعض أو بالنسبة لظروفها فى الحياة ، مما يسبب تنوعاً لا نهائياً فى التركيب ، و البنيان والسلوكيات ، لما يكون فيه فائدة لها ، فإنها

سوف تكون حقيقة غير طبيعية جداً إذا لم تكن هناك تمايزات قد حدثت على الإطلاق ، وكانت مفيدة من أجل الصالح الخاص بكل كائن ، بنفس الطريقة التي قد حدثت بها مثل هذه التمايزات الكثيرة المفيدة للإنسان . ولكن إذا كانت قد حدثت على الإطلاق أى تمايزات مفيدة لأى كائن عضوى ، فإن ما سوف يحدث بالتأكيد أن الأفراد التي سوف تتميز بهذا الشكل سوف تكون لديها أفضل فرصة لكى يتم الاحتفاظ بها فى أثناء التنافس من أجل الحياة ، ونتيجة لهذا المبدأ القوى الخاصة بالوراثة ، فإن هذه الكائنات هى التى سوف تميل إلى إنتاج نرية متميزة بنفس الطريقة. وهذا المبدأ الخاص بالحفاظ ، أو البقاء للأصلح ، فأنا قد أطلقت عليه اسم الانتقاء الطبيعى . وهو يؤدي إلى تحسين كل كائن فيما يتعلق بظروف حياته العضوية وغير العضوية ، وبالتالي فى معظم الأحيان، إلى ما يجب أن يعتبر كإحدى الميزات فى نظام التعضية . وبالرغم من ذلك ، فإن الأشكال الدنيئة والبسيطة سوف تتحمل لوقت طويل إذا كانت مجهزة بشكل جيد لظروف حياتها البسيطة .

والانتقاء الطبيعى ، اعتماداً على المبدأ الخاص بأن هناك خواص معينة يجرى توارثها عند فترات متطابقة من العمر ، فإنه من الممكن أن يحدث تعديل فى البيضة أو البذرة أو عند الكائنات اليافعة بمثل السهولة التى يحدثها فى البالغة . وفيما بين الكثير من الحيوانات ، فإن الانتقاء الجنسى سوف يكون قد قدم معونته إلى الانتقاء العادى ، وذلك عن طريق ضمان حصول أكثر الذكور فحولة وأفضلهم تكيفاً ، على أكبر عدد من الذرية . والانتقاء الجنسى سوف يقدم أيضاً صفات مفيدة للذكور فقط، فى أثناء تصارعها أو تنافسها مع الذكور الأخرى ، وهذه الصفات أو الطباع سوف تنتقل إلى أحد الشقين الجنسين أو إلى كل من الجنسين ، اعتماداً على نوع الوراثة الذى قد يكون سائداً .

وإذا ما كان الانتقاء الطبيعى قد أثر فى الحقيقة بهذا الشكل فى جعل أشكال الحياة المختلفة متكيفة مع ظروفها ومواقعها العديدة ، فإن هذا شئ يجب أن يتقرر عن طريق المغزى العام وموازنة الدلائل الموجودة فى الأبواب القادمة . ولكننا قد رأينا بالفعل كيف أن الأمر يتضمن الانقراض ، والمدى الواسع الذى أثر به الانقراض على

تاريخ العالم ، وهذا ما يعلنه علم طبقات الأرض بوضوح . و الانتقاء الطبيعي يقود أيضا إلى تشعب الطابع ، وذلك لأنه كلما زاد عدد الكائنات العضوية التي تتشعب في التركيب والسلوكيات والبنيان ، فبمثل هذا القدر تزيد قدرة عدد كبير من الكائنات على أن تتم إعالتها على المنطقة الموجودة بها - ونحن نرى دليلا على ذلك عندما ننظر إلى القاطنين في أى بقعة صغيرة ، وإلى المنتجات التي قد تأقلمت في الأراضي الغربية عليها . وبهذا ، فإنه في أثناء التعديل الجارى للذرارى الخاصة بأى نوع واحد ، وأثناء التنازع المتواصل لجميع الأنواع من أجل الزيادة فى الأعداد ، وكلما زادت التنوعات فى الذرارى ، كانت فرصتها أفضل للنجاح فى المعركة من أجل الحياة ، وبهذا الشكل فإن الاختلافات الصغيرة التى تميز بين الضروب التابعة لنفس النوع ، تميل إلى الزيادة بشكل مستمر ، إلى أن تتساوى مع الاختلافات الكبرى الموجودة فيما بين الأنواع التابعة لنفس الطبقة، أو حتى إلى الطبقات المتباينة.

وقد رأينا أن الأنواع الشائعة ، والواسعة الانتشار ، والواسعة المآلف ، والتابعة للطبقات الكبرى الموجودة فى كل رتبة ، هى التى تتمايز بأكبر معدل ، وأن هذه الأنواع تميل إلى أن تنقل إلى ذريتها المعدلة هذا التفوق الذى يجعلها حاليا سائدة فى الأوطان الخاصة بهما . و الانتقاء الطبيعي ، كما جاء حاليا فى تعليقاتنا ، يؤدي إلى تشعب الطابع وإلى انقراض كبير للأشكال الأقل تحسنا وأشكال الحياة المتوسطة . وعلى أساس هذه المبادئ ، فإنه من الممكن تفسير طبيعة الصلات المشتركة ، والتميزات الواضحة المعالم بشكل عام الموجودة بين العدد الذى لا حصر له من الكائنات العضوية التابعة لكل طائفة فى جميع أنحاء العالم . وإنها لحقيقة رائعة حقا - ونحن نكاد أن نغفل روعتها بسبب الألفة والاعتیاد - وهى أن جميع الحيوانات وجميع النباتات فى كل زمان ومكان من المحتم عليها أن تترايط مع بعضها فى مجموعات ، تابعة إلى مجموعات ، بالطريقة التى تتبعها فى كل مكان ، ألا وهى أن الضروب التابعة لنفس النوع هى الأكثر قرابة بشكل حميم، والأنواع التابعة لنفس الطبقة قريبة بشكل أقل أو بشكل غير متساو ، مكونة قطاعات وطبقات فرعية ، والأنواع التابعة لطبقات منفصلة عن بعضها أقل قرابة وارتباطا بشكل كبير جدا ، والطبقات المتقاربة بدرجات

مختلفة ، تكون فصائل فرعية و فصائل ورتبا وطوائف فرعية . والمجموعات الثانوية^(١) العديدة التابعة لأى طائفة لا يمكن تصنيفها فى رتل منفرد ، ولكن يبدو أنها تتجمع حول نقاط ، وهذه بدورها تتجمع حول نقاط أخرى ، وهكذا يستمر الأمر كما لو كان فى دوائر بلا نهاية . وإذا كانت الأنواع قد تم خلقها بصورة مستقلة عن بعضها ، فلن يكون هناك تفسير ممكن لهذه الطريقة فى التصنيف ، ولكن الأمر من الممكن أن يفسر من خلال الوراثة والمفعول المعقد للانتقاء الطبيعي ، متضمنا الانقراض والنشعب فى الطابع ، كما سبق وشاهدناه موضحا فى الرسم البيانى .

الصلات الموجودة بين جميع الكائنات التابعة لنفس الطائفة قد تم تمثيلها فى بعض الأحيان بشجرة كبيرة . وأنا أؤمن أن هذا تشبيه ينطق بالحقيقة . فإن الغصينات الخضراء اللون والمتبرعمة من الممكن أن تمثل الأنواع الموجودة ، وتلك التى تم إنتاجها أثناء السنوات السابقة من الممكن أن تمثل التعاقب الطويل للأنواع المنقرضة . وعند كل مرحلة من مراحل النمو فإن الغصينات النامية قد حاولت أن تتفرع من جميع الجوانب ، وأن تملأ وتتفوق وتقتل الغصينات والفروع المحيطة بها ، بنفس الطريقة التى اتبعتها الأنواع ومجموعات الأنواع فى جميع الأزمنة فى السيطرة على الأنواع الأخرى فى أثناء المعركة الكبرى من أجل الحياة . ونجد أن الفروع الكبيرة تنقسم إلى أغصان كبيرة ، وتلك إلى أغصان أصغر فأصغر ، التى كانت هى نفسها فى وقت ما ، عندما كانت الشجرة يافعة ، منتجة للغصينات المتبرعمة ، وهذه الوصلات الموجودة بين البراعم السابقة والحالية عن طريق الغصون المتشعبة التى قد تمثل بشكل جيد التصنيف الخاص بجميع الأنواع المنقرضة والموجودة على قيد الحياة إلى مجموعات تابعة إلى مجموعات . ومن ضمن الغصينات الكثيرة التى قد ترعرعت عندما كانت الشجرة مجرد شجيرة ، فإن اثنين أو ثلاثة منها فقط قد اكتمل نموها إلى فروع عظيمة ، مازالت تعيش وتحمل فروعا أخرى ، وهذا هو الحال مع الأنواع التى عاشت فى أثناء العصور الجيولوجية التى مضى عليها وقت طويل ، والقليل جدا منها قد ترك وراءه نرارى حية ومعدلة . ومنذ البداية الأولى لنمو الشجرة فإن الكثير من الفروع

والأغصان قد ذبل وسقط ، وهذه الأغصان الساقطة المختلفة الأحجام قد تمثل هذه الرتب والفصائل والطبقات الكاملة التي لا يوجد حالياً أى ممثل لها على قيد الحياة ، والمعروفة لنا فقط عن طريق الحالة التي توجد عليها فى الحفريات . وكما نرى هنا وهناك غصنا رفيعا شاردا ينبثق من تفرع منخفض المستوى من الشجرة ، والذي بمجرد المصادفة قد حياه الحظ بأن تبقى قمته حية، فإننا نرى أحيانا حيوانات ما مثل خلد الماء أو اليربوع^(١)، التي تربط بدرجة صغيرة عن طريق صلاتها المشتركة بين فرعين كبيرين من فروع الحياة ، والتي من الواضح أنها قد نجت من المنافسة القاتلة عن طريق استيطانها لمواقع محمية . وكما أن البراعم تؤدي عن طريق النمو إلى براعم جديدة ، وهذه الأخيرة إذا كانت نشيطة ، فإنها تتفرع إلى الخارج وتعلو من جميع الجوانب على العديد من الفروع الأضعف ، فكذلك أنا أعتقد أن هذا ما كان عليه حال الشجرة العظيمة للحياة عن طريق التوالد، وهى التي تملأ بأغصانها الميتة والمكسورة قشرة الكرة الأرضية ، وتغطي سطحها بتشعباتها الجميلة والدائمة التفرع.

الباب الخامس

قوانين التمايز^(١)

تأثيرات الظروف المتغيرة - الاستخدام وعدم الاستخدام ، بالاشتراك مع الانتقاء الطبيعي ، الأعضاء الخاصة بالطيران والخاصة بالرؤية - التأقلم - التمايز المتلازم^(٢) - التعويض^(٣) ونظام النمو^(٤) - التلازمات الزائفة^(٥) - التراكيب المتعددة ، الأثرية غير المكتملة^(٦) والمتواضعة التعضية^(٧) ، قابلة للتمايز - الأجزاء التي تتكون بطريقة استثنائية تكون شديدة القابلية للتمايز ، والصفات النوعية^(٨) أكثر قابلية للتمايز من العرقية^(٩) ؛ والصفات الجنسية الثانوية قابلة للتمايز - الأنواع التابعة لنفس الطبقة تتمايز بطريقة متناظرة^(١٠) - الارتدادات^(١١) إلى الصفات المفقودة منذ مدة طويلة - ملخص.

Variation	(١) التمايز :- اختلاف = شكل مختلف = تباين = تغير = تغيير = تباين *
Correlated variation	(٢) التمايز المتلازم *
	(هذا المصطلح يحمل المعنى بشكل أفضل من "الاختلاف المتبادل" الجارى استخدامه)
Compensation	(٣) التعويض = الاستعاضة *
Economy of growth	(٤) نظام النمو *
False correlation	(٥) التلازمات الزائفة *
Rudimentary structure	(٦) التراكيب غير المكتملة *
Lowly organized	(٧) متواضعة التعضية *
Specific characters	(٨) الصفات النوعية *
Generic Characters	(٩) الصفات العرقية *
Analogous	(١٠) طريقة متناظرة *
Reversions	(١١) الارتدادات *

لقد تكلمت هنا فى بعض الأحيان كما لو كانت التمايزات - على شيوعتها وتنوعها فى الكائنات العضوية تحت تأثير التدجين - وإلى درجة أقل فى تلك الكائنات الموجودة تحت تأثير الطبيعة - نتيجة للمصادفة . وهذا بالطبع تعبير خاطئ تماماً ، ولكنه يفيد فى الاعتراف صراحة بجهلنا بالسبب وراء كل تمايز معين . وبعض الخبراء يعتقدون أن الأمر لا يتعدى أن يكون من وظيفة الجهاز التوالدى أن ينتج اختلافات فردية ، أو انحرافات بسيطة فى التركيب، وذلك حتى يصبح الطفل مثل أبويه . ولكن الحقيقة الخاصة بأن التمايزات والظواهر الشاذة تحدث بمعدل أكبر بكثير تحت تأثير التدجين عنها تحت تأثير الطبيعة ، وأن القابلية الأكبر لتمايز الأنواع التى تتمتع بمآلف أوسع عن الأنواع التى تعيش فى مآلف محدودة ، تؤدى إلى الاستنتاج بأن القابلية للتمايز بوجه عام متعلقة بظروف الحياة التى قد تعرض لها كل نوع فى خلال الأجيال العديدة المتتالية . وقد حاولت فى الباب الأول أن أوضح أن الظروف المتغيرة تؤثر بطريقتين ، الطريقة الأولى بشكل مباشر على مجمل التعضية أو على بعض الأجزاء المعينة فقط ، والطريقة الثانية بشكل غير مباشر من خلال الجهاز التوالدى ، وفى جميع الحالات فإن هناك اثنين من العوامل ، ألا وهما طبيعة الكائن ، وهى الأكثر أهمية بكثير ، أما العامل الثانى فهو طبيعة الظروف . والتأثير المباشر للظروف المتغيرة يؤدى إلى نتائج محددة أو نتائج غير محددة . وفى الحالة الثانية فإن التعضية تبدو كأنها قد أصبحت مرنة، ونجد بين أيدينا قابلية متقلبة بشدة للتمايز . أما فى الحالة الأولى فإن طبيعة الكائن تكون من النوع الذى ينصاع بسهولة ، عند التعرض لظروف معينة ، ويصبح كل الأفراد - تقريباً - معدلين بنفس الطريقة .

من الصعب جدا تحديد إلى أى مدى قد أثرت الظروف المتغيرة ، مثل المناخ أو الغذاء ، وخلافه ، بطريقة معينة . وهناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنه على مدى الزمن فإن التأثيرات كانت أكبر مما يمكن إثباته بالدليل الواضح . ولكننا نستطيع أن نستنتج بأمان أن حدوث التغيرات العديدة المعقدة فى التركيب ، التى نراها فى جميع أرجاء الطبيعة بين الكائنات العضوية المختلفة ، لا يمكن أن تعزى ببساطة إلى مثل هذه التأثيرات . وفى الحالات التالية فإنه يبدو أن الظروف قد أحدثت بعض التأثير المحدد

البسيط : فإن "إ. فوربس" E. Forbes ، يؤكد أن المحاريات عند حدودها الجنوبية ، وعندما تعيش فى مياه ضحلة ، هى ذات ألوان أكثر تألقا عن تلك المحاريات التابعة لنفس النوع المجلوبة من أماكن ممتدة إلى الشمال أو من أعماق أكبر ، ولكن هذا لا يمكن التأكيد منه دائما . و"السيد جولد" Mr. Gold ، يؤمن بأن الطيور التابعة لنفس النوع متألقة اللون بشكل أكبر تحت تأثير جو صاف ، عنها عندما تعيش بقرب الساحل أو على الجزر ، و"ولاستون" Wollaston مقتنع بأن الإقامة قريبا من البحر تؤثر على ألوان الحشرات . ويعطى "موكين- تاندون" Moquin- Tandon قائمة بالنباتات التى عندما تنمو قريبا من شاطئ البحر ، فإن أوراقها تصبح لحمية بدرجة ما ، مع أنها ليست لحمية فى أى مكان آخر . وهذه الكائنات المتميزة بشكل بسيط مثيرة للاهتمام فيما يتعلق بأنها تقدم لنا صفات مماثلة لتلك الصفات التى تحوزها الأنواع المقتصر تواجدها على أماكن بها ظروف مشابهة .

وعندما يكون أحد التمايزات ذا قيمة بسيطة جدا لأى كائن ، فإننا لا نستطيع أن نجدد إلى أى مدى يمكننا أن نعزو ذلك التأثير التراكمى للانتقاء الطبيعى ، وإلى أى مدى إلى التأثير المحدد لظروف الحياة . وهكذا ، فإنه من المعلوم جيدا لتجار الفراء^(١) أن الحيوانات التابعة لنفس النوع تتمتع بفراء أسمك وأفضل كلما كانت تعيش أبعد شمالا ، ولكن من الذى يستطيع أن يحدد إلى أى مدى يمكن أن يعزى هذا الفرق إلى أن الأفراد الأكثر دفئا فى كسائهما كانت هى المفضلة والتى تم الاحتفاظ بها فى أثناء الكثير من الأجيال ، وإلى أى مدى يعزى إلى التأثير المناخ القاسى ؟ - وذلك لأنه يبدو أن للمناخ بعض التأثير المباشر على الشعر الخاص بحيواناتنا الداجنة رباعية الأرجل .

وهناك أمثلة من الممكن أن تعطى لضروب متماثلة قد تم إنتاجها من نفس النوع تحت تأثير ظروف خارجية مختلفة بشكل لا يمكن أن يعقل بشكل جيد ، وعلى الجانب الآخر ، لضروب ليست مماثلة قد نتجت تحت تأثير ما هو من الواضح أنه نفس

الظروف الخارجية . ومرة أخرى ، فهناك أمثلة لا حصر لها معروفة لكل عالم فى التاريخ الطبيعى ، عن أنواع تبقى على أصلها ، أو لا تتمايز على الإطلاق ، بالرغم من معيشتها تحت أكثر الأجواء تعارضا . ومثل هذه الاعتبارات تجعلنى أميل الى أن أضع ثقلا أقل على التأثير المباشر للظروف المحيطة ، عما أضعه على القابلية للتمايز ، وذلك نتيجة لأسباب نحن نجهلها تماما .

من إحدى النواحي فإنه من الممكن أن يقال إن ظروف الحياة ، لن تسبب فقط القابلية للتمايز ، سواء بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، ولكنها بالمثل تتضمن الانتقاء الطبيعى ، وذلك لأن الظروف تقرر إذا ما كان هذا أو ذاك الضرب سوف يبقى على قيد الحياة . ولكن عندما يكون الإنسان هو العنصر المنتقى ، فإننا نرى بشكل واضح أن العاملين الخاصين بالتغيير هما عاملان متباينان عن بعضهما ، وأنه يحدث بطريقة ما إثارة لقابلية التمايز ، ولكنها إرادة الإنسان هى التى تكسب التمايزات فى اتجاهات معينة ، وأن هذه القوة الأخيرة هى المسؤولة عن بقاء الأصلح على قيد الحياة تحت تأثير الطبيعة .

تأثيرات الزيادة فى الاستخدام وعدم الاستخدام للأجزاء

كما يتحكم فيها الانتقاء الطبيعى

نتيجة للحقائق التى سبقت الإشارة إليها فى الباب الأول ، فإننا أظن أنه لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن الاستخدام قد جعل بعض أجزاء حيواناتنا أقوى وأكبر حجما ، وأن عدم الاستخدام قد أدى إلى الإقلال من ذلك ، وأن مثل هذه التعديلات متوارثة . وتحت تأثير الطبيعة الحرة ، فليس لدينا أى معيار للمقارنة ، والذى بواسطته نستطيع أن نحكم على التأثيرات الناتجة عن الاستخدام أو عدم الاستخدام لمدة طويلة مستمرة ، وذلك لأننا لا نعلم شيئا عن الأشكال الأبوية ، ولكن الكثير من الحيوانات لديها من التراكم ما يمكن أن تكون أفضل وسيلة لتفسيرها هى عن طريق التأثيرات الناتجة عن عدم الاستخدام . وكما علق "الأستاذ أوين" Professor Owen ، فإنه لا توجد ظاهرة أكثر شذوذا فى الطبيعة من أحد الطيور الذى لا يستطيع أن يطير ، ومع ذلك

فإنه يوجد العديد من الطيور التي فى هذه الحالة . فإن البط ذا الرأس الضخم^(١) الخاص بجنوب أمريكا يستطيع أن يرفرف فقط فوق سطح الماء ، ومالديه من الأجنحة هى تقريبا على نفس الحالة الموجودة لدى البط الداكن الموجود فى مقاطعة "أيلسبرى" Aylesbury ، وإنها لحقيقة جديرة بالملاحظة ، اعتمادا على ما قاله "السيد كانجهام" Mr. Cunningham ، إن الطيور اليافعة تستطيع أن تطير ، بينما الطيور البالغة هى التى قد فقدت هذه المقدرة . وكما أنه من النادر على الطيور الأكبر فى الحجم التى تتغذى وهى على الأرض أن تلجأ إلى الطيران إلا فى حالة الهرب من الأخطار ، فإنه من المحتمل أن حالة انعدام الأجنحة تقريبا الموجودة لدى العديد من الطيور ، والتى تستوطن حاليا أو قد استوطنت مؤخرا العديد من الجزر الأوقيانوسية ، غير المسكونة بأى وحوش مفترسة ، قد كانت نتيجة لعدم الاستخدام . والنعام بالفعل تقطن القارات ، وهى معرضة لمخاطر لا تستطيع أن تهرب منها عن طريق الطيران ، ولكنها تستطيع الدفاع عن نفسها بواسطة ركل أعدائها ، بنفس الكفاءة التى لدى الكثير من الحيوانات الرباعية الأرجل . وقد يكون من الممكن أن نعتقد أن الجد الأعلى لطبقة النعام كانت لديه عادات مثل العادات الخاصة بطائر الحبارى^(٢) ، وأنه مع الزيادة فى الحجم والوزن الخاصين بجسده فى خلال الأجيال المتتالية ، فإن أرجلها كانت تستخدم بشكل أكثر ، وأجنحته بشكل أقل ، إلى أن أصبح غير قادر على الطيران .

وقد علق "كيربى" Kirby (وقد شاهدت أنا نفس الحقيقة) على أن الكواحل الأمامية^(٣) ، أو الأرجل الخاصة بالكثير من ذكور الخنافس الأكلة للروث^(٤) ، تكون فى أغلب الأحوال مفصولة ، وقد قام بفحص سبعة عشر عينة من المجموعات الخاصة به ، ولم يكن بينها أى فرد لديه حتى ولو أثرا بسيطا باقيا . ونجد فى حشرة "الونيط الصالح"^(٥) أن الكواحل مفقودة بشكل معتاد إلى درجة أنه جرى وصف الحشرة على

Logger- headed duck

Bustard

Anterior tarsi

Dung - feeding beetles

Onites apelles

(١) البط ذو الرأس الضخم *

(٢) طائر الحبارى = دجاجة البر

(٣) الكواحل الأمامية

(٤) الخنافس الأكلة للروث

(٥) الونيط الصالح **

أساس أنها غير حائزة عليهما . وفي طبقات أخرى نجد أن الكواحل موجودة ولكن في حالة غير مكتملة. وفي الجعران^(١) أو الخنفساء المقدسة الخاصة بالمصريين ، فهما ناقصان تماما . والدليل على أنه من الممكن وراثا التشوهات العرضية حاليا ليس قاطعا ، ولكن الحالات الجديدة بالتنويه التي لاحظها "براون- سيكوارد" Brown - Seq- uard في خنازير غينيا^(٢) ، من وراثا تأثيرات العمليات ، يجب أن تجعلنا على حذر من إنكار هذه القابلية . ومن ثم فربما سوف يكون من الأسلم أن ننظر الى الاختفاء التام للكواحل الأمامية في الجعران ، وإلى حالتها غير المكتملة في بعض الطبقات الأخرى ، ليس على أساس أنها حالات تشوهات موروثا ، ولكن على أساس أنها نتيجة لتأثيرات عدم الاستخدام المستمر لمدة طويلة ، وذلك لأننا نجد عادة الكثير من الخنافس الأكلة للبروث فاقدة لكواحلها ، ولا بد من أنه قد حدث ذلك في مرحلة مبكرة من العمر ، وعلى هذا الأساس ، فإنه لا يمكن أن تكون هناك أهمية كبيرة للكواحل ، أو أن يكون لها استخدام كبير لدى هذه الحشرات .

من الممكن في بعض الحالات أن ننسب بسهولة إلى عدم الاستخدام ، بعض التعديلات في التركيب ، التي هي بأكملها أو أساسا نتيجة للانتقاء الطبيعي ، فقد اكتشف "السيد وولاستون" Mr. Wollaston الحقيقة الفذة بأن مائتي نوع من الخنافس من مجموع الخمسمائة والخمسين نوعا (ولكننا نعرف حاليا عددا أكبر من ذلك) التي تستوطن جزر الماديرا ، أجنحتها ناقصة إلى درجة أنها لا تستطيع الطيران ، وأنه من ضمن التسعة والعشرين من الطبقات المستوطنة ، نجد ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين منها تتبعها أنواع جميعها في هذه الحالة ! ويوجد أيضا الكثير من الحقائق ومنها : أنه يتكرر كثيرا في أجزاء عديدة من العالم أن تعصف الرياح بالخنافس وتلقيها في البحر وبالتالي تفنى ، وأن الخنافس في جزر ماديرا ، كما لاحظ "السيد وولاستون" ، ترقد مختبئة بشكل شديد ، إلى أن تهدأ الرياح وتبزغ الشمس ، وأن نسبة تواجد الخنافس التي بنون أجنحة تكون أكبر في المناطق الصحراوية المكشوفة Desertas من الجزر عنها في مدينة ماديرا نفسها ، وعلى وجه الخصوص تلك الحقيقة غير العادية ، والتي يصر

Ateuchus

Guinea - pigs

(١) الجعران + الأطيوخ

(٢) خنازير غينيا = الخنزير الهندي

عليها بشكل شديد السيد "وولاستون" ، ألا وهي أن بعض المجموعات الكبيرة من الخنافس ، الموجودة بأعداد كبيرة في أماكن أخرى ، والمحتاجة بشكل مطلق لاستخدام أجنحتها ، تكون غائبة تماما تقريبا في هذه الجزر - وهذه الاعتبارات العديدة تجعلني أو من بأن حالة انعدام الأجنحة في مثل هذا العدد الكبير من خنافس جزر ماديرا ، هي بشكل أساسى نتيجة لمفعول الانتقاء الطبيعي ، بالاشتراك غالبا مع عدم الاستخدام . وذلك لأنه قد حدث أثناء الكثير من الأجيال المتعاقبة أن كل خنفساء من الخنافس التي كانت أقل قدرة على الطيران ، وذلك نتيجة إما لأن أجنحتها كانت أقل تكويننا ولو بقدر ضئيل جدا ، أو نتيجة للاعتياد على الكسل ، فإنها قد كانت لديها أفضل الفرص للبقاء على قيد الحياة نتيجة لعدم العصف بها إلى البحر ، وعلى الجانب الآخر ، فإن هذه الخنافس التي كانت أكثر قدرة على الطيران كانت سيتم العصف بها إلى البحر في أحيان أكثر وكانت ستهلك نتيجة لذلك .

والحشرات الموجودة في جزر ماديرا التي لا تقتات من الأرض ، مثل بعض التي تقتات على الزهور مغمدة الجناح^(١) والقشرية الأجنحة^(٢) والتي يتحتم عليها أن تستخدم أجنحتها بشكل معتاد للحصول على غذائها ، فإن أجنحتها ، كما يظن "السيد وولاستون" ، ليست منتقصة على الإطلاق ، ولكنها على العكس من ذلك متضخمة . وهذا متوافق جدا مع تأثير الانتقاء الطبيعي . وذلك لأنه عندما تصل حشرة جديدة لأول مرة على الجزيرة ، فإن قابلية الانتقاء الطبيعي للزيادة أو النقصان في الأجنحة ، سوف تعتمد على إذا ما كان هناك عدد أكبر من الأفراد قد نجا من الفناء عن طريق النجاح في مصارعة الرياح ، أو عن طريق التخلي عن هذه المحاولة وطار بشكل نادر أو لم يبق بالطيران على الإطلاق . وكما يحدث مع البحارة الذين قد تحطمت سفينتهم على مقربة من الشاطئ ، فإن الأمر قد يكون أفضل للسباحين الماهرين إذا كان باستطاعتهم أن يسبحوا إلى مسافة أطول ، بينما سيكون من الأفضل لمن لا يجيدون السباحة ألا يسبحوا على الإطلاق ، وأن يتعلقوا بالحطام.

Cleoptera
Lepidoptera

(١) الحشرات مغمدة الجناح (كالخنفس) (٢) الحشرات قشرية الجناح (تشمل الفراشات)

العيون الخاصة بالخلد^(١) وبعض القوارض التي تحفر جحورا تكون ضامرة في الحجم ، وفي بعض الأحيان مغطاة تماما بالجلد والفراء . ومن المحتمل أن هذه الحالة للعيون هي نتيجة للتناقص التدريجي الناتج من عدم الاستخدام ، ولكن ربما كان ذلك بمساعدة من الانتقاء الطبيعي . فإنه يوجد في أمريكا الجنوبية ، نوع من القوارض الحفارة^(٢) يسمى "التاكو - تاكو" أو القارض المشطى^(٣) وهو يتجه إلى ما تحت الأرض في طباعه أكثر حتى مما هو معروف عن الخلد ، وقد أكد لي "سيانيارد" Spaniard ، الذي كثيرا ما قد تمكن من اصطياد هذه الحيوانات ، أنها كانت عمياء في كثير من الأحيان . وقد قمت بالاحتفاظ بواحد منهام حيا ، وكان بالتأكيد في هذه الحالة ، والسبب في ذلك كما تبين من التشريح ، كان لحدوث التهاب في الغشاء الرامش^(٤) للعين . وبما أن الالتهاب المتكرر للعيون شيء مؤذ لأي حيوان ، وبما أن العيون بالتأكيد غير ضرورية للحيوانات ذات الطباع التحت أرضية ، فإنه قد يكون من المفيد في هذه الحالة لتلك الحيوانات أن يحدث لهما انتقاص في حجم العيون ، مع التصاق في الجفون ونمو الفراء فوقهما ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الانتقاء الطبيعي سوف يساعد التأثيرات الخاصة بعدم الاستخدام .

إنه من المعلوم جيدا أن الكثير من الحيوانات التابعة لأكثر الطوائف اختلافا ، والتي تستوطن الكهوف في مقاطعة "كارنيولا" Carniola ، وفي ولاية كنتاكي Kentucky بالولايات المتحدة ، عمياء . وأنه في بعض أنواع السرطانات^(٥) فإن سويقة العين تبقى ، بينما يتم فقد العين ، كما لو كان هناك حامل المقراب^(٦) ، مع أن المقراب ذاته مع زجاجياته قد فقد . وكما أنه من الصعب تخيل أنه بالرغم من انعدام منفعة العيون ، إلا

Mole	(١) حيوان الخلد
Burrowing rodents	(٢) القوارض الحفارة *
Ctenomys = Tucu-tuco	(٣) القارض المشطى = التاكو - تاكو *
Nictitating membrane	(٤) الغشاء الرامش = الغشاء الغامز : غشاء رقيق تحت الجفن السفلى من العين
Crabs	(٥) السرطانات = سلطعونات
Telescope	(٦) المقراب = التلسكوب

أنها قد تكون ضارة بأى شكل للحيوانات التي تعيش فى الظلام ، فإن فقدانها من الممكن أن يعزى إلى عدم الاستخدام . وفى أحد الحيوانات العمياء ، وبالتحديد فأر الكهوف^(١) ، فإن " الأستاذ سيليمان " Professor silliman قد أمسك باثنين منه على مسافة تفوق نصف الميل من فتحة الكهف ، وهكذا فإنهما لم يكونا فى أعماق أعماق الكهف ، وكانت عيونهما لامعة وكبيرة فى الحجم ، وهذه الحيوانات كما بلغنى من الأستاذ سيليمان بعد استمرار تعرضها لمدة تزيد على شهر إلى ضوء متدرج ، قد اكتسبت تميزا معتما للأشياء .

من الصعب تخيل ظروف متشابهة للحياة أكثر من الموجودة فى كهوف الأحجار الجيرية^(٢) الكبيرة العميقة تحت تأثير نفس المناخ تقريبا ، وبهذا فإنه بناء على وجهة النظر القديمة القائلة بأن الحيوانات العمياء قد تم خلقها بشكل منفصل عن بعضها لتعيش فى الكهوف الأمريكية والأوروبية ، فإنه من المتوقع أن نجد تماثلا شديدا فى تعضيتهم وفى الصلات التى بينهما المنطوية على تشابه فى البنية العامة تدل على وحدة الأصل. وهذا بالتأكيد غير موجود عندما ننظر إلى مجموع الحيوانات الموجودة^(٣) فى هاتين الحالتين ، وفيما يتعلق بالحشرات وحدها ، فإن "شيودت" Schiodte قد علق بالتالى "إننا بناء على ذلك ممنوعون من أن ننظر إلى الظاهرة بأكملها فى أى ضوء غير أنها شىء محلى بحت ، وأن التماثل الموجود فى كهف الماموث^(٤) (فى ولاية كنتاكي) والكهوف الموجودة فى منطقة كارنيولا ، ما هو إلا تعبير صريح لهذا التماثل الموجود عامة بين الحيوانات الموجودة فى أوروبا والموجودة فى أمريكا الشمالية " . ومن وجهة نظرى الشخصية ، فإننا يجب أن نفترض أن الحيوانات الأمريكية ، التى تحوز فى معظم الحالات قدرات عادية للرؤية ، قد نزحت ببطء عن طريق أجيال متتابعة من العالم الخارجى الى الأعماق فالأعمق من المواضع الداخلية الخاصة بكهوف كنتاكي ، كما فعلت الحيوانات الأوروبية بالنزوح إلى داخل الكهوف الخاصة بأوروبا . ولدينا

Cave - rat = neotoma

(١) فأر الكهوف *

Limestone

(٢) حجر جبرى = حجر كلسى

Faunas

(٣) الحيوانات الموجودة فى منطقة أو حقبة زمنية

Mammoth

(٤) الماموث : فيل منقرض

بعض الأدلة على حدوث هذا التدرج فى السلوك^(١) ، وذلك كما يعلق "شيودت" بقوله " ونحن بناء على ذلك ننظر إلى التجمعات الحيوانية الموجودة تحت الأرض على أساس أنها تشعبات صغيرة قد تغلغت بداخل الأرض ، من تجمعات حيوانية موجودة بشكل جغرافى محدود بالبقاع المجاورة ، والتي فى أثناء توسعها إلى داخل الظلمات ، قد أصبحت متكيفة مع الملابس المحيطة . والحيوانات التى ليست بعيدة بشكل كبير عن الأشكال الحية المعتادة ، تعد نفسها للانتقال من الضوء إلى الظلام . والتالى لها هى الحيوانات التى تكون مهيأة للضوء الضئيل المماثل لضوء الفجر ، وآخر الجميع ، هى الحيوانات المقدر لها المعيشة فى الظلام التام ، والتي يكون لديها تكوين خاص تماما " . ويجب أن يكون مفهوما أن هذه الملاحظات الصادرة عن " شيودت" ، لا تنطبق على نفس النوع ، ولكن على أنواع متباينة عن بعضها . وعندما نصل إلى الوقت الذى نجد فيه أن أحد الحيوانات قد وصل فيه ، بعد عدد لا حصر له من الأجيال ، إلى أعماق المواضع الداخلية ، فإن عدم "الاستخدام" ، بناء على هذه الوجهة من النظر ، سوف يكون بشكل أو بآخر قد ألقى عيونه بشكل كامل ، وسوف يكون الانتقال الطبيعى فى الغالب قد أحدث تغييرات أخرى ، مثل بعض الزيادة فى طول قرون الاستشعار^(٢) ، أو أعضاء اللمس الموجودة فى أفواه الحشرات^(٣) ، وذلك كتعويض عن العمى وعدم القدرة على الرؤية . وبالرغم من مثل هذه التعديلات ، فإنه من الممكن لنا أن نتوقع بشكل أكثر ، أن نرى فى حيوانات الكهوف الخاصة بأمريكا ، صلات تنطوى على تشابه فى البنية العامة تدل على وحدة الأصل مع باقى الحيوانات المقيمة بهذه القارة ، وفى تلك الخاصة بأوروبا مع القاطنة فى القارة الأوروبية . وهذا هو نفس الحال مع بعض حيوانات الكهوف الأمريكية ، كما بلغنى من " الأستاذ دانا" Professor Dana ، وبعض حشرات الكهوف الأوروبية هى متقاربة جدا مع تلك الحشرات الموجودة فى الإقليم المحيط بالكهف . وأنه لمن الصعب إعطاء أى تفسير منطقى للصلات التى تنطوى

Gradation of habit

Antennae

Palpi

(١) التدرج فى السلوك *

(٢) قرون الاستشعار

(٣) أعضاء اللمس فى أفواه الحشرات

على تشابه فى البنية العامة التى تدل على وحدة الأصل بين حيوانات الكهوف العمياء وياقى القاطنة فى القارتين على أساس وجهة النظر العادية القائلة بخلقهما بطرق مستقلة . وما نتوقعه من الكثير من القاطنة فى الكهوف الموجودة فى العوالم القديمة والجديدة ، من أنها لا يبد وأن تكون متقاربة بشدة ، فذلك ما قد نتوقعه من العلاقة المعروفة جيدا بين معظم منتجاتها الأخرى . وكما أن هناك نوعاً أعمى من حشرات الأعماق يسمى "باثيسيا"^(١) موجود بكثرة على الصخور الظليلة بعيداً عن الكهوف ، فمن المحتمل أن فقدان الإبصار فى الأنواع التى تعيش فى الكهوف التابعة لهذه الطبقة بالذات ، لم يكن له أى علاقة مع استيطانها فى الأماكن المظلمة ، وذلك لأنه من الطبيعى أن نجد أن إحدى الحشرات الفاقدة بالفعل للإبصار سوف تصبح بسهولة متكيفة على الكهوف العميقة المظلمة . وطبقة أخرى عمياء من الحشرات (أنوفثالوس)^(٢) تقدم هذه الظاهرة الغريبة الجديدة بالملاحظة ، وهى حسب ملاحظة "السيد موراي" Mr. Murray ، أن الأنواع التابعة لها لم يمكن العثور عليها إلى الآن إلا فى الكهوف ، ومع ذلك فإن تلك التى تقطن فى الكهوف المختلفة فى أوروبا وأمريكا تكون متباينة عن بعضها ، ولكنه من المحتمل أن أسلاف هذه الأنواع المختلفة ، عندما كانت مزودة بالعيون ، فإنها قد كانت تسعى فوق كل من القارتين ، ثم بعد ذلك أصبحت منقرضة ، فيما عدا ما يوجد منها فى المأوى المنعزلة حالياً . وبعيداً عن الشعور بالدهشة من أن بعض حيوانات الكهوف من المحتم أن تكون شاذة جداً ، فكما لاحظ "أجاسيز" Agassiz فى الحالة الخاصة بالأسماك العمياء المسماة "معتمات النظر"^(٣) ، وكما فى حالة حيوان "البروتايوس"^(٤) الأعمى فيما يتعلق بالزواحف الأوروبية ، فأنا مندهش فقط من أنه لم يتم الاحتفاظ ببقايا أكثر من صور الحياة القديمة ، و نتيجة للمنافسة الأقل شراسة التى قد تعرض لها هذا الكم القليل من القاطنين فى هذه المأوى المظلمة .

- Bathyscia (١) باثيسيا : نوع من حشرات الأعماق *
- Anophthalmus (٢) أنوفثالوس : طبقة من الحشرات العمياء *
- Amblyopsis (٣) الأسماك معتمات النظر : إظلام البصر من غير علة عضوية ظاهرة*
- Proteus (٤) حيوان البروتايوس : من الزواحف

التأقلم

العادة أو السلوك شىء وراثى فى النباتات ، كما يحدث فى فترة الازدهار ، وفى وقت النوم ، وفى كمية المطر التى تحتاجها البذور للإنبات ، وخلافه ، وهذا يدفعنى إلى أن أقول بعض الكلمات عن التأقلم . بما أنه من الشائع جدا للأنواع المتباينة عن بعضها والتابعة إلى نفس الطبقة ، لأن تستوطن فى أقطار حارة وباردة ، فإنه إذا كان صحيحا أن جميع الأنواع التابعة لنفس الطبقة قد انحدرت من شكل أبوى واحد ، فإن التأقلم يجب أن يكون قد حدث من خلال سلسلة طويلة من النشوء . وإنه لمن الغريب أن يكون كل نوع متكيفا مع المناخ الخاص بموطنه الخاص ، والأنواع المجلوبة من المناطق القطبية أو حتى من منطقة معتدلة المناخ لا تستطيع احتمال المناخ الاستوائى ، والعكس صحيح . وهكذا أيضا ، فالكثير من النباتات اللحمية الأنسجة والممتلئة بالعصارة لا تستطيع احتمال أى مناخ رطب . ولكن درجة تكيف الأنواع على الأجواء التى تعيش فيها ، هى فى الغالب شىء مبالغ فيه . ومن الممكن لنا أن نستنتج ذلك من عدم قدرتنا المتكررة على التنبؤ عما إذا كان أحد النباتات المستوردة سوف يستطيع ، أو لن يستطيع ، تحمل المعيشة فى مناخنا الإنجليزى ، ومن عدد النباتات والحيوانات التى تم جلبها من بلاد مختلفة والتى تعيش هنا متمتعة بمنتهى الصحة . ولدينا ما يدعونا للاعتقاد بأن الأنواع فى بيئاتها الطبيعية تكون محددة بشكل حميم فى مآلفها نتيجة للتنافس مع الكائنات العضوية الأخرى التى على نفس الدرجة ، التى هى أكثر منها نتيجة للتكيف مع الأجواء المعينة . ولكن سواء كان ، أو لم يكن ، هذا التكيف قريبا جدا فى معظم الحالات ، فإن لدينا ما يدل على أن البعض القليل من النباتات ، قد أصبح إلى حد ما معتادا بشكل طبيعى على درجات مختلفة من الحرارة ، وهذا يعنى ، أن هذه النباتات قد أصبحت متكيفة : وهكذا فإن الأشجار الصنوبرية^(١) والأشجار الوردية^(٢) التى تم إنباتها من بذور جمعها "الدكتور هوكر" Dr. Hooker من نفس الأنواع التى

Pines

(١) الأشجار الصنوبرية = الصنوبريات

Rhododendrons

(٢) الأشجار الوردية = الورديات : من الفصيلة الخنجية

تنمو على ارتفاعات مختلفة من جبال الهيمالايا Himalaya، وقد وجد أنها تحوز في إنجلترا قدرات بنيانية مختلفة خاصة بمقاومة البرد . وقد أبلغني " السيد ثواتس " Mr. Thwaites أنه قد شاهد مثل هذه الحقائق في جزيرة سيلان Ceylon، ومشاهدات مماثلة قد تم إجراؤها بواسطة " السيد هـ. س. واتسون " عن الأنواع الأوروبية من النباتات التي تم جلبها من جزر الأزور Azores إلى إنجلترا ، وباستطاعتى أن أعطى أمثلة لحالات أخرى . أما فيما يتعلق بالحيوانات ، فإن حالات معتمدة مختلفة من الممكن أن ترد عن أنواع قد انتشرت بشكل كبير ، فى خلال أزمان تاريخية ، قد امتدت مآلفها من خطوط عرض متدرجة من الأدفأ إلى الأبرد وبالعكس ، ولكننا لا نعلم بشكل إيجابى إن كانت هذه الحيوانات متكيفة بشكل كامل مع مناخها الأصلي، بالرغم من أننا فى جميع الحالات العادية نفترض أن هذا هو الواقع ، نحن لا نعلم أن هذه الحيوانات قد أصبحت متكيفة بشكل خاص مع مواطنها الجديدة ، إلى درجة أنها أصبحت معدة لهذه الأجواء بشكل أفضل مما كانت عليه فى أول الأمر .

وكما أنه من الممكن لنا أن نستنتج أن حيواناتنا الداجنة قد تم اختيارها فى الأصل بواسطة الإنسان غير المتحضر ، لأنها كانت مفيدة ، ولأنها استطاعت التوالد بانطلاق وهى رهينة المحبس ، وليس بسبب أنه قد اكتشف بعد ذلك أنها قادرة على الانتقال إلى مسافات ممتدة بشكل بعيد ، فإن القدرة الشائعة وغير العادية الموجودة فى حيواناتنا الداجنة لا تنحصر فى احتمالها لأشد الأجواء اختلافا فقط ، ولكن لكونهما تتميز بالخصوبة الكاملة (حتى تحت أقسى الاختبارات) تحت تأثير هذه الأجواء ، وهذا قد يستخدم كوسيلة للمجادلة فى أن جزءا كبيرا من الحيوانات الأخرى الموجودة حاليا فى بيئتها الطبيعية ، قد يكون من المستطاع تربيتها بسهولة على احتمال الأجواء المختلفة . وبالرغم من ذلك فإننا يجب ألا ندفع هذه المجادلة إلى حد بعيد جدا ، بناء على النشأة المحتملة لبعض من حيواناتنا الداجنة من أصول وحشية مختلفة ، فعلى سبيل المثال ، فمن المحتمل أن دماء نذب استوائى وذئب قطبى قد تكون اختلطت فى سلالاتنا الداجنة . ولا يمكن اعتبار أن الفأر والجرذ هما من الحيوانات الداجنة ، ولكنهما قد انتقلا بواسطة الإنسان إلى أجزاء كثيرة من العالم ، ولهما الآن مآلف أوسع بكثير من أى حيوان قارض آخر ، وذلك لأنهما يعيشان تحت

تأثير الجو البارد الخاص بجزر "فارو" Faroe فى الشمال وجزر الفولكلاند Folklands فى الجنوب ، وفى جزر كثيرة فى المناطق الحارة . ومن ثم ، فإنه قد ينظر إلى التكيف على أى مناخ خاص ، على أساس أنه خاصية مطعومة على ليونة متأصلة عريضة فى البنيان ، وشائعة فى معظم الحيوانات . وبناء على هذه الوجهة من النظر ، فإننا لا يجب ألا ننظر إلى القدرة على احتمال أكثر الأجواء اختلافا بواسطة الإنسان نفسه وبواسطة حيواناته الداجنة ، وإلى الحقيقة الماثلة فى الفيل ووحيد القرن المنقرضين اللذابين احتمالا من قبل مناخا ثلجيا ، بينما الأنواع التى مازالت على قيد الحياة حاليا هى جميعها استوائية وشبه استوائية فى طبائعها ، على أساس أنها ظواهر شاذة ، ولكن على أساس أنها أمثلة لليونة الشائعة جدا فى البنيان ، التى قد تم استدعاؤها ، تحت تأثير الظروف الغريبة ، إلى العمل .

وإنه لسؤال مبهم ، ما المقدار من التأقلم الخاص بالأنواع على أى مناخ غريب الذى من الممكن أن يكون نتيجة لمجرد الاعتياد ؟ وما المقدار الذى من الممكن أن يعزى إلى الانتقاء الطبيعى للضروب التى لديها بنيات دفيئة مختلفة ؟ وما المقدار الذى يمكن أن يعزى إلى كل من العاملين مجتمعين ؟ ويجب على أن أوْمن بأن الاعتياد أو الألفة لهما بعض التأثير ، فإن كليهما نتيجة للتشابه ونتيجة للنصيحة المتواصلة الواردة فى الأبحاث الزراعية ، وحتى فى دوائر المعارف القديمة الخاصة بالصين ، والتى تنص كلها على أن تكون فى منتهى الحذر عند نقل الحيوانات من منطقة إلى منطقة أخرى . وبما أنه ليس من الوارد أن الإنسان يجب أن يكون قد نجح فى انتقاء مثل هذا العدد الكبير من السلالات والسلالات الفرعية التى تتميز ببنيات معدة بشكل خاص من أجل المناطق الخاصة بها ، فإننى أظن أن ذلك قد كان نتيجة للاعتياد . وعلى الجانب الآخر ، فإن الانتقاء الطبيعى سوف يميل بلا محالة إلى الحفاظ على تلك الأفراد الذين ولدوا ولديهم بنيات متكيفة بشكل أفضل مع أى قطر يقطنونه . وقد جاء فى أبحاث أجريت على الكثير من أنواع النباتات المستزرعة ، أن ضروبا معينة يقال عنها إنها تحتمل أجواء معينة بشكل أفضل من غيرها ، وهذا يبدو واضحا فى الأبحاث التى أجريت على أشجار الفاكهة والتى قد تم نشرها فى الولايات المتحدة ، والتى نجد فيها أن ضروبا معينة من المعتاد ترشيحها للولايات الشمالية ، وغيرها للولايات

الجنوبية ، وبما أن هذه الضروب ذات أصول حديثة ، فإنها لا يمكن أن تكون مدينة بالاختلافات فى بنيتها إلى الاعتياد . وحالة خرشوف القدس^(١) ، الذى لم يمكن نشره إطلاقا فى إنجلترا عن طريق البذور ، وبالتالي فإنه لم يمكن إنتاج ضروب جديدة منه ، قد تم تقديمها كإثبات على أنه لا يمكن إحداث التأقلم ، وذلك لأنه ما زال ضعيفا إلى الآن كما كان حاله من قبل !- وقد تكرر هذا الكلام كثيرا فى حالة اللوبياء^(٢) أيضا وذلك لنفس الغرض ، وبالتركيز عليه بصورة أكبر ، ولكن إلى أن ينجح أحد الأفراد فى خلال عدد لا حصر له من الأجيال فى بذر حبوب اللوبياء الخاصة به ، فى وقت مبكر جدا إلى درجة أن يهلك جزء كبير منها بتأثير الصقيع ، ثم بعد ذلك يقوم بجمع بذور من النباتات القليلة التى استطاعت البقاء على قيد الحياة ، وذلك بعناية حتى يتجنب التهاجنات العرضية ، ومرة أخرى يجمع بذورا من نباتات هذه البذور ، مع اتباع نفس الاحتياطات ، فإننا لا نستطيع أن نقول إنه قد تمت المحاولة للقيام بمثل هذه التجربة . ولا يمكن أن نترك أحداً ليفترض أنه لا تظهر على الإطلاق أى اختلافات فى البنية الخاصة بالنباتات الصغيرة للوبياء ، وذلك لأنه قد تم نشر تقرير عن أن بعض هذه النباتات هى أكثر قدرة على الاحتمال بكثير من نباتات أخرى ، وفيما يتعلق بهذه الظاهرة فأننا قد شاهدت بنفسى أمثلة مذهلة منها .

وفى جميع الأحوال ، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن الاعتياد ، أو الاستخدام وعدم الاستخدام ، قد لعب فى بعض الحالات دورا مهما فى التعديل للبنية والتركيب ، ولكن هذه التأثيرات قد كانت غالبا وإلى حد كبير بالاشتراك مع ، وفى بعض الأحيان كان يغلب عليها ، الانتقاء الطبيعى للتمايزات المتأصلة .

Jerusalem artichoke

Kidney - bean

(١) خرشوف القدس = ترخوف = تفاح الأرض

(٢) اللوبياء

التمايز المتلازم (١)

وأنا أعنى بهذا التعبير أن التعضية الكلية مرتبطة مع بعضها بشكل شديد أثناء فترة نموها وتكوينها ، إلى حد أنه إذا حدثت أى تمايزات بسيطة فى أى جزء واحد ، وتراكت من خلال الانتقاء الطبيعى ، فإن أعضاء أخرى تصبح معدلة . وهذا هو موضوع مهم جدا ، ومفهوم بشكل كامل جدا ، ولا يوجد شك فى أن طوائف مختلفة بشكل كلى من الحقائق قد تختلط بسهولة مع بعضها . ونحن سوف نرى الآن أن الوراثة البسيطة كثيرا ما تعطى المظهر الزائف للتلازم . وأحد أكثر الحالات الواضحة الحقيقية هى أن التمايزات فى التركيب التى تظهر على صغار السن أو اليرقانات ، من الطبيعى أنها تميل إلى التأثير على تركيب الحيوان البالغ . والأجزاء العديدة من الجسم التى تكون متماثلة ، والتى فى إحدى المراحل المبكرة فى الفترة الجينية ، متطابقة فى التركيب ، والتى من الضرورى أن تكون معرضة إلى نفس الظروف ، فإنها قابلة بشكل واضح الى التمايز بنفس الطريقة : ونحن نرى هذا فى تمايز الجانب الأيمن والجانب الأيسر من الجسم بنفس الطريقة ، ونفس الشيء يحدث فى الأرجل الأمامية والخلفية ، وحتى الفكوك والأطراف ، التى تتمايز سويا ، وذلك لأن بعض علماء التشريح يؤمنون بأن الفك السفلى على صلة من القرابة مع الأطراف . وأنا لا أشك فى أن هذه القابليات من الممكن أن تكون خاضعة كلية بشكل أو بآخر إلى الانتقاء الطبيعى ، وهكذا فإن فصيلة من الأيائل قد تواجدت فى إحدى الفترات ولها قرن واحد على جانب واحد فقط ، وإذا حدث وأن كان فى ذلك أى نفع كبير للسلالة ، فقد كان من الممكن أن يصير هذا الاختلاف دائما عن طريق الانتقاء .

وكما تم التعليق بواسطة بعض الخبراء ، فإن الأجزاء المتشاكلة ، تميل إلى الترابط مع بعضها ، ونحن نرى هذا كثيرا فى النباتات الشاذة : ولا يوجد شيء أكثر شيوعا من الاتحاد بين الأجزاء المتشاكلة فى التركيبات العادية ، كما يوجد فى اتحاد التويجات لتكوين أنبوية . ويبدو أن الأجزاء الصلبة تؤثر على شكل الأجزاء اللينة المجاورة لها ، ومن المعتقد فيما بين بعض الباحثين أن التنوع فى هيئة عظام الحوض

Correlated variation

(١) التمايز المتلازم (وهو مصطلح أفضل من "الاختلاف المتبادل "

أو "التحولات المعللة" الشائعين *

في الطيور ، يسبب تنوعا ملحوظا في الهيئة الخاصة بكلياتها . ويؤمن علماء آخرون بأن هيئة عظام الحوض في الأم عند الإنسان تؤثر عن طريق الضغط على هيئة الرأس الخاصة بالطفل . وبناء على أقوال " تشلجل " Schlegel ، عن الثعابين ، فإن شكل الجسم وطريقة البلع هي التي تحدد الوضع والشكل الخاص بالأحشاء الداخلية المختلفة البالغة الأهمية .

وكثيرا ما تكون الرابطة غامضة تماما ، وقد شدد " م . إزادور جيوفروي سانت هيلارى " في قوله بأن بعض التشوهات في التركيب ، كثيرا ما ، وبعضها الآخر نادرا ما ، يتواجد في وقت واحد بدون أن نكون قادرين على تحديد أى سبب لذلك . وما الذى يمكن أن يكون أكثر تفردا من العلاقة الموجودة في القبط فيما بين البياض التام في اللون والعيون الزرقاء المصحوبين بالصمم ، أو بين لون عظم ظهر السلحفاة^(١) والشق الجنسى الأنثوى ، أو ما يوجد في الحمام بين أقدامه المغطاة بالريش والجلد الذى فيما بين^(٢) الأصابع الخارجية للأقدام ، أو بين وجود زغب بشكل أو بآخر على الحمامة اليافعة عند أول فقسها ، مع اللون المستقبلي لريشها ، أو مرة أخرى ، من العلاقة بين الشعر والأسنان في الكلب التركى العارى^(٣) ، بالرغم من أنه لا يوجد شك هنا فى أن التشاكل يلعب دورا فى هذه الحالة ؟ - وفيما يتعلق بهذه الحالة الأخيرة من التلازم ، فأنا أعتقد أنه من الصعب أن يكون من الأشياء العارضة أن اثنتين من الرتب التابعة للحيوانات الثديية الأكثر شذوذا فى غطائهما الجلدى ، ألا وهما رتبة الحيتان^(٤) ورتبة الدرداوات^(٥) (مثل الحيوانات المدرعة^(٦)) ، والحيوانات الآكلة للنمل المحرشفة ، وخلافه) ، هما كذلك على العموم الأكثر شذوذا فى أسنانهما ، ولكن توجد هناك الكثير من الاستثناءات لهذه القاعدة ، والتي قد علق عليها " السيد ميفارت " على أساس أن قيمتها محدودة .

Tortoise shell

(١) عظم ظهر السلحفاة

Betwixt

(٢) فيما بين

Naked turkish dog

(٣) الكلب التركى العارى *

Cetacea =Whales

(٤) رتبة الحيتان

Edentata

(٥) رتبة الدرداوات : لبونات (ثدييات) لا أسنان لها

Armadilloes

(٦) الحيوانات المدرعة : حيوان ثديى فى جنوب أمريكا لرأسه وجسمه

درع من الصفائح العظمية الصغيرة

ولا علم لى بأى حالة أفضل تكيفا لإظهار الأهمية المتعلقة بقوانين التلازم والتمايز ، بعيدا عن المنفعة وبالتالي عن الانتقاء الطبيعي ، أكثر من تلك المتعلقة بالاختلاف الموجود بين الزهور الخارجية والزهور الداخلية فى بعض النباتات المركبة^(١) والنباتات الخيمية الازهارار^(٢) وكل إنسان على معرفة بالاختلاف الموجود بين الزهيرات الشعاعية^(٣) والزهيرات المركزية^(٤) الخاصة باللؤلؤية الصغرى^(٥) ، وهذا الاختلاف هو فى كثير من الأحيان يكون مصحوبا بالإجهاض الجزئى أو الكلى للأعضاء التوالدية . ولكن فى بعض من هذه النباتات ، فإن البذور أيضا تختلف فى الهيئة وفى شكل السطح . وهذه الاختلافات قد كانت فى بعض الأحيان تعزى إلى الضغط الناتج عن القلافات^(٦) على الزهيرات ، أو تعزى إلى الضغط المتبادل فيما بين بعضهما البعض ، وهيئة البذور فى الزهيرات الشعاعية التابعة لبعض النباتات المركبة تؤيد هذه الفكرة ، ولكن فى حالة النباتات الخيمية الازهارار ، فكما أخبرنى "الدكتور هوكر" ، فإنه بلا شك أن الأنواع التى لديها أكثر الرعوس هى التى تختلف فى أحوال كثيرة فى زهورها الخارجية وزهورها الداخلية . وقد يكون من الجائز أن نظن أن التكوين الخاص بالزهيرات الشعاعية هو عن طريق سحب المواد الغذائية من الأعضاء التوالدية التى قد تتسبب فى إجهاضها ، ولكنه من الصعب أن يكون هذا هو السبب الوحيد ، وذلك لأن البذور الخاصة ببعض النباتات المركبة الموجودة فى الزهيرات الخارجية والزهيرات الداخلية ، نجد أنها تختلف بدون وجود أى اختلاف فى التوزيع^(٧) . ومن المحتمل أن تكون هذه الاختلافات عديدة مرتبطة مع السريان المختلف للمواد الغذائية فى اتجاه الزهور المركزية والخارجية : ونحن على الأقل نعلم أنه فى حالة الزهور غير المنتظمة ، فإن الزهور التى هى أكثر قربا من المحور هى الأكثر تعرضا لتكوين النورات ، وهذا

Compositous plants	(١) النباتات المركبة
Umbelliferous plants	(٢) النباتات الخيمية الازهارار (مثل الجزر وخلافه)
Ray Florets	(٣) الزهيرات الشعاعية
Central Florets	(٤) الزهيرات المركزية
Daisy	(٥) اللؤلؤية الصغرى = مرجريتا الصغرى = زهرة الربيع : زهرة من الفصيلة المركبة
Involucra	(٦) القلافات
Corolla	(٧) التوزيع : الغلاف الداخلة المحيط بالأسدية والمدقة

يعنى أنها تصبح متناسقة بشكل غير طبيعى . ومن الممكن أن أضيف ، كمثال لهذه الحقيقية ، وكمثال لحالة لافئة للأنظار من حالات التلازم أنه فى الكثير من النباتات الغرنوقية^(١) ، فإننا نجد أن التويجتين العلويتين فى الزهرة المركزية الموجودة بالعنقود الزهرى^(٢) كثيرا ما تفقدان البقع الداكنة فى اللون الموجود عليهما ، وعندما يحدث ذلك ، فإنه يحدث إجهاض تام فى الغدة الرحيقية^(٣) الملاصقة ، وتصبح الزهرة المركزية بهذا الشكل نورة أو منتظمة . وعندما يكون اللون غائبا من واحدة فقط من التويجتين العلويتين ، فإنه لا يحدث إجهاض تام للغدة الرحيقية ، ولكنها تصبح أقصر بشكل كبير .

وفيما يتعلق بتكوين التويج ، فإن فكرة "سبرنجل" التى تقول ، إن الزهيرات الشعاعية تؤدى وظيفة ، هى جذب الحشرات ، التى تكون وساطتها ميزة مهمة أو ضرورية من أجل التلقيح الخاص بالنباتات ، جائزة جدا ، وإذا كان هذا صحيحا ، فإن الانتقاء الطبيعى يكون قد أتى دوره فى الموضوع . ولكن فيما يتعلق بالبدور ، فيبدو أنه من المستحيل أن اختلافاتهما فى الشكل ، التى ليست دائما متلازمة مع أى اختلاف فى التويج ، قد تكون مفيدة بأى طريقة : ومع ذلك ففى النباتات الخيمية الأزهار فإن هذه الاختلافات تبدو مهمة بشكل واضح - فإن البدور قد تكون فى بعض الأحيان مستقيمة الوضع^(٤) فى الزهور الخارجية ومنحنية الوضع^(٥) فى الزهور المركزية - إلى درجة أن "دى كاندول الكبير" قد أسس تقسيماته الأساسية لهذه الرتبة على مثل هذه الصفات . ومن ثم فإن التعديلات فى التركيب ، التى ينظر إليها المشتغلون بعلم التصنيف^(٦) على أساس أنها ذات أهمية عالية ، قد تكون فى مجموعها نتيجة لقوانين التمايز والتلازم ، بدون أن يكون لها ، بقدر ما نستطيع الحكم ، أى فائدة بسيطة للنوع .

Pelargoniums	(١) النباتات الغرنوقية : نبات مزدهر
Truss	(٢) عنقود زهرى ، أو ثمرى ملتزم الوحدات
Nectary	(٣) الغدة الرحيقية
Orthospermous	(٤) مستقيمة الوضع *
Coelospermous	(٥) منحنية الوضع *
Systematists	(٦) المشتغلون بعلم التصنيف *

ومن الممكن أن نعزو بشكل زائف للتمايزات المتلازمة ، تراكيب شائعة في مجموعات كاملة من الأنواع ، والتي هي في الحقيقة لا تعدو أن تكون ببساطة نتيجة للوراثة ، وذلك لأن أحد الأسلاف القديمة من الممكن أن يكون قد اكتسب من خلال الانتقاء الطبيعي أحد التعديلات في التركيب ، وبعد آلاف من الأجيال يكتسب آخر مستقلا ، وهذان التعديلان نتيجة لانتقالهما إلى مجموعة كاملة من الذراري المتصفة بسلوكيات متشعبة ، فمن الطبيعي أنه سوف يتواتر التفكير في أنها متلازمة بطريقة ضرورية ما . وبعض التلازمات الأخرى يبدو من الواضح أنها قد كانت نتيجة للطريقة التي يستطيع الانتقاء الطبيعي أن يقوم بها بمفرده . وعلى سبيل المثال ، فقد علق " ألفريد دي كاندول" على أن البذور المجنحة^(١) لا توجد إطلاقا في الثمار التي لا تنفتح ، يجب على أن أفسر هذا الدور عن طريق استحالة أن تصبح البذور بالتدرج ذات أجنحة من خلال الانتقاء الطبيعي ، إلا إذا كانت علييات البذور^(٢) مفتوحة : وذلك لأنه في هذه الحالة فقط تستطيع البذور ، التي قد أصبحت معدة بشكل أفضل لكي تنتشر بواسطة الريح ، أن تكتسب ميزة أعلى من البذور الأخرى الأقل إعدادا للانتشار الواسع .

التعويض^(٣) ونظام النمو^(٤)

أعلن كل من "جيو فروي الكبير" و "جوته" Goethe ، في نفس الوقت تقريبا ، قانونهما الخاص "بالتعويض" أو "توازن النمو" ، أو كما عبر عنه جوته " من أجل الاتفاق على جانب واحد ، فإن الطبيعة مضطرة إلى التوفير على الجانب الآخر" . وأنا أعتقد أن هذا يتفق إلى حد ما مع منتجاتنا الداخنة : فإذا سرت المواد الغذائية إلى أحد الأجزاء أو أحد الأعضاء بشكل زائد ، فإنها من النادر أن تسرى ، على الأقل بشكل زائد ، إلى جزء آخر ، وهكذا فإنه من الصعب أن ندفع بقرة ما إلى إدرار الكثير من اللبن والى أن تصبح سمينة في نفس الوقت . ونفس الضروب من نبات الكرنب

Winged seeds

Capsules

Compensation

Economy of growth

(١) البذور المجنحة *

(٢) علييات البذور

(٣) التعويض *

(٤) نظام النمو *

لا تدر أوراقا كثيرة ومغذية ، مع إنتاج غزير من البذور الحاملة للزيت . وعندما تصبح البذور فى ثمارنا ضامرة ، فإن الثمرة نفسها تزيد كثيرا فى الحجم وفى الجودة . وفى دجاجنا ، فإن خصلة كبيرة من الريش على الرأس تكون فى العادة مصحوبة بنقصان فى حجم العرف ، واللحية الكبيرة بنقصان فى حجم الألفاد^(١) . ومع الأنواع فى البيئة الطبيعية فإنه من الصعب أن يقال إن القانون ذو تطبيق عام ، ولكن الكثير من المراقبين الجيدين ، وبشكل خاص علماء النبات ، يؤمنون بصدق ذلك . وعلى العموم فأنا لن أعطى أى أمثلة هنا ، وذلك لأننى أجد صعوبة فى أى طريقة قد تتبع للتفرقة بين التأثيرات ، على أحد الجوانب ، الناتجة من أحد الأجزاء التى تنمو بشكل كبير من خلال الانتقاء الطبيعي ، وجزء آخر مجاور قد حدث فيه نقصان عن طريق نفس العملية ، أو عن طريق عدم الاستخدام ، وعلى الجانب الآخر ، الانقطاع الفعلى للمواد الغذائية من أحد الأجزاء نتيجة للإسراف فى نمو عضو مختلف ومجاور .

وأنا أشك أيضا فى أن بعض حالات التعويض التى قد تم تقديمها ، وبالمثل بعض الحقائق الأخرى ، من الممكن أن تندمج تحت مبدأ أكثر عمومية ، ألا وهو ، أن الانتقاء الطبيعي يحاول باستمرار أن يدبر اقتصاد كل جزء من التعضية . وإذا وجد تحت تأثير الظروف المتغيرة للحياة ، تركيب ما كان نافعا من قبل ، ثم أصبح أقل نفعا ، فإن حدوث نقصان فيه سوف يكون مفضلا ، وذلك لأن الكائن سوف يستفيد من عدم إهدار موادته الغذائية على بناء تركيب لا فائدة فيه . وأنا أستطيع بهذا الشكل فقط أن أفهم حقيقة صدمتى بشدة عندما كنت أفحص الحيوانات الهدابية الأرجل^(٢) ، والتي من الممكن أن أقدم منها الكثير من الأمثلة المماثلة ، ألا وهى ، أنه عندما يكون حيوان هدابى متطفلاً بداخل حيوان هدابى آخر ويكون بذلك محميا ، فإنه يفقد بشكل كامل تقريبا صدفته أو درعه القرنية^(٣) ، وهذه هى نفس الحالة مع ذكر حيوان الإيبلا^(٤) ، وبشكل غير طبيعى فعلا فى حالة القشريات البروتينية^(٥) ، وذلك لأن الدرع القرنية فى

Wattle	(١) اللغد = الغيب : زائدة لحمية تتدلى من أعناق الداوجن
Cirripedes	(٢) الحيوانات الهدابية الأرجل : رتبة من القشريات
Carapace	(٣) درع قرنية (أو عظمية)
Ibba	(٤) حيوان الإيبلا *
Proteolepas	(٥) القشريات البروتينية *

جميع الحيوانات الهدائية الأخرى تتكون من المقاطع الثلاثة الأمامية للرأس ذات الأهمية القصوى المتكونة بصورة هائلة ، والمزودة بأعصاب وعضلات ضخمة ، ولكن فى القشريات البروتينية المتطفلة والمحمية ، فإن الجزء الأمامى بالكامل يكون مختزلاً إلى مجرد بقايا أو آثار عضو مثبتة على القواعد الخاصة بالزبانيات المعدة للإمساك بالالتفاف حول الأشياء^(١) ، وهنا ، فإن التوفير بإلغاء تركيب كبير ومعقد ، عندما يصبح زائداً وغير ضرورى ، سوف يكون ميزة مقررة على كل فرد يأتى بعد ذلك فى هذا النوع ، وذلك لأنه فى أثناء التنارع من أجل الحياة الذى يتعرض له كل حيوان ، فإن كلا منهما سوف تكون له فرصة أفضل لإعالة نفسه ، عن طريق الإهدار لكمية أقل من المواد الغذائية .

وبهذا الشكل ، فأنا أؤمن بأن الانتقاء الطبيعى سوف يميل على المدى البعيد إلى اختزال أى جزء من التعضية ، بمجرد أن يصبح ، من خلال السلوكيات المتغيرة ، عديم الفائدة ، وذلك بدون التسبب ، بأى صورة من الصور ، لأى جزء آخر فى أن يصبح أكثر تكونا بدرجة متوازنة . وبالعكس من ذلك ، وأن الانتقاء الطبيعى قد ينجح نجاحاً باهراً فى تكوين أحد الأعضاء بصورة كبيرة دون أن يحتاج ، كتعويض ضرورى ، إلى الاختزال فى أحد الأجزاء المجاورة .

التراكيب المتعددة والأثرية غير المكتملة^(١)

والمتواضعة التعضية^(٢) تكون قابلة للتمايز^(٣)

طبقا لملاحظة "إيزادور جيوفري سانت هيلارى" ، فإنه يبدو أنها قاعدة عامة ، فى كل من الضروب والأنواع ، أنه عندما يتكرر أى جزء أو عضو كثيرا من المرات فى نفس الفرد (مثل الفقرات^(٤) فى الثعابين ، والأسدية^(٥) فى الزهور المتعددة الأعضاء الذكورية^(٦)) فإن العدد يكون غير ثابت ، بينما نفس الجزء أو العضو ، عندما يتواجد بأعداد أقل ، فإن أعدادها تصبح ثابتة . وقد استطرده نفس الباحث ، بالإضافة إلى بعض علماء النبات فى التعليق على أن الأجزاء المتعددة قابلة بشكل شديد للتمايز فى التركيب . ولاستعارة التعبير الذى استخدمه "الأستاذ أوين" Professor Owen فإنه قال إن ذلك يماثل "التكرار النباتى"^(٧) ، وهو علامة على التواضع فى التعضية ، والتصريحات السابقة تتوافق مع الاعتقاد العام لعلماء التاريخ الطبيعى ، من أن الكائنات التى تحتل موقعا متواضعا فى ميزان الطبيعة ، تكون قابلة للتمايز بشكل أكبر من تلك الكائنات التى تحتل موقعا أعلى . وأنا أظن أن التواضع هنا يعنى أن الكثير من الأجزاء المختلفة للتعضية لم تتعد إلا أن تكون متخصصة بعض الشيء فى وظائف معينة ، ومادام من الواجب على نفس الجزء أن يقوم بأعمال متنوعة ، فإنه من الممكن لنا أن نرى لماذا يتحتم عليه أن يبقى متميزا ، وهذا يعنى ، لماذا لا يتحتم على الانتقاء الطبيعى ألا يكون قد احتفظ أو لفظ كل انحراف بسيط فى الشكل بمثل الدقة المتبعة عندما يتحتم على الجزء أن يكون صالحا من أجل غرض خاص واحد . وبنفس الطريقة التى يمكن للسكين الذى عليه أن يقوم بقطع جميع الأنواع من الأشياء ، أن يتخذ أى

Rudimentary structure	(١) التراكيب الأثرية الغير مكتملة *
Lowly organized	(٢) متواضعة التعضية *
Variable	(٣) قابل للتمايز
Vertebrae	(٤) فقرات
Stamens	(٥) الأسدية : الأعضاء الذكورية فى الزهرة
Polyandrous flowers	(٦) الأزهار المتعددة الأعضاء الذكورية = المتعددة الأسدية *
Vegetable repetition	(٧) التكرار النباتى

شكل تقريبا ، بينما يجب على الأداة الخاصة بغرض معين ما ، أن تكون ذات شكل معين . ولا يجب التغاضي إطلاقا عن أن الانتقاء الطبيعي يستطيع أن يعمل ببطء من خلال ، ومن أجل الفائدة الخاصة بكل كائن .

الأجزاء غير المكتملة ، كما هو معترف به على وجه العموم ، قابلة لأن تكون متميزة بشكل كبير . ويجب علينا أن نعود إلى هذا الموضوع ، وأنا سوف أضيف هنا فقط أنه يبدو أن قابليتهما للتمايز تنتج من عدم فائدتهما ، وبالتالي من عدم امتلاك الانتقاء الطبيعي لأي قدرة على التحكم فى الانحرافات التى تحدث فى تركيبها .

الجزء الذى يظهر فى أى نوع بأى درجة أو طريقة استثنائية بالمقارنة مع الجزء نفسه الموجود فى نوع متقارب^(١) . يميل الى ان يكون شديد القابلية للتمايز

منذ سنوات كثيرة ماضية صدمنى بشدة أحد التعليقات عن التأثير المذكور أعلاه ، قيل بواسطة " السيد ووتر هاوس " Mr. Waterhouse ويبدو أن " الأستاذ أوين " Professor owen قد توصل أيضا إلى استنتاج مماثل تقريبا . وأنه لمن الميئوس منه محاولة إقناع أى إنسان بصدق الاقتراح المذكور أعلاه بدون تقديم المجموعة المرتبة الطويلة من الحقائق التى قد قمت بجمعها ، والتى من غير الممكن إطلاقا أن يتم تقديمها . وأنا أستطيع فقط أن أعلن اقتناعى بأن الموضوع يمثل قاعدة ذات عمومية عالية . وأنا على علم بالكثير من الأسباب المختلفة للخطأ ، ولكننى أرجو أن أكون قد قمت بإفصاح مجال مناسب لها . ويجب أن يكون مفهوما أن القاعدة لا تنطبق بأى حال من الأحوال على أى جزء ، مهما يكن متكونا بشكل غير عادى ، إلا إذا كان قد تكون بشكل غير عادى فى نوع واحد ، أو فى قليل من الأنواع بالمقارنة مع نفس الجزء الموجود فى الكثير من الأنواع الحميمة القرابة . وهكذا ، فإن جناح أى خفاش هو أحد أكثر التراكيب شنودا فى طائفة الحيوانات الثديية ، ولكن القاعدة لن تطبق هنا ، وذلك لأن كل مجموعة الخفافيش تمتلك أجنحة ، وهو قد ينطبق فقط إذا كان أحد الأنواع قد تكونت لديه

Allied species

(١) نوع متقارب *

أجنحة بصورة جديرة بالملاحظة بالمقارنة مع الأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة . ولكن القاعدة تنطبق بشكل شديد في حالة الصفات الجنسية الثانوية عندما تبدو بأى شكل غير معتاد . ومصطلح ، الصفات الجنسية الثانوية ، المستخدم بواسطة "هنتر" Hunter، يتصل بالصفات التى تكون متصلة بأحد الشقين الجنسيين ، ولكنها ليست مرتبطة بشكل مباشر مع عملية التوالد . والقاعدة تنطبق على الذكور والإناث ، وبشكل أكثر ندرة على الإناث ، وذلك لأنها من النادر أن تبرز صفات جنسية ثانوية بارزة ، وكون أن القاعدة تنطبق بشكل واضح جدا فى حالة الصفات الجنسية الثانوية ، قد يكون نتيجة للقابلية العظيمة للتمايز لهذه الصفات ، سواء كانت أو لم تكن بارزة بأى طريقة غير عادية - وهذه حقيقة أنا أظن أنه لا يمكن أن يوجد إلا القليل من الشك فيها . ولكن كون قاعدتنا ليست مقصورة على الصفات الجنسية الثانوية ، فهذا يبدو واضحا فى حالة الحيوانات الهدائية الأرجل الخنثى ، وقد انتهت بشكل خاص إلى تعليق " السيد ووتر هاوس" أثناء استقصائى لهذه الرتبة ، وأنا مقتنع تماما بأن القاعدة تثبت صحتها دائما تقريبا . وأنا سوف أقدم فى عمل مستقبلى قائمة بجميع الحالات البارزة بشكل كبير ، أما هنا فسوف أقوم بتقديم حالة واحدة فقط، وذلك لأنها توضح القاعدة فى أوسع صور تطبيقاتها . فإن الصمامات الخيشومية^(١) الخاصة بالحيوانات الهدائية الأرجل المقعدة^(٢) (برنقيلات الصخور)^(٣) ، هى بكل ما فى الكلمة من معنى ، تراكيب مهمة جدا وهى تختلف بشكل قليل جدا حتى فى الطبقات المتباينة عن بعضها ، ولكن فى الأنواع العديدة المختلفة التابعة لطبقة واحدة ، ألا وهى " البيرجوما"^(٤) ، فإن هذه الصمامات تقدم كمية مدهشة من التنوعات ، والصمامات المتماثلة فى الأنواع المختلفة قد تكون فى بعض الأحيان غير متماثلة تماما فى الشكل ، وكمية التمايز الموجودة فى الأفراد التابعة لنفس النوع هى كبيرة جدا ، إلى حد أنه ليس من قبيل المبالغة أن يقال إن الضروب التابعة إلى نفس النوع تختلف عن بعضها البعض بشكل أكبر فى الصفات المستمدة من هذه الأعضاء المهمة ، بشكل أكبر عمقا عما يحدث بين الأنواع التابعة إلى طبقات أخرى متباينة .

Operular valves

(١) الصمامات الخيشومية *

Sessile cirripldes

(٢) الحيوانات الهدائية الأرجل المقعدة (الجالسة) *

Rock barnacles

(٣) برنقيلات الصخور *

Pyrgoma

(٤) طبقة البيرجوما

وكما نجد فى الطيور ، فإن الأفراد التابعة لنفس النوع ، والقاطنة فى نفس القطر ، تتمايز عن بعضها بشكل فى منتهى الصّالة ، وأنا قد أوليت الأمر عنايتى بالفعل ، ويبدو بالتاكيد أن هذه القاعدة قد ثبتت صحتها فى هذه الطائفة . وأنا لا أستطيع أن أحدد إذا ما كانت تنطبق على النباتات ، وهذا كان من شأنه أن يهز بشكل عنيف إيمانى فى صحتها ، لولا أن التمايزات الهائلة التى تحدث فى النباتات قد جعلت الموضوع صعبا من الوجهة العملية لإجراء مقارنة تتعلق بالدرجات النسبية الخاصة بقابليتهما للتمايز .

عندما نرى أن أى جزء أو عضو قد يكون بدرجة أو طريقة جديرا بالملاحظة فى أحد الأنواع ، فإن الافتراض العادل يتجه إلى أنه ذو أهمية عالية لهذا النوع : وبالرغم من ذلك فإنه فى هذه الحالة بالذات يصبح هذا الجزء أو العضو قابلا للتمايز . لماذا يحدث ذلك ؟ - طبقا للرأى القائل بأن كل نوع قد تم خلقه بشكل مستقل ، وأن له جميع الأجزاء كما نراها حاليا ، فإنى لا أستطيع أن أرى أى تفسير لهذا . ولكن من وجهة النظر القائلة بأن هناك مجموعات من الأنواع قد انحدرت من بعض الأنواع الأخرى ، وأنه قد حدث لها تعديل من خلال الانتقاء الطبيعى ، فإنى أظن أننا نستطيع أن نتبين بعض الضوء . ودعى أولا أقوم بتقديم بعض الملحوظات الأولية . فإنه إذا حدث إهمال فى أى جزء أو فى مجموع كيان حيوان من حيواناتنا الداجنة ، ولم يكن هناك مجال لتطبيق الانتقاء ، فإن هذا الجزء (وعلى سبيل المثال ، العرف فى دجاج "دوركنج" Dorking) أو كل السلالة سوف تكف عن أن يكون لها طابع موحد ، وقد يقال عندئذ إن السلالة فى سبيلها إلى الانحطاط^(١) ، وفى الأعضاء غير المكتملة ، وفى هذه الأعضاء التى لم تصبح متخصصة إلا قليلا فى أى غرض معين ، وربما كان ذلك فى المجموعات المتعددة الأشكال ، فإننا نرى حالة متوازية تقريبا ، وذلك لأنه فى مثل هذه الحالات فإن الانتقاء الطبيعى لم يكن له أو لم يستطع أن يكون له دور كامل ، ونتيجة لذلك فإن التعضية قد تم تركها فى حالة متقلبة . ولكن الشئ الأكثر أهمية لنا بالتحديد ، هو أن هذه النقاط فى حيواناتنا الداجنة ، التى تمر فى وقتنا الراهن بتغيير سريع عن طريق الانتقاء المستمر ، هى أيضا معرضة بشكل واضح للتمايز . ولك أن تنظر إلى الأفراد التابعة لنفس السلالة من الحمام ، وترى مدى الكمية غير العادية

من الاختلافات التي توجد هناك في انفاقير الخاصة بالحمام البهلواني^(١) ، وفي المناقير والألغام الخاصة بالحمام الزاجل^(٢) ، وفي التمدادى والدليل الخاصين بالحمام المروحي الذيل^(٣) ، وخلافه ، وهذه هي النقاط التي يولييهما حاليا هواة الحمام الإنجليزي اهتمامهم بشكل أساسي . وحتى في نفس السلالة نفرعية ، كما هو الحال في الحمام البهلواني قصير الوجه^(٤) ، فإنه من الصعب بشكر عريب استيلاذ طيور شبه متكاملة الأوصاف ، فالكثير من الذراري ينحرف بشكل عريض عن المستوى القياسى . ومن الممكن أن يقال بشكل واقعى إن هناك صراعا ، مستديما قائما ، من أحد الجوانب ، بين القابلية للارتداد إلى حالة أقل من الأوصاف المثالية ، علاوة على قابلية دفيئة إلى تمايزات جديدة ، ومن الجانب الآخر القسرة على الانتقاء المطرد للحفاظ على نقاء السلالة . ولكن على المدى البعيد ، فإن الانتقاء يريح الجولة ، ونحن لا نتوقع أن نفشل بهذا الشكل التام في استيلاذ طير ما غير مصقول مثل الحمام البهلواني الشائع من الحمام القصير الوجه الجيد الأصل . ولكن مادام الانتقاء مازال يتقدم بسرعة ، فإن تواجد قابلية كبيرة للتمايز في الأجزاء التي تحدث بها التعديلات قد يكون متوقعا دائما .

ودعنا نلتفت إلى الطبيعة ، فإنه عندما يتكون جزء بصورة غير معتادة في أى نوع واحد ، بالمقارنة مع الأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة ، فإنه من الممكن لنا أن نستنج أن هذا الجزء قد خضع إلى كمية غير عادية من التعديل منذ الفترة التي حدث فيها تفرع للعديد من الأنواع المختلفة من الأصل الأبوى المشترك للطبقة ، وهذه الفترة التي حدث فيها تفرع من النادر أن تكون بعيدة بأى درجة كبيرة جدا ، وذلك لأنه من النادر أن تبقى الأنواع ثابتة لمدة أطول من حقبة جيولوجية واحدة . والكمية غير العادية من التعديل تقتضى كمية كبيرة ومستمرة لمدة طويلة بشكل غير عادى من التمايز ، الذى قد تم تكديسه باستمرار بواسطة الانتقاء الطبيعى من أجل مصلحة النوع . ولكن بما أن قابلية التمايز للجزء أو العضو المتكون بشكل غير عادى قد كان بهذا القدر من الضخامة ومستمر لهذه المدة في خلال فترة ليست بعيدة ، بشكل زائد ، فإنه من الممكن

Tumblers (Pigeons)

(١) الحمام البهلواني *

Carriers (Pigeons)

(٢) الحمام الزاجل *

Fantails (pigeons)

(٣) الحمام المروحي الذيل *

Short faced tumbler

(٤) الحمام البهلواني قصير الوجه *

لنا كقاعدة عامة ، أن نتوقع أن نجد أيضا قابلية أكبر للتمايز فى مثل هذه الأجزاء ،
 عنه فى أجزاء أخرى من التعضية التى قد بقيت شبه ثابتة ، لفترة أطول بكثير . وأنا مقتنع
 بأن هذا هو الذى يحدث . وأنا لا أرى مجالا للتشكك فى أن التنازع بين الانتقاء الطبيعى
 على أحد الجوانب ، والقابلية إلى الارتداد والقابلية للتمايز على الجانب الآخر ، سوف يتوقفان
 مع مضى الوقت ، وأن الأعضاء الأكثر شذوذا فى تكوينها من الممكن أن تصبح ثابتة .
 ومن ثم ، فعندما يتم نقل صفات عضو ، مهما تكن درجة شذوذه ، بنفس الحالة تقريبا
 إلى العديد من الذرارى المعدلة ، كما حدث فى حالة جناح الخفاش ، فإن ذلك العضو قد
 كان موجودا بالتأكيد ، بناء على نظريتنا ، لفترة هائلة من الزمن فى نفس الحالة تقريبا ،
 وبهذا الشكل فإنه وصل إلى ألا يكون أكثر قابلية للتمايز أكثر من أى تركيب آخر ،
 وأنها فى تلك الحالات فقط ، هى التى نجد فيها أن "القابلية للتمايز الخلاق"^(١) ، كما
 يمكن أن يطلق عليها ، مازالت باقية بدرجة عالية . وذلك لأنه فى هذه الحالة ، فإن
 القابلية للتمايز سوف يكون من النادر أن تكون قد تم تثبيتها عن طريق الانتقاء المستمر
 للأفراد المتميزين بالشكل المطلوب وبالدرجة المطلوبة ، وعن طريق اللفظ المستمر لتلك
 الأفراد التى تميل إلى الارتداد إلى إحدى الحالات السابقة والتى هى أقل تعديلا .

الصفات النوعية^(٢) أكثر تمايزا من الصفات العرقية^(٣)

المبدأ الذى تم الكلام عنه تحت عنوان الموضوع السابق ، من الممكن أن يطبق على
 موضوعنا الحالى . فإنه من الغريب أن تكون الصفات النوعية أكثر تمايزا من العرقية .
 ولتفسير معنى ذلك بواسطة مثال بسيط : إذا حدث فى إحدى الطبقات الكبيرة الخاصة
 بالنباتات ، أن أحد الأنواع كانت زهوره زرقاء ونوع آخر كانت زهوره حمراء . فإن
 اللون سيصبح إحدى الصفات النوعية فقط ، ولن يصاب أحد بالدهشة عندما يتميز أحد
 الأفراد التابعين للنوع الأزرق إلى اللون الأحمر ، أو العكس ، ولكن إذا حدث أن جميع

Generative variability

(١) قابلية التمايز الخلاق *

Specific characters

(٢) الصفات الخاصة *

Generic characters

(٣) الصفات العامة = الصفات العرقية *

الأنواع كانت زهورها زرقاء ، فإن اللون فى هذه الحالة سوف يصبح إحدى الصفات العرقية، وأى تمايز يحدث فيه سوف يكون من أكثر الظروف شذوذا . وأنا قد اخترت هذا المثال لأن التفسير الذى قد يسوقه معظم علماء التاريخ الطبيعى لا ينطبق هنا ، ألا وهو أن الصفات الخاصة أكثر تمايزا من العرقية ، وذلك لأنها مأخوذة من أجزاء ذات أهمية وظيفية أقل من تلك التى تستخدم فى العادة من أجل تصنيف الطبقات . وأنا أعتقد أن هذا التفسير صحيح جزئيا ، ولكن بشكل غير مباشر فقط ، ومع ذلك فأنا سوف أعود إلى هذه النقطة فى الباب المنصب على التصنيف . وقد يكون من غير الضرورى تقريبا تقديم دليل لتأكيد هذا التصريح الذى ينص على أن الصفات الخاصة العادية أكثر تمايزا عن العامة : ولكن فيما يتعلق بالصفات المهمة ، فإنى قد لاحظت بصورة متكررة فى الأبحاث الخاصة بالتاريخ الطبيعى ، أنه عندما يعلق أحد العلماء بدهشة على أن أحد الأعضاء أو الأجزاء المهمة ، الذى يكون فى العادة شديد الثبات فى مجموعة كبيرة من الأنواع ، قد حدث فيه اختلاف مهم فى الأنواع الشديدة القربى ، فإنه يكون قابلا للتمايز فى أغلب الأحيان فى الأفراد التابعين لنفس النوع . وهذه الحقيقة تبرز أن الصفة التى تكون فى العادة ذات قيمة عرقية، عندما تهبط فى القيمة وتصبح ذات قيمة نوعية فقط ، فإنها كثيرا ما تصبح متميزة ، بالرغم من أن قيمتها الوظيفية قد تبقى على نفس الحال . وشيء من هذا القبيل ينطبق على الظواهر الشاذة : فيبدو أن "إيزانور جيوفروى سانت هيلارى " على الأقل لا يساوره شك فى أنه كلما زاد الاختلاف فى العضو بشكل طبيعى فى الأنواع المختلفة التابعة لنفس المجموعة ، زادت قابليته للخروج عن المألوف فى الأفراد .

وبناء على رأى السائد بأن كل نوع قد تم خلقه بشكل مستقل ، فلماذا يحدث أن هذا الجزء من التركيب ، الذى يختلف عن نفس الجزء فى نوع آخر مخلوق بشكل مستقل تابع لنفس الطبقة ، يصبح أكثر تمايزا من هذه الأجزاء التى تشبه بعضها بشكل حميم فى الأنواع العديدة المختلفة؟ - وأنا لا أرى أنه من الممكن أن نتوقع فى أحوال كثيرة أن نجدهم مازالوا مستمرين فى التمايز فى هذه الأجزاء من تراكيبهم التى قد تمايزت فى خلال مدة حديثة نسبيا ، والتى قد اختلفت عن بعضها بهذا الشكل . أو لتوضيح الحالة بشكل آخر : النقاط التى تتماثل فيها جميع الأنواع التابعة لإحدى الطبقات ، والتى تختلف فيها عن الطبقات ذات القربى ببعضها ، يطلق عليها صفات

عرقية، وهذه الصفات من الممكن أن تعزى إلى الوراثة من سلف أبوى مشترك ، وذلك لأنه من النادر أن يكون ما حدث أن الانتقاء الطبيعي سوف يكون قد قام بتعديل أنواع عديدة مختلفة متباعدة عن بعضها ، ومعدة تقريبا من أجل سلوكيات متباعدة الاختلاف ، بنفس الطريقة تماما : وبما أن هذه الصفات التي يطلق عليها أنها صفات عرقية قد تمت وراثتها من وقت سابق للفترة التي تفرعت فيها الأنواع المختلفة لأول مرة من سلفها الأبوى المشترك ، وبالتالي فإنها لم تتمايز أو يحدث بينها اختلاف إلى أى درجة ، أو إلى درجة بسيطة فقط ، فإنه ليس من المحتمل أنها سوف تتمايز فى الوقت الحاضر . وعلى الجانب الآخر ، فإن النقاط التي تختلف فيها الأنواع عن الأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة تسمى صفات نوعية، وبما أن هذه الصفات النوعية قد تمايزت وحدث فيها اختلاف منذ الفترة التي تفرعت فيها الأنواع من سلف أبوى مشترك ، فإنه من المحتمل أنها سوف تبقى فى كثير من الأحوال قابلة للتمايز - على الأقل بشكل أكثر تمايزا عن تلك الأجزاء من التعضية التي قد استمرت ثابتة لفترة زمنية طويلة جدا .

الصفات الجنسية الثانوية قابلة للتمايز

أنا أعتقد أنه من الأشياء التي سوف يعترف بها علماء التاريخ الطبيعي ، بدون دخول فى أى تفاصيل ، أن الصفات الجنسية الثانوية قابلة للتمايز بشكل شديد . وسوف يتم الاعتراف أيضا بأن الأنواع التابعة لنفس المجموعة تختلف عن بعضها الآخر بشكل أوسع فى صفاتها الجنسية الثانوية ، عن اختلافها فى الأجزاء الأخرى التابعة لتعضيتها : وعلى سبيل المثال ، فلك أن تقارن كمية الاختلاف الموجود بين ذكور الطيور التابعة لرتبة الدجاجيات^(١) ، التي تبرز فيها بشدة الصفات الجنسية الثانوية ، مع كمية الاختلافات الموجودة بين الإناث . والسبب الموجود خلف القابلية الأصلية للتمايز الخاصة بهذه الصفات غير واضح ، ولكننا نستطيع أن نرى لماذا لم

تصبح تلك الصفات بمثل الثبات والتماثل كالصفات الأخرى ، وذلك لكونها قد تراكمت عن طريق الانتقاء الجنسي ، وهو أقل صرامة في تأثيره من الانتقاء العادي ، وذلك لأنه لا يتضمن الموت ، ولكنه يؤدي فقط لمنح عدد أقل من الذراري للذكور غير المفضلة . ومهما يكن السبب وراء القابلية للتمايز الخاصة بالصفات الجنسية الثانوية ، وذلك لأنها متميزة بدرجة عالية ، فإن الانتقاء الجنسي سوف يكون قد حظى بمدى واسع للتأثير ، وقد يكون بذلك قد نجح في أن يمنح الأنواع التابعة لنفس المجموعة كمية أكبر من الاختلافات في هذه الصفات ، عنها في أي مجال آخر .

وإنها لحقيقة جديرة بالملاحظة أن الاختلافات الثانوية بين الشقين الجنسيين التابعين لنفس النوع تظهر على وجه العموم في نفس الأجزاء من التعضية بالذات التي تختلف فيها الأنواع التابعة لنفس الطبقة عن بعضها الآخر . وعن هذه الحقيقة سوف أقدم في مثال موضح الحاليتين الأوليين اللتين تقعان بالصادفة في أول القائمة التي قمت بإعدادها ، وبما أن الاختلافات في هاتين الحاليتين لها طبيعة غير عادية جدا ، فإنه من الصعب أن تكون هذه العلاقة شبيهاً عرضياً . فمن المعروف أن عدد المفاصل الموجودة في الكواحل هو صفة شائعة في مجموعات كبيرة جدا من الخنافس ، ولكننا نجد في الأنجيديات^(١) ، كما علق " وستوود " Westwood ، أن العدد يختلف كثيرا ، وأن العدد يختلف كذلك في الشقين الجنسيين التابعين لنفس النوع . ونجد أيضا في الحشرات الغشائية الأجنحة^(٢) الحافرة^(٣) ، أن التفرعات العصبية^(٤) الخاصة بالأجنحة صفة في غاية الأهمية ، وذلك لأنها مشتركة في المجموعات الكبيرة ، ولكن في بعض الطبقات المعينة ، فإن التفرعات تختلف في الأنواع المختلفة ، وكذلك في الشقين الجنسيين التابعين لنفس النوع . وقد ألمح مؤخرا " السير لوبوك " Sir Lubbock ، أن العديد من القشريات الدقيقة المختلفة تقدم مثالا موضحا ممتازا لهذا القانون . على

Ingidae

Hymenoptera

Fossorial

Neuration

(١) الأنجيديات : من أنواع الخنافس *

(٢) الحشرات غشائية الأجنحة

(٣) الحافرة

(٤) تفرعات الأعصاب *

سبيل المثال ، فى حشرات "البونتيللا"^(١) فإن الصفات الجنسية تظهر بشكل أساسى عن طريق الزبانيات الأمامية وعن طريق الزوج الخامس من الأرجل : والاختلافات النوعية أيضا تبدو بشكل أساسى عن طريق هذه الأعضاء . وهذه العلاقة ذات معنى واضح من وجهة نظرى : فأنا أنظر إلى جميع الأنواع التابعة لنفس الطبقة على أساس أنها قد انحدرت بالتاكيد عن سلف أبوى مشترك ، بنفس الطريقة التى انحدر بها الشقان الجنسيان التابعان لأى نوع . وبالتالي ، فمهما يكن الجزء من التركيب الخاص بالسلف الأبوى المشترك ، أو لذرايه المبكرة ، قد أصبح متمايزا ، فإن التمايزات فى هذا الجزء فى أغلب الاحتمالات ، سوف يتم استغلالها بواسطة الانتقاء الطبيعى والجنسى ، وذلك من أجل وضع الأنواع الكثيرة المختلفة فى أماكنها الكثيرة المختلفة فى منظومة الطبيعة ، وكذلك لتوفيق الشقين الجنسيين التابعين لنفس النوع مع بعضهما البعض ، أو لإعداد الذكور من أجل التنازع مع الذكور الأخرى ، من أجل الحياة للإناث.

فى النهاية إذن ، فأنا أستنتج : أن القابلية الأكبر للتمايز الخاصة بالصفات النوعية ، أو هذه الصفات التى تميز نوعا عن نوع ، عن القابلية للتمايز الخاصة بالصفات العرقية ، أو هذه الصفات المملوكة لجميع الأنواع - وأن القابلية المتكررة المفرطة للتمايز الخاصة بأى جزء قد تم تكوينه فى أحد الأنواع بطريقة غير مألوفة بالمقارنة بنفس الجزء الموجود لدى الأنواع المجانسة^(٢) له ، والدرجة البسيطة من القابلية للتمايز الموجودة فى أحد الأجزاء ، مهما تكن طريقة تكوينه غير عادية ، إذا كانت شائعة فى مجموعة كاملة من الأنواع ، - وأن القابلية الهائلة للتمايز الخاصة بالصفات الجنسية الثانوية ، مع اختلافاتها الهائلة فى الأنواع ذات القربى الحميمة - وأن الاختلافات الجنسية الثانوية ، والاختلافات النوعية العادية عادة ما تظهر فى نفس الأجزاء من التعضية ، - هى كلها مبادئ مرتبطة عن كثب مع بعضها البعض . فإن جميعها بشكل أساسى نتيجة لكون الأنواع التابعة لنفس المجموعة ما هى إلا ذرارى منحدره من سلف أبوى مشترك ، والذى قد ورثت عنه أشياء كثيرة مشتركة -

Pontella

(١) حشرات البونتيللا *

Congener

(٢) مجانس : كائن مشابه من فصيلة أخرى

وإلى أجزاء قد حدث فيها تمايز حديث وبشكل كبير وما زالت قابلة بشكل أكبر للاستمرار فى التمايز عن أجزاء تم توارثها منذ مدة طويلة ولم يحدث فيها تمايز - وإلى الانتقاء الطبيعي الذى قام بالسيطرة تماما بشكل أو بآخر ، بناء على مرور الوقت ، على القابلية للارتداد وعلى القابلية لزيادة التمايز - وإلى الانتقاء الجنىسى فى كونه أقل صرامة من الانتقاء العادى - وإلى التمايزات التى تحدث فى نفس الأجزاء والتى قد تراكمت عن طريق الانتقاء الطبيعى والجنىسى ، والتى أصبحت بهذا الشكل ملائمة للأغراض الجنسية الثانوية وللأغراض العادية.

الأنواع المتباينة تظهر فيها تمايزات متماثلة ، إلى درجة أنه كثيرا ما يتخذ أحد الضروب التابعة لأحد الأنواع ، طابعا خاصا بنوع يمت له بصلة قربة ، أو أن يرتد إلى بعض من الصفات الخاصة بأحد الأسلاف الأبوية المبكرة

هذه الافتراضات سوف يمكن فهمها بسهولة عن طريق توجيه النظر إلى سلالاتنا الداجنة . فإن أكثر أعرقنا الحمام تباينا ، والتى تعيش فى بلدان متباعدة عن بعضها بمسافات شاسعة ، تظهر فيها ضروب فرعية تتميز بريش معكوس الاتجاه على الرأس ، وبشعر على القدمين - وهى صفات ليست موجودة فى حمام الصخور الأرومى^(١) ، وبهذا فإن هذين هما ضربان متماثلان تابعان إلى اثنين أو أكثر من الأعراق المتباينة . والتواجد المتكرر لأربع عشرة أو حتى ست عشرة ريشة ذيلية فى الحمام العابس^(٢) من الممكن اعتباره على أساس أنه تمايز يمثل التركيب العادى الخاص بعرق آخر ، ألا وهو الحمام المروحي الذيل^(٣) . وأنا أفترض عدم وجود من يشك فى أن جميع مثل هذه التمايزات المتماثلة ماهى إلا نتيجة لأن الأعراق العديدة المختلفة من الحمام قد ورثت من أصل مشترك نفس البنيان والميل إلى التمايز ، عندما تتعرض لمفعول تأثيرات

Aboriginal rock-pigeons

Pouter

Fan - tail

(١) حمام الصخور الأرومى *

(٢) الحمام العابس **

(٣) الحمام مروحي الذيل *

متشابهة غير معلومة . أما في المملكة النباتية فإن لدينا حالة من التمايز المتماثل^(١) ، وذلك في السيقان المتضخمة ، أو كما تسمى عادة "الجنور" ، الخاصة باللفت السويدي^(٢) واللفت الأصفر^(٣) ، وهي نباتات يصنفها العديد من علماء النبات على أساس أنها ضروب ناتجة عن طريق الاستزراع من أصل مشترك : وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن الحالة سوف تكون إذن واحدة من أمثلة التمايز المتماثل في اثنين من التي يقال عنها إنها أنواع متباينة ، ومن الممكن أن يضاف ثالث إلى هذين الاثنين ، ألا وهو اللفت الشائع^(٤) . وتماشيا مع الرأي الشائع القائل بأن كل نوع قد تم خلقه بشكل مستقل ، فإنه سيحتتم علينا أن نعزو هذا التماثل في السيقان المتضخمة الخاصة بهذه النباتات الثلاثة ، ليس إلى مصداقية^(٥) نظام النشوء^(٦) ، وما يتبعه من ميل إلى التمايز بنفس الشكل ، ولكن إلى ثلاثة أعمال منفصلة ولو أنها مترابطة ترابطا حميما من أعمال التخليق . وقد تمت ملاحظة الكثير من الحالات المشابهة الخاصة بالتمايز المتماثل بواسطة "نودين" Naudin في فصيلة القرعيات^(٧) الكبيرة ، وكذلك بواسطة العديد من العلماء المختلفين في النباتات الحبوبية^(٨) الخاصة بنا . وقد تمت مؤخرا مناقشة حالات مماثلة تحدث بين الحشرات تحت تأثير الظروف الطبيعية ، وذلك بمقدرة شديدة بواسطة "السيد والش" Mr. Walsh ، وهو الذي قام بوضعهما في مجموعة تحت قانونه الخاص بالقابلية للتمايز المتكافئ^(٩) .

Analogous variation	(١) التمايز المتماثل *
Swedish turnip	(٢) اللفت السويدي = السلجم السويدي *
Ruta бага	(٣) اللفت الأصفر = الرتباچ
Common turnip	(٤) اللفت الشائع = السلجم *
Ver causa (Lat.)	(٥) مصداقية (من اللغة اللاتينية) *
Community of descent	(٦) نظام النشوء
Gourd - family	(٧) فصيلة القرعيات - اليقطين
Cereals	(٨) النباتات الحبوبية *
Equable variability	(٩) القابلية للتمايز المتكافئ = المتساوى = المتعادل *

ومع ذلك فإن لدينا حالة أخرى فى الحمام ، ألا وهى الظهور العارض فى جميع السلالات لطيور ذات لون أزرق إردوازى^(١) مع اثنين من الخطوط السوداء على الأجنحة ، وخواصر^(٢) بيضاء وخط عند نهاية الذيل ، والریش الخارجى مزيج بالأبيض عند حوافه الخارجية قرب قواعد . وبما أن جميع هذه العلامات هى العلامات المميزة للحمام الصخرى الأبوى ، فأنا أظن أنه لا يوجد من يشك فى أن هذه حالة من حالات الارتداد ، وليست خاصة بتمايز جديد ولو أنه متمائل يظهر فى العديد من السلالات المختلفة . وأنا أعتقد أنه من الممكن لنا أن نصل إلى هذا الاستنتاج بثقة ، وذلك لأنه كما رأينا ، فإن هذه العلامات الملونة قابلة بشكل بارز للظهور فى الذرية المهجنة من اثنين من السلالات المتباينة والمختلفة الألوان وفى هذه الحالة فإنه لا يوجد شىء فى الظروف الخارجية للحياة من الممكن أن يؤدى إلى عودة الظهور للون الأزرق الإردوازى مع العلامات الكثيرة المختلفة ، سوى التأثير الخاص بمجرد فعل التهجين فقط على قوانين الوراثة .

ولا يوجد شك فى أنها حقيقة مدهشة جدا أن نجد صفات قد تعود للظهور بعد أن يتم فقدانها لمدة كبيرة ، وربما لمئات من الأجيال . ولكن عندما يتم تهجين إحدى السلالات لمرة واحدة فقط بواسطة سلالة أخرى ، فإن الذرية قد يبدو عليها أحيانا على مدى عدة أجيال ، قابلية للارتداد فى الطابع إلى السلالة الغريبة ، - والبعض يقول إن ذلك يستمر من اثنى عشر إلى عشرين جيلا . فبعد اثنى عشر جيلا ، فإن نسبة الدم ، إذا كان لنا أن نستخدم مصطلحا شائعا ، المنحجرة من سلف واحد تمثل فقط ١ : ٢٠٤٨ ، ولكن كما نرى فإنه من المعتقد على وجه العموم أن هناك قابلية ما للارتداد تكون متبقية عن طريق هذا الأثر الباقى من الدم الغريب . وفى السلالة التى لم يحدث بها تهجين ، ولكن الذى حدث فيها أن كلا من الوالدين قد فقد بعضا من الطابع الذى كان سلفهما يحوزه ، فإن القابلية ، سواء كانت قوية أو ضعيفة ، لإعادة إنتاج هذا الطابع المفقود من الممكن ، كما سبق التعليق ، وبناء على جميع ما نستطيع أن نرى

Slaty - blue

Lion

(١) لون أزرق إردوازى = أزرق رمادى *

(٢) خاصرة

عكس ذلك ، أن تنتقل إلى أى عدد من الأجيال تقريبا . وعندما يعود أى من الصفات التي قد تم فقدانها فى سلالة ما إلى الظهور بعد عدد هائل من الأجيال فإن الافتراض الأكثر احتمالا هو ليس أن أحد الأفراد قد حذا بشكل مفاجئ حذو أحد الأسلاف البعيدة عنه بوضع مئات من الأجيال ، ولكن الطابع موضع التساؤل فى كل جيل تال قد كان كامنا متربصا ، ثم ظهر فى النهاية تحت ظروف ملائمة غير معروفة . وعلى سبيل المثال ، فإنه مع الحمام المغربى^(١) ، الذى من النادر جدا أن ينتج طيرا أزرق ، فإنه من المحتمل أن يكون هناك قابلية دفينية فى كل جيل لإنتاج ريش أزرق . وعدم الاحتمال المجرد لإمكان انتقال هذه القابلية فى خلال عدد ضخم من الأجيال ، ليس أكبر من إمكان الانتقال بشكل مماثل لأعضاء عديمة النفع تماما أو لأعضاء غير مكتملة . ومن المؤكد أنه يتم بهذا الشكل ، فى بعض الأحيان ، وراثه مجرد القابلية لإنتاج بقايا أو آثار عضو^(٢) .

ويما أنه من المفترض أن جميع الأنواع التابعة لنفس الطبقة ، منحدره من سلف أبوى مشترك ، فإنه قد يكون من المتوقع أنها سوف تتمايز أحيانا بطريقة متناظرة ، وذلك من أجل أن تصبح الضروب التابعة إلى اثنين أو أكثر من الأنواع مماثلة لبعضها الآخر ، أو أن ضربا تابعا لنوع واحد قد يماثل فى بعض الصفات المعينة أحد الأنواع الأخرى المتباينة وهذا النوع الآخر ما هو ، طبقا لوجهة نظرنا ، إلا ضرب محدد بدقة ودائم ، ولكن الصفات الناتجة بشكل مطلق عن التمايزات المتناظرة ، فإنها غالبا ما تكون ذات طبيعة غير مهمة ، وذلك لأن الحفاظ على جميع الصفات المهمة وظائفا سوف يكون قد تم تحديده من خلال الانتقاء الطبيعى ، وفقا للسلوكيات المختلفة الخاصة بالنوع . ومن الممكن أيضا أن يكون متوقعا أن تبدو أحيانا على الأنواع التابعة لنفس الطبقة ارتدادات إلى صفات فقدت منذ زمن بعيد . ومع ذلك ، فيما أننا لا نعرف الأسلاف الأبوية المشتركة الخاصة بأى مجموعة طبيعية ، فإننا لا نستطيع أن نفرق بين الصفات المرتدة والمتناظرة . وعلى سبيل المثال ، فإذا كنا لا نعرف أن الحمام الصخرى الأبوى ، لم يكن مريش الأقدام أو مستدير التاج ، فإنه لم يكن باستطاعتنا أن نقول ،

؛ Barb- pigeons
Rudiment

(١) الحمام المغربى **
(٢) بقايا أو آثار عضو

إذا ما كانت هذه الصفات فى سلالاتنا الداجنة هى ارتدادات أو تمايزات متناظرة فقط ، ولكنه قد كان من الممكن لنا أن نضمن أن اللون الأزرق قد كان حالة من حالات الارتداد ، وذلك نتيجة لعدد من العلامات ، التى تكون متلازمة مع هذه الدرجة من درجات اللون ، والتى لا يمكن فى الغالب أن تكون جميعها قد ظهرت مع بعضها نتيجة لتمايز بسيط . والأكثر خصوصية هو أننا من الممكن أن نستنتج هذا ، من اللون الأزرق والعلامات العديدة المختلفة التى كثيرا جدا ما تظهر عندما تتهاجن سلالات ذات ألوان عديدة مختلفة ، وبناء على ذلك ، فبالرغم من أنه يتحتم عادة تحت تأثير الطبيعة أن يظل هناك مجال للشك ، فى كون أى من الحالات عبارة عن ارتدادات إلى صفات كانت موجودة من قبل ، وأى منها عبارة عن تمايزات جديدة ولكن متناظرة، إلا أننا يجب بناء على نظريتنا ، أن نجد فى بعض الأحيان أن الذرية المتميزة الخاصة بأحد الأنواع قد تتخذ صفات موجودة بالفعل فى أعضاء أخرى تابعة لنفس المجموعة . وهذا هو الحال بدون أى مجال للشك .

والصعوبة التى نلاقها فى التعرف على الأنواع المتميزة هى نتيجة إلى حد كبير لتقليد الضروب^(١) ، كيفما كانت ، لنوع آخر تابع لنفس الطبقة . ومن الممكن أيضا تقديم بيان مصور جدير بالاعتبار لأشكال حية متوسطة بين شكلين آخرين ، اللذين فى ذاتهما من الممكن فقط أن يداخلنا الشك فى توصيفهما على أساس أنهما نوعان ، وهذا يبين أنه إذا لم يتحتم اعتبار جميع هذه الأشكال ذات القرابة الحميمة على أساس أنها أنواع قد خلقت بصورة مستقلة ، فإنها قد اتخذت فى أثناء التمايز بعض الصفات الخاصة بالآخرين . ولكن أفضل دليل على التمايزات المتناظرة هو المقدم بواسطة الأجزاء أو الأعضاء التى هى فى العادة ثابتة فى الطابع ، ولكنها التى تتمايز أحيانا ، وذلك من أجل أن تحاكى ، إلى درجة ما ، نفس الجزء أو العضو الموجود فى نوع متقارب، وأنا قد قمت بجمع قائمة طويلة من قبل لهذه الحالات ، ولكننى فى هذا المكان ، كما حدث من قبل ، أقع تحت تأثير الشعور بالخسارة الشديدة لعدم قدرتى على تقديمها . وأنا أستطيع فقط أن أكرر أن مثل هذه الحالات تحدث بالتأكيد ، وأنها تبدو لى شديد الجدارة بالاعتبار .

وعلى العموم ، فأنا سوف أقوم بتقديم إحدى الحالات الغربية والمعقدة ، وذلك بالتأكيد ليس لأنها تؤثر على أى طابع مهم ، ولكن انطلاقا من حدوثها فى أنواع كثيرة مختلفة تابعة لنفس الطبقة ، الواقعة بشكل جزئى تحت تأثير التدجين وبشكل جزئى آخر تحت تأثير الطبيعة . وهى حالة من المؤكد أنها خاصة بالارتداد . فالحمار^(١) لديه فى بعض الأحيان خطوط عريضة مستعرضة واضحة على أرجله ، مثل تلك الموجودة على أرجل الحمار الوحشى المخطط^(٢) ، وقد تم التأكد من أن هذه العلامات تبدو فى أوضح صورها فى المهر^(٣) ، ومن الاستفسارات التى قد قمت بها ، فأنا أومن بأن هذا صحيح . والشريط الموجود على الكتف يكون فى بعض الأحيان مزدوجا ، وهو قابل للتمايز جدا فى الطول والشكل . وقد تم وصف حمار أبيض اللون ، ولكنه ليس أمهق ، بدون أى من الشريط الفقارى الظهرى أو الخط الكتفى : وهذه الشرائط المخططة غير واضحة إطلاقا فى بعض الأحيان ، أو مفقودة تماما بالفعل فى الحمير الداكنة اللون . وقد قيل إنه قد تمت مشاهدة "الكولان"^(٤) الخاص بمنطقة يالاس Pallas ولديه شريط كتف مزدوج ، وقد شاهد السيد "بليث" Mr. Blyth عينة من "الهميون"^(٥) ولديه شريط كتفى واضح ، بالرغم من أن الشيء الصحيح ألا يكون لديه أى خطوط ، وقد أبلغنى "الكولونيل بول" Colonel Poole أن المهور المولودة لهذا النوع فى العادة مخططة على الأرجل ، وبشكل باهت على الكتف . والكواجا^(٦) مع أن لديه خطوطا واضحة مثل حمار الزرد الوحشى على سطح جسده ، إلا أنه بدون خطوط على الأرجل ، ولكن "الدكتور جراى" Dr. Gray قد رسم إحدى العينات التى لديها خطوط شديدة الوضوح مشابهة لخطوط حمار الزرد الوحشى على العراقيب^(٧) .

Ass	(١) حمار
Zebra	(٢) الحمار الوحشى المخطط = حمار الزرد
Foal	(٣) المهر = فلو
Koulan	(٤) الكولان : حمار آسيوى *
Hemionus	(٥) الهميون : نوع من الحمير *
Quagga	(٦) الكواجا : حمار وحشى منقرض من حمر جنوب أفريقيا شبيه بحمار الزرد
Hock	(٧) عرقوب (فى الخيل والطيور)

وفيما يتعلق بالجواد ، فأنا قد قمت بجمع حالات فى إنجلترا لخطوط فقارية ظهرية فى الجياد التابعة لأكثر السلالات تباينا ، والملونة بجميع الألوان : ووجدت أن الخطوط المستعرضة على الأرجل ليست نادرة فى الجياد القاتمة ذات اللون البنى الرمادى^(١) وذات اللون الفئرانى القاتم^(٢) وفى حالة واحدة فى حصان كستنائى اللون^(٣) : ففى بعض الأحيان من الممكن رؤية خط كتفى باهت فى الجياد القاتمة اللون ، وأنا قد شاهدت أثرا لذلك فى جواد كستنائى اللون^(٤) . وقد أجرى ابنى فحصا دقيقا ورسم لى رسما تخطيطيا لجواد جر عربات بلجيكي ذى لون قاتم ، ولديه خط مزدوج على كل كتف ولديه أيضا خطوط على أرجله ، وأنا قد شاهدت بنفسى على أحد الجياد القاتمة من جياد السباق الصغيرة الحجم^(٥) الخاصة بمقاطعة دفنشير Devenshire ، وكذلك تم إعطائى وصفا دقيقا لحصان سباق صغير قاتم اللون من مقاطعة ويلز ، وكان كلاهما لديه ثلاثة خطوط متوازية على كل كتف.

ونجد فى الجزء الشمالى الغربى من الهند أن سلالة "الكاتيوور" Kattywar من الجياد مخططة بشكل عام إلى درجة أنه ، كما سمعت من الكولونيل بول ، الذى أجرى فحصا لهذه السلالة لصالح الحكومة الهندية ، فإن أى جواد بدون خطوط لا يعتبر أنه من السلالة النقية . ودائما ما يكون على الظهر شرائط ، والأرجل فى العادة مخططة ، وشرائط الكتف التى تكون فى بعض الأحيان ثنائية وفى بعض الأحيان ثلاثية هى أشياء شائعة ، والأكثر من ذلك أن جانب الوجه فى بعض الأحيان يكون عليه شرائط . وفى كثير من الأحيان فإن هذه الشرائط تكون فى أوضح صورها فى المهر ، وفى بعض الأحيان تختفى تماما فى الجياد الكبيرة السن . وقد رأى الكولونيل بول جيادا من سلالة الكاتيوور رمادية وكستنائية الألوان توجد عليها شرائط عندما كانت

Dun	(١) لون بنى رمادى = كميته = قاتم *
Mouse dun	(٢) لون فئرانى قاتم *
Chestnut	(٣) لون كستنائى = لون بنى محمر
Bay horse	(٤) جواد كستنائى اللون
Pony	(٥) جواد سباق صغير الحجم

فى أول الأمر أمهارة . وأنا أيضا لدى من الأسباب التى تدفعنى إلى أن أشك ، وذلك بناء على معلومات وصلتنى من "السيد و . و . إدواردز" Mr. W.W.Edwards ، فى أن شرائط الظهر فى جواد السباق الإنجليزى أكثر شيوعا فى المهر عنها فى الحيوان التام النمو . وقد قمت بنفسى حديثا باستيلاء مهر من فرس كستنائىة اللون (ناتجة من حصان توركمانى Turkoman وفرس^(١) فلمنكية Flemish) بواسطة حصان سباق إنجليزى كستنائى اللون ، وعندما كان عمر هذا المهر أسبوعا واحدا ، كانت لديه علامات على أرباعه الخلفية^(٢) وعلى مقدمة الرأس ، علاوة على العديد من الخطوط الضيقة جدا والقائمة والمائلة لتخطيط حمار الزرد ، وكانت أرجله عليها شرائط ضعيفة اللون : وسرعان ما اختفت تماما جميع هذه الشرائط . وبدون أن ندخل هنا فى أى تفاصيل أخرى ، فمن الممكن لى أن أقول إننى قد قمت بجمع حالات من الشرائط الموجودة على الرجل والكتف فى جياذ تابعة لسلاسل شديدة الاختلاف فى أقطار عديدة مختلفة من بريطانيا إلى شرقى الصين ، و من الدانمارك فى الشمال إلى أرخبيل الملايو فى الجنوب . وفى جميع أرجاء العالم فإن هذه الشرائط توجد فى أحوال أكثر بكثير فى الجياذ ذات اللون القاتم واللون الفئرانى القاتم ، ومصطلح قاتم يندرج تحته مجال واسع من الألوان ، تبدأ من لون بين البنى والأسود إلى أن تصل تقريبا إلى اللون الأصفر الشاحب .

وأنا أعلم أن " الكولونيل هاميلتون سميث " Colonel Hamilton Smith ، الذى سبق أن كتب عن هذا الموضوع ، يؤمن بأن السلالات العديدة المختلفة من الجياذ قد انحدرت عن أنواع أرومية عديدة - واحد منها ، وهو القاتم ، كان مخططا ، وأن المظاهر الخارجية التى سبق وصفها كلها نتيجة لتهاجنا قديمة مع الجواد القاتم الأصيل . ولكن قد يكون من الأسلم رفض هذه الوجهة من النظر ، وذلك لأنه من غير المحتمل بشكل كبير أن الجواد البلجيكى الثقيل الخاص بجر العربات ، وجياذ السباق الخاص بويلز ، والجواد القوى ، قصير القوائم^(٣) النرويجى ، والسلالة الكاتويدية الهزيلة^(٤) ، وخلافه ،

Mare

(١) فرس : أنثى الحصان

Hinder quarters

(٢) الأرباع الخلفية = الأرداف *

Cob

(٣) جواد قوى قصير القوائم

Lanky

(٤) هزيل

التي تقطن أكثر الأماكن المتباعدة في العالم ، يجب أن تكون كلها قد تم تهجينها مع أصل أرومي مفترض واحد .

ودعنا الآن نلتفت إلى التأثيرات الناتجة عن تهجين الأنواع العديدة المختلفة التابعة لطبقة الجياد . فإن "رولين" Rollin يؤكد أن البغل^(١) الشائع الناتج من الحمار والجداء قابل بشكل خاص لأن يكون لديه خطوط على أرجله ، ونقلنا عن "السيد جوسى" Mr. Gosse ، فإننا نجد في بعض الأماكن المعينة من الولايات المتحدة أن تسعة من كل عشرة من البغال لديها أرجل مخططة ، وأنا قد شاهدت في إحدى المرات بغلا أرجله مخططة بشكل كبير إلى درجة أن أى إنسان يراه قد يظن أنه كان نغلا^(٢) لحمار زرد ، وقد قدم "السيد وس. مارتين" Mr.W.C.Martin فى رسالته الممتازة عن الجواد ، رسما لبغل مائل . وفى أربعة رسوم ملونة قد رأيتها ، للأنغال الناتجة من حمار وحمار زرد ، كانت الأرجل مخططة بوضوح أكثر من باقى الجسم ، وفى واحد منهما كان هناك شريط كتفى مزدوج . وفى النغل المشهور الخاص "باللورد مورتون" Lord Morton ، والناتج من فرس كستنائية اللون وذكر من حمر الكواجا الوحشية المنقرضة حاليا ، فإن النغل ، وحتى الذرية النقية التي نتجت فيما بعد من نفس الفرس وأب عربى أسود^(٣) ، كانت لديها خطوط واضحة فوق الأرجل بشكل أكثر كثيرا من الموجود حتى فى حمار الكواجا النقى . وأخيرا ، وهذه حالة أخرى من أكثر الحالات جدارة بالملاحظة ، فإن "الدكتور جراى" قد قام برسم نغل (وقد أبلغنى بأنه لديه علم بحالة أخرى) ناتج عن حمار وهميون ، وبالرغم من أن الحمار لديه أحيانا خطوط على أرجله وأن الهميون ليس لديه أى خطوط من هذا القبيل، وليس لديه حتى أية شرائط كتفية ، فإن هذا النغل بالرغم من ذلك كانت جميع أرجله الأربع مخططة ، وكان لديه ثلاثة أشرطة كتفية قصيرة ، مثل تلك التي توجد على حصان السباق الصغيرة القائمة اللون الخاصة بدفنشير وبويلز ، وحتى إنه قد كانت لديه بعض الشرائط على شاكلة

Mule

(١) بغل

Hybrid

(٢) نغل : مختلط الأصول

sire

(٣) أب حيوانى = والد جواد

التي لدى حمار الزرد على جوانب وجهه . وفيما يتعلق بهذه الحقيقة الأخيرة ، فأنا قد كنت مقتنعا تماما بأنه لا يمكن حتى لشريط واحد من اللون أن يظهر نتيجة لما هو من الشائع أن يسمى مصادفة ، ولكنى وجدت نفسى منقادا ببطء نتيجة لتواجد خطوط الوجه على هذا النغل الناتج عن الحمار والهميون ، إلى أن أسأل الكولونيل بول إذا ما كانت هذه الخطوط على الوجه قد حدثت على الإطلاق فى سلالة جياذ الكاتيور المخططة بشكل بارز ، وكان مصير التساؤل ، كما قد رأينا بالإيجاب .

مالذى يمكن أن نقوله أمام هذه الحقائق العديدة؟ - فإننا نرى العديد من الأنواع المتباينة التابعة لطبقة الجياذ ، تصبح بواسطة تمايزات بسيطة ، مخططة على الأرجل مثل حمار الزرد ، أو مخططة على الأكتاف مثل أى حمار . أما فى الجواد فإننا نرى أن هذه القابلية قوية كلما ظهرت مسحة من اللون القاتم - وهى مسحة من اللون تقرب من تلك الخاصة بالتلوين العام الخاص بالأنواع التابعة للطبقة . وظهور الخطوط ليس مصحوبا بأى تغيير فى الشكل أو بأى صفة أخرى جديدة . ونحن نرى أن هذه القابلية لتواجد هذه الخطوط أكثر قوة فى الظهور فى الأنغال الناتجة من بين العديد من أكثر الأنواع تباينا . ولك الآن أن تلاحظ حالة السلالات العديدة المختلفة من الحمام : فجميعها قد انحدرت من حمامة واحدة (وذلك يتضمن نوعين أو ثلاثة من الأنواع الفرعية أو الأجناس الجغرافية)^(١) ذات اللون المائل للزرقة ، مع خطوط معينة وعلامات أخرى ، وعندما تتخذ أى سلالة عن طريق التمايز البسيط مسحة لون مائلة للزرقة ، فإن هذه الخطوط والعلامات الأخرى تعود للظهور بشكل ثابت ، ولكن بدون حدوث أى تغيير آخر فى الشكل أو الطابع . وعندما يحدث تهجين بين أقدم وأنقى السلالات ذات الألوان العديدة المختلفة ، فإننا نرى قابلية شديدة لعودة ظهور مسحة اللون الأزرق والخطوط والعلامات فى المهجنين . وأنا قد أعلنت أن الفرضية الأكثر احتمالا لتفسير العودة إلى ظهور الصفات القديمة جدا هى - أن هناك نزعة عند اليافع من كل جيل قادم لكى ينتج الطابع الذى تم فقده منذ زمن طويل ، وأن هذه النزعة ، نتيجة لسبب غير معلوم ، تصبح فى بعض الأحيان هى السمة الغالبة . ونحن قد رأينا

منذ لحظات أنه فى أنواع عديدة مختلفة تابعة لطبقة الجياد فإن الخطوط إما أن تكون أكثر وضوحا أو تظهر بشكل أكثر شيوعا فى اليافع عنها فى الكبير فى العمر . ولك أن تسمى السلالات الخاصة بالحمام - والى قد توالد بعض منها بشكل نقى لمدة قرون - أنواعا ، ولك أن ترى مدى التوازى التام فى هذه الحالة مع حالة الأنواع التابعة لطبقة الجياد -! وبالأصالة عن نفسى ، فأنا أغامر بثقة بالتطلع إلى الخلف على آلاف مؤلفة من الأجيال ، وأرى حيوانا مخططا مثل حمار الزرد ، ولكنه ربما يكون فيما عدا ذلك مختلفا تماما فى التكوين ، وهو الأب المشترك لجوادنا الداكن (سواء كان أو لم يكن قد انحدر من واحد أو أكثر من الأصول الوحشية) ، ولحمار ، وللهميون ، وللكواجا ولحمار الزرد .

وأنا أفترض أن الشخص الذى يؤمن بأن كل نوع خيلى^(١) قد تم خلقه بشكل مستقل ، سوف يؤكد أن كل نوع قد تم خلقه ومعه نزعة إلى التمايز ، وذلك تحت تأثير الطبيعة وتحت تأثير التدجين ، بهذا الشكل الخاص ، وذلك لكى يصبح فى كثير من الأحوال مخططا مثل الأنواع الأخرى التابعة للطبقة ، وأن كلا منها قد تم خلقه ومعه نزعة قوية ، لأن ينتج عندما يتهاجن مع أنواع تستوطن الأرجاء المتباعدة من العالم ، أنغالا تماثل فى خطوطها ، ليس أباعها الخاصة بها ، ولكن أنواعا أخرى تابعة للطبقة . وكما يبدو لى ، فإن الاعتراف بهذه الوجهة من النظر بمثابة رفض السبب الحقيقى لصالح السبب غير الحقيقى ، أو على الأقل لصالح سبب غير معلوم . وهذا يجعل أن عمل الرب ما هو إلا مجرد غش وخداع ، وعلى الفور سوف أصدق ما يقوله العاملون على نظرية نشأة الكون^(٢) القدامى والجهلة ، من أن مستحاثات الأصداف^(٣) لم تحيا على الإطلاق ، ولكنه قد تم خلقها من الصخر من أجل تقليد الأصداف التى تعيش على شواطئ البحار.

Equine species

(١) نوع خيلى = نوع فرس

Cosmogonists

(٢) العاملون على نظرية نشأة الكون *

Fossil shells

(٣) مستحاثات الأصداف

ملخص

إن جهلنا بقوانين التمايز جهل عميق جدا . فنحن لا نستطيع أن ندعى ولا حتى فى حالة واحدة من مائة حالة ، إمكاننا أن نحدد أى سبب وراء تمايز هذا أو ذاك الجزء . ولكن عندما يكون لدينا الوسائل لإقامة مقارنة ، فإنه يظهر أن نفس القوانين قد أدت تأثيرها فى إنتاج الاختلافات الصغرى بين الضروب التابعة لنفس النوع ، والاختلافات الكبرى بين الأنواع التابعة لنفس الطبقة . والظروف المتغيرة تحدث عامة مجرد قابلية متقلبة للتمايز ، ولكنها فى بعض الأحيان تسبب تأثيرات مباشرة ونهائية ، وهى التى قد تصبح واضحة بشدة على مدى الزمن ، بالرغم من أنه ليس لدينا دليل كاف على هذا الموضوع . والسلوك فى إحداثه لتغيرات فى البنية ، والاستخدام فى تقوية الأعضاء ، وعدم الاستخدام فى إضعاف وإنقاص الأعضاء ، أشياء تبدو فى كثير من الحالات أنها قد كانت قوية فى تأثيراتها . والأجزاء المتماثلة تميل إلى أن تتمايز بنفس الشكل ، والأجزاء المتماثلة تميل إلى الترابط . والتعديلات التى تحدث فى الأجزاء الصلبة ، والأجزاء الخارجية تؤثر فى بعض الأحيان على الأجزاء الأكثر ليونة وعلى الأجزاء الداخلية . وعندما يكون أحد الأجزاء على درجة كبيرة من التكوين ، فإنه ربما يميل إلى سحب المواد الغذائية من الأجزاء الملاصقة ، وكل جزء من التركيب من الممكن توفيره بدون إحداث ضرر سوف يتم توفيره . والتغيرات فى التركيب التى تحدث عند عمر مبكر قد تؤثر على الأعضاء التى تتكون فيما بعد ، ولا شك فى حدوث العديد من حالات التمايز المتلازم ، التى نحن غير قادرين على فهم طبيعتها . والأجزاء المتعددة قابلة للتمايز فى العدد وفى التركيب ، وربما يرجع ذلك إلى نشوئها من مثل هذه الأجزاء التى لم يحدث أن أصبحت قريبة من التخصص فى أى وظيفة معينة ، وبذلك فإن تعديلاتها لم يتم كبحها عن كثب بواسطة الانتقاء الطبيعى . ومن المحتمل أنه انطلاقا من هذا السبب نفسه ، فإن الكائنات العضوية الدنيئة فى الترتيب قابلة للتمايز بشكل أكبر من هذه التى تقف فى وضع أعلى من الترتيب ، وهى التى قد حدث تخصص أكبر فى مجموع تعضيبتها . والأعضاء غير المكتملة نتيجة لكونها بدون فائدة ،

لا تخضع للتنظيم بواسطة الانتقاء الطبيعي ، ومن ثم فإنها قابلة للتمايز . والصفات النوعية - ألا وهي تلك الصفات التي قد حدثت بها الاختلافات منذ تفرعت الأنواع العديدة المختلفة التابعة للطبقة نفسها من أب مشترك - قابلة للتمايز بشكل أكبر من الصفات العرقية ، أو تلك الصفات التي قد تمت وراثتها منذ أمد بعيد ، والتي لم يحدث بها أى اختلاف منذ المدة نفسها . وفى هذه الملاحظات فإننا قد أشرنا الى أجزاء أو أعضاء جسدية خاصة على أساس أنها مازالت قابلة للتمايز ، وذلك لأنه قد حدث فيها تمايز منذ عهد قريب وأصبحت بهذا الشكل مختلفة ، ولكننا قد رأينا أيضا فى الباب الثانى أن المبدأ نفسه ينطبق على جميع الأفراد ، وذلك لأنه عندما يوجد الكثير من الأنواع التابعة لإحدى الطبقات فى منطقة ما - وهذا يعنى عندما يكون قد حدث تمايز واختلاف مبكر جدا ، أو عندما يكون التصنيع لأشكال خاصة جديدة منهما فى العمل - ففى تلك المنطقة ، وفيما بين هذه الأنواع ، فإننا نجد فى المتوسط حاليا ، معظم الضروب . والصفات الجنسية الثانوية قابلة للتمايز بشكل عال ، ومثل هذه الصفات تختلف كثيرا فى الأنواع التابعة لنفس المجموعة . والقابلية للتمايز الموجودة فى الأجزاء نفسها الخاصة بالتعضية قد تم استغلالها بوجه عام من أجل منح اختلافات جنسية ثانوية إلى كل من الشقين الجنسيين التابعين للنوع نفسها ، واختلافات خاصة إلى الأنواع العديدة المختلفة التابعة للطبقة نفسها . وأى جزء أو عضو قد وصل فى تكوينه الى حجم غير عادى أو بشكل غير عادى ، بالمقارنة مع الجزء أو العضو نفسه الموجود فى الأنواع المتقاربة ، من المحتم أنه قد مر فى خلال كمية غير عادية من التعديل منذ أن ظهرت هذه الطبقة إلى الوجود ، ونحن نستطيع بهذا الشكل أن نفهم لماذا يجب أن يظل هذا الجزء فى كثير من الأحوال قابلاً للتمايز بدرجة أعلى بكثير من الأجزاء الأخرى ، وذلك لأن التمايز عملية مستمرة لمدة طويلة وبطيئة ، والانتقاء الطبيعي لن يكون قد توفر له فى مثل هذه الحالات الوقت الكافى للتغلب على الميل إلى زيادة القابلية للتمايز وإلى الارتداد إلى حالة أقل تعديلا . ولكن عندما يصبح أحد الأنواع الذى يحوز أى عضو جسدى قد يكون بشكل غير عادى ، والدا للعديد من الذرارى المعدلة - والتي طبقا لوجهة نظرنا يجب أن تكون عملية فى منتهى البطء ، ومحتاجة الى مرور وقت طويل - ففى هذه الحالة ، فإن الانتقاء الطبيعي يكون قد نجح

فى منح طابع ثابت إلى العضو الجسدى ، مهما تكن الطريقة غير العادية . والأنواع التى ترث نفس البنیان تقريباً عن أب مشترك ، والتى قد تعرضت إلى تأثيرات متماثلة ، فإنه من الطبيعى أن تميل إلى تقديم تمايزات متناظرة ، أو أن هذه الأنواع نفسه قد ترد أحياناً إلى بعض من الصفات الخاصة بأسلافها القديمة . وبالرغم من أن تعديلات جديدة ومهمة قد لا تقوم نتيجة للارتداد والتمايز المتناظر ، فإن مثل هذه التعديلات سوف تضيف شيئاً إلى التنوع الجميل والمتناسق للطبيعة .

ومهما يكن السبب وراء كل اختلاف بسيط يحدث بين الذرية وأبويها - ويجب أن يكون هناك سبب موجوداً لكل اختلاف - فإن لدينا سبباً لكى نؤمن بأن التجميع المستمر للاختلافات المفيدة هو الذى قد أدى إلى جميع التعديلات الأكثر أهمية فى التركيب فيما يتعلق بالسلوكيات الخاصة بكل نوع .

الباب السادس

الصعوبات الخاصة بالنظرية

الصعوبات الخاصة بنظرية النشوء^(١) مع التعديل^(٢) - انعدام أو ندرة وجود الضروب الانتقالية^(٣) - المراحل الانتقالية^(٤) في سلوكيات الحياة^(٥) - السلوكيات المتنوعة الموجودة في نفس النوع - الأنواع المتمتعة بسلوكيات مختلفة تماما عن تلك الخاصة بذوات قرباها^(٦) لهما - الأعضاء التي بلغت أقصى درجات الكمال - أساليب التحول^(٧) - حالات الصعوبة - الطبيعة لا تقبل الطفرة^(٨) - الأعضاء ذات الأهمية الصغيرة - الأعضاء التي ليست في جميع الحالات كاملة بشكل قاطع - القانون الخاص بوحدة النمط والخاص بشروط البقاء على قيد الحياة في نطاق نظرية الانتقاء الطبيعي .

Theory of descent	(١) نظرية النشوء *
Modification	(٢) التعديل
Transitional varieties	(٣) الضروب الانتقالية *
transition	(٤) المراحل الانتقالية *
Habits of life	(٥) سلوكيات الحياة *
Allies	(٦) نوو القربى = المتقاربون *
Transition	(٧) التحول = الانتقال *
Natura non facit saltum	(٨) الطبيعة لا تقبل الطفرة *

قبل أن يصل القارئ إلى هذا الجزء من العمل الذى أقوم بتقديمه ، فإن مجموعة كبيرة من الصعوبات ستكون قد واجهته . والبعض منها صعوبات فى منتهى الجدية إلى درجة أننى إلى هذا اليوم أجد صعوبة فى إمعان التفكير فيها بدون الشعور بدرجة ما من الذهول ، ولكن طبقا لأفضل تقديراتى ، فإن العدد الأكبر منها ظاهرى فقط ، وأنا أعتقد أن الصعوبات التى هى فى الواقع حقيقية ، لا تمثل شيئا قاتلا للنظرية .

ومن الممكن تبويب هذه الصعوبات والاعتراضات تحت هذه العناوين :

أولا : إذا كانت الأنواع قد نشأت وانحدرت من أنواع أخرى عن طريق تدرجات دقيقة ، فلماذا لا نستطيع أن نرى فى كل مكان عددا لا حصر له من الأشكال الانتقالية ؟ - ولماذا لا تكون الطبيعة كلها فى حالة من الفوضى ، بدلا مما نراه من كون الأنواع محددة بدقة ؟

ثانيا : هل من الممكن لحيوان ما لديه مثلا التركيب والسلوكيات الخاصة بالخفاش ، أن يكون قد تم تكوينه عن طريق التعديل لحيوان آخر لديه سلوكيات وتركيب مختلفة تماما ؟ هل نستطيع أن نصدق أن الانتقاء الطبيعى يمكنه أن ينتج ، من أحد الجوانب ، عضوا ذا أهمية تافهة مثل الذيل الخاص بالزرافة ، الذى يستخدم كمضرب ذباب ، وعلى الجانب الآخر عضوا غاية فى الروعة مثل العين ؟

ثالثا : هل من الممكن أن تكتسب الغرائز وأن تتعدل من خلال الانتقاء الطبيعى؟ وماذا يمكن أن نقول عن الغريزة التى تقود النحل إلى أن يصنع خلايا ، وهى التى قد سبقت بالفعل الاكتشافات الخاصة بعلماء الرياضيات عميقى التفكير ؟

رابعا : كيف نستطيع أن نجد تفسيرا للأنواع ، التى عند تهجينها تكون عقيمة ، وتنتج ذرية عقيمة ، بينما عندما تتهاجن الضروب فإن خصوبتها لا تختل ؟

وسوف تتم هنا مناقشة الموضوعين الأولين ، أما بعض الاعتراضات المتنوعة فسوف ترد فى الباب القادم ، ثم نناقش موضوعى الغريزة والتغيل^(١) فى البابين التاليين لذلك .

ما يتعلّق بانعدام أو ندرة وجود الضروب الانتقالية

بما أن الانتقاء الطبيعي يعمل بشكل كلى عن طريق الاحتفاظ بالتعديلات المفيدة ، فإن كل شكل جديد سوف يميل فى أى قطر مكتظ إلى آخره ، إلى أن يأخذ مكانا ، وفى النهاية إلى أن يبيد الشكل الأبوى الخاص به الذى هو أقل تحسنا ، والأشكال الأخرى الأقل منه فى الأفضلية، والتي يحدث بينه وبينها تنافس ، وبهذا الشكل فإن الإبادة والانتقاء الطبيعي يمضيان متعاونين يدا بيد . ومن ثم ، فإذا نظرنا إلى كل نوع على أنه قد انحدر من أحد الأشكال غير المعروفة ، فإن كلا من الضروب الأبوية والانتقالية سوف يكونان عادة قد تمت إبادتهما بنفس العلمية التى يجرى بها التكوين والوصول بالشكل الجديد إلى الكمال .

ولكن بما أنه طبقا لهذه النظرية فإنه من المحتم أن عددا لا يمكن إحصاؤه من الأشكال الانتقالية قد كان موجودا ، فلماذا لا نجد تلك الأشكال مطمورة بأعداد لا تحصى فى القشرة الأرضية ؟ - وسوف يكون من المفضل مناقشة هذا التساؤل فى الباب الخاص بقصور السجل الجيولوجى^(١) ، وأنا هنا سوف أسجل فقط أننى مؤمن بأن الإجابة تنحصر بشكل أساسى فى كون هذا السجل هو أقل كمالا بشكل فائق مما هو من المفروض أن يكون عليه على وجه العموم . فإن القشرة الخاصة بالأرض ماهى إلا متحف هائل ، ولكن مجموعات التاريخ الطبيعى قد تم إعادها بشكل غير مستكمل، وذلك على مدى فترات متباعدة من الزمن فقط.

ولكن قد يحتج بأنه عندما تستوطن أنواع عديدة مختلفة ذات قرابة حميمة نفس المنطقة ، فمن المؤكد أنه من المتوقع لنا أن نجد فى وقتنا الحالى الكثير من الأشكال الانتقالية . ودعنا نأخذ حالة بسيطة : فى أثناء الترحال من الشمال إلى الجنوب فوق إحدى القارات ، فنحن نتقابل عادة عند فواصل زمنية متتابعة ، مع أنواع ذات قرىبى حميمة أو نموذجية^(٢) ، من الواضح أنها تشغل نفس المكان فى النظام الطبيعى للأرض .

Imperfection of geological record

(١) القصور فى السجل الجيولوجى *

Representative species

(٢) أنواع نموذجية *

وهذه الأنواع النموذجية كثيرا ما تتلاقى وتتشابك ، وكلما أصبح أحدها أندر فأندر ، فإن الآخر يصبح أكثر فأكثر شيوعا ، إلى أن يحل أحدهما محل الآخر . ولكننا عندما نقارن هذه الأنواع فى الموضع الذى تختلط فيه ، فإنها عادة ما تكون متباينة تماما عن بعضها البعض فى جميع دقائق التركيب بنفس الطريقة التى تتباين بها عن بعض العينات التى تؤخذ من المقاطعة الخاصة التى يقطنها كل نوع من الأنواع . وطبقا لنظريتي فإن هذه الأنواع المتقاربة قد انحدرت من أصل أبوى مشترك ، وفى أثناء عملية التعديل ، فإن كل نوع قد أصبح معدا لظروف الحياة الخاصة بالمنطقة الخاصة به ، وقد اغتصب مكانا وأباد شكله الأبوى الأصيل وجميع الضروب الانتقالية التى تربط بين أوضاعه الماضية والحالية . ومن ثم فإننا يجب ألا نتوقع أن نتقابل فى وقتنا الحاضر مع ضروب انتقالية عديدة فى كل منطقة . مع أنه من المؤكد أنها قد كانت موجودة ، وقد تكون مطمورة هناك فى حالة أحفورية . ولكن فى المنطقة الوسطى ، الحائزة على ظروف حياتية متوسطة ، لماذا لا نجد ضروبا متوسطة رابطة بشكل حميم؟ - وقد سببت لى هذه الصعوبة الكثير من الإرباك لمدة طويلة من الزمن ، ولكننى أعتقد أنه من الممكن تفسيرها .

ففى المقام الأول يجب علينا أن نكون شديدي الحذر فى التخمين بأنه لو أن إحدى المناطق توجد حاليا فى حالة متصلة ومتماسكة ، فإن هذا يعنى أنها قد استمرت متصلة وممتدة على مدى مدة زمنية طويلة . فإن علم الجغرافيا سوف يقودنا إلى الاعتقاد بأن معظم القارات قد تفرقت إلى جزر حتى أثناء العصر الثالث المتأخر ، وأنه على مثل هذه الجزر قد تكونت أنواع متباينة بشكل مستقل بدون احتمال لتواجد ضروب انتقالية فى المناطق الوسطى . ومن خلال تغيرات فى شكل التربة والمناخ ، فإن المناطق الساحلية المتصلة حاليا ، قد كانت فى أحيان كثيرة فى خلال العصور الحديثة فى حالة أقل تواصلًا واتساقًا عما هى عليه فى وقتنا الحاضر . ولكننى سوف أمر مرور الكرام على هذا الطريق للتغلب على الصعوبة ، وذلك لأننى أعتقد أن الكثير من الأنواع المحددة بشكل كامل قد تم تكوينها على مناطق متصلة بشكل قاطع ، مع أنه ليس لدى أى شك فى أن الحالة المتفرقة السابقة للمناطق التى هى متصلة حاليا ، قد لعبت دورا مهما فى تكوين أنواع جديدة ، وبالأخص مع الحيوانات التى تتهاجن بحرية والتى تهيم على وجوها .

وعندما ننظر إلى الأنواع وكيفية توزيعها على مساحة واسعة ، فإننا عموما نجدها كثيرة العدد بشكل محتمل فوق منطقة كبيرة ، ثم تصبح إلى حد ما أندر فأندر بشكل حاد عند التخوم ، ثم أخيرا تختفى . ومن ثم فإن المنطقة المحايدة الموجودة بين نوعين نموذجيين هي في العادة ضيقة بالمقارنة من المنطقة الخاصة بكل نوع منهما . ونحن نرى هذه الحقيقة نفسها عند الصعود على الجبال ، وفي بعض الأحيان فإنه من المثير مشاهدة كيف يختفى بشكل مفاجئ أحد أنواع القمم الجبلية ، وذلك ما لاحظته "الفونس ألفريد دي كاندول" . وهذه الحقيقة نفسها قد تمت ملاحظتها بواسطة "إ. فوربس" E. Forbes في أثناء سيره لأغوار البحر بواسطة أداة تجريف^(١) . وإلى هؤلاء الذين ينظرون إلى المناخ وإلى الظروف المادية للحياة على أساس أنها كل العناصر المهمة للانتشار ، فإنه من المتوقع أن هذه الحقائق قد تتسبب في مفاجأتهم ، حيث إن المناخ والارتفاع أو العمق تتغير تدريجيا . ولكن عندما نضع نصب أعيننا أن جميع الأنواع تقريبا ، حتى في أماكن تجمعاتها ، سوف تزداد في الأعداد بشكل هائل ، إذا لم يتضمن الأمر أنواعا أخرى منافسة ، بحيث إن جميعها تقريبا سوف يعيش على افتراس ، أو سوف يصبح فريسة للآخرين ، وعلى وجه الاختصار ، إن كل كائن عضوى مرتبطب أشد الارتباط إما بشكل مباشر أو غير مباشر بالكائنات العضوية الأخرى ، - فنحن نرى أن مدى انتشار القاطنين في أى قطر لا يعتمد أبدا بشكل مطلق على الظروف المادية التي تتغير بشكل تدريجى ، ولكنه يعتمد بشكل أساسى على تواجد أنواع أخرى ، التي تعتمد حياتها عليه ، أو التي يتم فناؤها بواسطته ، أو التي يحدث تنافس معها ، وبما أن هذه الأنواع شىء محدد بالفعل ، وليست عوامل تتداخل في بعضها البعض بتدرجات تدريجية ، فإن مدى انتشار أى نوع من الأنواع ، اعتمادا بهذا الشكل على مدى انتشار الأنواع الأخرى ، سوف يميل إلى أن يكون شيئا محددًا بدقة . والأكثر من هذا ، فإننا سوف نجد أن كل نوع موجود على التخوم المحيطة بمألفه ، وهي الأماكن التي يتواجد فيها بأعداد متناقصة ، سوف يكون معرضا بشدة للإبادة التامة أثناء التقلبات التي تحدث في عدد أعدائه أو فرائسه ، وبهذا الشكل فإن المدى الجغرافى لانتشاره سوف يصبح محددًا بشكل أكثر حدة .

وعندما تستوطن الأنواع المتقاربة أو النموذجية منطقة محددة ، فإنها فى العادة تنتشر بشكل أن كل نوع منها يحوز مألفا واسعا مع ترك منطقة محايدة ضيقة نسبيا بين بعضها البعض ، وفى هذه المنطقة فإنها تصبح فجأة أندر فأندر ، ثم يحدث بعد ذلك ، أنه بما أن الضروب لا تفترق بشكل أساسى عن الأنواع ، فإن نفس القاعدة من المحتمل أن تنطبق عليها ، وإذا أخذنا نوعا متميزا يقطن فى مساحة واسعة جدا ، فإنه سوف يتحتم علينا أن نقوم بتكليف اثنين من الضروب على مساحتين كبيرتين ، وضرب ثالث على منطقة محايدة ضيقة . وبالتالي فإن هذا الضرب المتوسط ، سوف يتواجد بأعداد أقل نتيجة لاستيطانه مساحة ضيقة وأقل مساحة ، وعمليا ، على حسب قدرتى على التكهن ، فإن هذه القاعدة تنطبق بشكل جيد على الضروب فى البيئة الطبيعية ، ولقد تقابلت مع أمثلة مثيرة للانتباه خاصة بهذه القاعدة وذلك فى حالة الضروب المتوسطة بين الضروب المحددة بدقة التابعة لطبقة البلانوس^(١) . وقد يبدو من معلومات استقيتها من كل من "السيد واتسون" Mr.Watson، و "الدكتور آسا جراى" Dr. Asa Graz، و "السيد ولاستون" Mr.Wallaston، أنه فى العادة ، عندما تتكون ضروب متوسطة بين اثنين من الأشكال الأخرى ، فإنها تكون أكثر ندرة عديدة عن الأشكال التى تربط فيما بينها . والآن فإذا كان لنا أن نثق فى هذه الحقائق والدلائل ، ونخلص إلى أن الضروب التى تربط ما بين ضربين آخرين معا ، هى فى العادة موجودة بأعداد أقل عن الأشكال التى تربط فيما بينها ، عندئذ فنحن نستطيع أن نفهم لماذا لا تتحمل الضروب المتوسطة البقاء لفترات طويلة جدا : ولماذا كقاعدة عامة ، سوف تتعرض للإبادة والاختفاء ، فى وقت أقرب من الأشكال التى قد ربطت بينها فى الأصل .

وكما لوحظ بالفعل ، فإن أى شكل من أشكال الحياة يتواجد بأعداد قليلة ، تتوافر لديه فرصة لأن يباد أكبر من الشكل المتواجد بأعداد كبيرة ، وفى هذه الحالة بالذات فإن الشكل المتوسط سوف يكون معرضا بشكل خاص للاعتداءات التى تقوم بها الأشكال ذات القرابة الوثيقة الموجودة على كل من جانبيه . ولكن يوجد اعتبار أكثر أهمية بكثير ، ألا وهو أنه أثناء عملية الاستطرد فى التعديل ، والتى عن طريقها من

المفروض أن يحدث لاثنتين من الضروب تحول واكتمال ليصبحا اثنتين من الأنواع المتباينة ، فإن هذين الاثنتين اللذين يتواجدان بأعداد أكبر ، نتيجة لاستيطانهما مساحات أكبر ، سوف يكون ليهما ميزة أكبر عما لدى الضرب المتوسط ، الذى يتواجد بأعداد أقل فى منطقة وسطية ضيقة . أما بالنسبة للأشكال المتواجدة بأعداد كبرى فإنه سوف يكون لديها فرصة أفضل ، فى أثناء أى فترة محددة ، لكى يظهر عليها تمايزات مفضلة أخرى إلى الانتقاء الطبيعى لكى يضع يده عليها ، أكثر مما يحدث للأشكال الحية الأكثر ندرة التى تتواجد بأعداد أقل . ومن ثم ، فإن الأشكال الحية الأكثر شيوعا ، فى أثناء التسابق من أجل الحياة ، سوف تنصرف إلى التغلب والحلول محل الأشكال الأقل شيوعا ، وذلك لأن الأخيرة سوف تكون أكثر بطئا فى التعديل وفى التحسن . وهذا هو نفس المبدأ الذى ، كما أعتقد ، يفسر تواجد الأنواع الشائعة فى كل قطر ، كما هو موضح فى الباب التالى ، والذى يجعلها تقدم فى المتوسط عددا أكبر من الضروب المشهورة جدا عما يمكن للأنواع الأكثر ندرة من تقديمه . وقد يكون بإمكانى أن أوضح ما أعنيه بأن نفترض تربية ثلاثة ضروب من النراف ، أحدها تكيف على منطقة جبلية شاسعة ، والثانى تكيف على قطعة أرض ضيقة وشديدة التحدّر ، والثالث تكيف على السهول المنبسطة عند السفح ، وأن جميع القاطنين فى هذه المناطق يحاولون بإصرار ومهارة متساوية فى سبيل تحسين قطعانهم عن طريق الانتقاء ، فإننا سنجد أن الفرص المتاحة فى هذه الحالة سوف تكون بشكل قوى فى جانب المالكين الكبار الموجودين على الجبال أو على السهول لكى يحدثوا تحسينا فى سلالتهم بمعدل أسرع من المالكين الصغار الموجودين على قطعة الأرض المنحدرة الضيقة ، ونتيجة ذلك فإن السلالة المحسنة التابعة للجبل أو السهل سوف تأخذ مكان السلالة الأقل تحسنا التابعة للأرض المنحدرة ، وبهذا الشكل فإن السلالتين اللتين كانتا موجودتين بأعداد كبيرة من البداية ، سوف تصبحان متصلتين بشكل حميم مع بعضهما البعض ، بدون التدخل من الضرب المتوسط المستأصل الذى كان تابعا للمنطقة المنحدرة .

ولكى نلخص الموضوع ، فإنى أعتقد أن الأنواع قد وصلت إلى حد أن تكون أشياء محددة بدقة إلى حد مقبول ، وأنها لم تكن فى أى وقت من الأوقات تمثل فوضى عارمة

من الحلقات المتغيرة والمتوسطة ، وذلك أولا : لأن الضروب الجديدة تتكون ببطء شديد جدا ، وذلك لأن التمايز عملية بطيئة ، وأن الانتقاء الطبيعي لا يستطيع أن يقوم بشيء إلى أن تحدث اختلافات أو تمايزات فردية ملائمة ، وإلى أن يتم شغل موضع فى المنظومة الطبيعية للقطر بشكل أفضل عن طريق تعديل ما لواحد أو أكثر من القاطنين بالقطر . ومثل هذه المواضع الجديدة سوف تعتمد على التغييرات البطيئة فى المناخ ، أو على الهجرة العارضة لقاطنين جدد ، وربما بدرجة أكثر أهمية ، على أن يحدث تعديل بطيء لبعض القاطنين القدامى ، وما ينتج عنه من تكوين أشكال جديدة ، وما يتبعه من تأثير وتفاعل للأشكال القديمة فيما بين بعضها البعض . وذلك بحيث إنه يتحتم علينا أن نرى فى أى منطقة ما ، وفى أى زمن ما ، أنواعا قليلة فقط هى التى يبدو عليها تعديلات بسيطة فى التركيب دائمة بدرجة ما ، وبالتأكيد فإن هذا هو ما نراه بالفعل.

وثانيا : فمن المؤكد أن المساحات المتصلة حاليا قد كانت فى كثير من الأحيان موجودة فى الفترة القريبة على شكل أجزاء منعزلة ، قد جرى فيها أن الكثير من الأشكال ، وخاصة بين الطوائف التى تلتقى من أجل كل مولد وتتجول كثيرا ، قد تكون قد أصبحت متباينة بشكل كاف إلى حد توصيفها على أساس أنها أنواع نموذجية . وفى هذه الحالة ، فإن الظروف المتوسطة التى تقع فيما بين الأنواع النموذجية المختلفة ، وأصلها الأبوى المشترك ، من المحتم أنها كانت موجودة ضمن حدود كل جزء منفصل من الأرض ، ولكن أثناء عملية الانتقاء الطبيعي فإن هذه الحلقات سوف تكون قد تم اغتصاب مواضعها وأبيدت ، إلى حد أنها لن يمكن العثور عليها فى حالة حية .

وثالثا : فإنه عندما يتم تكوين اثنين أو أكثر من الضروب فى أجزاء مختلفة من منطقة متصلة تماما ، فإنه من المحتمل أن تكون الضروب المتوسطة قد تكونت فى المناطق الوسيطة ، ولكنها سوف يكون لها فى العادة فترة قصيرة للبقاء ، وذلك لأن هذه الضروب المتوسطة لأسباب سبق تحديدها بالفعل (وهى بالتحديد مما نعرفه عن التوزيع الفعلى للأنواع الحميمة القرابة أو النموذجية ، ونفس الشيء عن الضروب المعترف بها) ، سوف تتواجد فى المناطق الوسيطة بأعداد أقل من الأعداد الخاصة بالضروب التى تميل إلى أن تربط فيما بينها . وبناء على هذا السبب فقط فإن الضروب المتوسطة

سوف تكون قابلة للإبادة العرضية ، وفى أثناء عملية الاستمرار فى التعديل من خلال الانتقاء الطبيعي ، فإنه من المؤكد أن هذه الضروب سوف يتم التغلب عليها وأن تغتصب مواقعها ويحل مكانها الأشكال التى تربط فيما بينها ، وذلك لأن هذه الأشكال نتيجة لتواجدها بأعداد أكبر ، سوف تقدم فى المحصلة النهائية ضروبا أكثر ، وبهذا الشكل سوف تستمر فى التحسن من خلال الانتقاء الطبيعي وسوف تكتسب مزايا إضافية .

وأخيرا ، فبالنظر إلى مجموع الزمن وليس لأى زمن واحد ، وإذا كانت نظريتي صحيحة ، فإنه من المحتم أنه كانت توجد هناك أعداد لا حصر لها من الضروب المتوسطة ، تربط فيما بين جميع الأنواع التابعة لنفس المجموعة ، ولكن عملية الانتقاء الطبيعي ذاتها تميل بشكل ثابت ، كما سبق التنويه عن ذلك فى أحوال كثيرة ، إلى إبادة الأشكال الأبوية والحلقات الوسطية . وبالتالي فإن الدليل على وجودهما السابق من الممكن العثور عليه فقط بين البقايا الأحفورية ، التى نجدها محفوظة ، كما سوف نحاول أن نظهره فى باب قادم ، فى شكل سجل منقوص متقطع إلى أقصى حد .

ما يتعلق بالنشأة والمراحل الانتقالية الخاصة بالكائنات العضوية ذات السلوكيات والتراكيب المتميزة^(١)

لقد تسائل المعارضون لمثل هذه الآراء التى أعتنقها ، مثلا عن الكيفية التى قد استطاع بها حيوان أرمى أكل للحوم أن يتحول إلى حيوان ذى سلوكيات مائية ، فيما يتعلق بالكيفية التى قد استطاع بها هذا الحيوان أن يتعايش فى أثناء حالته الانتقالية - وأنه من اليسير أن نبين أنه يوجد حاليا حيوانات آكلة للحوم تقدم مراحل متوسطة بهذا الشكل للانتقال من السلوكيات الأرضية الخالصة إلى السلوكيات المائية ، وبما أن

كل واحد منها يستمد وجوده من خلال الصراع من أجل الحياة ، فإنه من الواضح أن كل منها يجب أن يكون معدا بشكل جيد لمكانه فى الطبيعة . ولك أن تتنظر إلى حيوان الدلق^(١) الموجود فى أمريكا الشمالية الذى يتمتع بأقدام ذات أغشية تمتد بين الأصابع ، والذى يماثل حيوان القضاة^(٢) فى فرائه ، وفى قصر أرجله ، وشكل ذيله . وهذا الحيوان يغطس فى الماء فى فصل الصيف للبحث عن ولافتراس السمك ، ولكنه يترك المياه المتجمدة فى أثناء فصل الشتاء الطويل ويعيش مثل باقى القطط القطبية^(٣) ، على افتراس الفئران والحيوانات الأرضية . وإذا أخذت حالة أخرى مختلفة ، وحدث تساؤل عن الكيفية التى مكنت أحد الحيوانات الرباعية الأرجل الأكلة للحشرات^(٤) من التحول إلى خفاش طائر ، فإن السؤال سوف يكون أكثر صعوبة بكثير من أجل إيجاد جواب له . ومع ذلك فإنى أعتقد أن مثل هذه الصعوبات لا تحمل إلا وزنا قليلا .

وهنا ، وكما حدث فى مناسبات أخرى ، فإنى أقع تحت صعوبة ثقيلة ، وذلك لأنه من مجموع الأمثلة العديدة التى قد قمت بجمعها ، فإنى لا أستطيع إلا أن أقدم واحدا أو اثنين من الأمثلة عن المراحل الانتقالية للسلوكيات والتركيبات الموجودة فى الأنواع المقاربة من بعضها ، وعن السلوكيات المتنوعة ، سواء كانت الثابتة أو العارضة ، الموجودة فى نفس النوع . ويبدو لى أنه لا بديل عن قائمة طويلة لمثل هذه الحالات لى تكون شيئا كافيا للتقليل من الصعوبة الموجودة فى أى حالة معينة مثل تلك الموجودة فى حالة الخفاش .

ولك أن تتنظر إلى فصيلة السناجب^(٥) ، فلدينا هنا أدق صور التدرج من حيوانات ذيوها مفلطحة بشكل بسيط فقط ، ومن حيوانات أخرى - كما لاحظ

Mustela vison (١) حيوان الدلق **

Otter (٢) حيوان القضاة = ثعلب الماء (وهو حيوان طويل الذنب وقصير القوائم)

Pole -Cats (٣) القطط القطبية *

Insectivorous quadruped (٤) حيوان رباعى الأرجل أكل للحشرات

Squirrel (٥) سنجاب

"السيرج . ريتشاردسن sir J.Richardson - الجزء الخلفى من أجسادها عريض إلى حد ما ، والجلد الموجود على خواصرها ممتلىء ، إلى ما يسمى بالسناجب الطائرة . وهذه السناجب الطائرة تتميز بأن أطرافها وحتى القاعدة الخاصة بالذيل متحدة مع بعضها بواسطة رقعة فسيحة من الجلد العريض ، والتي تؤدي وظيفة مظلة الهبوط ، وتسمح لها بالانزلاق خلال الهواء إلى مسافة مدهشة من شجرة إلى شجرة . ونحن لا نشك فى أن كل تركيب نو فائدة لكل صنف من أصناف السناجب الموجودة فى القطر الذى يقيم فيه ، وذلك لتمكينه من الهرب من الطيور والوحوش المفترسة ، أو لتمكينه من جمع الطعام بشكل أسرع ، أو للإقلال من مخاطر السقطات العرضية ، ويوجد ما يكفى من الأسباب للاعتقاد بذلك . ولكن هذه الحقيقة لا يتبعها أن التركيب الخاص بكل سنجاب هو أفضل تركيب من الممكن تخيله أن يكون مناسباً تحت كل الظروف الممكنة . فإنه إذا حدث تغيير فى المناخ وتركيب الحياة النباتية فى المنطقة ، أو إذا حدثت هجرة للقوارض الأخرى المنافسة أو قدوم لوحوش مفترسة جديدة ، أو لو حدث تعديل لوحوش مفترسة قديمة ، وسنرى أن جميع هذه العوامل المتماثلة سوف تقودنا إلى الاقتناع بأن بعض السناجب على الأقل سوف تتناقص فى الأعداد أو سوف تصبح مندثرة ، إلا إذا أصبحت معدلة ومحسنة فى التركيب بشكل متطابق . وبناء على هذا ، فإنى لا أستطيع أن أرى أى صعوبة ، وخاصة تحت ظروف الحياة المتغيرة ، فى استمرار المحافظة على الأفراد التى تتمتع بأغشية جانبية مكتملة أكثر فأكثر ، وعلى كل تعديل يكون ذا فائدة ، وعلى انتقال كل من هذه التعديلات إلى أن تصل عن طريق التأثيرات المتراكمة لهذه العملية من الانتقاء الطبيعى ، إلى إنتاج نموذج كامل مما يطلق عليه السناجب الطائرة .

ولنلتفت الآن إلى الليمور الطائر^(١) ، والذى كان يصنف فى السابق على أساس أنه من ضمن الخفافيش ، ولكن المعتقد حالياً أنه تابع للحيوانات الآكلة للحشرات^(٢) . فإننا نجد أن له غشاء جانبياً عريضاً إلى أقصى حد ، يمتد من زوايا

Galeopithecus = flying lemur

(١) الليمور الطائر

insectivora

(٢) الحيوانات الآكلة للحشرات

الفك إلى الذيل ، ويشمل الأطراف بما فيها من أصابع زائدة فى الطول . وهذا الغشاء الجانبي مزود بعضلة باسطة^(١) . وبالرغم من عدم وجود أى حلقات متدرجة فى التركيب المعد من أجل الانزلاق خلال الهواء ، تربط حالياً ما بين الليمور الطائر والحيوانات الآكلة للحشرات الأخرى ، إلا أنه لا توجد صعوبة فى افتراض أن مثل هذه الحلقات الرابطة قد كانت موجودة فى الماضى ، وأن كلا منها قد تم تكوينه بنفس الطريقة التى نراها فى السناجب الطائرة الأقل اكتمالاً فى التركيب ، وأن كل مرحلة فى التركيب قد كانت مفيدة للحائز عليها . وأنا لا أستطيع أن أرى أى صعوبة لا تقهر فى الاستطراد فى الاعتقاد بأن الغشاء الذى يربط ما بين الأصابع والذراع الموجود فى الليمور الطائر قد يكون قد تمت زيادة طوله بشكل كبير عن طريق الانتقاء الطبيعى ، وأن هذا ، فيما يتعلق بالأعضاء الخاصة بالطيران كان من شأنه تحويل هذا الحيوان إلى خفاش . وفى بعض الخفافيش المعينة التى نجد فيها أن الغشاء الجناحى يمتد من قمة الكتف إلى الذيل ، متضمناً الأرجل الخلفية ، فإنه من المتحمل أننا قد نستطيع أن نرى آثاراً لجهاز كان معداً فى الأصل للانزلاق خلال الهواء أكثر مما هو معد للطيران .

إذا ما انقرض ما يقرب من دزينة من الطبقات الخاصة بالطيور ، فمن يستطيع أن يغامر بالتخمين أنه من المحتمل أن هناك طيوراً كانت موجودة وكانت تستخدم أجنحتها كمرفقات عريضة فقط ، مثلما يفعل البط ذو الرأس الضخم^(٢) (البط الأيتونى ذو الأجنحة الصغيرة)^(٣) ، أو كزعانف فى الماء وكأرجل أمامية على الأرض ، مثلما يفعل طائر البطريق^(٤) ، أو كأشعة مثلما تفعل النعامة ، وبدون أى غرض وظيفى مثلما نجد فى طائر الكيوى^(٥) ؟ - ومع ذلك فإن التركيب الخاص بكل من هذه الطيور هو

Exensor muscle	(١) عضلة باسطة
logger-headed duck	(٢) البط ذو الرأس الضخم *
Micropterus of ezton	(٣) البط ذو الأجنحة الصغيرة الخاص بمقاطعة إيتون بإنجلترا *
Penguin	(٤) طائر البطريق : طائر مائى قصير القدمين والجناحين وعاجز عن للطيران
Apteryx	(٥) طائر الكيوى : طائر لا جناحين من طيور نيوزيلاندا

مناسب له ، تحت تأثير ظروف الحياة التي يتعرض لها ، وذلك لأنه يتحتم على كل منها أن يعيش بواسطة الكفاح ، ولو أنه ليس من الضروري أن يكون هذا هو أفضل صورة ممكنة للكفاح تحت تأثير جميع الظروف المحتمل تواجدها . ويجب ألا يستنتج من هذه الملاحظات أن أى مرحلة من المراحل التي قد مر بها تركيب الأجنحة المشار إليها هنا ، والتي ربما قد كانت كلها نتيجة لعدم الاستخدام ، توحى بالضرورة إلى الخطوات العقلية التي قد اكتسبت من خلالها الطيور قدرتها المكتملة على الطيران ، ولكنها تؤدي على الأقل إلى إظهار الوسائل الانتقالية المتنوعة الممكنة .

وبمشاهدة أن أعضاء قليلة من ضمن مثل هذه الطوائف التي تتنفس في الماء مثل القشريات والرخويات قد تكيفت لكي تعيش على اليابسة ، وبمشاهدة أن لدينا طيوراً وثدييات تستطيع الطيران ، وحشرات طائرة من أنماط غاية في التنوع ، وأنه قد كان لدينا في الماضي زواحف طائرة ، فإنه من الممكن تصور أن السمك الطيار^(١) ، الذي ينزل حالياً إلى مسافات بعيدة خلال الهواء ، مرتفعاً ومحولاً مساره بشكل بسيط بمساعدة زعانفه المرفرفة ، قد كان من الممكن أن يتحول إلى حيوانات مجهزة بشكل كامل . وإذا كان هذا قد حدث ، فمن كان سيدور في خياله على الإطلاق أن مثل هذه الحيوانات قد كانت في مرحلة انتقالية مبكرة ، من ضمن الحيوانات القاطنة في المحيط المفتوح ، وأنها قد استخدمت أعضائها البدائية الخاصة بالطيران على وجه القصر ، على حد علمنا ، لتهرب من محاولة افتراسها بواسطة سمكة أخرى ؟ .

عندما نرى أن تركيباً مستكماً بشكل كبير من أجل سلوك معين ، مثل أجنحة الطائر من أجل الطيران ، فإننا يجب أن نضع نصب أعيننا أن الحيوانات التي تظهر عليها مراحل انتقالية مبكرة خاصة بالتركيب سوف يكون من النادر أن تكون قد استمرت على قيد الحياة إلى يومنا الحاضر، وذلك لأنه سوف يكون قد تم إزاحتها بواسطة خلفائها ، التي أصبحت بالتدريج أكثر اكتمالاً عن طريق الانتقاء الطبيعي . والأكثر من ذلك ، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن المراحل الانتقالية التي تربط بين

التراكيب المعدة لسلوكيات مختلفة جدا في الحياة سوف يكون من النادر أن تكون قد تكونت في وقت مبكر بأعداد ضخمة وبأشكال كثيرة ثانوية . وهكذا ، فلكي نعود إلى مثالنا الموضح المتخيل الخاص بالسلك الطيار ، فيبدو أنه من غير المحتمل أن يكون قد حدث تكوين لأسماك قادرة على الطيران الحقيقي من خلال العديد من الأشكال الثانوية ، لاقتناص الفرائس التابعة للعديد من الأصناف باستخدام العديد من الوسائل ، سواء على اليابسة أو في الماء ، إلى أن تكون أعضائها الخاصة بالطيران قد وصلت إلى مرحلة عالية من الكمال ، وذلك لكي تكون قد منحتها ميزة محددة على الحيوانات الأخرى في المعركة من أجل الحياة . ومن ثم فإن فرصة اكتشاف أنواع تتمتع بمراحل انتقالية في التركيب في حالة أحفورية سوف تكون دائما أقل ، وذلك نتيجة لسابق تواجدها بأعداد ضئيلة ، من فرص العثور على أنواع تتمتع بتراكيب مكتملة التكوين .

وسوف أسوق الآن مثالين أو ثلاثة من الأمثلة على كل من السلوكيات المتنوعة والمتغيرة الموجودة في الأفراد التابعة لنفس النوع . وفي كلتا الحالتين فإنه سوف يكون من السهل على الانتقاء الطبيعي أن يكيف التركيب الخاص بكل حيوان لكي يكون مناسباً لسلوكياته التي قد تغيرت ، أو على وجه التحديد لسلوك واحد من سلوكياته المتعددة . ومع ذلك فإنه من الصعب تحديد ، وهو شيء غير ذي أهمية لنا ، إذا ما كان المعتاد أن تتغير السلوكيات أولا ثم يتبعها تغير التركيب فيما بعد ، أو إذا ما كانت التغييرات البسيطة في التركيب هي التي تؤدي إلى تغيير السلوكيات ، ومن المحتمل أنه كثيرا ما يحدث كلاهما في وقت متلازم تقريبا . وأما عن حالات التغيير في السلوكيات فإنه يكفي مجرد التلميح إلى حالات الحشرات البريطانية الكثيرة التي تتغذى حاليا على النباتات المجلوبة من الخارج ، أو على وجه القصر على المواد الاصطناعية . أما عن العادات المتنوعة فإنه من الممكن تقديم عدد لا يحصى من الأمثلة : فقد كنت أراقب طائر صائد الذباب الجبار^(١) في أمريكا الجنوبية، يحوم حول بقعة ما ثم ينتقل إلى بقعة

Tyrant flycatcher = *Sauropogon sulphuratus*

(١) طائر صائد الذباب الجبار

أخرى ، مثلما يفعل صقر الجراد^(١) ، وفى أحيان أخرى يقف بدون حركة على حافة الماء ، ثم يندفع بعد ذلك إلى الماء مثلما يندفع الطائر المسمى بملك الصيادين^(٢) نحو سمكة . وفى بلدنا إنجلترا فإنه من الممكن مشاهدة طائر القرقف الكبير^(٣) يتسلق فروع الأشجار ، كالطائر المتسلق^(٤) تقريبا ، وهو فى بعض الأحيان يتصرف مثل الصرد^(٥) وذلك بقتله الطيور الصغيرة بضربات على رءوسها ، وأنا قد شاهدته وسمعته فى كثير من المرات يدق بذور شجر الطقسوس^(٦) على فرع شجرة ، وبهذا الشكل يكسرها مثلما يفعل الطائر كاسر الجوز^(٧) . وقد رأى "هيرن" Hearne فى أمريكا الشمالية الدب الأسود^(٨) يسبح لمدة ساعات طويلة بغم مفتوح على مصراعيه ، وبهذا الشكل فإنه يصطاد مثلما يفعل الحوت ، الحشرات الموجودة فى الماء .

وبما أننا نرى فى بعض الأحيان أفرادا يتبعون سلوكيات مختلفة عن تلك السلوكيات المعتادة لنوعهم وللأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة ، فإنه من الممكن لنا لأن نتوقع أن مثل هذه الأفراد سوف تنتج فى بعض الأحيان أنواعا جديدة ، تتمتع بسلوكيات خارجة عن القياس ، ولديها تركيب معدل إما بشكل بسيط أو بشكل واضح عن التركيب الخاص بطرازهما ، ومثل هذه الحالات تحدث فى الطبيعة . وهل من الممكن أن يضرب مثال للتكيف أكثر إثارة للانتباه من ذلك الخاص بطائر نقار الخشب^(٩)

Kestr	(١) صقر الجراد = العوسق = العاسوق
Kingfisher	(٢) طائر ملك الصيادين = القربى = الرفراف = القاوند = ملاعب ظله
Larger titmouse (Parus maior)	(٣) طائر القرقف الكبير *
Creeper	(٤) طائر المتسلق
Shrike	(٥) طائر الصرد = النهس = الدغناش
Yew	(٦) شجر الطقسوس = الزيت = رجل الجراد : شجر دائم الخضرة فى الفصيلة الصنوبرية
Nuthatch	(٧) كاسر الجوز = خازق البندق
Black bear	(٨) الدب الأسود
wood pecker	(٩) طائر نقار الخشب أو الشجر = النقار = القراع

تسلفه الأشجار ولاقتناصه الحشرات الموجودة في الشقوق الموجودة في لحاء الشجر^(١) - ومع ذلك فإنه يوجد في أمريكا الشمالية طيور ناقرة للخشب بتقنات بشكل كبير على الثمار ، وأخرى ذات أجنحة ممتدة في الطول تطارد الحشرات أثناء طيرانها . وعلى السهول الموجودة في "لاپلاتا" La Plata ، حيث من الصعب على أى شجرة أن تنمو ، فإنه يوجد نقار للخشب (النقار الحقلى)^(١) وهو يتمتع بإصبعى قدم أماميتين وآخرين خلفيين ، علاوة على لسان مدبب ، وريش ذيل مدبب ، صلب بدرجة كافية لأن يعمل كدعامة للطائر لإبقائه فى وضع رأسى على أى قائم ، ولو أنه ليس صلبا إلى الدرجة الموجودة لدى نقارى الخشب النموذجيين ، وكذلك لديه منقار مستقيم قوى . ومع ذلك فإن هذا المنقار ليس بنفس الاستقامة أو نفس القوة الموجودتين لدى نقارى الخشب النموذجيين ولكنه قوى بدرجة كافية لكى يحدث ثقباً خلال الخشب . ومن ثم فإن هذا النقار فى جميع الأجزاء الأساسية الخاصة بتركيبه هو نقار للخشب . وحتى فى الصفات التافهة مثل التلوين ، ونبرة الصوت الخشنة ، والطيران المتموج ، فهو يعلن بشكل واضح قرابة الدم الحميمة بينه وبين نقار الخشب الشائع لدينا . ومع ذلك فبقدر استطاعتى أن أؤكد - وهذا ليس مقصورا على ملاحظتى الشخصية ، ولكن بناء على ملاحظات "أزارا" Azara الدقيقة - أنه فى بعض المناطق لا يتسلق الأشجار ، ويصنع عشه فى جحور فى المنحدرات ! . ومع ذلك ففى بعض مناطق معينة أخرى ، وكما أعلن "السيد هدسون" Mr.Hudson ، فإن نفس هذا الحفار للخشب ، يتردد على الأشجار ويحفر ثقوبا فى جنوعها من أجل استخدامها كعش لنفسه . وقد يعنى لى أن أنذكر كمثال آخر للسلوكيات المتنوعة الخاصة بهذه الطبقة ، ألا وهى أن نقارا مكسيكيا قد تم وصفه بواسطة "دى سوزور" De Saussure على أساس أنه يقوم بثقب جحور فى الخشب الصلب من أجل أن يضع فيها مخزونا من جوز البلوط^(٢) .

طيور النوء^(٣) هى أكثر الطيور اعتيادا على الطيران وعلى ارتياد المحيطات ، ولكن فى الأغوار الهادئة الخاصة بجزر أرض النار Tierra dil Fuego ، فإن طائر البفن

Colapets campestris

Acorns

Petrels

(١) النقار الحقلى *

(٢) جوز البلوط

(٣) طيور النوء

البييراردى^(١) ، من خلال سلوكياته العامة ، وقدرته المدهشة على الغوص ، وطريقته فى السباحة وفى الطيران عندما يضطر للطيران ، من الممكن حسباته بطريق الخطأ على أساس أنه أى عضو من طيور الأوك^(٢) أو من طيور الغواص^(٣) ، وبالرغم من ذلك فإنه طائر نوع بشكل أساسى ، ولكن مع تعديل جوهري فى أجزاء كثيرة من أجزاء تعضيته تتعلق بسلوكياته الجديدة فى الحياة ، بينما نجد أن نقار . . شب الموجود فى "لاباتا" قد حدث له تعديل بسيط فقط فى تركيبه . وفى حالة غراب الماء^(٤) ، فإن أدق الناس ملاحظة عندما يفحص جثته الميتة لن يتطرق إليه الاشتباه فى سلوكياته الشبه مائية^(٥) ، ومع ذلك فإن هذا الطائر ، الذى هو ذو صلة قرابة مع فصيلة طيور الدج^(٦) ، يقتات بواسطة الغوص فى الماء ، مستخدماً أجنحته تحت الماء ، وممسكاً بالصخور بواسطة قدميه . ونجد أن جميع أعضاء الرتبة الكبيرة للحشرات الغشائية الأجنحة^(٧) هى حشرات أرضية ، فيما عدا طبقة البروكتوتروبس^(٨) التى اكتشف " السيد جون لوبوك sir John Lubbock أنها مائية فى سلوكياتها ، وأنها كثيراً ما تلج الماء وتغوص فيه ليس باستخدام أرجلها ولكن باستخدام أجنحتها ، وتبقى لمدة قد تصل إلى أربع ساعات تحت سطح الماء ، وبالرغم من ذلك فإنه لا يبدو عليها أى تعديل فى التركيب فيما يتعلق بالسلوكيات غير الطبيعية الخاصة بها .

والإنسان الذى يؤمن بأن كل كائن قد تم خلقه كما نراه الآن ، من المحتم أن يكون قد شعر بالدهشة عندما يتقابل مع حيوان ما لديه سلوكيات وتركيب لا تتوافق مع

Puffinuria berardi	(١) طائر البفن البييراردى *
Auk	(٢) طائر الأوك : طائر قصير العنق من طيور البحار الشمالية
Grebe	(٣) طائر الغواص = الغطاس : طائر مائى
water - ouzel = water - ousal	(٤) غراب الماء *
sub-aquatic	(٥) شبه مائى
thrush family	(٦) فصيلة طيور الدج = السمعة : طيور مفردة
Hymenopterous insects	(٧) رتبة الحشرات غشائية الأجنحة
Proctotrupes	(٨) طبقة البروكتوتروبس من الحشرات *

بعضها . وما الذى سوف يكون أكثر وضوحا من أن الأقدام ذات الأغشية الخاصة بالبط والأوز قد تكونت من أجل السباحة ؟ - ومع ذلك فإنه يوجد أوز يعيش فى أماكن مرتفعة ولديه أقدام ذات أغشية ، وهو نادرا ما يقترب من الماء ، و لا يوجد أحد آخر غير "أودوبون" Audubon قد شاهد طائر الفرقاط^(١) ، والذي يتمتع بأن جميع الأصابع الأربعة لقدميه مغطاة ، يحط على سطح المحيط . وعلى الجانب الآخر فإن طيور الغطاس^(٢) والغرة^(٣) هى طيور مائية بشكل واضح ، مع أن أصابع أقدامها موشاة فقط عند الحوافى بالأغشية . وهو الشيء الذى يبدو أكثر وضوحا من أصابع القدمين الطويلة غير المزودة بأغشية خاصة بالحباريات^(٤) ، والتي قد تكونت للسير فوق المستنقعات والنباتات الطافية ؟ - ودجاجة الماء^(٥) والتفلق الأرضى^(٦) هما عضوان تابعان لهذه الرتبة ، ومع ذلك فإن الأول طير مائى تقريبا مثل طائر الغرة ، و الثانى طائر أرضى تقريبا مثل طيور السمان^(٧) أو الحجل^(٨) . وفى مثل هذه الحالات ، والحالات الكثيرة الأخرى التى من الممكن تقديمها ، فإنه قد حدث تغير فى السلوكيات بدون أى تغير متناظر فى التركيب . وقد يقال عن الأقدام المغطاة الخاصة بالإوزة التى تعيش فى الأرض المرتفعة أنها قد أصبحت غير متكاملة فى الوظيفة ، ولكن ليس فى التركيب . وفى طائر الفرقاط فإن الغشاء المجرف بشكل عميق الموجود بين أصابع القدمين يظهر أن التركيب قد بدأ فى التغير .

والإنسان الذى يؤمن بأفعال منفصلة لا حصر لها من أفعال الخلق قد يقول ، إنه فى هذه الحالات، فإنه قد كان مثار سرور للخالق أن يدفع أحد الكائنات التابعة

Frigate bird

(١) طائر الفرقاط : طائر بحرى يسلب طعام الطيور الأخرى

Grebes

(٢) طيور الغطاس = الغواص : طائر مائى

Coots

(٣) طيور الغرة = الغراء : طائر مائى

Grallatores

(٤) الحباريات **

Water - hen

(٥) دجاجة الماء *

Landrail

(٦) التفلق الأرضى *

Quail

(٧) طائر السمان

Partridge

(٨) طائر الحجل

لطران ما لى يأخذ المكان المخصص لكائن تابع لطران آخر ، ولكن هذا يبدو لى وكأته إعادة لصياغة الحقيقة بلغة مبجلة. والإنسان الذى يؤمن بالتصارع من أجل البقاء وفى مبدأ الانتقاء الطبيعى ، سوف يسلم بصحة أن كل كائن عضوى هو فى حالة سعى دائم للزيادة فى العدد ، وأنه إذا تمايز كائن واحد بشكل قليل على الإطلاق ، سواء فى السلوكيات أو فى التركيب ، وبهذا يكتسب ميزة أكبر على أحد الكائنات القاطنة الأخرى لنفس القطر ، فإنه بهذا الشكل سوف يستولى على المكان الخاص بهذا القاطن ، مهما يكن هذا المكان مختلفا عن المكان الخاص به . ومن ثم فلن يشعر بالمفاجأة عندما يجد أن هناك أوز وطيور فرقاط مزودة بأقدام ذات أغشية ، ولكنها تعيش على الأرض الجافة ونادرا ما تحط على الماء ، وأن يكون هناك طيور صفرد^(١) لها أصابع قدمين طويلة ، ولكنها تعيش فى المروج بدلا من أن تعيش فى المستنقعات ، وأن يكون هناك طيور ناقرة للخشب فى مكان من النادر أن تنمو فيه شجرة ، وأن يكون هناك طيور دج غواصة وحشرات غشائية الأجنحة غواصة ، وطيور نوء لديها سلوكيات طيور الأوك .

الأعضاء التى فى منتهى الكمال والتعقيد

لكى يفترض أنه من الممكن أن تكون العين بكل ما فيها من أجهزة فذة من أجل ضبط الطول البؤرى للمسافات المختلفة ، ومن أجل السماح بدخول كميات مختلفة من الضوء ، ومن أجل تعديل الزيغ الكروى^(٢) واللونى^(٣) ، قد تكونت عن طريق الانتقاء الطبيعى ، فإن ذلك يبدو ، وأنا أعترف بذلك ، كشئ مناف للعقل إلى أعلى درجة . وعندما قيل سابقا إن الشمس تقف ثابتة وأن العالم يلف حولها ، فإن الإدراك العام للجنس البشرى أعلن خطأ هذا المذهب ، ولكن كما يعلم كل فيلسوف فإن المثل القديم القائل بأن " الشائع هو الصحيح "^(٤)، لا يمكن أن يكون موضع ثقة فيما يتعلق

Corncrake

(١) طائر الصفرد : طائر من القواطع يعرف فى سوريا بالسلوى

Spherical aberration

(٢) الزيغ الكروى

Chromatic Aberration

(٣) الزيغ اللونى

Vox populi, vox Dei

(٤) الشائع هو الصحيح *

بالعلم . والاستنتاج المنطقي يقودنى إلى أنه إذا كان من الممكن إظهار وجود تدرجات عديدة من عين بسيطة وفى حالة منقوصة إلى عين معقدة وبالغة لحد الكمال ، وأن كل درجة من هذه الدرجات كانت مفيدة لما لكها ، كما هو الحال بالناكيد ، وإذا زاد على ذلك ، أنه كلما تمايزت العين فإن هذه التمايزات سوف تكون مفيدة لأى حيران تحت تأثير الظروف المتغيرة للحياة ، عندئذ فإن الصعوبة فى تصديق أنه من الممكن تكوين عين كاملة ومعقدة عن طريق الانتقاء الطبيعى ، مع أن هذا شىء غير قابل للتحقيق طبقا لتخلينا ، لا يجب اعتبارها كشىء مدمر للنظرية . أما فيما يتعلق بالكيفية التى أصبح بها أحد الأعصاب حساسا للضوء ، فإن هذا شىء لا يعنىنا أكثر من تساؤلنا حول الكيفية التى نشأت بها الحياة نفسها ، ولكنى من الممكن أن أعلق ، بأنه بما أن بعضا من أدنى الكائنات الحية ، التى من غير المستطاع اكتشاف الأعصاب الموجودة فيها ، قادرة على استشعار الضوء ، فإنه لا يبدو كشىء مستحيل أن عناصر حساسة معينة موجودة فى أحشائها من الممكن أن تتجمع وتتطور إلى أعصاب ، موهوبة بهذا الوعى الخاص .

فى أثناء البحث عن التدرجات التى قد مر بها أحد أعضاء الجسم فى أى نوع لكى يتم اكتماله ، فإنه يجب علينا أن ننظر بالتحديد إلى جدوده العليا المباشرة^(١)، ولكن من النادر إمكان تحقيق ذلك ، ونحن مضطرون إلى أن ننظر الى الأنواع والطبقات الأخرى التابعين لنفس المجموعة ، وذلك يعنى النظر إلى الذرارى المنحدرة بشكل غير مباشر من نفس الشكل الأبوى ، وذلك من أجل رؤية ما التدرجات التى كانت ممكنة ، وما الفرصة المتاحة لبعض التدرجات التى قد تم انتقالها بدون تغيير أو بحالة متغيرة بشكل قليل . ولكن الحالة الموجودة عليها نفس العضو من أعضاء الجسم فى الطوائف المتباينة من الممكن بالصادفة أن تلقى الضوء على الخطوات التى عن طريقها قد تم اكتمال حالة هذا العضو .

وأبسط الأعضاء الجسدية التي من الممكن أن يطلق عليه "عين" يتكون من عصب بصرى ، محاط بخلايا صبغية ملونة^(١) ومغطى بجلد شفاف ، ولكن بدون أى عدسة أو أى قوام انكسارى^(٢) آخر . ومع ذلك ، ووفقا لما نشره "م . جوردين " Jourdain ، فإننا من الممكن أن نهبط حتى إلى مرحلة أدنى ونجد تجمعات من الخلايا الصبغية الملونة ، يبدو أنها تستخدم كأعضاء إبصار بدون أى أعصاب ، ومستقرة فقط على نسيج لحمى . والعيون ذات الطبيعة البسيطة السابق ذكرها غير قادرة على الإبصار الجلى وهى تستخدم فقط للتمييز ما بين الضوء والظلام . وفى بعض نجوم البحر المعينة ، فإننا نجد مناطق منخفضة فى الطبقة الخاصة بالصبغة التى تحيط بالعصب ممثلة - كما تم وصفها بواسطة الباحث الذى سبق ذكره توا - بمادة هلامية شفافة ، تبرز إلى الخارج بسطح محدب ، مثلما تفعل قرنية العين فى الحيوانات العليا . وهو يقترح أن هذا لا يفيد فى تكوين صورة ولكن لتركيز الأشعة المضيئة فقط ويجعل استقبالها أكثر سهولة . وبهذا التركيز للأشعة المضيئة فإننا نكتسب أول خطوة ، وإلى أبعد حد ، الخطوة الأكثر أهمية فى اتجاه التكوين لعين حقيقية قادرة على تكوين صورة ، وذلك لأنه لا يبقى لنا إلا أن نضع الطرف العارى للعصب البصرى ، والذى يقع فى بعض الحيوانات السفلى فى موضع مدفون على عمق كبير فى الجسم ، وفى بعضها الآخر قريبا من السطح ، على المسافة المناسبة من جهاز التركيز ، وبهذا الشكل سوف تتكون عليه صورة .

فى طائفة المفصليات^(٣) العظيمة ، فإنه من الممكن لنا أن نبدأ من عصب بصرى مغطى بصبغة ، وهذه الأخيرة تكون فى بعض الأحيان نوعا من أنواع إنسان العين^(٤) ،

Pigment cells
refractive body
Articulata
Pupil

(١) خلايا صبغية ملونة *
(٢) قوام انكسارى *
(٣) طائفة المفصليات
(٤) إنسان العين = يؤيؤ العين

ولكنه محروم من أى عدسة أو أى جهاز إبصارى آخر . ومن المعلوم حاليا فى الحشرات أن الأوجه العديدة الموجودة على القرنية الخاصة بعيونها المركبة الضخمة تكون عدسات حقيقية ، وأن الأشكال المخروطية تتضمن خيوطا عصبية^(١) معدلة بشكل غريب ، ولكننا نجد أن هذه الأعضاء الجسدية فى طائفة المفصليات متنوعة بشكل كبير إلى حد أن "مولر" Muller قد قام سابقا بوضعها تحت ثلاث طوائف مع سبعة أقسام فرعية ، علاوة على طائفة رابعة أساسية ذات عيون بسيطة متجمعة .

وعندما نتأمل فى هذه الحقائق ، التى قدمت هنا بشكل مختصر جدا ، فيما يتعلق بمجال التركيب العريض ، والمتنوع ، والمتدرج ، الموجود فى العين الخاصة بالحيوانات السفلى ، وعندما نضع فى حسابنا مدى قلة عدد جميع الأشكال الحية بالمقارنة بهذه الأشكال التى قد أصبحت مندثرة ، فإن الصعوبة سوف تتوقف عن أن تكون كبيرة جدا فى الإيمان بأن الانتقاء الطبيعى يكون قد قام بتحويل الجهاز البسيط المكون من عصب بصرى مغطى بالصبغة ومغلف بغشاء شفاف ، إلى جهاز إبصارى على مثل الدرجة من الكمال الموجودة لدى أى عضو تابع لطائفة المفصليات .

والإنسان الذى سوف يذهب إلى هذا المدى ، يجب ألا يتردد فى أن يتقدم خطوة واحدة أكثر من هذا ، إذا ما وجد عند انتهائه من قراءة هذا الكتاب أنه توجد هناك مجموعات كبيرة من الحقائق ، التى لا يمكن تفسيرها بأى شكل ، ولكن الممكن تفسيرها عن طريق نظرية التعديل من خلال الانتقاء الطبيعى ، فإن من الواجب عليه أن يعترف بأنه عندما يتقابل مع تركيب ما ، حتى ولو كان بمثل الكمال الموجود عليه عين النسر ، فإنه من الممكن أن يتكون بهذه الطريقة ، بالرغم من عدم معرفته فى هذه الحالة لأى شىء عن المراحل الانتقالية. وقد ثارت اعتراضات مؤداها أنه من أجل تعديل العين وأن يتم المحافظة عليها فى نفس الوقت كأداة بالغة حد الكمال ، فإنه سوف يكون من الضرورى إدخال الكثير من التعديلات فى وقت متزامن ، والتى من المفترض ، أنه لا يمكن إجراؤها من خلال الانتقاء الطبيعى . ولكن كما قد حاولت أن

أظهره فى بحثى المنصب على التمايز الخاص بالحيوانات الداجنة ، فإنه ليس من الضرورى افتراض أن التعديلات قد حدثت كلها فى وقت متزامن ، إذا كانت هذه التعديلات بسيطة وتدرجية إلى أقصى حد . وأنواع مختلفة من التعديل ، من الممكن أيضا ، أن تستخدم من أجل نفس الغرض العام : وكما جاء فى تعليق " السيد والاس " Mr. Wallace ، " إذا كان لدى عدسة طول بؤرى أقصر أو أطول من اللازم ، فإن هذا من الممكن إصلاحه إما عن طريق إجراء تعديل فى درجة تقوسها أو تعديل فى كثافتها ، وإذا كان التقوس غير منتظم ، والأشعة لا تتجمع لتلتقى فى نقطة ، وفى هذه الحالة إذا حدثت أى زيادة فى الانتظام الخاص بتقوس العدسة فإنه سوف يكون تحسينا مفيدا . وبهذا الشكل فإن انقباض الحدقة^(١) والحركات العضلية الخاصة بالعين هما شيئا غير جوهريين للإبصار ، ولكنهما بمثابة تحسينات كان من المحتمل أن تضاف أو تستكمل عند أى مرحلة من مراحل التركيب للأداة " . ومن ضمن أعلى قسم من أقسام المملكة الحيوانية ، وبالتحديد الفقاريات ، فإننا نستطيع أن نبدأ من عين فى غاية البساطة ، وهذا يعنى أنها تتكون ، كما نجد فى حيوان الرميح^(٢) ، من كيس من الجلد الشفاف ، مزود بعصب ومبطن بالصبغة ، ولكنه خال من أى جهاز آخر . وفى الأسماك والزواحف ، وكما علق "أوين" Owen فإن "مجال التدرجات الموجودة فى التركيبات المتعلقة بانكسار الضوء^(٣) عظيم جدا " . وإنها لحقيقة جديرة بالاهتمام أنه حتى فى الإنسان ، وذلك بناء على تصريح من "فيرتشو" Virchow ذى الشأن العالى ، فإن العدسة البللورية الجميلة تتكون فى الجنين عن طريق تراكم للخلايا الجلدية الخارجية^(٤) ، موضوعة فى طية من الجلد على شكل كيس ، أما الجسم الزجاجي^(٥) فإنه يتكون من نسيج تحت جلدى جنينى . ومع ذلك ، فلكى نتوصل إلى استنتاج صحيح فيما يتعلق بتكوين العين مع جميع صفاتها الرائعة ، ولو كانت لم تصل بعد إلى حد الكمال بكل ما

Iris

(١) الحدقة = القرنية

Lancelet

(٢) حيوان الرميح : حيوان بحرى صغير

Dioptric structures

(٣) التركيبات المتعلقة بانكسار الضوء *

Epidemic cells

(٤) خلايا الجلد الخارجية = خلايا البشرة *

Sub-cutaneous tissue

(٥) نسيج تحت جلدى *

فى الكلمة من معان ، فإن الشئ الذى لا مفر منه أن التفكير المنطقى يجب أن يتغلب على التخيل ، ولكننى قد أحسست بالدهشة من الآخرين الذين يترددون فى بسط مبدأ الانتقاء الطبيعى إلى مثل هذا المدى المذهل .

إنه من النادر إماكن تجنب مقارنة العين بالمقراب^(١) . فنحن نعلم أن هذه الآلة قد تم تطويرها إلى هذا الحد من الكمال عن طريق جهود طويلة متواصلة من أعلى العقول البشرية ذكاء ، ونحن نشير بالطبع إلى أن العين قد تم تكوينها عن طريق عملية مماثلة إلى حد ما . ولكن هل من الممكن ألا يكون هذا التلميح تصريحاً جريئاً ؟ - وهل نحن نملك الحق فى أن نفترض أن الخالق يعمل بمثل هذه القوى الفكرية الخاصة بالإنسان ؟- إذا كان يجب علينا أن نقارن العين بالآلة بصرية ، فإنه يتحتم علينا فى الخيال أن نأخذ طبقة سميكة من نسيج شفاف بها فراغات ممتلئة بسائل ، ويوجد بأسفلها عصب حساس للضوء ، وبعد ذلك لنفرض أن كل جزء من هذه الطبقة يتغير دائماً ببطء فى الكثافة بحيث ينفصل إلى طبقات ذات كثافات وتخانات مختلفة ، موضوعة على مسافات مختلفة من بعضها الآخر ، علاوة على أن الأسطح الخاصة بكل طبقة يحدث فيها تغيير ببطء فى الشكل ويجب علينا أن نستطرد فى الافتراض أنه توجد هناك قوة ، ممثلة فى الانتقاء الطبيعى أو فى البقاء للأصلح ، تراقب دائماً بشكل مقصود كل تعديل بسيط فى الطبقات الشفافة ، وتحفظ بدقة بكل تعديل من شأنه ، تحت الظروف المتغيرة ، بأى طريقة أو إلى أى درجة ، أن يميل إلى إنتاج صورة واضحة . ويجب أن نفترض مضاعفة كل حالة جديدة للآلة إلى ملايين المرات ، يتم الاحتفاظ بكل منها إلى أن ينتج آلة واحدة أفضل ، وبعد ذلك يتم تدمير جميع الآلات القديمة . أما فى الأجساد الحية ، فإن التمايز سوف يسبب التعديلات البسيطة ، والتوالد^(٢) سوف يضاعفها بشكل لانهاى تقريبا ، والانتقاء الطبيعى سوف يختار بمهارة معصومة من الخطأ كل تحسين يحدث . ودع هذه العملية تستمر لمدة الملايين من السنين ، وفى خلال كل سنة على الملايين من الأفراد التابعين لأصناف كثيرة ، وهل يكون من الممكن ألا نصدق أن الآلة

Telescope

(١) المقراب = المنظار المقرب = التليسكوب

Generation

(٢) التوالد

البصرية الحية من الممكن أن تتكون بشكل أفضل من الآلة المصنوعة من الزجاج ، كما هو الحال مع أعمال الخالق بالنسبة إلى أعمال الإنسان؟.

أساليب التحول

إذا كان من الممكن إثبات وجود أى عضو جسدى مركب ، ليس من المحتمل أنه قد تم تكوينه عن طريق تعديلات بسيطة ، عديدة ، ومتتالية ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل نظريتي تنهار تماما . ولكنى لا أستطيع أن أكتشف أى حالة بهذا الشكل . ولا شك فى أنه يوجد الكثير من الأعضاء الجسدية التى لا نعرف مراحلها الانتقالية ، وهذا يوجد بشكل أكثر خصوصية إذا ما نظرنا إلى الأنواع الشديدة العزلة ، والتى حدث حولها ، بناء على النظرية ، الكثير من حالات الاندثار . أو أيضا، إذا تناولنا عضوا جسديا شائع الوجود فى كل الأفراد التابعة لأحد الطوائف ، وذلك لأنه فى هذه الحالة الأخيرة فإن هذا العضو الجسدى من المحتم أن يكون قد تم تكوينه فى الأصل منذ فترة زمنية بعيدة ، وبعدها قد تم تكوين جميع الأفراد الكثيرين التابعين للطائفة ، ومن أجل اكتشاف المراحل الانتقالية المبكرة التى قد مر خلالها هذا العضو الجسدى ، فإنه من الواجب علينا أن نبحث عن الأشكال السلفية المبكرة ، التى قد أصبحت مندثرة من زمن بعيد .

ويجب أن نكون فى غاية الحذر فى استنتاج أن أحد الأعضاء الجسدية لم يكن من المستطاع أن يتم تكوينه عن طريق نوع من أنواع التدرجات الانتقالية . ومن الممكن إعطاء العديد من الحالات الموجودة فى الحيوانات السفلى لنفس العضو الجسدى الذى يقوم بوظائف متباينة بشكل كامل فى نفس الوقت ، وعلى سبيل المثال : فى اليرقانة الخاصة بحشرة اليعسوب^(١) وفى سمك الكوبيتس^(٢) " فإن القناة الهضمية^(٣) تقوم

Dragon fly

Cobites

Alimentary canal

(١) حشرة اليعسوب = سرطان

(٢) سمك الكوبيتس *

(٣) القناة الهضمية

بالتنفس ، والهضم ، والتبرز . وفى حيوان الهيدرة^(١) ، فإن الحيوان قد ينقلب جوفه إلى الخارج ، وبالتالي فإن السطح الخارجى سوف يقوم بعملية الهضم والمعدة سوف تقوم بالتنفس . وفى مثل هذه الحالات فإن الانتقاء الطبيعى قد يقوم بتخصيص - إذا كانت هناك فائدة تجنى من ذلك - العضو الجسدى بأكمله أو جزء من هذا العضو ، الذى كان يقوم قبل ذلك بوظيفتين ، للقيام بوظيفة واحدة فقط ، وهكذا فإنه عن طريق خطوات غير محسوسة فإنه يقوم بتغيير طبيعته بشكل هائل . والمعروف عن كثير من النباتات أنها تنتج بشكل منتظم أزهارا مختلفة التركيب فى نفس الوقت ، وإذا حدث وأن كان لهذه النباتات أن تنتج نوعا واحدا فقط ، فالنتيجة أنه سوف يحدث تغيير هائل فى الطابع الخاص بالنوع بشكل مفاجئ نسبيا . ومع ذلك فإنه من المحتمل أن الصنفين من الزهور المحمولة على نفس النبات قد تمايزا فى الأصل عن طريق خطوات متدرجة دقيقة ، والتي من المحتمل أنها ما زالت تتبع فى بعض الحالات القليلة .

و مرة أخرى فإن اثنين من الأعضاء الجسدية المتباينة ، أو أن نفس العضو الذى يتخذ شكلان مختلفان جدا ، قد يقومان بنفس الوظيفة فى نفس الكائن وفى نفس الوقت ، وهذه وسيلة فى غاية الأهمية من وسائل التحول : ولكى نعطى مثلا واحدا على ذلك ، فإنه توجد أسماك مزودة بالأغداد أو الخياشيم التى تستطيع أن تتنفس الهواء الذائب فى الماء ، وذلك فى نفس الوقت الذى تتنفس فيه الهواء الطلق الموجود فى مئاناتها الهوائية ، ويكون هذا العضو الأخير مقسما بواسطة جدران داخلية فاصلة مشبعة بالأوعية الدموية بشكل كبير ، وله قناة هوائية^(٢) لإمداده بالهواء . ولكى نعطى مثلا آخر تابعا للمملكة النباتية : فإن النباتات تتسلق بواسطة ثلاث وسائل متباينة ، وذلك إما بواسطة الالتفاف اللولبى^(٣) ، أو بواسطة التعلق على دعامة بمحاليقها^(٤) الحساسة ،

Hydra

(١) حيوان الهيدرة

Ductus pneumaticus

(٢) قناة هوائية *

Spiral twining

(٣) الالتفاف اللولبى *

Tendrils

(٤) محاليق : أجزاء لولبية من النبتة

أو بواسطة إطلاق جذيرات هوائية^(١) ، ومن المعتاد أن تكون هذه الوسائل الثلاث موجودة في مجموعات متباينة من النباتات ، ولكن بعض أنواع قليلة لديها اثنتان من هذه الوسائل ، أو حتى أن تجتمع كل الوسائل الثلاث في نفس الفرد . وفي جميع مثل تلك الحالات فإن واحدا من العضوين الجسديين قد يكون قد تم تعديله بالفعل ، وتم وصوله إلى حد الكمال لكي يقوم بجميع العمل المطلوب ، ويكون ذلك بمساعدة العضو الجسدي الآخر أثناء التقدم في التعديل ، ثم بعد ذلك فإن هذا العضو الجسدي الآخر قد يتم تعديله من أجل غرض آخر مختلف تماما ، أو قد تتم إزالته كلية.

المثال الموضح الذي تم تقديمه عن المثانة الهوائية في الأسماك هو مثال جيد ، وذلك لأنه يظهر لنا بشكل واضح الحقيقة المهمة جدا التي تتلخص في أن عضوا ما كان قد تم تصميمه في الأصل من أجل غرض واحد ، ألا وهو الطفو ، من الممكن أن يتحول إلى عضو يستخدم لغرض مختلف تماما ، ألا وهو التنفس . وقد تم إقحام المثانة الهوائية أيضا كعضو ملحق بالأعضاء السمعية لبعض الأسماك المعينة . وجميع الخبراء في علم وظائف الأعضاء يقرون بأن المثانة الهوائية شيء متشاكل ، أو " مماثل بشكل مثالي " في الموضع والتركيب مع الرئات الموجودة في الحيوانات الفقارية العليا : ولهذا السبب فإنه لا يوجد أي سبب للشك في أن المثانة الهوائية قد تم تحويلها بالفعل إلى رئات ، أو إلى أعضاء تستخدم على وجه القصر من أجل التنفس .

وفقا لهذا المنظور فمن الممكن استنتاج أن جميع الحيوانات الفقارية ذات الرئات الحقيقية قد انحدرت عن طريق النشوء المألوف من نموذج بدائي^(٢) قديم وغير معروف ، والذي كان مزودا بجهاز طفو أو مثانة هوائية . ونحن نستطيع بهذا الشكل ، بناء على الاستنتاج الذي قد توصلت إليه من الوصف المشوق الذي قدمه "أوين" لهذه الأجزاء ، أن نتوصل إلى فهم الحقيقة الغريبة التي تتعلق بأن كل ذرة من الأكل والشرب التي نبتلعها لا بد من مرورها فوق الفتحة الخاصة بالقصبة الهوائية ، مع وجود بعض

Aerial rootlets

Prototype

(١) جذيرات هوائية *

(٢) نموذج بدائي = أولى = أصلى

المخاطرة بالسقوط بداخل الرئتين ، بغض النظر عن الوسيلة المستنبطة الجميلة التي يتم بها إغلاق فتحة المزمار^(١) . أما بالنسبة إلى خياشيم الأسماك ، فقد اختلفت كلية في الحيوانات الفقارية العليا - ولكن في الجنين فإن الشقوق الطولية الموجودة على جانبي الرقبة والمسار الحلقي للشرايين ، مازالت تحدد وضعها السابق . ولكن من الممكن تصور أن الخياشيم التي تم فقدانها حالياً بشكل تام ، من الممكن أن تكون قد تم التعامل معها بشكل تدريجي عن طريق الانتقاء الطبيعي وذلك من أجل غرض متباين ما . وعلى سبيل المثال ، فإن "لاندواس" Landois قد وضع أن الأجنحة الخاصة بالحشرات قد نشأت وتطورت من الخياشيم ، وعلى هذا الأساس فإنه من المحتمل جداً أن هذه الأعضاء الخاصة بهذه الطائفة الكبرى ، والتي قد كانت تستخدم في وقت ما في التنفس ، قد تم تحويلها بالفعل إلى أعضاء من أجل الطيران .

وعند التأمل في المراحل الانتقالية الخاصة بالأعضاء الجسدية ، فإنه في غاية الأهمية أن نضع في اعتبارنا احتمال التحول من إحدى الوظائف إلى وظيفة أخرى ، وسوف أعطى مثالا آخر على ذلك . فالحيوانات الهدابية الأرجل ذات السويقات^(٢) لديها ثنيتان دقيقتان من الجلد ، أطلقت عليهما اسم " الأربطة المبيضية"^(٣) ، التي تعمل ، عن طريق إفراز لزج ، على احتجاز البيض إلى أن يتم فقسه بداخل الكيس وهذه الحيوانات الهدابية الأرجل ليس لديها خياشيم ، فإنها تستخدم مسطح كل من الجسم والكيس بالكامل ، علاوة على الأربطة الصغيرة من أجل التنفس . وعلى الجانب الآخر ، فإن الحشفيات^(٤) أو الحيوانات الهدابية الأرجل الجالسة ، لا يوجد لديها أربطة مبيضية ، وبذلك فإن البيض يرقد طليقا في قاع الكيس الموجود بداخل القشرة المحكمة التغليف ، ولكنه يوجد لديها في نفس الموضع النسبي للأربطة ، أغشية كثيرة الثنايا ، والتي تتصل بشكل مطلق مع فجوات الدورة الدموية الخاصة بالكيس وبالجسم ، والتي قد

Glottis

(١) فتحة المزمار = الزرمة

Pedunculated cirripedes

(٢) الحيوانات الهدابية الأرجل ذات السويقات *

Ovigerous frena

(٣) الأربطة المبيضية *

Blanidae

(٤) الحشفيات *

تم اعتبارها بواسطة جميع علماء التاريخ الطبيعى على أساس أنها تعمل كخياشيم . ولا أعتقد حاليا أن أى إنسان سوف يساوره الشك فى أن الأربطة المبيضية الموجودة لدى إحدى الفصائل ، متماثلة تماما مع الخياشيم الخاصة بالفصيلة الأخرى، وأنهما بالتأكيد يتدرجان إلى بعضهما البعض . وبهذا الشكل فإنه لا داعى لحدوث شك فى أن الثنيتين الصغيرتين من الجلد ، اللتين كانتا تؤديان فى الأصل وظيفه الأربطة المبيضية ، ولكنهما فى نفس الوقت كانتا تساعدان أيضا فى عملية التنفس ، قد تم تحويلهما تدريجيا عن طريق الانتقاء الطبيعى إلى خياشيم ، وذلك ببساطة من خلال الزيادة فى حجمهما وإلغاء الغدد المفرزة للمواد اللاصقة الموجودة بهما، وإذا كانت جميع الحيوانات الهدايبية الأرجل ذات السويقات قد أصبحت مندثرة ، وهذه الحيوانات قد عانت من الاندثار بشكل أكبر بكثير مما حدث لهدايبات الأرجل الجالسة ، فمن الذى سوف يدور فى خياله أن الخياشيم الموجودة فى هذه الفصيلة الأخيرة ، قد كانت موجودة فى الأصل كأعضاء جسدية خاصة بمنع البيض من الانجراف إلى خارج الكيس بفعل الماء؟.

ويوجد هناك أسلوب آخر ممكن للتحويل ، ألا وهو ، من خلال الإسراع أو التأخير فى الفترة اللازمة للتكاثر . وهذه الطريقة قد تم مؤخرا الإصرار عليها بواسطة "الأستاذ كوب" Prof. Cope ، وآخرين فى الولايات المتحدة . ومن المعروف حاليا أن بعض الحيوانات لديها القدرة على التكاثر عند عمر مبكر جدا ، وذلك قبل أن تكون قد اكتسبت صفاتها المثالية ، وإذا أصبحت هذه القدرة واضحة جدا بشكل كامل فى أحد الأنواع ، فيبدو أنه من المحتمل أن مرحلة البلوغ فى التكوين سوف يتم فقدها سواء عاجلا أو آجلا ، وفى هذه الحالة ، وخاصة إذا كانت اليرقانة تختلف كثيرا عن الشكل البالغ ، فإن السمة الخاصة بالنوع سوف تتغير كثيرا وسوف تنحط رتبته . والأمر أيضا ليس مقصورا على القليل من الحيوانات التى بعد أن تصل إلى النضوج ، فإنها تستمر فى التغير فى الطابع طوال مدة حياتها تقريبا . ففى الثدييات على سبيل المثال ، فإننا نجد أن شكل الجمجمة كثيرا ما يتغير مع العمر ، وقد أورد "الدكتور مورى" Dr. Murie فى هذا الشأن بعض الأمثلة الملفتة للنظر بين عجول البحر^(١) ، وكل إنسان يعلم كيف

أصبحت قرون الأيائل^(١) متفرعة بشكل أكثر فأكثر ، وكيف أصبح الريش الخاص ببعض الطيور متكونا بشكل أكثر دقة ، وذلك يحدث عندما تتقدم هذه الحيوانات في العمر . وقد أعلن "الأستاذ كوب" Prof . Cope أن الأسنان الخاصة ببعض السحالي^(٢) المعينة تتغير كثيرا في الشكل مع التقدم في العمر ، وفي الحيوانات القشرية^(٣) فإن الأمر لا يقتصر على الكثير من الأجزاء التافهة ، ولكنه يمتد إلى بعض الأجزاء المهمة ، التي تتخذ سمة جديدة ، كما سجله "فريتز مولر" Fritz Muller ، بعد بلوغ سن النضوج . في جميع مثل هذه الحالات - ومن الممكن إعطاء الكثير منها - فإنه إذا حدث تأخير في سن التكاثر ، فإن السمة الخاصة بالنوع ، على الأقل في مرحلة نضوجها ، سوف يحدث بها تعديل ، ولا يمكن استبعاد احتمال أن المراحل السابقة والمبكرة للتكوين قد يتم استعمالها في بعض الأحيان يتم فقدها في النهاية . وسواء كان قد حدث في كثير من الأحوال أو أنه قد حدث على الإطلاق تعديل لبعض الأنواع من خلال هذه الطريقة الانتقالية الفجائية ، فإنه ليس بإمكانى تكوين أى رأى عنه ، ولكن إذا كان هذا قد حدث ، فإنه من المحتمل أن الاختلافات الموجودة بين اليافع والناضج ، وبين الناضج والعجوز ، كانت قد تم اكتسابها بشكل أساسى عن طريق خطوات متدرجة .

صعوبات استثنائية خاصة بنظرية الانتقاء الطبيعي

بالرغم من أنه يجب علينا أن نكون حذرين إلى أقصى حد في التوصل إلى استنتاج أن أى عضو جسدى كان لا يمكن أن يتم إنتاجه عن طريق تدرجات متتالية ، صغيرة ، انتقالية ، إلا أنه لا شك في حدوث حالات من الصعوبة الجدية .

Stags

(١) الأيائل

Lizard

(٢) سحلية = عظاءة = سقاية

Crustaceans

(٣) الحيوانات القشرية = القشريات

وواحدة من أكثر الحالات جدية هي المتعلقة بالحشرات المحايدة جنسيا^(١) ، وهي التي كثيرا ما تكون مهياة بشكل مختلف عن إما الذكور أو الإناث الخصبية ، ولكن هذه الحالة سوف يتم تناولها فى الباب القادم . أما الأعضاء الجسدية الكهربائية الخاصة بالأسماك فإنها تقدم حالة أخرى من حالات الصعوبة الاستثنائية ، وذلك لأنه من المستحيل تخيل ما الخطوات التي قد تم عن طريقها إنتاج هذه الأعضاء الجسدية العجيبة . ولكن هذا ليس شيئا مذهلا ، وذلك لأننا لا نعرف حتى الفائدة المرجوة من وجودها . ففى السمك العارى^(٢) والسمك الرعاد الكهربائى^(٣) ، فإن هذه الأعضاء تستخدم كوسائل قوية للدفاع ، ومن المحتمل من أجل الإمساك بالفريسة ، ومع ذلك ففى (سمك الشفنين البحرى)^(٤) ، وطبقا للملاحظات "ماتيوسى" Matteucci فإنه يوجد عضو جسدى مماثل فى الذيل يصدر عنه القدر القليل فقط من الكهرباء ، حتى عندما يكون الحيوان متوترا بدرجة هائلة ، وهذا القدر من الكهرباء ضئيل إلى درجة أنه من الصعب أن يكون له أى فائدة للأغراض السابق ذكرها ، والأكثر من ذلك ، فإنه يوجد فى الشفنين البحرى ، بجانب العضو المشار إليه توا ، وكما وضح "الدكتور . ر مادونل Dr. R. M'Donnell ، عضو جسدى آخر مجاور للرأس ، لا يعرف عنه أنه كهربائى ، ولكنه يبدو أنه المماثل الحقيقى للبطارية الكهربائية الموجودة فى السمك الرعاد الكهربائى . والشىء المعترف به بشكل عام أنه يوجد هناك تماثل حميم بين هذه الأعضاء الجسدية والعضلة العادية ، فى التركيب الدقيق ، وفى التوزيع الخاص بالأعصاب ، وفى الطريقة التى تؤثر بها العوامل المختلفة عليها . ويجب أيضا أن يكون موضع ملاحظة خاصة أن الانقباض العضلى يتلازم مع انطلاق شحنة كهربية ، وكما يصير " الدكتور راد كليف " Dr. Radcliffe ، " فى أثناء الراحة للجهاز الكهربائى الموجود فى سمك الرعاد الكهربائى ، فإنه يبدو أنه يوجد هناك شحنة مماثلة من جميع

Neuter insects

(١) الحشرات المحايدة جنسيا : ليس بالذكر ولا بالمؤنث

Gymnotus

(٢) السمك العارى *

Torpedo

(٣) السمك الرعاد الكهربائى

Ray

(٤) سمك الشفنين البحرى

الاعتبارات لتلك التي نقابلها في العضلة والعصب أثناء الراحة ، وتفريغ شحنة السمك الرعاد الكهربائي بدلا من أن يكون شيئاً غريبا ، فإنه قد يكون مجرد شكل آخر فقط للتفريغ الذي يعتمد على فعل العضلة والعصب الحركي^(١) ، ولا نستطيع أن نتماهى في التفسير إلى أكثر من هذا حاليا ، ولكن بما أننا لا نعرف إلا هذا القدر الضئيل عن السلوكيات والتركييب الخاصة بالجدود العليا والأسلاف الخاصة بالأسماك الكهربائية الموجودة ، فإنه سوف يكون شيئا في غاية الجرأة أن نستمر في الدفع بعدم إمكانية وجود مراحل انتقالية ذات فائدة من الممكن أن تكون هذه الأعضاء قد تكونت تدريجيا عن طريقها .

ويبدو لأول وهلة أن هذه الأعضاء الجسدية تقدم صعوبة أخرى ولو أنها أكثر شدة ، وذلك لأنها توجد في نحو دزينة من أصناف الأسماك ، الكثير منها بعيد بشكل كبير في الصلات التي تربط بين بعضه بعضا . وعندما يكون نفس العضو الجسدى موجودا في أصناف كثيرة تابعة لنفس الطائفة ، وخاصة إذا كان موجودا في أفراد ذات سلوكيات حياتية مختلفة عن بعضها بشكل كبير ، فإننا قد نعزو على وجه العموم وجودها إلى الوراثة من سلف مشترك ، وغياها في البعض من الأفراد إلى الفقدان من خلال عدم الاستخدام أو الانتقاء الطبيعي . وبهذا الشكل ، فإذا كانت الأعضاء الجسدية الكهربائية قد تمت وراثتها عن أحد من الأسلاف القديمة ، فإننا قد نتوقع أن جميع الأسماك الكهربائية قد كان من الواجب أن تكون مرتبطة بشكل خاص مع بعضها الآخر ، ولكن هذا بعيد عن الواقع . وحتى علم طبقات الأرض فإنه لا يقود على الإطلاق إلى الاعتقاد بأن معظم الأسماك قد حازت فيما مضى أعضاء جسدية كهربائية ، والتي فقدتها الآن زرايها المعدلة . ولكن عندما ننظر إلى الموضوع بتمعن أكثر ، فإننا نجد في الأسماك العديدة المزودة بأعضاء جسدية كهربائية ، أن هذه الأعضاء الجسدية موجودة في أجزاء مختلفة من الجسم ، - وأنها تختلف في التركيب ، مثل الاختلاف الموجود في ترتيب الصفائح ، ووفقا لما أورده "باسيني" Pacini ، فإنها تختلف في العملية أو الوسيلة التي تستثار بها الكهرباء - وأخيرا ، تختلف في كونها مزودة بأعصاب

نابعة من مصادر مختلفة ، ومن المحتمل أن هذا هو الشيء الأكثر أهمية من بين جميع الاختلافات . وبناء على ذلك ، ففي الأسماك العديدة المزودة بأعضاء جسدية كهربائية ، فإن هذه الأعضاء لا يمكن اعتبارها على أساس أنها متماثلة ولكنها تعتبر متشابهة فقط فى الوظيفة ، وبالتالي فلا يوجد هناك أى سبب لافتراض أنها قد تمت وراثتها من جد أصلى مشترك ، لأنه إذا كانت هذه هى الحالة ، لكانت هذه الأعضاء قد أصبحت مماثلة بشكل حميم لكل من بعضها الآخر من جميع الأوجه . وهكذا تختفى الصعوبة الموجودة فى نشوء ما يبدو أنه نفس العضو الجسدى فى العديد من الأنواع البعيدة القرابة ، تاركة فقط الصعوبة الأقل ولو أنها ما زالت كبيرة ، ألا وهى ماهية الخطوات المتدرجة التى قد ظهرت فيها هذه الأعضاء الجسدية فى كل مجموعة منفصلة من الأسماك .

الأعضاء الجسدية المضيئة التى توجد فى القليل من الحشرات التابعة إلى فصائل شديدة الاختلاف عن بعضها ، والتى تتخذ مواضعها فى أجزاء مختلفة من الجسم ، تقدم ، فى ظل حالة الجهل السائدة بيننا ، إحدى الصعوبات الموازية بالضبط تقريبا للصعوبة التى تمثلها الأعضاء الجسدية الكهربائية . ومن الممكن تقديم حالات أخرى مماثلة ، فعلى سبيل المثال فإننا نجد فى النباتات التصميم البالغ الغرابة لكتلة من حبوب اللقاح ، المحمولة على رجيلة^(١) ، والمزودة بإحدى الغدد اللاصقة ، التى يبدو ظاهريا أنها متطابقة فى كل من السحلبيات^(٢) والعشاريات^(٣) ، وهما طبقتان متباعدتان عن بعضهما البعض إلى أقصى حد ممكن بين النباتات المزهرة ، ولكن هنا وللمرة الثانية فإن هذه الأجزاء ليست متماثلة تماما . وفى جميع الحالات التى نجد فيها كائنات متباعدة عن بعضها الآخر فى ميزان التعضى ، ونجد أنها مزودة بأعضاء جسدية متماثلة وغريبة ، فإننا سوف نجد أنه بالرغم من أن المظهر العام والوظيفة الخاصيين بهذه الأعضاء الجسدية قد يكونان متماثلين ، إلا أنه من الممكن دائما

Foot-Stalk

Orchis

Asclepias

(١) رجيلة = سويقة

(٢) السحلبيات = الأوركيديات

(٣) العشاريات = زهرة الدم

اكتشاف أنه يوجد بينهما فروق جوهرية . وعلى سبيل المثال ، فإن العيون الخاصة بالحيوانات رأسيات الأرجل^(١) أو الحبار وعيون الحيوانات الفقارية تبدو متشاكلة بشكل رائع ، وفى مثل هذه المجموعات المتباعدة عن بعضها بشكل كبير فإنه لا يمكن أن يعزى أى جزء من هذا التشابه إلى الوراثة عن جد أصلى مشترك. وقد أورد "السيد ميقاتر" Mr. Mivart هذه الحالة على أساس أنها تمثل واحدة من الصعوبات الاستثنائية ، ولكنى لا أستطيع أن أرى القوة الكامنة فى مجادلته . فإن أى عضو مخصص للإبصار يجب أن يكون مكونا من نسيج شفاف ، ويجب أن يتضمن نوعا من أنواع العدسات ، وذلك لإلقاء صورة على الجزء الخلفى من مقصورة مظلمة . وفيما عدا هذا التشابه السطحى ، فإنه لا يوجد تقريبا أى تماثل حقيقى بين عيون الحباريات والفقاريات ، وذلك ما يمكن رؤيته عند الرجوع إلى مذكرات "هنسن" Hensen المحترمة فيما يتعلق بهذه الأعضاء الجسدية الموجودة فى رأسيات الأرجل . وإنه لمن المستحيل بالنسبة إلى ، أن أتطرق هنا إلى التفاصيل ، ولكنى قد أخص بذكر بعض نقاط الاختلاف القليلة . فالعدسة البلورية الموجودة فى الحباريات العليا تتكون من جزأين ، موضوعين واحدا خلف الآخر على شكل عدستين ، كل منهما يتمتع بتركيب ونظام مختلف جدا عن الموجود فى الفقاريات ، وشبكية العين^(٢) مختلفة تماما ، وفيها تعاكس حقيقى فى الأجزاء الجوهرية ، وأيضا فيها عقدة عصبية^(٣) كبيرة متداخلة مع الأغشية الخاصة بالعين . وعلاقات العضلات ببعضها هى مختلفة إلى أقصى حدود التصور ، وكذلك الحال فى نقاط أخرى . ومن ثم ، فإن الصعوبة ليست صغيرة لكى نقرر حتى إلى أى مدى نستطيع أن نذهب فى استخدام نفس المصطلحات فى وصف العيون الخاصة بكل من رأسيات الأرجل والفقاريات . وبالطبع فمن المسموح به لأى إنسان أن ينكر أن العين فى كل من الحالتين قد يكون من الممكن أنها قد تكونت من خلال الانتقاء الطبيعى لتمييزات بسيطة متتالية ، ولكن إذا تم السماح بذلك فى واحدة من الحالات ، فإنه من

Cephalopods

(١) الحيوانات رأسيات الأرجل : من الرخويات

Retina

(٢) الشبكية = شبكة العين

Nervous ganglion

(٣) عقدة عصبية = كتلة عصبية = مركز عصبى

الواضح إمكانيتها فى الحالة الأخرى ، والاختلافات الجوهرية الموجودة فى التركيب الخاص بأعضاء الإبصار الخاصة بمجموعتين قد يكون من الممكن توقعها ، بناء على هذه الرؤية الخاصة بطرق تكوينهما . وكما يحدث أن يستطيع رجلان فى بعض الأحيان التوصل بشكل مستقل إلى نفس الاختراع ، فإنه فى الحالات العديدة السابقة يبدو أن الانتقاء الطبيعى - عاملا من أجل ما هو صالح لكل من الكائنات ، ومنتها الفرصة الموجودة فى جميع التمايزات المفيدة - قد أنتج أعضاء جسدية مماثلة ، فيما يتعلق بالوظيفة ، وذلك فى كائنات عضوية متباينة ، والتي لا تدين فى أى من التركيبات المشتركة فيما بينها إلى الوراثة عن جد أصلى مشترك .

ولكى يختبر "فريتز موللر" الاستنتاجات التى قد توصلت إليها فى هذا الكتاب ، فقد تتبع بدقة شديدة خيطا مماثلا تقريبا من خيوط الموضوع . فإن العديد من الفصائل الخاصة بالقشريات تتضمن القليل من الأنواع ، التى تمتلك جهازا لتنفس الهواء وهى معدة للحياة خارج الماء . وفى اثنتين من هذه الفصائل ، وهما اللتان قد قام "موللر" بفحصهما بشكل أكثر خصوصية ، وهما متقاربتان بشكل حميم لبعضهما البعض ، فقد وجد أن النوعين متوافقين إلى أقصى حد فى جميع الصفات المهمة ، وبالتحديد ، فى أعضاء الحس الخاصة بهما ، وفى الجهاز الدورى الدموى ، وفى موضع خصلات الشعر الموجودة بداخل معداتهما المعقدة ، وأخيرا فى مجمع التركيب الخاص بالخياشيم الخاصة بالتنفس المائى ، وإلى حد الكلابات^(١) المجرية التى تنظفها . وبناء على ذلك فإنه قد كان شيئا متوقعا فى الأنواع القليلة التابعة لكل من الفصيلتين ، أن يكون جهاز التنفس الهوائى المتساوى فى الأهمية ، هو نفس الجهاز ، لأنه لماذا يكون هذا الجهاز الواحد ، الممنوح من أجل نفس الغرض ، قد تم صنعه بشكل مختلف ، بينما كانت جميع الأعضاء الجسدية المهمة الأخرى متماثلة بشكل حميم أو حتى متطابقة !؟

ويجادل "فريتز موللر" فى أن هذا التماثل الحميم فى مثل هذا العدد الكثير من النقاط الخاصة بالتركيب ، يجب ، بالاتفاق مع الآراء التى قد قمت بطرحها ، أن يكون

سببه هو الوراثة من جد أصلى مشترك . ولكن بما أن الأكثرية العظمى من الأنواع التابعة للفصيلتين السابق ذكرهما ، علاوة على معظم القشرييات الأخرى ، مائة في سلوكياتها ، فإنه من غير المحتمل إلى أعلى درجة ، أن يكون جدهما الأصلى المشترك قد تم إعداده لتنفس الهواء . وبالتالي فقد انقاد "مولر" إلى فحص الجهاز الموجود فى الأنواع التى تتنفس الهواء ، ووجد أنها تختلف فى كل واحدة منها فى الكثير من النقاط المهمة ، مثل موضع الفتحات ، وفى الطريقة التى يتم بها فتحها وإغلاقها ، وفى بعض من التفاصيل الثانوية . ومثل هذه الاختلافات مفهومة حاليا ، ومن المحتمل حتى إنها قد كانت متوقعة ، وذلك بناء على افتراض أن الأنواع التابعة إلى فصائل متباينة قد أصبحت بشكل بطيء معدة لى تعيش أكثر فأكثر خارج الماء ولكى تتنفس الهواء . وذلك لأن هذه الأنواع ، نتيجة لتبعيتها إلى فصائل متباينة ، سوف تكون قد اختلفت إلى حد معين ، وطبقا للمبدأ القائل بأن الطبيعة الخاصة بكل تمايز تعتمد على اثنين من العوامل ، أى ، الطبيعة الخاصة بالكائن ، وتلك الخاصة بالظروف المحيطة . فإن قابلية هذه الأنواع للتمايز بالتاكيد سوف لن تكون متساوية تماما . وبالتالي فإن الانتقال الطبيعى ستكون لدية أدوات أو تمايزات مختلفة لى تؤثر فيها ، من أجل الوصول إلى نفس النتيجة الوظيفية ، والتراكيب التى قد تم اكتسابها بهذا الشكل سوف يكون من الضرورى تقريبا أن تكون قد اختلفت . أما بناء على فرضية الأفعال المستقلة للخلق فإن الموضوع كله يستمر غير قابل للفهم . ويبدو أن هذا الخط من المجادلة كان له وزن كبير فى دفع "فريتز مولر" إلى قبول وجهات النظر التى أتمسك بها فى هذا الكتاب .

الأستاذ الراحل "كلابريد" Prof. Claparede ، وهو عالم محترم آخر فى علم الحيوان ، قد تناقش بنفس الطريقة ، وقد توصل إلى نفس النتيجة . وهو يبين أنه توجد هناك مخلوقات صغيرة جدا^(١) طفيلية^(٢) (القراديات)^(٣) تابعة إلى فصائل فرعية

Mites

(١) مخلوقات صغيرة جدا = عث = سوس

Parasitic

(٢) طفيلية

Acaridae

(٣) القراديات : حيوان من العنكبوتيات

وفصائل ، متباينة عن بعضها ، وهى مزودة بمشابك للتعلق بالشعر^(١) . وهذه الأعضاء الجسدية من المحتم أنه قد تم تكوينها بشكل مستقل عن بعضها ، وذلك لأنها لا يمكن أن تكون قد تمت وراثتها عن سلف مشترك ، ويتم تكوينها فى المجموعات العديدة عن طريق التعديل للأرجل الأمامية ، أو الأرجل الخلفية ، أو الفك الأعلى^(٢) والشفافة^(٣) ، أو الأجزاء الثانوية الموجودة على السطح السفلى للجزء الخلفى من الجسم .

فى الحالات السابقة نحن نرى أن نفس الغاية تم اكتسابها ، ونفس الوظيفة قد تم إنجازها ، فى كائنات لا تمت إلى بعضها إطلاقا بصلة قرابة أو هى على صلة قرابة بعيدة من بعضها ، عن طريق أعضاء جسدية حميمة التماثل فى المظهر ولكن ليس فى التكوين . وعلى الجانب الآخر ، فإنها قاعدة عامة فى جميع أرجاء الطبيعة أنه يجب الحصول على نفس النتيجة ، حتى بين الفينة والأخرى فى حالة الكائنات حميمة القرابة ، وذلك عن طريق أكثر الوسائل تشعبا . وللنظر إلى مدى الاختلاف الموجود فى تكوين الجناح المريش الخاص بأحد الطيور والجناح المغطى بغشاء والخاص بأحد الخفافيش ، والأكثر من هذا إلى الأربعة من الأجنحة الخاصة بإحدى الفراشات ، والاثنتين من الأجنحة الخاصة بذبابة ، وإلى الاثنتين من الأجنحة ذات الأغمار^(٤) الخاصة بإحدى الخنافس . وإلى الأصداف ذات المصراعين^(٥) المصممة لكى تفتح وتغلق ، ولكن ما العدد من الأساليب الذى شيدت به مصاريحها :- ومن الصف الطويل من الأستان المتشابهة بدقة الموجودة فى حيوان جوز البحر^(٦) إلى الرباط البسيط الخاص بحيوان بلح البحر^(٧) ! . أما البذور فإنها تنتشر إما بواسطة دقة حجمها - وبواسطة تحول

Hair-Claspers	(١) مشابك للتعلق بالشعر
Maxilla	(٢) الفك الأعلى
Lips	(٣) الشفافة
Elytra	(٤) الأغمار
Bivalve	(٥) نومصراعين *
Nucula	(٦) حيوان جوز البحر *
Mussel	(٧) حيوان بلح البحر : من الرخويات

عليبتها إلى ما يشبه كيس الغاز الخاص بالبالون - وبواسطة طمرها في لب أو لحم ثمرة ، قد تم تكوينها من أكثر الأجزاء تنوعا ، وجعلت مغذية ، علاوة على تلويها بشكل ملفت للنظر ، وذلك من أجل جذب الطيور لالتها مها - وبواسطة حيازتها لخطاطيف وكلابات^(١) من أنواع مختلفة وحسكات^(٢) مشرشرة ، وذلك من أجل الالتصاق بالفراء الخاص بالحيوانات الرباعية الأرجل - وبواسطة تزويدها بأجنحة وريش ، مختلفة في الشكل بقدر أناققتها في التركيب ، وذلك لكي تتساق مع كل نسمة هواء . وسوف أعطى مثلا واحدا آخر ، وذلك لأن هذا الموضوع الخاص بأن نفس النتيجة يتم اكتسابها عن طريق أكثر الوسائل تنوعا موضوع جدير بالاهتمام . والبعض من الكتاب يؤكد أن الكائنات العضوية قد تم تكوينها من خلال العديد من الطرق وذلك من أجل مجرد التنوع ، تقريبا مثل الدمى في أحد المتاجر ، ولكن مثل هذا المنظور للطبيعة شىء لا يصدق . ففي النباتات التي لديها نوعان جنسيان منفصلان ، وفي تلك النباتات التي بالرغم من أنها خنثى فإن اللقاح لا يقع على الميسم من تلقاء نفسه ، فإن بعض المعونة شىء ضرورى من أجل إتمام تلقيحها . وهذا يحدث في أنواع كثيرة مختلفة عن طريق أن حبوب اللقاح ، التي هي خفيفة وغير متماسكة ، تعصف الرياح بها وتسقطها عن طريق المصادفة المحضة على الميسم ، وهذه هي أبسط طريقة كان من المستطاع اتباعها . وتوجد طريقة أخرى متساوية تقريبا في البساطة ، مع أنها مختلفة جدا ، تحدث في الكثير من النباتات التي تفرز فيها زهرة متناسقة قطرات قليلة من الرحيق ، وبالتالي فإن الحشرات تتردد عليها ، وهذه الأخيرة تحمل اللقاح من المأبر إلى الميسم .

ومن هذه المرحلة البسيطة فإنه من الممكن لنا أن نمر في خلال عدد لا ينفد من الوسائل ، كلها مخصصة من أجل نفس الغرض وأنجزت بنفس الطريقة بشكل أساسى ، ولكنها استتبعت حدوث تغييرات في كل جزء من أجزاء الزهرة . فإن الرحيق قد يكون

Grapnel

(١) كلابة

Awn

(٢) حسكة : حسكة السنبل

مخزونا فى أوعية مختلفة التشكيل ، ومع تعديل الأسدية والمدقات بطرق عديدة ، وذلك أحيانا بتكوين جهاز مثل الفخ ، وأحيانا تكوين جهاز قادر على حركات معدة بعناية من خلال إحداه التوتر أو الليونة . من مثل هذه التراكيب فإنه من الممكن لنا أن نتقدم إلى أن نصل إلى حالة على قدر من الإعداد غير العادى ، مثل التى وصفها مؤخرًا "الدكتور كروجر" Dr. Cruger فى نبات النورة الزهرية^(١). فإن هذا النوع من السحلبيات يتمتع بأن جزءًا من الشفة^(٢) الخاصة به أو الشفة السفلى غائر على هيئة دلو كبير ، تسقط فيه بشكل مستمر قطرات من الماء النقى تقريبًا ، من اثنين من القرون المفرزة التى تنتصب أعلاه ، وعندما يكون الدلو نصف ممتلئًا ، فإن الماء يفيض عن طريق ميزاب موجود على أحد الجوانب . والجزء القاعدى من الشفة موجود فوق الدلو ، وهو نفسه مجوف إلى ما يشبه المقصورة وبه اثنان من المداخل الجانبية ، ويوجد بداخل هذه المقصورة أخاديد لحمية غريبة . ولعل أكثر الناس براعة ، إذا لم يكن قد شاهد ما يحدث ، فإنه لا يمكن أن يدور فى خله الغرض الذى تستخدم فيه كل هذه الأجزاء . ولكن الدكتور "كروجر" شاهد جموعًا من النحل الطنان^(٣) الضخم تزور الزهور العملاقة الخاصة بهذا النوع من السحلبيات ، ليس بغرض امتصاص الرحيق ، ولكن لى تقضم الأخاديد الموجودة بداخل المقصورة الموجودة فوق الدلو ، وفى أثناء هذا الفعل فإنها كثيرا ما تدفع بعضها الآخر إلى داخل الدلو ، وبهذا الشكل تبتل أجنحتها إلى درجة تمنعها من الطيران ، ولكنها تكون مضطرة للزحف إلى الخارج من خلال الممر المكون بواسطة الميزاب أو الماء الفائض . وقد شاهد "الدكتور كروجر" ما وصفه "بموكب متتابع" من النحل الزاحف بهذا الشكل إلى خارج هذا المغطس للإرادى لها . وهذا الممر ضيق ومسقوف بواسطة القائم العمودى ، وبذلك فإن النحلة فى أثناء شق طريقها إلى الخارج ، فإن ظهرها يحتك مع الميسم اللزج ، ثم بعد ذلك مع الغدد اللزجة الخاصة بكتل اللقاح . وتلتصق كتل اللقاح بهذا الشكل بالظهر الخاص بالنحلة التى

Coryanthes

(١) النورة الزهرية *

Labellum

(٢) الشفة = الجزء الأوسط من تويج زهرة من السحلبيات

Humble -bees

(٣) النحل الطنان : نحل ضخم شديد الطنين أثناء الطيران

يتصادف أن تكون الأولى في الرجف إلى الخارج من سلال المر التابع للزهرة فمد تفتحت مؤخراً ، رتستقل بهذا الشكل كتلة اللقاح . وقد أرسل إلى " الدكتور كريستوفر " إحدى الزهور محفوظة في كحول النبيذ ، ومعها نحلة كان قد قتلها قبل أن تستكمل زحفها إلى الخارج ، ومازالت كتلة من اللقاح مثبتة على ظهرها . وعندما تطير نحلة مجهزة بهذا الشكل إلى زهرة أخرى ، أو إلى نفس الزهرة مرة ثانية ، ويتم دفعها بواسطة رفاقها إلى داخل الدلو ، ثم تزحف بعد ذلك إلى الخارج عن طريق المر ، فإن كتلة اللقاح تتلامس بالضرورة مع الميسم للزج وتلتصق به . ويتم تلقيح الزهرة ، ونحن نرى أخيراً بهذا الشكل، الاستخدام الكامل لكل جزء من أجزاء الزهرة ، وللقرون المفرزة للماء ، والدلو النصف مملوء بالماء ، الذى يمنع النحل من الطيران بعيداً ، ويضطره إلى الزحف إلى الخارج من خلال الميزاب ، وإلى الاحتكاك مع كتلة اللقاح الموضوعة فى المكان المناسب ومع الميسم للزج .

البناء الخاص للزهرة فى سحلبية أخرى ذات قرابة حميمة ، ألا وهى الكاتاسيتم أو ذات الأوراق الهللية الشكل^(١) ، مختلف إلى حد بعيد ، مع أنه يؤدي إلى نفس الغاية ، وعلى نفس الدرجة من الغرابة . والنحل يزور هذه الزهور ، مثل تلك الخاصة بالنورة الزهرية ، وذلك من أجل قرص " الشفة " ، وفى أثناء قيامه بهذا فإنه لايد أن يلمس نتوءاً طويلاً مستدق الطرف وحساساً ، أو كما أطلقت عليه " الزباني أو الهوائى "^(٢) . وعندما يلمس هذا الزباني فإنه ينقل شعوراً أو ذبذبة إلى غشاء معين الذى يتم تمزيقه على الفور ، وهذا يطلق سراح زنبك تنطلق بواسطته كتلة اللقاح إلى الأمام ، مثل السهم ، وفى الاتجاه الصحيح ، وتلتصق بواسطة أطرافها اللزجة بظهر النحلة . وبهذا الشكل يتم نقل كتلة اللقاح الخاصة بالنبات الذكر (وذلك لأن الشقين الجنسيين منفصلين فى هذا النوع من السحلبيات) ، إلى الزهرة الخاصة بالنبات الأنثى ويحدث هناك تلامس بينها وبين الميسم ، وهو لزج بدرجة كافية لى يقطع اتصال بعض الخيوط اللينة المعينة التى تحتجز اللقاح ، ويتم بذلك التلقيح .

Catasetum

(١) نبتة الكاتاسيتم = زهرة الراهب = ذات الأوراق الهللية الشكل *

Antenna

(٢) الزباني = الهوائى

وقد يثور تساؤل كيف يستطيع . في الأمثلة السابقة، والعدد الآخر الذي لا يحصى من الأمثلة ، أن نفهم المدى المتدرج للتكيف والوسائل المتنوعة المستخدمة للحصول على نفس الغاية أو النتيجة . وسأشارك فيما إن الإجابة ، كما سبق سردها بالفعل ، هي أنه عندما يتمايز أثنان من الأتكال ، التي تختلف بالفعل عن بعضها إلى درجة بسيطة ما ، فإن العلاقة المتمايز لن تتكرر بنفس الحارفة بالمصبط ، وبالتالي فإن النتائج التي سوف تكتسب من خلال الانتقاء الطبيعي من أجل نفس الغرض العام لن تكون متطابقة تماما . ويجب أيضا أن نضع نصب أعيننا أن كل كائن حي عالى التكوين قد مر خلال الكثير من التغيرات ، وأن كل تركيب معدل يميل إلى أن يكون موروثا ، وبهذا الشكل فإن كل تعديل لن يصبح بسهولة مفقوداً تماما ، ولكنه من المحتمل أن يستمر في التبدل مرارا وتكرارا . ومن ثم فإن التركيب الخاص بكل جزء جسدى موجود فى كل نوع حى، من أجل الاستخدام فى أى غرض من الأغراض ، ما هو إلا مجموع الكثير من التغيرات الموروثة ، التي قد مر بها النوع فى أثناء تكيفاته المتتالية على السلوكيات والظروف المتغيرة للحياة.

إذن فى النهاية ، فبالرغم من أنه من أصعب الأشياء فى الكثير من الحالات حتى مجرد التخمين فيما هى المراحل الانتقالية التي انتهت بالأعضاء إلى الوصول إلى حالتها الحالية ، إلا أنه مع الوضع فى الاعتبار مدى صغر نسبة الأشكال الحية والمعروفة إلى الأنواع التي قد اندثرت وغير المعروفة ، فإنى ما زلت مندهشا من مدى ندرة القدرة على تحديد أى عضو جسدى ، لا تقود إليه أى درجة انتقالية معروفة . ومن المؤكد صحة ، أن الأعضاء الجسدية الجديدة التي تظهر وكأنها قد خلقت لأحد الأغراض الخاصة ، من النادر أن تظهر أو قد لا تظهر على الإطلاق فى أى كائن - وذلك كالمشاهد فعلا عن طريق هذه الشريعة القديمة الموجودة فى التاريخ الطبيعى ، ولو أنه قد بولغ فيها بعض الشيء ، والتي تنص على أن " الطبيعة لا تنتج طفرة" (١) . ونحن نواجه هذا الاعتراف فى الكتابات الخاصة بمعظم علماء التاريخ الطبيعى تقريبا ، أو كما قد وضحه "ميلن إدواردز" Milne Edwards بشكل جيد ، فى مقولته بأن

"Nature non facet saltun"

(١) الطبيعة لا تنتج طفرة *

" الطبيعة سخية فى التنوع " ، ولكنها بخيلة فى الابتكار^(١) . وبناء على نظرية الخلق ، فلماذا يتحتم أن يكون هناك هذا الكم الكثير من التنوع وهذه الكمية الضئيلة من الأشياء الجديدة ؟ - ولماذا يتحتم على كل الأجزاء الجسدية والأعضاء الجسدية الخاصة بكثير من الكائنات المستقلة ، التى من المفروض أن كلا منها قد تم خلقه بشكل منفصل من أجل شغل مكانه الصحيح فى الطبيعة ، أن تكون مترابطة مع بعضها بهذا الشكل الشائع بواسطة خطوات متدرجة ؟ ولماذا لا يتحتم على الطبيعة ألا تأخذ قفزة مفاجئة من تركيب إلى تركيب ؟- وبناء على نظرية الانتقاء الطبيعى ، فإنه من الممكن لنا أن نفهم بوضوح لماذا لا يجب على الطبيعة فعل ذلك ، وذلك لأن الانتقاء الطبيعى يعمل فقط عن طريق انتهاز الفرصة الموجودة فى التمايزات البسيطة المتتابعة ، فالطبيعة لا تستطيع على الإطلاق أن تأخذ قفزة هائلة مفاجئة ، ولكن يتحتم عليها أن تتقدم بواسطة خطوات قصيرة وثابتة ، ولو أنها بطيئة .

الأعضاء الجسدية ذات الأهمية الواضحة الضئيلة

عندما تتأثر بالانتقاء الطبيعى

بما أن الانتقاء الطبيعى يعمل عن طريق الحياة والموت - وعن طريق البقاء للأصلح ، وعن طريق الإبادة للأفراد الأقل فى الصلاحية التامة - فقد شعرت فى بعض الأحيان بصعوبة كبيرة فى تفهم النشأة أو التكوين الخاص بالأجزاء القليلة الأهمية ، وكانت هذه الصعوبة التى واجهتها بنفس القدر من الضخامة تقريبا ، ولو أنها من نوع مختلف تماما ، مثل الموجودة فى حالة أكثر الأعضاء الجسدية اكتمالا وتعقيدا .

وفى المقام الأول ، فنحن فى حالة جهالة زائدة عن اللزوم فيما يتعلق بالنظام الكلى الخاص بأى كائن واحد من الكائنات العضوية ، تمنعنا من أن نقول ما التعديل

(١) الطبيعة سخية فى التنوع ، ولكنها بخيلة فى الابتكار *

" Nature is prodigal in variety, but niggard in innovation"

البسيط الذى قد يكون ذا أهمية أولا . وقد أعطيت أمثلة فى باب سابق عن صفات فى غاية التفاهة ، مثل الزغب الموجود على ثمرة واللون الخاص بلحمها ، ولون الجلد والشعر الخاص بالحيوانات الرباعية الأرجل ، وهى التى ، نتيجة لكونها متلازمة مع اختلافات جسمانية أو نتيجة للحد من هجمات الحشرات ، قد يتم التأثير عليها بالتاكيد عن طريق الانتقاء الطبيعى . فذيل الزرافة يشابه منشة الذباب المصنوعة بطريقة حرفية ، ويبدو لأول وهلة أنه شئ لا يصدق أن هذا الذيل من الممكن أن يكون قد تم تكييفه للغرض الذى يستخدم فيه حاليا عن طريق حدوث تعديلات بسيطة متعاقبة ، كل منها متكيفة بشكل أفضل فأفضل ، من أجل شئ على هذا القدر من التفاهة ، مثل إبعاد الذباب ، ومع ذلك فإننا يجب أن نتوقع لبرهة قبل أن نصبح فى منتهى التاكيد حتى فى مثل هذه الحالة ، وذلك لأننا نعلم أن الانتشار والتواجد للماشية والحيوانات الأخرى الموجودة فى أمريكا الجنوبية يعتمد بنحو جازم على قدراتها على مقاومة هجمات الحشرات ، إلى درجة أن الأفراد التى قد تستطيع بأى طريقة الدفاع عن أنفسها من هذه الأعداء الصغيرة ، سوف تكون قادرة على أن تألف فى مراع جديدة وهى تكتسب بهذا الشكل ميزة كبيرة . ولا يقتصر الأمر على أن الحيوانات رباعية الأرجل الكبرى تتعرض للهلاك الفعلى (فيما عدا بعض الحالات النادرة) عن طريق الذباب ، ولكنها تتعرض بشكل دائم للمضايقة مما يسبب الضعف فى قوتها ، إلى الحد الذى يجعلها أكثر عرضة للإصابة بالأمراض ، أو غير قادرة بشكل كاف للبحث عن الطعام فى حالة حدوث مجاعة ، أو الهرب من الوحوش المفترسة .

الأعضاء الجسدية ذات الأهمية التافهة حاليا من المحتمل أنها كانت فى بعض الحالات ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى أحد الأسلاف المبكرة ، وأنها بعد أن أصبحت مكتملة بشكل بطيء فى فترة سابقة ، فإنه قد تم انتقالها إلى الأنواع الموجودة وهى على نفس الحالة تقريبا ، وبالرغم من أنها حاليا ذات فائدة بسيطة ، ولكن حدوث أى انحرافات ضارة بالفعل فى تركيبها سوف يتم بطبيعة الحال التحكم فيه عن طريق الانتقاء الطبيعى . وبرؤية مدى أهمية الذيل كأحد الأعضاء الجسدية الخاصة بالحركة فى معظم الحيوانات المائية ، فإن أهمية وجوده العام واستخدامه فى العديد من الأغراض فى هذا العدد الكبير من الحيوانات التى تعيش على الأرض ، والتى يوجد فى

رثانها أو متاهاتها الهوائية المعدلة إفشاً ، لسر أصلها المائي ، قد يكون من المحتمل تفسيره بهذا الشكل ، والذبل الحسّن التركيبي عندما يتم تكويده في أحد الحيوانات المائية ، فإنه قد يتم استخدامه فيما بعد في أي عرض من الأغراض ، مثل مضرب دباب ، أو مضرب للإمسات ، أو كعضن مساعد في أثناء الالتفاف إلى الخلف ، كما في الحالة الخاصة بالكلب ، مع أن المساعدة في هذا الأمر الأخير من المتوقع أن تكون بسيطة للأرنب البري الذي ليس لديه تقريبا أي ذيل ، إلا أنه مارال قادراً على الارتداد السريع بشكل أكبر .

وفي المقام الثاني ، فقد نزلق إلى الخطأ بسهولة عندما نُرجع أهمية إلى بعض الصفات ، وعندما نُؤمن بأنها قد تكونت من خلال الانتقاء الطبيعي . ونحن يجب بأى حال من الأحوال ألا نغفل التأثيرات الناتجة عن المفعول المؤكد لظروف الحياة المتغيرة - والناتجة عما يطلق عليه التمايزات التلقائية^(١) ، والتي يبدو أنها تعتمد بدرجة ثانوية إلى حد بعيد على الطبيعة الخاصة بالظروف - والناتجة عن القابلية للارتداد إلى صفات قد تم فقدها منذ وقت طويل - والناتجة عن القوانين المعقدة الخاصة بالنمو ، مثل العلاقات المتبادلة ، والتعويض ، والخاصة بضغط أحد الأجزاء على عضو آخر ، وخلافه - وأخيراً الناتجة عن الانتقاء الجنسي ، والذي يتم بواسطته في كثير من الأحيان اكتساب الصفات المفيدة لأحد الشقين الجنسيين ، ثم انتقالها بشكل كامل تقريباً إلى الشق الجنسي الآخر ، مع أنها بلا فائدة لهذا الشق الجنسي . ولكن التراكيب التي تكتسب بهذا الشكل غير المباشر ، مع أنها قد تكون في أول الأمر غير ذات ميزة لأحد الأنواع ، إلا أنه من الممكن استغلالها فيما بعد بواسطة نزاريه المعدلة ، وتحت ظروف حياتية جديدة ، وسلوكيات حديثة الاكتساب .

لو كانت الطيور الناقرة للخشب ذات اللون الأخضر هي الوحيدة التي قد تواجدت ، ولم يصل إلى علمنا أن هناك الكثير من الأنواع السوداء والمتعددة الألوان^(٢) ، فإنني

Spontaneous variations

(١) التمايزات التلقائية

Pied kinds

(٢) أنواع متعددة الألوان

أتحدى بقولى بأنه قد كان من المؤكد لنا أن نظن أن اللون الأخضر كان تكيفا رائعا من أجل إخفاء هذا الطائر الذى يتردد على الأشجار من أعدائه ، وبالتالي فإن تلك كانت سوف تصبح صفة ذات أهمية ، وكانت سوف تتم حيازتها من خلال الانتقاء الطبيعي أما الواقع ، فإن اللون فى الغالب قد كان بشكل رئيسى نتيجة لانتقاء جنسى . وهناك نوع من النخيل الزاحف^(١) موجود فى أرخبيل المالايو وهو يتسلق أكثر الأشجار شموخا مستعينا بكلابات مشيدة بشكل متقن متجمعة حول أطراف فروع الشجرة ، ولا شك فى أن هذه الوسيلة من أكثر الوسائل خدمة للنبات ، ولكن بما أننا نرى كلابات مماثلة تقريبا على الكثير من الأشجار التى ليست متسلقة ، والتى بناء على وجود سبب للاعتقاد ، نتيجة للانتشار الموجود للأنواع الحاملة للأشواك فى أفريقيا و أمريكا الجنوبية ، فى أنها تستخدم كوسيلة دفاع مضادة للحيوانات الرباعية الأرجل الراعية عليها ، وبهذا الشكل فإن النتوءات المدببة الموجودة على النخل من الممكن أن تكون قد تكونت فى أول الأمر من أجل هذا الغرض ، ثم بعد ذلك تم تحسينها واستغلالها بواسطة النبات، وذلك من خلال الاستمرار فى التعديل ، إلى أن أصبح نباتا متسلقا . والجلد العارى الموجود على رأس النسر ، يعتبر فى العادة كوسيلة تكيف مباشرة من أجل الانغماس فى المواد العفنة ، وقد يكون الأمر كذلك ، أو من الممكن أنه قد يكون نتيجة للتأثير المباشر لهذه المواد العفنة ، ولكننا يجب أن نكون فى غاية الحذر عند استخلاص مثل هذا الاستنتاج ، عندما نرى أن الجلد الموجود على رأس ذكر الديك الرومى النظيف الماكل هو أيضا عار . والتركيبات الموجودة فى الجماجم الخاصة بالحيوانات الثديية اليافعة قد تم تقديمها كمثال على التكيف الرائع من أجل المساعدة فى الولادة^(٢) ، ولا شك فى أنها تساعد ، أو من الممكن ألا يكون هناك أى غناء عنها من أجل هذا العمل ، ولكن بما أن الدروز^(٣) موجودة فى الجماجم الخاصة بالطيور والزواحف اليافعة ، التى لا تتحتم عليها إلا أن تفلت إلى خارج بيضة مكسورة ، فمن

Trailing palm

Parturition

Sutures

(١) نخيل زاحف = متدلى = متهدل *

(٢) الولادة

(٣) الدروز (فى الجمجمة)

الممكن لنا أن نستنتج أن هذا التركيب قد انبثق من قوانين النمو ، وأنه قد تم استغلاله فى عملية الولادة الخاصة بالحيوانات العليا .

نحن فى حالة جهل فظيع عن السبب وراء كل تمايز بسيط أو اختلاف فردى ، ونحن نشعر بذلك فى الحال عندما نقلب الفكر فى الاختلافات الموجودة بين السلالات الخاصة بحيواناتنا المدجنة الموجودة فى البلاد المختلفة ، وبالأخص فى البلاد الأقل تحضرا التى لم يحدث بها إلا القليل من الانتقاء المنهجي . فإن الحيوانات التى يتم تربيتها بواسطة السكان البدائيين فى البلاد المختلفة يتحتم عليها فى كثير من الأحيان أن تكافح من أجل إعالة نفسها ، وهى معرضة إلى مدى معين للانتقاء الطبيعى ، والأفراد التى تتمتع ببنيات مختلفة بشكل بسيط سوف تنجح فى البقاء بشكل أفضل تحت تأثير الأجواء المختلفة . وفيما يتعلق بالماشية فإن القابلية للتعرض لهجمات الحشرات مترابطة مع اللون ، وكذلك الحال مع العرصة للتسمم بواسطة نباتات معينة ، وبهذا الشكل فحتى اللون سوف يكون خاضعا إلى التأثير الخاص بالانتقاء الطبيعى . وبعض المراقبين مقتنعون بأن المناخ الرطب يؤثر على نمو الشعر ، وبأن الشعر على علاقة متلازمة مع القرون . والسلالات الجبلية تختلف دائما عن السلالات التى تعيش فى الأراضى المنخفضة ، ومن المحتمل أن الموطن الجبلى قد يكون له تأثير على الأطراف الخلفية نتيجة لاستخدامها بشكل أكثر ، وهذا التأثير قد يمتد حتى إلى هيئة عظام الحوض ، وبعد ذلك وبتطبيق القانون الخاص بالتمايز المتماثل^(١) ، فإن الأطراف الأمامية والرأس سوف تتأثر فى الغالب . وأيضا فإن هيئة عظام الحوض قد تؤثر بواسطة الضغط على هيئة أجزاء معينة فى الطفل الذى بداخل الرحم . ولدينا سبب قوى للاعتقاد بأن التنفس الجاهد الضرورى فى المناطق المرتفعة ، يميل إلى زيادة الحجم الخاص بالصدر ، ومرة أخرى فإن التلازم قد يكون له دور فى هذا . والتأثيرات الناتجة عن الإقلال فى المجهود علاوة على الوفرة فى الطعام على مجمل عملية التعضية مازال فى الغالب هو الأكثر أهمية ، وكما بين مؤخرا " هـ . فون ناثوسوس " H. Von Nathusius فى رسالته الممتازة ، فمن الواضح أن هذا هو أحد الأسباب

الرئيسية للتعديل الهائل الذى قد مرت به سلالات الخنازير . ولكننا على درجة كبيرة من الجهل لكى نقوم بالتخمين عن الأهمية النسبية الخاصة بالكثير من الأسباب المعروفة وغير المعروفة للتمايز ، وأنا قد قمت بتقديم هذه الملاحظات لكى أبين فقط أننا إذا كنا غير قادرين على أن نجد تفسيراً للاختلافات المميزة الموجودة بين سلالاتنا الداجنة العديدة ، والتي بالرغم من ذلك قد تم الاعتراف بأنها قد نشأت على وجه العموم من خلال النشوء العادى من واحد أو من القليل من الأصول الأبوية ، فإننا يجب علينا ألا نضع أهمية أكثر من اللزوم على عدم معرفتنا بالسبب المحدد للاختلافات المتناظرة البسيطة الموجودة بين الأنواع الأصلية .

مذهب المنفعة^(١) ، ومدى صدقه : الجمال ، وكيفية اكتسابه

الملاحظات السابقة تقودنى إلى أن أقول بضع كلمات على الاعتراض الذى قام أخيراً بواسطة بعض علماء التاريخ الطبيعى ، ضد مذهب المنفعة القائل بأن كل نقطة تفصيلية موجودة فى التركيب قد تم إنتاجها من أجل المنفعة الخاصة بالحائز عليها . فإنهم يؤمنون بأن العديد من التراكيب قد تم خلقها من أجل الشكل الجمالى ، وذلك لإبهاج الإنسان أو لإبهاج الخالق (ولكن هذه النقطة الأخيرة تتعدى مدى المناقشة العلمية) ، أو من أجل مجرد التنوع ، وهو منظور قد تمت مناقشته بالفعل . ومثل هذه المذاهب لو كانت صحيحة لأصبحت أشياء قاتلة تماماً لنظريتى . وأنا أعترف بشكل كامل بأن العديد من التراكيب حالياً غير ذات فائدة مباشرة للحائزين عليها، ومن المحتمل أنه لم يكن لها أى فائدة على الإطلاق لأسلافهم ، ولكن هذا لا يثبت أنها قد تكونت كلية من أجل الشكل الجمالى والتنوع . ولا شك فى أن التأثير المباشر للظروف المتغيرة ، والأسباب المختلفة للتعديلات ، التى قد حددتها مؤخرًا ، قد أحدثت كلها تأثيرًا ، ومن المحتمل أنه تأثير هائل ، غير متعلق بأى ميزة قد تم اكتسابها بهذا الشكل . ولكن هناك اعتبارًا آخر أكثر أهمية ألا وهو أن الجزء الرئيسى فى التعضية الخاصة

بكل كائن حي هو نتيجة للوراثة ، وبالتالي ، فمع أن كل كائن هو بالتأكيد معد من أجل موضعه فى الطبيعة ، فإن العديد من التراكيب ليس لديها حاليا أى علاقة حميمة أو مباشرة بالسلوكيات الحالية للحياة . وبهذا الشكل ، فمن الصعب أن نستطيع تصديق أن الأقدام المغشاة الخاصة بالأوزة التى تعيش فى الأرض المرتفعة أو الخاصة بطائر الفرقاط ، هى ذات فائدة خاصة لهذه الطيور ، ونحن لا نستطيع أن نصدق أن العظام المتماثلة الموجودة فى الذراع الخاص بالقرد ، وفى الرجل الأمامية الخاصة بالحصان ، وفى الجناح الخاص بالخفاش ، وفى الزعنفة الخاصة بالفقمة ، هى ذات فائدة خاصة لهذه الحيوانات . ومن الممكن أن نُرجع بأمان هذه التراكيب إلى الوراثة . ولكن لا شك فى أن الأقدام المغشاة كانت على مثل الدرجة من الفائدة إلى السلف الأبوى الخاص بالأوز الذى يعيش فى الأرض المرتفعة والخاص بطائر الفرقاط ، كما هى الآن فى أكثر الطيور الحية ارتيادا للماء . وبهذا الشكل فإننا من الممكن أن نؤمن بأن الأصل الأبوى الخاص بالفقمة لم يكن يحوز زعنفة ، ولكن حاز قدما بها خمسة من أصابع الأقدام معدة من أجل السير أو القبض ، ولكننا من الممكن أيضا أن نجازف بالاعتقاد فى أن العظام الكثيرة المختلفة الموجودة فى الأطراف الخاصة بالقرد ، والحصان ، والخفاش ، قد تكونت فى الأصل ، اتبعا لمبدأ المنفعة ، غالبا من خلال الإقلال من عظام أكثر فى العدد كانت موجودة فى الزعنفة الخاصة بالأصل الأبوى القديم المشابه للسماك الخاص بكل طائفة . ومن النادر أن نستطيع أن نقرر مدى التجاوز المسموح به لمثل هذه الأسباب المسئولة عن التغيير ، مثل المفعول المؤكد للظروف الخارجية ، وما يسمى بالتمايزات التلقائية ، والقوانين المعقدة الخاصة بالنمو ، ولكن مع وجود هذه الاستثناءات المهمة ، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن التركيب الخاص بكل كائن حي ، سواء حاليا ، أو كان فى الماضى ، هو ذو بعض من الفائدة المباشرة أو غير المباشرة للحائز عليه .

أما فيما يتعلق بالإيمان بأن الكائنات المتعضية قد تم خلقها بشكل جميل من أجل إبهاج الإنسان - وهو إيمان قد تم إعلانه على أساس أنه مدمر لمجمل نظريتي - فإننى من الممكن أن أعلق أولا على أنه من الواضح أن الإحساس بالجمال يعتمد على الطبيعة الخاصة بالعقل ، بغض النظر عن أى جودة حقيقية موجودة فى الشيء المثير للإعجاب ، وأن الفكرة المتكونة عما هو جميل ، ليست شيئا غريبا أو غير قابلة للتعديل . وعلى

سبيل المثال ، فنحن نرى هذا فى الرجال التابعين لأجناس مختلفة الذين يعجبون بمقاييس مختلفة تماما للجمال الموجود فى نسانهم . وإذا كانت الأشياء الجميلة قد تم خلقها مجرد مرضاة الإنسان ، فإنه يتحتم إظهار أنه قبل ظهور الإنسان ، فقد كان يوجد جمال أقل على سطح الأرض من الموجود منذ أن تم ظهوره على خشبة المسرح . وهل كان الطزون البحرى^(١) ، والأصداف المخروطية^(٢) الجميلة الخاصة بعصر الأيوسين^(٣) ، والأصداف الأمونية^(٤) الملتفة المتحجرة المنحوتة بشكل حملى فى مستحاثات العصر الجيولوجى الثانى^(٥) ، مخلوقة من أجل أن الإنسان قد يعجب بها ، فى عصور قادمة وهى بداخل خزانة العرض الخاصة بها ؟ فإن هناك أشياء قليلة أكثر جمالا من العلب السليكونية^(٦) الدقيقة الخاصة بالدياتوميات^(٧) ، فهل كانت هذه مخلوقة من أجل أنه قد يتم فحصها والإعجاب بها تحت قدرات التكبير الكبرى الخاصة بالمجهر ؟ - فإن الجمال الموجود فى الحالة الأخيرة ، وفى الحالات العديدة الأخرى ، يبدو أنه فى مجموعته نتيجة للتناسق فى النمو . والزهور تصنف من ضمن أكثر منتجات الطبيعة جمالا ، ولكنها قد جعلت ملفتة للأنظار بالتغاير مع أوراق الشجر الخضراء ، وهى بالتالى تبدو جميلة فى نفس الوقت ، وذلك قد يكون من أجل أن تصبح سهلة الملاحظة بواسطة الحشرات . وأنا قد توصلت إلى هذا الاستنتاج نتيجة لأننى قد وجدت أنها قاعدة ثابتة ، أنه عندما يكون تلقيح الزهرة عملية تتم بواسطة الريح ، فإنها لا يمكن أبدا أن يكون لديها تويج^(٨) ذو ألوان زاهية - والكثير من النبات المختلف ينتج بشكل معتاد صنفين من الزهور ، أحد الصنفين مفتوح وملون وذلك لكى

Volute	(١) حلزون بحرى
Cone shells	(٢) الأصداف المخروطية *
Eocene epoch	(٣) عصر الأيوسين
Ammonites	(٤) الأمونيات : أصداف متحجرة ملتفة لبعض الرخويات المنقرضة
Secondary period	(٥) العصر الجيولوجى الثانى *
Siliceous cases	(٦) العلب
Diatomaceae	(٧) الدياتوميات = ثنائيات الجزء *
Corolla	(٨) التويج : الغلاف الداخلى المحيط بالأسدية والمدقة

يجذب نظر الحشرات ، والصنف الآخر مغلق ، وغير ملون ، وخال من الرحيق ، ولا تزوره الحشرات على الإطلاق . ومن ثم فإنه من الممكن لنا أن نستنتج ، أنه إذا ما لم تكن الحشرات قد تم تكوينها على سطح الأرض ، فإن نباتاتنا من الممكن لنا أن نستنتج أنها ما كانت سوف تصبح محملة بالأزهار الجميلة ، ولكنها كانت سوف تنتج مثل هذه الأزهار الفقيرة فقط التي نراها على أشجار التنوب^(١) والبلوط^(٢) والجوز^(٣) والدردار^(٤) ، وعلى النجيلات^(٥) ، والسبانخ^(٦) ، والحماض^(٧) ، والقراص^(٨) ، التي تتلقح جميعها عن طريق المساعدة من الريح . ويوجد خط مماثل فى الموضوع ثبتت صحته مع الثمار ، وهو أن ثمار الفريز^(٩) والكرز^(١٠) الناضجة باعثة للسرور بنفس القدر للعين وللحنك - وأن الثمار ذات الألوان المرحة الخاصة بشجرة خشب المغزل^(١١) ، والثمار القرمزية الخاصة بنبات البهشية^(١٢) هى أشياء جميلة - وأن هذا سوف يتم الاعتراف به بواسطة الجميع . ولكن هذا الجمال سوف يتم استخدامه فقط كدليل لطيور والهوام ، من أجل احتمال التهام الثمرة وانتشار البذور الناضجة : وأنا أستنتج أن هذه هى الحقيقة ، وذلك نتيجة لعدم عثورى إلى الآن على أى استثناء من القاعدة التى تنص على أن البذور تنتشر بهذا الشكل دائما عندما تكون مدفونة بداخل ثمرة من

Fir tree	(١) شجرة التنوب
Oak tree	(٢) شجرة البلوط = السنديان
Nut tree	(٣) شجرة الجوز
Ash tree	(٤) شجرة الدردار = الغبيراء البرية
grasses	(٥) النجيلات
Spinuch	(٦) السبانخ = الإسفاناخ = الاسبانخ
Dock	(٧) الحماض
Nettle	(٨) القراص = الحُرْف
Strawberry	(٩) الفريز = الفراولة = شليك
Cherry	(١٠) الكرز = الكريز
Spindle -Wood tree	(١١) شجرة خشب المغزل *
Holly	(١٢) نبات البهشية = الإيلكس

أى نوع (وهذا يعنى بداخل غلاف لحمى أو لبي) ، إذا كانت ملونة بأى مسحة من اللون المشرق ، أو جعلت واضحة للعين لاتخاذها اللون الأبيض أو الأسود .

وعلى الجانب الآخر فأنا أعترف عن طيب خاطر بأن عددا هائلا من ذكور الحيوانات ، وكذلك جميع طيورنا الفائقة الجمال ، وبعض الأسماك والزواحف والحيوانات الثديية ، وحشد من الفراشات الرائعة الألوان ، قد صارت جميلة وذلك من أجل الجمال ذاته ، ولكن هذا قد تم حدوثه من خلال الانتقاء الجنسى ، وهذا يعنى ، عن طريق التفضيل المستمر من الإناث لأكثر الذكور جمالا ، وليس من أجل إمتاع الإنسان . وهذا هو الحال مع الموسيقى الخاصة بالطيور . ونحن من الممكن أن نستنتج من كل هذا أن هناك تنوعا مماثلا تقريبا للألوان الجميلة وللأصوات الموسيقية يجرى فى خلال جزء كبير من المملكة الحيوانية . وعندما تكون الإنثى ملونة بشكل جميل مثل الذكر ، وهو أمر ليس نادرا مع الطيور والفراشات ، فيبدو أن السبب يكمن فى أن الألوان التى قد اكتسبت من خلال الانتقاء الجنسى قد تم انتقالها إلى كل من الشقين الجنسيين ، بدلا من انتقالها إلى الذكور فقط ، أما كيف تكون لأول مرة الإحساس بالجمال فى أبسط صورة - وهذا يعنى الاستقبال لنوع غريب من السرور نتيجة لألوان وأشكال وأصوات معينة - فى عقل الإنسان والحيوانات الدنيا ، فإنه موضوع مستغلق جدا . ونفس النوع من الصعوبة موجود ، إذا ما تساءلنا عن كيف يتأتى لبعض المذاقات والروائح المعينة أن تمنح السرور ، والأخرى قد تدفع إلى الاستياء . ويبدو فى جميع هذه الحالات أن الاعتياد قد كان له دور إلى حد ما ، ولكن لا بد أن يكون هناك سبب جوهري فى التكوين الخاص بالجهاز العصبى الموجود فى كل نوع .

الانتقاء الطبيعى لا يستطيع إطلاقا أن ينتج أى تعديل فى نوع من أجل المصلحة المقصورة على نوع آخر ، مع أنه يوجد فى أرجاء الطبيعة نوع ما يستغل ويستفيد على نحو متواصل من التراكيب الخاصة بالآخرين . ولكن الانتقاء الطبيعى يستطيع ، وهو بالفعل ينتج أحيانا تراكيب من أجل الإضرار المباشر لحيوانات أخرى ، وذلك كما نراه

فى الناب^(١) الخاص بالأفعى^(٢) ، وفى جهاز وضع البيض^(٣) الخاص بحشرة البمبلا^(٤) ، والذى يتم وضع البيض بواسطته فى الأجساد الحية الخاصة بالحشرات الأخرى . وإذا كان من الممكن إثبات أن أى جزء خاص بالتركيب الخاص بأى نوع واحد قد تم تكوينه من أجل الفائدة المقصورة على نوع آخر ، فإن هذا من شأنه أن يمحى نظريتي ، لأن مثل هذا الشيء لا يمكن أن يتم إنتاجه من خلال الانتقاء الطبيعى . وبالرغم من أنه من الممكن العثور على العديد من التصريجات فى الأبحاث التى قد أجريت فى مجال التاريخ الطبيعى التى قد تودى إلى هذا الانطباع ، إلا أننى لا أستطيع أن أعتز حتى ولو على واحد منها قد يبدو لى أنه ذو وزن ، ومن المعترف به أن الحية ذات الأجراس^(٥) لديها ناب سام من أجل الدفاع عن نفسها ، ومن أجل القضاء على فريستها ، ولكن بعض الباحثين يفترضون أنها فى نفس الوقت مزودة بعضو يحدث الصلصلة من أجل الإضرار بنفسها ، أى لتحذير فريستها . وبهذا الشكل فإننى قد أوّمن على الفور بأن القطة تعقص الطرف الخاص بذيلها عندما تستعد للقفز ، وذلك من أجل تحذير الفأر المحكوم عليه بالهلاك . والمنظور الأكبر احتمالاً بكثير هو أن الحية ذات الأجراس تستخدم صلصتها ، وأن أفعى الكوبرا^(٦) تنشر أهدابها^(٧) ، وأن الأفعى الناقثة^(٨) تنتفخ بينما هى تهسهس بصوت عالٍ وأجش ، وذلك من أجل إنذار الطيور والهوام العديدة المعروف عنها أنها تهاجم حتى أكثر الأنواع سمية . والشعابين تعمل على نفس المبدأ الذى يجعل الدجاجة تنفث ريشتها وتبسط أجنحتها عندما يقترب أحد الكلاب من أفراخها ، ولكن ليس لدى مساحة هنا لى أتوسع فى الطرق العديدة التى تلجأ إليها الحيوانات من أجل إخافة وإبعاد أعدائها .

Fang	(١) ناب
Adder	(٢) أفعى = وصل
Ovipositor	(٣) جهاز وضع البيض *
Ichneumon	(٤) حشرة البمبلا
Rattle Snake	(٥) الحية ذات الأجراس = المجلجلة = المصلصلة
Cobra	(٦) أفعى الكوبرا = الصل = الناشر
Frills	(٧) أهداب = أنسجة حول العنق *
Puff-adder	(٨) الأفعى الناقثة = الأفعى الناقمة = الأريد *

الانتقاء الطبيعي لن ينتج إطلاقاً في كائن ما أى تركيب أكثر ضرراً من منفعته لهذا الكائن ، وذلك لأن الانتقاء الطبيعي يعمل فقط بواسطة ومن أجل كل كائن . ولن يتم تكوين عضو جسدى ، كما علق "بالي" Paley ، بغرض إحداث ألم أو لعمل شئٍ مضر لحائزّه . وإذا كان من الممكن تحقيق موازنة بين الخير والشر الناتجين عن كل جزء ، فسوف نجد أن كلا منهما فى المجموع هو مفيد . وبعد مرور الوقت ، وتحت تأثير الظروف المتغيرة للحياة ، فإذا وصل أى جزء إلى حد أن يكون ضاراً ، فسوف يتم تعديله ، وإذا لم يحدث ذلك ، فإن الكائن سوف يصبح مندثراً كما اندثرت عشرات الألوف^(١) من الكائنات .

الانتقاء الطبيعي يميل فقط إلى أن يجعل كل كائن متعضياً على نفس الدرجة من الكمال ، أو على درجة من الكمال أعلى بشكل بسيط ، عن الكائنات القاطنة الأخرى فى نفس القطر الذين يحدث بينه وبينهما منافسة . ونحن نرى أن هذا هو المستوى الخاص بالكمال الذى يتحقق تحت تأثير الطبيعة . والمنتجات المحلية الخاصة بنيوزيلاندا مثلاً ، بالغة حد الكمال عندما مقارنة واحدة بأخرى ، ولكنها تستسلم سريعاً أمام الحشود المتقدمة من النباتات والحيوانات التى تم إدخالها من أوروبا . والانتقاء الطبيعي لن ينتج اكتمالاً مطلقاً ، ولا نحن نتقابل دائماً بقدر استطاعتنا على التقدير ، مع هذا المستوى العالى تحت تأثير الطبيعة . وقد قال "مولر" إن التعديل الخاص بالزيغ الضوئى لن يكون مكتملاً حتى فى أكثر الأعضاء الجسدية اكتمالاً ، ألا وهو العين الإنسانية . ويضيف "هيلمهولتز" Helmholtz ، الذى لا يشك أحد فى قدرته على الحكم على الأشياء ، ذلك بعد وصفه بأقوى التعبيرات للقدرات المدهشة للعين الإنسانية ، هذه الكلمات الجديرة بالاعتبار " إن كل ما اكتشفناه فيما يتعلق بعدم الدقة وعدم الاكتمال الموجودين فى الآلة البصرية وفى الصورة المتكونة على الشبكية ، هو لا يمثل شيئاً بالمقارنة مع التعارضات التى تقابلنا حالياً فى المجال الخاص بالإحساسات . والإنسان منا قد يقول إن الطبيعة قد استمدت السرور من تكديس المتناقضات وذلك لكى تزيل جميع الأسس المبنى عليها النظرية الخاصة بوجود انسجام سابق بين العوالم

الخارجية والداخلية". وإذا قادنا تفكيرنا إلى الإعجاب بحماس بعدد وافر من الوسائل الفريدة الموجودة فى الطبيعة ، فإن نفس السبب يقول لنا ، إنه بالرغم من أننا قد نرتكب بسهولة خطأ على كل من الجانبين ، بالظن بأن بعض الوسائل الأخرى أقل اكتمالا . وهل من الممكن لنا أن نعتبر أن الحمة^(١) الخاصة بالنحلة يمثل هذا الكمال ، وهى التى ، عندما تستخدم ضد العديد من أصناف الأعداء ، لا يمكن أن تسحب ، وذلك نتيجة لوجود الشرشرات المتجهة للخلف ، وبالتالى فلا بد من أن يؤدى ذلك إلى الموت للحشرة عن طريق انتزاع أحشائها ؟

وإذا نظرنا إلى الحمة الخاصة بالنحلة ، على أساس أنها قد كانت موجودة لدى أحد الأسلاف البعيدة ، كأداة ثابتة ومشرشرة ، مثل تلك الموجودة لدى العديد من الأعضاء التابعين لنفس هذه الرتبة الكبيرة ، وأنه قد تم تعديلها منذ ذلك الحين ، ولكنها لم تصل إلى حد الكمال من أجل الغرض الذى تستخدم فيه حاليا ، ومع وجود السم الذى قد تم إعداده فى الأصل من أجل غرض آخر، كإنتاج العفصات مثلا ، ثم زاد فى القوة منذ ذلك الحين ، فربما نستطيع أن نفهم كيف أن استخدام الحمة من شأنه فى كثير من الأحيان أن يسبب الموت للحشرة نفسها : لأنه فى مجمل الأمر، إذا كانت القدرة على اللدغ قد أصبحت مفيدة للمجموعة الاجتماعية ، فإنها سوف تستوفى جميع المتطلبات الخاصة بالانتقاء الطبيعى ، بالرغم من أنها قد تسبب الموت للبعض القليل من الأفراد. وإذا أعجبنا بالقدرة المدهشة حقا للرائحة التى تستطيع بواسطتها الذكور التابعة للعديد من الحشرات أن تجد إناثها ، فإننا نستطيع أن نعجب بالإنتاج المخصص لهذا الغرض الوحيد والخاص بالألوف من ذكور النحل ، والتى هى بدون فائدة على الإطلاق للجماعة من أجل أى غرض آخر ، ويتم قتلها فى نهاية الأمر بواسطة أخواتها الكادحة والعقيمة ؟ - وقد يكون هذا صعبا ، ولكنه يتأتى علينا أن نعجب بالكراهية الغريزية المتوحشة الخاصة بملكة النحل ، والتى تدفعها إلى إهلاك الملكات اليافعات ، وهى بناتها ، بمجرد ولادتها ، أو لكى تهلك هى نفسها فى المعركة ،

Sting (of bee)

(١) الحمة = الإبرة = الزباني

لأن هذا بدون شك من أجل الصالح للجماعة ، والحب الأمومي^(١) أو الكراهية الأمومية ، بالرغم من أن الأخير لحسن الحظ هو الأكثر ندرة ، يتساوى كله أمام مبدأ الانتقاء الطبيعي الذي لا رحمة لديه . وإذا أعجبنا بالوسائل العبقورية العديدة المختلفة ، التي تستطيع السحلبيات والعديد من النباتات الأخرى بواسطتها أن تتلقح عن طريق مساعدة الحشرات ، فهل نستطيع أن نعتبره كشيء على نفس الدرجة من الكمال ، هذا الاتفاق في صنع الحشود الكثيفة من اللقاح بواسطة شجر التنوب الإنجليزي ، وذلك من أجل أن بعض الحبيبات القليلة قد تندفع بالمصادفة على البذيرات^(٢)؟

ملخص

القانون الخاص بوحدة النمط^(٣) والخاص بالظروف الخاصة بالبقاء في رحاب^(٤) نظرية الانتقاء الطبيعي

نحن قد تناولنا في هذا الباب بعضا من الصعوبات والاعتراضات التي من الممكن أن تثار ضد النظرية . والعديد منها خطير ، ولكني أظن أنه في سياق المناقشة فإن الضوء قد ألقى على الكثير من الحقائق المختلفة ، التي بناء على الإيمان بالأعمال المستقلة للخلق تصبح مستقلة تماما . وقد رأينا أن الأنواع الحية عند أى فترة زمنية واحدة ليست قابلة للتمايز بلا حدود ، وأنها ليست مترابطة مع بعضها بواسطة عدد وافر من التدرجات المتوسطة ، وذلك جزئيا لأن عملية الانتقاء الطبيعي دائما بطئية جدا ، وهى عند أى وقت محدد تؤثر فقط على أشكال قليلة ، وجزئيا لأن نفس عملية الانتقاء الطبيعي تقتضى الإحلال والانقراض المستمر للتدرجات السابقة والمتوسطة . والأنواع ذات القرابة الحميمة ، التي تعيش حاليا على رقعة أرض متصلة ،

Maternal

Ovules

type

Embraced by

(١) أمومى *

(٢) بذيرات

(٣) نمط = طراز

(٤) فى رحاب *

من المحتم غالبا أنه قد تم تكوينها عندما كانت هذه الرقعة من الأرض غير متصلة ، وعندما لم تكن ظروف الحياة تتدرج بشكل حاد من أحد الأجزاء إلى الجزء الآخر . وعندما يتكون اثنان من الضروب في اثنين من المناطق التابعة لرقعة متصلة من الأرض ، فغالبا ما سوف يتكون ضرب متوسط ، معدل من أجل منطقة متوسطة ، ولكن بناء على أسباب موضحة ، فإن هذا الضرب المتوسط سوف يتواجد في العادة بأعداد أقل عن الشكليين اللذين يربط بينهما ، وبالتالي فإن الشكليين الأخيرين ، من خلال عملية استمرار التعديل ، وبناء على التواجد بأعداد أكبر ، سوف يكون ليهما ميزة كبيرة على الضرب المتوسط الأقل تعدادا ، وبالتالي سوف ينجحان في العادة في الطول محل وفي الإبادة للضرب المتوسط.

وقد رأينا في هذا الباب كيف يجب أن نكون حذرين في استنتاج أن أكثر السلوكيات الخاصة بالحياة اختلافا لا يمكن أن تتدرج إلى بعضها الآخر ، وأن الخفاش مثلا ، لا يمكن أن يكون قد تم تكوينه عن طريق الانتقاء الطبيعي من حيوان ما انزلق فقط في أول الأمر من خلال الهواء .

وقد رأينا أن نوعا ما تحت تأثير ظروف حياتيه جديدة قد يغير من سلوكياته ، أو قد تكون لديه سلوكيات متنوعة ، البعض منها مختلف تماما عن السلوكيات الخاصة بأقرب الأنواع المشاكلة^(١) له . ومن ثم فإننا نستطيع أن نفهم ، واضعين نصب أعيننا أن كل كائن عضوى يحاول أن يعيش في أى مكان يستطيع أن يعيش فيه ، كيف ظهر إلى الوجود أوز ذو أقدام مغطاة يعيش على الأراضي المرتفعة ، وطيور ناقرة للخشب تعيش على الأرض ، وطيور دج غواصة في الماء ، وطيور نوء بالسلوكيات الخاصة بطيور الأوك .

بالرغم من أن الاعتقاد في أن عضوا جسديا مثاليا جدا مثل العين يكون قد تم تكوينه عن طريق الانتقاء الطبيعي ، هو كاف لإفقاد توازن أى إنسان ، إلا أنه في حالة أى عضو جسدى ، إذا كان لدينا علم بوجود سلسلة طويلة من التدرجات في التعقيد ، كل منها مفيد لحائزها ، حينئذ وتحت تأثير ظروف الحياة المتغيرة ، فليس هناك أى

استبحالة منطقية فى اكتساب العضو الجسدى لأى درجة قابلة للتصور من الاكتمال ، من خلال الانتقاء الطبيعى . وفى الحالات التى لا نعلم أنه يوجد بها أى مراحل متوسطة أو انتقالية ، فإننا يجب أن نكون فى غاية الحذر فى استنتاج أن أيا منها لم يكن موجودا ، وذلك لأن عملية التحور الخاصة بالعديد من الأعضاء الجسدية تبين ما التغييرات المدهشة فى الوظيفة التى هى على الأقل ممكنة . وعلى سبيل المثال ، فإنه يبدو أن مئانة هوائية قد تم تحويلها إلى رئة تتنفس الهواء . وأن نفس العضو الجسدى قد يقوم بأداء وظائف مختلفة عن بعضها جدا فى نفس الوقت ، ثم بعد ذلك يكون جزئيا أو كليا متخصصا فى وظيفة واحدة ، وعضوان متباينان من الأعضاء الجسدية قد يقومان بنفس الوظيفة فى نفس الوقت ، والعضو الذى يتم اكتماله أثناء تلقيه المساعدة من الآخر ، من شأنه فى معظم الأحيان أن يتمتع بتسهيلات كبيرة فى العمليات الانتقالية التى يمر بها .

عندما نرى فى اثنين من الكائنات المتباعدة عن بعضها الآخر فى الميزان الطبيعى ، أعضاء جسدية تستخدم فى نفس الغرض ومتماثلة جدا فى المظهر الخارجى ، فإننا من الممكن أن تكون قد تكونت بشكل منفصل ومستقل عن بعضها ، ولكن عندما تخضع مثل هذه الأعضاء الجسدية للفحص الدقيق ، فمن المؤكد فى كل الحالات تقريبا اكتشاف اختلافات جوهرية فى تركيبها ، وهذا بالطبع تابع لمبدأ الانتقاء الطبيعى . وعلى الجانب الآخر ، فإن القاعدة العامة فى جميع أرجاء الطبيعة هى التنوع فى التركيب للحصول على نفس النتيجة ، وهذا أيضا من الطبيعى أنه تابع من نفس هذا المبدأ العظيم .

فى العديد من الحالات نحن فى حالة من الجهالة الشديدة لا تمكننا من التأكد من أن أحد الأجزاء أو الأعضاء الجسدية غير مهم بهذا الشكل فيما يتعلق بمصلحة أحد الأنواع ، إلى حد أن التعديل الموجود فى تركيبه لا يمكن أن يكون قد تجمع بشكل بطىء عن طريق الانتقاء الطبيعى . وفى حالات عديدة أخرى ، فإنه من المحتمل أن تكون التعديلات نتيجة مباشرة لقوانين التمايز أو قوانين النمو ، بغض النظر عن أى جدوى قد تكتسب بهذا الشكل . ولكننا قد نشعر بالتأكيد ، أنه أيضا قد تم استغلالها فى كثير من الأحوال فيما بعد ، وذلك لما فيه مصلحة النوع تحت تأثير ظروف حياة

جديدة . ومن المحتمل أيضا أن نؤمن بأن أحد الأجزاء الذى قد كان ذا أهمية كبيرة قد تم الإبقاء عليه فى حالات متكررة (مثل الإبقاء على الذيل الخاص بحيوان مائى بواسطة ذراريه الأرضية)، مع أنه قد أصبح ذا أهمية صغيرة إلى حد أنه لا يمكن ، فى حالته الحاضرة ، أن يكون قد تم اكتسابه بواسطة الانتقاء الطبيعى .

ولا يمكن للانتقاء الطبيعى أن ينتج فى واحد من الأنواع أى شىء مقصور على المصلحة أو الإضرار بنوع آخر ، مع أنه من الممكن جدا أن ينتج أجزاء و أعضاء جسدية و إفرازات مفيدة بشكل كبير أو حتى لا غنى عنها ، أو قد تكون أيضا مضررة بشكل كبير لنوع آخر ، ولكنها فى جميع الحالات مفيدة فى نفس الوقت لحائزها . وفى كل قطر حاشد بشكل جيد ، فإن الانتقاء الطبيعى يعمل من خلال التنافس بين الكائنات القاطنة ، وهذا بالتالى يؤدي إلى قصر النجاح فى معركة الحياة طبقا للمستوى المطلوب الخاص بهذا القطر بعينه ، ومن ثم فإن الكائنات القاطنة فى واحد من الأقطار ، وعادة ما يكون هو القطر الأصغر ، تخضع فى كثير من الأحوال إلى الكائنات القاطنة فى قطر آخر وعادة ما يكون القطر الأكبر . وذلك لأنه فى القطر الأكبر سوف يكون هناك عدد أكبر من الأفراد وعدد أكثر من الأشكال المتنوعة ، وسوف تكون المنافسة على أشدها، وبهذا الشكل فإن مستوى حد الكمال سوف يصبح أكثر ارتفاعا . لن يكون من الضرورى للانتقاء الطبيعى أن يؤدي إلى حد الكمال المطلق ، ولا يمكن حسب قدرتنا على الحكم على الأشياء بواسطة قدراتنا المحددة ، التنبؤ فى كل مكان بالكمال المطلق .

وبناء على نظرية الانتقاء الطبيعى فنحن نستطيع أن نفهم بوضوح المعنى الكامل الخاص بهذه الشريعة القديمة الموجودة فى التاريخ الطبيعى " الطبيعة لا تنتج طفرة" . وإذا نظرنا إلى الكائنات القاطنة الحاليه فقط لهذا العالم ، سنجد أن هذه الشريعة ليست صحيحة تماما ، ولكن عندما نجمل فى الموضوع جميع الكائنات التابعة للعصور القديمة ، سواء كانت معروفة أو غير معروفة ، فإن الأمر يجب أن يكون بناء على هذه النظرية صحيح تماما .

ومن المعترف به عامة أن جميع الكائنات العضوية قد تم تكوينها بناء على اثنين من القوانين العظيمة هما : وحدة النمط^(١) ، وظروف البقاء . والمعنى بوحدة النمط هو ذلك التوافق الجوهرى فى التركيب الذى نراه فى الكائنات العضوية التابعة لنفس الطائفة ، والذى هو مستقل تماما عن سلوكياتهما فى الحياة . وبناء على نظريتي ، فإن وحدة النمط تفسر بوحدة النشأة . أما التعبير الخاص بظروف البقاء ، الذى كثيرا ما يصير عليه العالم الشهير "كوفير" Cuvier ، هو مطوق بالكامل بواسطة المبدأ الخاص بالانتقاء الطبيعى . وذلك لأن الانتقاء الطبيعى يعمل إما عن طريق التكيف الحالى للأجزاء المتميزة فى كل كائن على ظروف الحياة العضوية وغير العضوية الخاصة به ، أو عن طريق القيام بتكليفهما فى أثناء العهود السابقة من الزمن : وهذه التكيفات قد تمت مساعدتها فى الكثير من الحالات بواسطة الزيادة فى الاستخدام أو عدم الاستخدام الجسدى ، ويكونها قد تأثرت بالمفعول المباشر الخاص بالظروف الخارجية للحياة ، وتعرضت فى جميع الحالات إلى القوانين العديدة المختلفة الخاصة بالنمو وبالتمايز . ومن ثم ، فإن القانون الخاص بالظروف الخاصة بالبقاء هو القانون الأعلى ، وذلك لأنه يتضمن ، من خلال الوراثة للتمايزات السابقة والتكيفات ، هذا القانون الخاص بوحدة النمط .

الباب السابع

اعتراضات مختلفة على نظرية الانتقاء الطبيعي

طول العمر^(١) - التعديلات^(٢) غير المتزامنة بالضرورة - تعديلات تبدو أنها
عديمة الفائدة المباشرة - النشوء الارتقائي^(٣) الصفات ذات الأهمية الوظيفية^(٤)
الصغيرة، هي الأكثر دواماً - العجز^(٥) المفترض للانتقاء الطبيعي عن تفسير
المراحل البدائية للتركيب المفيدة^(٦) الأسباب التي تعوق اكتساب التركيب المفيدة
من خلال الانتقاء الطبيعي - تدرجات^(٧) التركيب مع التغيير في الوظائف -
الأعضاء الشديدة الاختلاف الموجودة في الكائنات التابعة لنفس الرتبة، والتي
نشأت من مصدر واحد بذاته - أسباب عدم الاعتقاد في التعديلات الكبيرة
والفجائية.

Longevity	(١) طول العمر = امتداد الأجل *
Modifications	(٢) تعديلات *
Progressive development	(٣) النشوء الارتقائي *
Functional	(٤) وظيفي *
Incompetence	(٥) عجز
Useful Structures	(٦) تركيب مفيدة
Gradations	(٧) تدرجات

سوف أكرس هذا الباب لمناقشة الاعتراضات المختلفة التي تم تقديمها ضد آرائى، وذلك قد يؤدي إلى جعل بعض الموضوعات التي سبق لنا مناقشتها أكثر وضوحاً. ولكن من العبث أن نخضع جميع هذه الاعتراضات للمناقشة، وذلك لأن الكثير منها قد أقيم بواسطة كُتَّاب لم يكفوا أنفسهم مشقة فهم الموضوع. وبالتالي فإن أحد علماء التاريخ الطبيعى الألمان قد جزم بأن أضعف جزء فى نظريتى، هو أننى أعتبر أن جميع الكائنات العضوية تتساوى فى عدم الكمال، فى حين أن حقيقة كل ما أدليت به هو أن كل الكائنات متساوية فى أنها غير مثالية كما يجب أن تكون بالنسبة إلى الظروف المحيطة بها. وهذا يبدو واضحاً فى العديد من النماذج الحية التى تستوطن الكثير من ربوع العالم، والتى قد تخلت عن مواطنها لدخلاء أجانب. كما لم تستطع بعض الكائنات العضوية بالرغم من أنها قد كانت فى وقت ما متكيفة بشكل كامل مع ظروف حياتها، أن تستمر على نفس المنوال، عندما تغيرت ظروفها المعيشية، إلا عندما تغيرت هى أيضاً بالمثل. ولن ينكر أحد أن الظروف المادية الخاصة بكل قطر - علاوة على الأعداد والأصناف الخاصة بقاطنيه - قد مرت بالعديد من التغيرات الكبيرة.

وقد أصر أحد النقاد فى الآونة الأخيرة - مستعيناً ببعض الاستعراض للدقة الإحصائية - على أن طول العمر (امتداد الأجل) يمثل ميزة كبيرة لكل الأنواع، وعلى هذا الأساس فإن الذى يؤمن بنظرية الانتقاء الطبيعى "يجب عليه أن يرتب شجرته الخاصة بتسلسل الأنساب"^(١)، على نسق أن جميع الأعقاب تتمتع بحياة أطول من أسلافها - أفلا يستطيع ناقدنا أن يدرك أن نباتا من ثنائى الحول (نبات حوؤل فترة سنتين)^(٢)، أو أحد الحيوانات السفلى^(٣)، قد يستوطن فى مناخ بارد ويهلك هناك فى كل شتاء، لكن من خلال ميزات قد تم اكتسابها عن طريق الانتقاء الطبيعى فإنه يستمر فى الحياة من عام لآخر عن طريق بذوره أو بويضاته؟ - وفى الآونة الأخيرة قام "السيد إ. راي لانكستر" Mr. E. Ray Lancaster بمناقشة هذا الموضوع، وخلص - بقدر ما سمح له التعقيد الشديد للموضوع من اجتهاد فى الرأى - إلى أن طول العمر يرتبط،

Genealogical tree

(١) شجرة تسلسل الأنساب

Biennial

(٢) ثنائى الحول: نبات حوؤل فترة سنتين

Lower animals

(٣) الحيوانات السفلى: الحيوانات الدنيئة = الأقل فى المستوى *

بصفة عامة، بمستوى كل من الأنواع فى مقياس تكوين الأعضاء^(١) ، علاوة على القدرة على التماذى فى التكاثر وفى النشاط العام. ومن المرجح أن هذه الشروط قد تحددت بشكل كبير من خلال عملية الانتقاء الطبيعى.

وقد أثير للمجادلة التالى: بما أنه لم يحدث أى تغيير فى الحيوانات أو النباتات المصرية - التى وصل إلى علمنا شىء عنها - على مدى الثلاثة أو الأربعة آلاف سنة الماضية، فمن المرجح أنه لم يحدث أى تغيير فى أى من الكائنات الحية فى أى بقعة من الأرض. ولكن كما علق "السيد ج. ه. لويس" Mr. G. H. Lewes، فإن هذا السياق من الجدل يبرهن على أكثر من اللازم. فعلى الرغم من أن الأعراق الداجنة القديمة - المصورة على الآثار المصرية أو المحنطة - متماثلة إلى حد بعيد بل وحتى متطابقة مع تلك التى تعيش فى وقتنا الحاضر، إلا أن جميع علماء التاريخ الطبيعى يقرون بأن هذه الأعراق قد نتجت من خلال التحور لأنماطها الأصلية. أما الحيوانات العديدة التى ظلت بدون تغيير منذ بداية العصر الجليدى، فإنها تقدم حجة أقوى لا تضاهى، وذلك لأن هذه الحيوانات قد تعرضت لتغيرات هائلة فى المناخ وارتحلت على مدى مسافات شاسعة، بينما - حسب ما وصل إلى علمنا - فإن ظروف الحياة فى مصر على مدى الألوف العديدة من السنوات السابقة قد استمرت - بصورة قاطعة - على نفس الوتيرة. والحقيقة القائلة بأنه لم يحدث أى تغيير - أو حدث تغيير بسيط - على هذه الحيوانات منذ العصر الجليدى قد تكون لها بعض القيمة فى مواجهة هؤلاء الذين يؤمنون بوجود قانون ارتقاءى فطرى^(٢) وضرورى، ولكنها عاجزة عن الوقوف أمام مبدأ الانتقاء الطبيعى أو البقاء للأصلح، والذى يقضى بأنه عندما يتصادف أن تحدث تغيرات أو اختلافات فردية ذات طبيعة مفيدة، فإنها سوف تصان، ولكن هذا سوف يحدث فقط تحت ملاسبات مواتية خاصة.

عند انتهاء عالم المستحجرات الحيوية^(٣) المشهور "برون" Bronn من ترجمته الألمانية لهذا البحث، فإنه تساعل فى الخاتمة عن كيف يتأتى لضرب ما من الكائنات -

- Scale of origination (١) مقياس ترتيب الأعضاء = مقياس التعضية *
- Innate (٢) فطرى - سلىقى - متأصل
- Palaeontology (٣) علم المستحجرات الحيوية - علم الإحاثة = البحث فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية

باتباع مبدأ الانتقاء الطبيعي - أن يعيش جنباً إلى جنب مع نوعه الأبوى ؟ والإجابة على ذلك: أنه إذا كان كلاهما قد أصبح مجهزاً لاختلافات بسيطة في عادات الحياة أو ظروفها، فإنهما قد يعيشان سوياً. وإذا نحينا جانباً الأنواع المتعددة الأشكال^(١)، والتي يبدو فيها أن التنوع من صفاتها الفريدة، بجانب كل الاختلافات المؤقتة مثل الحجم "المهق"^(٢) (بياض الجلد والشعر) وخلافه فإننى - بقدر استطاعتي على الاكتشاف - قد وجدت أن أكثر الضروب دواماً هي التي تقطن عادة مواقع متميزة، مثل الأرض المرتفعة أو الأرض المنخفضة أو المناطق الجافة أو الرطبة. والأكثر من هذا، ففي حالة الحيوانات الكثيرة التجول، والتي تنتقل بحرية، فإنه يبدو أن ضروبها يقتصر تواجدها عامة على مناطق معينة.

ويصر "برون" أيضاً على أن الأنواع المتباينة لا تختلف أبداً عن بعضها البعض في صفات منفردة، ولكن في أجزاء متعددة، ويتساءل عن كيف يتأتى أنه دائماً ما يحدث تغيير في أجزاء عديدة من النظام العضوى في توقيت واحد من خلال التمايز والانتقاء الطبيعي؟ ولكن لا توجد ضرورة لافتراض أن جميع الأعضاء الخاصة بآى كائن حي قد خضعت للتعديل في توقيت متزامن. ولعل أكثر التعديلات لفتاً للأنظار، والتي تكونت بشكل ممتاز لغرض معين من الممكن أن تكون - كما سبق ونوهنا - قد تم اكتسابها عن طريق تمايزات متعاقبة، فإذا كانت هذه التمايزات بسيطة، فإنها تحدث أولاً في جزء واحد ثم بعد ذلك في جزء آخر، وبما أن هذه التعديلات سوف تنتقل في مجموعها، فإنها سوف تبدو لنا وكأنها قد نشأت في وقت واحد. وعلى العموم، فإننا نجد أن أفضل رد على الاعتراض السابق هو المقدم من تلك الأجناس الداجنة التي قد تم تعديلها أساساً بواسطة قدرة الإنسان على الانتقاء لغرض خاص ما. فانظر إلى حصان السباق^(٣) وحصان جر العربات^(٤)، أو إلى كلب الصيد

Polymorphic species

(١) الأنواع المتعددة الأشكال *

Albinism

(٢) المهق = بياض الجلد والشعر الخلفى

Race horse

(٣) حصان السباق

Dray horse

(٤) حصان جر العربات

السلوقي^(١) و كلب الحراسة الضخم الجثة^(٢)، فإن هينتها العامة وحتى صفاتها العقلية قد تم تعديلها ، ولكن إذا استطعنا تعقب كل خطوة فى تاريخ تحولها - علماً بأن الخطوات الأخيرة من الممكن تعقبها - فإننا لن نرى أى تغيرات كبيرة متزامنة، ولكن فى أول الأمر حدث تغيير وتحسن طفيف فى جزء واحد ، ثم بعد ذلك جزء آخر. وحتى إذا كان الانتقاء قد تم تطبيقه بواسطة الإنسان من أجل خاصية واحدة معينة مفردة - وأفضل الأمثلة على ذلك تقدمه لنا نباتاتنا المتعمدة - فإننا سنجد دائماً أنه بالرغم من أن هذا الجزء المعين - سواء كان زهرة أو ثمرة أو أوراقا - قد حدث به تغيير عظيم، إلا أن كل الأجزاء الأخرى تقريباً قد حدث بها تغيير بسيط. ومن الممكن أن يعزى هذا جزئياً إلى مبدأ النمو المتبادل^(٣) وجزئياً إلى ما يدعى بالتمايز التلقائى^(٤).

وهناك اعتراض أخطر بكثير قدم بواسطة "برون" ومؤخراً بواسطة "بروكا" Broca، ومؤداه أن العديد من الصفات تبدو عديمة الفائدة تماماً لمقنتيها، وبهذا فإنها لا يمكن أن تكون قد تم التأثير عليها من خلال الانتقاء الطبيعى. ويورد "برون" فى هذا المجال طول الأذان والذبول فى الأنواع المختلفة من الأرانب البرية والفئران، والثنيات المركبة الموجودة فى ميناء أسنان حيوانات كثيرة، علاوة على عدد كبير من الأمثلة المشابهة. أما فيما يتعلق بالنباتات، فإن هذا الموضوع قد تمت مناقشته بواسطة "ناجيلى" Nageli فى مقالة رائعة، فهو يعترف بأن الانتقاء الطبيعى قد كان له تأثير كبير، ولكنه يصر على أن الفصائل النباتية تختلف أساساً عن بعضها الآخر فى صفات شكلية، ولكن هذه الاختلافات يبدو أنها عديمة القيمة تماماً فيما يتعلق بمصلحة النوع، وهو بالتالى، يؤمن بوجود قابلية دقينة^(٥) تجاه التطوير التقدّمى والأكثر اكتمالاً، ويشير على وجه

Grey hound

(١) الكلب السلوقي

Mastiff dog

(٢) كلب الحراسة الضخم الجسة = الدروس

Correlated growth

(٣) النمو المتبادل *

variation Spontaneous

(٤) التمايز التلقائى = التمايز الذاتى *

Innate tendenc

(٥) قابلية دقينة = قابلية متصلة = قابلية فطرية *

التحديد إلى ترتيب الخلايا فى الأنسجة والأوراق على المحور^(١)، كمثال لحالات لا يمكن أن تكون من صنيع الانتقاء الطبيعى. ومن الممكن أن يضاف إلى الأمثلة السابقة التقسيمات العددية^(٢) وموضع البويضات وشكل البذور، عندما تكون بدون أى فائدة للانتشار، وخلافه.

ولا شك فى القوة الكبيرة التى يحملها الاعتراض السابق، ومع ذلك فإنه يتأتى لنا - فى المقام الأول - أن نكون شديدي الحذر عند تحديد أى من التراكيب، سواء المستخدمة الآن أو التى كانت تستخدم فى الماضى، وكان ذا فائدة لكل من الأنواع. وفى المقام الثانى، فإنه يجب علينا أن نضع فى حسابنا دائماً أنه عندما يحدث تعديل فى جزء ما، فسوف يحدث ذلك فى الأجزاء الأخرى، وذلك من خلال مسببات غير جلية للأنظار، مثل الزيادة أو النقصان فى سريان الغذاء إلى جزء معين، وتأثير الضغط المتبادل^(٣)، والتكوين المبكر لجزء والمؤثر على جزء آخر ينمو بعده، وهكذا دواليك، وكذلك من خلال أسباب أخرى تؤدى إلى الكثير من الحالات الغامضة للعلاقات المتبادلة والتى لا نفقه عنها شيئاً على الإطلاق. وهذه القوى قد تجمل سوياً - على سبيل الإيجاز - تحت مسمى "قوانين النمو"^(٤). وفى المقام الثالث فإنه يجب علينا أن نفسح المجال للتأثير المباشر والمحدد لظروف الحياة التى تغيرت، وما يعرف "بالتمايزات التلقائية"^(٥) والتى يبدو فيها أن طبيعة الظروف تلعب دوراً ثانوياً. أما التمايزات البراعمية^(٦) مثل ظهور "وردة طحلبية"^(٧) على شجرة ورد شائعة^(٨) أو ظهور "الرحيقانى"^(٩) (ضرب من

Axis	(١) المحور
Numerical divisions	(٢) التقسيمات العددية *
Mutual pressure	(٣) الضغط المتبادل *
Laws of growth	(٤) قوانين النمو *
Spontaneous variations	(٥) التمايزات التلقائية *
Bud - variations	(٦) التمايزات البراعمية *
Moss rose	(٧) وردة طحلبية = رجلة افرنجى
Common rose	(٨) شجرة ورد شائعة = ورد أحمر
Nectarine	(٩) الرحيقانى = ضرب من الخوخ له رحيق حلو

الخوخ له رحيق حلو) على شجرة خوخ، فإنها تقدم شواهدا جيدة "التمايزات التلقائية"، ولكن حتى فى هذه الحالات، وإذا وضعنا فى اعتبارنا، قدرة نقطة صغيرة من السم على إنتاج "عفصات"^(١) نباتية معقدة، فإننا يجب ألا نشعر بالثقة الكبيرة فى أن التعديلات السابقة ليست ناتجة عن بعض التغيير الموضعى فى طبيعة "النسغ"^(٢)، بسبب تغيير ما فى الظروف. ولابد من وجود سبب مؤثر ما وراء كل اختلاف فردى بسيط، وكذلك وراء التمايزات الشديدة الوضوح التى تظهر أحيانا، وإذا كان لهذا السبب المجهول أن يستمر فى التأثير بشكل متواصل، فإنه من شبه المؤكد أن يحدث تعديل لجميع الأفراد التابعة للنوع بنفس الطريقة.

يبدو لى الآن، أننى فى الطبقات السابقة لهذا البحث، قد بخست تقدير تكرر حدوث وأهمية التعديلات الناتجة عن قابلية التمايز الذاتية. ولكنه من المستحيل أن نعزو إلى هذا السبب نشأة التراكيب التى لا تحصى، والمتكيفة بشكل حسن جداً مع عادات الحياة الخاصة بكل نوع. وأنا لم أعد أستطيع أن أصدق فى هذا أكثر من أن الهيئة الحسننة التكيف لحصان السباق أو كلب الصيد، والتى كانت مفهومة جداً قبل ظهور مبدأ الانتقاء بواسطة الإنسان، وأثارت دهشة كبيرة فى عقول علماء التاريخ الطبيعى القدامى، هى من الأشياء التى من الممكن تفسيرها على هذا الأساس.

وقد يكون من المفيد أن أوضح بعض الملاحظات التى سبق ذكرها، فبالإشارة إلى عدم فائدة الكثير من الأجزاء والأعضاء، فإنه ليس من الضرورى ملاحظة أنه حتى فى الحيوانات العليا والمعروفة لنا جيداً، فإن كثيراً من التراكيب الموجودة هى على درجة عالية جداً من التكوين، إلى حد عدم إثارة شك أحد فى أنها مهمة، إلا أننا لم نستطع - أو استطعنا حديثاً فقط - معرفة استخداماتها. وكما يسوق "برون" طول الأذان والذيل فى الأنواع العديدة من الفئران كأمثلة - ولو أنها تافهة - لاختلافات فى التركيب قد تكون بلا فائدة خاصة، فإننى أستطيع أن أذكر أنه وفقاً للدكتور "سكوبل" Dr. Schobel،

(١) عفصات = تضحجات فى النسج النباتى ناشئة عن إدخال جسم غريب

(٢) النسغ = سائل يجرى فى أوعية الثبات حاملاً الماء والغذاء

فإن الأذن الخارجية للفأر المعتاد مزودة بالأعصاب بشكل غير عادي، مما يجعلها تستخدم بلا شك كأعضاء للمس^(١). ومن ثم فمن الصعب اعتبار أن طول الأذان غير مهم فعلاً. وسوف نرى أيضاً الآن أن الذيل هو عضو إمساكي^(٢) (بالالتفاف حول شيء) وذو فائدة كبيرة لبعض الأنواع، وأن استخدامه سيثأثر كثيراً اعتماداً على طوله.

وفيما يتعلق بالنباتات، فطبقاً لمقالة "تاجيلي" Nageli فمما اقتصر على الملاحظات التالية: من المسلم به أن زهور "السحلبيات"^(٣) (الأوركيديات) توري عدداً وفيراً من التراكيب الغريبة التي - إلى سنوات قليلة سابقة - كان من الممكن اعتبارها مجرد اختلافات في الشكل وبدون أي وظيفة خاصة، ولكن أصبح من المعروف عنها الآن أنها ذات أهمية قصوى في عملية تلقيح الأنواع من خلال مساعدة الحشرات، وأنها على الأرجح قد تم اكتسابها من خلال الانتقاء الطبيعي. ولم يكن أحد يتصور - حتى مؤخراً - أن الاختلاف في طول السداة^(٤) والمدقة^(٥) في النباتات الثنائية الشكل^(٦) والثلاثية الشكل^(٧) واختلاف تنسيقها، قد يكون له أي فائدة، ولكننا نعلم الآن أن هذه هي الحقيقة.

في مجموعات كاملة معينة من النباتات تنتصب البويضات^(٨) قائمة، وفي بعضها الآخر نجدها متدلّية، كما نجدها بداخل المبيض^(٩) نفسه في البعض القليل من النباتات، على هيئة بويضة تحتل الموضع المتقدم وبويضة ثانية تحتل الموضع المتأخر.

Tactile organ	(١) عضولسي
Prehensile organ	(٢) عضو إمساكي = معد اللامسك بشيء أو القبض على هوخاصة بالالتفاف حوله
Orchids	(٣) السحلبيات = الأوركيديات
Stamen	(٤) السداة = عضو التذكير في الزهرة
Pistil	(٥) المدقة = عضو التأنيث في الزهرة
Dimorphic	(٦) ثنائية الشكل
Trimorphic	(٧) ثلاثية الشكل
Ovule	(٨) بويضة
Ovarium	(٩) مبيض

وهذه المواضع تبدو للوهلة الأولى أنها مواضع شكلية بحثة أو بدون أى دلالة وظيفية، ولكن الدكتور "هوكر" Dr. Hooker، أعلمنى أننا نجد أحياناً بداخل نفس المبيض أن البويضات العلوية فقط، وفى حالات أخرى أن البويضات السفلية فقط، هى التى يتم تلقيحها، ويقترح احتمال أن هذا يعتمد على الاتجاه الذى تسلكه قنوات التلقيح للدخول إلى المبيض. وإذا كان هذا صحيحاً، فإن موضع البويضات - حتى إذا كانت إحداها منتصبة والأخرى متدلية بداخل نفس المبيض - سينتج من خلال انتقاء أى انحراف بسيط فى الموضع الذى قد شجع تلقيحها، وإلى إنتاج البذرة.

نباتات عديدة تابعة لرتب متميزة تنتج بشكل معتاد نوعين من الزهور: المفتوحة ذات التركيب العادى والأخرى مغلقة وغير تامة، وهذان الصنفان من الزهور يختلفان أحياناً بصورة مدهشة فى التركيب، ومع ذلك فإننا قد نراهما يتغيران تدريجياً كل منهما إلى الآخر على نفس النبات. والزهور العادية والمفتوحة يمكن أن تتهاجن فيما بينها^(١)، وبهذا تتحقق الفوائد التى سوف تنشأ بالتأكد من هذه العملية. ومن جهة أخرى، فإن الزهور المغلقة وغير التامة ذات قيمة كبيرة بشكل واضح، لأنها تدر بأعلى قدر من الأمان مقداراً كبيراً من البذور، مع استهلاك قليل - بشكل مدهش - من اللقاح. وهذان الصنفان من الزهور - كما بينا منذ لحظات - غالباً ما يكونان مختلفين فى التركيب، فنجد فى معظم الأحيان أن التويجات^(٢) فى الزهرة غير التامة تتكون من مجرد آثار عضو ضامر وحبوب لقاح مختصرة فى القطر. ونجد فى نبات "العنون العمدانى"^(٣) خمسا من "الأسدية" المتبادلة التوزيع ما هى إلا مجرد آثار ابتدائية، وفى بعض أنواع "البنفسج"^(٤) نجد ثلاثاً من "الأسدية" فى مثل هذه الحالة، اثنتان منهما محتفظتان بوظيفتهما الصحيحة، ولكنهما فى حالة متناهية من الصغر

Intercross

(١) تتهجن فيما بينهما = تمتزج سلالاتها فيما بينها

Petals

(٢) تويجات

Ononis clumnae

(٣) نبات العنون العمدانى = الشرش

Viola

(٤) نبات البنفسج

فى الحجم. وفى ست من كل ثلاثين من الزهور المغلقة لنبتة من "البنفسج الهندى"^(١) (الاسم غير معروف لأن النباتات لم تنتج معى إطلاقاً أى زهور كاملة) نجد فيها أن "السبلات"^(٢) تنقص عن العدد المعتاد ألا وهو من خمس إلى ثلاث سبلات فقط. وفى أحد أقسام "المليبيجيات"^(٣) ووفقاً لرأى "أ. دى جوسيو" A. de Jussieu فإن الزهور المغلقة قد تحورت إلى مدى أبعد، فالخمسة "أسدية" التى تنتصب فى مواجهة "السبلات" قد تم أجهزة نموها جميعاً، و "سداة" سادسة تقع فى مواجهة "تويجة" هى الوحيدة التى قد تكونت، وهذه "السداة" ليست موجودة فى الزهور المعتادة لهذه الأنواع، فقللم السمة"^(٤) فيها قد تم إجهاضه، وانخفض عدد "المبايض" من ثلاثة إلى اثنين فقط. وهكذا، فبالرغم من احتمال أن الانتقاء الطبيعى قد كانت له القدرة لمنع بعض الزهور من التفتح والإقلال من اللقاح، عندما يصبح بانغلاق الزهور شيئاً لا ضرورة له، إلا أنه من الصعب أن يكون أى من التحورات الخاصة السابقة ثمرة عوامل جبرية، ولكنه من المحتم أنها كانت تابعة لقوانين النمو، بما فى ذلك الخمول الوظيفى للأجزاء، الذى يحدث فى أثناء التقدم فى مسار التخفيض فى اللقاح والإغلاق للزهور.

إنه من الضرورى بمكان إعطاء التأثيرات المهمة لقوانين النمو حق قدرها، ولهذا فإننى سوف أسوق بعض حالات إضافية من نوع آخر، وتحديدأ، للاختلافات فى نفس الجزء أو العضو الناتجة عن اختلافات فى الموقع النسبى له على نفس النبات. ففى "الكستناء الأسبانية"^(٥) وفى بعض "أشجار التنوب"^(٦) نجد أن زوايا تشعب الأوراق تختلف - وفقاً لـ "سكاتشت" Schacht - فى الأغصان شبه الأفقية وفى الأغصان

Indian Violet نبات البنفسج الهندى (١)

Sepal السبلة = الكأسية = إحدى ورقات كأس الزهرة (٢)

Malpighiaceae نبات المليبيجى (نسبة إلى اسمه) (٣)

Style قلم السمة = حامل السمة = ذلك الجزء من المدقة الواقع بين المبيض والسمة، والحامل للسمة (٤)

Spanish chestnut (٥) الكستناء الإسبانية = الجوز الأندلسى = القسطل = أبو فروة

Fir-trees (٦) أشجار التنوب

العمودية. وفي نبات "السذاب المعتاد"^(١)، وفي بعض النباتات الأخرى، تتفتح زهرة واحدة أولاً، وعادة ما تكون المركزية أو الطرفية، ونجد أن لها خمسة، سبلات" وتويجات وخمسة أقسام للمبيض، بينما نجد أن جميع الأزهار الأخرى التي يحملها النبات رباعية التقسيم. وعامة فإننا نجد في "الأدوكسا البريطانية"^(٢) أن الزهرة العليا لها فصان كأسيان^(٣) علاوة على أن الأعضاء الأخرى رباعية التقسيم، أما الأزهار المحيطة فعادة ما نجد أن لها ثلاثة فصوص كأسية وباقي الأعضاء الأخرى خماسية التقسيم. وفي العديد من فصيلة "النباتات المركبة"^(٤) "والفصيلة الخيمية"^(٥) (وفي بعض الأحيان النباتات الأخرى)، فإننا نجد الزهور المحيطة^(٦) لها تويجات متطورة بدرجة أكبر كثيراً من تلك الزهور التي في المركز، وهذا يبدو - في أحوال كثيرة - مرتبط مع حدوث إجهاض للأعضاء التناسلية. وهناك حقيقة أكثر غرابة - أشرنا إليها من قبل - ألا وهي أن "الفقيرات"^(٧)، أو البذور التابعة للمحيط وللمركز تختلف بشدة - أحياناً - فيما بينها في الشكل واللون وبعض الصفات الأخرى. وفي نبات "القرطم"^(٨) وبعض النباتات المركبة الأخرى فإن "الفقيرات" المركزية وحدها هي المزودة "بالفبوس"^(٩). وفي "الهوزير"^(١٠) فإن نفس "الهامة" (الرأس) تنتج "فقيرات" على ثلاثة أشكال مختلفة. وفي بعض "الخيميات" - نقلاً عن "توش" Tuasch - نجد أن البذور الخارجية مستقيمة

Rue	(١) نبات السذاب = الفيجن = نبات طبي ذو أوراق مرة
British Adoxa	(٢) الأدوكسا البريطانية = عنب مسكى
Calyx Lobe	(٣) فص كأسى
Compositae	(٤) النباتات المركبة
Umbelliferae	(٥) الخيمية = خيمية الأزهار (مثل الجزر)
Circumferential	(٦) محيطية
Achenes	(٧) فقيرات = الثمار اليابسة المطبقة وحيدة البذرة (مثل الكاستناء)
Carthamus	(٨) نبات القرطم
Pappus	(٩) الفبوس = زائدة أو مجموعة زوائد تتوج المبيض أو الثمرة
Hyoseris	(١٠) نبات الهوزير

الوضع^(١) أما البذور المركزية فهي منحنية^(٢)، وهذه صفة كان يعتبر "دى كاندول" De Candole أن تواجدها فى أنواع أخرى شىء ذو أهمية تصنيفية عظمى. ويذكر الأستاذ "برون" Prof. Braun فصيلة فومارية^(٣) (من نوات الفصين) والتي نجد فيها أن الأزهار فى الجزء السفلى من "العنقود الزهرى"^(٤) تحمل "جوزيات"^(٥) بيضاوية الشكل ومضلعة ووحيدة النواة، أما الجزء العلوى من العنقود فيحمل "خردليات"^(٦) رمحية الشكل، وذات مصراعين ولها بذرتان. فى هذه الحالات المتعددة باستثناء تلك "الزهيرات الشعاعية"^(٧) المتطورة تطوراً جيداً، والتي تستخدم لجعل الأزهار ملفتة لنظر الحشرات، فالانتقاء الطبيعى - حسب تقديرنا - لا يمكن أن يكون قد قام بأى دور، أو قد كان له دور ولكن بشكل ثانوى فقط. فإن كل هذه التحورات قد نبتت من الموقع النسبى وتفاعل الأجزاء، ومن الصعب أن يكون هناك شك فى أنه إذا كانت كل الزهور والأوراق التى على نفس النبات قد تعرضت لنفس الظروف الخارجى والداخلى، مثل حال الزهور والأوراق فى مواضع معينة، فإنها جميعاً كانت سوف تتحور بنفس الطريقة.

ونحن نجد فى حالات عديدة أخرى، تعديلات فى التركيب هى التى يعتبرها علماء النباتات أنها على العموم، ذات طبيعة مهمة جداً، وهى تؤثر فقط على بعض الزهور الموجودة على نفس النبات، أو التى تحدث على بعض النباتات المتباينة التى تنمو على مقربة من بعضها تحت نفس الظروف. وبما أن هذه الاختلافات تبدو عديمة الفائدة للنباتات، فلا يمكن أن تكون قد تمت تحت تأثير الانتقاء الطبيعى. ونحن نهمل كل شىء عن سببها، إلى درجة أنه لا يمكننا أن نعزوها - كما فعلنا مع الطائفة الأخيرة من

Orthospermous	(١) بنور مستقيمة الوضع
Coelospemous	(٢) بنور منحنية
Fumariaceus genus	(٣) فصيلة فومارية = فصيلة نوات الفصين = الفصيلة الشطرجية
Spike	(٤) عنقود زهرى طويل مستدق الطرف = سنبله
Nutlets	(٥) جوزيات = جوزة صغيرة = بذرة ثميرة وحيدة النواة
Siliques	(٦) خردليات = ثمرة يابسة مستطيلة ذات خبايعن يجمع بينهما شبه حاجز يقسم الثمرة
Ray-florets	(٧) زهيرات شعاعية

الحالات - إلى أى عامل مباشر، كالموضع النسبى مثلاً. وأنا سأسوق بعض الأمثلة فقط: فإنه من الشائع جداً أن يلاحظ على نفس النبات وجود زهور أجزاؤها مقسمة عشوائياً ما بين رباعية وخماسية... إلخ. ولا حاجة لى إعطاء أمثلة على ذلك، ولكن بما أن الاختلافات العددية نادرة نسبياً عندما تكون الأجزاء قليلة، فإنه من الممكن لى أن أذكر - نقلاً عن دى كاندول^(١) - أن أزهار نبات "الخشخاش القنابى"^(١) تعطى سبيلتين (ورقتين كأسييتين) مع أربع بتلات (تويجات) وهذا هو النمط المعتاد مع الخشخاشيات)^(٢) أو تعطى ثلاث سبلات مع ست بتلات. وأما الطريقة التى تطوى بها البتلات فى البرعم فإنها تمثل صفة شكلية ثابتة فى معظم المجموعات، ولكن الأستاذ "آسا جراى" Prof. Asa Gray يعلن أنه مع بعض أنواع الميمول^(٣)، فإننا نجد أن هذا الترتيب للأوراق الزهرية على البرعم^(٤) هو شىء شائع مع "الرينانثديات"^(٥) مثلما هو تقريباً مع "حنكيات السبع"^(٦)، وإلى هذه القبيلة الأخيرة تنتمى هذه الطبقة. ويسوق "أوجست سانت هيليار" Aug. St. Hiliare. هذه الحالات: "طبقة الزنكول"^(٧) تتبع قسماً من "اللفتيات"^(٨) الوحيدة المبيض، ولكن فى بعض أنواعه فإننا قد نجد زهوراً على نفس البتات وحتى فى نفس العنقود الزهرى، لها إما مبيض واحد أو مبيضان. وقد وصفت العليبية أو المحفظة لنبات "الأنطيم"^(٩) بأنها وحيدة أو ثلاثية الغرفة، وفى "الأنطيم المتغاير"^(١٠). نجد "صفيحة رقيقة، علاوة على أخرى عريضة قليلاً، تمتد ما بين

Papaver bracteatum	(١) الخشخاش القنابى
Poppies	(٢) الخشخاشيات
Mimulus	(٣) الميمول = نبات المسك
Aestivation	(٤) ترتيب الزهور على البرعم
Rhinanthideae	(٥) الرينانثديات = المقعقات أو المشخشات
Antirrhinideae	(٦) حنكيات السبع
Genus Zanthoxylon	(٧) طبقة الزنكول = الشوكيات
Rutaceae	(٨) اللفتيات = السذبيات
Helianthemum	(٩) نبات الأنطيم = شجرة الشمس
Helianthemum Mutabilis = H. Mutabile	(١٠) الأنطيم المتغاير = شجرة الشمس المتغايرة

غلاف الثمرة و المشيمة " -s'étend entre le per- "Une Lame, plus ou moins Large, . icarpe et le placenta وقد لاحظ دكتور ماسترز Dr. Masters فى زهور "السابونار المتداول"^(١) أمثلة للأوضاع المشيمية الجدارية والمركزية الحرة. وأخيراً وجد "سانت هيليار" قرب الجنوب الأقصى لمآلف نباتات "الجنفية الزيتونى"^(٢) شكلين لم يتطرق إليه الشك - فى أول الأمر - فى أنهما نوعان متباينان، ولكنه - فيما بعد - رأهما ينموان على نفس الشجرة، وعند ذلك فإنه أضاف: "و هكذا فإننا نجد فى نفس الفرد مقصورات و أنماط مرتبطة أحيانا مع المحور العمودى ، و أحيانا مع العنصر المؤنث "

"Voilà donc dans un même individu des loges et un style qui se rattachent tantôt à un axe verticale et tantôt à un gynobase".

وهكذا نرى أنه مع النباتات، فإن الكثير من التغيرات فى الشكل من الممكن أن تعزى إلى قوانين النمو والتفاعل بين الأجزاء، بصورة مستقلة عن الانتقاء الطبيعى. ولكن مع احترام مذهب "ناجيل" بوجود نزعة فطرية تجاه الكمال أو النشوء الارتقائى، فهل من الممكن أن يقال فى حالة هذه الاختلافات الواضحة بشدة، إن النباتات قد تم الإيقاع بها و هى فى الطريق إلى عملية التقدم نحو حالة أعلى من النشوء؟ ولكن بالعكس، فإن ما يجب على أن أستنتجه من مجرد حقيقة أن الأجزاء - مثار التساؤل - تختلف أو تتباين بشدة على نفس النبات، هو أن مثل هذه التحورات كانت ذات أهمية قليلة جداً بالنسبة للنباتات نفسها، مهما تكن تحمل من الأهمية العامة التى قد تمثلها لنا من أجل تصنيفاتنا للمملكة النباتية. فحيازة جزء عديم الفائدة شىء من الصعب أن يقال عنه إنه يرفع من شأن الكائن الحى فى الميزان الطبيعى، وفى حالة الأزهار المغلقة الناقصة التى سبق وصفها، فإذا كان هناك أى مبدأ جديد يجب أن يطبق عليها، فإنه يجب أن يكون مبدأ التردى والانحطاط بدلاً من مبدأ التقدم، وهذا ما يجب تطبيقه على العديد من الحيوانات الطفيلية والمنحطة. ونحن فى جهالة عن السبب المثير لهذه التعديلات الخاصة السابقة، ولكن إذا كان لهذا السبب المجهول أن يؤثر

Saponaria officinalis

(١) السابونار المتداول = الصابونية = عرق حلاوة

Gomphia oleaeformis

(٢) الجنفية الزيتونى

بشكل منتظم تقريباً لمدة طويلة من الزمن، فإننا قد نستطيع أن نخمن أن النتيجة ستكون متماثلة تقريباً، وفي هذه الحالة فجميع الأفراد التابعة للنوع سوف يتم تعديلها بنفس الطريقة.

ويستمد من الحقيقة القائلة إن جميع الصفات السابقة غير مهمة لمصلحة الأنواع، فإن أياً من التغييرات البسيطة التي قد حدثت لهما، لن تكون قد تجمعت وتراكمت من خلال عملية الانتقاء الطبيعي. و التركيب الذى ظهر من خلال انتقاء مستمر بشكل طويل، عندما يتوقف عن أن تكون له فائدة للنوع، فإنه يصبح على العموم قابلاً للتغيير، كما نرى فى الأعضاء غير المكتملة، وذلك لأنها لن تصبح بعد ذلك محكومة بنفس هذه القدرة على الاختيار والانتقاء. ولكنه عندما - بناء على طبيعة الكائن الحى وعلى طبيعة الظروف - يتم إدخال تحورات هى بطبيعتها غير مهمة لصالح النوع، فإنها قد - ويبدو أن ذلك يحدث كثيراً - يتم انتقالها بنفس الحالة تقريباً إلى العديد من الأعقاب التى قد تحورت بشكل ما أو بآخر. ولا يمكن أن تكون هناك فائدة كبيرة للعدد الأكبر من الثدييات، أو الطيور أو الزواحف، فى كونها قد اكتست بالشعر أو الريش أو الحراشيف، ومع ذلك فإن الشعر قد انتقل إلى كل الثدييات تقريباً، والريش إلى كل الطيور، والحراشيف إلى كل الزواحف الحقيقية. وأى تركيب - أياً كانت ماهيته - نجده شائعاً بين الكثير من الأشكال المتقاربة من بعضها ، فهو يعتبر لدينا ذا أهمية عالية من جهة الترتيب والتنظيم والتصنيف، وبالتالي فإنه غالباً ما يفترض أن يكون ذا أهمية حيوية عالية للنوع. وهكذا، وكما أميل للاعتقاد، فإن الفروقات الشكلية التى نعتبرها على نفس الدرجة من الأهمية - مثل تنسيق أوراق النبات، والتقسيمات الموجودة فى الزهرة أو فى المبيض، وموضع البيوضات وخلافه - قد ظهرت أولاً فى حالات عديدة كتغيرات متقلبة والتى أصبحت عاجلاً أو آجلاً تغيرات مستديمة من خلال طبيعة الكائن الحى، وطبيعة الظروف المحيطة به، وأيضاً من خلال التهاجن المتبادل بين أفراد متمايضة، ولكن ليس من خلال الانتقاء الطبيعي. وذلك لأن هذه الصفات الشكلية لا تؤثر على المصلحة العامة للنوع، وأى انحرافات بسيطة فيها لا يمكن أن تكون قد تحددت أو تراكمت من خلال هذا العامل المذكور أخيراً. وإنما لنتيجة غريبة تلك التى نتوصل إليها بهذا الشكل، وهى تحديداً، أن الصفات ذات الأهمية الحيوية البسيطة للأنواع، هى الأكثر أهمية للقائم بالتصنيف - ولكن ، وكما

سوف نرى فيما بعد - عندما نتطرق إلى المبدأ الوراثي للتصنيف، فإن هذا لن يمثل بأى طريقة أى تناقض ظاهرى كما قد يبدو لأول وهلة.

بالرغم من أننا لا نمتلك دليلاً جيداً على تواجد نزعة فطرية فى الكائنات العضوية تجاه النشوء الارتقائى، إلا أن هذا يتواصل بالضرورة - كما حاولت أن أقدم فى الباب الرابع - من خلال التأثير المستمر للانتقاء الطبيعى. وأفضل تعريف قد تم وضعه على الإطلاق عن "المستوى العالى للتعضية"، هو الدرجة التى تخصصت أو تمايزت إليها الأجزاء، والانتقاء الطبيعى يهدف فى اتجاه هذه النهاية، بقدر ما يمكن من أجل جعل الأجزاء قادرة على القيام بوظائفها بقدر أكبر من الكفاءة.

وقد قام مؤخراً عالم جليل فى علم الحيوان هو "السيد سانت جورج ميفارت" Mr. St. George Mivart، بجمع كل الاعتراضات التى نسى لى ولغيرى تقديمها على الإطلاق ضد نظرية الانتقاء الطبيعى، والتى قد تم إعلانها بواسطة السيد والاس Mr. Wallace ومنى أنا شخصياً، وقام بإيضاحها بمهارة وقوة تستحق الإعجاب. وعندما يتم استعراضهم بهذا الشكل، فإنهم يكونون طابورا هائلا لا يقهر. وبما أنه لا توجد أى نية لدى السيد ميفارت لتقديم الحقائق والاعتبارات المختلفة المعارضة لاستنتاجاته، فإن ذلك لم يترك للقارئ، الذى يريد أن يزن الأدلة على كلا الجانبين، أى مساحة بسيطة للتفاهم والاستيعاب. وعند مناقشة حالات خاصة، فإن "السيد ميفارت" يتغاضى عن التأثيرات الناشئة عن الزيادة فى الاستخدام أو عدم الاستخدام الخاص بالأجزاء، والتى داومت بنفسى على التأكيد على أنها ذات أهمية عالية، وعالجتها فى موضوعى عن "التمايز تحت تأثير التدجين"^(١) وذلك بتوسع أكبر - على حسب اعتقادى - من أى كاتب آخر. وفوق ذلك فإنه كثيراً ما يفترض أننى لا أعزو أى شىء للتعديل، بعيداً عن الانتقاء الطبيعى، بينما فى البحث الذى أشرت إليه منذ لحظات، فإننى قد قمت بتجميع عدد من الحالات الثابتة جداً، أكبر مما يمكن أن يوجد فى أى بحث آخر معلوم لدى. واجتهادى فى الرأى قد لا يكون جيداً بالثقة، ولكن بعد التمعن فى قراءة كتاب "السيد ميفارت" ومقارنة كل جزء فيه بما قد أدليت به تحت نفس العنوان، فإنى

لم أشعر إطلاقاً من قبل بأنى مقتنع بهذه القوة، بالصدق العام للاستنتاجات التي تم لي التوصل إليها، وهذا خاضع بالطبع، فى مثل هذا الموضوع الدقيق، إلى احتمال الخطأ الهامشى.

وجميع اعتراضات "السيد ميفارت" سوف - أو أنه بالفعل قد تم - تناولها بعين الاعتبار فى المجلد الحالى. والنقطة الجديدة الوحيدة التي يبدو أنها قد صدمت العديد من القراء، هى "أن الانتقاء الطبيعى عاجز عن تفسير المراحل البدائية للتراكيب المفيدة". وهذا الموضوع مرتبط بشكل حميم مع موضوع التدرج فى الصفات^(١)، والذي غالباً ما يكون مصحوباً بتغيير فى الوظيفة - مثل تحويل المثانة الهوائية^(٢) للأسماك إلى رئات - وهى نقاط سبق بحثها فى الباب السابق تحت رأسين من العناوين. وبالرغم من ذلك، فأنا سوف أناقش هنا، مع بعض الإسهاب، العديد من الحالات التي قد تم تقديمها بواسطة "السيد ميفارت"، مختاراً منها تلك التي قد تكون أكثر إيضاحاً، حيث إن ضيق المساحة يمنعنى من مناقشة جميع الحالات.

الزرافة، بقامتها السامقة، والاستطالة الكبيرة لعنقها وأرجلها الأمامية ولسانها، قد جعل كل هيكل جسدها مهيباً بشكل جميل للرعى على الأغصان العليا للأشجار. وبهذا فهى تستطيع أن تحصل على الغذاء البعيد عن متناول "الأنعام"^(٣) أو الحيوانات ذات الحافر الأخرى التي تقطن فى نفس القطر أو الإقليم. وهذا لا بد أن يكون ذا ميزة كبيرة لها أثناء فترات القحط. و"الماشية النباتية"^(٤) فى أمريكا الجنوبية توضح لنا، كيف أن فرقاً صغيراً فى التركيب قد يحدث - أثناء مثل هذه الفترات - فرقاً كبيراً فى المحافظة على حياة الحيوان. فهذه الماشية تستطيع أن ترعى مثلها مثل الأخرى على العشب، ولكن نتيجة البروز فى فكها السفلى، فإنها لا تستطيع أثناء فترات الجفاف المتكررة كثيراً، أن ترعى على غصينات الأشجار والبوص وما شابه، وهو ذلك الطعام

Graduation of characters

Swimbladder

Ungulata

Niata cattle

(١) التدرج فى الصفات *

(٢) المثانة الهوائية للأسماك

(٣) الأنعام أو نوات الحوافر

(٤) الماشية النباتية

الذى تساق إليه الماشية العادية والحياد فى فترات القحط، والنتيجة أن "النباتيات" تبنى فى هذه الأوقات، إذا لم تطعم بواسطة مالكيها. وقبل أن نأتى إلى اعتراضات "السيد ميفارت"، فإنه قد يكون من المستحسن أن نشرح مرة أخرى كيف سيقوم الانتقاء الطبيعى بدوره فى جميع الحالات العادية. فالإنسان قد قام بتعديل البعض من حيواناته بدون الحاجة للاهتمام بتفاصيل خاصة فى التركيب، وذلك ببساطة عن طريق الحفاظ والاستيلاء من أسرع الأفراد، كما فى حالة حصان السباق وكلب الصيد السلوقى، أو كما فعل فى حالة ديك المصارعة^(١)، وذلك بالإنسال من الطيور المنتصرة. وهذا هو الحال مع الزراف فى بداية نشوئه تحت ظروف الطبيعة، فإن الأفراد التى كانت ترعى على مستوى عال، وكانت قادرة أثناء فترات القحط على أن تصل إلى مستوى أعلى ولو ببوصة واحدة أو بوصتين فوق الآخرين، فهى التى كانت غالباً سوف تبقى، وذلك لأنها سوف تكون قد جاست خلال كل بقاع القطر بحثاً عن الطعام. وحقيقة الأمر أن الأفراد التابعة لنفس النوع، غالباً ما تختلف قليلاً فى الأطوال النسبية لجميع أجزاء جسدها، وذلك من الممكن مشاهدته فى العديد من أعمال التاريخ الطبيعى، والتى تقدم لنا قياسات دقيقة فى هذا الموضوع. و تلك الاختلافات النسبية، الناتجة عن قوانين النمو وتعدد الخصائص، ليس لها فائدة أو أهمية على الإطلاق لمعظم الأنواع. ولكن الأمر كان سيصبح مختلفاً مع الزراف الناشئ، عندما نضع فى الاعتبار عاداته الحياتية المحتملة، فتلك الأفراد التى كان لها جزء واحد أو أجزاء متعددة من أجسادها أكثر استتالة فإنها فى العادة كانت هى التى سوف تبقى على قيد الحياة. وهى التى كانت سوف تتزوج وتترك ذرية، إما وارثة لنفس المميزات الجسدية، أو لديها القابلية لتعديل الخصائص مرة أخرى، على نفس المنوال، بينما الأفراد الأقل حظوة فى نفس هذا المجال، فإنها سوف تكون الأكثر قابلية للاندثار.

ونحن نرى هنا أنه لا توجد ضرورة لعزل أزواج منفردة، كما يفعل الإنسان، عندما يقوم بإدخال تحسينات بشكل منهجى على سلالة، فإن الانتقاء الطبيعى سوف

يحتفظ، وبالتالي سوف يقوم بفصل كل الأفراد الممتازة، تاركاً لها حرية التهجين المتبادل فيما بينها، وسوف يقضى على كل الأفراد الأدنى منزلة. وبطول استمرار هذه العملية - والتي تتطابق تماماً مع ما سبق أن أطلقت عليه "الانتقاء اللاواعي"^(١) بواسطة الإنسان - متضامناً بلا شك بشكل مهم جداً مع التأثيرات الموروثة لزيادة استخدام الأجزاء، فإنه يبدو لى بطريقة شبيهة مؤكدة، أنه من الممكن لأى حيوان حافرى من رباعيات الأرجل أن يتحول إلى زرافة.

وقد تقدم "السيد ميخارت" باعتراضين على هذا الاستنتاج. أحدهما أن الزيادة فى حجم الجسم ستحتاج قطعاً إلى زيادة فى التزود بالغذاء، وهو يعتبر ذلك بأنه "مثير جداً للمشاكل، لأن الأضرار التى ستنشأ حينئذ من ذلك، لن تكون فى وقت العوزة كافية لتعويض المنافع". ولكن بما أن الزراف يتواجد بالفعل بأعداد كبيرة فى جنوب أفريقيا، وكما أن البعض من أضخم الأبقار الوحشية^(٢) فى العالم - والتى نجد أنها أكثر ارتفاعاً من الثور - توجد هناك، فلماذا يتطرق إلينا الشك - فيما يتعلق بالحجم - فى أن "تدرجات متوسطة"^(٣) قد حدثت هناك فى الماضى، متأثرة - كما يحدث الآن - بالمجاعات الشديدة. وبالتأكيد فإن امتلاك القدرة على الوصول - فى كل مرحلة لزيادة الوزن - إلى مصدر للغذاء، متروك بغير مساس من الحيوانات الحافرية ذوات الأربع الموجودة فى المنطقة، قد كان من شأنه تحقيق أفضلية للزراف البادئ فى النشوء. ويجب أيضاً ألا نغفل الحقيقة فى أن زيادة الحجم سوف تقوم بمهمة الحماية ضد كل الوحوش المفترسة تقريباً باستثناء الأسد، وحتى ضد هذا الحيوان، فإن عنقها الطويل - وكلما كان أطول كان هذا أفضل - سوف يستخدم - كما جاء فى تعليق "السيد تشونسى رايت" **Mr. Chauncey Wright** - كبرج للمراقبة. وأنه لهذا السبب - كما يعلق "السير س. باكر" **Sir S. Baker** فلا يوجد أى حيوان أكثر صعوبة فى المداهمة من الزراف. كما أن هذا الحيوان يستخدم عنقه الطويل كوسيلة للهجوم أو الدفاع، وذلك

Unconscious selection

Antelopes

Intermediate graduation

(١) الانتقاء اللاواعي *

(٢) الأبقار الوحشية (الظباء)

(٣) تدرجات متوسطة

بالأرجحة العنيفة لرأسه المسلحة بقرون شبيهة "بالجذل"^(١) . وأنه لمن النادر أن نستطيع تحديد أى ميزة واحدة للحفاظ على كل نوع، ولكن ذلك يتم عن طريق تضامن جميع المزايا، الكبيرة منها والصغيرة.

ويتساءل السيد "ميفارت" بعد ذلك (وهذا هو اعتراضه الثانى): إذا كان الانتقاء الطبيعى بهذه الكفاءة، وإذا كان الرعى على مستوى عال هو ميزة كبيرة، إذن لماذا لما تكتسب أى من الحافريات رباعية الأقدام عنقاً طويلاً وقواماً سامقاً مثل الزراف، أو إلى درجة أقل مثل الجمل، "والغوناق"^(٢) و"الماكروتشينا"^(٣)؟ - أو مرة أخرى، لماذا لم يكتسب أى عضو فى هذه المجموعة خرطومًا؟ - وفيما يتعلق بجنوب أفريقيا، التى كانت فيما مضى أهلة بقطعان عديدة من الزراف، فإن الإجابة ليست صعبة، ومن الأفضل أن تقدم بواسطة إعطاء مثال موضح: ففى كل مرج بإنجلترا تنمو فيه الأشجار، نرى الأغصان السفلى مشذبة أو مسواة إلى مستوى مضبوط، عن طريق الرعى بواسطة الجياد والماشية، فما هى الفائدة التى كانت ستعود على الخراف مثلاً - إن تمت تربيتها هناك - لو حصلت على أعناق أطول قليلاً؟ - فى كل مقاطعة سنجد صنفًا واحدًا ما من الحيوان قادرًا بالتأكيد على أن يرعى على مستوى أعلى من الحيوانات الأخرى، وعلى نفس المستوى من التأكيد تقريباً، فإن هذا الصنف بالذات سيكون هو الوحيد الذى يستطيع أن يجعل عنقه تستطيل لهذا الغرض، وذلك من خلال الانتقاء الطبيعى، وتأثيرات الزيادة فى استخدام الأعضاء. وفى جنوب أفريقيا فالمنافسة على الرعى على الأغصان العليا من "أشجار السنط"^(٤) والأشجار الأخرى لابد وأنها كانت بين الزراف والزراف، ولم تكن مع الحيوانات الحافرية الأخرى.

لماذا فى ربوع العالم الأخرى، لم تكتسب حيوانات عديدة تابعة لنفس الرتبة، إما رقبة مستطيلة أو خرطومًا؟ - وهذا سؤال لا يمكن إجابته بوضوح، ولكنه من غير

Stump

(١) الجذل = أصل الشجرة الباقي بعد قطع جذعها = قرمة

Guanaco

(٢) الغوناق = حيوان ثديى أمريكى من فصيلة الجمل

Macrauchenia

(٣) الماكروتشينا

Acacias

(٤) أشجار السنط = أشجار الجراد = الخرنب

المنطقي توقع رد قاطع على مثل هذا السؤال، فهو مثل التساؤل عن لماذا لم تقع بعض الأحداث في تاريخ البشرية في قطر بعينه، بينما وقعت في قطر آخر. ونحن في جهالة فيما يتعلق بالظروف التي تحدد الأعداد والمآلف لكل نوع، ونحن لا نستطيع حتى أن نحس ما التغيرات في التركيب التي كانت مواتية لزيادتها في بعض الأقطار الجديدة. ولكننا نستطيع مع ذلك أن نرى بصورة عامة أن أسباباً مختلفة تكون قد تدخلت في تكوين عنق طويل أو خرطوم. ولبلوغ الأوراق النباتية التي على ارتفاعات عالية (بدون تسلق، وهو الذي نجد أن الحيوانات الحافرية هي الوحيدة غير المعدة له) فإنه يتضمن زيادة كبيرة في حجم الجسم، ونحن نعرف أن بعض المناطق تستطيع أن تتحمل بمفردها إعالة عدد قليل من نوات الأربع الكبيرة، كما هو الحال في أمريكا الجنوبية، بالرغم من أنها شديدة الخصب. في حين أننا نجد أن جنوب أفريقيا تعج بها إلى درجة لا مجال لمقارنتها. أما لماذا يحدث ذلك! فإن هذا ما لا نعرفه، ولا نعرف أيضاً لماذا كانت العصور الجيولوجية الأخيرة التابعة للمرحلة الثالثة مواتية لبقائها أكثر من الوقت الحالي. ومهما تكن الأسباب وراء ذلك، فنحن نستطيع أن نرى أن مناطق معينة وأزمنة بعينها قد كانت أكثر ملائمة عن بعضها الآخر لتكوين حيوان من نوات الأربع ذي حجم كبير مثل الزراف.

لكي يتسنى لحيوان أن يكتسب تركيباً ما خاصاً به ومنتظراً إلى مدى كبير، فلا محالة تقريباً من أن الكثير من الأجزاء الأخرى من المحتم أن يتم تعديلها وأن تتكيف مع بعضها. وبالرغم من أن كل جزء من الجسم يتميز قليلاً، إلا أن ذلك لا يستتبع أن الأجزاء الضرورية يجب عليها دائماً أن تتمايز في الاتجاه الصحيح وإلى الدرجة الصحيحة. ومع الأنواع المختلفة لحيواناتنا المدجنة، فنحن نعلم أن الأجزاء تتمايز بشكل مختلف وإلى درجة مختلفة، وأن بعض الأنواع أكثر قابلية للتمايز عن الأنواع الأخرى. وحتى إذا كانت التمايزات المناسبة قد قامت، فإن ذلك لا يستتبع أن يكون الانتقاء الطبيعي كان قادراً على التأثير عليها، وأنتج تركيباً يكون من الواضح أنه قد كان مفيداً للنوع. وعلى سبيل المثال، فإذا كان عدد الأفراد الموجودة في قطر ما يتحدد بشكل أساسي من خلال الإهلاك بواسطة الوحوش المفترسة - أو بتأثير الطفيليات الخارجية أو الداخلية - وما شابه - كما يبدو أن هذا هو ما يحدث غالباً -

ففى هذه الحالة فإن الانتقاء الطبيعى لن يكون باستطاعته أن يفعل إلا القليل، أو أنه سوف يصبح متأخراً بدرجة كبيرة، فى قدرته على تعديل أى تركيب معين للحصول على الطعام. وأخيراً فإن الإنتقاء الطبيعى هو عملية بطيئة، ونفس الظروف الملائمة يجب أن تستمر لفترة طويلة، من أجل أن ينتج من جراء ذلك أى تأثير ملحوظ. وإذا لم نحدد مثل هذه الأسباب العامة والغامضة ، فإننا لا يمكن أن نفسر لماذا لم تمتلك الحافريات ذوات الأربع المنتشرة فى ربوع كثيرة من الأرض، أعناقاً غاية فى الاستطالة أو أيا من الوسائل الأخرى للرعى على الأغصان العالية للأشجار.

وقد قامت اعتراضات من نفس النوع السابق سرده، بواسطة الكثير من الكتاب. وفى كل حالة قد كانت توجد مسببات مختلفة - بجانب الأسباب العامة التى قد فرغت توا من الإشارة إليها - التى تدخلت غالباً من خلال الانتقاء الطبيعى فى الحصول على تراكيب يعتقد أنها ذات فائدة لنوع معين. وقد تساءل أحد الكتاب لماذا لم يكتسب النعام^(١) القدرة على الطيران؟ - ولكن برهة سريعة من التأمل تكون كفيلاً بأن تبين أى قدر هائل من التزود بالغذاء سوف يكون ضرورياً لإعطاء هذا الطائر، التابع للصحراء، القوة لتحريك جسده الهائل فى الهواء. ونجد أن الجزر الموجودة فى المحيط مسكونة "بالخفافيش"^(٢) و"عجول البحر"^(٣) وأنه لا توجد بها أى ثدييات أرضية^(٤)، وبما أن بعض هذه الخفافيش من نوع غريب، فلا بد من أنها قد استقرت فى مواطنها الحالية منذ وقت طويل. ولهذا فإن "السير س. لايل" Sir C. Lyell يتساءل ويحدد أسباباً معينة للإجابة: لماذا لم تقيم عجول البحر والخفافيش بالولادة - على مثل هذه الجزر - لأنواع مجهزة للمعيشة على الأرض؟ - ولكن عجول البحر كان من الضرورى لها أن تتحول أولاً إلى حيوانات أرضية آكلة للحوم^(٥) ذات حجم كبير،

Ostrich

(١) نعامة

Bat

(٢) خفاش

Seal

(٣) عجل البحر = الفقمة

Terrestrial mammals

(٤) ثدييات أرضية

Carnivorous animals

(٥) حيوانات آكلة لحوم

والخفافيش إلى حيوانات أرضية آكلة للحشرات^(١) . فبالنسبة للأولى فلن تجد لنفسها فرائس، وأما النسبة للخفافيش فإنها كانت ستستخدم الحشرات الأرضية كطعام، ولكن هذه الحشرات ستكون قد تعرضت بالفعل وعلى نطاق واسع للافتراس بواسطة الزواحف والطيور، التي قد سبقتها في استعمار وغزو معظم الجزر الأوقيانوسية. فإن التدرجات في التراكيب - مع كل مرحلة نافعة للنوع الذى فى مجال التغير - سوف يتم اكتسابها تحت ظروف خاصة فقط. فالحيوان البرى الصميم ، لو اضطر إلى الصيد للغذاء أحياناً فى مياه ضحلة، ثم فى مجار مائية أو بحيرات، فإنه قد ينقلب فى النهاية إلى حيوان معد للحياة المائية إلى درجة الشجاعة لمواجهة المحيط المفتوح. ولكن عجول البحر لن تجد على الجزر الأوقيانوسية ظروفاً مواتية لإعادة انقلابها بالتدرج إلى الشكل البرى. والخفافيش - كما سبق وبيننا - غالباً قد اكتسبت أجنحتها عن طريق البدء بالانزلاق فى الهواء من شجرة إلى شجرة، كما تفعل الحيوانات المسماة بالسناجب الطائرة^(٢)، وذلك بغرض الهروب من أعدائها، أو لتجنب السقوط، ولكن بمجرد اكتسابها القوة على الطيران الحقيقى، فإنها لا يمكن أبداً أن تعود للانقلاب لما كانت عليه - على الأقل للأسباب السابقة - وإلى المقدرة الأقل قوة ألا وهى الانزلاق فى الهواء. والخفافيش قد تكون بالفعل - مثل الكثير من الطيور - قد حدث لها ابتسار شديد فى حجم أجنحتها، أو فقدتها كلية من خلال عدم الاستخدام، ولكن فى هذه الحالة فإنه من الضرورى لها أن تكتسب أولاً القدرة على الجرى على الأرض بسرعة بمساعدة أرجلها الخلفية فقط، لكى تنافس الطيور والحيوانات الأرضية الأخرى، ويبدو أن الخفاش غير معد لمثل هذا التغير ، بشكل استثنائى غريب. وقد قمت بتقديم هذه الملاحظات التخمينية لا لسبب إلا لتوضيح أن أى تحول فى التركيب، مع الاحتفاظ بأن كل خطوة هى ذات فائدة، هو عملية غاية فى التعقيد، وأنه لا يوجد شىء غريب ، إذا لم يحدث تحول ما فى أى حالة معينة.

Insectivorous animals

Flying squirrels

(١) حيوانات آكلة للحشرات

(٢) السناجب الطائرة

وأخيراً، فإن أكثر من كاتب قد تساءل، لماذا حدث ارتقاء فى القدرات العقلية لبعض الحيوانات أكثر مما حدث لغيرها، حيث إن مثل هذا التقدم كان من شأنه أن يكون ميزة كبيرة للجميع؟ ولماذا لم تمتلك القرود القدرات العقلية التى يتمتع بها الإنسان؟ - ولرد على هذه التساؤلات فإن أسبابا مختلفة من الممكن أن تقدم، ولكن بما أنها أسباب افتراضية، وبما أنه لا يمكن وزن احتمالاتها النسبية، فإنه لا توجد فائدة ترجى من تقديمها. ووجود رد قاطع للسؤال الأخير يجب ألا يتوقعه أحد، بعد رؤية أنه لا يوجد من يستطيع أن يتوصل إلى حل لمشكلة أبسط، ألا وهى، لماذا ارتفع عرق واحد من بين عرقين همجيين فى ميزان الحضارة، أكثر من الجنس الآخر، وهذا الارتقاء الحضارى ينطوى بداهة على زيادة فى القدرة العقلية.

وسوف نعود إلى الاعتراضات الأخرى المقدمة من "السيد ميفارت". فإن الحشرات كثيراً ما تتشابه - من أجل حماية أنفسها - مع أشياء مختلفة، مثل الأوراق الخضراء أو البالية، والغصينات الميتة، وقطع من الأشنة^(١)، والزهور، والأشواك، وبراز الطيور، والحشرات الحية، وأنا سأعود لهذه النقطة الأخيرة فيما بعد. وهذا التشابه كثيراً ما يكون قريباً بشكل مدهش، وهو ليس مقصوراً على اللون ولكنه يمتد للشكل، وحتى إلى الطريقة التى تلزم الحشرات بها نفسها، فيرقانات الفراشات (اليساريع)^(٢) التى تظهر بدون حركة مثل غصينات ميتة من نفس الشجرة التى تتغذى عليها، تعطى مثلاً ممتازاً لتشابه من هذا النوع. أما حالات التقليد لبعض الأشياء كبراز الطيور، فإنها نادرة واستثنائية. وتعليق السيد ميفارت على هذا الموضوع هو: "بناء على نظرية السيد داروين، فإن هناك قابلية متواصلة للتعديل اللانهائى^(٣)، وبما أن التمايزات الابتدائية^(٤) الدقيقة سوف تكون فى جميع الاتجاهات، فمن المحتم أنها قد تميل إلى معادلة أحدها للأخر، وإلى أن تشكل فى البداية بعض التغييرات غير الثابتة إلى درجة أنه من

Lichen

(١) الأشنة = خراز الصخر

Caterpillar

(٢) اليسروع = يرقانة الفراشة

Indefinite variation

(٣) التمايزات اللانهائى *

Incipient variations

(٤) التمايزات الابتدائية *

الصعوبة، إن لم يكن من المستحيل، أن نرى إلى أى مدى، تستطيع على الإطلاق، مثل هذه التقلبات الغامضة للبدايات الدقيقة جداً، من إقامة تشابه من الممكن تقديره بشكل كاف لورقة شجر، أو خيزرانة أو شيء آخر، لكى يتمسك به الانتقاء الطبيعي ويخلده".

ولكن فى جميع الحالات السابقة، فمما لا شك فية أن الحشرات فى حالتها الأصلية، قد قدمت بعض التشابه الفج والعشوائى لشيء ما موجود بشكل شائع فى الأماكن التى تتردد عليها. وليس هذا شيئاً بعيد الحدوث على الإطلاق، عندما نضع فى الاعتبار العدد اللانهائى تقريباً للأشياء المحيطة بها، والتنوع فى الشكل واللون للحشود الخاصة بالحشرات الموجودة. وكما أنه من الضرورى وجود مشابهة فجة للبداية الأولى، فإننا نستطيع أن ندرك كيف أنه كلما كانت الحيوانات كبيرة وعالية فإنها لا تشابه أشياء غريبة لغرض الحماية (باستثناء نوع واحد من السمك، وذلك على قدر معرفتى)، ولكنها تشابه فقط السطح الذى يحيط بها عادة، وبشكل أساسى فى اللون. وبافتراض أن حشرة ما قد تصادف من أساسه، أن تشابهت بعض الشيء مع غصين ميت، أو ورقة شجر بالية، وأنها قد تغيرت قليلاً بطرق عديدة، ثم حدث أن كل هذه التغييرات قد سهلت إفلاتها من أعدائها، فإن هذه التغييرات سوف يتم الاحتفاظ بها ، بينما سوف يتم إهمال التغييرات الأخرى ، وفى النهاية سوف يتم فقدها . أو إذا جعلت هذه التغييرات الحشرة أقل مشابهة بأى شكل من الأشياء التى تريد تخليده ، فإن هذه التغييرات سوف يتم حذفها . وهناك قوة فعلية فى الاعتراض المقدم من "السيد ميقاترت"، إذا كنا سوف نحاول أن نفسر التماثلات السابق ذكرها، بدون وضع الانتقاء الطبيعى فى الاعتبار، وذلك من خلال مجرد وجود قابلية متقلبة للتمايز ، ولكن بناء على ما نراه أمامنا فلا يوجد أى شيء من هذا القبيل .

ولا أستطيع أيضاً أن أرى أى قوة فى الصعوبة التى يواجهها "السيد ميقاترت" فيما يتعلق بـ "اللمسات الأخيرة لاكتمال التنكر"، كما هو موجود فى الحالة التى تقدم بها "السيد والاس" Mr. Wallace للحشرة العصوية^(١) والتي تشبه "العصا التى نما

(١) الحشرة العصوية = حشرة ذات جسم طويل مستدير شبيهه بالعصا . Walking-stick insect =
(Ceroxylus laceratus)

فوقها طحلب متسلق أو حزمانيا^(١) . وقد كان التشابه قريباً جداً إلى حد أن أحد السكان الأصليين لجزيرة بورنيو^(٢) أصر على أن هذه الزوائد الخضرية ما هي فى الحقيقة إلا عبارة عن طحلب. والحشرات يتم افتراسها بواسطة الطيور وأعداء أخرى تتمتع بقوة إبصار أكثر حدة فى الغالب من قوة إبصارنا، وأى درجة من المشابهة قد تكون قد ساعدت حشرة ما فى تجنب الملاحظة والاكتشاف، سوف تميل فى اتجاه الحفاظ عليها، وكلما زادت درجة اكتمال المشابهة كان هذا أفضل للحشرة. وإذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة الفروقات الموجودة بين الأنواع التابعة للمجموعة التى تضم الحشرة العسوية السابق ذكرها، فإنه لا يوجد شىء غير محتمل فى كون أن هذه الحشرة قد تمايزت فى شكل ظهور عدم انتظامات على سطحها، وفى أن هذه التدرجات قد أصبحت خضراء اللون تقريباً، فإننا نجد فى كل مجموعة أن الصفات التى تختلف فى الأنواع العديدة هى الأكثر عرضة للتمايزات ، بينما الصفات العرقية فى كل الأنواع، فإنها هى الأكثر استقراراً.

حوت الجرينلاند هو أحد حيوانات العالم الفائقة الروعة، وعظم فك الحوت أو البالين^(٣) هو أحد مميزاته الكبرى، وهذا البالين يتكون من صف، على كل جانب من الفك العلوى، مكون من حوالى ٣٠٠ من الصفائح الرقيقة، التى تقف بالقرب من بعضها بشكل مستعرض على المحور الأطول للفم. ويوجد إلى الداخل من الصف الأساسى بعض الصفوف الثانوية. والأطراف والحواف الداخلية لكل الصفائح منهريء إلى شعر متصلب (كالفرشاة)، الذى يغطى كل هذا الحنك الهائل، وهو يستخدم فى نخل أو تصفية الماء، وبهذا يحصل الحوت على الفرائس الدقيقة التى تعيش عليها هذه الحيوانات الضخمة. والصفيحة الوسطى والأطول لدى حوت الجرينلاند، تصل إلى عشر أو اثنى عشر أو حتى خمسة عشر قدماً فى الطول، ولكن فى الأنواع المختلفة

Jungermannia

(١) حزمانيا

Dyak

(٢) ساكن أصلى لجزيرة بورنيو (من صائدى الروس)

Baleen = Whale - bone

(٣) البالين = عظم فك الحوت

من الحيوانات الحيتانية^(١) - وفقاً لما قاله "سكوريسبي" Scoresby - ، فإنه يوجد هناك تفاوت في الطول، وقد يكون طول الصفيحة الوسطى في أحد الأنواع أربعة أقدام، وفي نوع آخر ثلاثة أقدام، ونوع ثالث ثمانى عشرة بوصة، أما في "الحوجن المنقارى"^(٢) فهي تبلغ حوالى تسع بوصات فقط في الطول. ونوعية عظم فك الحوت تختلف أيضاً في الأنواع المختلفة.

وفيما يتعلق بالبالين (عظم فك الحوت) فقد علق "السيد ميفارت" على أنه إذا كان: "قد وصل إلى مثل هذا الحجم والتكوين لى يصبح مفيداً على الإطلاق، فإن الاحتفاظ به وزيادته في الحدود المفيدة قد يتحقق عن طريق الانتقاء الطبيعي وحده. ولكن كيف لنا أن نحصل على البداية لمثل هذا التطور المفيد؟" - لإجابة هذا السؤال، فإنه يجب علينا أن نتساءل: لماذا لا تكون الأسلاف المعنة في القدم للحيتان التي تحوز "بالين"، قد كان لديها فم مصمم على شكل المنقار ذى الصفائح الخاص بالبط؟ - فالبط مثل الحيتان يقتات بواسطة نخل الطين والماء، الفصيلة قد أطلق عليها في بعض الأحيان اسم "الفوارز"^(٣) أو النواخل^(٤) . وأنا أرجو ألا يساء فهمى ويؤول إلى أنى أقول إن أسلاف الحيتان كانت تمتلك فعلاً أفواها بها صفائح مثل المنقار الخاص بالبط. ولكنى أود فقط أن أبين أن هذا ليس شيئاً غير معقول، وأن الصفائح الهائلة الخاصة بعظام فك الحوت الجرينلاندى، من المحتمل أن تكون قد تشكلت من مثل هذه الصفائح، عن طريق خطوات متدرجة بدقة، كل منها ليستعمل في خدمة الحائز عليها.

ومنقار "البط الجرفى"^(٥) تركيب أكثر جمالاً وتعقيداً من فم الحوت. فالفك العلوى مزود على كلا الجانبين (فى العينة التي فحصتها بنفسى) بصف أو مشط مكون من

Cetaceans	(١) الحيوانات الحيتانية = الحيتانيات
Balaenoptera rostrata	(٢) الحوجن المنقارى
Criblatores	(٣) الفوارز = الطيور الفارزة *
Sifters	(٤) النواخل *
Spatula clypeata = Shoveller - duck	(٥) البط الجرفى *

١٨٨ صفيحة رفيعة مرنة مشطوفة الحواف، و منظمة فى وضع مستعرض على المحور الأطول للغم. وهى تبرز من أعلى باطن الغم، و مثبتة بواسطة غشاء مرن إلى جوانب الفك. وتلك التى تنتصب فى اتجاه المنتصف هى الأكثر طولاً، و تبلغ حوالى الثلث من البوصة فى الطول، كما تبرز ١٤, ٠ من البوصة أسفل الحافة. وعند قواعدها يوجد هناك صف ثانوى قصير من الصفائح المستعرضة بشكل مائل. وفى هذه النقاط العديدة فهى تشابه الصفائح الموجودة فى "البالين" بداخل فم الحوت. ولكن فى اتجاه طرف المنقار نجد أن هذه الصفائح تختلف كثيراً، وذلك لأنها تبرز فى اتجاه داخل الغم بدلاً من الاتجاه عمودياً إلى أسفل. والرأس الكامل لهذا "البط الجرفى"، مع أنه أقل ضخامة بدرجة غير قابلة للمقارنة، إلا أنه يكون جزءاً من ثمانية عشر جزءاً من طول رأس "الحوجن المنقارى" المتوسط الحجم، وفى هذا النوع من الحيتان فإن "البالين" يبلغ تسع بوصات فى الطول فقط. وبهذا فإذا كنا نريد أن نجعل رأس "البط الجرفى" فى مثل طول فك "الحوجن"، فإن الصفائح سوف تكون ست بوصات فى الطول، وهذا يعنى تلتى طول "البالين" فى هذا النوع من الحيتان. والفك الأسفل "لبط الجرفى" مزود بصفائح بنفس طول صفائح الفك الأعلى ولكنها أرفع، وكون الفك الأسفل مزوداً بهذه الصفائح، فإن ذلك يجعله مختلفاً بشكل واضح عن الفك السفلى للحوت، الذى نجده خالياً من "البالين". وعلى الجانب الآخر فإن الأطراف الخاصة بهذه الصفائح السفلية متهزئة إلى نهايات خشبية، وبهذا الشكل فإنها تمثل بشكل غريب الصفائح الخاصة ببالين فك الحوت وفى "طبقة الپريون"^(١) وهى تابعة لفصيلة "طيور النوء"^(٢)، نجد أن الفك العلوى وحده هو المزود بالصفائح، التى نجد أنها جيدة التكوين، وتبرز تحت حافة الفك، وبهذا الشكل فإن منقار هذا الطائر يشابه فم الحوت من هذه الوجهة. ومن الممكن أن نتقدم من التركيب المتطور جداً لمنقار "البط الجرفى" (حسبما وصل إلى علمى من المعلومات والعينات التى أرسلها إلى "السيد سالڤين" Mr. Salvin) -

Genus Prion

(١) طبقة الپريون

(٢) طيور النوء. وهى طيور بحرية صغيرة طويلة الجناحين، تمنع فى الطيران بعيداً عن اليابسة Petrel

بدون أى انقطاع كبير، فيما يتعلق بالقدرة على نخل الغذاء - إلى منقار "البط الغواص المدرع"^(١)، وفى بعض الاعتبارات إلى منقار "الأيكس ذى الزعانف"^(٢)، و إلى منقار البط المعتاد. وفى هذا النوع الأخير، فإننا نجد الصفائح أكثر خشونة مما هى عليه فى "المجرفى"، ونجد أنها ملتصقة إلى جوانب الفك، ويبلغ عددها حوالى ٥٠ فقط فى كل جانب، ولا تبرز إطلاقاً فيما بعد الحافة. وهى مربعة القمة ولها حافة من نسيج صلب شفاف، وكأنها معدة لسحق الطعام. وحواف الفك السفلى يتقاطع عليها العديد من التضليعات الدقيقة التى تبرز قليلاً جداً. وبالرغم من أن المنقار يصبح بهذا الكشل قليل الفائدة فى الاستخدام كمنخل بالمقارنة "بالبط المجرفى"، إلا أن هذا الطائر، كما يعلم الجميع، يستخدم منقاره فى هذا الغرض. وتوجد أنواع أخرى، كما بلغنى من "السيد سالفين"، نجد فيها أن الصفائح أقل تكويناً بدرجة كبيرة مما هى عليه فى البط المعتاد، ولكنى لا أعرف إن كانت هذه الأنواع تستخدم ومناقيرها فى نخل وتصفية المياه أم لا.

وبالانتقال إلى مجموعة أخرى من نفس الفصيلة، ففى "الأوزة المصرية"^(٣)، نجد أن المنقار يشابه إلى وجه قريب جداً منقار البط المعتاد، ولكن الصفائح ليست بنفس الكثرة، ولا هى منفصلة عن بعضها الآخر، ولا هى تبرز إلى الداخل إلى نفس الدرجة، إلا أن هذه الأوزة، كما بلغنى من "السيد إ. بارتليت" Mr. E. Bartlett، تستخدم منقارها مثلما تفعل البطة، وذلك بأن تقوم بنثر الماء خارج الفم عند أركانه. ومع ذلك فإن طعامها الأساسى هو الأعشاب، الذى تحصده كما تفعل الأوزة العادية. وفى هذا الطائر الأخير نجد أن الصفائح فى الفك العلوى أكثر خشونة مما هى عليه فى البط العادى، ومندمجة تقريباً مع بعضها البعض، وعددها حوالى ٢٧ فى كل جانب، وتنتهى إلى أعلى ببيروزات تشبه الأسنان. وسقف الحلق مغطى أيضاً ببيروزات صلبة مستديرة، وحواف الفك السفلى مسننة بأسنان بارزة وخشنة أكثر حدة بدرجة كبيرة عما هو فى البط. والأوز العادى لا يصفى الماء، ولكنه يستخدم منقاره على وجه التحديد فى انتزاع

Merganeta armata

Aix sponsa

Chenalopex = Egyption goose

(١) البط الغواص المدرع

(٢) الأيكس نو الزعانف

(٣) الأوزة المصرية

وقطع العشب والكلأ، ونجد أن المنقار ملائم لهذا الغرض لدرجة أنه يستطيع أن يحصد النجيل إلى مستوى أقصر من أى حيوان آخر. ويوجد هناك بعض الأنواع الأخرى من الأوز - كما سمعت من "السيد بارثليت" - والتي نجد فيها أن الصفائح على درجة أقل فى التكوين عما هى عليه فى الأوزة العادية.

وهكذا فإننا نرى أن عضوا من فصيلة البط، مزود بمنقار مصمم مثل منقار الأوز العادى ومهياً لمجرد الرعى وجز الحشائش، أو حتى نرى عضواً آخر له منقار مزود بصفائح أقل استكمالاً فى التكوين، من الممكن أن يتحول أى منهما عن طريق تغييرات بسيطة إلى نوع مثل "الأوز المصرى"، ومن هنا ينطلق التغيير إلى نوع مثل "البط العادى"، وأخيراً إلى نوع مثل "البط المجرى" المزود بمنقار مخصص على وجه القصر تقريباً لتصفية المياه، لأنه من الصعب على هذا الطائر أن يستخدم منقاره، فيما عدا الطرف المعقوف منه، فى القبض على ، أو تمزيق أى طعام صلب. ومنقار الأوزة - كما يعنى لى أن أضيف - قد يمكن تحويله بواسطة تغييرات بسيطة إلى منقار مزود بأسنان بارزة معقوفة إلى الخلف، مثل تلك المزود بها بط "البلقشة"^(١) (وهو ضرب من البط الغواص تابع لنفس العائلة) والذى يستخدمه فى غرض مختلف تماماً، ألا وهو القبض على السمك الحى.

ولنعد إلى الحيتان، "فالهيبودون ذو السننتين"^(٢) محروم من الأسنان الحقيقية بشكل فعال، ولكن بناء على ما أدلى به "لاسيبيد" Lacepede، فإن سقف حلقه قد اكتسب خشونة بواسطة أسنان صغيرة وغير متساوية وصلبة، مكونة من مادة قرنية. وبذلك فلا يوجد شىء غير محتمل فى افتراض أن شكلاً بدائياً من "الحيتانيات" كان مزوداً بأسنان قرنية مماثلة على سقف حلقه، ولكنها كانت مرتبة بطريقة أكثر انتظاماً، وأنها كانت مثل البروزات الموجودة على منقار الأوزة، تساعد فى الإمساك أو فى تمزيق طعامها. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من الصعب إنكار أن السنون قد تم تحولها من خلال التمايز والانتقاء الطبيعى إلى صفائح متطورة بهذا الشكل الجيد، مثل تلك

Merganser

Hyperoodon bidens

(١) البلقشة = ضرب من البط الغواص

(٢) الهيبودون ذو السننتين *

الموجودة فى "الأوز المصرى"، وفى هذه الحالة فإنها سوف تستخدم فى كل من القبض على الأشياء، وأيضاً فى تصفية المياه، ثم تطورت بشكل أكثر إلى صفائح مثل تلك الموجودة لدى "البط العادى"، وهكذا يستمر التقدم إلى أن تصبح جيدة التكوين كما نجدها فى "البط الجرفى"، وفى هذه الحالة فإن استخدامها سوف يكون مقصوراً ومحدداً على أنها أداة تصفية ونخل. ومن هذه المرحلة، التى قد تصل فيها الصفائح إلى ثلثى طول الصحف فى الخاصة بالبالين الموجودة فى الـ "الحوجن المنقارى"، فإن التدرجات التى من الممكن ملاحظتها فى الحيتانيات التى ما زالت موجودة إلى الآن، سوف تقودنا قدماً إلى الصحف الهائلة "للبالين" الموجود لدى "الحوث الجرينلاندى". كما أنه لا يوجد أى مجال بسيط للشك فى أن كل خطوة فى هذا المدرج قد كانت - على نفس المستوى من الكفاءة - لبعض الحيتانيات البدائية المعينة، مع أثناء حدوث التغيير البطيء لوظائف الأعضاء أثناء تقدم التطور، كما هو الحال فى التدرجات التى حدثت فى المناقير الخاصة بالأعضاء المختلفة الموجودة فى فصيلة البط. ويجب أن نتذكر دائماً أن كل نوع من البط يتعرض إلى كفاف مرير من أجل البقاء، وأن التركيب الخاص بكل جزء فى هيكله يجب أن يكون حسن التكيف مع ظروف الحياة.

"الأسماك الذات جنبيات"^(١) أو السمك المفلطح^(٢) هى مجموعة جديرة بالملاحظة وذلك يرجع إلى اللاتساوى الموجود بأجسادها. فهى ترتاح على جانب واحد، و هو الجانب الأيسر فى العدد الأكبر من الأنواع التابعة لهذه المجموعة، أو على الجانب الأيمن فى البعض منها، وتوجد أحياناً عينات ينعكس وضعها عند النضوج. والسطح المنخفض أو سطح الراحة يماثل لأول وهلة السطح البطنى لأى سمكة عادية: فإنه ذو لون أبيض، وأقل تكويناً فى الكثير من الأمور عن السطح الأعلى، والزعانف الجانبية الموجودة عليه فى الغالب أصغر فى الحجم. ولكن العيون هى التى تقدم أكبر ميزة جديرة بالملاحظة، ألا وهى أن كليهما موجودة على السطح الأعلى للرأس، مع أنهما تقعان كل واحدة مقابل الأخرى على كلا الجانبين، فى مرحلة النمو المبكرة، والتى

Peauronectidae

Flat-fish

(١) الأسماك المسطحة = الأسماك الذات جنبيات = السيطوحيات

(٢) السمك المفلطح

عندها يكون كل من جانبي الجسم متماثلين وكلاهما ملون بدرجة متساوية. وسريعاً ما تبدأ العين الحقيقية للجانب السفلى في الانزلاق ببطء حول الرأس إلى الجانب الأعلى، ولكنها لا تمر من خلال الجمجمة مباشرة، كما كان يظن في الماضي أن هذا هو ما يحدث. ومن الواضح أنه لو لم تقم هذه العين بهذه الرحلة حول الرأس، فإنها لم يكن سيتم استخدامها بواسطة السمكة في أثناء رقادها في وضعها المعتاد على جنب واحد. وهذه العين السفلى كانت ستصبح بالتالي معرضة للخدش بواسطة القاع الرملي. وهكذا نجد أن "الأسماك ذات جنبيات" متأقلمة بشكل يثير الإعجاب عن طريق تركيبها المفلطح وغير المتساوي الجانبين، ومن أجل سلوكياتها في الحياة. وهذا يبدو واضحاً على أنواع عديدة مثل "سمك موسى"^(١) و "الفلاندر"^(٢) وخلافه، وهي أمثلة كثيرة الشيوخ. ويبدو أن المزايا الأساسية التي تجنى من وراء هذا التعديل في التركيب هي الحماية من أعدائها، والسهولة في الغذاء من على الأرض. وفوق ذلك فإن الأعضاء المختلفة التابعة لهذه الفصيلة تقدم لنا - كما علق شويودت **Schiodte** : "قائمة طويلة من الأشكال التي تستعرض انتقالاً تدريجياً من "المارد اللساني البنجوسى"^(٣)، والذي لا يتغير بأى شكل ملحوظ عن الشكل الذى يترك فيه البيضة، إلى أسماك موسى التي يتم إسقاطها بالكامل إلى سطح واحد."

وقد أخذ "السيد ميفارت" هذه القضية، وعلق عليها بأن حدوث تحويل تلقائى مفاجئ في موضع العيون شيء صعب التصديق، وفي هذا أنا أوافقه تماماً. وعندئذ يضيف "لو أن الانتقال كان تدريجياً، فكيف يتأتى إذن لمثل هذا الانتقال لعين واحدة، لجزء بسيط من الرحلة في اتجاه الجانب الآخر من الرأس، أن يكون ذا نفع للفرد، فإن هذا حقاً لهو شيء بعيد عن الوضوح. وحتى إنه يبدو أن حدوث مثل هذا التحويل البدائى قد كان في الواقع شيئاً ضاراً" - ومن المحتمل أنه قد وجد إجابة لاعتراضه هذا في الملاحظات الممتازة التي نشرت في عام ١٨٦٧ بواسطة "مالم" **Malm**. "فإن

Soles

(١) سمك موسى

Flounders

(٢) سمك الفلاندرز = سمك مفلطح

Hippoglossus

(٣) المارد اللساني البنجوسى

الأسماك ذات جنبيات" عندما تكون صغيرة جداً وما زالت متماثلة الجانبين، وأعينها على كل من جانبي الرأس، لا تستطيع أن تحتفظ بوضع رأسى لوقت طويل، وذلك للعمق المفرط لأجسامها، وللحجم الصغير لزعانها الجانبية ولكونها محرومة من المثانة الهوائية. ولهذا فبمجرد أن تشعر بالتعب، فإنها تسقط إلى القاع على جانب واحد. وبينما هي فى مثل هذه الحالة من الراحة، فإنها - كما لاحظ "مالم" - كثيراً ما تدير العين السفلى إلى أعلى لترى ما فوقها، وهى تفعل ذلك بعنف إلى درجة أن العين تضغط بقوة قبالة الجزء الأعلى من المقلة. وبالتالي تصبح جبهة الرأس فيما بين العينين - كما يمكن مشاهدتها بوضوح - متقلصة فى العرض بشكل مؤقت. وفى إحدى الحالات، شاهد "مالم" سمكة يافعة ترفع وتخفض العين السفلى فى خلال زاوية مسافتها حوالى سبعين درجة.

ويجب أن نتذكر أن الجمجمة فى هذه المرحلة المبكرة من العمر غضروفية ومرنة، إلى درجة أنها تستسلم لتأثير العضلات. ومن المعروف أيضاً فى الحيوانات الأعلى، وحتى بعد مرحلة الشبوية المبكرة، أن الجمجمة تلين وأنها تتمايز فى الشكل، إذا ما ظل الجلد أو العضلات فى حالة انقباض بشكل دائم بسبب مرض أو حادث ما. ويحدث مع الأرنب ذات الأذان الطويلة، إذا ما تدلت أذن واحدة إلى الأمام والأسفل، فإن وزنها يسحب إلى الأمام جميع العظام التى فى الجمجمة على نفس الجانب، وقد صرح "مالم" بأن الصغار حديثى الفقس من البيض لأسماك "الفرخ"^(١) "والسلمون"^(٢) لديها العادة فى الاستراحة أحياناً على جانب واحد عند القاع، وقد لاحظ أنها عندئذ كثيراً ما تجهد أعينها السفلى إلى أقصى مدى لكى تستطيع أن تنظر إلى أعلى، وبالتالي فإن جماجمها صارت إلى حد ما معقوفة. وعلى كل حال فهذه الأسماك سريعاً ما تصبح قادرة على أن تحتفظ بنفسها فى وضع رأسى، وبهذا الشكل فإنها لا تعاني من أى تأثيرات دائمة. وعلى الوجه الآخر، فالأسماك ذات جنبيات" كلما كبرت، استراحت بحكم العادة على جنب واحد وذلك نتيجة الزيادة فى فلتحة

Perches

Salmon

(١) أسماك الفرخ = ضرب من السمك النهري

(٢) سمك السلمون = سمك سليمان

أجسادها، وبهذا يحدث تأثير دائم على شكل الرأس، وعلى موضع العينين. وقياساً على التناظر الوظيفي، فإن القابلية للانحراف، سوف تزيد بدون شك من خلال مبدأ الوراثة. ويؤمن "شيودت" خلافاً لبعض علماء التاريخ الطبيعي الآخرين، أن "الأسماك الذات جنبية" ليست متماثلة الجانبين تماماً حتى في مرحلة الجنين، وإذا كان الأمر كذلك، فإننا نستطيع أن نستوعب كيف أنه يحدث لبعض الأنواع المعينة، في فترة طفولتها، أن تسقط بشكل معتاد وترقد على الجانب الأيسر، وبعض الأنواع الأخرى على الجانب الأيمن. ويضيف "مالم" تأكيداً للرأى السابق، أن البالغ من "الإخشين القطبشمالي"^(١)، الذى ليس عضواً من "الأسماك الذات جنبيات"، يرقد على جنبه الأيسر على القاع، ويعوم بانحراف فى الماء، ويقال إن جانبي الرأس غير متماثلين بعض الشيء فى هذه السمكة. أما خبيرنا الكبير فى الأسماك "الدكتور جونثر" Dr. Gunther فينتهى فى ملخصه لبحث "مالم"، بتقديم تعليق بأن "المؤلف يعطى تفسيراً بسيطاً جداً للحالة الشاذة "للأسماك الذات جنبية".

وبهذا نرى أن المراحل الأولى لانتقال العين من جانب الرأس إلى الجانب الآخر، الذى يعتبر "السيد ميقاتت" أنه سيكون ضاراً، من الممكن أن يعزى إلى الاعتياد - الذى هو بلا شك نافع للفرد وللنوع - للسعى للنظر إلى أعلى بكتا العينين، أثناء الرقاد على جنب واحد على القاع. من الممكن أيضا أن نعزو ذلك إلى التأثيرات الموروثة نتيجة للاستعمال، طريقة تكوين الفم فى العديد من "السماك المفلطح"، فى كونه منثنياً فى اتجاه السطح السفلى، علاوة على كون عظام الفك أقوى وأكثر فاعلية على هذا الجانب من الرأس الخالى من العيون، عنه على الجانب الآخر، وذلك - كما يقترح "الدكتور ترا كوير" Dr. Traquair - من أجل تسهيل الاقتيات على الأرض. وعلى الجانب الآخر فإن عدم الاستخدام سوف يعطل الحالة الأقل تكويناً لمجمل النصف الأسفل من الجسم، متضمننا الزعانف الجانبية، مع أن "ياريل" Yarrell يظن أن الابتسار فى حجم هذه الزعانف ذو فائدة للسمكة، لأنه "يوجد مكان أصغر كثيراً لعملهما عما لدى الزعانف الأكبر العليا". وربما كان العدد الأقل للأسنان بنسبة من

أربعة حتى سبعة فى الأنصاف العليا لكل من فكى "سمك الموسيقى"، إلى من خمسة وعشرين حتى ثلاثين فى الأنصاف السفلى، من الممكن أن يعزى إلى عدم الاستخدام. ونتيجة إلى الحالة عديمة اللون للسطح الباطنى لمعظم الأسماك وللعديد من الحيوانات الأخرى، فنحن نستطيع أن نفترض بشكل معقول أن غياب اللون فى "الأسماك المفلطحة" على الجانب السفلى أياً كان - سواء كان الأيمن أو الأيسر - لهو نتيجة استبعاد الضوء. ولكن لا يمكن أن يفترض أن المظهر الأرقش (المبطع) المميز للجانب العلوى لسمك موسى، وهو غاية فى التماثل مع قاع البحر الرملى، أو القدرة الموجودة لدى بعض الأنواع - كما وضحها حديثاً "پوشيت" Pouchet - على تغيير لونها للمطابقة مع السطح المحيط بها، أو أن وجود درينات عظمية على الجانب العلوى لسمك الدرغ (التربوت)^(١)، هو نتيجة لمفعول الضوء. فالانتقاء الطبيعى هنا قد انضم غالباً إلى العملية، وذلك فى تكييف الشكل العام لجسم هذه الأسماك، والعديد من المميزات الأخرى، لتلائم سلوكياتها فى الحياة. ويجب أن نحتفظ فى أذهاننا - كما سبق وأبديت إصرارى - بأن التأثيرات الموروثة إما للزيادة فى استخدام الأطراف، أو لعدم استخدامها، سوف تزيد قوتها عن طريق الانتقاء الطبيعى. كما أن جميع التمايزات العفوائية، ما دامت فى الاتجاه الصحيح، فإنها سوف تصبح بالتالى محفوظة، وذلك ما سوف يحدث مع الأفراد، التى سوف ترث بالدرجة الأولى، نتائج الزيادة والاستفادة من استخدام أى جزء. أما مقدار ما يمكن أن نعزوه - فى كل حالة معينة - إلى تأثيرات الاستخدام، ومقدار ما يمكن أن نعزوه إلى الانتقاء الطبيعى، فهذا أمر يبدو أنه من المستحيل أن نقره.

ومن الممكن أن أقدم مثلاً آخر لتركيب يبدو أنه يدين بنشأته بالكامل إلى الاستخدام أو السلوك. فطرف الذيل فى بعض أنواع "القرود الأمريكية" قد تحور إلى عضو إمساك بالالتفاف على درجة مدهشة من الإتقان، يتم استخدامه بمثابة يد خامسة. وقد علق باحث موافق مع "السيد ميفارت" فى جميع التفاصيل، على هذا التركيب بـ "أنه من المستحيل أن نصدق - أنه فى أى عدد من الأحقاب - أن أول نزعة

ابتدائية بسيطة للإمساك، قد كانت قادرة على الحفاظ على حياة الأفراد الحائزة لها، أو أنها قد زادت من فرصتهما للحصول على ذرية، والقدرة على رعايتها". ولكن لا توجد ضرورة لمثل هذا المعتقد، فإن مصطلح السلوك، الذي هو في الغالب يقتضى ضمناً، أن بعض النفع سوف يستمد - كبيراً كان أم صغيراً - من خلاله، هو كفيل في جميع الاحتمالات بأن يكون كافياً للقيام بهذا العمل. ولقد شاهد "برهم" *Brehm*، صغار القرد الأفريقي (الذيال)^(١) متعلقة بالسطح السفلى لأمهاتها بواسطة أيديها، وقد قامت في نفس الوقت بعقف ذيولهما الصغيرة حول ذيول أمهاتها. وقد احتجز "الأستاذ هنسلو" *Professor Henslow* بعض فئران الحصاد (الفأر الميسوري)^(٢)، التي لا تمتلك ذيلاً معداً تركيبياً للإمساك، ولكنه لاحظ في مرات عديدة أنها قامت بلف ذيولها حول أغصان أجمه وضعتها لها في القفص، وبذلك ساعدت أنفسها على التسلق. وقد تسلمت تقريراً مماثلاً من "الدكتور جوتنر"، الذي شاهد فأراً يعلق نفسه بهذه الطريقة. ولو كان "فأر الحصاد" أكثر التزاماً والتصاقاً بالأشجار، فإنه قد كان من الجائز أن يصير ذيله عضواً إمساكياً من الوجهة التركيبية، كما حدث مع بعض الأعضاء من نفس الرتبة. أما لماذا لم يتزود "الذيال" بمثل هذه الميزة، مع الوضع في الاعتبار طريقة معيشتة وعاداته عندما كان صغيراً؟ - فذلك شيء من الصعب الإفتاء فيه. ومع ذلك فإنه من المحتمل أن الذيل الطويل لهذا القرد، قد يكون ذا منفعة له كعضو للمحافظة على الاتزان أثناء قيامه بوثباته الهائلة، أكثر من منفعته كعضو إمساك.

الغدد الثديية شائعة في جميع طائفة الثدييات، وهي ضرورية لتواجدها، ولهذا فلا بد أن تكون قد تكونت عند عهد بعيد جداً، ونحن لا نستطيع أن نعرف شيئاً إيجابياً حول طريقة تكوينها. وقد تساءل "السيد ميفارت" "هل من المعقول أن الصغير لأي حيوان قد حدث أنه نجا من الهلاك عن طريق امتصاصه مصادفة لنقطة من سائل قليل القيمة الغذائية، من غدة جلدية تابعة للأم، تضخمت عن طريق المصادفة؟ - وحتى إذا كان الأمر كذلك، فما هي الفرصة التي قد كانت موجودة لاستمرار وتثبيت هذا

Cercopithecus

Mus messorius

(١) الذيال = قرد من قرود أفريقيا الغربية، طويل الذيل

(٢) الفأر الميسوري

التمييز؟" - ولكن القضية لم توضع هنا بشكل عادل. فإنه من المعترف به بين معظم المؤمنين بمذهب النشوء أن الثدييات قد انحدرت من شكل حي جرابي، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الغدد الثديية قد تم تكوينها في البداية في داخل الكيس الجرابي. فإنه في حالة سمكة "حصان البحر"^(١) فبعد أن يفقس البيض، يتم احتضان الصغار لبعض الوقت بداخل كيس من هذا النوع. ويؤمن عالم أمريكي في التاريخ الطبيعي، هو "السيد لوكوود" Mr. Lockwood، مما شاهده من التكوين للصغار، أنها تتغذى على إفراز ناتج من الغدد الجلدية الموجودة في الكيس. وهكذا فإنه مع الأسلاف الأوائل للثدييات، وقبل أن تستحق أن تلقب بهذا التوصيف تقريباً، أفليس من المحتمل على الأقل أن تكون الصغار قد تمت تغذيتها بطريقة مماثلة؟ - وفي هذه الحالة، فإن الأفراد التي قامت بإفراز سائل ما، كان هو الأعلى في القيمة الغذائية إلى درجة أو أسلوب جعل له الصفات الخاصة بطبيعة اللبن، فهي التي سوف يمكنها، على المدى الطويل، من احتضان عدد أكبر من الذرية جيدة التغذية، وذلك أكثر من الأفراد التي تفرز سائلاً أكثر فقراً في المكونات، وهكذا فإن الغدد الجلدية المماثلة للغدد الثديية، سوف تتحسن أو تصير أكثر فاعلية. وذلك يتماشى مع المبدأ الشائع القبول المنادى بالتخصص، وذلك لأن الغدد التي تقع فوق مكان معين من الكيس، قد تصبح أكثر رفعة في التكوين عن الباقي، وعندئذ سوف تكون ثدياً، ولكنه سوف يكون في البداية بدون حلمة، كما نرى في "خلد الماء"^(٢) وهو في قاع مجموعة الثدييات. وللإجابة على التساؤل عن الوسيلة التي قد تمكنت بها الغدد الموجودة فوق مساحة معينة، من أن تصبح عالية التخصص أكثر من الأخرى، فأننا لا أدعى أنني قادر على أن أقرر سواء إذا كان قد تم بشكل جزئي من خلال التعويض للنمو، أم من تأثيرات الاستخدام، أم عن طريق الانتقاء الطبيعي.

وتكوين الغدد الثديية كان سيصبح بدون فائدة، وما كان سوف يحدث من خلال الانتقاء الطبيعي، إلا إذا كانت الصغار قادرة في نفس الوقت على المشاركة في عملية إنتاج الإفراز. ولا توجد صعوبة كبيرة في تفهم كيف تعلمت صغار الثدييات

Hippocampus

Ornithorhynchus

(١) سمك حصان البحر

(٢) خلد الماء

بالبداهة أن تمتص الثدي، أكثر من الصعوبة التي قد نجابها في فهم كيف أن فراريج الدجاجات التي لم تفقس بعد، قد تعلمت أن تحطم قشر البيض بواسطة الطرق عليها بمناقيرها المعدة خصيصاً لذلك، أو كيف حدث - بعد بضعة ساعات من مغادرة البيضة - أنها تعلمت أن تلتقط حبات الطعام. في مثل هذه الحالات فأكثر احتمالات الحل تكمن في أن السلوك قد تم اكتسابه في البداية بالممارسة عند سن أكثر تقدماً، ثم بعد ذلك انتقل إلى الذراري عند سن أكثر تبيكراً. يقال عن الكنغر الصغير إنه لا يقوم بالمص، ولكنه يتعلق فقط بحلمة أمه، التي لديها القدرة على حقن اللبن داخل فم نسلها النصف مكتمل والذي لا حول ولا قوة له. وتحت هذا العنوان، فقد علق "السيد ميشارت"، يقول "إذا لم تكن هناك أى استعدادات خاصة موجودة، فإن الصغير كان بالتاكيد سوف يختنق من إدخال اللبن إلى قصبته الهوائية. ولكن يوجد هناك استعداد خاص. فإن البلعوم مستطيل بدرجة أنه يرتفع إلى داخل النهاية الخلفية للمجرى التنفسي، وبهذا الشكل فإنه قادر على فتح مدخل حر للهواء في طريقة إلى الرئتين، في أثناء مرور اللبن بسلامة على كل جانب من جوانب هذا البلعوم الذى قد استطال، فإنه بهذا الشكل يستطيع الوصول إلى المرء الذى يقع خلفه بأمان. وعندئذ يتساعل "السيد ميشارت" عن كيف أزال الانتقاء الطبيعى، فى الكنغر البالغ (وفى معظم الثدييات الأخرى، على فرض أنها قد انحدرت من ضرب الكيسيات)، "هذا التركيب - الذى هو على الأقل - تام البراءة وغير ضار؟" - وإجابة هذا التساؤل فإننا نطرح التالى: أن الصوت - الذى هو بالتاكيد ذو أهمية كبيرة للكثير من الحيوانات، من الصعب أن يستخدم بكل قوته، ما دام البلعوم موجود فى داخل المجارى التنفسية، وقد اقترح "الأستاذ فلور" Professor Flower أن هذا التركيب كان من شأنه أن يتدخل بشدة فى تمكين أى حيوان من ابتلاع الطعام الصلب.

وسنخرج الآن لمسافة قصيرة إلى الأقسام الأدنى فى المملكة الحيوانية: "قنغذيات الجلد" (١) (نجوم البحر) (٢) وقنفاذ البحر (٣) ... وخلافه) مزودة بأعضاء ملفتة للنظر

(١) قنغذيات الجلد = طائفة من الحيوانات البحرية المزودة بشواك على جدها Echinodermata

Star-fish

(٢) نجوم البحر

Echinus = Sea-urchin

(٣) قنغذ البحر

تسمى "سويقات"^(١)، والتي تتكون عندما يكتمل تكوينها من كلابات ثلاثية الأصابع^(٢)، أى المكونة من ثلاثة أذرع مسننة، منطبقة بإحكام على بعضها البعض، وموضوعة على قمة ساق مرنة تتحرك بواسطة عضلات. وهذه الكلابات قادرة على القبض بقوة على أى شىء، وقد شاهد "ألكزاندر أجاسيز" Alexander Agassiz قنفاً بحرياً يمرر بسرعة جسيمات من البراز من كلابة إلى كلابة على طول خطوط معينة فى جسده، وذلك فى سبيل ألا يلوث صدفته. ولكن لا يوجد شك فى أنها بجانب إزالة الأقدار بجميع أنواعها، فإنها تساعد فى وظائف أخرى، وواحدة من هذه الوظائف الأخرى هى الدفاع.

فيما يتعلق بهذه الأعضاء، فإن "السيد ميفارت" يتساءل - كما فعل فى العديد من المواضع السابقة - عن "ما الاستخدام الموجود من هذه البدايات غير المكتملة الأولى لهذه التراكيب، وكيف تسنى على الإطلاق لمثل هذه التبرعات الابتدائية أن تحافظ على حياة قنفاً بحرياً واحداً؟" - ويضيف قائلاً "ولا حتى التكوين الفجائى لعملية التلقف والانطباق السريع كان سيصبح ذا فائدة بدون وجود الساق الحرة للتحريك، ولا كانت الأخيرة سوف تصبح ذات كفاءة بدون هذه الفكوك المنطبقة فجأة، وبالرغم من ذلك فإنه من غير الممكن لمجرد تعديلات لا نهائية دقيقة أن تستنبط، فى وقت واحد، هذه التوافقات المعقدة فى التركيب، وإنكار هذا فإنه يبدو وكأن الأمر لا يؤدى، فى قلبه، إلا إلى تأكيد تناقض ظاهرى مدهش". ومهما بيد هذا الأمر متناقضاً ظاهرياً مع آراء "السيد ميفارت"، فإن الكلابات ثلاثية الأصابع المثبتة بدون حركة عند القاعدة، ولكنها القادرة على فعل الانطباق السريع، هى بالتأكيد موجودة عند بعض نجوم البحر، ومن البديهي أن يتم استخدامهما - على الأقل جزئياً - كوسيلة للدفاع. و"السيد أجاسيز"، والذى أعتبر نفسه مديناً لكرمه الكبير فى الحصول على الكثير من المعلومات حول هذا الموضوع، قد أبلغنى أن هناك نجوماً بحرية أخرى، نجد فيها واحدة من الثلاث أذرع للكلابية قد اختزلت إلى دعامة للذراعين الأخرين، ومرة أخرى، فإنه يوجد بعض الطبقات التى نجد فيها أن الذراع الثالثة قد فقدت بالكامل. وفى

Pedicellariae

Tridactyle forceps

(١) سويقات

(٢) كلابات ثلاثية الأصابع

"تفذيذات الجلد"، فإن "م. بريير" M. Perrier يصف الصدفية وكأنها تحمل نوعين من السويقات، واحد منهما يشبه السويقات الخاصة بقتنذ البحر، والنوع الثانى يشبه سويقات "السياتانجوس"^(١)، ومثل هذه الحالات هى دائماً مثيرة للاهتمام لأنها تقدم الوسائل الخاصة بما يبدو أنه تغييرات فجائية، من خلال الإجهاض لواحدة من الحالتين الخاصتين بأحد الأعضاء.

فيما يتعلق بالمراحل، التى من خلالها قد نشأت هذه الأعضاء المثيرة للانتباه، فإن "السيد أجاسيز" يستنتج من أبحاثه الشخصية وأبحاث "مولر" Muller، أن السويقات الموجودة فى كل من نجوم البحر وقنفاذ البحر، يجب أن تعتبر بدون شك أنها أشواك متحولة، وهذا ما يمكن أن يستدل عليه من طريقة تكوينها فى الفرد، وأيضاً من خلال سلسلة طويلة وممتازة من التدرجات الموجودة فى أنواع وطبقات مختلفة، والتى مرت فى مراحل من حبيبات بسيطة، إلى أشواك عادية، إلى سويقات ثلاثية الأصابع مكتملة. وهذه التدرجات تمتد حتى إلى الطريقة التى تتمفصل بها كل من الأشواك العادية والسويقات إلى الصدفية، مصحوبة بالعصى الكلسية التى تدعمها. وفى بعض طبقات نجوم البحر فإن "نفس المجموعات قد تكون ضرورية من أجل إظهار أن السويقات ما هى إلا أشواك متشعبة متحورة. وهكذا فلدينا أشواك ثابتة لها ثلاثة فروع مشرشرة ومتحركة، موزعة على مسافات متساوية، وتمتفصلة مع الأشواك عند قواعدها، وعلى مستوى أعلى، وعلى نفس الشوكة، نجد ثلاثة فروع أخرى متحركة. وعندما تظهر هذه الفروع الأخيرة من قمة شوكة، فإنها فى الحقيقة تكون سويقة ثلاثية الأصابع بدائية، ومثل هذا الشئ من الممكن أن يرى على نفس الشوكة بالإضافة إلى الفروع الثلاثة السفلى. وفى هذه الحالة فإن التماثل فى الطبيعة الخاصة بين أذرع السويقات والفروع المتحركة، للشوكة شئ لا يقبل الخطأ. وعلى العموم فإن المستقر عليه هو أن الأشواك العادية تستخدم فى الحماية، وإذا كان الأمر كذلك، فلا يوجد داع للشك فى أن الأشواك المزودة بالفروع المشرشرة والمتحركة، يتم استخدامها بالمثل فى نفس الغرض، والشكل الذى هى عليه سوف يجعلها أكثر فاعلية، فبمجرد أن

تتقابل هذه الأشواك سوياً فإنها تعمل كجهاز للإمساك أو كجهاز للعض. وهكذا، فكل تدرج من شوكة ثابتة عادية إلى سويقة ثابتة كان له فائدة.

هذه الأعضاء فى بعض أجناس نجوم البحر، بدلاً من أن تكون ثابتة أو موجودة على دعامة غير متحركة، فإننا نجدها موضوعة على قمة ساق مرنة وذات عضلات، بالرغم من كونها قصيرة. وفى هذه الحالة فمن المرجح أن يتم استخدامها فى بعض الوظائف الإضافية علاوة على الدفاع. وفى قنفاذ البحر فمن الممكن تتبع الخطوات التى من خلالها قد أصبحت الشوكة الثابتة مربوطة بمفصلة إلى الصدفة وبهذا أصبحت متحركة. وكنت أود لو كانت هناك مساحة كافية للكتابة عن هذا، وذلك لأعطى عرضاً أكبر للملاحظات المشوقة "للسيد أجايز" المتعلقة بتكوين السويقات. فكما يضيف، فإن كل التدريجات الممكنة من الجائز أن نجدها بالمثل بين السويقات الخاصة بنجوم البحر، والخطاطيف الخاصة "بالأوفوريانيات"^(١) وهى مجموعة أخرى من قنفاذيات الجلد، ومرة أخرى بين سويقات قنفاذ البحر والأهلاب الخاصة "بخيارات البحر"^(٢)، والتي بدورها تتبع نفس الطائفة.

بعض الحيوانات المركبة، أو "المريجيات"^(٣) - كما قد أطلق عليها - وبالتحديد "المنطقيات"^(٤)، نجدها مزودة بأعضاء لافتة للنظر تسمى "العصفوريات"^(٥)، وهذه الأعضاء تختلف كثيراً فى التركيب فى الأنواع المختلفة، وفى أكثر حالاتها اكتمالاً، فإنها تشبه رأس ومنقار النسر فى حجم مصغر، جالسة على عنق، وقادرة على الحركة كما لو كانت فكاً سفلياً. وفى أحد الأنواع - الذى كان تحت ملاحظتى - فإن جميع العصفوريات التى على نفس الفرع تتحرك فى أغلب الأحيان فى وقت واحد إلى الخلف

Ophiurians (١) الأوفوريانيات = طائفة نجوم البحر الهشة (الثعبانية)

Holothuriae (٢) خيارات البحر = حيوان بحرى من قنفاذيات الجلد

Zoophtes (٣) المريجيات = الحيوانات النباتية = حيوانات لافقارية متعددة، تبدو

أشبه بالنبات من حيث الشكل وطريقة النمو (مثل المرجان وشقيق البحر والإسفننج).

Polyzoa = Cestoda (٤) المنطقيات = الشريطيات، ومنها الدودة الشريطية

Avicularia (٥) العصفوريات *

وإلى الأمام، مع إبقاء الفك السفلى مفتوحاً على مصراعيه، من خلال زاوية ٩٠ درجة تقريباً، ولمدة خمس ثوانى، وهذه التحركات تجعل كل جسم الحيوان يرتجف. وإذا ما تم لمس هذه الفكوك بإبرة، فإن الفكوك تقبض على الإبرة بشكل شديد إلى درجة إحداث اهتزاز فى الفرع كله .

ويورد "السيد ميفارت" هذه الحالة أساساً، بسبب الصعوبة المفترض وجودها فى تكوين هذه الأعضاء، وتحديداً فى تكوين العصفوريات "الخاصة بالمنطقيات" والسويقات الخاصة بقنغذيات الجلد، وهو يعتبرهما (متماثلين بشكل جوهري)، لكونهما قد تم تكوينهما من خلال الانتقاء الطبيعى، فى قسمين متباعدين جداً عن بعضهما من المملكة الحيوانية. ولكن فيما يتعلق بالتركيب، فأنا لا أستطيع أن أرى أى تشابه موجود بين السويقات ثلاثية الأصابع والعصفوريات، فالأخيرة تماثل بشكل أقرب كثيراً الكلابات^(١) أو الكماشات الموجودة فى القشريات، و"السيد ميفارت" قد تقدم بهذا التماثل لإظهارهما كمثال لصعوبة خاصة، أو حتى لإظهار تماثلهما لرأس ومنقار الطائر. والعصفوريات كما يعتقد كل من "السيد بوسك" Mr. Busk و"الدكتور سميت" Dr. Smitt، و"الدكتور نيتشه" Dr. Nitshe . وجميعهم من علماء التاريخ الطبيعى الذين درسوا بدقة هذه المجموعة - فإنها متشاكلة مع "الشبحيوانات"^(٢)، وخلاياها التى تكون "المريجيات"، والحافة أو الغطاء الخاص بالخلية هو المقابل للفك السفلى المتحرك للحيوان العصفورى. ومع ذلك فإن "السيد بوسك" ، لا علم له بأى تدرجات موجودة الآن بين حيوان شبحيوانى وحيوان عصفورى. ولذلك فإنه من المستحيل أن نخمن عن طريق أى من التدرجات المفيدة قد استطاع أحدهما أن يتحول إلى الآخر، ولكن ذلك لا يعنى بأى طريقة أن مثل هذه التدرجات لم تكن موجودة.

وبما أن الكلابات الخاصة بالقشريات تشابه إلى درجة ما العصفوريات الخاصة بالمنطقيات، وكلاهما يعمل كالكماشة، فإن الأمر قد يستحق العناء أن نوضح، أنه مع الأولى فإن هناك سلسلة طويلة من التدرجات النافعة ما زالت موجودة. وفى المرحلة

Chelae

(١) الكلابات = شبيهة بالكماشة فى أطراف القشريات والعنكبوتيات

Zooids

(٢) الشبحيوانات = حيوانات دنيئة مثل المرجانيات والموزات

الأولى وهى الأكثر بساطة، فإن العقلة الطرفية فى أحد الأطراف تنتهى إما على القمة المربعة للعقلة العريضة قبل الأخيرة، أو قبالة جانب كامل واحد، وبهذا الشكل فإنها تتمكن من القبض على أحد الأشياء، ولكن الطرف ما زال يستخدم كعضو للتحرك. ثم بعد ذلك فنحن نجد ركناً واحداً من العقلة العريضة قبل الأخيرة بارزاً قليلاً، وفى بعض الأحيان مزوداً بأسنان غير منتظمة، وفى مواجهة هذه الأسنان تنتهى العقل الطرفية. وبواسطة الزيادة فى الحجم لهذا البروز، مع شكله وشكل العقلة الطرفية المعدلة قليلاً والمحسنه، فإن الكماشات تصبح أكثر فاعلية اكتمالاً، إلى أن نحصل فى النهاية على أداة ذات كفاءة مثل كلابات جراد البحر^(١)، ومن الممكن بالفعل أن نتبع كل هذه التدريجات.

بالإضافة إلى العصفوريات، فإن المنطقيات لديها أعضاء غريبة تدعى "الأسواط"^(٢)، وهى تتكون عادة من شعر غليظ طويل، قادر على الحركة ومن السهل إثارته. وفى أحد الأنواع التى قمت بفحصها بنفسى، وجدت أن الأسواط كانت متقوسة بشكل بسيط ومشرشرة على طول الحافة الخارجية، وجميع الأسواط الموجودة على هذه المنطقية كانت تتحرك فى أغلب الأحيان فى توقيت واحد، وبهذا الشكل فهى معدة للاستخدام كمجاديف طويلة، وقد تمكنت من جرف أحد الأغصان بسرعة عبر العدسة الشبكية فى المجرى الخاص بى. وعندما تم وضع غصن على وجه الحيوان، تشابكت الأسواط مع بعضها، وقامت بمحاولات عنيفة لتحرير نفسها. ومن المفروض أن هذه الأسواط تفيد كوسيلة دفاع، ومن الممكن رؤيتها - كما يعلق "السيد باسك" - وهى تنجرف ببطء وحرص فوق سطح الحزازيات، مزيلة ما قد يكون ضاراً بالسكان الناعمة للتجاويف عندما تكون مجساتها ناتئة". والعصفوريات، مثل الأسواط، تستخدم فى الغالب فى الدفاع، ولكنها أيضاً تمسك وتقتل الحيوانات الحية الصغيرة، والتى يعتقد أنها بعد ذلك يتم اكتساحها بواسطة التيارات لتصبح فى متناول مجسات الشبكيوانات. ونجد أن بعض الأنواع مزود بعصفوريات وأسواط، وبعضها الآخر بعصفوريات فقط، والقليل منها بأسواط فقط.

Lobster

(١) جراد البحر = الكركند = الإستاكوزا

Vibracula

(٢) الأسواط

ليس من السهل أن نتصور أنه يوجد شيئان أكثر اختلافاً في المظهر من شعرة غليظة أو سوط، وعصفورية مثل رأس الطائر، ومع ذلك فمن المؤكد تقريباً أنهما متناظران وقد تم تكوينها من المصدر المشترك نفسه، وتحديداً شبحيوانية ومعها نخروبها^(١). ومن ثم فيمكننا أن نفهم - كما أبلغني "السيد بوسك" - كيف تدرجت هذه الأعضاء، في بعض الحالات، إلى بعضها البعض. وهكذا فمع العصفوريات الخاصة بالعديد من أنواع "الحرشفيات"^(٢) فالفك المتحرك قد برز إلى هذا الحد وأصبح مشابهاً جداً لشعرة غليظة، إلى حد أن تواجد منقار علوى أو ثابت هو وحده كفيل بتحديد طبيعته العصفورية. ومن الممكن أن تكون الأسواط قد تكونت من حواف الخلايا، بدون أن تمر من خلال المرحلة العصفورية، ولكن الذى يبدو أكثر احتمالاً أنها قد مرت في خلال هذه المرحلة، فمن الصعب أن تكون الأجزاء الأخرى من النخروب مع ما يحتويه من شبحيوان قد اختفت مرة واحدة في أثناء المراحل المبكرة للتحويل. وفي العديد من الحالات نجد أن الأسواط لها دعامة ذات أخدود عند القاعدة، والتي يبدو أنها تمثل المنقار الثابت، مع أن هذه الدعامة غير موجودة إطلاقاً في بعض الأنواع. وهذه الرؤية عن تكوين الأسواط، إذا كانت لها مصداقية، فهي مثيرة للاهتمام، فإنه بافتراض أن كل الأنواع التي قد كانت مزودة بعصفوريات قد أصبحت مندثرة، فلن يوجد أحد مهما بلغت قوته على التخيل يستطيع على الإطلاق أن يفكر في أن الأسواط قد تواجدت في الأصل كجزء من أجزاء عضو يشابه رأس طائر أو صندوقاً غير منتظم أو قلسوة. وإنه من المشوق أن نرى مثل هذين العضوين الشديدي الاختلاف قد نشأ من أصل واحد، وأنه بما أن الحافة المتحركة للخلية تفيد كحماية للشبحيوان، فلا توجد صعوبة في تصديق أن كل التدرجات التي بواسطتها قد تحولت الحافة أولاً إلى فك سفلى لعصفورية ثم إلى شعرة غليظة مستطيلة، قد تم استخدامها بالمثل كوسيلة دفاع بطرق مختلفة وتحت ظروف مختلفة.

Cell

(١) نخروب = خلية = صومعة = حجيرة = زنزانة = تجوف

Lepralia

(٢) الحرشفيات *

وفيما يتعلق بالمملكة النباتية، فإن "السيد ميقات" يلمح إلى حالتين، وهما بالتحديد ، تركيب زهور السحلبيات (الأوركيديات)، وتحركات النباتات المتسلقة. وفيما يتعلق للحالة الأولى، فهو ينص على: "التفسير الخاص بمصدرهما يعتبر غير مرض وغير واف إطلاقاً لتفسير البدايات الابتدائية اللانهائية لتراكيب تستخدم فقط عندما ترتقى إلى درجة عالية". وبما أنى قد عالجت هذا الموضوع بشكل كامل فى بحث آخر، فإننى سأكتفى بإعطاء بعض التفاصيل عن واحد فقط من أكثر المميزات إثارة للانتباه فى زهور السحلبيات وهى تدعى "اللاقوحات"^(١) . واللاقوح^(٢) عندما يكون كامل التكوين يتكون من كتلة من حبوب اللقاح، مثبتة على سويقة أو حامل اللقاح^(٣)، وهذا بدوره على كتلة صغيرة من مادة لزجة جدا وهذه اللاقوحات بهذه الطريقة تنتقل بواسطة الحشرات من إحدى الزهور إلى ميسم زهرة أخرى. وبعض السحلبيات لا يوجد بها ذنيب لكتل اللقاح، وحبوب اللقاح فيها مجرد مريوطة مع بعضها بخيوط دقيقة. ولكن بما أن هذه الخاصية ليست مقصورة على السحلبيات فقط، فلا داعى لأن نعيها انتباها، وبالرغم من ذلك فيمكننى أن أذكر أنه عند أدنى مستوى من المجموعة السحلبية، ألا وهى نبات "خف السيدة"^(٤)، فإننا نستطيع أن نرى كيف تكونت هذه الخيوط فى البداية. وفى سحلبيات أخرى نجد أن الخيوط تلتحم عند طرف واحد من كتل اللقاح، وهذا يمثل الأثار الأولى أو حديثة التكوين لحامل اللقاح. وهذا هو أصل حامل اللقاح، حتى ولو كان صاحب طول ملحوظ أو عالى الارتقاء، وعندنا على ذلك دليل قوى فى صورة حبوب اللقاح المجهضة، والتي نستطيع فى بعض الأحيان أن نعثر عليها مضمورة بداخل الأجزاء المركزية الصلبة لحامل اللقاح.

وفيما يتعلق بالخاصية الأساسية الثانية، ألا وهى الكتلة الصغيرة المكونة من مادة شديدة اللزوجة والمثبتة فى نهاية حامل اللقاح، فهناك سلسلة طويلة من التدرجات يمكن

(١) اللاقوحات = كتلة من اللقاح أو غبار الطلع = ملاقيح Pollinia

(٢) اللاقوح = الملقاح Pollinium

(٣) حامل اللقاح = ذنيب Caudicle

(٤) خف السيدة = نبات من الفصيلة السحلبية نو زهر شبيه بالخف Cypripedium = Lady's slipper

تتبع مواصفاتها، كل منها له فائدة بسيطة للنبات. ففي معظم الأزهار التابعة لرتب أخرى نجد أن الميسم يفرز كمية قليلة من مادة لزجة. ونحن نجد حالياً سحلبيات معينة تفرز مادة لزجة مشابهة، ولكن بكميات أكبر بكثير، بواسطة ميسم واحد فقط من المياسم الثلاثة، وهذا الميسم - ربما نتيجة هذا الإفراز الغزير - يصبح عقيماً. وعندما تزور حشرة ما إحدى الزهور من هذا النوع، فإنها تزيل بعضاً من هذه المادة اللزجة، وبهذا تجرف معها فى نفس الوقت بعضاً من حبوب اللقاح. ومن هذه الحالة البسيطة، والتي لا تختلف إلا قليلاً عن حالة العديد من الزهور العادية، توجد تدرجات لا نهاية لها، مثل تلك الأنواع التى تنتهى فيها كتلة اللقاح بحامل لقاح حر وقصير جداً - إلى الأنواع الأخرى التى يصبح الميسم فيها مرتبطاً بإحكام إلى المادة اللزجة، مع التحور الشديد للميسم العقيم. وفى هذه الحالة الأخيرة نجد أن لدينا لاقوحاً فى أقصى حالات التكوين وفى حالة مكتملة. والذى سوف يقوم بفحص دقيق بنفسه للزهور الخاصة بالسحلبيات فإنه لن ينكر التواجد لهذه السلسلة من التدرجات السابقة - من كتلة من حبوب اللقاح مجرد مترابطة مع بعضها البعض بخيوط، مع اختلاف بسيط فى الميسم، عما نجده فى أى زهرة عادية - إلى لاقوح غاية فى التعقيد معد بصورة تدعو إلى الإعجاب للانتقال بواسطة الحشرات، ولين ينكر أن جميع التدرجات فى الأنواع المختلفة هى متكيفة بطريقة تدعو للإعجاب فيما يتعلق بالتركيب العام لكل زهرة حتى يمكنها أن تتلقح بواسطة الحشرات المختلفة. فى هذه الحالة، وتقريباً فى كل الحالات الأخرى، فإنه يمكن الرجوع بالتساؤل بدرجة أكثر إلى الخلف، ويمكن أن نسأل أنفسنا كيف استطاع ميسم زهرة عادية أن يصبح لزجاً، ولكن بما أننا لا نعرف التاريخ الكامل لأى مجموعة ما من الكائنات، وكما أنه لا توجد فائدة من التساؤل، فإنه من المستحيل أن نحاول تقديم إجابة لمثل هذه الأسئلة.

سنلتفت الآن إلى النباتات المتسلقة، وهذه من الممكن أن تنتظم فى سلسلة طويلة، تبدأ من تلك التى تلتف ببساطة حول دعامة، إلى تلك التى قد أطلقت عليها أنا اسم "متسلقات ورقية"^(١)، وإلى تلك المزودة بمحاليق^(٢). وفى هاتين الطائفتين الأخيرتين

Leaf - climbers

(١) متسلقات ورقية *

Tendrils

(٢) المحلاق = الحالق = جزء لولبي رفيع من النبتة المعرشة يساعدها فى التعلق

بساندها (جمعها محاليق).

فالسيقان - بصفة عامة، ولكن ليس دائماً - قد فقدت القدرة على الالتفاف، مع أنها قد احتفظت بالقدرة على الدوارن، وهى القدرة التى تمتلكها أيضاً المحاليق. والتدرجات من المتسلقات الورقية إلى حاملات المحاليق متقاربة بشكل مدهش، وبعض النباتات قد يختلط توصيفها بين هاتين الطائفتين. ولكن عند الارتفاع بالسلسلة من ملتفات بسيطة إلى متسلقات ورقية، نجد أن خاصية مهمة قد أضيفت، وهى بالتحديد الحساسية للمس، والتى بواسطتها تتم إثارة سويقات الأوراق أو الزهور، أو السويقات التى قد تحولت وتحولت إلى محاليق، لكى تنتنى حول، وتحتضن الشيء الملامس لها. والذى سوف يقرأ مذكراتى حول هذه النباتات، فأظن أنه سوف يعترف بأنه كلما زادت التدرجات فى الوظيفة والتركيب بين الملتفات البسيطة وحاملات المحاليق، فإن فى ذلك نفعاً ذا قيمة عالية للأنواع فى كل حالة. فعلى سبيل المثال، فإنه من الواضح أن من المفيد جداً لنبات ملتف أن يصبح متسلفاً ورقياً، ومن المحتمل أن كل نبات ملتف يمتلك أوراقاً بسويقات طويلة، قد كان من الممكن أن يتحول إلى متسلق ورقى، إذا ما امتلكت السويقات بأى درجة ولو تافهة الحساسية المطلوبة للمس.

وبما أن الالتفاف هو أبسط وسيلة للصعود على دعامة، وهو يكون الأساسيات الخاصة بسلسلتنا، فإنه من الطبيعى أن يثور التساؤل حول كيفية اكتساب النباتات لهذه القدرة وهى فى مرحلتها الابتدائية، لتتحسن فيما بعد وتزيد من خلال الانتقاء الطبيعى. وتعتمد القدرة على الالتفاف فى المقام الأول، على أن تكون السيقان فى مراحلها الغضة مرنة جداً (ولو أن هذه الخاصية شائعة فى العديد من النباتات التى ليست متسلقة)، وفى المقام الثانى على انثنائها باستمرار إلى جميع المواقع المحيطة، واحداً تلو الآخر بالتوالى وبنفس الترتيب. وهذه الحركة تجعل السيقان تميل إلى جميع الجوانب، وتحت على استمرارها فى حركة دائرية. وبمجرد اصطدام الجزء الأسفل من الساق مع أى عائق ويتوقف، فإن الجزء العلوى يستمر فى الانثناء والدوران، وهكذا بالضرورة فإنه يلتف حول وإلى أعلى الجسم الذى يستند إليه. وهذه الحركة الدائرية تتوقف بعد النمو المبكر لكل برعم للأغصان. وبما أنه يوجد فى الفصائل المتباعدة جداً من النباتات، أنواع منفردة وطبقات منفردة تمتلك القدرة على الدوران، وقد أصبحت

بالتالى ملتفات، فإنها قطعاً قد اكتسبت هذه الخاصية بطريقة مستقلة، ولا يمكن أن تكون قد ورثتها عن سلف مشترك. وبناء على ذلك فقد انسقت إلى التنبؤ بأن بعض القابلية البسيطة لحركة من هذا النوع سنجدها موجودة - بشكل بعيد عن أن يكون غير معتاد - فى النباتات التى لا تتسلق، وأن هذا هو الذى وضع القواعد للانتقاء الطبيعى للاستمرار فى العمل والتحسين. وعندما قمت بهذا التنبؤ، كان كل ما وصل إلى علمى هو حالة واحدة منفردة وغير مثالية، ألا وهى السويقات الغضة لزهور إحدى "المورانديات"^(١) التى كانت تدور قليلاً وبطريقة غير منتظمة، مثل سيقان النباتات الملتفة، ولكن بدون الاستفادة من هذه العادة. وبعد ذلك مباشرة اكتشف "فرتز مولر" Fritz Muller أن السيقان الغضة لأحد نباتات "لسان الجمل"^(٢) وأحد نباتات "الكتان"^(٣) - وهى نباتات لا تتسلق، وبعيدة جداً عن بعضها فى النظام الطبيعى - إلا أنها تدور بشكل واضح، ولو بطريقة غير منتظمة، وصرح بأن لديه ما يثير الشك فى أن هذا يحدث مع بعض النباتات الأخرى. وهذه الحركات البسيطة تبدو أنها عديمة الفائدة للنباتات تحت البحث، وعلى كل حال، فإنه ليس لها أى قدر ولو قليلاً فى طريق التسلق، وهذه هى النقطة التى تدخل فى اعتبارنا. وبالرغم من ذلك فإننا نستطيع أن نرى أنه لو كانت سيقان هذه النباتات مرنة، وإذا كانت هناك فائدة ترجى - تحت الظروف التى تتعرض لها هذه النباتات - من الصعود إلى ارتفاع ما، عندئذ فإننا قد نجد أن عادة الدوران قليلاً وبغير انتظام كانت ستزيد، ويتم الاستفادة بها من خلال الانتقاء الطبيعى، إلى أن تتحول هذه النباتات إلى أنواع ملتفة كاملة التكوين.

أما فيما يتعلق بالحساسية الخاصة بسويقات الأوراق والزهور والمحاليق، فإن نفس الملاحظات سوف تنطبق كما هى فى حالة الحركات الدائرية للنباتات الملتفة. وبما أن عدداً كبيراً من الأنواع التابعة إلى مجموعات عريضة التباين، موهوبة بمثل هذا النوع من الحساسية، فإنه من المتوقع أن نجدها فى حالة ابتدائية فى الكثير من

Maurandia

(١) نباتات المورانديا

Alisma

(٢) نبات لسان الجمل = أذان العنز = فرمار الراعى

Linum (Usitatissimam)

(٣) نبات الكتان

النباتات التي لم تصيح بعد من المتسلقات. وهذا ما حدث: فقد لاحظت أن السويقات الغضة لزهور النبتة الموراندية السابق ذكرها، قد قوست نفسها قليلاً إلى الجانب الذي لامسته. وقد وجد "مورين" Morren في العديد من أنواع نبات "الحميض" (١) أن الأوراق وسويقاتها تحركت، خاصة بعد التعرض لشمس ساخنة، أو عندما كان يتم لمسها برقة وتكرار، أو عندما يتم هز النبات. وقد كررت أنا هذه المشاهدات على بعض الأنواع الأخرى من الحميضيات وخرجت بنفس النتيجة، ففي البعض منها كانت الحركة واضحة، ولكنها كانت تشاهد بأفضل شكل في الأوراق الغضة، بينما في الأوراق الأخرى كانت بسيطة جداً. وتوجد حقيقة أشد أهمية مستمدة من الخبرة العالية لهوفميستر "Hofmeister" - وهي أن براعم الأغصان والأوراق الخاصة بجميع النباتات تتحرك بعد تعرضها للهز، وكما نعلم عن النباتات المتسلقة، فإن السويقات والمحاليق تكون حساسة، في المراحل المبكرة فقط من النمو.

ونادراً ما يكون محتملاً أن التحركات البسيطة السابق ذكرها، سواء استجابة للمسة أو هزة، في الأغصان الغضة والنامية للنباتات، قد يكون لها أى أهمية وظيفية لها. ولكن النباتات تمتلك قدرات على الحركة ذات أهمية واضحة لها، وهذه القدرات على الحركة، تستجيب إلى المحفزات المختلفة، مثلاً في الاتجاه إلى الشمس أو الشيء الأندر هو الاتجاه بعيداً عنها، وفي الاتجاه المضاد والأكثر منه ندرة هو في نفس اتجاه الجاذبية الأرضية. وعندما تتم إثارة الأعصاب والعضلات الخاصة بحيوان ما، بواسطة التعرض لتيار كهربائي جلفاني أو بواسطة امتصاصه لمادة الإستركنين، فإن التحركات الناتجة عن ذلك قد يمكن أن نطلق عليها أنها نتيجة حادث عرضي، لأن الأعصاب والعضلات لم تكن قد أعدت خصيصاً لتكون حساسة لهذه المحفزات. وبهذا الشكل فيبدو أنه في النباتات، نتيجة لحيازتها القدرة على التحرك استجابة لمحفزات معينة، فإنها تستثار بطريقة عرضية بواسطة لمسها، أو بواسطة هزها. وبهذا الشكل فإنه لا توجد صعوبة كبيرة في الاعتراف بأنه في حالة المتسلقات الورقية وحاملات المحاليق، فإن هذه القابلية هي التي قد تم استغلالها وزيادتها من

خلال الإنتقاء الطبيعي. ومع ذلك فإنه من المحتمل، ولأسباب قد حددتها في مذكراتي، أن هذا قابل للحدوث فقط مع النباتات التي قد كانت قد اكتسبت بالفعل القدرة على الدوران، وأصبحت بذلك من الملتفات.

وقد حاولت بالفعل أن أفسر كيف أصبحت بعض النباتات ملتفة، وقد تم ذلك تحديداً، بواسطة الزيادة فى القابلية لحركات دورانية بسيطة وغير منتظمة، والتي كانت فى البداية بدون أى فائدة لها. هذا التحرك، علاوة على الحركة نتيجة لمسة أو هزة، كانت هى النتيجة العرضية للقدرة على الحركة التى قد اكتسبت لأغراض أخرى ومفيدة. و عما إذا كان قد حدث أثناء التدرج فى تكوين النباتات المتسلقة، أن تلقى الانتقاء الطبيعي المساعدة من التأثيرات الوراثية للاستخدام، فأنا لن أدعى القدرة على أن أقرر ذلك، ولكننا نعرف أن تحركات دورية معينة، مثل المسماه "سبات النباتات"^(١)، محكومة بواسطة الاعتياد.

وقد تأملت بما فيه الكفاية، وربما أكثر مما فيه الكفاية، فى الحالات التى تم اختيارها بعناية بواسطة علماء أكفاء فى التاريخ الطبيعى، لإثبات أن الانتقاء الطبيعى عاجز عن تسبب المراحل الابتدائية للتراكيب المفيدة، وأرجو أن أكون قد أظهرت، أنه لا توجد صعوبة كبيرة تحت هذا العنوان. وبالتالي فقد سنحت لى فرصة جيدة للتوسع قليلاً فى موضوع تدرجات التراكيب، والذى كثيراً ما يرتبط مع موضوع التغير فى الوظائف، وهو موضوع مهم لم يعالج باستطراد كاف فى الطبقات السابقة لهذا البحث. وسوف أخص الآن باختصار الحالات السابقة.

عندما نتناول الزراف، فإن المحافظة المستمرة على الأفراد التابعة لبعض الحيوانات المجتررة، العالية الوصول، والمندثرة، والتي كان لديها أطول الأعناق والأرجل وخلافه، وكان باستطاعتها أن ترعى على مستوى أعلى قليلاً من المتوسط للطول، مع التدمير المستمر لهذه التى لم يستطيعوا الرعى على هذا الارتفاع، كانت سوف تصبح عوامل كافية لإنتاج هذه الحيوانات الرباعية الأرجل المثيرة للانتباه، ولكن

الاستخدام المتطول المدة لجميع الأجزاء علاوة على الوراثة، كان من شأنه المساعدة بشكل مهم فى تنسيق عمل هذه العوامل. ومع وجود الكثير من الحشرات التى تحاكي الأشياء المختلفة، فإنه لا يوجد أى احتمال لعدم التصديق، فى أن تشابهاً عارضاً مع أحد الأشياء الشائعة، كان فى كل حالة هو الأساس لمفعول الانتقاء الطبيعى، الذى اكتمل منذ ذلك الحين من خلال الحفاظ العرضى على اختلافات بسيطة، كانت هى التى جعلت هذا التماثل أقرب على الإطلاق. وقد كان هذا سوف يستمر ما دامت الحشرة مستمرة فى التمايز، وما دامت هناك تماثلات أكثر فأكثر اكتمالاً قد أدت إلى هروبها من أعدائها ذات الإبصار الحاد. وفى بعض أنواع الحيتان فإنه توجد قابلية إلى تكوين بروزات قرنية صغيرة على سقف الحنك، ويبدو أنه من صميم نطاق الانتقاء الطبيعى المحافظة على جميع التعديلات الإيجابية، وبذلك فقد تحولت البروزات فى أول الأمر إلى كتل مصفحة أو أسنان، مماثلة لتلك الموجودة على منقار الأوزة - ثم إلى صفائح قصيرة، مثل الموجودة فى البط المنزلى - ثم إلى صفائح فى مثل اكتمال الصفائح الخاصة بالبط الجرفى، وأخيراً إلى الصفائح الهائلة الخاصة بالبالين، الموجودة فى فم حوت جرينلاند. وفى فصيلة البط، فإن الصفائح قد استخدمت أولاً كأسنان، ثم جزئياً كأسنان وجزئياً كجهاز تصفية، وفى النهاية اقتصر استخدامها بصورة شبه كاملة على هذا الغرض الأخير.

فى حالة مثل هذه التراكيب التى قد سبق ذكرها، كالصفائح القرنية أو عظمة الحوت، فإن السلوك أو الاستخدام - حسب قدرتنا على الحكم - لم يكن له دور أو كان له دور صغير فى اتجاه تطورها. وعلى الوجه الآخر فإن انتقال العين السفلى للسماك المفلطح إلى الجانب العلوى من الرأس، وتكوين ذيل إمساكى، هى تغييرات من الممكن أن تعزى بالكامل تقريباً إلى الاستخدام المستمر، بالإضافة إلى الوراثة. أما فيما يتعلق بالأنثى فى الحيوانات العليا - فأكثر التخمينات احتمالاً - أنه قد حدث فى البداية أن الغدد الجلدية المغطية لكل سطح الكيس الجرابى قد بدأت فى إفراز سائل مغذ، وأن وظائف هذه الغدد قد تم تحسينها من خلال الانتقاء الطبيعى، وتم تركيزها فى منطقة محدودة، وهى التى فى هذه الحالة سوف تكون ثدياً. ولا توجد صعوبة كبيرة فى فهم كيف أن الأشواك المتفرعة لبعض قنفيات الجلد العتيقة، والتى قد تم استخدامها فى

الدفاع، قد أصبحت متطورة من خلال الانتقاء الطبيعي إلى سويقات ثلاثية الأصابع، ولا في فهم تكوين كلابات القشريات من خلال تعديلات مفيدة بسيطة في العقلات النهائية وقبل النهائية لأحد الأطراف، والتي كانت تستخدم من قبل للانتقال فقط. ونجد في العصفوريات والسوطيات التابعة إلى الحيوانات الحزازية أعضاء تختلف بشدة في المظهر ولكنها تكونت من نفس المصدر، وفي حالة السوطيات فمن الممكن أن نفهم كيف كانت للتدرجات المتتابة منفعة. وفي حالة لاقوحات السحلييات، فإن الخيوط التي تد تم استخدامها في الأصل لربط حبوب اللقاح بعضها إلى البعض، من الممكن أن نتبعها وهي تلتصق مع بعضها لتكوين حوامل للقاح، وبالمثل فمن الممكن تتبع الخطوات التي قد سارت فيها مادة لزجة، مثل التي تفرزها مياسم الزهور العادية، والتي ما زالت تستخدم - تقريباً ولكن ليس تماماً - في نفس الغرض، قد أصبحت مرتبطة مع الأطراف الحرة للاقوحات - كل هذه التدرجات كان لها فائدة واضحة للنباتات التي نحن بصدها الآن. أما فيما يتعلق بالنباتات المتسلقة، فأنا غير محتاج لأن أكرر ما سبق لي قوله مؤخراً.

وكثيراً ما ثارت بعض التساؤلات عن التالي: إذا كان الانتقاء الطبيعي بهذه الكفاءة، فلماذا لم تكتسب بعض الأنواع هذا التركيب أو ذلك، والذي كان من الواضح أنه سوف يكسبهم مميزات تفضيلية؟ - ولكنه من غير المنطقي أن نتوقع إجابة محددة لمثل هذه التساؤلات، عندما نضع في الاعتبار جهلنا بالتاريخ الماضي لكل نوع من الأنواع، وللظروف التي تحدد في وقتنا الحالي أعدادها ومآلها. وفي معظم الحالات فالأسباب العامة فقط - ولكن في بعض الحالات القليلة فأسباب خاصة أيضاً - هي التي يمكن أن نعزو إليها ما حدث. وهكذا فلكي نهى أحد الأنواع الحية لسلوكيات جديدة للحياة، فإن الكثير من التحورات المترابطة لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً تقريباً، وكثيراً ما حدث أن الأجزاء المطلوبة لم يتم تعديلها إلى النمط الصحيح أو إلى الدرجة المطلوبة. وقد كان من الضروري منع العديد من الأنواع من الزيادة في العدد وذلك عن طريق عوامل مدمرة، والتي لم يكن لها أى علاقة بتراكيب معينة، وهي التي نتخيل أنها قد اكتسبت من خلال الانتقاء الطبيعي، بناء على ما يظهر لنا من منفعتها لأنواع الحيوانات. وفي هذه الحالة، فيما أن الصراع على الحياة لم يعتمد على مثل

هذه التراكيب، فإنه من المستبعد أن تكون قد اكتسبت من خلال الانتقاء الطبيعي. وفي الكثير من الحالات، نجد أن ظروفاً معقدة ومستمرة لمدة طويلة، وكثيراً ما تكون ذات طبيعة خاصة، هي عوامل ضرورية لعملية التكوين لأحد التراكيب، وأن الظروف الملحة كانت نادراً ما تحدث متزامنة في وقت واحد. والاعتقاد بأن أي تركيب معين - والذي كثيراً ما نظن عن طريق الخطأ - من المحتمل أنه سوف يكون مفيداً لنوع ما، قد كان سيصبح مكتسباً تحت جميع الظروف من خلال الانتقاء الطبيعي، هو شيء مخالف لما نستطيع أن نفهمه عن أسلوب عمله. و"السيد ميفارت" لا ينكر أن الانتقاء الطبيعي قد كان له تأثير على شيء، ولكنه يعتبره وكأنه "غير كاف بطريقة واضحة" لكي يكون مسؤولاً عن الظواهر التي قد قمت أنا بتفسيرها بناء على مفعوله. وقد أخذنا بعين الاعتبار مجادلاته الأساسية، وسنتطرق فيما بعد إلى المجاولات الأخرى، التي يبدو لي أنها تحمل القليل من طابع الإثبات، ولها وزن قليل بالمقارنة مع الدلائل التي تحبذ قوة الانتقاء الطبيعي، المؤازرة بالعوامل الأخرى، التي قد تكررت الإشارة إليها. وأنا ملزم بأن أضيف، أن بعض الحقائق والمجادلات التي قد استخدمتها هنا، قد تقدمت بها لنفس الغرض في مقال رائع تم نشره في "مجلة الطب الجراحي"^(١).

يعترف جميع علماء التاريخ الطبيعي في الوقت الحالي بالتطور بأي صورة من الصور. "فالسيد ميفارت" يؤمن بأن الأنواع الحية تتغير من خلال "قوة أو قابلية داخلية"، والتي لا يدعى أحد أن هناك أي شيء معروف عنها. وكون أن الأنواع لديها القدرة على التغيير، فإن هذا شيء سوف يعترف به جميع المؤمنين بالتطور، ولكن لا يبدو لي أن هناك ضرورة لتوريط أي قوة داخلية في هذه العملية أكثر من القابلية العادية للتمايز، والتي من خلال مساعدة الانتقاء عن طريق الإنسان قد أدت إلى إنتاج الكثير من الأعراق المدججة الحسنة التكيف، والتي قد كانت من خلال الانتقاء الطبيعي سوف تؤدي بنفس الجودة، عن طريق خطوات متدرجة إلى أنواع أو أعراق طبيعية. وعلى العموم فإن النتيجة النهائية سوف تكون كما تم توضيحه بالفعل، هي تقدم - ولكن في بعض الحالات القليلة - انحطاط في العضية.

ويميل "السيد ميفارت" أكثر من هذا إلى الاعتقاد - ويوافقه في ذلك بعض علماء التاريخ الطبيعي - في أن الأنواع الجديدة تظهر أنفسها "بطريقة مفاجئة وعن طريق تحورات تظهر على الفور". وعلى سبيل المثال، فإنه يفترض أن الفروق الموجودة بين "الهيباريون"^(١) ثلاثى أصابع الأقدام المنقرض، والحصان قد ظهرت فجأة. وهو يرى أنه من الصعب أن نعتقد أن جناح أى طائر "قد تم تكوينه بأى طريقة مخالفة عن حدوث تعديل فجائى بصورة نسبية من الصنف الملحوظ والمهم"، ومن الواضح أنه قد ييسط نفس وجهة النظر إلى أجنحة الخفافيش والزواحف المجنحة^(٢). وهذا الاستنتاج، الذى يتضمن فجوات كبيرة أو انقطاعا فى التسلسل، يبدو لى غير محتمل لأعلى درجة.

وكل إنسان يؤمن بالتطور البطيء والتدرجى، سوف يعترف بالطبع بأن تغيرات معينة قد حدثت بنفس الصورة الفجائية وبنفس العظمة كائى تغيرات نقابلها تحت تأثير الطبيعة أو حتى تحت تأثير التدرجين. ولكن بما أن الأنواع قابلة بشكل أكبر للتمايز عندما تستدجن أو تستزرع، عما يحدث لها تحت تأثير الظروف الطبيعية المحيطة بها، فإنه من غير المحتمل أن مثل هذه التمايزات العظيمة والفجائية قد حدثت فى أحوال كثيرة تحت تأثير الطبيعة، مثلما هو معروف عن حدوثها أحيانا تحت تأثير التدرجين. والعديد من هذه التمايزات الأخيرة من الممكن أن يعزى إلى الانتكاس والعودة إلى الأصل، وأن الصفات التى قد عادت للظهور بهذه الطريقة، من الممكن فى حالات كثيرة، أن تكون قد تم اكتسابها بطريقة تدرجية. وما زال هناك عدد أكبر من الحالات التى يجب أن يطلق عليهم شواذ^(٣)، مثل الإنسان ذى الستة أصابع، و البشر المشابهين للشيهم^(٤)، والأغنام ذات النتوءات المرفقية الشكل^(٥)، و الماشية النياتية وخلافها، وبما أنهم مختلفون جداً فى الصفات عن أنواعهم الطبيعية، فإنهم يلقون بضوء خافت جداً

Hipparion	(١) الهيباريون = حيوان منقرض له ثلاثة أصابع فى أقدامه
Pterodactyles	(٢) الزواحف المجنحة = حيوانات منقرضة من الزواحف الطائرة
Monstrosity	(٣) شاذ = هولة: حيوان أو نبات مشوه الخلقة
Porcupine	(٤) الشيهم = النيص = حيوان شائك من القوارض
Ancon	(٥) المرفق = نتوء مرفقى الشكل

على الموضوع الذى نحن بصددده. وباستثناء مثل هذه الحالات الخاصة بالتعديلات الفجائية، فإن القلة الباقية قد تمثل على الأكثر - إذا وجدت فى ظروف طبيعية - أنواعاً مشكوكاً فيها، لها صلة حميمة بأنواع أصولها الأبوية.

وأسبابى الخاصة بالشك فيما لو كانت الأنواع الطبيعية قد تغيرت بهذه الصورة المفاجئة كما يحدث أحياناً لبعض الأعراق المدجنة، وفى عدم التصديق التام فى أنها قد تغيرت بالأسلوب العجيب الذى يشير إليه "السيد ميقاتر"، هى كالتالى: بناء على خبرتنا، فإن التمايزات الفجائية وذات العلامات القوية فى منتجاتنا المدجنة، تحدث بصورة فردية وعلى مسافات زمنية طويلة. وإذا حدثت مثل هذه التمايزات تحت تأثير الطبيعة، فإنها سوف تكون قابلة - كما سبق ووضحنا - لأن يتم فقدانها بواسطة الأسباب العارضة المتعلقة بالهلاك وبالتزاوج الذى سوف يحدث فيما بعد، وهذا أيضاً وارد الحدوث تحت تأثير التدجين، إلا إذا تعرضت مثل هذه التمايزات الفجائية إلى الاحتفاظ والاستخلاص بشكل خاص عن طريق عناية الإنسان. ولهذا فلكى يستطيع نوع جديد أن يظهر فجأة بالطريقة التى يقترحها "السيد ميقاتر"، فإنه من الضرورى أن نؤمن - بالتعارض مع كل الحالات المتناظرة - بأن العديد من الأفراد المتغيرة بصورة مدهشة قد ظهرت مترامنة مع بعضها فى وقت واحد فى داخل نفس المنطقة. وهذه الصعوبة، كما فى حالة الانتقاء اللاواعى بواسطة الإنسان، من الممكن تلافيها على أساس نظرية التطور التدريجى، من خلال الاحتفاظ بعدد كبير من الأفراد، التى قد تتمايز بأى حال فى أى اتجاه موات، و الهلاك لعدد كبير من الأفراد التى قد تمايزت بأى أسلوب معاكس.

ولا يمكن أن يكون هناك مجال للشك فى أن الكثير من الأنواع قد تطورت بأسلوب تدريجى إلى أقصى حد. و أن الأنواع وحتى الطبقات التابعة للكثير من الفصائل الطبيعية الكبيرة على درجة عالية من الترابط الشديد، حتى إنه من الصعب التفرقة بين عدد غير قليل منها. و فوق كل قارة ، عندما ننطلق من الشمال إلى الجنوب، ومن الأرض المنخفضة إلى الأرض المرتفعة، وهلم جرا، فنحن نتقابل مع حشد من الأنواع الوثيقة القرابة أو النموذجية، و ذلك ما يحدث لنا بالمثل فوق بعض القارات المنفصلة،

والتي لدينا من الأسباب ما جعلنا نؤمن بأنها كانت متصلة في الماضي. ولكن للتقدم بهذه الملحوظات علاوة على الملحوظات التالية، فأنا مضطر إلى التلميح إلى موضوعات سوف تتم مناقشتها فيما بعد: انظر إلى الجزر الكثيرة الواقعة حول أي قارة، وشاهد عدد الكائنات القاطنة بها التي من الممكن أن يرتفع فقط إلى رتبة الأنواع المشكوك فيها. وهكذا فإذا نظرنا إلى الأوقات الماضية، وقمنا بمقارنة الأنواع التي قد انتهت وجودها، بهذه الأنواع التي ما زالت تعيش في داخل نفس المناطق، أو إذا قارنا أنواع الأحافير أو المستحاثات^(١) المطمورة في الطبقات الفرعية لنفس التكوينات الجيولوجية. فإنه من الواضح تماماً أن جمعاً كبيراً من الأنواع مقارب إلى أقوى الدرجات للأنواع الأخرى التي ما زالت موجودة للآن، وكانت موجودة حتى مؤخراً، وسيكون من الصعب المحافظة على أن مثل هذه الأنواع قد جرى تكوينها بأسلوب فجائي أو غير متوقع. ولا يمكن أن نتجاهل، عندما ننظر إلى الأجزاء الجسدية الخاصة الموجودة في الأنواع المتقاربة، بدلاً من تلك الموجودة في الفصائل المتباينة، أنه من الممكن تتبع التدرجات العديدة والدقيقة بصورة مدهشة، وأنها تربط معاً مجموعة كبيرة من التراكيب المختلفة.

مجموعات كبيرة كثيرة من الحقائق من الممكن أن تصبح مفهومة فقط عن طريق تطبيق مبدأ أن الأنواع الحية قد نشأت عن طريق خطوات صغيرة جداً. وعلى سبيل المثال: الحقيقة القائلة بأن الأنواع التابعة للطبقات الأكبر، مترابطة بشكل أكثر مع بعضها البعض، وتقدم عدداً أكبر من الضروب، أكثر مما هو موجود في الأنواع التابعة للطبقات الأصغر. وأنواع المجموعة الأولى أيضاً متجمعة في جماعات صغيرة، مثل تجمع الضروب حول الأنواع، وهي تقدم أوجهاً أخرى من التناظرات مع الضروب، كما سبق وبيننا في بابنا الثاني. وعلى نهج هذا المبدأ نفسه يمكننا أن نفهم كيف أن هذه الصفات النوعية أكثر قابلية للتمايزات عن الصفات العرقية، وكيف أن الأجزاء التي تكونت إلى درجة أو بطريقة غير عادية، هي الأكثر قابلية للتمايز عن الأجزاء الأخرى التابعة لنفس النوع. ويمكن إضافة العديد من الحقائق المماثلة، وكلها تشير إلى نفس الاتجاه.

بالرغم من أن الكثير جداً من الأنواع قد تم إنتاجها - بشكل مؤكد تقريباً - بواسطة خطوات لا تزيد كثيراً على تلك الخطوات التي تفرق بين الضروب الدقيقة، إلا أنه من المؤكد أن البعض منها قد تم تكوينه بطريقة مختلفة وفجائية. ومع ذلك فمثل هذا الاعتراف، يجب ألا يحدث بدون تقديم دليل قوى. فإن التناظرات المبهمة والتي هي إلى حد ما غير حقيقية - كما تم إظهاره بواسطة السيد "تشونسي رايت" Mr. Chauncey Wright - والتي قد تم تقديمها لتعضيض هذه الوجهة للنظر، مثل التحول الفجائي للمواد غير العضوية إلى كريستالات، أو تدحرج الكروانى^(١) ذى الأسطح من سطح إلى الآخر، هي أمثلة من الصعب أن تستحق الاعتبار. ولكن من ناحية أخرى، فإنه توجد مجموعة واحدة من الحقائق، ألا وهي أن الظهور المفاجئ لأشكال حية جديدة وغير معتادة فى تراكيبنا الجيولوجية، هو تأييد من أول نظرة للمعتقد بالتكوين الفجائى، ولكن قيمة هذا الدليل فى أنه يعتمد كلية على حد الكمال الذى وصل إليه السجل الجيولوجى، فيما يتعلق بعهود سحيقة من تاريخ العالم. وإذا كان هذا السجل بمثل هذا التقطع - الذى يؤكد بقوة العديد من علماء الجيولوجيا - فلا يوجد شئ غريب فى ظهور أشكال جديدة من الكائنات الحية تبدو وكأنها قد تكونت فجأة.

ما لم ندخل فى حساباتنا التحولات الناتجة عن طفرات استثنائية، مثل تلك التي يروج لها "السيد ميقاتر"، كالتكوين المفاجئ لأجنحة الطيور أو الخفافيش، أو التحول المفاجئ للهيباريون إلى حصان، فإنه من الصعب إلقاء أى ضوء - عن طريق الإيمان بالتحورات الفجائية - على النقص الموجود فى ربط حلقات تكويناتنا الجيولوجية. ولكن فى مواجهة الإيمان بمثل هذه التغيرات المفاجئة، فإن علم الأجنة يتدخل كمحتج قوى. إنه شئ غريب أن أجنحة الطيور والخفافيش، وأرجل الجياد ورباعيات الأقدام الأخرى، وهى أجزاء لا يمكن التفرقة بينها فى المرحلة الجنينية المبكرة، قد أصبحت متميزة عن طريق خطوات دقيقة متدرجة. والتماثلات الجنينية بجميع أنواعها، يمكن أن نتبعتها - كما سنرى فيما بعد - عن طريق أسلاف الأنواع الموجودة لدينا التي قد تمايزت بعد أن تعدت مرحلة الشباب المبكر، وقامت بنقل صفاتها الجديدة المكتسبة إلى

نزاريتها، عند بلوغهما نفس السن. وهكذا فإن الجنين قد تم تركه بدون أى تأثير تقريباً، وهو يستخدم كسجل للحالة القديمة للنوع. ومن ثم فإن الأنواع الموجودة حالياً، فى أثناء مراحل تكوينها المبكرة، تماثل - فى أحيان كثيرة - أشكالاً قديمة ومندثرة تابعة إلى نفس الطائفة. وبناء على هذه النظرة على معنى التشابهات الجينية - وبالتأكيد من أى وجهة لنظر - فإنه من غير المعقول أن يكون أى حيوان قد مر خلال مثل هذه التحولات المؤقتة والفجائية- كالمشار إليها من قبل - ولا يحمل بالضرورة حتى ولو أثرا بسيطا فى أثناء حالته الجينية، لأى تعديل فجائى، وأن كل التفاصيل الموجودة فى تركيبه قد تكونت عن طريق خطوات دقيقة غير واعية.

والذى يؤمن بأن شكلا قديما ما قد تحول فجأة من خلال قوة أو قابلية داخلية إلى شكل مزود بالأجنحة مثلا، فإنه سوف يجد نفسه مضطرا إلى افتراض - على عكس كل الأمثلة المتناظرة - أن العديد من الأفراد قد تمايزت فى وقت واحد. ولا يمكن إنكار أن مثل هذه التغييرات الفجائية والكبيرة فى التركيب شىء مختلف تماما عن تلك التغييرات التى يبدو أن معظم الأنواع الحية قد مرت خلالها. وبهذا الشكل فإنه سوف يضطر أيضا إلى أن يؤمن بأن العديد من التراكيب التى قد تكيفت بشكل جميل مع جميع الأجزاء الأخرى فى نفس المخلوق، ومع الظروف المحيطة، قد نتجت فجأة. وبمثل هذا القدر المعقد والمذهل من المواعمة، فإنه لن يتمكن من تحديد ظل لأى تفسير. وسوف يكون مضطرا للاعتراف بأن هذه التحولات الكبيرة والفجائية لم تترك أى آثار لمفعولها على الجنين. والاعتراف بكل هذا - فإنه كما يبدو لى - كمثل الدخول فى عوالم المعجزات، وترك عوالم العلم.

الباب الثامن

الغريزة^(١)

الغرائز متشابهة مع العادات^(٢)، ولكنهما مختلفتان في منشأهما - الغرائز تدرجت - المن^(٣) والنمل - الغرائز قابلة للتمايز - الغرائز الداجنة، منشأها - الغرائز الطبيعية للوقواق^(٤)، والملطروس^(٥)، والنعام^(٦)، والنحل الطفيلي - النمل صانع العبيد^(٧) - نحل الملاجئ^(٨)، وغريزته في عمل الخلايا^(٩) - التغيرات في الغريزة والتركيب ليسا متزامنين بشكل ضروري - الصعوبات الموجودة في النظرية الخاصة بالانتقاء الطبيعي للغرائز - الحشرات المحايدة جنسياً أو العواقر^(١٠) - ملخص.

Instinct	(١) غريزة = قطرة = دافع فطري = سليقة = مقدرة أو نزعة طبيعية =
Habit	(٢) عادة = سلوك = خلق = طبع = عرف = دأب
Aphid	(٣) المنة = الأرقعة = حشرة تمتص عصارات النباتات
Cuckoo (Family Cuculidae)	(٤) طيور الوقواق: وهي طيور تعيش على الأشجار، وغذائها
	الأساسي هو الحشرات - وهي طيور مهاجرة، ولها صوت مميز، هو الأساس في تسميتها
Molothrus	(٥) طائر الملطروس (مولوثرس): أكثر الأنواع شيوعاً في "طيور البقر" ومناقيرها قصيرة وقمعية الشكل مثل العصفور النوري.
Ostrich	(٦) النعام
Slave-making	(٧) صانع العبيد = المستعبد = المسترق *
Hive-bee	(٨) نحل الملاجئ = نحل القفير
Cell	(٩) خلية = تجويف = نخروب = صومعة = حجيرة = وحدة
Neuters = Sterile insects	(١٠) المحايون جنسياً = العواقر = الحشرات العاقرة *

الكثير من الغرائز بديعة إلى درجة أنه من المحتمل أن نشأتها سوف تظهر للقارئ صعوبة كافية للإطاحة بنظريتي بالكامل. وأنا قد أبدأ كلامي هنا بأنه ليس لى أى علاقة بالمنشأ الخاص بالقوى العقلية، أكثر من علاقتى بأصل الحياة نفسها. فإننا مهتمون فقط فى هذا المجال بتنوعات الغريزة، وبالقدرات العقلية الأخرى الموجودة فى الحيوانات التابعة لنفس الطائفة.

وأنا لن أحاول أن أضع أى تعريف للغريزة. فإنه قد يكون من اليسير إظهار أن الكثير من الأنشطة العقلية المتباينة تدخل عادة ضمن هذا التعبير، ولكن كل إنسان يفهم ما المعنى بذلك، عندما يقال إن الغريزة تدفع طيور الوقواق إلى الإرتحال، وإلى أن تضع بيضها فى أعشاش الطيور الأخرى. وهذا فعل نحتاج نحن أنفسنا إلى خبرة تمكنا من إنجازها، وعندما يتم إنجازها بواسطة حيوان، وبالأخص بواسطة حيوان صغير السن جداً، وعديم التجربة، وعندما يتم إنجازها بواسطة الكثير من الأفراد بنفس الطريقة، وبدون علمهم بأى غرض وراء القيام به، فإن هذا الفعل يوصف فى العادة بأنه غريزى. ولكنى أستطيع أن أبين أنه حتى ولا صفة واحدة من هذه الصفات هى صفة عامة. فإن جرعة صغيرة من الاجتهاد والتفكير - كما يعبر عنها "بيير هوبر" Pierre Huber - غالباً ما تقوم بلعب دور، حتى مع حيوانات دنيئة فى ميزان الطبيعة.

وقد قام "فردريك كوفير" Frederick Cuvier مع العديد من العلماء الماورائيين^(١) الأكاير بمقارنة الغريزة مع العادة. أو السلوك وهذه المقارنة تعطى - كما أعتقد - انطباعاً دقيقاً للنطاق العلقى الذى يتم بداخله إنجاز الفعل الغريزى، ولكنها لا تعطى بالضرورة أى شىء عن المنشأ الخاص به. وبالنسبة لكيفية القيام بالعديد من الأفعال الناشئة عن العادة بشك لا شعورى، فإنه بالتأكيد ليس من النادر أن تتم هذه الأفعال بالمعارضة المباشرة لإرادتنا الواعية! - ومع ذلك فإنه من الممكن أن يتم تعديلها عن طريق الإرادة والتعقل. ومن السهل أن تصبح العادات مرتبطة بعادات أخرى مع مرور بعض الوقت، وذلك اعتماداً على الحالات التى يمر بها الجسم. وبمجرد أن يتم اكتساب

بعض العادات، فإنها فى الغالب تستمر ثابتة على مدى امتداد الحياة. ومن الممكن الإشارة إلى نقاط أخرى عديدة للتماثل الموجود بين الغرائز والعادات. وكما يحدث عندما نكرر ترديد أغنية مشهورة، فهذا هو الحال مع الغرائز، فى صورة فعل يتلوه فعل أخرى بنوع ما من التواتر فى الإيقاع الموسيقى، وإذا ما قوطع شخص فى أثناء ترديد أغنية، أو أثناء إعادة أى شىء بواسطة التردد للحفاظ صمًا، فإنه فى العادة يضطر إلى أن يعود إلى الخلف ليسترجع سلسلة نسق أفكاره المعتادة. وهذا ما وجده "ب. هوبر" P. Huber مع اليسروع (يرقانة فراشة) الذى يشيد أرجوحة شبكية شديدة التعقيد، فإنه إذا أخذ يسروعاً قد أتم تشييد أرجوحته إلى حد المرحلة السادسة مثلاً، ووضعها فى داخل أرجوحة قد استكملت إلى المرحلة الثالثة فقط، فإن اليسروع يستكمل ببساطة المرحلة الرابعة والخامسة والسادسة من التشييد. ومن ناحية أخرى فإنه إذا أخذ يسروعاً من أرجوحة وصل تشييدها إلى المرحلة الثالثة مثلاً، ووضعها فى أرجوحة قد تم اكتمالها إلى المرحلة السادسة، وبهذا الشكل فإن معظم عمله يكون قد استكمل له بعيداً عن استمداه لأى نفع من ذلك، فإنه يصبح بهذا الشكل محرراً جداً، ولكى يستكمل أرجوحته، فيبدو أنه يضطر إلى بدء العمل من المرحلة الثالثة، وهى المرحلة التى قد تم نقله إليها، وبهذا الشكل فإنه يحاول أن يستكمل العمل الذى قد تم تشييده بالفعل.

وإذا افترضنا أن أى فعل ناشئ عن العادة قد يصبح موروثاً - ومن الممكن أن نبين أن هذا يحدث فى بعض الأحيان - فعندئذ يصبح التشابه، بين ما كان فى الأصل عادة وما هو غريزة، متقارباً إلى حد عدم القدرة على التفرقة بينهما. وإذا حدث مع "موزارت" Mozart، أنه بدلاً من ابتدائه العزف على البيانو عندما بلغ من العمر ثلاث سنوات، بعد فترة تدريب قصيرة بصورة مدهشة، فإنه قد قام بعزف لحن ما بدون تدريب عليه على الإطلاق، فإن ذلك من الممكن أن يقال عنه بصدق، إنه قد قام بهذا العمل بصورة غريزية. ولكنه سوف يكون خطأ فادحاً إذا افترضنا أن العدد الأكبر من الغرائز قد تم اكتسابها عن طريق الاعتياد فى جيل واحد، وأنها بعد ذلك قد انتقلت بواسطة الوراثة إلى الأجيال التالية. ومن الممكن أن نبين بوضوح أن الغرائز البالغة الروعة، والتى نحن على علم تام بها، وهى بالتحديد، تلك الغرائز الخاصة بنحل الملاجئ، وبالعديد من فصائل النمل، لا يمكن أن تكون قد اكتسبت عن طريق العادة.

وسوف يكون من المعترف به عالمياً أن الغرائز على نفس الدرجة من الأهمية التي للتراكيب الجسدية بالنسبة للمصلحة العامة لكل من الأنواع، تحت ظروف حياتها الحالية. ولكن تحت ظروف حياتية متغيرة، فإنه من الممكن على الأقل أن نجد تعديلات بسيطة للغريزة قد تكون ذات فائدة لنوع ما، وإذا كان من الممكن أن نظهر أن الغرائز قد تتغير مهما يكن ذلك قليلاً، إذن فأننا أرى أنه لا توجد أى صعوبة فى كون أن الانتقاء الطبيعي يحتفظ ويجمع باستمرار تعديلات الغرائز، إلى أى مدى مفيد ممكن. ومن ثم - وكما أعتقد شخصياً - فإن أكثر الغرائز تعقيداً وإدهاشاً قد بدأت فى الأصل بهذه الطريقة. وكما تنشأ التعديلات الخاصة بالتركيب الجسدى، وتزداد عن طريق الاستخدام أو العادة، وهى أيضاً تقل أو تفقد عن طريق عدم الاستخدام، فكذلك أنا لا أشك فى أن هذا ينطبق أيضاً على الغرائز. ولكنى أعتقد أن تأثيرات العادة فى الكثير من الحالات ذات أهمية ثانوية بالمقارنة مع تأثيرات الانتقاء الطبيعي من تلك التى من الممكن أن تدعى بالتعديلات العفوائية للغرائز، وهذا يعنى التعديلات الناتجة عن نفس الأسباب المجهولة التى تحدث انحرافات بسيطة فى التركيب الجسمانى.

لا يمكن إنتاج غريزة مركبة على الإطلاق من خلال الانتقاء الطبيعي، إلا عن طريق التكوين البطئ والتدرجى للعديد من التعديلات البسيطة وفى نفس الوقت المفيدة. ومن ثم، وكما فى حالة التراكيب الجسدية، فإننا نتوقع أن نعثر فى الطبيعة، ليس على التدريجات الانتقالية الفعلية والتى قد تم عن طريقها اكتساب كل غريزة مركبة - لأن هذه من الممكن أن تكون موجودة فى الأسلاف المباشرة لكل نوع فقط - ولكننا نتوقع أن نعثر فى الخطوط الفرعية للانحدار على دليل ما على مثل هذه التدرجات، أو نتوقع على الأقل أن نكون قادرين على أن نبين أن أى صنف من التدريجات هو شىء محتمل، ومن المؤكد أننا نستطيع أن نفعل هذا. وقد كانت مفاجأة لى أن أكتشف - مع التماس العذر فى أن غرائز الحيوانات لم تتم مراقبتها علمياً إلا بشكل قليل فى أى مكان فيما عدا أوروبا وأمريكا الشمالية، وأنه لا توجد أى غريزة معروفة فيما بين الأنواع المنقرضة - فكيف يمكن بشكل عام جداً اكتشاف التدريجات، المؤدية إلى الغرائز المعقدة جداً. والتغيرات فى الغريزة قد يمكن أحياناً أن يتم تيسيرها عن طريق حيازة نفس النوع لغرائز مختلفة فى فترات مختلفة من الحياة، أو فى فصول مختلفة من

السنة، أو عند الوضع تحت ملابس مختلفة، وخلافه. وفي هذه الحالة فقد يحتفظ الانتقاء الطبيعي بإحدى الغرائز أو الأخرى. ومثل هذه الأمثلة لاختلاف الغريزة في نفس النوع من الممكن إظهار حدوثها في الطبيعة.

ومرة أخرى، وكما في حالة التركيب الجسدي، وبشكل متطابق مع نظريتي، فإن الغريزة الخاصة بكل نوع مناسبة لنفس النوع، ولكن لم يحدث أبداً - بقدر ما نستطيع أن نحكم على الأمور - أن تكونت هذه الغريزة للمنفعة الخاصة بالآخرين. وواحد من أقوى الأمثلة لأحد الحيوانات الذي يبدو ظاهرياً أنه يقوم بفعل ما من أجل المنفعة الخاصة لحيوان آخر - وهذه الحالة أنا ملم بها - هي أن حشرات "المن" تنتج تطوعاً - كما لوحظ لأول مرة بواسطة "هوبر" Huber - إفرازها الحلو من أجل النمل، وهي تفعل ذلك عن رضا وطيب خاطر، بصورة تظهرها الحقائق التالية: فقد قمت بإزالة جميع النمل من مجموعة مكونة من حوالى ستة من حشرات المن الموجودة على أحد نباتات "الحماض"^(١)، ومنعت تواجدها لمدة ساعات عديدة. وبعد مرور هذه الفترة الفاصلة، فقد أصبحت واثقاً من أن حشرات المن قد تريد أن تخرج. فقمت بمراقبتها لبعض الوقت بواسطة عدسة مكبرة، ولكن لم تقم أى واحدة منها بالإخراج، وعندئذ قمت بمداعبتها ومررت عليها بواسطة شعرة بنفس الطريقة - بقدر ما استطعت - كما يفعل النمل بواسطة قرون استشعاره، ولكن لم تقم أى واحدة منها بالإخراج. وبعد ذلك سمحت لنملة واحدة بأن تزورها، ويات من الواضح على الفور، من طريقتها المثلثة للطواف والجرى من مكان إلى مكان، أنها أدركت جيداً أنها قد اكتشفت مثل هذا القطيع الغنى، وبعد ذلك بدأت تلعب بقرون استشعارها أولاً على بطن إحدى حشرات المن وبعدها على بطن الأخرى، وكل واحدة من هذه الحشرات، بمجرد أن شعرت بالزبانيات، قامت برفع بطنها إلى أعلى وأخرجت نقطة شفافة رائقة من العصير الحلو المذاق، والذي تم التهامه بنهم بواسطة النملة. وحتى حشرات المن البالغة الحدائة فإنها قد تصرفت بنفس الأسلوب، مبينة أن هذا السلوك كان غريزياً، وليس نتيجة للخبرة. وأنه من المؤكد طبقاً لمشاهدات "هوبر"، أن حشرات المن لا تكن أى كراهية

للنمل: فإذا كان الأخير غير موجود، فإنها تجد نفسها مضطرة في آخر الأمر إلى أن تلتف برازها. ولكن بما أن هذا البراز شيء بالغ اللزوجة، فلا يوجد شك في أنه من المريح لحشرات المن أن يتم إزالته منها، ومن أجل هذا فمن الراجح أن هذه الحشرات لا تقوم بالإخراج لهدف وحيد، ألا وهو فعل الخير للنمل. وبالرغم من أنه لا يوجد أى دليل على أن أى حيوان قد يقوم بتصرف ما للمصلحة المقتصرة على نوع آخر من الحيوانات، إلا أن كل حيوان يحاول أن يستمد بعض الفوائد من غرائز الحيوانات الأخرى، كما يحاول كل حيوان أن يقوم باستغلال الجانب الأضعف في التركيب الجسماني الخاص بالأنواع الأخرى من الحيوانات. وهكذا فمرة أخرى نجد أن غرائز معينة لا يمكن وضعها في الاعتبار على أساس أنها مثالية بكل ما في الكلمة من معنى، ولكن بما أن التفاصيل المتصلة بهذا الموضوع وبنقاط أخرى مماثلة ليست من الأشياء التي لا غنى عنها، فإنه من الممكن أن نتغاضى عنها في هذا المكان.

بما أن حدوث درجة ما من التعديل في الغرائز تحت تأثير ظروف الطبيعة، وأن وراثته مثل هذه التعديلات، هي أشياء لا غنى عنها من أجل المفعول الخاص بالانتقاء الطبيعي، فقد كان من الواجب أن نعطي العديد من الأمثلة على ذلك بقدر المستطاع، ولكن الافتقار إلى المساحة هو الشيء الذي يمنعي. وأنا أستطيع أن أؤكد فقط أن الغرائز تختلف بالفعل - وعلى سبيل المثال، فلنأخذ غريزة الهجرة، فيما يتعلق بمداها واتجاهها، وفي خصائصها الجمالية. وهذا هو الحال أيضاً مع أعشاش الطيور، والتي تختلف جزئياً اعتماداً على المواقع المختارة وعلى طبيعة ودرجة حرارة الإقليم الذي تقطنه الطيور، ولكن في أحوال كثيرة فإن ذلك نتيجة أسباب غير معلومة لنا على الإطلاق: وقد أعطى "أودوبون" Audubon العديد من الأمثلة الجديرة بالملاحظة لاختلافات موجودة في أعشاش الطيور التابعة لنفس النوع في المناطق الشمالية والجنوبية للولايات المتحدة. ولطالما توارد هذا السؤال: إذا كانت الغريزة قابلة للتغيير، فلماذا لم يتم منح النحلة "القدرة على استخدام أى مادة أخرى عندما يشح وجود الشمع؟" - ولكن ما المادة الطبيعية الأخرى التي يستطيع النحل استخدامها؟ - إنه سوف يعمل - كما رأيت - بشمع مقسى "بالزنجفر"^(١)، أو ملين بالشحم. وقد لاحظ

"أندرو نايت" Andrew knight أن النحل الخاص به، بدلاً من أن يعمل جاهداً في جمع "العكبر"^(١)، فإنه قد استخدم مادة لاصقة مكونة من الشمع وزيت الترينتينا ، والذي كان قد غطى به الأشجار منزوعة اللحاء. وقد تم مؤخراً اكتشاف أن النحل، بدلاً من البحث عن اللقاح، فإنه يستخدم بسرور مادة أخرى مختلفة، ألا وهي دقيق الشوفان^(٢). والخوف من أى عدو معين هو بالتأكيد خاصية غريزية، كما قد يشاهد في "الغراب" (صغار الطير)، ولو أن هذه الخاصية تزداد قوة بالتجربة، وبمشاهدة خوف الحيوانات الأخرى من نفس العدو. والخوف من الإنسان هو شيء يتم اكتسابه ببطء - كما قد بينت في مواضع أخرى - عند الحيوانات المختلفة التي تقطن الجزر المهجورة، ونحن نرى مثلاً على ذلك حتى في إنجلترا، في تعاظم النزعة للنفور الشائعة بين طيورنا كبيرة الحجم بالمقارنة بهذه النزعة في طيورنا الصغيرة، وذلك لأن الطيور الكبيرة كانت هي الأكثر تعرضاً للاضطهاد بواسطة الإنسان. ومن الممكن أن نعزو بأمان النفور الأشد وجوداً لدى طيورنا الكبيرة إلى هذا السبب، وذلك لأن الطيور الكبيرة الموجودة في الجزر غير المأهولة بالإنسان لا يبدو أنها تعاني من الخرف أكثر من الطيور الصغيرة، ونجد أن طائر "العققع"^(٣)، الشديد الحذر في إنجلترا، هو أليف في النرويج، وهو "الغراب المقتنع"^(٤) في مصر.

وكون أن القدرات العقلية للحيوانات التي من نفس الصنف، والمولودة في البيئة الطبيعية، تختلف بشدة، فإن هذا من الممكن إيضاحه عن طريق الكثير من الحقائق. ومن الممكن أيضاً تقديم العديد من الحالات بعادات عارضة وغريبة موجودة في الحيوانات الوحشية، والتي لو كانت ذات فائدة للنوع، فقد كان من المحتمل أن تؤدي من خلال الانتقاء الطبيعي إلى غرائز جديدة. ولكنني على علم تام بأن هذه التصريحات

Propolis	(١) العكبر = وسخ الكوارير = مادة راتنجية شمعية القوام يجنيها النحل من براعم الأشجار فيثبت بها النخاريب (خلايا العسل).
Oatmeal	(٢) دقيق أو طحين الشوفان
Magpie	(٣) العققع = غراب أبقع طويل الذيل
Hooded crow	(٤) الغراب المقتنع

العامّة، بدون وضع الحقائق بالتفصيل، سوف لا تحدث إلا تأثيراً ضعيفاً على عقل القارئ. وأنا أستطيع فقط أن أكرر تأكيدى، بأننى لا أتكلم بدون دليل قوى.

التغيرات الموروثة للعادة أو الغريزة فى الحيوانات المدجنة

إمكانية أو حتى احتمال حدوث، التدريجات الموروثة للغريزة فى البيئة الطبيعية سوف تزداد قوة بعد الدراسة بإيجاز لبعض الحالات القليلة التى قد حدثت تحت تأثير التدجين. وبالتالي فنحن سوف نستطيع أن نشاهد الدور الذى قد لعبه كل من العادة والانتقاء الخاصين بما يسمى بالتمايزات العفوائية، فى تحويل القدرات الذهنية لحيواناتنا الداجنة. وإنه لشيء غريب ملاحظة إلى أى مدى تختلف حيواناتنا الداجنة فى قدراتها الذهنية. فمع القبط - على سبيل المثال - فواحدة منها تتجه بالطبيعة إلى الإمساك بالفئران، والأخرى بالجرزان، والمعروف عن هذه القابليات أنها متوارثة. ووفقاً لما قاله "السيد سانت جون" Mr. St. John . فإن إحدى القبط كانت تجلب إلى المنزل دائماً طرائد من الطيور^(١)، وأخرى تجلب أرانب وحشية^(٢) أو عادية، وأخرى تذهب للقنص على الأرض السبخة^(٣) فى المستنقعات و تمسك كل ليلة تقريباً بواحد من "دجاج الأرض"^(٤) أو طيور "الشنقب"^(٥) . ومن الممكن تقديم عدد من الحالات الغربية والموثوق بها عن الدرجات المختلفة الخاصة بالمزاج و الخاصة بالذواق ، وكذلك لأكثر الحيل غريبة، والمتعلقة بالحالات النفسية أو الفترات الزمنية المعينة، والتي قد تم توارثها. ولكن دعنا نلقى نظرة على الحالة المعروفة الخاصة بسلالات الكلاب: لا مجال

Game-birds

(١) طرائد، من الطيور

Hares

(٢) أرانب وحشية، مشقوقة الشفة

Marshy grounds

(٣) الأراضى السبخة = المستنقعات

Wood cocks

(٤) دجاج الأرض = ديوك الغابة *

Snipe

(٥) الشنقب = الجهلول = الشكب = الباسكين = طائر طويل المنقار

للشك فى أن صغار كلاب الصيد المرشدة^(١) (وأنا قد شاهدت بنفسى إحدى الحالات المدهشة) سوف تقوم بالإرشاد أحياناً، أو حتى سوف تقوم بمساندة الكلاب الأخرى، فى المرة الأولى للسماح لها بالخروج على الإطلاق. والاسترجاع هو بالتأكيد شىء موروث عند كلاب الصيد المسترجعة^(٢)، والقابلية للجري حول - وليس إلى - قطع من الأغنام هو أيضاً شىء موروث لدى كلاب الرعاة^(٣). وأنا أستطيع رؤية أن هذه الأفعال التى قد قام بها الصغار بدون أى خبرة سابقة، وتقريباً بنفس الأسلوب المتبع من كل فرد، قد تم إنجازها بسرور جارف بواسطة كل سلالة، وبدون معرفة النتيجة النهائية لهذه الأفعال - فإن كلب الصيد المرشد الصغير لا يعرف أنه يقوم بالإرشاد لمساعدة صاحبه، أكثر من معرفة الفراشة البيضاء لماذا تقوم بوضع بيضها على ورقة نبات الكرنب - وأنا لا أستطيع أن أرى أن هذه الأفعال تختلف بشكل أساسى عن الغرائز الحقيقية. وإذا كان لنا أن نلاحظ صنفاً واحداً من الذئاب، عندما كانت صغيرة و بدون أى تدريب، فبمجرد أن تشم رائحة فريستها، فإنها تقف بدون حركة مثل التمثال، ثم بعد ذلك تزحف ببطء إلى الأمام بطريقة غريبة للسير، وصنف آخر من الذئاب يندفع حول - بدلاً من إلى - قطع من الأيائل، ويسوقها إلى نقطة بعيدة، فإننا بالتأكيد سوف نطلق عليها أنها أفعال غريزية. والغرائز الداجنة، كما يمكن أن نطلق عليها، هى بالتأكيد أقل ثباتاً بكثير من الغرائز الطبيعية، ولكنها كانت قد تم التأثير فيها بواسطة انتقاء أقل صرامة، وكانت قد تم انتقالها لمدة لا تقارن فى قصرها، وتحت ظروف للحياة أقل ثباتاً.

أما إلى أى مدى تصل قوة توريث هذه الغرائز والعادات والتصرفات الداجنة، وإلى أى مدى مدهش قد أصبحت مختلطة مع بعضها البعض، فإن كل هذا يتم مشاهدته بوضوح عندما يتم التهاجن بين سلالات مختلفة من الكلاب. ولهذا السبب

Pointers

Retrievers

Shepherd dogs

(١) كلاب الصيد المرشدة

(٢) كلاب الصيد المسترجعة

(٣) كلاب الرعاة

فإنه من المعروف أن تهجيننا مع "الكلب الطورى" (البلدغ)^(١) قد أدى إلى التأثير لعدة أجيال على الشجاعة والعناد الخاصين بالكلاب السلوقية^(٢)، والتهجين مع كلب سلوقى قد أعطى لعائلة كاملة من كلاب الرعاة القابلية لاصطياد الأرانب البرية. وهكذا فإن هذه الغرائز الداجنة عندما توضع فى بوتقة التهجين، فإنها تماثل الغرائز الطبيعية، التى بطريقة مماثلة تصبح مختلطة مع بعضها البعض بشكل مدهش، وتظهر عليها لمدة طويلة بقايا من الغرائز الخاصة بكل من الأبوين: وعلى سبيل المثال، فإن "لوروى" Le Roy يصف أحد الكلاب، الذى كان جده نثباً، وأن هذا الكلب قد بدا عليه أحد الآثار الخاصة بأجداده الوحشيين فى شىء واحد فقط، ألا وهو أنه لا يأتى لسيدته فى خط مستقيم عندما يناديه.

الغرائز الداجنة يقال عنها فى بعض الأحيان إنها الأفعال التى قد أصبحت متوارثة بشكل كلى نتيجة لعادة إجبارية مستمرة لمدة طويلة، ولكن هذا ليس صحيحاً. فلا يوجد أحد يكون قد هداه تفكيره إلى تعليم، أو قد استطاع أن يعلم، "الحمام البهلوانى"^(٣) كيف يتشقلب، وهو فعل - كما شاهدته بنفسى - يقوم به صغار هذه الطيور، التى لم يسبق لها إطلاقاً مشاهدة حمامة تتشقلب. ومن الجائز أن نعتقد أن حمامة واحدة ما قد أبدت قابلية لهذه العادة الغريبة، وأن الانتقاء المستمر لمدة طويلة، لأفضل الأفراد فى أجيال متتالية، قد جعلت هذا الحمام البهلوانى على ما هو عليه الآن. ويجوار جلاسجو Glasgow - وكما سمعت من "السيد برنت" Mr. Brent - فإنه يوجد حمام بهلوانى منزلى، لا يستطيع أن يطير لارتفاع ثمانية عشرة بوصة بدون أن ينقلب رأساً على عقب. وإنه لمن المشكوك فيه إذا ما كان قد طرأ على تفكير أحد أن يدرّب كلباً على الإرشاد، إذا لم يكن هناك كلب ما قد أبدى بطريقة طبيعية قابليته لهذا المسار، ومن المعلوم أن هذا يحدث فى بعض الأحيان، كما شاهدت أنا بنفسى، فى كل

(١) الكلب الطورى = البلدغ = كلب قوى جري ضخم الرأس قصير الشعر Bull-dog

(٢) الكلب السلوقى = كلب من كلاب الصيد Greyhound

(٣) الحمام البهلوانى = حمام يتمايل ثم لا يلبث أن يستعيد توازنه Tumbler-Pigeon

كلب نقى الأصل من فصيلة "التريير"^(١) (وهو من كلاب الصيد وليس الإرشاد)، فإن علمية الإرشاد على الأرجح - كما فكر فيها الكثيرون من قبل - ما هي إلا فترة تريت مبالغ فيها لحيوان يستعد للانقراض على فريسته. وبمجرد أن تبدت للعيان أول قابلية للإرشاد، فإن الانتقاء المنهجي والتأثيرات الموروثة للتدريب الإجبارى فى كل جيل من الأجيال المتعاقبة، من شأنه أن يستكمل هذا المنهاج، ويستمر الإنتقاء اللاواعى فى التقدم، فى الوقت الذى يحاول فيه كل إنسان أن يستحوذ - بدون وجود نية لتحسين النسل - على كلاب هى الأفضل فى الصمود وفى مطاردة الفرائس. وعلى الوجه الآخر، فإن العادة وحدها فى بعض الحالات كانت كافية للقيام بالغرض، فمن الصعب أن يوجد أى حيوان أكثر صعوبة فى الترويض من صغار الأرنب البرى، ونادراً ما نجد حيواناً أفضل ترويضاً ووداعة من صغير الأرنب المروض. ولكنه من الصعب على أن أفترض أن الأرنب الداجنة قد تم انتقاؤها، فى أغلب الأحوال، لمجرد وداعتها وحدها، ولهذا فإننا يجب أن نعزو الجزء الأكبر، على الأقل، من التغيير الوراثى من أقصى مدى الوحشية إلى أقصى مدى للوداعة، إلى العادة، وإلى الأسر المستمر لمدة طويلة فى مكان محدود.

الفرائز الطبيعية يتم فقدها أثناء التدجين: وإحدى الحالات الجديرة بالملاحظة لهذا الأمر تتم مشاهدتها فى تلك السلالات من الطيور التى من النادر جداً أو لا يحدث على الإطلاق أن تصبح "حاضنة"، وهذا يعنى أنها لا ترغب إطلاقاً فى الجلوس على بيضها، والاعتیاد وحده هو الذى يمنعنا من رؤية كيف تحورت بطريقة كبيرة وبشكل دائم عقول حيواناتنا الداجنة. وإنه لاحتمال نادر أن يساورنا الشك فى أن الحب للإنسان قد أصبح غريزة لدى الكلب، وكل الذئاب، والثعالب، وبنات آوى، والأنواع التابعة لجنس القطط، عندما يتم الاحتفاظ بها وهى مروضة، فإنها تصبح متشوقة جداً لمهاجمة الطيور الداجنة والأغنام والخنازير، وأن هذه النزعة قد تبين أنه لا علاج لها فى الكلاب التى قد تم إحضارها إلى الوطن من بلاد مثل جزر أرض النار^(٢) وأستراليا،

(١) كلب تريت = كلب الأراضى = كلب صغير نشيط نكى من كلاب الصيد * Terrier

(٢) جزر أرض النار Tierra del fuego

وهى الأماكن التى لا يقوم فيها سكانها الهمجيون بتربية هذه الحيوانات الأليفة. ومن الناحية الأخرى، فما مدى ندرة احتياج كلابنا المتمدنية، حتى وهى بالغة الصغر، لأن يتم تدريبها على عدم مهاجمة الطيور الداجنة أو الأغنام أو الخنازير! - مما لا شك فيه أنها تقوم أحياناً بإحدى الهجمات، وحينئذ سوف يتم ضربها، وإذا لم تبرأ من ذلك، فإنه يتم إعدامها. وبهذا فإن الاعتياد علاوة على درجة ما من الانتقاء قد قاما فى الغالب بالتضامن بجعل كلابنا متمدنية عن طريق الوراثة. وعلى الوجه الآخر، فإن صغار الدجاج قد فقدت - عن طريق الاعتياد كلية - هذا الخوف من الكلاب والقطط، الذى كان بلا شك شيئاً غريزياً فيها، وذلك لأنه قد بلغنى من "القبطان هوتون" Captain Hutton، أن الدجاج اليافع من الآباء الأصلية للدجاج، ألا وهو "الدجاج الهندي"^(١)، عندما يتم تربيته تحت رعاية دجاجة عادية فى الهند، فإننا نجده فى البداية على درجة عالية من الوحشية، وهذا هو الحال مع اليافع من الطيور "التدرج"^(٢) عندما تتم تربيتها فى إنجلترا تحت رعاية دجاجة. وليس الأمر أن كل هذه الأنواع من الدجاج قد فقدت كل الشعور بالخوف، ولكنها قد فقدت الشعور بالخوف من الكلاب والقطط فقط، لأنه إذا ما أطلقت الدجاجة وقوقة الخوف، فإن الجميع سوف يسارع بالفرار (و بالأخص صغار الديوك الرومية) من تحتها، وتخفى نفسها فى الأعشاب أو الأحراش المحيطة، ومن الواضح أنهم تقوم بهذا للغرض الغريزى الخاص بإفراح المجال أمام أمهاتها للاستعداد للطيران، وذلك كما نراه يحدث فى الطيور الأرضية البرية. ولكن هذه الغريزة التى قد تم استبقاؤها بواسطة دجاجنا قد أصبحت عديمة الفائدة تحت تأثير التدجين، لأن الدجاجة الأم قد فقدت تقريباً - عن طريق عدم الاستخدام - القدرة على الطيران.

وهكذا، فمن الممكن أن نخلص إلى أنه تحت تأثير التدجين، فإن بعض الغرائز قد تم اكتسابها، والغرائز الطبيعية قد تم فقدانها، جزئياً عن طريق العادة، وجزئياً بواسطة

Gallus bankiva

(١) الدجاج الهندي

Pheasants

(٢) طائر التدرج = طائر نبال شبيهه بالحجل

الإنسان عن طريق اختياره وتكديسه - من خلال أجيال متعاقبة - لعادات ذهنية وأفعال خاصة، والتي قد ظهرت في البداية نتيجة لما يتحتم علينا- نظراً لجهلنا - أن نطلق عليها إحدى المصادفات. فإن العادة الإجبارية وحدها في بعض الحالات قد كانت كافية لإحداث تغييرات ذهنية متوارثة، وفي حالات أخرى، فإن العادة الإجبارية لم تفعل شيئاً، وجميعها كان نتيجة الانتقاء، الذي قد تمت متابعتها بكل من الوسائل المنهجية واللاواعية، ولكن في معظم الحالات فإن العادة والانتقاء من المرجح أن يكونا قد تلازما .

الغرائز الخاصة

ربما كانت أفضل طريقة نستوعب بها كيف أصبحت الغرائز في البيئة الطبيعية، معدلة عن طريق الانتقاء، هي دراسة القليل من الحالات. وأنا سوف اختار منهن ثلاث فقط، وهي بالتحديد: الغريزة التي تقود أنثى طائر الوقواق لوضع بيضها في أعشاش طيور أخرى - وغريزة الاستعباد لدى بعض أنواع النمل المعينة - وقدرة عمل الخلايا عند نحل الملاجئ. وهاتان الغريزتان الأخيرتان قد تم وضعهما في ترتيب علماء التاريخ الطبيعي، على وجه العموم، بصفتهما أكثر جميع الغرائز المعروفة روعة.

غرائز طائر الوقواق

إنه من المفترض لدى بعض علماء التاريخ الطبيعي أن أكبر الأسباب الرئيسية وراء غريزة أنثى طائر الوقواق، التي تدفعها لوضع بيضها، ليس كل يوم، ولكن على فترات تتراوح من يومين إلى ثلاثة أيام، هو أنها إذا كانت سوف تقوم بصنع عش خاص بها وتجلس على البيض الخاص بها، فإن البيض الذي تم وضعه أولاً سوف يكون من اللازم أن يتم تركه لبعض الوقت بدون احتضان، أو أنه سوف يوجد هناك بيض علاوة على أفراخ صغيرة في أعمار مختلفة في نفس العش. وإذا كانت هذه هي الحالة، فإن عملية وضع وفقس البيض سوف تكون عملية طويلة بصورة غير مريحة، وبالأخص من حيث إن هذا النوع من الطيور يبدأ رحلة هجرته الموسمية في فترة مبكرة

جداً، وأول الصغار التي سوف يكون قد تم فقسها من البيض سيكون من المحتتم غالباً أن يقوم الذكر بإطعامها منفرداً. ولكننا نجد أن طائر الوقواق الأمريكى قد وقع فى هذا المأزق، فإن الأنثى تصنع العش الخاص بها، ولديها البيض والصغار يفقس بصورة متتابعة، وكل هذا يحدث فى نفس الوقت. وقد تواتر كل من التأكيد والإنكار، على أن أنثى الوقواق الأمريكى فى بعض الأحيان، تضع بيضها فى أعشاش طيور أخرى، ولكنى سمعت مؤخراً من "الدكتور ميريل" Dr. Merrel من "إيوا" Iowa، أنه قد وجد فى إحدى المرات فى ولاية "إيلينوى" Illinois، أحد صغار الوقواق مع أحد صغار طائر "القيق" (١) فى عش طائر "القيق الأزرق" (٢)، وبما أن كليهما كان مكتمل الريش، لذا لم يكن هناك أى احتمال للخطأ فى التعرف عليهما. وأنا أستطيع أن أعطى العديد من الحالات لطيور مختلفة من التي قد عرف عنها أنها تضع بيضها فى أعشاش غيرها من الطيور. والآن دعنا نفترض أن السلف القديم لطائر الوقواق الأوروبى قد كانت لديه نفس عادات الوقواق الأمريكى، وأن أنثاه قد قامت فى بعض الأحيان بوضع بيضة فى عش طائر آخر. فإذا حدث واستفاد الطائر البالغ من هذه العادة التي تحدث بين حين وآخر، وذلك عن طريق استطاعته الهجرة فى وقت مبكر، أو عن طريق أى سبب آخر، أو إذا كان الصغير قد أصبح أكثر نشاطاً وقوة عن طريق الفرصة التي قد اكتسبها من الغريزة، والتي قد تعرض لها عن طريق الخطأ، و الموجودة لدى نوع آخر من الطيور، والمختلفة عما كان يمكن أن يتلقاه لو تربى تحت رعاية أمه الحقيقية، المرهقة والتي يصعب عليها أداء وظيفتها وذلك لحيازتها بيضا وصغاراً فى أعمار مختلفة فى وقت واحد، وهكذا فإن كلا من الطيور البالغة أو الربيب الصغير سوف تكتسب شيئاً مفيداً. وقياساً على ذلك فإننا نجد أنفسنا ننساق إلى الاعتقاد، بأن الطيور الصغيرة التي تربت بهذه الطريقة، سوف تكون قابلة عن طريق الوراثة لأن تتبع العادة العرضية والشاذة التي تتبعها أمهاتهما، وأنهما بدورهما سوف تقوم بوضع بيضهما فى أعشاش طيور أخرى، وتصبح بهذا الشكل أكثر نجاحاً فى تربية صغارهما. وأنا أعتقد أن هذه

Jay

Blue jay = Garrulus cristatus

(١) طائر القيق = الزرياب = أبو زريق = طائر كالغراب

(٢) طائر القيق الأزرق = الثرثار المتوج

الغريزة الغريبة الموجودة لدى طائر الوقواق الأوروي، قد بدأت عن طريق عملية مستمرة من هذا النوع. وقد تم التأكيد مؤخراً بناء على دليل كاف، بواسطة "أدولف موللر" Adolf Muller، أن أنثى الوقواق تضع فى بعض الأحيان بيضها على الأرض الجرداء، وتجلس عليهما، وتطمع صغارها. وهذا الواقعة النادرة هى فى الغالب حالة انتكاس إلى الغريزة الأرومية^(١) التى كانت موجودة عند أسلافها لبناء الأعشاش^(٢) والتي قد فقدت منذ زمن طويل.

وقد قامت اعتراضات على أننى لم أنتبه إلى الموضوعات الأخرى المتصلة بالغرناز والتكيفات فى التركيب الموجودة عند طائر الوقواق، والتي يتم الكلام عنها على أساس أنها متساوية فى الأهمية بشكل ضرورى. ولكن فى جميع الحالات، فإن التخمين فى إحدى الغرناز المعروفة لنا والموجودة فى نوع منفرد، شىء لا فائدة فيه، وذلك لأنه ليس لدينا حتى الآن أى حقائق لإرشادنا. فإلى عهد قريب كانت الغرناز الخاصة بالوقواق الأوروي والوقواق غير المتطفل الأمريكى، هى الوحيدة المعروفة، ولكن الآن، والفضل يرجع لملاحظات "السيد رامسى" Mr. Ramsay، فإننا تعلمنا شيئاً عن ثلاثة أنواع أسترالية، تضع بيضها فى أعشاش طيور أخرى. والنقاط الأساسية التى تشير إليها هى ثلاث: أولاً، أن الوقواق العادى، مع استثناءات نادرة، يضع بيضة واحدة فقط فى عش، وذلك حتى يمكن للفرخ الكبير الحجم والنهم من تلقى الكفاية من الطعام. وثانياً، أن البيض صغير الحجم بصورة ملحوظة، ولا يتعدى حجم بيض طائر "القبرة"^(٣)، وهو طائر حجمه حوالى الخمس من حجم الوقواق. أما حقيقة أن الحجم الصغير للبيضة هو نتيجة للتكيف، فإنه من الممكن لنا أن نستنتجها، من الحقيقة النابعة من أن الوقواق الأمريكى غير المتطفل يضع بيضاً مكتمل الحجم. وثالثاً، أن الوقواق الصغير، بعد وقت قصير من خروجه من البيضة، يمتلك الغريزة، والقوة، والظهر الذى تم تشكيله على وجه صحيح للدفع للتخلص من إخوته فى الحضانة^(٤).

Aboriginal

(١) أرومى = بدائى

Nidification

(٢) بناء الأعشاش = التعشيش

Skylark

(٣) طائر القبرة

Foster-Parents, Brothers

(٤) الأبوة أو الإخوة فى الحضانة *

والتي بالتالى سوف تلقى حتفها من البرد والجوع. وهذا ما أطلق عليه بشكل وقح أنه ترتيب مفيد، وذلك لكى يتمكن الوقواق الصغير من الحصول على غذاء كاف، ولكى يفنى إخوته فى الحضانة قبل أن يكتسب المزيد من الإحساس!.

لنلتفت الآن إلى الأنواع الأسترالية، فبالرغم من أن هذه الطيور تضع عادة بيضة واحدة فقط فى عش ما، فإنه ليس من النادر أن نجد بيضتين وحتى ثلاث بيضات فى نفس العش. والبيض فى حالة "الوقواق البرونزى"^(١) يختلف بشكل كبير فى الحجم، وذلك من ثمانية إلى عشرة أمثال فى الطول. والآن، فإذا كانت هناك ميزة لهذا النوع فى أن يضع بيضاً أصغر فى الحجم حتى مما يضعه حالياً، وذلك بغرض خداع آباء معينة فى الحضانة، أو - كما هو الأكثر احتمالاً - لكى تتمكن من الفقس فى خلال مدة أقصر (وذلك لأنه من المؤكد أنه توجد علاقة بين حجم البيض والمدة التى تستغرقها حضانتها)، فلا توجد هناك صعوبة فى الاعتقاد بأن جنسا أو نوعا قد تم تكوينه وفى استطاعته أن يضع بيضاً أصغر فأصغر، لأن هذا البيض سوف يكون آمناً بشكل أكبر فى الفقس وفى الرعاية. ويعلق "السيد رامسى" على أن اثنين من أنواع الوقواق الأسترالى، عندما يقوما بوضع بيضهما فى عش مفتوح، فإنهما يظهران تفضيلاً متعمداً نحو الأعشاش التى تحتوى على بيض ذى لون مشابه لبيضهما. ويبدو أن النوع الأوروبى لديه نفس النزعة نحو غريزة مماثلة، ولكنه ليس من النادر أن يحيد عنها، كما يبدو من وضع الأنثى لبيضها الكئيب والباهت الألوان فى عش طائر "مغرد السياج"^(٢) الذى يحتوى على بيض لونه أزرق مخضر متآلق. فإذا كان وقواقنا الأوروبى قد أبدى الغريزة السابق ذكرها، فإنه من المؤكد أنها كانت سوف تضاف إلى هذه الغرائز التى يفترض أنه قد تم اكتسابها مع بعضها البعض. وبيض الوقواق البرونزى الأسترالى يختلف، والأصالة "للسيد رامسى"، بدرجة غير عادية فى الألوان، وفيما يتعلق بهذا الأمر فبالإضافة إلى الاختلاف فى الحجم، فإن الانتقاء الطبيعى يكون قد حصل على وتمكن من تثبيت أى تعديل ذى فائدة.

Bronze cuchoo

(١) الوقواق البرونزى

Hedge-Warbler

(٢) مغرد السياج = هزاج السياج = طائر مغرد *

فى حالة الوقواق الأوروبى، فإنه من المعتاد أن يتم لفظ الذرية الخاصة بالأبوين الحاضنين من العش فى خلال ثلاثة أيام من فقس بيض الوقواق، وبما أن الأخيرة تكون فى هذه المرحلة من العمر فى أشد حالات العجز، فإن "السيد جولد" Mr. Gould كان فى الماضى يميل إلى الاعتقاد بأن عملية اللفظ كانت تتم بواسطة الأبوين الحاضنين نفسهما. ولكنه تلقى تقريراً موثقاً به عن أحد صغار الوقواق الذى تحت مشاهدته بالفعل، حتى وهو ما زال أعمى وغير قادر حتى على رفع رأسه لأعلى، فى أثناء قيامه بلفظ وإلقاء إخوته فى الحضانة من العش. وقد قام الملاحظ بإعادة أحد هذه الطيور المفلوطة إلى العش، ومرة أخرى قد تم إلقاؤه إلى الخارج. وفيما يتعلق بالوسائل التى عن طريقها قد تم اكتساب هذه الغريزة الغريبة والكريهة، فإنه إذا كان من الأهمية بكثير للوقواق الصغير - كما هو الحال فى الغالب - أن يتلقى أكبر قدر من الطعام فى أسرع وقت ممكن بعد الفقس، فأنا لا أرى أى صعوبة خاصة فى كونه قد اكتسب تدريجياً، وفى خلال أجيال متتابعة، الرغبة العمياء، والقوة، والتركيب اللازمين لعملية اللفظ، لأن تلك الصغار من طيور الوقواق التى لديها مثل هذه العادات و التركيب الذى قد تم تكوينها على أفضل وجه، فإنها هى التى سوف تكون أكثر أماناً أثناء فترة الرعاية. وأول خطوة فى اتجاه الاستحواذ على الغريزة الصحيحة، من المحتمل أنها قد كانت ليست أكثر من مملكة غير متعمدة من جانب الطائر الصغير، عندما تقدم بعض الشئ فى العمر والقوة. وأن العادة قد تحسنت فيما بعد، وانتقلت إلى عمر أكثر تبكيراً. وأنا لا أرى أى صعوبة فى ذلك، أكبر مما أراه فى الصغار التى لم يتم فقسها فى الطيور الأخرى والتى قد اكتسبت الغريزة للنفاذ خلال القشر الخاص ببيضها، أو أكبر من صغار الثعابين التى تحوز فى فكوكها العليا - كما لاحظ "أوين" Owen - إحدى الأسنان الحادة المؤقتة للنفاذ من خلال قشرة البيضة القوية. لأنه إذا كان كل جزء جسدى معرضاً إلى اختلافات فردية عند كل الأعمار، وكانت الاختلافات تميل إلى أن يتم توارثها عند عمر مماثل أو مبكر - وهى اقتراحات لا يمكن تنفيذها - إذن، فالغرائز والتركيب الخاصة باليافع، من الممكن أن يتم تعديلها ببطء بنفس الدرجة من التأكيد كما يحدث لتلك الخاصة بالبالغ، وكل من الحالتين يجب أن تصمد أو تسقط مع كل النظرية الخاصة بالانتقاء الطبيعى.

بعض أنواع طيور "الملطروس"^(١)، وهي طبقة بعيدة التباین من الطيور الأمريكية، وقريبة الصلة من طيور "الزرزور"^(٢) الخاصة ببريطانيا، لديها عادات طفيلية مماثلة لتلك التي عند طائر الوقواق، وهذه الأنواع تقدم تدرجاً مثيراً للاهتمام فى سبيل الوصول إلى الكمال لهذه العادات الخاصة بها. فإن كلا من الذكر والأنثى "للملطروس الكستنائى"^(٣) - كما أعلن بواسطة مراقب ممتاز، هو "السيد هدسون" Mr. Hudson -- تعيش فى بعض الأحيان مع بعضها البعض بصورة إباحية^(٤) فى أسراب، وفى أحيان أخرى فإنها تكون أزواجاً محددة. وهى إما أن تقوم ببناء عش خاص بهما، أو تقوم بالاستيلاء على عش خاص بأحد الطيور الأخرى، وفى بعض الأحيان تقوم بإلقاء أفراخ هذا الطائر الغريب عنهما إلى الخارج. وهى إما أن تقوم بوضع بيضهما فى هذا العش المستولى عليه بهذه الطريقة، أو تقوم ، بشكل غريب، ببناء عش لنفسها فوق هذا العش. وهى عادة ما تقوم بالجلوس على البيض الخاص بها وبرعى صغارها، ولكن "السيد هدسن" يقول إنه من المحتمل أنها تكون متطفلة فى بعض الأحيان، وذلك لأنه قد شاهد صغار هذا النوع تتبع طيوراً بالغة من نوع مختلف، ويطلب بصخب^(٥) بأن تطعمها هذه الطيور الغريبة عنها. أما العادات المتطفلة لنوع آخر من طيور الملطروس، وهو "الملطروس البونارى"^(٦) فهى متطورة بصورة أرفع بكثير عن تلك الخاصة بالأنواع السابق، ولو أنها ما زالت بعيدة عن الكمال. فهذا الطير - على قدر ما هو معلوم عنه - يضع البيض الخاص به بصورة ثابتة فى أعشاش الأغراب، ولكن الشيء الجدير بالملاحظة هو أن الكثير منه يبدأ معاً - فى بعض الأحيان - فى بناء عش غير منتظم وغير مرتب لنفسه، وموضوع فى موقع غير مناسب بشكل استثنائى غريب، مثل: فوق أوراق الشجر الخاصة بإحدى الأجمات الشوكية^(٧).

Molothrus	(١) طائر الملطروس **
Starlings	(٢) طيور الزرزور
Molothrus badius	(٣) الملطروس الكستنائى **
Promiscuously	(٤) بصورة إباحية = تلاقح الجنسين بدون تمييز أو ارتباط زوجى *
Clamouring	(٥) يطالب بصخب = يحدث ضجة عالية
Molothrus bonariensis	(٦) الملطروس البونارى **
Thistle	(٧) الشوك = أى من عدة نباتات شائكة (كالشوك السنانى)

وبالرغم من ذلك فإنها لا تتم أبداً - حسب ما أكده "السيد هدسون" - بناء أى عش لنفسها. وهى فى أحوال كثيرة تضع عدداً كبيراً من البيض - يتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين - فى نفس العش الحاضن، وهو عدد كبير لدرجة أن القليل منه أو لا شىء منه على الإطلاق من الممكن أن يتم فقسه. والأكثر من ذلك، أن لديها عادة نقر ثقوب فى البيض، سواء الخاص بالنوع الخاص بها، أو الخاص بأبائها فى الحضانة، والتي تجدها فى الأعشاش المستولى عليها. وهم يسقطون أيضاً الكثير من البيض على الأرض الجرداء، وهذا البيض بالتالى سوف يفنى. ونوع ثالث، وهو "الملطروس البقرى"^(١) الخاص بأمريكا الشمالية، قد اكتسب غرائز فى مثل كمال الغرائز الخاصة بطائر الوقواق، فى أنه لا يضع أبداً أكثر من بيضة واحدة فى عش حاضن، وبهذا الشكل يتمتع الطائر الصغير برعاية مضمونة. و"السيد هدسون" من غير المؤمنين الأقوياء بالتطور، ولكن يبدو أنه قد أصيب بصدمة شديدة من جراء الغرائز غير المكتملة الخاصة بالملطروس البونارى إلى درجة أنه يستشهد بكلماتى، ويتساءل "هل من الواجب علينا أن نعتبر هذه العادات، على أساس أنها ليست غرائز ممنوحة بصفة خاصة أو مخلوقة، ولكنها نتائج صغيرة لقانون عام واحد، يدعى التحول"^(٢).

طيور مختلفة، كما سبق وقدمنا، تضع بيضها أحياناً فى أعشاش طيور أخرى. وهذه العادات ليست غير شائعة بصورة كبيرة مع الدجاجيات^(٣)، وهى تلقى بعض الضوء على الغريزة الفريدة الموجودة لدى النعام^(٤). وفى هذه الفصيلة الدجاجية يجتمع العديد من إناث الطيور^(٥) لكى تضع أولاً القليل من البيض فى عش واحد ثم فى عش آخر، وهذا البيض تتولى الذكور عملية إتمام فقسه. وهذه الغريزة قد يمكن

Molothrus pecoris	(١) الملطروس البقرى **
Transition (Law of-)	(٢) التحول (قانون التحول)
Gallinacea	(٣) الدجاجيات
Ostrich	(٤) نعامة
Hen-birds	(٥) إناث الطيور

تفسيرها من خلال حقيقة أن إناث الطيور تضع عدداً كبيراً من البيض - كما هو الحال مع طائر الوقواق - على فترات تتراوح ما بين اثنين وثلاثة أيام. ومن ناحية أخرى، فإن الغريزة في حالة النعام الأمريكي - كما هو الحال مع الملقوس البوناري - لم يتم اكتمالها إلى الآن، وذلك لأننا نجد أن هناك عدداً كبيراً بشكل مدهش من البيض يرقد منثوراً على السهول المنبسطة، إلى درجة أنني في خلال يوم واحد من البحث قد تمكنت من انتشال ما لا يقل عن عشرين بيضة مفقودة ومهدرة.

الكثير من أنواع النحل متطفل، ويقوم بوضع بيضه بصورة منتظمة في أعشاش أنواع أخرى من النحل. وتظهر هذه الحالة بصورة ملحوظة أكثر مما هي عليه في حالة طائر الوقواق. لأن هذه الأنواع من النحل لم يحدث فيها تعديل لغرائزها فحسب، ولكن تركيبها أيضاً قد تم تعديله تماشياً مع عاداتها الطفيلية. وذلك لأنها لا يمتلك الجهاز الخاص بجمع اللقاح، والذي كان من المفروض ألا يكون هناك غنى عنه إذا ما شرعت في تخزين الطعام للصغار الخاصة بها. وبعض الأنواع من "السفيجديات"^(١) (وهي حشرات تشبه الزنابير) هي بالمثل حشرات طفيلية، وقد أظهر مؤخراً "م. فابر" M. Fabre سبباً قوياً يدعو للاعتقاد بذلك، فعلى الرغم من أن "الزنابير السوداء"^(٢) تقوم بعمل الجحر الخاص بها وتحتزن فيه فرائسها المشلولة لإطعام يرقاتها، إلا أنه مع ذلك، عندما تجد هذه الحشرة جحراً محفوراً وممتلئاً بالغذاء بالفعل بواسطة نوع آخر من الزنابير^(٣)، فإنها تستغل فرصة العثور على مثل هذه الغنيمة وتنهض إلى هذه المناسبة لتصبح طفيلية. في هذه الحالة، كما في حالة طائر الملقوس أو الوقواق، فأنا لا أستطيع أن أرى صعوبة في أن يقوم الانتقال الطبيعي بتحويل عادة عارضة إلى عادة دائمة، إذا كانت ذات ميزة للنوع، وإذا لم يتم بهذا الشكل إبادة هذه الحشرة التي تم الاستيلاء على عشها وطعامها المخزون بهذه الطريقة الشريرة.

Sphegidae

(١) السفيجديات = شيزنبورى = شيدبورى *

Tachytesnigaza

(٢) حشرات الزنابير السوداء *

Sphex

(٣) نوع من الزنابير *

غريزة الاسترقاق^(١)

هذه الغريزة غير العادية قد تم اكتشافها لأول مرة فى حشرة النمل الأحمر^(٢) بواسطة "بيير هوبر" Pierre Huber، والذي يعتبر مراقباً أفضل حتى من والده المبعجل. هذه النملة تعتمد تماماً على عبيدها، وبدون مساعدتها، فإن هذا النوع قد كان مصيره المؤكد هو الإبادة فى خلال سنة واحدة. والذكور والإناث الخصبة فيه لا تقوم بأى عمل أياً كان نوعه، والعمال أو الإناث العقيمة، بالرغم من أنها الأكثر نشاطاً وشجاعة فى القبض على العبيد، فإنها لا تقوم بأى عمل آخر. وهى غير قادرة على بناء أعشاشها الخاصة، أو إطعام اليرقانات الخاصة بها. وعندما يصبح العنق القديم غير ملائم، وأصبح لزاماً عليهما أن تنتقل، فإن العبيد من النمل هى التى تقرر هذه الهجرة، وفى الواقع فهى تقوم بحمل أسيادها فى أفكاكها. وهذه الأسياد عاجزة ولا حولها تماماً، إلى درجة أنه عندما قام هوبر بحفظ ثلاثين منهم فى مكان مغلق بدون أى عبد معها، ولكنه ملئ بغذاء وفير من أكثر الأنواع قبولاً لديها، ومعها يرقاتها وعذاريتها^(٣) من أجل تحفيزها للعمل، فإنها لم تفعل شيئاً. لم يستطيعوا حتى إطعام أنفسهم، والعديد منها هلك من الجوع. وعندئذ أدخل هوبر إحدى العبيد (من النمل الداكن اللون)^(٤)، والتى انهمكت فى العمل على الفور، وأطعمت وأنقذت البقية الباقية على وجه الحياة، وقامت بعمل بعض النخاريب (الخلايا) والتفتت إلى رعاية اليرقانات، ووضعت كل شئ فى نصابه. فما هو الشئ الأكثر خروجاً عن المألوف أكثر من هذه الحقائق المؤكدة جداً؟ - وإذا لم تكن نعلم أى شئ عن وجود أى نوع آخر من النمل المسترق، فإنه كان سيصبح من المستحيل التنبؤ بمدى الروعة التى قد تصل إليها إحدى الغرائز .

النمل الدموى اللون^(٥) هو نوع آخر تم اكتشافه أيضاً لأول مرة بواسطة، "ب. هوبر" على أساس أنه نمل صانع للعبيد. وهذا النوع موجود فى الأجزاء الجنوبية من

Slave-making	(١) الاسترقاق = الاستعباد
Formica (Polyerges) rufescens	(٢) حشرة النمل الأحمر *
Pupae	(٣) العذارى = الخادرات = الطور الانتقالي بين اليرقانة والحشرة الكاملة
Formica Fusca	(٤) النمل الداكن اللون
Formica Sanguinea	(٥) النمل الدموى اللون = النمل القانى الاحمرار

إنجلترا، وعاداته قد تمت متابعتها بواسطة "السيد ف. سميث" Mr. F. Smith، التابع للمتحف البريطاني، والذي أنا مدين إليه بشكل كبير للمعلومات التي أمدني بها عن هذا الموضوع وعن مواضيع أخرى. وبالرغم من ثقتي التامة في تصريحات "هوبر" و"السيد سميث"، إلا أنني قد حاولت أن أتناول هذا الموضوع بإطار ذهني متشكك، مثلما يمكن التماس العذر لأي إنسان لشكه في وجود مثل هذه الغريزة الخارقة للعادة التي تقوم بصنع عبيد. وهكذا، فإنني سوف أقوم بتقديم المشاهدات التي قد أجريتها مع بعض التفصيل القليل: قمت بفتح أربعة عشره من الأعشاش التابعة للنمل الدموي، ووجدت عدداً قليلاً من العبيد في كل واحد منها. أما بالنسبة إلى الذكور والإناث الخصبة الخاصة بنوع العبيد (النمل الداكن اللون) فإنه قد تم العثور عليهما فقط في المجتمعات الصحيحة الخاصة بها، ولم تشاهد أبداً في أعشاش النمل الدموي اللون. والعبيد لونها أسود ولا يزيد حجمها عن نصف حجم أسيادها ذات اللون الأحمر، وبهذا الشكل فإن هناك تبايناً كبيراً في أشكالها. وعندما يحدث أي اضطراب بسيط في العش، فإن العبيد تبرز للخارج أحياناً، وكما هو الحال مع أسيادها فإنها تصبح في حالة هياج شديد وتدافع عن العش. وعندما يحدث اضطراب شديد للعش، وتتعرض اليرقانات والخادرات للخطر، فإن العبيد تعمل بنشاط جنباً إلى جنب مع أسيادها لحملها بعيداً إلى مكان آمن. ومن ثم، فإنه من الواضح أن العبيد تشعر تماماً وكأنها في وطنها. وفي أثناء شهرى يونيو ويوليو، وعلى مدى ثلاث سنوات متتالية، فقد أمضيت ساعات طويلة في مراقبة العديد من الأعشاش في مقاطعات "سرى" Surrey و"سسكس" Sussex، ولم أر على الإطلاق أحد العبيد سواء يخرج من أو يدخل إلى أحد الأعشاش. وبما أنه في خلال هذه الأشهر، فإننا نجد العبيد قليلة جداً في العدد، ومن ثم فقد تطرق تفكيرى إلى أنها قد تتصرف بطريقة مختلفة عندما يكون عددها كبيراً. ولكن "السيد سميث" أبلغنى بأنه قد راقب الأعشاش عند ساعات مختلفة في خلال أشهر مايو ويوليو وأغسطس، في كل من "سرى" و"هامبشير" Hampshire، وأنه لم ير العبيد على الإطلاق سواء خارجة من أو داخلية إلى العش، مع أنها تكون موجودة بأعداد كبيرة في أغسطس. وعلى هذا الأساس، فإنه يعتبرها عبيدا منزلية على وجه التحديد. ومن جهة أخرى، فإن الأسياذ قد تشاهد طوال الوقت

وهي تجلب مواداً وطعاماً من جميع الأنواع إلى العش. ومن ناحية أخرى، فخلال عام ١٨٦٠، وفي شهر يوليو، فإننى قد التقيت مصادفةً مع مجتمع من النمل يصطحب معه قطعاً كبيراً بصورة غير عادية من العبيد، وشاهدت القليل من العبيد مختلطة مع أسيادها وهي تغادر العش، ويذحف على طول الطريق المؤدى إلى شجرة تنوب إسكتلندية^(١)، على بعد خمس وعشرين ياردة، والتي قامت بالتسلق معا عليها، بحثاً في الغالب عن حشرات المن^(٢) أو المغابير^(٣). ووفقاً إلى "هوبر"، الذى كانت لديه فرص كافية للمراقبة، فإن العبيد فى سويسرا تعمل بشكل اعتيادى مع أسيادها فى تشييد العش، وأنها وحدها التى تفتح وتغلق الأبواب فى الصباح والمساء، وكما صرح بوضوح، فإن وظيفتها الأساسية هى البحث عن حشرات المن. وهذا الاختلاف فى العادات المعتادة لكل من الأسياد والعبيد فى البلدين، تعتمد فى الغالب على مجرد أن العبيد يتم القبض عليهما بأعداد أكبر فى سويسرا عنها فى إنجلترا.

وفى أحد الأيام لحسن الحظ، كنت شاهداً على ارتحال بعض النمل الدموى اللون من أحد الأعشاش إلى عش آخر، وكان مشهداً من أكثر المشاهد امتاعاً وأخذاً بالألباب، أن أرى الأسياد تحمل عبيدها بعناية فى أفكاكها بدلاً من أن يتم حملها بواسطة العبيد، كما هو الحال فى فصيلة النمل الأحمر. وفى يوم آخر، حدث أن انتباهى قد اصطدم بحوالى العشرين^(٤) من صناع العبيد الملازمة لنفس البقعة، ومن الواضح أن ذلك لم يكن بحثاً عن الطعام، وقد حاولوا التقرب ولكنهم قوبلوا بصد عنيف من جماعة منفصلة من نوع العبيد (النمل الداكن اللون)، وحتى إن الأمر وصل فى بعض الأحيان إلى أن عدداً كبيراً يربو على ثلاثة من هذه العبيد قد أصبحت متعلقة بأرجل النمل المسترق الدموى اللون. وقامت هذه الفصيلة الأخيرة بقسوة بقتل

Scotch - fir - tree

(١) شجرة تنوب إسكتلندية

Aphides

(٢) حشرات المن = الأرقام = حشرات تمتص عصارات النباتات

Cocci

(٣) المغابير = حشرات قشرية

Score

(٤) عشرون

خصومها صغار الحجم، وحملت أجسادها الميتة لاستخدامها كغذاء فى العش الخاص بها الذى يقع على بعد تسع وعشرين ياردة، ولكن تم حرمانها من الحصول على أى خادرات لتربيتها على العبودية. ويعد ذلك قمت بالتنقيب عن قسم صغير مخصص لعذارى النمل الداكن اللون لاستخراجها من عش آخر، قمت بوضعها على بقعة مكشوفة من الأرض قريبة من مكان المعركة، فتم القبض عليها بشغف، وتم نقلها بالقوة بواسطة الطغاة، التى كانت فى الغالب سعيدة بذلك، فبعد كل شىء، فإنها قد خرجت منتصرة فى آخر معاركها.

وفى الوقت نفسه، فقد وضعت على نفس المكان مجموعة صغيرة من الخادرات التابعة لنوع آخر، ألا وهو النمل الأصفر اللون^(١)، وكان عدد قليل من هذا النمل الصغير الأصفر اللون ما زال متعلقاً بشظايا العش الخاص بهم. وهذا النوع من الممكن فى بعض الأحيان - ولو أن ذلك نادر الحدوث - أن ينقلب إلى عبيد، مثلما جاء فى وصف "للسيد سميث". فبالرغم من الصغر المتناهى لهذا النوع، إلا أنه شجاع جداً، وقد شاهدته بنفسى يهاجم بشراسة أنواعاً أخرى من النمل. وفى إحدى المرات وجدت لدهشتى الكبيرة جماعة منفصلة من النمل الأصفر تحت حجر موجود تحت مستوى عش تابع للنمل المسترق الدموى اللون، وعندما قمت بالمصادفة بإزعاج كل من العشين، فإن هذا النمل الصغير قام بالهجوم على جيرانه الكبار الحجم بشجاعة مدهشة. وعند ذلك ثار عندى حب الاستطلاع للتأكد من هل كان النمل الدموى اللون قادراً على التمييز ما بين خادرات النمل الداكن الذى اعتاد أن يستعبدها، والخادرات التابعة لهذا النمل الأصفر الصغير الثائر، والذى من النادر أن يتمكن من أسره، وكان من الواضح أنها قد استطاعت من أول وهلة التمييز بينهما، وذلك لأننا شاهدنا أنها قد قامت بالقبض بتلهف وعلى الفور على خادرات النمل الداكن، بينما كانت فى حالة رعب شديد عندما قابلت الخادرات، أو حتى التراب الخاص بفصيلة النمل الأصفر، وسارعت

بالفرار بعيداً عنها، ولكن فى خلال حوالى الربع من الساعة، وبعد أن زحف النمل الصغير الأصفر بعيداً بقليل، فإن الشجاعة دبت فى قلوبها وأخذت فى نقل الخادرات.

وفى إحدى الأمسيات، قمت بزيارة جماعة أخرى من النمل الدموى اللون، ووجدت عدداً من هذا النمل عائداً إلى مسكنه ويدخل إلى عشه حاملاً معه الأجساد الميتة من النمل الداكن اللون (وهذا يظهر أن الأمر لم يكن ارتحالاً) ومعها العديد من الخادرات. فقامت بتتبع طابور طويل من النمل المحمل بالغنائم، يمتد للخلف لمسافة حوالى الأربعين ياردة، إلى كومة كثيفة جداً عن المروج، وعندها رأيت آخر فرد من النمل الدموى اللون يخرج حاملاً خادرة، ولكن لم يكن فى استطاعته أن أعثر على العش الذى تم تدميره فى هذا المرج الكثيف. وعلى كل حال، فإن العش قطعاً كان قريباً من متناول اليد، وذلك لأن فردين أو ثلاثة أفراد من النمل الداكن كانت تهرول فى حالة هياج شديد، وواحدة منها كانت تجثم بدون أى حركة وفى فمها الخادرة الخاصة بها على قمة عسلوج^(١) من الأجمة، كانطباعة ذهنية للقنوط فوق مقرها المنهوب.

هذه هى الحقائق، مع أنها لم تحتج إلى تأكيد منى، التى تتعلق بالغريزة المدهشة الخاصة بالاستعباد. وليكن من الملاحظ مدى التباين الصارخ الموجود بين العادات الغريزية الموجودة لدى النمل الدموى اللون وتلك الموجودة لدى النمل الأحمر الموجود فى القارة الأوروبية. فالأخير لا يقوم ببناء عش خاص به، ولا يأخذ قراراً بهجرته، ولا يقوم بجمع الطعام لنفسه أو لصغاره، ولا يستطيع حتى أن يطعم نفسه: فهو معتمد بصورة تامة على عبيده الكثيرة. وعلى الوجه الآخر، فإن النمل الدموى اللون، يمتلك عدداً أقل بكثير من العبيد، وفى الجزء المبكر من الصيف نجدها قليلة بدرجة شديدة جداً، والأسياذ هى التى تقرر متى وأين سوف يتم إنشاء عش جديد، ومتى تتم الهجرة، والأسياذ هى التى تحمل العبيد. وفى كل من سويسرا وإنجلترا فإنه يبدو أن رعاية اليرقانات مقصورة تماماً على العبيد، وأن الأسياذ تذهب بمفردها فى حملات الاسترقاق. وفى سويسرا فالعبيد والأسياذ يعملان سوياً، فى إحضار المواد اللازمة

وبناء العش، ولكن أساساً العبيد، عليها العناية وحلب - كما قد يجوز استخدام هذا المصطلح - حشرات المن الخاصة بهما، وهكذا فكلاهما يجمع الغذاء للجماعة. وفي إنجلترا، فالأسياد وحدها هي التي في العادة تغادر العش لجمع مواد البناء والطعام لنفسها ولعبيدها وليرقاتها. وبهذا فإن الأسياد في هذا البلد (إنجلترا) تتلقى خدمة أقل بكثير من عبيدها، مما يفعل الأسياد في سويسرا.

أما عن الخطوات التي قد نشأت عن طريقها غريزة النمل الدموي اللون، فأنا لن أدعى لنفسى الحق في التخمين في هذا الموضوع. ولكن بما أنى قد رأيت النمل الذى لا يتبع فصائل النمل المسترق وهو يقوم بنقل الخادرات التابعة لأنواع أخرى، إذا وجدها منثورة بالقرب من أعشاشه، فإنه من الممكن لمثل هذه الخادرات التي قد تم تخزينها كمصدر للطعام، أن يكتمل تكوينها، وبالتالي فهذا النمل الغريب الناتج سوف يتم رعايته بدون قصد، وسوف يتبع حينئذ غرائزه الحقيقية، ويقوم بأى عمل قد يكون فى استطاعته القيام به، فإذا ثبت أن وجوده شئ نافع للنوع الذى قد قبض عليه - إذا كانت هناك فائدة لهذه النوع فى أن يقتصر عمالاً أكبر من أن ينجبها - فإن عادة جمع الخادرات التي قد كانت فى الأصل لغرض الطعام، من الممكن أن يتم تقويتها بواسطة الانتقاء الطبيعى، وتصبح دائمة للغرض المختلف تماماً، ألا وهو تربية العبيد. وبمجرد اكتساب الغريزة، فإنها إذا استمرت لدرجة أقل كثيراً حتى عما هي عليه فى النمل الدموي اللون البريطاني، والذى كما رأينا، هو الأقل استعانة بعبيده من النوع الموجود فى سويسرا، فإن الانتقاء الطبيعى قد يزيد ويعدل من هذه الغريزة - مع الوضع نفسه فى الاعتبار دائماً أن كل تعديل يكون له فائدة للنوع - إلى أن يتم تكوين نملة معتمدة بطريقة خسيصة على عبيدها كما هو حال النمل الأحمر.

Hive - bess

(١) نحل الملاجئ = نحل القفير *

وقد فصلنا فى ترجمتنا استخدام مصطلح "ملجاً" لكلمة "Hive" حيث إن تعريفها بالمعاجم الإنجليزية هو "An artificial shelter for the habitation of a swarm of bees" وهذا يعنى "ملجاً مصطنع من أجل الاستيطان الخاص بحشد من النحل"

غريزة عمل الخلية فى نحل الملاجىء^(١)

لن أدخل هنا فى تفاصيل دقيقة فى هذا الموضوع، ولكنى سوف أعطى مجرد موجز للاستنتاجات التى قد توصلت إليها. فإنه يجب أن يكون إنساناً غيبياً هذا الذى يتأتى له أن يفحص التركيب المتقن لمشط العسل^(٢) (قرص العسل) المهياً بشكل جميل إلى الحد الأقصى، بدون إبداء إعجابه بحماس. ويصل إلى أسماعنا من علماء الرياضيات أن النحل قد توصل بالفعل إلى حل لمشكلة عويصة، وأنه قد صنع خلاياه على الشكل الصحيح لتستوعب أكبر كمية ممكنة من العسل، مع أقل استهلاك ممكن للشمع الثمين المستخدم فى التشييد. وقد كان من اللافت للنظر أن أى عامل ماهر مزود بأنوات التركيب والقياس، سوف يجد أنه من الصعب جداً عليه أن يصنع خلايا من الشمع على الشكل الصحيح، مع أن هذا ما يتم إنجازه بواسطة مجموعة من النحل تعمل فى ملجأ مظلم. وتسليماً بأى غرائز كانت، فإنه شىء - يبدو لأول وهلة - غير قابل للتصديق كيف يستطيع النحل أن يقوم بعمل جميع المستويات والزوايا اللازمة، أو حتى كيف يستوعب أن هذا العمل قد تم صنعه بهذا الشكل الصحيح. ولكن الصعوبة ليست كبيرة إلى الحد الذى تظهر به لأول مرة: فأنا أعتقد أنه من الممكن توضيح أن هذا العمل الجميل هو من توابع القليل من الغرائز البسيطة.

ولقد قادنى إلى استقصاء هذا الموضوع "السيد واتر هاوس" Mr. Waterhouse، الذى أوضح أن الشكل الخاص بالخلية يعتمد بدرجة عالية على وجود الخلايا المجاورة، ووجهة النظر التالية قد يمكن اعتبارها مجرد تعديل فقط لهذه النظرية: فدعنا ننظر إلى المبدأ الكبير ألا وهو التدرج^(٣)، ونرى إذا ما كانت الطبيعة لا تكشف لنا حقاً عن طريقتها فى العمل. فى أحد أطراف سلسلة قصيرة نجد أن لدينا النحل الطنان^(٣)،

(١) مشط العسل = قرص العسل (والمصطلح الأخير زائغ عن الترجمة Honey-comb الصحيحة له، فهو ليس دائماً على شكل قرص، ولكن مما لا شك فيه أنه يشبه تقاسيم المشط وكلمة Comb تعنى حرفياً مشط، ولهذا فضلنا استخدام المصطلح الأول فى ترجمتنا).

(٢) التدرج Gradation

(٣) النحل الطنان = نحل ضخم شديد الطنين أثناء طيرانه Humble-bees = Bumble-bees

والذى يستخدم شرانقه^(١) القديمة لحفظ العسل، وقد يضيف إليها فى بعض الأحيان أنابيب قصيرة من الشمع، وبالمثل فهو يصنع حجيرات منفصلة من الشمع مستديرة وغير منتظمة إلى حد بعيد. وعند الطرف الآخر من السلسلة فإن لدينا الخلايا الخاصة بنحل الملاجئ (نحل القفير)، المصفوفة فى طبقة مزدوجة، وكل خلية - كما هو معلوم جيداً - هى عبارة عن منشور^(٢) سداسى الأضلاع، مع ميل فى الحواف التى عند القاعدة لجوانبه الستة وذلك لى تتصل بهرم مقلوب ذى ثلاثة معينات، وهذه المعينات لها زوايا خاصة، والثلاثة أهرامات التى تكون القاعدة للخلية الواحدة على جانب واحد من القرص تدخل فى تركيب القواعد الخاصة بالثلاث خلايا الملاصقة لهذه الخلية على الجانب المقابل. وفى السلسلة بين الكمال التام للخلايا الخاصة بنحل الملاجئ، والبساطة فى خلايا النحل الطنان، نجد الخلايا الخاصة بنحل العسل المكسيكى الداجن^(٣)، الذى تم وصفه ورسمه بعناية بواسطة "بيير هوير". ونحل العسل بالذات على درجة متوسطة من التركيب بين نحل الملاجئ والنحل الطنان، ولكنه أكثر قرابة من الأخير، فهو يقوم بصنع مشط شمعى منتظم تقريباً من خلايا أسطوانية الشكل، التى يتم فقس الصفار بداخلها، وعلاوة على ذلك فإنه يصنع بعض الخلايا الكبيرة للاحتفاظ بالعسل. وهذه الخلايا الأخيرة مستديرة تقريباً ومتساوية فى الحجم تقريباً، ومجمعة فى كتلة غير منتظمة. ولكن النقطة الجديرة بالملاحظة، أن هذه الخلايا يتم صنعها دائماً على الدرجة نفسها من التقارب كل منها للأخر، إلى حد أنها كان من الممكن أن تتداخل أو تنكسر إلى بعضها البعض إذا ما كانت هذه الكرات قد اكتملت، ولكن هذا ما لم يتم السماح به أبداً، فالنحل يبني حوائط من الشمع مسطحة بشكل دقيق بين الكرات، التى بالتالى تميل إلى التداخل. ومن ثم، فإن كل خلية تتكون من جزء كروى خارجى، ومن اثنين أو ثلاثة أو أكثر من الأسطح المسطحة، اعتماداً على إن كانت الخلية تجاور اثنين أو ثلاث أو أكثر من الخلايا الأخرى. وعندما تستقر إحدى

Cocoon

(١) شرنقة = فيلجة

Prism

(٢) منشور = موشور

Mexican *Melipona domestica*

(٣) نحل العسل المكسيكى الداجن

الخلايا على ثلاث خلايا أخرى، والتي نتيجة لكون الكرات فى نفس الحجم تقريباً - وهذا هو الواقع بصورة معتادة جداً وضرورية - فإن الأسطح الثلاثة المنبسطة تتحد فى شكل هرم، وهذا الهرم، كما علق "هوبر"، هو تقليد بدائى بصورة واضحة للقاعدة الهرمية ثلاثية الجوانب للخلية الخاصة بنحل الملاجئ. وكما هو موجود فى الخلايا الخاصة بنحل الملاجئ، فإننا نجد هنا أيضاً أن الأسطح الثلاثة المنبسطة فى أى خلية من الخلايا من الضرورى أن تدخل فى البناء الخاص بثلاث خلايا متجاورة. وإنه لمن الواضح أن نحل العسل يقوم بالاقتماد فى الشمع المستخدم، والشئ الأكثر أهمية، فى المجهود الجسدى، اتباعه لهذه الطريقة فى البناء. لأن الحوائط المنبسطة الموجودة بين الخلايا المتجاورة ليست مزوجة، ولكنها بنفس السمك الذى تكون عليه الأجزاء الكروية الخارجية، وعلاوة على ذلك فإن كل جزء منبسطة يكون جزءاً من خليتين.

بتقليب الفكر فى هذه الحالة، فإنه قد عنى أنه لو كان نحل العسل قد صنع كراته على بعد معين من بعضها البعض، وقام بصنع هذه الكرات متساوية فى الأحجام، وقام بترتيبها بشكل متماثل فى طبقة مزدوجة، فإن التركيب الناتج كان سيصبح فى مثل اكتمال القرص الخاص بنحل الملاجئ. وبناء على ذلك فقد كتبت إلى الأستاذ ميللر Professor Miller بجامعة كمبريدج، وهذا الاختصاصى بعلم الهندسة^(١) قد تطف بأن رد بقراءة التصريح التالى، المستخرج من معلوماته، والتي أخبرنى بأنها صحيحة تماماً:-

إذا رسمنا عدداً من الكرات المتساوية بحيث تقع مراكزها على طبقتين متوازيتين، ومع مركز كل كرة على المسافة المساوية لنصف القطر مضمروباً فى الجذر التربيعى لرقم اثنين (نصف × ٢) أو نصف القطر × ١,٤١٤٢١ (أو على مسافة أقل قليلاً)، ومن المراكز الخاصة بالسك كرات المحيطة على نفس الطبقة، وعلى نفس المسافة من المراكز الخاصة بالكرات الملاصقة على الطبقة الأخرى والموازية، وبعد ذلك، إذا رسمنا مستويات للتقاطع بين العديد من الكرات على كلتا الطبقتين، فإن النتيجة ستكون طبقة

مزبوجة من المناشير السداسية الأضلاع المتحدة مع بعضها عن طريق قواعد هرمية مكونة من ثلاثة معينات، والمعينات والجوانب الخاصة بالمناشير السداسية الأضلاع سوف تكون فيها كل زاوية منها متساوية تماماً مع أدق القياسات التي قد تم إجراؤها للخلايا الخاصة بنحل الملاجئ، ولكنى سمعت من "الأستاذ وايمان" Prof. Wyman، الذى قام بعمل قياسات دقيقة عديدة، أن الدقة التى تتصف بها البراعة فى العمل، الخاصة بالنحل، قد تمت المبالغة فيها بشكل كبير، إلى حد أنه أياً كان الشكل المثالى للخلية فإنه من النادر، إن لم يكن من المستحيل أن نصل إلى حقيقته.

ومن ثم فإننا من الممكن أن نستنتج بشكل آمن أنه، إذا كان فى مقدورنا أن نحدث القليل من التغيير فى الغرائز التى تمتلكها بالفعل نحلة العسل، وهى فى الحقيقة ليست بالغة الروعة، فسوف يكون باستطاعة هذه النحلة أن تصنع تركيباً يمثل الاكتمال الرائع الذى يميز ما تصنعه نحلة الملاجئ. ونحن يجب أن نفترض أن نحلة العسل لديها القدرة على صنع خلاياها على شكل كروى صحيح، وبأحجام متساوية - وهذا لن يكون مثيراً للكثير من الدهشة - حيث كما رأينا فإنها قد توصلت إلى تحقيق ذلك إلى درجة ما، وما نراه من كيفية صنع الكثير من الحشرات لجحور مكتملة الأسطوانية فى الخشب، فيبدو أنها تتمكن من صنع ذلك عن طريق الدوران حول نقطة ثابتة. ونحن يجب أن نفترض أن نحلة العسل قادرة على تنسيق خلاياها فى طبقات مستوية، كما تفعل بالفعل مع خلاياها الأسطوانية، ويجب أن نفترض إلى مدى أبعد - وهذه هى الصعوبة الكبرى - أنها سوف تستطيع بطريقة ما أن تقدر بدقة المسافة التى يجب أن تحافظ عليها للوقوف بعيداً عن زملائها العمال، عندما يكون العديد منها منهمكاً فى صنع كراته. ولكنها بالفعل قد وصلت بقدرتها على تقدير المسافة إلى حد أنها دائماً تنظم كراتها بحيث تتقاطع مع بعضها إلى حد معين، وتقوم بعد ذلك بربط نقاط التقاطع بواسطة أسطح تامة الانبساط. عن طريق مثل هذه التعديلات فى الغرائز التى ليست شديدة الروعة فى حد ذاتها - من الصعب أن تكون أشد روعة من تلك الغرائز التى تقود أحد الطيور إلى بناء عشه - فأنا أعتقد أن نحلة الملاجئ قد اكتسبت من خلال الانتقاء الطبيعى قدراتها المعمارية الفذة.

ولكن يمكن اختبار هذه النظرية عن طريق التجربة. واقتداءً "بالسيد تچيتمير" Mr. Tegetmeier، فقد قمت بفصل مشطين للعسل، ووضعت بينهما شريطاً طويلاً وسميكا ومستطيل الشكل من الشمع: فبدأ النحل على الفور فى نبش حفر دقيقة مستديرة فيه، وفى أثناء زيادتها لعمق هذه الحفر الصغيرة، فقد جعلتها أوسع ثم أوسع إلى أن تحولت الحفر إلى أحواض ضحلة، تظهر للعين ككرات تامة أو أجزاء من كرات، ولها تقريباً ما لقطر الخلية. وقد كان من أكثر الأشياء إثارة هو أن نلاحظ أنه كلما بدأ عدد من النحل فى حفر هذه الأحواض المتجاورة، فإنه يبدأ فى العمل وهو على مسافات معينة متباعدة عن بعضها البعض، حتى إنه عندما حان الوقت الذى وصلت إليه الأحواض إلى العرض المشار إليه سابقاً (أى حوالى عرض نخوب النحل المعتاد) ووصلت فى العمق إلى سدس قطر الدائرة التى قد كونت جزءاً منها، وحواف الأحواض قد تقاطعت أو انفتحت على بعضها. بمجرد أن حدث ذلك، توقف النحل عن الحفر، وبدأ فى بناء حوائط مسطحة من الشمع على خطوط التقاطع الموجودة بين الأحواض، وبهذا أصبح كل منشور سداسى الأضلاع مبنياً فوق الحافة المليئة بالنتوءات المستديرة لحوض أملس، بدلاً من الحواف المستقيمة لأحد الأهرام الثلاثية الأوجه كما فى حالة الخلايا العادية.

وعندما وضعت فى الملجأ بدلاً من قطعة سميكة مستطيلة من الشمع، شريحة رقيقة وضيقة، ولها حرف حاد كالكسكين، وملونة بالزنجفر^(١) ذى اللون القرمزى، بدأ النحل على الفور بحفر أحواض صغيرة بجوار بعضها البعض على كل من الجانبين، بنفس الطريقة السابق سردها، ولكن هذه الشريحة الشمعية كانت من الرقة إلى درجة قيعان الأحواض، وإذا استمر الحفر إلى العمق نفسه الذى وصلت إليه فى التجربة السابقة، لكانت قد انفتحت كل منها إلى الأخرى التى على الجانب المقابل. ومع ذلك فإن النحل لم يستمر إلى أن يحدث هذا، وتوقف عن الحفر فى الوقت المناسب، وهكذا فبمجرد وصول الأحواض إلى هذا العمق القليل، فإننا نجد أنه قد أصبحت لها قواعد

منبسطة، مكونة من صفائح رقيقة صغيرة مكونة من الشمع القرمزى اللون، الذى تم تركه بدون أن يقرض، وكانت قائمة - على مدى ما تستطيع أن العين ترى - على طول المستويات الخاصة بالتقاطعات الوهمية الموجودة بين الأحواض على الجانبين المتضادين لشريحة الشمع. وبالتالي فإننا نجد فى بعض المناطق أجزاءً صغيرة فقط، وفى مناطق أخرى نجد أجزاءً كبيرة، من صفيحة على شكل معين كانت تترك بين الأحواض المتقابلة. ولكن نتيجة الحالة غير الطبيعية للأشياء فإن العمل لم يستكمل بشكل دقيق. ولا بد من أن النحل قد قام بالعمل بمعدل متقارب جداً فى قرضه للشمع على هذا الشكل الدائرى، وتعميق الأحواض على كلا الجانبين من الشريحة الشمعية القرمزية اللون، حتى يتمكن من النجاح بهذه الصورة فى ترك صفائح منبسطة بين الأحواض وذلك بالتوقف عن هذه الأعمال عند مسطحات التقاطع.

عند الوضع فى الاعتبار مقدار الليونة الذى يتمتع به الشمع الرقيق، فأنا لا أرى أى صعوبة لدى النحل - بينما هو منهمك فى العمل على كل من سطحى شريحة الشمع - فى أن يدرك إلى أى مدى قد تم قرض الشمع إلى الرقة المطلوبة، وعندها يتوقف عن العمل. وعندما نتناول مشط العسل العادى، فإنه يبدو لى أن النحل لا ينجح دائماً فى العمل وسمحت للنحل بالاستمرار فى العمل على نفس الوتيرة من كلتا الجهتين، لأنى لاحظت معينات قد اكتمل نصفها فقط عند قاعدة خلية قد بدأ العمل فيها، وكانت هذه المعينات منحنية قليلاً من أحد الجوانب، حيث كان النحل أقل سرعة فى العمل. وفى حالة محددة جداً، قمت بوضع المشط مرة أخرى فى الملجأ، وسمحت للنحل بالاستمرار فى العمل لمدة قصيرة، ثم أعدت فحص الخلية، ووجدت أن الصفيحة المعينة الشكل قد انتهت العمل فيها، فأصبحت "مسطحة بشكل كامل". وقد كان من المستحيل تماماً، نتيجة للترقق المتناهى لهذه الصفيحة الصغيرة، أن النحل قد فعل ذلك عن طريق قضم وإزالة الجانب المحذب، وأنا أشك فى أن يكون النحل فى مثل هذه الحالات يقوم بالتوقف على الجانبين المتقابلين ويقوم بدفع وثنى الشمع اللدن^(١) الدافئ

(والذى عرفت بتجربتي أنه شيء سهل)، إلى مستواه المتوسط الصحيح، وبهذا الشكل يجعله مسطحاً.

من تجربة شريحة الشمع القرمزى اللون فإننا نستطيع أن نرى، إذا كان النمل قد استطاع أن يشيد لنفسه حائطاً رقيقاً من الشمع، فإنه يستطيع أن يقوم بصنع خلاياه بالشكل الصحيح، وذلك بالوقوف على المسافات الصحيحة بعيداً عن بعضه البعض، وبالحفر بنفس المعدل، وبالسعى إلى صنع تجاويف كروية متساوية، ولكن مع عدم السماح بتأثراً للكرات بأن تنفتح على بعضها البعض. واعتماداً على ما يمكن مشاهدته بوضوح عن طريق فحص حافة المشط النامى، فإن النحل يصنع حائطاً أو إطاراً محيطاً حول كل المشط، ويقوم بقرضه لتفريغه من الجهتين المتقابلتين، وهو يعمل دائماً فى اتجاه دائرى أثناء زيادته لعمق كل خلية. وهو لا يستكمل صنع كل القاعدة الهرمية ثلاثية الجوانب الخاصة بأى خلية ما فى الوقت نفسه، ولكنه يكتفى بصنع هذه الصفيحة المعينة الشكل التى تمتد إلى نهاية الحافة الأخذة فى الاتساع، أو قد يصنع فى بعض الأحوال صفيحتين. وهو لا يستكمل أبداً صنع الحواف العليا الخاصة بالصفائح المعينة الشكل، ويؤجل ذلك إلى حين ابتداء تكوين الحوائط السداسية. ومن الواضح أن هذه التصريجات تختلف عما صرح به السيد الموقر "هوير" والذى يستحق كل تكريم، ولكنى شخصياً مقتنع بدقتها، ولو كانت لدى مساحة فى الكتابة لاستطعت أن أوضح أنها تتوافق مع نظريتي.

التصريح الذى صدر عن "هوير" والذى يتضمن أن أول خلية على الإطلاق قد تم حفرها فى حائط صغير نى جوانب متوازية ليس صحيحاً تماماً، وذلك بناء على ما شاهدته بنفسى. فإن البداية الأولى قد كانت دائماً فى صورة قلنسوة صغيرة من الشمع، ولكنى لن أدخل هنا فى التفاصيل. ونحن نرى مدى أهمية الدور الذى يلعبه الحفر فى عملية تشييد الخلايا، ولكنه سيكون من الأخطاء الجسيمة افتراض أن النحل غير قادر على بناء جدار بدائى من الشمع فى الموضع الصحيح، ألا وهو على امتداد مستوى التقاطع بين كرتين متلاصقتين. فإن لدى العديد من العينات التى توضح جلياً أن فى استطاعته عمل ذلك. وحتى فى الحافة المحيطية الفجة أو الحائط الشمعى المحيط بمشط فى طريقه للاتساع، فإننا من الممكن أن نلاحظ فى بعض الأحيان وجود

ثانياً، متطابقة في الموقع مع المستويات الخاصة بصفائح القواعد المعينة الشكل للخلايا التي سوف تتكون في المستقبل. ولكن في جميع الأحوال فإنه من المفروغ منه أن الحائط البدائي المصنوع من الشمع، سوف يتم تجهيزه عن طريق حفره بالقرض من كلا الجانبين. والطريقة التي يتولى بها النحل البناء هي طريقة عجيبة، فهو دائماً ما يصنع الحائط الأول الفج أكثر سمكاً بنحو من عشرة إلى عشرين ضعفاً لسمك الخلية المكتملة البالغ الرقة، التي سينتهي العمل بها. وسوف نفهم طريقة عمل النحل، بتخيل مجموعة من البنائين وهم يبدأون أولاً بتكديس شريط مرتفع عريض من الأسمنت، وبعد ذلك يبدأون في إزالة الأجزاء القريبة منه للأرض. وذلك بالتساوي من كلا الجانبين، إلى أن ينتهي الأمر بترك حائط رقيق جداً في المنتصف، وفي نفس الوقت فإن البنائين يستمرون طوال الوقت في تكديس الأسمنت المزال، مع إضافة أسمنت حديث إليه، على قمة هذا المرتفع. وبهذا الشكل فسوف نحصل على جدار رقيق مطرد الزيادة في الارتفاع ولكنه دائماً متوج بإفريز بارز هائل. ونتيجة لأن جميع الخلايا، سواء تلك التي قد تم البدء فيها أو تلك التي قد تم الانتهاء منها، قد تم تتويجها بهذا الإفريز القوي من الشمع، فإن النحل يستطيع أن يتجمع وأن يزحف فوق المشط بدون أن ينزل أى أضرار على الحوائط الرقيقة السداسية الأضلاع. وهذه الحوائط - كما تفضل "الأستاذ ميلر" Prof. Miller بالتاكيد لى - تختلف كثيراً في السمك، فهي في المتوسط المأخوذ من اثني عشر قياساً تم القيام بها قرب حافة المشط، تساوى جزءاً من ٢٥٢ جزءاً من البوصة في السمك، بينما نجد أن صفائح القاعدة المعينة الشكل أكثر سمكاً، وتقريباً بنسبة ثلاثة إلى اثنين، ولها متوسط سمك مأخوذ من واحد وعشرين قياساً يبلغ جزءاً من ٢٢٩ جزءاً من البوصة. وبواسطة هذه الطريقة الفريدة في البناء، فإن ذلك يعطى المشط قوة متزايدة بصورة مستمرة، مع التزام الحد الأقصى من الاقتصاد في استهلاك الشمع.

ويبدو لأول وهلة أن ما يزيد من صعوبة فهم الكيفية التي يتم بها صنع الخلايا، أن هناك أعداداً كبيرة من النحل تعمل كلها مع بعضها البعض، ويعد أن تعمل نحلة ما لمدة قصيرة من الزمن في خلية ما، فإنها تذهب إلى خلية أخرى، وبهذا الشكل، وكما أعلن "هوبر"، فإننا نجد عدداً لا حصر له من الأفراد منغمكين في العمل حتى عند ابتداء

العمل فى أول خلية، وقد استطعت بطريقة عملية أن أوضح هذه الحقيقة، وذلك عن طريق تغطية الحروف الخاصة بالحوائط السداسية التابعة لخلية منفردة، أو الحد النهائى للحافة المطوقة للمشط المستمر فى الاتساع، وذلك بواسطة طبقة متناهية فى الرقة من الشمع المنصهر القرمزى اللون، ووجدت فى جميع الحالات أن اللون قد تم نشره بشكل رقيق جداً بواسطة النحل - بالرقعة نفسها التى قد يقوم بها الرسام بواسطة فرشاته - وقد قام النحل بذلك بأخذ الذرات الخاصة بالشمع الملون من البقعة التى وضع فيها، ثم تحرك للعمل عند الحواف النامية للخلايا التى حوله من كل جهة. ويبدو أن العمل فى التشييد نوع من التوازن المبرم بين العديد من النحل، كل منها تقف بطريقة غريزية على نفس المسافة النسبية من بعضها البعض، وكلها تحاول أن تحفر كرات متساوية، وبعد ذلك تبني، أو تترك بدون قرض، مستويات التقاطع الموجودة ما بين هذه الكرات. وقد كان من المدهش حقاً ملاحظة أنه عند قيام إحدى الصعوبات، مثل عندما تتطابق قطعتان من المشط عند زاوية، فما أكثر المرات التى قد يقوم فيها النحل بالهدم ثم يقوم بإعادة البناء لنفس الخلية بطرق مختلفة، وفى بعض الأحيان قد يعود إلى شكل سبق له وأن تم لفظه من قبل.

وعندما يجد النحل لنفسه مكاناً يستطيع أن يقف عليه فى الموقع المناسب للعمل - على سبيل المثال، على منزلق خشبى يقع مباشرة تحت مشط ينمو إلى أسفل، مما يؤدى إلى أن المشط يجب أن يبني فوق أحد أوجه المنزلق - ففى هذه الحالة فإن النحل يستطيع أن يضع القواعد الخاصة بحائط واحد لسداسى جديد فى الموضع المحدد له بدقة، بارزاً إلى خارج الخلايا الأخرى التى تمت. وعندئذ يكفى أن يستطيع النحل أن يقف على مسافته النسبية الصحيحة بعيداً عن بعضه البعض وبعيداً عن حوائط آخر خلية تم بناؤها، ثم بعد ذلك عن طريق تخطيط كرات وهمية، فإنه يستطيع أن يبني حائطاً متوسطاً ما بين كرتين متجاورتين. ولكن اعتماداً على ما رأيته، فإن النحل لم يقم بنحت وتشطيب الزوايا الخاصة بإحدى الخلايا حتى انتهى من بناء جزء كبير من هذه الخلية والخلية المجاورة لها. وهذه القدرة التى لدى النحل التى تمكنه من وضع حائط تقديرى فى مكانه الصحيح ما بين اثنتين من الخلايا التى بدأ العمل فيها توأ، لهى شىء مهم، وذلك لأنها تحمل حقيقة، قد تبدو للوهلة الأولى أن فيها هدماً للنظرية

التي نحن بصددھا، ألا وهی بالتحديد، أن الخلايا الموجودة على الحافة النهائية لأمشاط الزنابير هی فی بعض الأحيان سداسية تماماً، ولكن ليس لدى هنا مساحة كافية للدخول فی هذا الموضوع. ولا يبدو لى أن هناك صعوبة كبيرة فی أن تقوم حشرة مفردة (كما فی حالة ملكة الزنابير) بصنع خلايا سداسية، إذا ما قامت بالعمل بشكل متناوب فی داخل وخارج اثنتين أو ثلاث من الخلايا الجديدة فی نفس الوقت، محافظة على الوقوف دائماً على المسافة النسبية الصحيحة من أجزاء الخلية التي قد بدأت توأ فی صنعها، ناحتهً كرات وأسطوانات، ومقيمةً مستويات متوسطة.

وبما أن الانتقاء الطبيعي يعمل فقط عن طريق التكديس للتعديلات الطفيفة فی التركيب أو الغريزة، ما دام كل منها مفيداً للفرد تحت تأثير ظروف حياته، فإنه من المعقول أن نتساءل: كيف أن تعاقباً طويلاً متدرجاً للغرائز المعمارية المتحورة، التي تميل كلها فی اتجاه خطة التشييد المثالية الحالية، كان ذا فائدة لأسلاف نحل الملاجي؟. وأنا أعتقد أن الإجابة ليست صعبة: فالخلايا المشيدة على نمط خلايا النحلة أو الزنبور تزداد فی القوة، وتقتصد كثيراً فی الجهد والمساحة، وفي المواد التي تدخل فی تشييدها. أما فيما يتعلق بتكوين الشمع، فإنه من المعروف أن النحل كثيراً ما يكون مدفوعاً بشدة إلى الحصول على كمية كافية من الرحيق^(١)، وقد تم إبلاغی بواسطة "السيد تيجيمتير" Mr. Tegetmeier أنه قد تم التأكد عن طريق التجارب أن كمية تتراوح ما بين اثنين عشر وخمسة عشر رطلاً من السكر الجاف، يتم استهلاكها بواسطة حشد من النحل^(٢) من أجل إفراز رطل واحد من الشمع، وهكذا فإن هناك كمية هائلة من الرحيق السائل يجب أن تجمع وتستهلك بواسطة النحل الموجود فی أى ملجأ من أجل إنتاج الشمع اللازم لتشييد الأمشاط الخاصة به. وعلاوة على ذلك، فإن الكثير من النحل يجب أن يبقى عاطلاً بنون عمل لعدة أيام أثناء عملية إفراز الشمع. ووجود مخزون كبير من العسل شيء لا غنى عنه لإعالة قطع كبير من النحل فی أثناء فصل الشتاء، ومن المعروف أن كفاءة أمن ملجأ النحل تعتمد أساساً على إعالة عدد كبير من

Nectar

Hive of bees

(١) رحيق = سائل حلو المذاق تفرزه غدّد بعض النباتات

(٢) حشد من النحل

النحل. وبهذا الشكل فإن تخزين الشمع على المدى الأبعد هو تخزين للعسل، والزمن الذى قد يستغرقه جمع العسل من المحتم أن يكون عاملاً مهماً فى النجاح لأى عائلة من النحل. وبالطبع فإن نجاح النوع الحى فى البقاء قد يكون معتمداً على عدد أعدائه، أو الطفيليات المحيطة به أو على أسباب أخرى مختلفة تماماً، وهذا كله مستقل تماماً عن كمية العسل التى يستطيع النحل أن يجمعها. ولكن دعنا نفترض أن هذا الظرف الأخير قد اقتضى - كما أنه على الأرجح قد اقتضى فى أحوال كثيرة - أن نوعاً من النحل من زمرة النحل الطنان، الذى نعرف أنه يستطيع أن يحتفظ ببقائه بأعداد كبيرة فى أى بلد، ودعنا نفترض لأبعد من ذلك أن هذا المجتمع من النحل قد عاش فى أثناء فصل الشتاء، وبالتالي فإنه قد احتاج إلى مخزون من العسل: فإنه لا يوجد أى شك فى هذه الحالة فى أنه سوف تكون هناك ميزة لنحلتنا الطنانية الوهمية، إذا حدث لها تعديل بسيط فى غرائزها يقودها إلى صنع الخلايا الشمعية الخاصة بها بالقرب من بعضها البعض، وذلك بأن تتقاطع قليلاً، لأن حائطاً مشتركاً حتى لاثنتين من الخلايا المتجاورة سوف يكون فيه توفير فى البعض القليل من الجهد والشمع. ومن ثم فإنه سوف يكون هناك باستمرار ميزات أكثر فأكثر لنحلنا الطنان، إذا ما تمكن من صنع خلاياه أكثر فأكثر انتظاماً، وأقرب إلى بعضها البعض، ومتجمعة فى كتلة، مثل خلايا نحل العسل، وذلك لأنه فى هذه الحالة فإن جزءاً كبيراً من السطح الضام لكل خلية، سوف يستخدم فى ضم الخلايا المجاورة، وبهذا الشكل فإن مقداراً أكبر من الجهد والشمع سوف يتم اقتصاده. ومرة أخرى، ونابعاً من نفس السبب، فإنه سوف تكون هناك ميزة لنحلة العسل، إذا ما تمكنت من صنع خلايا متقاربة من بعضها البعض، وأكثر انتظاماً فى كل الصور عما هى الآن، لأنه عندئذ، وكما شاهدنا، فإن الأسطح الكروية سوف تختفى كلية وسوف يتم استبدالها بأسطح منبسطة، ونحل العسل سوف يصبح قادراً على صنع مشط فى مثل كمال مشط نحل الملاجئ. والانتقاء الطبيعى لا يستطيع أن يقود إلى أبعد من هذه المرحلة من الكمال فى العمارة، فإن المشط الخاص بنحل الملاجئ - إلى أبعد ما نستطيع أن نرى - كامل بشكل قاطع فى اقتصاد الجهد والشمع.

وهكذا، فأننا نعتقد أن الغريزة الأكثر روعة من بين جميع الغرائز، هى تلك الغريزة الخاصة بنحل الملاجئ، والتى من الممكن تفسيرها عن طريق الانتقاء الطبيعى الذى قد

استفاد من العديد من التعديلات البسيطة المتتالية لغرائز أبسط. والانتقاء الطبيعي قد استطاع عن طريق تدرجات بطيئة أن يقود النحل باقتدار أكثر فاكثراً إلى أن يقوم بتفريغ كرات متساوية على مسافات مضبوطة من بعضها البعض وفي طبقة مزدوجة، وأن يبني ويحفر الشمع على طول مستويات التقاطع، والنحل بالطبع لا يعرف الحكمة التي تكمن وراء تفريغه لكراته على بعد معين من بعضها البعض، أكثر من معرفته ما الزوايا المختلفة للمناشير السداسية وصفائح القاعدة المعينة الشكل. فإن القوة الدافعة لعملية الانتقاء الطبيعي قد كانت لتشييد الخلايا بالقوة المطلوبة وبالجم أو الشكل الصحيح لليرقات، وهذا قد تم إنجازه بأقصى حد ممكن من الاقتصاد في الجهد والشمع. ولو وجدت مثل هذه الجماعة المنفردة من النحل التي تتمكن بهذه الطريقة من صنع أفضل الخلايا بأقل جهد، وأقل تبديداً للعسل في إفراز شمع، فإنها سوف تكون صاحبة أكبر إنجاز، وعن طريق الانتقال لغرائزها الاقتصادية المكتسبة حديثاً إلى جماعات جديدة، فإنها بدورها سوف تحظى بأحسن فرصة للنجاح في الكفاح من أجل البقاء.

اعتراضات على النظرية الخاصة بالانتقاء الطبيعي عند تطبيقها على غرائز الحشرات المحايدة جنسياً أو العقيمة

لقد تم تقديم اعتراضات على وجهة النظر الشائعة عن أصل الغرائز بأن " التميزات الخاصة" بالتركيب وفي الغريزة من المحتم أن تكون متزامنة ومنظمة بدقة مع بعضها البعض، حيث إن تعديلاً ما في أحدهما بدون تغيير مماثل فوري في الآخر من شأنه أن يكون مميتاً". وقوة هذا الاعتراض تعتمد تماماً على الافتراض بأن التغييرات في الغرائز والتركيب تقع بشكل مفاجئ. ولناخذ كمثال موضع حالة طائر القرقف الأكبر^(١) المشار إليه في باب سابق. فإن هذا الطائر كثيراً ما يقوم بتثبيت بذور شجر

Larger titmouse = Parus major

(١) طائر القرقف الأكبر = طائر صغير قصير المنقار

الطقسوس^(١) بين قدميه على فرع الشجرة، ويقوم بالدق عليها بمنقاره إلى أن يصل إلى البذرة^(٢). والآن ما هي الصعوبة الخاصة التي قد تكون هناك في أن يقوم الانتقاء الطبيعي بالاحتفاظ لكل الاختلافات الفردية البسيطة الموجودة في شكل المنقار، الذي أصبح معداً بطريقة أفضل ثم أفضل لفتح البذور عنوة، إلى أن تم تكوين منقار في مثل جودة التشييد لهذا الغرض كما يوجد لدى طائر كاسر الجوز^(٣). وفي نفس الوقت، فإن العادة، أو الاضطرار، أو التمايزات التلقائية في المذاق، قد قادت الطائر إلى أن يصبح أكثر ثم أكثر من صنف أكلى البنور؟ - وفي هذه الحالة فإنه من المفترض أن يتحور المنقار ببطء عن طريق الانتقاء الطبيعي، كشىء ناتج عن، ولكنه متوافق مع التغييرات البطيئة في العادات أو المذاق. ولكن دع أرجل طائر القرقف تختلف وتصبح أكبر نتيجة التوافق مع المنقار أو نتيجة لأى شىء آخر غير معروف، فإنه من الممكن أن مثل هذه الأرجل الأكبر حجماً قد تقود الطائر إلى أن يصبح قادراً على أن يتسلق أكثر فأكثر، إلى حد اكتسابه غريزة وقوة التسلق الملحوظة والخاصة بكاسر الجوز. وفي هذه الحالة، فإن تغييراً تدريجياً في التركيب قد حدث، وكان من المفروض أن يؤدي إلى عادات غريزية متغيرة. ولناخذ حالة واحدة أخرى: فإن العدد القليل من الغرائز من الممكن أن يكون أكثر إثارة للانتباه من تلك الغرائز التي تقود طائر السمامة^(٤) الخاص بالجزر الشرقية^(٥) إلى أن يقوم بصنع عشه كله من اللعاب المكتف، وبعض الطيور تقوم ببناء أعشاشها من الطين الذي يعتقد أنه مرطب باللعاب، وأحد أنواع طائر السمامة التابع لأمريكا الشمالية يصنع عشه (كما رأيت بنفسي) من عصى متلاصقة بواسطة اللعاب، أو حتى بقشور من هذه المادة. أليس من المرجح جداً، أن الانتقاء الطبيعي للأفراد من طيور السمامة، التي أفرزت لعاباً أكثر فأكثر، قد أنتج في النهاية نوعاً له غرائز تؤدي

(١) شجر الطقسوس = الزيت = رجل الجراد = الفشاغ = شجر دائم الخضرة

Yew

من الفصيلة الصنوبرية

Kenel

(٢) بذرة = نواة

(٣) طائر كاسر الجوز = خازن البنق = طائر يتسلق الأشجار ويغتذى بصغير الجوز وبالحشرات Nuthatch

Swift

(٤) طائر السمامة = طائر سريع وفجائي وخفيف الحركة، ويشبه طائر السنونو

Eastern Islands

(٥) الجزر الشرقية

إلى إهمال المواد الأخرى، وإلى أن تصنع عشها من اللعاب المكثف على وجه القصر؟ - وهذا يتكرر فى حالات أخرى. ومع ذلك فيجب الاعتراف بأنه فى أحيان كثيرة نحن لا نستطيع أن نخمن إذا ما كانت الغريزة أم التركيب هى التى قد اختلفت أولاً.

مما لا شك فيه أن الكثير من الغرائز التى من الصعب تحليلها قد تكون معارضة لنظرية الانتقاء الطبيعى. وهذه تتضمن: حالات غير معروف أن فيها أى تدرجات متوسطة قد كانت موجودة، وحالات الغرائز ذات الأهمية المتناهية فى التفاهة، و التى من الصعب أن تكون قد تم التأثير عليها عن طريق الانتقاء الطبيعى، وحالات لغرائز متطابقة إلى أقصى حد ممكن موجودة فى حيوانات متباعدة عن بعضها جداً فى الميزان الطبيعى، إلى درجة أننا لا نستطيع أن نجد تفسيراً لتطابقها عن طريق الوراثة من سلف مشترك، وبالتالي فيجب أن نؤمن بأنه قد تم اكتسابها بشكل مستقل من خلال الانتقاء الطبيعى، وسوف لا أدخل هنا فى هذه الحالات المتعددة، ولكنى سوف أقصر نفسى على صعوبة خاصة واحدة، و التى بدت لى لأول وهلة أنها لا تقهر، وأنها قاتلة فعلاً للنظرية كلها. وأنا ألمح إلى المحايدة جنسياً^(١) أو الإناث العقيمة فى المجتمعات الحشرية، فإن تلك المجموعة كثيراً ما تختلف إلى حد بعيد فى الغريزة وفى التركيب عن كل من الذكور والإناث الخصيبة، وفوق ذلك، ولكونها عقيمة، فإنها غير قادرة على الإكثار من نوعها.

والموضوع يستحق حقاً أن يناقش بإسهاب كبير، ولكنى هنا سوف أتناول حالة واحدة فقط، ألا وهى الخاصة بالنملة العاملة أو العقيمة. أما عن كيف حدث أن العاملة (الشغالة)^(٢) قد أصبحت عقيمة فهذه إحدى الصعوبات، ولكنها ليست صعوبة أكبر بكثير من أى من التحورات الأخرى اللافتة للأنظار التى حدثت فى التراكيب، وذلك لأنه من الممكن أن نبين أن بعض الحشرات وبعض الحيوانات المفصليّة

(١) المحايدون جنسياً = المحيرون = الخصيان = العواقر *

(٢) العاملات = الشغالة (وهذا المصطلح هو المتداول على

جميع المستويات حالياً بل ويوجد فى القواميس والمعاجم العلمية - وهو مصطلح ركيك ويحمل صفة الخطأ الشائع الذى فرض استخدامه بدون مبرر اللهم للكناية عن أن هذه المجموعة تعمل مثل الإناث العادية ولكنها فى نفس الوقت عقيمة - ونحن نفضل فى ترجمتنا أن نستخدم مصطلح العاملات للكناية عن المحايدين جنسياً ونترك لفظ الإناث لما تعنيه الكلمة)

الأخرى تصبح أحياناً عقيمة فى إحدى حالات الطبيعة، ولو أن هذه الحشرات كانت اجتماعية ، وكانت فائدة مجتمعها فى أن يولد له كل عام عدد معين من الأفراد القادرة على العمل ولكنها ليست قادرة على التكاثر. فأنا لا أستطيع أن أرى أى صعوبة خاصة فى أن يكون هذا قد حدث من خلال الانتقاء الطبيعى. ولكن كان لابد لى من المرور على هذه الصعوبة الابتدائية. أما الصعوبة الكبرى فإنها تقع فى أن النمل العامل يختلف كثيراً عن كل من الذكور والإناث الخصيبية فى البنية الجسمانية، مثل شكل الصدر^(١) وانعدام الأجنحة، وفى بعض الأحيان انعدام العيون، وفى الغريزة. وفيما يتعلق بالغريزة وحدها فإن هناك فرقاً مدهشاً فى هذا المجال بين العاملات والإناث المكتملة، ومن الممكن أن نتخذ له أفضل مثال فى نحل الملاجئ. ولو أن أى نملة عاملة أو أى حشرة محايدة جنسياً كانت حيواناً عادياً، كنت سأفترض أن جميع صفاتها قد تم اكتسابها ببطء عن طريق الانتقاء الطبيعى، وبالتحديد عن طريق أفراد تمت ولادتها وبها تعديلات مفيدة بسيطة، قد تمايزت وراثتها بواسطة الذرية، وأن هذه الأفراد تميزت مرة أخرى، ومرة أخرى قد تم انتقاؤها وهكذا يستمر المر على نفس المنوال. ولكن مع النملة العاملة فنحن نواجه حشرة تختلف كثيراً عن آبائها ، وعلاوة على ذلك فإنها عقيمة تماماً، إلى درجة أنها لا تستطيع أبداً أن تنقل أى تعديلات خاصة بالبيئة أو الغريزة قد تم اكتسابها بنجاح إلى ذريتها. وقد يثور تساؤل حقيقى عن إمكانية التوفيق بين هذه الحالة والنظرية الخاصة بالانتقاء الطبيعى؟

ولكن دعنا أولاً نعود بالذاكرة إلى أن لدينا حالات لا حصر لها، فى كل من نتاجنا الداخن وتلك الحيوانات التى فى البيئة الطبيعية، لكل أشكال الاختلافات فى البنية الجسمانية الموروثة التى ترتبط بأعمار معينة وبكل من الشقين الجنسيين. ولدينا اختلافات مرتبطة ليس فقط بشق جنسى واحد، ولكن بهذه الفترة الزمنية القصيرة التى يكون فيها الجهاز التناسلى فى حالة فاعلية، وهذا نجده فى صورة ظهور ريش^(٢)

Thorax

Plumage

(١) الصدر = الزور

(٢) ريش الطائر

التزاوج^(١) فى الكثير من الطيور، وفى الأفكاك المعقوفة لذكر سمك السلمون. وحتى أننا نجد اختلافات بسيطة فى القرون الخاصة بالسلالات المختلفة من الماشية تتعلق بالحالة المعيبة المصطنعة للذكور، فالثيران التابعة لسلاسل معينة لها قرون أطول من الثيران التابعة لسلاسل أخرى، وذلك بالمقارنة النسبية لطول القرون الموجودة فى كل من الثيران والأبقار التابعة لنفس هذه السلالات. ومن ثم فأنا لا أستطيع أن أرى صعوبة كبيرة فى أن تصبح أى صفة مرتبطة مع حالة العقم الموجودة لدى أعضاء معينة فى المجتمعات الحشرية: فإن الصعوبة تقع فى استيعاب كمية التعديلات المترابطة فى البنية التى قد تم تكديسها عن طريق الانتقاء الطبيعى.

وهذه الصعوبة، بالرغم من أنها تبدو غير قابلة للتذليل، فإنها تقل، أو على ما أعتقد، تختفى عندما نتذكر أن الانتقاء من الممكن أن يطبق على العائلة، علاوة على تطبيقه على الفرد، وبهذا الشكل فإنه يمكن أن يصل إلى النهاية المطلوبة. فالعاملون فى تربية الماشية يتمنون أن يختلط اللحم والدهن معاً فى جسم الحيوان بطريقة جيدة على شكل الرخام: وبالتالي فإنه عندما يذبح حيوان يتمتع بهذه الصفة، فإن المربى سوف يتجه بثقة نحو هذا المصدر ليعده للاستيلاد ويستمر فى ذلك. ومثل هذا الإيمان الذى من الممكن أن يوضع فى قدرة الانتقاء، قد يقود إلى إنتاج سلالة من الماشية ثيرانها تتمتع بقرون طويلة بشكل غير عادى، وقد يمكن تحقيق ذلك عن طريق المراقبة الدقيقة لتحديد أى فرد من الثيران أو الأبقار تنتج عند التلاقح ثيراناً لها أطول القرون، وبالرغم من ذلك فلن نجد ثوراً أبداً قد أنتج صنفاً مطابقاً لنفسه. وهنا نجد صورة إيضاحية حقيقية أفضل: فإنه وفقاً إلى "م. فيرلوت" M. Verlot، فإن بعض الأصناف من نبات المتيولا^(٢) الثنائى الحول^(٣)، نتيجة لأنه قد تم اختيارها بعناية وعلى مدار مدة طويلة إلى أن وصلت إلى الدرجة المثلى، فإنها تنتج كمية كبيرة من الشجيرات الصغيرة^(٤)، التى

Nuptial

(١) تزواج = زواج

Stock

(٢) المتيولا = نبات عشبي شبيه بالمتنور

Double annual

(٣) ثنائى الحول = ينتج مرتين فى السنة

Seedling

(٤) شجيرة صغيرة = نبتة صغيرة = نبتة

تحمل أزهاراً مزبوجة وعقيمة تماماً، ولكنها فوق ذلك، تنتج بعض النباتات المفردة والخصيية، وهذه الأخيرة هي السبيل الوحيد لتكاثر الصنف، وهي التي من الممكن مقارنتها بذكر وأنثى النمل الخصيية، أما النباتات المزبوجة العقيمة فمن الممكن مقارنتها بالمحايدة جنسياً التابعة لنفس الجماعة من النمل. وكما هو الحال مع أصناف المتيولا، فإن نفس الشيء يحدث مع الحشرات الاجتماعية، فالانتقاء قد تم تطبيقه على العائلة، وليس على الفرد، وذلك من أجل الحصول على نهاية مفيدة. ومن ثم فإنه من الممكن أن نستنتج أن التغييرات البسيطة في البنية أو في الغريزة، المتلازمة مع حالة العقم الخاصة بأعضاء معينة في الجماعة، قد ثبت أنها ذات ميزة: وبالتالي فقد ازدهرت أحوال الذكور والإناث، ثم نقلت إلى ذريتها الخصيية القابلية لإنتاج أعضاء عقيمة تتمتع بنفس التغييرات. وهذه العملية من المحتم أنها قد تكررت مرات كثيرة، إلى أن تم إنتاج هذا المقدار الاستثنائي من الاختلاف بين الخصيب والعقيم من الإناث التابعة لنفس النوع، والذي نراه في الكثير من الحشرات الاجتماعية.

ولكننا لم نلمس حتى الآن ذروة الصعوبة، ألا وهي، حقيقة أن المحايدة جنسياً التابعة للعديد من أنواع النمل تختلف، ليس فقط عن الإناث الخصيية والذكور، ولكن عن بعضها البعض، وفي بعض الأحيان إلى درجة لا يمكن تصديقها تقريباً، وبالتالي فقد تم تقسيمها إلى اثنتين أو حتى ثلاث من المراتب، والأكثر من ذلك أن هذه المراتب غير متقاربة عادة من بعضها البعض، ولكنها شديدة التمايز عن بعضها بشكل تام، ومختلفة المعالم عن بعضها البعض كما يحدث بين نوعين تابعين لنفس الطبقة، أو بالأحرى كأي طبقتين تابعتين لنفس الفصيلة. وهكذا فنحن نرى في حشرة الإيسيتون^(١)، أن هناك الحشرات العاملة والجنود من المحايدة جنسياً، وهي مزودة بفكوك وغرائز مختلفة عن بعضها البعض بشكل غير عادي: وفي حشرة من تحت رتبة البق^(٢) فإن الحشرات العاملة التابعة لمرتبة واحدة فقط تحمل درعاً من نوع مدهش على رؤوسهم، ولو أن استعماله

Eciton

Cryptocerus (Cryptocerata)

(١) حشرة الإيسيتون

(٢) حشرة من تحت رتبة البق

غير معلوم لنا إطلاقاً: وفي النمل الكيسي^(١) المكسيكى، فإن الأفراد العاملة التابعة لمرتبة واحدة لا تغادر العش أبداً، وتقوم بتغذيتهم عمال تابعون لمرتبة أخرى، نجد أن الجزء الأخير من أجسادها ضخم التكوين وهو الذى يفرز نوعاً من العسل، الذى يماثل ما تفرزه حشرات المن، أو الماشية المنزلية كما يمكن أن نطلق عليها، والتي يقوم نملنا الأوروبى بحراستها وسجنها.

وسوف يدور فى الأذهان بالتأكيد أن لدى ثقة لا حد لها فى مبدأ الانتقاء الطبيعى، عندما لا أترف بأن مثل هذه الحقائق المدهشة والمستقرة جداً تهدم النظرية تماماً. وأكثر الحالات بساطة هى حالة العواقر (المحايدة جنسياً) التابعة كلها لمرتبة^(٢) واحدة، والتي أعتقد أن الانتقاء الطبيعى قد جعلها مختلفة عن الذكور والإناث الخصيبة، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج من التناظر الخاص بالتمايزات العادية أن التعديلات المتتالية البسيطة المفيدة لم تظهر لأول مرة فى جميع العواقر الموجودة فى نفس العش، ولكنها قد ظهرت فقط فى البعض القليل منها، وأنه عن طريق استمرار البقاء على قيد الحياة للمجتمعات التى يوجد بها الإناث التى قد أنتجت معظم العواقر التى يتمتع معظمها بالتعديلات المفيدة، فإن جميع العواقر قد أصبحت فى نهاية الأمر متميزة. وبناء على هذه الوجهة للنظر، فإنه يجب علينا أن نجد أحياناً فى نفس العش بعض الحشرات من العواقر التى يبدو عليها التدرجات فى تركيب البنية، وهذا ما نجده بالفعل، وهو أمر ليس نادر الحدوث، عندما نضع فى الاعتبار العدد القليل من حشرات العواقر التى قد تم فحصها بدقة خارج أوروبا. وقد بين "السيد ف. سميث" Mr. F. Smith أن العواقر التابعة للعديد من أنواع النمل البريطانى تختلف فيما بينها بطريقة مدهشة سواء فى الحجم وأحياناً فى اللون. وأنه من الممكن ربط الأصناف المتطرفة مع بعضها البعض عن طريق الأفراد المأخوذة من نفس العش: وأنا قد قمت بنفسى بمقارنة تدرجات مثالية من هذه العينة. ويحدث أحياناً أن يكون أكبرها

Myrmecocystus

(١) النمل الكيسى

Caste

(٢) مرتبة = قسم اجتماعى *

أو أصغرها في الحجم هي الأكثر عدداً، أو أن يكون كل من الحجمين الكبير والصغير هما الأكثر، بينما نجد أن المتوسطة في الحجم هي الأقل في العدد. والنمل الأصفر لديه عمال حجمها أكبر وأخرى حجمها أصغر، علاوة على القليل من الحجم المتوسط. وفي هذا النوع - كما لاحظ "السيد ف. سميث" - فإن العمال الأكبر حجماً لديها عيون بسيطة^(١)، والتي بالرغم من صغر حجمها إلا أنه من الممكن تمييزها بسهولة، بينما نجد أن العمال الأصغر لديها عيون بسيطة غير تامة النمو^(٢). وبعدها ما قمت بالتشريح الدقيق لعينات عديدة من هذه العمال، فإني أستطيع أن أؤكد أن عيون العمال الأصغر هي في حالة من عدم الاكتمال أكبر مما يمكن تعليلها ببساطة عن طريق تناسبها مع صغر حجمها. وأنا مؤمن تماماً - بالرغم من أني لا أستطيع التأكيد بصورة إيجابية - أن الحشرات العمال نوت الحجم المتوسط لديها عيون بسيطة في حالة متوسطة تماماً من التكوين. وبهذا الشكل فإن لدينا مجموعتين من العمال العقيمة في نفس العش، تختلفان ليس فقط في الحجم، ولكن أيضاً في أعضاء الإبصار، وفي نفس الوقت فهما مرتبطتان عن طريق القليل من الأقران التي في حالة متوسطة بينهما. ومن الممكن أن أستطرد بإضافة أنه إذا كانت العمال الأصغر هي الأكثر فائدة للجماعة، وأن هذه الذكور والإناث قد تعرضت للانتقاء بصورة مستمرة لاختيار المنتجة لأكثر فاكثراً من العمال الأصغر، إلى أن ينتهي الأمر بأن يصبح جميع العمال على مثل هذه الحالة من الصغر، فإننا في هذه الحالة سوف نحصل على نوع من النحل لديه عواقر في نفس الحالة تقريباً، كما هو الحال في عواقر الحشرات النملية^(٣). وذلك لأن عمال الحشرات النملية لا يوجد لديها ولو حتى أى بقايا للعيون البسيطة، مع أن ذكور وإناث النمل التابع لهذه الطبقة لديها عيون بسيطة كاملة التكوين.

ويعن لى أن أقدم حالة واحدة أخرى: فقد كانت الثقة تملؤنى أحياناً فى أنى سوف أعرثر على تدرجات لتركيبات مهمة تقع فيما بين المراتب المختلفة للعواقر التابعة لنفس

- Ocelli (١) عيون بسيطة
 Rudimentary (٢) غير تام النمو = غير مكتملة = فى مرحلة ابتدائية = بقايا أو آثار = متخلف
 Myrmica (Myrmecophile) (٣) الحشرة النملية = حشرة تشاطر النمل مسكنه *

النوع، إلى أن أسعدتني الاستفادة من العينات العديدة التي قدمها إلى "السيد ف. سميث"، والتي حصل عليها من نفس العش الخاص بالنمل السائق^(١) الذي يعيش في غرب أفريقيا. وربما يستطيع القارئ أن يقدر بشدة كمية الاختلاف الموجود بين هذه العمال، ليس فقط بتقديم القياسات الدقيقة، ولكن بالاطلاع على رسوم توضيحية دقيقة لها: والفرق كان مماثلاً كما لو رأينا مجموعة من العمال تبني منزلاً، وكان العديد منها يبلغ خمس أقدام وأربع بوصات في الطول، والعديد أيضاً منها يبلغ ست عشرة قدماً في الطول ولكن علاوة على ذلك فإنه يجب علينا في نفس الوقت أن نفترض أن العمال الأكبر حجماً كان لديهم رعوس أكبر بنسبة أربعة أضعاف بدلاً من ثلاثة الأضعاف الخاصة بالعمال الأصغر حجماً، وأفكائها أكبر خمسة أضعاف في الحجم. والأكثر من ذلك فإن فكوك النمل العامل المختلفة الأحجام كانت تختلف بطريقة مذهلة في الهيئة وفي شكل وعدد الأستنان. ولكن الحقيقة المهمة بالنسبة لنا، هي أنه بالرغم من إمكاننا تقسيم العمال إلى مراتب من الأشكال المختلفة في الحجم، إلا أننا نجدها تدرج بشكل عشوائى إلى بعضها البعض، كما يحدث مع فكوكها المختلفة التركيب على نطاق واسع. وأنا أتحدث بثقة عن هذه النقطة الأخيرة، حيث إن "السيرج لوبوك" Sir. J. Lubbock قام بعمل رسومات خاصة لى، بواسطة آلة التصوير الموضحة^(٢)، وذلك للفكوك التي قد قمت بتشريحها والمأخوذة من النمل العامل ذى الأحجام المختلفة. وقد قام "السيد بيتس" Mr. Bates بوصف حالات مماثلة في كتابه المعنون "عالم في التاريخ طبيعى على ضفاف الأمازون" Naturalist on the Amazons .

مواجهة هذه الحقائق تجعلنى أعتقد أن تأثير الانتقاء الطبيعى على النمل الخصب أو الآباء والأمهات، قد يؤدى إلى تكوين أحد الأنواع القادرة على إنتاج عواقر بصورة منتظمة، كلها ذات حجم كبير، وشكل واحد للفكوك، أو كلها ذوات حجم صغير مع تنوع كبير فى فكوكها، أو فى ذيل القائمة، وهذه هي الصعوبة الكبرى، مجموعة من العمال لها نفس الحجم والبنية، وفى نفس الوقت مجموعة أخرى من

Driver ant (Anomma)

(١) النمل السائق

Camera Lucida

(٢) آلة التصوير الموضحة *

العمال مختلفة فى الحجم والبنية - فالذى حدث هو أنه قد تكونت سلسلة متدرجة فى أول الأمر، كما حدث فى حالة النمل السائق، وبعد ذلك استمر إنتاج الأشكال المتطرفة بأعداد أكثر فأكثر، من خلال بقاء الأبوين المنتجين لها، حتى توقف إنتاج أى من الأشكال ذات البنات المتوسطة.

وقد أعطى "السيد والاس" Mr. Wallace تفسيراً مشابهاً يحدث فى حالة مساوية فى التعقيد، وهى الخاصة ببعض من فراشات المالايو^(١) التى تظهر فيها الأنثى بصورة منتظمة فى شكلين أو حتى ثلاثة أشكال متميزة، وكذلك تقدم "فريتز مولر Fritz Muller بحالة لبعض القشريات البرازيلية التى بالمثل تظهر الذكور فيها فى شكلين متباينين بشكل عريض عن بعضهما. ولكن ليست هناك حاجة لمناقشة هذا الموضوع فى هذا المكان.

وكما أعتقد فقد قمت بهذا الشكل بتفسير الحقيقة الرائعة الخاصة بنشوء مرتبتين متباينتين بشكل محدد من العمال العقيمة، والموجودة فى نفس العش وكل منهما مختلفة تماماً عن بعضها البعض وعن أبويها. ونستطيع أن نرى مدى المنفعة المستمدة من إنتاجها التى تنصب على جماعة اجتماعية من النمل، وذلك بتطبيق نفس مبدأ أن تقسيم العمل شىء مفيد للإنسان المتحضر. وعلى كل حال فإن النمل يعمل من خلال غرائز موروثية وبواسطة أعضاء أو أدوات موروثية، بينما الإنسان يعمل بواسطة معرفة مكتسبة وآلات مصنوعة. ولكن يجب أن أعتزف بأنه مع كل إيمانى فى الانتقاء الطبيعى، فإنه لم يكن فى مقدورى أن أتوقع أن هذا المبدأ قد يمكن أن يكون على هذه الدرجة العالية من الكفاءة، إذا لم تقدنى إلى هذا الاستنتاج هذه الحالة الخاصة بهذه الحشرات العاقرة. وبالتالى فقد تناولت هذه الحالة ببعض الإسهاب، ولو أن ذلك غير كاف إطلاقاً، وذلك لكى أظهر قدرة الانتقاء الطبيعى، وأيضاً لأن هذا الموضوع كان يمثل إلى حد بعيد، الخطر الأكبر فى الصعوبات الخاصة التى واجهت نظريتى. وعلاوة على ذلك فإن هذه الحالة مشوقة جداً، حيث إنها تثبت أنه مع الحيوانات، كما هو مع

النباتات فإن أى قدر من التعديل قد يكون ناتجاً عن طريق تكديس اختلافات عديدة وبسيطة وتلقائية، والتي قد تكون مفيدة بأى طريقة، بدون تدخل من التدريب أو الاعتياد. أما بالنسبة إلى العادات الغريبة المقتصرة على العمال أو الإناث العقيمة، فمهما طالت مدة الالتزام بها، فإنها لا تستطيع إطلاقاً أن تؤثر على الذكور أو الإناث الخصيبة، وهما الوحيدان القادران على أن يتركا ذرية. وأنا مندهش من أنه لم يتمكن أحد حتى الآن من أن يقوم بتقديم هذه الحالة الحاسمة للحشرات العاقرة، فى مواجهة المبدأ الشهير الخاص بالعادة الموروثة، عندما قدمه "لامارك" Lamarck.

مخلص

لقد حاولت فى هذا الباب أن أبين باختصار أن الخواص العقلية الخاصة بحيواناتنا الداجنة تتمايز، وأن هذه التمايزات يتم وراثتها. وباختصار أكثر فقد حاولت أن أبين أن الغرائز تختلف قليلاً فى البيئة الطبيعية. ولن ينكر أحد أن الغرائز شىء فى غاية الأهمية لكل حيوان. وبالتالي فإنه لا توجد أى صعوبة حقيقية، تحت تأثير ظروف الحياة المتغيرة، فى أن يقوم الانتقاء الطبيعى بالتكديس إلى أى مدى، للتغيرات البسيطة فى الغريزة التى قد تكون مفيدة بأى طريقة. وفى الكثير من الحالات فإنه من المحتمل أن تكون للعادة أو الاستخدام وعدم الاستخدام أدوار تلعبها وأنا لا أدعى أن الحقائق التى وردت فى هذا الباب قد تعزز بأى درجة كبيرة نظريتي، ولكن بناء على أقصى قدرتي على الحكم، فلم تهدمها أى من الصعوبات التى واجهتها. وعلى الجانب الآخر، فإن حقيقة أن الغرائز ليست دائماً تامة الكمال، وأنها قابلة للأخطاء: فإنه لا يمكن الإشارة إلى غريزة من الممكن أن يكون قد تم إنتاجها من أجل المصلحة الخاصة بحيوانات أخرى، مع أن بعض الحيوانات تستغل الغرائز الموجودة التى لدى الأخرى - وأن القانون الخاص بالتاريخ الطبيعى ونصه "الطبيعة لا تسمح بالطفرة"^(١) ينطبق على الغرائز مثلما ينطبق على البنية الجسدية، وهو قابل للتفسير بشكل واضح

Natura non facit saltum)"

(١) عبارة باللغة اللاتينية تعنى "الطبيعة لا تسمح بالطفرة"

على أساس الآراء السابقة، ولكنه غير قابل للتفسير فيما عدا ذلك - وكل ما سبق يميل إلى تعزيز نظرية الانتقاء الطبيعي.

وهذه النظرية يؤيدها أيضاً البعض القليل من الحقائق الأخرى المتعلقة بالغرائز. كما فى هذه الحالة الشائعة بالأنواع المتقاربة بشكل حميم ولكنها متباينة عندما تستوطن أجزاءً بعيدة فى العالم وتعيش تحت ظروف حياتية مختلفة بدرجة ملحوظة، إلا أنه بالرغم من ذلك فإنها غالباً ما تقوم بالاحتفاظ بنفس غرائزها تقريباً. وعلى سبيل المثال، فنحن نستطيع أن نفهم بناء على مبدأ الوراثة، كيف يقوم طائر "الدج" (١) الذى يعيش فى المناطق الاستوائية بأمريكا الجنوبية بتبطين عشه بالطين، بنفس الطريقة الغربية التى يستخدمها طائر الدج البريطانى، وكيف أن طيور البوقير (٢) القاطنة فى أفريقيا وفى الهند لديها نفس الغريزة غير العادية المتمثلة فى حبس الإناث فى داخل جحر فى شجرة وإغلاقه بالجص مع ترك ثقب صغير فى الجص لى يتمكن الذكر من خلاله من إطعامها وإطعام صغارها عندما يتم فقسها، وكيف أن ذكر طائر "الصعو" (٣) القاطن فى أمريكا الشمالية يقوم ببناء أعشاش ديك ليختال عليه وحده، مثلما تفعل ذكور "صعو - الصندوق" (٤) القاطن فى بريطانيا - وهذه عادة مختلفة تماماً عن عادات أى طائر آخر معروف. وأخيراً، فإنه قد لا يكون استنتاجاً منطقياً، ولكن فى تخيلى أنه من المرضى تماماً أن ننظر إلى مثل هذه الغرائز الخاصة بصغير الوقواق الذى يلقي بإخوته فى الحضانة - و النمل الصانع للعبيد - ويرقانات البمبلا (٥) التى تتغذى بداخل الأجساد الحية لليساريح - على أساس أنها ليست غرائز موهوبة أو مخلوقة بصفة خاصة، ولكن كنتائج صغيرة لقانون عام واحد يودى إلى التقدم لكل الكائنات العضوية، ألا وهو تكاثر، وتمايز، ودع الأقوى يحيا والأضعف يموت.

Thrush	(١) الدج = السمينة = طائر مغرد
Hornbill	(٢) البوقير = الختو = أبو قرن = طائر ضخم المنقار
Wren (Troglodytes)	(٣) الصعو = المنمة = طائر صغير جداً
Kitty - wren	(٤) طائر صعو - الصندوق
Ichneumonidae	(٥) فصيلة حشرات البمبلا **

الباب التاسع

التنغيل^(١)

التمييز بين العقم^(٢) الخاص بالتهاجنات^(٣) الأولى والخاص بالأنغال^(٤) -
العقم مختلف فى الدرجة ، وليس شاملاً^(٥) ، ويتأثر بالتهجين البينى^(٦) الحميم^(٧) ،
ويزول عن طريق التدجين - القوانين التى تتحكم فى العقم الخاص بالأنغال -
العقم ليس مسحة^(٨) خاصة ، ولكنه شئ طارئ على اختلافات أخرى ، وليس
متراكماً بواسطة الانتقاء الطبيعى - أسباب العقم الخاص بالتهاجنات الأولى
والخاصة بالأنغال - التطابق^(٩) الموجود بين التأثيرات الخاصة بظروف الحياة
المتغيرة والخاصة بالتهجين - تثنية الشكل^(١٠) وتثليث الشكل^(١١) - العقم الخاص
بالضروب عندما تتهاجن والخاص بذريتها^(١٢) المهجنة ليس شاملاً - المقارنة بين
الأنغال والمهجنة بشكل مستقل عن الخصوبة الخاصة بها - الملخص .

Hybridism	(١) التنغيل = إنتاج الأنغال = إنتاج الأخلاس *
Sterility	(٢) العقم : عدم القدرة على الإنجاب
Crosses	(٣) التهاجنات = نتائج مزج السلالات *
Hybrids	(٤) الأنغال = الأخلاس : نتائج مزج الأجناس أو الضروب أو الأنواع أو الطبقات *
Universal	(٥) شاملاً = عام = كلى = جامع = على *
Interbreeding	(٦) تهجين بينى
Close	(٧) حميم = قريب = دانى = ضيق
Endowment	(٨) مسحة = منحة = موهبة طبيعية
Parallelism	(٩) التطابق = التوازى *
Dimorphism	(١٠) تثنية الشكل
Trimorphism	(١١) تثليث الشكل *
Offspring	(١٢) ذرية = نسل = عقب = نتاج

المنظور الذى يميل إليه علماء التاريخ الطبيعى هو أنه عندما تتهاجن الأنواع تهاجناً متبادلاً ، فإنها تصاب بالعمق بشكل خاص ، وذلك من أجل منع حدوث الارتباك فيها ، وهذا المنظور بالتاكيد يبدو لأول وهلة كأنه محتمل جداً ، وذلك لأن الأنواع التى تعيش مع بعضها من الصعب أن يتم الإبقاء عليها متباينة إذا ما كانت قادرة على التهاجن بحرية . وهذا الموضوع مهم لنا بطرق عديدة ، وبالأخص لأن العمق الخاص بالأنواع عندما تتهاجن لأول مرة ، والعمق الخاص بالأنغال من ذريتها ، لا يمكن أن يكون قد تم اكتسابهما ، كما سوف أبين ، عن طريق الحفاظ على درجات متتالية مفيدة من العمق . فإن هذا العمق ماهو إلا نتيجة عابرة لاختلافات تحدث فى الأجهزة التكاثرية الخاصة بالأنواع الأبوية .

وفى سبيل معالجة هذا الموضوع ، فإنه يوجد هناك مجموعتان مختلفتان بشكل جوهري إلى حد كبير من الحقائق ، يتم الخلط فيما بينهما بشكل عام ، وهما بالتحديد العمق الخاص بالأنواع عندما تتهاجن لأول مرة ، والعمق الخاص بالأنغال التى تنتج منها .

والأنواع النقية تكون أعضاؤها التكاثرية بالطبع فى حالة مثالية ، إلا أنها عندما تتهاجن بشكل متبادل فإنها تنتج إما القليل من الذرية أو لاذرية على الإطلاق . وعلى الجانب الآخر ، فإن الأنغال تكون أعضاؤها التناسلية وظائفيًا فى حالة عجز جنسى ، كما قد يشاهد بوضوح فى الحالة الخاصة بالعنصر الذكري فى كل من النباتات والحيوانات ، بالرغم من أن الأعضاء الجسدية التكوينية فى حد ذاتها فى حالة مكتملة فى التركيب ، وذلك إلى الحد الذى يظهر تحت المجهر . وفى الحالة الأولى ، فإن العنصرين الجنسيين اللذين يسعيان لتكوين الجنين هما مكتملان ، أما فى الحالة الثانية فإنهما إما أن يكون لم يتم تكوينهما على الإطلاق ، أو يكون قد تم تكوينهما بشكل غير مكتمل . والتمييز فى هذا الأمر شىء مهم ، عندما يكون السبب الخاص بالعمق ، الموجود بشكل شائع فى الحالتين ، موضع دراسة . ومن المحتمل أن التمييز بينهما قد تم إغفاله ، نتيجة لأن العمق الموجود فى كلتا الحالتين قد تم النظر إليه على أساس أنه مسحة خاصة أبعد من الحدود الخاصة بقدراتنا الذهنية .

والخصوبة الخاصة بالضروب ، وهذا يعنى الخاصة بالأشكال المعروف عنها أو المعتقد أنها قد انحدرت عن آباء مشتركة ، عندما تتهاجن ، وكذلك الخصوبة الخاصة بذريتها المهجنة ، بناء على نظريتي ، ذات أهمية متساوية مع العقم الخاص بالأنواع ، وذلك لأنه يبدو أن هذا يمثل تمييزاً عريضاً وواضحاً بين الضروب والأنواع .

الدرجات الخاصة بالعقم

أولا ، فيما يتعلق بالعقم الخاص بالأنواع الحية عندما تتهاجن والخاص بذريتها من الأنغال . فإنه من المستحيل دراسة المذكرات العديدة المختلفة والأعمال التي قد قام بها هذان المراقبان الدءويان والجديران بالإعجاب ، "كولرويتز" Kolreuter و "جارتزر" Gartner . اللذان كرسا حياتهما تقريبا من أجل هذا الموضوع ، بدون أن يؤثر عليهما بشدة العمومية الشديدة إلى حد ما لموضوع العقم . وقد قام "كولرويتز" بجعل القاعدة شاملة ، ولكنه بعد ذلك يقوم بقطع العقدة وحل المشكلة بأسرع الطرق ولو بشكل غير مألوف ، وذلك لأنه في عشر من الحالات التي وجد فيها أن هناك اثنين من الأشكال ، التي قد تم اعتبارها بواسطة معظم الخبراء على أساس أنهما نوعان متباينان ، وتبين أنهما قادران على الإخصاب فيما بينهما تماما ، فإنه قد قام بدون تردد بتصنيفهما على أساس أنهما ضربان . و "جارتزر" أيضا يجعل القاعدة شاملة بشكل مساو ، وهو يشك في كل ما يتعلق بالخصوبة الخاصة بالعشر حالات الخاصة ب"كولرويتز" . ولكن في هذه الحالات وفي العديد من الحالات الأخرى ، فقد وجد "جارتزر" نفسه مضطرا إلى أن يحصى البذور بدقة ، من أجل توضيح أنه يوجد هناك أى درجة من درجات العقم .. وهو يقوم دائما بمقارنة العدد الأقصى من البذور الناتجة عن طريق اثنين من الأنواع عندما تتهاجن لأول مرة ، والعدد الأقصى الناتج عن ذريتهما من الأنغال ، مع متوسط العدد الذي يتم إنتاجه بواسطة كل من النوعين الأبويين النقيين في البيئة الطبيعية ، ولكن هناك أسبابا تؤدي إلى الخطأ الجسيم

تتدخل هنا : فلكي يتم تنغيل نبات ، فإنه يجب أن يخصى^(١) ، والشئ الأكثر أهمية غالباً ، أنه يجب أن يتم عزله من أجل منع اللقاح من الوصول إليه عن طريق الحشرات من نباتات أخرى . وجميع النباتات تقريبا التي أجرى عليها "جارتتر" تجاربه كانت فى قدور (قصارى زرع) ، وكانت محفوظة فى قاعة موجودة فى منزله . ومما لاشك فيه أن هذه العمليات كثيراً ما تكون ضارة بالخصوبة الخاصة بأى نبات ، وذلك لأن "جارتتر" يسرد فى جدول ما يقرب من العشرين من الحالات الخاصة بنباتات قد قام بخصيها ، والتي قام بتلقيحها اصطناعياً بواسطة اللقاح الخاص بها ، (باستثناء جميع الحالات التى على شاكلة الفصيلة البقلية^(٢)) ، التى توجد فيها صعوبة معروفة فى التعامل معها) ، وتبين أن نصف عدد هذه النباتات العشرين قد عانى من أضرار إلى حد ما لخصوبتها . والأكثر من ذلك ، وبما أن "جارتتر" قد قام بشكل متكرر بتهجين بعض الأشكال ، مثل نباتات كزبرة الثعلب الحمراء الشائعة^(٣) والزرقاء^(٤) ، التى يصنفها أفضل العلماء فى النبات على أساس أنها ضروب ، وقد وجد أنها تبتات عقيمة تماماً ، وقد يتطرق الشك إلينا فيما لو كان هناك الكثير من الأنواع التى هى فى الحقيقة على هذا القدر من العقم عندما تتهاجن فيما بينهما ، إلى المدى الذى يؤمن هو به .

من أحد الجوانب ، فإنه من المحقق ، أن العقم الخاص بالأنواع المختلفه عندما تتهاجن مختلف إلى حد كبير فى الدرجة وأنه يتلاشى بشكل تدريجى إلى حد كبير ، وعلى الجانب الآخر ، فإن الخصوبة الخاصة بالأنواع النقية تتأثر بسهولة إلى حد كبير بواسطة الظروف المختلفة ، إلى حد أنه من أجل جميع الأغراض العملية فإنه من أصعب الأشياء أن يقال أين تنتهى الخصوبة المثالية ويبدأ العقم . وأظن أنه لا يوجد دليل أفضل على ذلك من الممكن الاحتياج إليه عن أن كلاً من المراقبين الأكثر خبرة من

Castrated

Leguminosae

Common red pimpernel (*Anagallis arvensis*)

Blue pimpernel (*Anagallis coerulea*)

(١) يخصى : تزال أعضاؤه التناسلية

(٢) الفصيلة البقلية = الفصيلة القرنية

(٣) نبتة كزبرة الثعلب الحمراء الشائعة *

(٤) نبتة كزبرة الثعلب الزرقاء *

أى مراقب قد تواجد على الإطلاق على سطح الأرض، ألا وهما "كولرويتر" و "جارتتر"، قد توصلنا إلى استنتاجات متضادة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى فيما يتعلق بالبعض من الأشكال نفسها المتطابقة تماماً . وأنه أيضا لمن أكثر الأشياء إرشاداً أن نقارن - ولكن ليس لدى هنا مساحة للدخول فى تفاصيل - الدليل الذى تقدم به كل من أفضل علمائنا فى علم النبات على التساؤل عما إذا كان من الواجب تصنيف بعض من الأشكال المعينة المشكوك فى أمرها على أساس أنها أنواع أم ضروب ، مع ذلك الدليل المستمد من الخصوبة التى حصل عليها منتجون مختلفون للأنغال ، أو الذى تقدم به نفس المراقب ولكنه كان مستمداً من تجارب قد تم إجراؤها فى أثناء سنوات مختلفة . ومن الممكن بهذا الشكل إظهار أن لا العقم ولا الخصوبة تستطيع أن تقدم أى تمييز مؤكد بين الأنواع والضروب . والدليل المستمد من هذا المصدر يتلاشى بالتدرج ، ويصبح مشكوكاً فيه بالدرجة نفسها التى تحدث للأدلة المستمدة من الاختلافات الأخرى فى البنية والتركيب .

فيما يتعلق بالعقم الخاص بالأنغال الذى يحدث فى أجيال متعاقبة ، فمع أن "جارتتر" قد استطاع أن يربى بعضاً من الأنغال ، حارساً إياها بعناية من التهاجن مع كل من جانبي أبائها النقية ، وذلك لمدة ستة أو سبعة ، وفى حالة واحدة لمدة عشرة أجيال ، ومع ذلك فإنه يؤكد بشكل إيجابى أن الخصوبة الخاصة بها لا تزداد على الإطلاق ، ولكنها فى العادة تتناقص بشكل كبير وفجائى . وفيما يتعلق بهذا التناقص ، فإنه من الممكن فى أول الأمر ملاحظة أنه عندما يكون هناك أى انحراف فى التركيب أو البنية بشكل شائع فى كلا من الوالدين ، فإن ذلك كثيراً ما ينتقل بدرجة زائدة إلى الذرية ، وكذلك فإن كلاً من الشقين الجنسيين فى أنغال النباتات يتم التأثير عليه بالفعل إلى درجة ما . ولكنى أؤمن بأن الخصوبة الخاصة بها قد تناقصت فى جميع هذه الحالات تقريباً عن طريق سبب مستقل ، ألا وهو عن طريق التهاجن المتبادل الحميم جداً . وأنا قد قمت بالعديد من التجارب ، وقمت بجمع العديد من الحقائق ، التى تظهر على أحد الجوانب أن تهجيناً عرضياً واحداً مع فرد أو ضرب متباين يزيد الحيوية والخصوبة الخاصة بالذرية ، وعلى الجانب الآخر ، أن التهجين المتبادل الحميم جداً يقلل من حيويتها وخصوبتها ، إلى الدرجة التى لا تمكّننى من الشك فى صحة

هذا الاستنتاج . ونادراً ما تتم تربية الأنغال بواسطة التجريبيين بأعداد كبيرة ،
وبما أن الأنواع الأبوية أو الأنغال الأخرى المتقاربة، تنمو في العادة في نفس الحديقة ،
فإنه يجب منع زيارات الحشرات بدقة أثناء موسم الازدهار : وبناء على ذلك فإن
الأنغال إذا تركت على سجيتها ، فإنه سوف يتم تلقيحها في العادة في أثناء كل جيل
بواسطة لقاح مأخوذ من الزهرة نفسها ، ومن المحتمل أن هذا الشيء سوف يكون ضاراً
بخصوبتها ، التي قد انخفضت بالفعل عن طريق نغولة أصلها . ويشد أزرى في هذا
الاقتناع بواسطة تصريح جدير بالاهتمام يتردد دائماً بواسطة "جارتنر" وهو بالتحديد ،
أنه إذا حدث على الإطلاق أن تم تلقيح اصطناعى للأنغال الأقل خصوبة مع لقاح نفل
من نفس الصنف ، فإن خصوبتها ، غير القادرة على الصمود أمام التأثيرات السيئة
المكررة الحدوث الناتجة عن المناورة ، تزداد في بعض الأحيان بشكل قاطع ، وتستمر
بعد ذلك في الزيادة . وهكذا فإنه في أثناء عملية التلقيح الاصطناعى فإن اللقاح يتم
أخذه في كثير من الأحوال بمحض المصادفة (وذلك ما أعرفه بناء على خبرتي الخاصة)
من المأبر الخاصة بزهرة أخرى ، علاوة على أخذه من المأبر الخاصة بنفس الزهرة
التي سوف يتم تلقيحها ، وذلك للحصول بهذا الشكل على تهجين بين زهرتين ، بالرغم
من أنه من المحتمل أن يكونا على نفس النبات في كثير من الأحيان. والأكثر من ذلك ،
فعندما يتم إجراء تجارب معقدة بهذا الشكل، فإن مراقباً دقيقاً مثل "جارتنر" سوف
يكون قد خصى الأنغال التي يعمل عليها ، وهذا سوف يكون من شأنه التأكيد من
حدوث تهجين في كل جيل من لقاح مأخوذ من زهرة متباينة ، إما من على نفس النبات
أو من على نبات آخر له نفس الطبيعة النغلية . وبهذا الشكل ، فإن الحقيقة الغربية
الخاصة بالزيادة في الخصوبة للأجيال المتتالية للأنغال الملقحة اصطناعياً ، بالمقارنة
بتلك الأنغال الملقحة تلقائياً عن طريق التلقيح الذاتى ، من الممكن كما أعتقد ، أن تفسر
على أساس أنه قد حدث تجنب للاستيلاء البينى المتبادل الحميم جداً .

ودعنا الآن نلتفت إلى النتائج التي قد توصل إليها ثالث أكبر الخبراء في إنتاج
الأنغال ، ألا وهو "الموقر والمحترم" و . هيربرت " Hon. And Rev. W. Herbert . وهو
رجل متشدد في استنتاجه الخاص بأن بعض الأنغال خصيبة بشكل كامل -

أى يمثل الخصوبة الموجودة لدى أنواعها الأبوية - بالقدر نفسه من تشدد "كولرويتر" و "جارتتر" فى القول بأن وجود درجة ما من العقم بين الأنواع المتباينة هو قانون عام من قوانين الطبيعة . وهو قد قام بإجراء تجاربه على بعض من نفس الأنواع التى قد استخدمها "جارتتر" ، وأنا أعتقد أن الاختلاف الموجود فى نتائجهما من الممكن أن يفسر جزئياً بالمهارة البستانية العظيمة التى يتمتع بها "هيربرت" ، وبخيارته لمستنبات دافئة^(١) موجودة تحت تصرفه . ومن ضمن تصريحاته المهمة العديدة ، فإننى سوف أقوم بتقديم واحد منها فقط على سبيل المثال ، ألا وهو أن "كل بذيرة موجودة فى قرنة خاصة بنبات الزنبق التاجى^(٢) الملقحة بواسطة نبات الزنبق الدوار^(٣) قد أنتجت نباتاً ، وهو الشيء الذى لم أشاهد حدوثه على الإطلاق فى أى حالة من حالات التخصيب الطبيعى لهذا النبات" . وبهذا الشكل فإن لدينا هنا خصوبة مثالية أو حتى أكثر من الخصوبة المثالية الشائعة ، موجودة فى تهجين يحدث لأول مرة بين اثنين من الأنواع المتباينة.

وهذه الحالة الخاصة بنبات الزنبق تدفعنى إلى أن أشير إلى حقيقة فريدة ، ألا وهى أن النباتات المنفردة التابعة لأنواع معينة من نباتات اللوبيليا^(٤) ، وأذان العير^(٥) ، وشرك الفلك^(٦) من الممكن أن يتم تلقيحها بسهولة بواسطة لقاح من نوع متباين ، ولكن ليس بلقاح مأخوذ من نفس النبات ، مع أنه من الممكن إثبات أن هذا اللقاح هو سليم بدرجة مثالية ، وذلك عن طريق تلقيحه لنباتات أو أنواع أخرى . وفى طبقة الهيببيستروم^(٧) وبالتحديد فى نبات القبرية^(٨) ، كما قد تم إظهاره بواسطة

Hot-House	(١) مستنبت دافئ = الدفيئة = مستنبت زجاجى
Crinum capense	(٢) نبات الزنبق التاجى = للدحاح *
Crinum revolutum	(٣) نبات الزنبق الدوار *
Lobelia	(٤) نبات اللوبيليا = دخان أو تبغ هندى = عشب الربو *
Verbascum	(٥) نبات أذان العير = أذان الرب = البوصير - لييدة
Passiflora	(٦) نبات شرك الفلك = زهر الآلام
Hippeastrum	(٧) طبقة الهيببيستروم = النرجس الملون *
Corydalis	(٨) نبات القبرية = حب القنبر : عشب ذو زهرات عنقودية الشكل

"الأستاذ هيلد براند" Professor Hildebrand ، وفى سحليات عديدة مختلفة كما قد بينه كل من "السيد سكوت" Mr. Scott و "فريتز مولر" ، فإن كل أفرادها فى مثل هذه الحالة الغريبة . وبناء على ذلك فإن بعض الأفراد الشاذة المعينة الموجودة فى بعض الأنواع ، وجميع الأفراد الموجودة فى أنواع أخرى ، من الممكن أن يتم تنغليها بقابلية أكبر بكثير عن إمكانية إتمام تلقيحها بواسطة لقاح مأخوذ من نفس النبات بالذات ! - ولكى نعطي مثلاً واحداً ، فإن بصلة^(١) من نبات هيبيستروم البلاط^(٢) قد أنتجت أربع من الزهور ، ثلاث منها تم تلقيحها عن طريق "هيربرت" بواسطة اللقاح الخاص بها ، أما الرابعة فقد تم تلقيحها فيما بعد بواسطة اللقاح الخاص بنغل مركب منحدر من ثلاثة من الأنواع المتباينة ، وكانت النتيجة أن "المبايض الخاصة بالأزهار الثلاث الأولى سريعا ما توقفت عن النمو ، وهلكت تماماً بعد أيام قليلة ، بينما القرنة التى تم تخصيبها بواسطة اللقاح الخاص بالنغل فإنها حققت نمواً قوياً وتقدمت سريعاً نحو النضج ، وحملت بذوراً جيدة ، وهى التى قد نبتت وترعرعت جيداً" . وقد أجرى "السيد هيربرت" تجارب مماثلة فى خلال العديد من السنوات ، وأحرزت دائماً نفس النتيجة . وهذه الحالات تساعد على إظهار الأسباب البسيطة والغامضة التى يعتمد عليها الانخفاض أو الارتفاع فى مستوى الخصوبة الخاص بأحد الأنواع .

التجارب العملية الخاصة بالخبراء فى علم البساتين ؛ بالرغم من أنها تجرى بدقة علمية ، إلا أنها تستحق بعض الانتباه . فإنه من المشهور بالغرابة مدى تعقيد الطريقة التى يتم بها تهجين الأنواع الخاصة بنباتات الغرنوقى^(٣) والفوشية^(٤) والخف^(٥) والبطونية^(٦) والوردية^(٧) ، وخلافاً ، ومع ذلك فإن العديد من هذه الأنغال تنتج بذوراً

Bulb	(١) بصلة
Hippeastrum aulicum	(٢) هيبيستروم البلاط = نرجس البلاط : القاعة الملكية أو العدالة *
Pelargonium	(٣) نبات الغرنوقى = الجرانيوم = عطر : نبات مزهر
Fuchsia	(٤) نبات الفوشية = فوسكيه : شجيرة ذات زهراء حمراء وأرجوانية
Calceolaria	(٥) نبات الخف = مرموزة = زمرموزة = دمشقية
Petunia	(٦) نبات البطونية : نبات أمريكى من الفصيلة الباذنجانية
Rhododendron	(٧) نبات الوردية = الغار الوردى : من الفصيلة الخنجية

بحرية . وعلى سبيل المثال فإن "هيربرت" يؤكد أن نغلاً ناتجاً من نبات الخف المتحد الأوراق^(١) والخف الطلحي^(٢)، وهما من أكثر الأنواع ابتعاداً عن بعضها البعض في السلوك ، "يعيد إنتاج نفسه بشكل مثالي كما لو أنه كان نوعاً طبيعياً من الأنواع الخاصة بجبال شيلي" . وقد تحملت بعض المعاناة للتحقق من درجة الخصوبة التي يتمتع بها البعض من الهجائن المركبة الخاصة بنباتات "الوردية" ، وقد تأكد لى أن العديد منها خصيب بشكل كامل . وعلى سبيل المثال فقد أبلغنى "السيد س. نوبل" Mr. C. Noble أنه يربى أصولاً نباتية معدة للتطعيم من نغل ناتج من بين وردية بونتيكية^(٣) ووردية كتاويينية^(٤) ، وأن هذا النغل قد " أنتج بذوراً بحرية إلى أقصى الحدود الممكنة للتغلي" . وإذا صح أنه عندما تتم معاملة الأنغال بطريقة صحيحة ، فإنها دائماً ما تستمر في الانخفاض في الخصوبة في كل جيل متعاقب ، وذلك طبقاً لما يؤمن "جارتنر" بحدوثه ، فإن هذه الحقيقة سوف تكون مشهورة برداءة سمعتها لدى أصحاب المشاتل الزراعية . والخبراء في علم البساتين يربون أحواضاً واسعة من نفس النغل ، ومثل هذه الأحواض تعامل على انفراد بطريقة صحيحة ، وذلك لأنه عن طريق مساعدة الحشرات فإن الأفراد العديدة المختلفة تتمكن من التهجن بحرية مع بعضها الآخر ، وهذه الطريقة تحول دون حدوث التأثير الضار الناتج عن التهجين المتبادل الحميم . ومن الممكن لأى إنسان أن يقنع نفسه بسهولة بالفاعلية الخاصة بالوساطة الحشرية وذلك عن طريق فحص الزهور الخاصة بالأصناف الأكثر عمقاً الخاصة بأنغال نباتات "الوردية" ، التي لا تنتج أى لقاح ، وذلك لأنه سوف يجد على مياسمها القدر الوافر من اللقاح المجلوب من زهور أخرى .

أما فيما يتعلق بالحيوانات ، فقد أجريت عليها بدقة أعداداً أقل بكثير من التجارب التي قد تم إجراؤها على النباتات ، وإذا كان من الممكن الوثوق بتتسيقاتنا التصنيفية ، وهذا يعنى ، إذا كانت الطبقات الخاصة بالحيوانات على نفس الدرجة

Calceolaria integrifolia

Calceolaria plantaginea

Rhododendrons ponticum

Rhododendrons catawiense

(١) نبات الخف المتحد الأوراق *

(٢) بات الخف الطلحي *

(٣) وردية بونتيكية *

(٤) وردية كتاويينية *

من التباين عن بعضها الآخر كما هو الحال فى الطبقات الخاصة بالنباتات ، عندئذ فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن الحيوانات التى هى أكثر بعداً فى التباين فى الميزان الخاص بالطبيعية من الممكن أن تتهاجن بسهولة أكثر عما يحدث فى حالة النباتات ، ولكنى أظن أن الأنغال الناتجة سوف تكون أكثر عمقاً . ومع ذلك فإنه يجب أن نضع نصب أعيننا نتيجة أن القليل من الحيوانات هى التى تتوالد بحرية تحت تأثير حبس الحرية ، وأن العدد القليل من التجارب فقط هى التى قد تم إجراؤها بدقة : وعلى سبيل المثال ، فإن عصفور الكاناريا^(١) قد تم تهجينه مع تسعة من الأنواع المتباينة من العصفور الدورى^(٢) ، ولكن حيث إن هذه السلالات لا تتوالد منها أى سلالة بحرية فى الأسر ، فلا يحق لنا إطلاقاً أن نتوقع أن التهاجنت الأولى التى تحدث بينها وبين عصفور الكاناريا ، أو أن الأنغال الناتجة عنها ، سوف تكون فى حالة كاملة من الخصوبة . ومرة أخرى ، فيما يتعلق بالخصوبة الموجودة فى الأجيال المتعاقبة التابعة للحيوانات المتغلة الأكثر خصوبة ، فإنه من النادر أن أسمع عن إحدى الحالات التى قد تم فيها فى نفس الوقت تربية عائلتين من نفس نوع النغل ناتجتين عن آباء مختلفة ، وذلك بغرض تجنب الآثار الضارة الناتجة عن التهاجن المتبادل الحميم . وعلى العكس من ذلك ، فإنه من المعتاد تهجين الإخوة والأخوات فى كل جيل تال ، وذلك خلافاً للتحذير الدائم المتكرر لجميع المستولدين . وفى هذه الحالة ، فإنه ليس بالمستغرب على الإطلاق أن نجد أن العقم المتوارث الموجود فى الأنغال من شأنه أن يستمر فى الزيادة .

بالرغم من علمى بالقليل من الحالات الثابت صحتها بدقة المتعلقة بأنغال حيوانات خصيبة بشكل كامل ، إلا أن لى من الأسباب ما يجعلنى أصدق أن الأنغال الناتجة عن الأيل الغمدى^(٣) والأيل المسلوک^(٤) ، ومن طائر التدرج السورنجانى^(٥) والتدرج

Canarya - bird

Finch

Cervulus vaginalis

Reevesii

Phasianus colchicus

(١) عصفور الكاناريا

(٢) العصفور الدورى = حسون

(٣) الأيل الغمدى *

(٤) الأيل المسلوک *

(٥) طائر التدرج السورنجانى *

المطوق^(١) ، هم فى حالة خصوبة كاملة . ويصرح "م. كاتريفاجس" M. Quatrefajes بأن الأنغال الناتجة عن اثنتين من الفراشات (بودة حرير سينثيا)^(٢) وبودة حرير أرينديا)^(٣) ، قد تم فى "باريس" إثبات أنها خصيبة فيما بين بعضها البعض^(٤) على امتداد ثمانية أجيال. وقد تم التاكيد مؤخراً من أن مثل هذين الاثنتين من الأنواع المتباينة مثل الأرانب الوحشية^(٥) والأرانب المعتادة ، عندما يمكن التأثير عليها لى تستولد فيما بينها ، فإنها تنتج ذرية تكون عالية الخصوبة عندما تتهاجن مع واحد من الأنواع الأبوية . والأنغال الناتجة عن الأوز المعتاد والأوز الصينى^(٦) ، وهى أنواع مختلفة إلى درجة أنها تصنف فى العادة كتابعة إلى طبقات متباينة ، قد توالدت فى كثير من الأحيان فى إنجلترا ، إما من والدين نقيين ، وفى حالة مفردة واحدة فإنها قد توالدت فيما بين بعضها البعض . وهذا ما فعله "السيد إيتون" Mr. Eytton ، الذى قام بتربية اثنين من الأنغال الناتجة من نفس الوالدين ، ولكن من عمليات تفرخ مختلفة ، ومن هذين الطيرين قام بتربية ما لا يقل عن ثمانية من الأنغال (أحفاد الأوز النقى) المستخرجة من عش واحد . ومع ذلك ، فإنه يتحتم فى الهند ، أن يكون هذا الأوز المهجن خصيباً بشكل أبعد بكثير ، وذلك لأنه قد تاكد لى من خلال اثنين من المحكمين من نوى القدرة البارزة ، ألا وهما "السيد بليث" Mr. Blyth و "الكابتن هوتون" Capt. Hutton ، أن قطعانا كاملة من هذا الأوز المهجن تربي فى أماكن مختلفة من القطر ، وبما أنها تربي من أجل الربح ، فى المكان الذى لا يتواجد فيه أى من النوعين الأبوين النقيين ، فإنه من المحتم بالتاكيد أن تكون هذه الأنغال على درجة عالية أو درجة مكتملة من الخصوبة .

فيما يتعلق بحيواناتنا المدجنة ، فإنه عندما تتهاجن الأعراق المختلفة فيما بينها فإنها تكون خصيبة بالفعل ، ومع ذلك ، وفى كثير من الحالات فإنها تكون قد انحدرت

Phasianus torquatus

Bombyx cynthia

Bombyx arrindia

Inter se

Hare

Chinese geese (A. cygnoides)

(١) طائر التدرج المطوق *

(٢) بودة حرير سينثيا *

(٣) بودة حرير أرينديا *

(٤) بين بعضها البعض

(٥) الأرانب الوحشية : أرانب برية مشقوقة الشفة العليا

(٦) الأوز الصينى

من اثنين أو أكثر من الأنواع الوحشية . ويجب علينا أن نستنتج من هذه الحقيقة أنه إما أن الأنواع الأبوية الأرومية قد أنتجت في أول الأمر أنغلاً كاملة الخصوبة ، أو أن الأنغال التي تمت تربيتها فيما بعد تحت تأثير التدجين قد أصبحت خصيبة تماماً . وهذا البديل الأخير ، الذي قد تم اقتراحه لأول مرة بواسطة "بالاس" Pallas ، يبدو إلى حد بعيد أنه الأكثر احتمالاً ، ومن الصعب حقاً أن يستطاع الشك فيه . فعلى سبيل المثال ، فإنه من المؤكد تقريباً أن كلابنا قد انحدرت عن العديد من الأصول الوحشية المختلفة ، ومع ذلك ، وربما مع الاستثناء لبعض الكلاب الداجنة المعينة المستوطنة أصلاً في أمريكا الجنوبية ، فإن جميع هذه الأصول خصيبة تماماً فيما بينها ، ولكن التماثل يجعلني أشك كثيراً ، فيما إذا كانت الأنواع الأرومية العديدة المختلفة قد قامت في أول الأمر بالتوالد بحرية فيما بينها وأنها قد أنتجت أنغالا خصيبة بالفعل . ومرة أخرى فأننا قد قمت مؤخراً بالحصول على دليل قاطع على أن الذرية المهجنة من الماشية الهندية الحدياء^(١) والماشية الشائعة كاملة الخصوبة فيما بين بعضها البعض ، ومن الملاحظات التي أوردها "روتيمير" Rutimeyer المتعلقة بالاختلافات العظيمة المهمة الموجودة فيما بينها ، علاوة على هذه الملاحظات الواردة من "السيد بليث" عن اختلافها في السلوكيات والصوت والبنية وخلافه ، فإنه يجب اعتبار هذين الشكلين كأنواع صحيحة ومتباينة . ونفس هذه الملاحظات من الممكن أن تمتد إلى الاثنين من الأعراق الرئيسية الخاصة بالخنزير . وبناء على ذلك ، فإنه يجب علينا إما أن نتخلى عن الإيمان بالعقم الشامل الخاص بالأنواع عندما تتهاجن ، أو يجب علينا أن نبحث عن هذا العقم في الحيوانات ، ليس على أساس أنه صفة مميزة ثابتة لا تمحى ، ولكن على أساس أنه صفة قابلة للإزالة عن طريق التدجين .

وأخيراً ، فإنه إذا أخذنا في الاعتبار جميع الحقائق المؤكدة عن التهجين المتبادل الخاص بالنباتات والحيوانات ، فإنه من الممكن استنتاج أن درجة ما من العقم ، في كل من التهاججات الأولى أو في الأنغال ، هي نتيجة شديدة العمومية ، ولكن لا يمكن تحت ظل حالتنا الحالية من المعرفة ، أن يتم اعتبارها على أساس أنها نتيجة شاملة تماماً .

والخاص بالأنغال

سوف نعمل الآن الفكر بالتفصيل بشكل أكبر فى القوانين التى تتحكم فى العقم الخاص بالهجائن الأولى والخاصة بالأنغال . وسوف يكون هدفنا الأساسى هو أن نرى إذا ما كانت هذه القوانين تدل أو لا تدل على أن الأنواع قد تم وهبها بهذه الخاصية ، وذلك من أجل منع تهاجنها وامتزاجها مع بعضها بشيء من الفوضى الكاملة . وقد تم استخلاص الاستنتاجات التالية بشكل رئيسى من العمل الجدير بالإعجاب الذى أجراه "جارتنر" على التنغيل الخاص بالنباتات . وقد تحملت الكثير من المعاناة للتأكد من إلى أى مدى تنطبق هذه الاستنتاجات على الحيوانات ، ومع الوضع فى الاعتبار مدى القدر الضئيل الذى وصل إلى علمنا فيما يتعلق بأنغال الحيوانات ، فقد أصابتنى الدهشة عندما وجدت مدى عمومية تطبيق نفس القواعد على كلتا المملكتين .

وقد تم التعليق بالفعل على أن درجة الخصوبة الخاصة بكل من الهجائن الأولى والخاصة بالأنغال ، تتدرج من صفر إلى الخصوبة المثالية . وإنه لمن الدهش معرفة عدد الوسائل الغريبة التى نستطيع أن نبين بها هذا التدرج ، ولكنى لا أستطيع أن أقدم فى هذا المجال إلا مجرد الخطوط الكفافية للحقائق . فإنه عندما يوضع لقاح مأخوذ من نبات تابع لإحدى الفصائل على الميسم الخاص بنبات خاص بخصوبة متباينة ، فإنه لا يعطى أى تأثير أكثر من تأثير نفس الكمية من الغبار غير العضوى . من هذا الصفر المطلق لمستوى الخصوبة ، فإن نثر اللقاح الخاص بأنواع مختلفة على الميسم الخاص بأحد الأنواع التابعة لنفس الطبقة ، فإنه ينتج تدرجاً كاملاً فى العدد الخاص بالبنور الناتجة ، إلى حد الخصوبة شبه الكاملة أو حتى إلى الخصوبة الكاملة تماماً ، وكما شاهدنا فى حالات غير عادية معينة ، حتى إلى زيادة فى الخصوبة ، أبعد من تلك التى ينتجها اللقاح الخاص بالنبات ذاته . وهذا هو الحال فى الأنغال نفسها ، فإنه يوجد هناك البعض الذى لم ينتج على الإطلاق ، ويحتمل أنه لن ينتج أبداً بذرة خصيبة واحدة حتى مع استخدام اللقاح الخاص بالأبوين النقيين : ولكن فى البعض من هذه الحالات فإنه من الممكن اكتشاف أول أثر خاص بالخصوبة ، عن طريق تسبب اللقاح

الخاص بواحد من الأنواع الأبوية النقية فى الذبول للزهرة الخاصة بالنفل فى وقت مبكر عن الوقت المتوقع أن يحدث ، ومن المعروف بشكل جيد أن الذبول المبكر للزهرة علامة على حدوث تلقح ابتدائى . ومن هذه الدرجة المتناهية من العقم فلدينا أنغال ذاتية التلقيح^(١) تنتج عدداً أكبر فأكبر من البذور إلى أن تصل إلى الخصوبة المثالية .

الأنغال الناتجة عن اثنين من الأنواع الشديدة الصعوبة فى التهجين ، والتي نادراً ما تنتج أى ذرية ، هى فى العادة شديدة العقم ، ولكن التوازى بين الصعوبة الموجودة فى إجراء تهجين لأول مرة ، والعقم الخاص بالأنغال الذى يحدث نتيجة لذلك - وهما نوعان من الحقائق التى عادة ما يحدث خلط فيما بينها - ليس صارماً بأى حال من الأحوال . وهناك العديد من الحالات، التى نجد منها اثنين من الأنواع النقية ، كما هو الحال فى طبقة نبات أذان العير^(٢) ، التى من الممكن أن تتحد بسهولة غير عادية، وتنتج العديد من الذرية المنغلة ، إلا أن هذه الأنغال تكون عقيمة بشكل ملحوظ ، وعلى الجانب الآخر ، فهناك أنواع التى من الممكن تهجينها بشكل نادر جداً ، أو بصعوبة شديدة ، ولكن عندما يتم إنتاج الأنغال فى نهاية الأمر ، فإنها تكون شديدة الخصوبة . وحتى فى الحدود المرسومة لنفس الطبقة ، فإننا نجد على سبيل المثال ، أن نبات القرنفل^(٣) يحدث فيه كل من هاتين الحالتين المتضادتين.

والخصوبة الخاصة بكل من التهاججات الأولى والخاصة بالأنغال ، أكثر سهولة فى التأثر بالظروف غير المواتية، عما يمكن أن يحدث ذلك للأنواع النقية . ولكن الخصوبة الخاصة بالتهاججات الأولى هى أيضاً متقلبة بشكل فطرى ، وذلك لأنها ليست دائماً متساوية فى الدرجة عندما يحدث تهاجن بين نفس النوعين تحت نفس الظروف ، وهذا يعتمد فى جزء منه على التكوين الخاص بالأفراد التى يتصادف أن يتم اختيارها من أجل إجراء التجربة . وهذا هو الحال مع الأنغال ، وذلك لأن الدرجة الخاصة بخصوبتها غالباً ما نجد أنها تختلف كثيراً فى العديد من الأفراد المختلفة الناشئة عن البذور المستخرجة من نفس عليبة البذور والمتعرضة لنفس الظروف.

Self - fertilise

Verbascum (genus)

Dianthus

(١) ذاتى التلقيح

(٢) أذان العير (طبقة نبات) = أذان الرب = البوصير = لبيدة

(٣) نبات القرنفل

الشيء المعنى بمصطلح الصلة التصنيفية^(١) هو التشابه العام الموجود بين الأنواع فى التركيب والبنية . وهكذا فإن الخصوبة الخاصة بالتهاجنات الأولى ، والخاصة بالأنغال الناتجة عنها ، محكومة بشكل كبير عن طريق صلتها التصنيفية . وهذا يبدو واضحاً عن طريق الأنغال التى لم تتم تربيتها على الإطلاق فيما بين أنواع قد تمت تربيتها بواسطة خبراء التصنيف فى فصائل متباينة ، وعلى الجانب الآخر ، عن طريق الأنواع المتقاربة بشكل حميم جدا التى عادة ما تتحد مع بعضها بسهولة . ولكن التوافق الموجود بين الصلة التصنيفية والسهولة فى التهاجن ليس توافقاً صارماً على الإطلاق . ومن الممكن تقديم العدد الكبير من الحالات للأنواع المتقاربة بشكل حميم جداً التى سوف لن تتحد ، أو سوف تتحد بصعوبة قصوى ، وعلى الجانب الآخر ، لأنواع شديدة التباين التى تتحد مع بعضها بسهولة قصوى . وقد يكون هناك فى نفس الفصيلة طبقة ما ، مثل طبقة نبات القرنفل ، التى من الممكن أن يوجد بها الكثير جداً من الأنواع التى يمكن تهجينها بسهولة ، وطبقة أخرى ، مثل نباتات العبيص أو أبو دهينة^(٢) ، التى قد فشلت معها أكثر الجهود إصراراً فى إنتاج ولو نغل واحد من بين تلك الأنواع الحميمة إلى أقصى درجة . وحتى فى نطاق الحدود الخاصة بنفس الطبقة ، فإننا نتقابل مع نفس الاختلاف ، وعلى سبيل المثال ، فإن الأنواع العديدة من نبات النيكوتيانى^(٣) قد تم تهجينها بشكل أكثر توسعاً عن الأنواع الخاصة بأى طبقة أخرى تقريباً ، ولكن "جارتتر" وجد أن نبات النيكوتيانى ، ذا الأوراق المستدقة الطرف^(٤) ، والذى لا يتم اعتباره على أساس أنه نوع متباين بشكل خاص ، يفشل بشكل مستعصى فى أن يلقح ، أو فى أن يتلقح بواسطة ما لا يقل عن ثمانية أنواع أخرى من نباتات النيكوتانى . والعديد من الحقائق المماثلة الأخرى من الممكن تقديمها .

Systematic affinity

Silene (linearis & arabica

Nicotiana

Nicotiana acuminata

(١) الصلة التصنيفية *

(٢) نباتات العبيص وأبو دهينة = علوك = صمغ الذباب

(٣) نبات النيكوتيانى = التبغ = دخان = تمباك

(٤) نبات النيكوتيانى ذو الأوراق المستدقة الطرف *

لم يستطع أحد أن يحدد نوعية أو كيفية الاختلاف الموجودة فى أى طابع معترف به ، التى تكفى لمنع اثنين من الأنواع من التهاجن . ومن المستطاع إظهار أن نباتات على أعلى مستوى من الاختلاف فى السلوك وفى المظهر العام ، وتمتاز بوجود اختلافات شديدة الوضوح فى كل جزء من الزهرة ، حتى فى اللقاح ، وفى الثمرة ، وفى الفلقات^(١) ، إلا أنه يكون باستطاعتها أن تتهاجن . ونجد أن النباتات الحولية^(٢) والدائمة^(٣) ، والأشجار النفضية^(٤) والدائمة الخضرة^(٥) ، والنباتات التى تستوطن مراكز مختلفة والمعدة للأجواء المتناهية الاختلاف ، من المستطاع غالباً أن يتم تهجينها بسهولة .

وعند استخدام مصطلح " التهجين التبادلى بين اثنين من الأنواع " ، فأنا أعنى على سبيل المثال ، الحالة الخاصة بأنثى حمار^(٦) التى يتم تلقيحها لأول مرة بواسطة حصان ذكر^(٧) ، ويعد ذلك فرس^(٨) بواسطة حمار ذكر ، فإن هذين النوعين من الممكن أن يقال إنهما قد تهاجنا بشكل تبادلى . وفى كثير من الأحيان فإنه من الممكن أن يكون هناك أوسع اختلاف ممكن فى مدى السهولة التى تتم بها التهاججات التبادلية . ومثل هذه الحالات ذات أهمية عالية ، وذلك لأنها تثبت أن القدرة الموجودة فى أى نوعين لكى يحدث تهاجن بينهما هى فى كثير من الأحيان مستقلة تماماً عن صلاتهما التصنيفية ، وهذا يعنى عن أى اختلاف فى تركيبهما أو فى بنيتهما ، فيما عدا الموجود فى أجهزتهما التوالدية . والتنوع الموجود فى الناتج من التهاججات التبادلية التى تحدث بين نفس النوعين قد تمت مراقبته منذ وقت طويل بواسطة "كولرويتز" . ولكى نعطى

Cotyledon	(١) الفلقة : ورقة جنينية ترافق بذور النباتات الزهرية
Annual plants	(٢) النباتات الحولية : تعيش عاماً أو موسماً واحداً
Perennial plants	(٣) النباتات الدائمة : معمرة ذات دورة حياتية تنوم أكثر من سنتين
Deciduous trees	(٤) أشجار نفضية : متساقطة الأوراق
Evergreen trees	(٥) أشجار دائمة الخضرة
Female ass	(٦) أنثى حمار
Stallion	(٧) حصان ذكر (غير مخص) = فحل للاستيلاد
Mare	(٨) فرس = أنثى الخيل

مثالاً واحداً على ذلك : فإن نبات الأسحوان^(١) الجالابى^(٢) من المستطاع بسهولة أن يتم تلقيحه بواسطة لقاح الأسحوان طويل الزهر^(٣) ، والأنغال الناتجة بهذا الشكل خصيبة بشكل كاف ، ولكن " كولريتر " قد حاول أكثر من مائتى مرة ، فى خلال ثمانى من السنوات المتتالية ، أن يلحق بشكل تبادلى بالإسحوان طويل الزهر بواسطة اللقاح الخاص بالإسحوان الجالابى وفشل فى ذلك فشلاً ذريعاً . ومن الممكن تقديم العديد من الحالات الأخرى المختلفة المتساوية فى لفت الأنظار . وقد لاحظ " ثوريت " Thuret نفس الحقيقة مع طحالب بحرية معينة أو طحالب الفوقس^(٤) . والأكثر من ذلك أن " جارتتر " قد وجد أن هذا الاختلاف فى مدى السهولة عند إجراء التهاجنات التبادلية شىء شائع إلى أقصى حد ولكن بدرجة أقل . وهو قد لاحظ ذلك حتى بين الأشكال الحميمة الارتباط (مثل نبات المنثور الحولى^(٥) والمنثور الأملس^(٦)) والتي يصنفها العديد من علماء النبات على أساس أنها ضروب فقط . وأنها أيضاً لحقيقة جديرة بالملاحظة ، أن الأنغال الناتجة عن تهاجنات تبادلية ، مع أنها بالطبع مركبة من نفس النوعين بذاتهما ، فإن النوع الذى قد تم استخدامه فى أول الأمر على أساس أنه الأب ثم بعد ذلك على أساس أنه الأم ، مع أنها نادراً ما تختلف فى الصفات الخارجية ، إلا أنها تختلف عادة فى الخصوبة بدرجة صغيرة ، وفى بعض الأحيان بدرجة عالية .

ومن الممكن تقديم العديد من القواعد المفردة المختلفة الأخرى المأخوذة عن " جارتتر " : فعلى سبيل المثال ، فإن بعض الأنواع لديها قدرة مدهشة على التهاجن مع أنواع أخرى، وأنواع أخرى تابعة لنفس الطبقة لديها قدرة مدهشة على دمج مشابقتها على الأنغال من ذريتها ، ولكنه ليس من الضرورى أن تسير هاتان القدرتان معاً . وهناك بعض الأنغال المعينة التى بدلاً من أن تحوز ، كما هو المعتاد ، صفة متوسطة

Mirabilis	(١) نبات الأسحوان = ورد ، أو نوار ، أو شب الليل = أثمان
Jalapa	(٢) الجالابى جلاب = جلبة : نسبة إلى مدينة جالابا بجنوب المكسيك *
Longiflora	(٣) طويل الزهر *
Fucus (pl. Fuci) (Sea-weed)	(٤) الفوقس : طحلب بحرى أسمر
Matthiola annua	(٥) نبات المنثور الحولى *
Matthiola giabr	(٦) نبات المنثور الأملس *

بين الاثنين من آبائها ، فإنها دائماً ما تماثل بشكل حميم واحداً منهما ، ومثل هذه الأنغال ، مع أنها متماثلة خارجياً بشدة مع واحد من أنواعها الأبوية النقية ، إلا أنها تكون مع بعض الاستثناءات النادرة عقيمة إلى أقصى حد . وهكذا مرة أخرى فإننا نجد بين الأنغال التي عادة ما تكون متوسطة في التركيب بين أبويها ، أنه من الممكن أن يولد لها في بعض الأحيان أفراد استثنائيون وغير عاديين ، والتي تشابه بشكل حميم واحداً من أبويها النقيين ، وهذه الأنغال تكون دائماً تقريباً عقيمة تماماً ، حتى عندما تكون الأنغال الأخرى الناتجة من بذور من نفس عليية البذور تتمتع بدرجة جديرة بالاعتبار من الخصوبة . وهذه الحقائق تظهر كيف أن الخصوبة الخاصة بالنبغ قد تكون غير معتمدة بشكل كلي على تشابهه الخارجى مع أى من الأبوين النقيين .

عند الوضع فى الاعتبار القواعد العديدة المختلفة التى قد تم سردها الآن ، التى تتحكم فى الخصوبة الخاصة بالتهاجنات الأولى والخاصة بالأنغال ، فنحن نرى أنه عندما تتحد الأشكال ، التى يجب اعتبارها على أساس أنها أنواع صحيحة ومتباينة ، فإن خصوبتها تتراوح من الصفر إلى الخصوبة الكاملة ، وحتى إلى خصوبة زائدة عن الحد تحت ظروف معينة ، وأن خصوبتها ، بجانب كونها سريعة التأثير بشكل واضح بالظروف المواتية وغير المواتية ، فإنها متفاوتة بشكل فطرى ، وأنها ليست بأى شكل من الأشكال متساوية فى الدرجة فى الهجين الأول وفى الأنغال الناتجة عن هذا التهجين ، وأن الخصوبة الخاصة بالأنغال ليس لها علاقة بالدرجة التى وصل إليها تشابهها مع أى من أبويها فى المظهر الخارجى ، وأخيراً ، أن السهولة فى إجراء تهجين لأول مرة بين أى اثنين من الأنواع لا تكون دائماً محكمة بصلاتهما التصنيفية أو بدرجة تشابه كل منهما للآخر . وهذا التصريح الأخير قد تم إثباته بوضوح عن طريق الاختلاف فى نتيجة التهاجنات التبادلية بين نفس النوعين ، وذلك بناء على إذا ما كان أحد النوعين أو الآخر قد تم استخدامه بصفته الأب أو بصفته الأم ، فإنه يوجد فى العادة بعض الاختلاف ، وفى بعض الأحيان أكثر اختلاف ممكن ، فى سهولة إحداث اتحاد بينهما . والأكثر من ذلك ، أن الأنغال الناتجة عن التهاجنات التبادلية كثيراً ما تختلف فى الخصوبة .

والآن ، هل تشير هذه القواعد المركبة والمنفردة إلى أن الأنواع قد أصيبت بالعمق مجرد منعها من أن تصبح مرتبكة في الطبيعة ؟ - أنا لا أعتقد ذلك. لأنه لماذا يجب أن يكون العمق مفرداً بهذا الشكل في الاختلاف في الدرجة ، عندما يتم التهجين بين أنواع متعددة الخصائص ، التي يجب علينا أن نفترض أنه من المهم بشكل متساو في جميعها أن يتم إبعادها عن الاختلاط مع بعضها ؟ - ولماذا يجب أن تكون درجة العمق متقلبة بشكل فطري في الأفراد التابعه لنفس النوع؟ - ولماذا سوف تتهاجن بعض الأنواع بسهولة ، ومع ذلك فإنها تنتج أنغالاً شديدة العمق ، وأنواع أخرى تتهاجن بمنتهى الصعوبة ، ومع ذلك فإنها تنتج أنغالاً خصيبة تماماً؟ ، - ولماذا يجب أن يكون هناك في كثير من الأحيان مثل هذا الاختلاف الكبير في نتيجة تهجين تبادلي بين نفس الاثنين من الأنواع ؟ - ولماذا من الممكن حتى أن يثور تساؤل عن هل تم السماح بإنتاج الأنغال؟- فلكي يتم منح الأنواع القدرة الاستثنائية على إنتاج الأنغال، ولكي يوقف بعد ذلك استمرار تكاثرها عن طريق درجات مختلفة من العمق ، غير المتعلق بشكل قاطع بالسهولة الخاصة التي حدث بها الاتحاد لأول مرة بين آبائهما، فإن ذلك يبدو كترتيب غريب .

وعلى الجانب الآخر ، فإنه يبدو لي بوضوح أن القواعد والحقائق السابقة ، تشير إلى أن العمق الخاص بكل من التهجينات الأولى والخاص بالأنغال هو ببساطة شيء عرضي أو معتمد على اختلافات غير معروفة موجودة في أجهزتها التوالدية ، وهذه الاختلافات ذات طبيعة غريبة ومحدودة، إلى حد أنه في التهجينات المتبادلة التي تحدث بين نفس النوعين ، فإن العنصر الجنسي الذكري التابع لواحد منهما سوف يعمل في كثير من الأحوال بحرية على العنصر الجنسي الأنثوي للآخر ، ولكن ذلك لن يحدث في الاتجاه المعاكس . وسيكون من المنصوح به أن نفسر بشكل أكثر شمولاً بواسطة أحد الأمثلة ما أعنيه بأن العمق شيء طارئ على اختلافات أخرى ، وليس خاصية مكتسبة بشكل خاص . وبما أن القابلية الخاصة بأحد النباتات لكي يتم تطعيمه^(١) أو تبرعمه^(٢) على نبات آخر هي شيء غير مهم لما فيه صالحهما

Graft
Bud

(١) تطعيم (النبات)
(٢) تبرعم

فى البئئة الطبعفة ، فأنى أسلم بأنه لن فوفء من سوف فففرض أن هءة القابلفة ءاصفة ممنوأة بشكل استثنائى ، ولكنة سوف فقر بأنها شىء طارئى على اءءلافاء موفوءة فى قوائن النمو ءاصة بالائفن من النباءاء . ونحن نستطفع فى بعض الأءفان أن نرى السبب فى أن إءءى الأشءار لن آآء فى الطعفم على شءرة أءرى ، وءك لوفوء اءءلافاء فى المعدل ءاص بنموهما ، أو فى الصلافة ءاصة بأءشابهما ، أو فى الفءرة الآى سآءرقها سرفان النسء^(١) ، أو فى الطبعفة ءاصة وءلافه ، ولكن فى العءء الكبفر من ءالاء فائننا لا نستطفع أن نءءء أى سبب على الإءلاق . وائلنوع الهائل فى ءءم ءاص بائفن من النباءاء ، أو كون أءءهما ذا طبعفة ءشبفة والأءر ذا طبعفة عشبفة^(٢) ، أو كون أءءهما ءائم ءءرة والأءر مآساقط الأوراق^(٣) ، وكءلك الآكفف على الأءواء العرفضة الاءءلاف ، فإن كل هءة العوامل قء لا آكون ءائمأ مانعة من أن فآم الطعفم ففما بفنهما . وكما هو ءال فى الآففل فأنه أفضا فنبطق على الطعفم ، فإن القابلفة لهما مءءوءة بالصلة الآصنففة ، وءك لأنه لم فءء أن كان باسآطاعة أى إنسان أن فآء فى الطعفم بفن أشءار آابعة إلى فصائل مآبافنة عن بعضها آمامأ ، وعلى ءانب الأءر ، فإن الأنواع ءمفمة القرفبى ، والضروب الآبعة لنفس النوع ، من الممكن فى العاءة ، ولو أنه لفس بشكل آابء ، أن فآم طعفمها بسهولة . ولكن هءة القابلفة ، كما هى فى الآففل ، لفسآ بأى ءال من الأحوال مءكومة آمامأ بواسطة الصلة الآصنففة . وبالفرم من أن العفء من الطبقات المآبافنة من ضمن نفس الفصلفة قء تم طعفمها ففما بفنهما ، إلا أننا نءء فى ءالاء أءرى أن هناك أنوعأ آابعة لنفس الطبقة سوف لن آآء فى الطعفم على بعضها الأءر . ونءء أن نبات الكمثرى^(٤) من الممكن طعفمه بسهولة كبفرة ءءأ على نبات السفرفءل^(٥) ، الذى فآم آصنففه على أساس أنه آابع لطفقة

Sap

Herbaceous

Deciduous

Pear

Quince

(١) النسء : سائل فءرى فى أوعفة النبات ءاملأ الماء والفءاء

(٢) عشبى

(٣) مآساقط الأوراق

(٤) نبات الكمثرى = الإءاص

(٥) نبات السفرفءل

متباينة ، وذلك أكبر من سهولة تطعيمه على نبات التفاح ، الذى هو عضو تابع للطبقة نفسها . بل إن الضروب المختلفة من نبات الكمثرى ينجح تطعيمها بدرجات مختلفة من اليسر عن نبات السفرجل ، وهذا هو الحال مع الضروب المختلفة من نباتات المشمش^(١) والخوخ^(٢) عند تطعيمهما على ضروب معينة تابعة لنبات البرقوق^(٣) .

وكما وجد "جارتنر" أنه كان هناك فى بعض الأحيان اختلاف فطرى موجود فى أفراد مختلفة تابعة لنفس الاثنين من الأنواع الجارى تهجينهما ، فكذلك يؤمن "ساجيريت" Sageret أن هذا هو الحال مع الأفراد المختلفة التابعة لنفس الاثنين من الأنواع عندما يتم تطعيمهما معاً. وكما هو الحال فى التهاجات التبادليه ، فإن السهولة فى إحداث اتحاد فى الغالب بعيدة كل البعد من أن تكون متساوية ، فهذا هو الحال فى بعض الأحيان فى عملية التطعيم ، وعلى سبيل المثال ، فإن نبات الكشمش^(٤) الشائع لا يمكن أن يتم تطعيمه على نبات الزبيب^(٥) ، بينما سوف ينجح تطعيم نبات الزبيب ، ولو بصعوبة ، على نبات الكشمش .

ونحن قد شاهدنا أن العقم الخاص بالأنغال ، التى تكون أعضاؤها التوالدية فى حالة مطففة، حالة مختلفة عن الصعوبة الموجودة فى الربط بين اثنين من الأنواع النقية، التى تمتاز بأن أعضائها التوالدية فى حالة مكتملة ، ومع ذلك فإن هاتين المجموعتين من الحالات تسييران إلى حد كبير بشكل متوازن. ويحدث فى بعض الأحيان شىء مماثل فى التطعيم ، حيث إن "ثوين" Thouin قد وجد أن ثلاثة أنواع من نباتات الحناء^(٦) ، التى قد أنتجت بذوراً بحرية وهى تنمو على الجذور الخاصة بها ، والتى من الممكن تطعيمها بنوع صعبوبة كبيرة على نوع رابع ، فإنه عندما يتم تطعيمها

Apricot

Peach

Plum

Gooseberry

Currant

Robinia

(١) نبات المشمش

(٢) نبات الخوخ = دراق

(٣) نبات البرقوق = الأجاص

(٤) نبات الكشمش = الريباس = عنب الثعلب

(٥) نبات الريباس الأسود = هلموش

(٦) نبات الحناء = شجرة الجراد *

بهذا الشكل فإنها تصبح عاقراً^(١) . وعلى الجانب الآخر ، فإن نوعاً معيناً من نبات الغبيراء^(٢) عندما تم تطعيمه على نوع آخر فإنهما قد أنتجا ضعف الكمية من الثمار التي ينتجانها عندما يكونان ناميين على جذورهما . وهذه الواقعة الأخيرة تذكرنا بالحالات الاستثنائية الخاصة بنباتات النيجوم^(٣) وزهرة الألم^(٤) ، وخلافهما ، والتي تنتج بذوراً بحرية أكبر بكثير عندما تتلقح باللقاح الخاص بنوع متباين ، عما تنتجة عندما تتلقح بلقاح مأخوذ من نفس النبات .

وهكذا نرى أنه بالرغم من وجود اختلاف واضح وكبير بين مجرد الالتحام الخاص بالأجزاء المعدة للتطعيم ، والاتحاد الذي يحدث بين العناصر الذكرية والأنثوية فى عملية التوالد ، إلا أنه يوجد هناك درجة بدائية من التوازى فى النتائج الخاصة بالتطعيم والخاصة بتهجين الأنواع المتباينة . وبما أنه من الواجب علينا أن ننظر إلى القوانين الغريبة والمعقدة التى تتحكم فى مدى السهولة التى يمكن بواسطتها تطعيم الأشجار على بعضها الآخر على أساس أنها أشياء عارضة على اختلافات مجهولة موجودة فى أجهزتها الخضرية^(٥) ، وبهذا الشكل فإنى مؤمن بأن القوانين الأكثر تعقيداً التى تتحكم فى تسهيل التهاجات الأولى عارضة على اختلافات مجهولة موجودة فى أجهزتها التوالدية . وهذه الاختلافات الموجودة فى كل من الحالتين ، تتبع إلى حد معين ، كما قد يكون هو المتوقع ، صلة تصنيفية ، وهذا مصطلح يعتبر محاولة لتوضيح كل صورة من صور التماثل والاختلاف الموجودة بين الكائنات العضوية . ولا يبدو أن هذه الحقائق تشير بأى حال من الأحوال إلى أن الصعوبة الكبرى أو الصغرى الموجودة فى إجراء أى تطعيم أو تهجين للأنواع المختلفة قد كانت خاصية موهوبة بشكل استثنائى ، بالرغم من أنه فى الحالة الخاصة بالتهجين فإن الصعوبة على نفس الدرجة من الأهمية من أجل التحمل والثبات الخاص بأشكال معينة ، بينما فى حالة التطعيم فهى غير ذات أهمية من أجل المصلحة الخاصة بها .

Barren

(١) عاقر = جرداء = قاحل = غير مثمر

Sorbus

(٢) نبات الغبيراء = عناب : شجر يشبه التفاح والإجاص

Hippeastrum

(٣) نبات النيجوم **

Passiflora

(٤) نبات زهرة الألم = چرخ الفالاک = زهرة الساعة

Vegetative systems

(٥) الأجهزة الخضرية *

نشأة وأسباب العقم الخاص بالتهاجنات الأولى والخاص بالأنغال

بدا لى فى وقت ما ، كما بدا لآخرين ، أنه من المحتمل أن العقم الخاص بالتهاجنات الأولى والخاص بالأنغال قد يكون شيئاً تم اكتسابه ببطء من خلال الانتقاء الطبيعى لدرجات منخفضة بشكل بسيط عن الخصوبة ، والذي مثل أى تمايز آخر ، قد ظهر بشكل تلقائى فى أفراد معينة تابعة لأحد الضروب عند تهجينها مع أفراد تابعة لضرب آخر ، وهذا لأن ذلك سوف يكون مفيداً بشكل واضح لاثنين من الضروب أو من الأنواع الأولية . وإذا كان من الممكن منعهما من الامتزاج ، وذلك طبقاً لنفس المبدأ الذى ينص على أنه عندما يقوم الإنسان بانتقاء اثنين من الضروب فى نفس الوقت ، فإنه من الضرورى عليه أن يبقيهما منفصلين عن بعضهما . وفى المقام الأول ، فإنه من الممكن ملاحظة أن الأنواع التى تستوطن مناطق متباينة هى غالباً ما تكون عقيمة عندما تتهاجن ، وهكذا فإنه قد يكون من الواضح أنه ليس من المفيد لمثل هذه الأنواع المفصولة عن بعضها أن تصبح عقيمة بشكل متبادل ، وبالتالي فإن هذا لا يمكن أن يكون قد حدث من خلال الانتقاء الطبيعى ، ولكن من المحتمل أن يثور جدال حول أنه إذا ما صار أحد الأنواع عقيماً عند تهاجنه مع أحد رفاقه ، فإن العقم الناتج عن التهاجن مع أنواع أخرى سوف يكون هو الخطوة التالية كشيء ضرورى محتمل . وفى المقام الثانى ، أن هذا مخالف بنفس القدر تقريباً لنظرية الانتقاء الطبيعى كما هو مخالف لتلك النظرية الخاصة بالخلق الاستثنائى ، وذلك لأنه فى التهاجنات المتبادلة فإن العنصر الذكرى التابع لأحد الأشكال سوف يكون من المحتم أن يصبح عقيماً^(١) تماماً فى الشكل الثانى ، بينما فى الوقت نفسه فإن العنصر الذكرى الخاص بهذا الشكل الثانى يصبح قادراً على أن يلقح بحرية الشكل الأول ، وذلك لأن هذه الحالة الغريبة التى قد أصبح عليها الجهاز التوالدى ، من الصعب أن تكون مفيدة لأى من النوعين .

Impotent

(١) عنين = غير قادر جنسياً

وعندما نقرب الفكر فى احتمال أن الانتقاء الطبيعى قد كان له دور مع جعل الأنواع عقيمة بشكل متبادل ، فإننا سوف نجد أن العقبة الكبرى تقع فى التواجد للعديد من المراحل المتدرجة من الانخفاض البسيط فى مستوى الخصوبة إلى العقم التام . ومن الممكن الاعتراف بأنه قد يكون من مصلحة نوع أولى ، إذا ما أصبح عقيماً بدرجة بسيطة ما فى حالة تهجينه مع شكله الأبوى أو مع أحد الضروب الأخرى ، لأن هذا من شأنه إنتاج عدد أقل من الأنغال غير السوية^(١) والذرية الفاسدة التى من شأنها مزج دماؤها مع دم النوع الجديد فى أثناء عملية تكويته . ولكن الذى يأخذ على عاتقه تقليب الفكر حول المراحل التى عن طريقها قد ازدادات هذه الدرجة الأولى من العقم من خلال الانتقاء الطبيعى إلى أن وصلت إلى هذه الدرجة العالية التى هى صفة عامة بين هذا العدد الكبير من الأنواع ، والتى هى شائعة بين الأنواع التى قد أصبحت متميزة إلى مرتبة طبقة أو فصيلة ، فإنه سوف يجد أن هذا الموضوع معقد بشكل غير طبيعى . وبعد تقليب الفكر المدروس فإنه يبدو لى أن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث من خلال الانتقاء الطبيعى . فلك أن تأخذ حالة أى اثنين من الأنواع التى عندما تم تهجينها فإنها قد أنتجت ذرية قليلة العدد وعقيمة ، ومن ثم ، فما الموجود هناك الذى من الممكن أن يساند البقاء على قيد الحياة لهذه الأفراد التى يتصادف أن تكون قد خصت بانعدام الخصوبة المتبادل بدرجة أعلى قليلاً ، والتى بهذا الشكل قد تقدمت بخطوة صغيرة نحو العقم التام ؟ - ومع ذلك إذا حدث تقدم بهذا الشكل ، وإذا كان لنظرية الانتقاء الطبيعى أن يكون لها تأثير ، فإنه من المحتم أن يكون هذا قد حدث بشكل مستمر مع العديد من الأنواع ، وذلك لأنه يوجد عدد كبير من الأنواع فى حالة عقم متبادل تام . وفى الحشرات المحايدة جنسياً العقيمة فإن لدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه قد تم التكديس ببطء لتعديلات فى تركيبها وخصوبتها عن طريق الانتقاء الطبيعى ، وذلك انطلاقاً من ميزة قد تم منحها بهذا الشكل إلى المجتمع الذى تنتمى إليه أكبر مما لدى المجتمعات الأخرى التابعة لنفس النوع ، ولكن حيواناً مفرداً

غير تابع إلى أى مجموعة اجتماعية ، إذا ما أصبح عقياً بشكل بسيط عندما يتم تهجينه مع أحد الضروب الأخرى ، فإنه لن يكتسب بهذا الشكل أى ميزة أو لن يتم منحه بشكل غير مباشر أى ميزة على الأفراد الآخرين التابعين لنفس الضرب، مما يؤدي بهذا الشكل إلى الحفاظ عليها .

ولكنه سوف يكون من غير المجدى مناقشة هذا التساؤل بالتفصيل ، وذلك لأن لدينا فى حالة النباتات دليلاً مقنعاً على أن العقم الخاص بالأنواع المهجنة يجب أن يكون نتيجة لمبدأ ما ، مستقل تماماً عن الانتقاء الطبيعى . وقد أثبت كل من "جارتنر" و"كولرويتز" أنه فى الطبقات التى تتضمن على العديد من الأنواع ، فإنه من المستطاع تكوين سلسلة من الأنواع التى عندما تتهاجن تنتج عدداً أقل فأقل من البذور ، إلى الأنواع التى لا تنتج أى بذرة واحدة على الإطلاق ، ولكنها مع ذلك تتأثر باللقاح الخاص ببعض الأنواع الأخرى ، وذلك لكى تفتتح الخلية الجينية^(١) . ومن الواضح هنا استحالة انتقاء الأفراد الأكثر عقماً ، التى قد توقفت بالفعل عن إنتاج أى بذور ، وبذلك فإن هذه الذروة من العقم ، عندما تكون الخلية الجينية هى المتأثرة وحدها ، لا يمكن أن تكون قد تم اكتسابها من خلال الانتقاء ، ونتيجة لأن القوانين التى تتحكم فى الدرجات المختلفة من العقم هى على مثل هذا القدر من التماثل فى جميع أرجاء الممالك الحيوانية والنباتية، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن السبب فى ذلك، أيا كان ، هو تقريباً نفس السبب فى جميع الحالات.

وسوف ننظر الآن باقتراب أكبر بقليل إلى الطبيعة المحتملة للاختلافات الموجودة بين الأنواع التى تتسبب فى إحداث العقم فى التهاججات الأولى وفى الأنغال . أما فى حالة التهاججات الأولى ، فيبدو أن الصعوبة الكبرى أو الأقل فى إحداث اتحاد وفى الحصول على ذرية تعتمد على العديد من الأسباب المتباينة المختلفة . وفى بعض الأحيان يجب أن تكون هناك استحالة جسدية تمنع العنصر الذكري من الوصول إلى البويضة أو البذرية ، كما قد يكون الحال فى نبات ما يتمتع بمدقة أكثر طولاً من أن

تمكن أنابيب اللقاح من أن تصل إلى المبيض^(١) . وقد لوحظ أيضا أنه عندما يوضع اللقاح الخاص بأحد الأنواع على الميسم الخاص بنوع متباين ذى قربي ، فمع أن أنابيب اللقاح تبرز ، إلا أنها لا تخترق السطح الميسمي . ومرة أخرى ، فإن العنصر الذكرى قد يصل إلى العنصر الأنثوى ، ولكنه يكون غير قادر على أن يتسبب فى تكوين جنين ، كما يبدو أنه قد كان الحال فى بعض التجارب التى أجراها "ثوريت" على طحالب الفوقس البحرية السمراء. وليس من الممكن إعطاء أى تفسير لهذه الوقائع ، أكثر من التساؤل عن السبب الذى يمنع بعض الأشجار المعينة من قبول التطعيم على أشجار أخرى . وأخيراً ، فإنه من المحتمل أن يتكون جنين ثم يفنى بعد ذلك عند مرحلة مبكرة . وهذا الخيار الأخير لم يتم الالتفات إليه بشكل كاف ، ولكنى أعتقد ، بناء على ملاحظات وصلتني عن طريق "السيد هيويت" Mr. Hewitt ، وهو الذى كانت له خبرة عظيمة فى تنغيل طيور التدرج والدجاج ، تنم عن أن الوفاة المبكرة للجنين سبب متكرر جداً للعقم الخاص بالتهاجنات الأولى . وقد قدم "السيد سالتر" Mr. Salter فى الآونة الأخيرة النتائج الخاصة بفحص حوالى ٥٠٠ بيضة ناتجة عن تهاجنات عديدة مختلفة حدثت بين ثلاثة من الأنواع الخاصة بالدجاجيات وأنغالها ، والقدر الأعظم من هذا البيض كان قد تم تلقيحه ، وفى معظم هذا البيض الملحق كان الجنين إما قد تكون جزئياً ثم هلك بعد ذلك ، أو أصبح قريباً من النضوج ، ولكن الأفراخ اليافعة كانت غير قادرة على كسر غلاف البيض والخروج منه . أما عن الأفراخ التى قد تم فقسها ، فإن أربعة أخصاسها ماتت فى خلال الأيام القلائل الأولى ، وعلى الأكثر فى خلال أسابيع ، وكما جاء فى قوله "بدون أى سبب واضح ، ويبدو أن ذلك من جراء مجرد عدم القدرة على الحياة" ، وهكذا فإنه من مجموع الخمسمائة بيضة فإنه قد تم الحصول على اثنى عشر فرخاً منها فقط . أما فى النباتات ، فإن الأجنة المنغلة من المحتمل فى كثير من الأحيان أن تهلك بطريقة مماثلة ، وعلى الأقل فإنه من المعروف أن الأنغال التى يتم إنتاجها من الأنواع المتباينة بشكل كبير، تكون فى بعض الأحيان ضعيفة ومقزمة ، وتهلك عند أعمار مبكرة ، وقد قام "ماكس ويتشورا" Max Wichura

حديثاً بتقديم بعض الحالات الملفتة للنظر عن هذه الحقيقة فى الصفصافيات^(١) المنغلة . وقد يكون من المستحق للملاحظة فى هذا المجال أنه فى بعض الحالات الخاصة بالتوالد العذرى^(٢) ، فإن الأجنة الموجودة بداخل البيض الخاص بفراشات الحرير^(٣) التى لم يتم تلقيحها ، تمر فى خلال مراحلها المبكرة فى التكوين ثم تهلك بعد ذلك ، مثل الأجنة الناتجة عن طريق التهجن بين أنواع متباينة . وإلى أن أصبحت مُلماً بهذه الحقائق ، فإننى قد كنت غير قابل لأن أصدق فى الوفاة المبكرة المتكررة الحدوث لأجنة الأنغال ، وذلك لأن الأنغال بمجرد ولادتها ، فإنها عادة ما تكون صحتها جيدة وطويلة العمر ، كما نراه فى الحالة الخاصة بالبيغل^(٤) المعتاد . ومع ذلك فإن الأنغال تختلف حالاتها قبل وبعد الولادة : فعندما تولد وتعيش فى قطر يعيش فيه والداها ، فإنها تكون فى العادة موضوعة تحت ظروف حياتية مناسبة . ولكن النغل الذى يتشارك فى النصف فقط من الطبيعة والبنية الخاصة بأمه ، فإنه قد يكون معرضاً نتيجة لذلك قبل الولادة ، وطوال مدة تغذيته بداخل الرحم الخاص بأمه ، أو بداخل البيضة أو البذرة الناتجة بواسطة الأم ، إلى ظروف هى إلى درجة ما غير مناسبة ، وبالتالي فإنه يكون عرضة للهلاك عند مرحلة مبكرة من العمر ، وبالأخص لأن جميع الكائنات اليافعة جداً حساسة بشكل بارز لظروف الحياة الضارة أو غير الطبيعية . ولكن بعد كل شىء ، فالاحتمال الأكبر أن السبب يقع فى وجود عيب ما فى العملية الأصلية الخاصة بالإخصاب^(٥) ، مما يتسبب فى أن يكون الجنين معيباً فى تكوينه ، أكثر من أن يكون السبب فى الظروف التى يتعرض إليها فيما بعد .

وفىما يتعلق بالعقم الخاص بالأنغال ، التى قد تكونت فيها العناصر الجنسية بشكل غير كامل ، فإن الحالة تختلف بعض الشىء . وقد أشرت فى أكثر من مرة إلى مجموعة كبيرة من الحقائق التى تظهر أنه ، عندما يتم نزع الحيوانات والنباتات من

Willows

Parthenogenesis

Silk moths

Mule

Impregnation

(١) الصفصافيات = مرسيسات = غربيات

(٢) التوالد العذرى

(٣) فراشات الحرير

(٤) البيغل

(٥) الإخصاب = التلقيح

ظروفها الطبيعية ، فإنها تكون قابلة بشكل متناهي لحدوث تأثير خطير على أجهزتها التوالدية . وهذه فى الحقيقة هى العقبة الضخمة فى سبيل التدجين للحيوانات . وهناك العديد من نقاط التماثل الموجودة بين العقم الطارئ بهذا الشكل والعقم الخاص بالأنغال ، ففى كل من الحالتين فإن العقم شىء مستقل عن الصحة العامة ، ويكون متصاحباً فى الكثير من الأحيان مع زيادة فى الحجم أو تنميق عظيم . وفى كلتا الحالتين فإن العقم يحدث بدرجات مختلفة ، وفى كليهما فالعنصر الذكري هو الأكثر قابلية لأن يتأثر ، ولكن فى بعض الأحيان قد تتأثر الأنثى أكثر من الذكر . وفى الاثنى فإن القابلية تتماشى إلى درجة ما مع الصلة التصنيفية ، وذلك لأن مجموعات كاملة من الحيوانات والنباتات قد تصبح عينية عن طريق نفس الظروف غير الطبيعية ، ومجموعات كاملة من الأنواع قد تميل إلى إنتاج أنغال عقيمة . وعلى الجانب الآخر ، فإن واحداً من الأنواع التابعة لإحدى المجموعات سوف يقوم فى بعض الأحيان بمقاومة تغيرات عظيمة فى الظروف بدون حدوث أضعاف فى الخصوبة ، وبعض الأنواع التابعة لإحدى المجموعات سوف تنتج أنغالاً خصيبة بشكل غير عادى . ولا يوجد أحد يستطيع أن يقول ، إلى أن يجرب ، إذا ما كان أى حيوان معين سوف يتوالد تحت تأثير حبس الحرية ، أو إذا ما كان أى نبات غريب سوف ينتج بذوراً بحرية تحت تأثير الاستنبات ، ولا هو يستطيع أن يقول ، إذا ما كان أى اثنين من الأنواع التابعة إلى إحدى الطبقات سوف ينتج لا أقل ولا أكثر من الأنغال العقيمة . وأخيراً ، فعندما توضع الكائنات العضوية فى خلال العديد من الأجيال تحت تأثير ظروف ليست طبيعية بالنسبة لها ، فإنها تكون معرضة إلى أقصى حد إلى التمايز ، وهو الشىء الذى يبدو أنه جزئياً نتيجة لأن أعضاءها التوالدية قد تأثرت بشكل استثنائى ، ولو بدرجة أقل من الوقت الذى يحل فيه العقم . وهذا هو الحال مع الأنغال ، وذلك لأن ذريتها فى الأجيال المتتالية قابلة بشكل بارز للتمايز ، وذلك ما لاحظته جميع العلماء التجريبيين .

وبهذا الشكل فإننا نرى أنه عندما توضع الكائنات العضوية تحت تأثير ظروف جديدة وغير طبيعية ، وعندما يتم إنتاج الأنغال عن طريق تهاجن غير طبيعى بين اثنين من الأنواع ، فإن الجهاز التوالدى ، بغض النظر عن الحالة العامة الخاصة بالصحة ، يتأثر بطريقة متمائلة جداً . وفى الحالة الوحيدة التى قد يحدث فيها اضطراب فى

الظروف الحياتية ، مع أنه فى الغالب ما قد يكون هذا الاضطراب بشكل بسيط إلى درجة أننا قد لا نكون قادرين على تقديره ، وفى هذه الحالة الأخيرة ، أو تلك الحالة الخاصة بالأنغال ، فإن الظروف الخارجية قد استمرت على ما هى عليه ، ولكنه قد حدث اضطراب فى التعضية عن طريق اندماج اثنين من التراكيب والبنى المتباينة فى تركيب واحد وبنية واحدة ، متضمنا بالطبع الأجهزة التوالدية . وذلك لأنه من النادر احتمال أن تتمكن اثنتان من التعضيات من التآلف فى تعضية واحدة ، بدون حدوث بعض الاضطراب فى التكوين ، أو النشاط الدورى^(١) ، أو العلاقات المتبادلة الخاصة بالأجزاء والأعضاء الجنسية المختلفة فيما يتعلق بعلاقة أحدهما مع الآخر أو مع الظروف الحياتية . وعندما تكون الأنغال قادرة على التوالد فيما بينها ، فإنها تنقل إلى ذريتها من جيل إلى جيل نفس التعضية المتألفة ، ومن ثم فلا داعى لأن نصاب بالدهشة بأن العقم الذى قد يصيبها ، ولو أنه متفاوت بدرجة ما ، فإنه لا يقل ، بل إنه قابل للزيادة ، وهذا من شأنه أن يكون فى العادة هو النتيجة المتوقعة ، كما سبق توضيحه ، للتهاجن المتبادل الحميم جداً . والرأى السابق الخاص بأن العقم الخاص بالأنغال ينتج عن طريق أن اثنتين من البنيات قد تم تأليفهما فى بنية واحدة ، هو رأى يتمسك به بشدة "ماكس ويتشورا" .

ومع ذلك ، فإنه يجب الاعتراف بأننا لا نستطيع أن نفهم ، بناء على وجهة النظر السابقة أو أى وجهة نظر أخرى ، العديد من الحقائق المختلفة فيما يتعلق بالعقم الخاص بالأنغال ، وعلى سبيل المثال : الخصوبة غير المتساوية الخاصة بالأنغال التى تماثل بشكل حميم أحياناً واستثنائى واحداً من الآباء الأنقياء . ولا أنا أدعى أن الملاحظات السابقة تتغلل إلى جذور الموضوع ، فإنه لا يوجد أى تفسير يمكن تقديمه عن لماذا عندما يتم وضع أحد الكائنات الحية فى ظروف غير طبيعية ، فإنه يصبح عقيماً . وجميع ما حاولت أن أظهره هو أنه فى حالتين ، مترابطتين فى بعض الاعتبارات ، كان العقم هو النتيجة المشتركة - فى الحالة الأولى نتيجة لحدوث اضطراب فى الظروف الحياتية ، وفى الحالة الأخرى نتيجة لحدوث اضطراب فى التعضية بسبب أن تعضيتين قد تألفتا فى تعضية واحدة .

وشيء مماثل من التوازي ينطبق على طائفة من الحقائق المتقاربة ولو أنها مختلفة تماماً . فإنه اعتقاد قديم وشامل تقريباً مؤسس على مجموعة ذات اعتبار من الأدلة ، والتي قد قمت بتقديمها فى مواضع أخرى ، أن التغييرات البسيطة فى ظروف الحياة هى من الأشياء المفيدة لجميع الأشياء الحية . ونحن نرى تطبيق ذلك بواسطة المزارعين والبستانيون فى أثناء تبادلاتهم المتكررة الحدوث للبذور والدرنات^(١) وخلافه ، ومن تربة أو مناخ إلى الآخر ، ثم العودة للسابق مرة أخرى . وفى أثناء دور النقاها للحيوانات ، فإنها تستمد فائدة عظيمة من أى تغيير تقريباً فى سلوكياتها الحياتية . ومرة أخرى ، وفى كل من النباتات والحيوانات ، فإن هناك أوضح دليل على أن التهجين فيما بين الأفراد التابعة لنفس النوع ، والتي تختلف عن بعضها بدرجة معينة ، يعطى حيوية وخصوبة للذرية الناتجة ، وأن هذا التوالد المتبادل الحميم المستمر فى خلال العديد من الأجيال بين أقرب أقرباء ، إذا أبقيناها تحت تأثير نفس الظروف الحياتية ، فإنه فى جميع الحالات تقريباً يؤدي إلى النقصان فى الحجم وإلى الضعف والعقم .

ومن ثم فإنه يبدو أنه من أحد الجوانب ، أن التغييرات البسيطة التي تحدث فى الظروف الحياتية تفيد جميع الكائنات العضوية ، وعلى الجانب الآخر ، فإن التهجينات البسيطة ، وهذا يعنى التهجينات بين الذكور والإناث التابعة لنفس النوع ، والتي قد تعرضت إلى ظروف مختلفة قليلاً ، أو التي قد تمايزت بشكل بسيط ، يمنح حيوية وخصوبة إلى الذرية الناتجة . ولكن ، وكما قد رأينا ، فإن الكائنات العضوية التي قد اعتادت لفترة طويلة على بعض الظروف المتماثلة المعينة تحت تأثير البيئة الطبيعية ، عندما تتعرض إلى تغيير كبير فى ظروفها ، مثل تأثير حبس الحرية ، وذلك بشكل متكرر جداً ، فإنها تصبح تقريباً عقيمة ، ونحن نعلم أن التهجين ما بين اثنين من الأشكال ، التي قد أصبحت مختلفة بشكل عريض أو بشكل سطحي ، ينتج عنه أنغال هى فى جميع الأحوال تقريباً عقيمة بدرجة ما . وأنا مقتنع تماماً أن هذا التوازي المزدوج ليس بأى

شكل من الأشكال وليد المصادفة أو أنه مجرد وهم . والذى يستطيع أن يفسر لماذا يكون الفيل والعديد من الحيوانات الأخرى غير قادرة على التوالد عندما يتم الاحتفاظ بها تحت تأثير حبس الحرية الجزئى فقط فى مواطنها الأصلية ، فإنه سوف يكون قادراً على تفسير السبب الأساسى لكون الأنغال عقيمة بهذا الشكل العام. وسوف يكون قادراً فى نفس الوقت على تفسير كيف حدث أن الأجناس الخاصة ببعض من حيواناتنا المدجنة ، التى قد تعرضت فى كثير من الأحيان إلى ظروف جديدة وغير متماثلة، هى خصيبة تماماً مع بعضها، بالرغم من أنها قد انحدرت من أنواع متباينة ، التى قد كان من المحتمل أن تصبح عقيمة إذا ما تهاجنت وهى فى حالتها الأرومية . والسلسلتان المتوازيتان من الحقائق التى سبق ذكرها ، يبدو وكأنهما مرتبطتان مع بعضهما بواسطة رباط شائع ولكنه غير معروف ، والذى هو مرتبط بشكل أساسى بالمبدأ الخاص بالحياة ، وهذا المبدأ ، طبقاً "للسيد هيربرت سبنسر" ينص على أن الحياة قد تعتمد على ، أو تكمن فى، الفعل ورد الفعل المتواصل للقوى المختلفة ، التى ، كما هو الحال فى جميع أرجاء الطبيعة ، تميل دائماً فى اتجاه إحداث توازن ما ، عندما تضطرب هذه القابلية بشكل بسيط عن طريق أى تغيير ، فإن القوى الحيوية تزيد فى القوة .

ثنائية الشكل وثلثية الشكل التبادلى

من الممكن مناقشة هذا الموضوع هنا بشكل مختصر ، وسوف نجد أنه يلقى بعض الضوء على موضوع التنغيل . فالعديد من النباتات المختلفة التابعة إلى رتب متباينة تقدم اثنين من الأشكال ، التى تتواجد بأعداد متساوية تقريباً والتي لا تختلف فى أى شىء إلا فى أعضائها التوالدية ، وواحد من الأشكال لديه مدقة طويلة مع أسدية قصيرة ، والثانى لديه حبوب لقاح مختلفة فى الحجم . وفى النباتات الثلاثية الشكل فإنه يوجد هناك ثلاثة أشكال تختلف بالمثل فى الأطوال الخاصة بالمدقات والأسدية ، وفى الحجم واللون الخاصين بحبوب اللقاح ، وفى بعض النواحي الأخرى ، وكما أنه يوجد فى كل من الأشكال الثلاثة مجموعتان من الأسدية ، فإن الأشكال

الثلاثة تمتلك فيما بينها ستة مجاميع من الأسدية وثلاثة أنواع من المدقات . وهذه الأعضاء الجسدية متناسبة جداً فى الطول بالنسبة لبعضها الآخر ، إلى حد أن نصف عدد الأسدية الموجودة فى اثنين من الأشكال تنتصب على نفس المستوى مع الميسم الخاص بالشكل الثالث . ولما كذت قد بينت ، وهذه النتيجة قد تم تأكيدها بواسطة المراقبين الآخرين، أنه من أجل الحصول على خصوبة كاملة فى هذه النباتات، فإنه من الضرورى أن يكون الميسم الخاص بواحد من الأشكال قد تم تلقيحه بواسطة لقاح مأخوذ من الأسدية ذات الارتفاع المتماثل الموجودة فى شكل آخر. وبهذا الشكل ، فى الأنواع الثنائية الشكل فإنه يوجد اثنان من أنواع الاتحاد التى من الممكن تسميتها مقننة^(١)، هى تامة الخصوبة، واثنان من الأنواع التى من الممكن تسميتها غير مقننة^(٢)، وهى غير مخصبة تقريباً . وفى الأنواع الثلاثية الشكل فإنه يوجد ستة اتحادات مقننة ، أو تامة الخصوبة - واثنان عشر اتحاداً غير مقننة ، أو غير مخصبة تقريباً .

ومن الممكن مشاهدة انعدام الخصوبة فى العديد من النباتات الثنائية والثلاثية الشكل المختلفة عندما يتم تلقيحها بطريقة غير مقننة ، وهذا يعنى بواسطة لقاح مأخوذ من أسدية غير متماثلة فى الارتفاع مع المدقة ، وأنه يختلف كثيراً فى الدرجة ، إلى أن يصل الأمر إلى عقم كامل ومطلق ، بالضبط بنفس الطريقة التى تحدث عند تهجين الأنواع المتباينة . وبما أن درجة العقم فى الحالة الأخيرة تعتمد بدرجة بارزة على الظروف الحياتية فى كونها تقريباً مناسبة ، فإننى قد وجدتها كذلك فى الاتحادات الجنسية غير المقننة . ومن المعروف جيداً أنه إذا تم وضع اللقاح الخاص بنوع متباين على الميسم الخاص بزهرة ، ثم تم وضع اللقاح الخاص بها فيما بعد ، حتى بعد مدة طويلة من الزمن على نفس الميسم ، فإن تأثيره يكون متفوقاً بشكل قوى إلى درجة أنه عادة ما يبطل التأثير الخاص باللقاح الغريب ، وهذا هو الحال مع اللقاح الخاص بالأشكال العديدة التابعة لنفس النوع ، وذلك لأن اللقاح المقنن أقوى فاعلية عن اللقاح غير المقنن ، عندما يتم وضع كليهما على نفس الميسم . وقد تحققت من ذلك عن

Legitimate

Illegitimate

(١) مقنن = شرعى = قانونى صحيح

(٢) غير مقنن = غير شرعى = غير قانونى

طريق تلقيح العديد من الزهور المختلفة ، أولاً بطريقة غير مقننة ، وبعد أربع وعشرين ساعة بطريقة مقننة بواسطة اللقاح المأخوذ من ضرب ذى ألوان غريبة ، والذي حدث أن جميع النباتات الصغيرة الناتجة كانت ملونة بنفس الطريقة ، وهذا يبين أن اللقاح المقنن مع أنه قد تم وضعه بعد أربع وعشرين ساعة ، إلا أنه قد أهلك أو منع المفعول الخاص باللقاح غير المقنن الذى تم وضعه من قبل . ومرة أخرى ، وكما يحدث عندما يتم إجراء تهاجمات تبادلية^(١) بين الاثنين نفسيهما من الأنواع ، من أنه أحياناً ما يكون هناك اختلاف هائل فى النتيجة ، فإن الشيء نفسه يحدث فى النباتات الثلاثية الشكل ، وعلى سبيل المثال، فإن الشكل ذو قلم السمة المتوسط الطول، الخاص بنبات الحناء الملحية^(٢) قد تم تلقيحه بطريقة غير مقننة وذلك بأكبر قدر من السهولة بواسطة لقاح مأخوذ من البذور الأكثر طولاً الخاصة بالشكل ذى قلم السمة القصير، وقد أنتج الكثير من البنور ، ولكن الشكل الأخير لم ينتج بذرة واحدة عندما تم تلقيحه بواسطة الأسدية الأكثر طولاً الخاصة بالشكل ذى قلم السمة متوسط الطول .

وفى جميع هذه النقاط ، وفى النقاط الأخرى التى من الممكن أن تضاف ، فإن الأشكال الخاصة بالأنواع التى لا خلاف عليها عندما يتم اتحادها بشكل غير مقنن فإنها تتصرف بنفس الطريقة بالضبط كما يفعل اثنان من الأنواع المتباينة عندما تتهاجن مع بعضها . وقد قادنى هذا لأن أراقب بدقة فى خلال أربع سنوات العديد من النباتات الصغيرة ، التى تم استنباطها من العديد من الاتحادات غير المقننة المختلفة . والنتيجة الرئيسية كانت أن هذه النباتات غير المقننة ، كما يمكن أن يطلق عليها ، ليست خصيبة بشكل كامل . ومن الممكن أن ينبثق عن الأنواع الثنائية الشكل ، كل من النباتات ذات قلم سمة الطويل وذات قلم سمة القصير ، وعن النباتات الثلاثية الشكل ، جميع الأشكال غير المقننة الثلاثة . ومن المحتمل بعد ذلك أن تستطيع هذه الأشكال أن تتحد مع بعضها بطريقة مقننة . وعندما يحدث ذلك ، فإنه لن يكون هناك سبب واضح يمنعها من أن تنتج أى قدر كبير من البذور مثلما فعلت أبؤها عندما

Reciprocal crosses
Lythrum salicaria

(١) تهاجمات تبادلية *
(٢) نبات الحناء الملحية *

تلقحت بطريقة مقننة . ولكن الحال لم يكن كذلك . فإنها جميعاً كانت غير خصيبة ، وذلك بدرجات متفاوتة ، فالبعض منها كان عقيماً بشكل مطلق وغير قابل للشفاء ، إلى درجة أنها لم تنتج فى خلال أربعة مواسم بذرة واحدة أو حتى عليبة بنور واحدة . والعقم الخاص بهذه النباتات غير المقننة، عندما تتحد مع بعضها الآخر بطريقة مقننة من الممكن أن تتم مقارنته بشكل دقيق مع العقم الخاص بالأنغال عندما تتهاجن مع بعضها البعض . وعلى الجانب الآخر ، فإنه إذا ما تم تهجين نغل ما مع واحد من الأنواع الأبوية النقية ، فإن العقم من شأنه عادة أن يتناقص بشكل كبير ، وهذا هو الحال عندما يتم تلقيح أحد النباتات غير المقننة بواسطة نبات مقنن . وبنفس الطريقة التى تجعل العقم الخاص بالأنغال لا يجرى فى خط متواز مع الصعوبة فى إنجاز التهجين لأول مرة بين اثنين من الأنواع الأبوية ، فقد كان هو نفس الحال مع العقم الخاص بالنباتات غير المقننة الذى كان هائلاً بشكل غير معتاد ، بينما لم يكن العقم الخاص بالاتحاد الذى قاد إليها كبيراً بنى شكل من الأشكال . ودرجة العقم الموجودة فى الأنغال التى قد انبثقت من نفس عليبة البذور متفاوتة بشكل فطرى ، وهذا هو الحال بشك ملحوظ فى النباتات غير المقننة . وأخيراً ، فإن العديد من الأنغال تكون منتجة للأزهار^(١) بشكل غزير ومتواصل ، بينما أنغال أخرى وأكثر عقماً تنتج القليل من الزهور وتكون ضعيفة ومقرمة بشكل تعيس ، وحالات مماثلة بالضبط تحدث مع الذرية غير المقننة الخاصة بنباتات مختلفة ثنائية وثلاثية الشكل .

وفى مجموعه فإنه يوجد هناك أكثر تماثل ممكن فى الطبع والسلوك بين النباتات غير المقننة والأنغال . ومن الصعب اعتبارها مبالغة عندما نؤكد أن النباتات غير المقننة ماهى إلا أنغال ، ناتجة فى نطاق الحدود الخاصة بنفس النوع عن طريق اتحاد خاطئ بين ما يسمى بالأنواع المتباينة . وقد رأينا أيضاً بالفعل أنه يوجد هناك أقرب التماثل فى جميع الاعتبارات بين الاتحادات غير المقننة الأولى والتهاجنات الأولى التى تحدث بين الأنواع المتباينة . ومن المحتمل جعل هذا أكثر وضوحاً بشكل كامل عن

طريق ضرب مثال موضع ، فمن الممكن لنا أن نفترض أن أحد علماء النبات قد وجد اثنين من الضروب المشهورة (وهذا ما يحدث) التابعة للشكل ذى قلم السمة الطويل الخاص بنبات الحناء الملحية الثلاثى الأشكال ، وأنه قد قرر أن يجرى محاولة عن طريق تهجين المتباينين فيهما بشكل خاص . فإنه سوف يجد أنهما قد أنتجا حوالى الخمس فقط من العدد الصحيح من البذور ، وأنهما قد تصرفا فيما يتعلق بجميع الاعتبارات السابق تعيينها كما لو كانا اثنين من الأنواع المتباينة . ولكن لكى يجعل الحالة مؤكدة ، فإنه سوف يقوم بتربية نباتات ناتجة من البذرة المفترض أنه قد قام بتنغيلها ، وسوف يجد أن النباتات الصغيرة كانت مقزمة بشكل تعيس وعقيمة بشكل قاطع ، وأنها قد تصرفت فى جميع الاعتبارات الأخرى مثل الأنغال العادية. وقد يقوم عندئذ بالإصرار على أنه قد أثبت بالفعل ، بالتوافق مع الرأى الشائع ، أن الضربين الخاصين به كانا على نفس القدر من الصحة ومثل أى من الأنواع المتباينة الموجودة فى العالم ، ولكنه سوف يكون مخطئاً بشكل كامل.

والحقائق المقدمة الآن المنصبة على النباتات الثنائية والثلاثية الشكل مهمة ، وذلك لأنها تظهر لنا: أولاً ، أن الاختبار الوظيفى للأعضاء الخاص بانخفاض الخصوبة ، فى كل من التهاججات الأولى وفى الأنغال ، ليس معياراً آمناً ذا قدرة تمييزية خاصة ، وثانياً ، أنه من الممكن لنا أن نستنتج أنه يوجد هناك رباط غير معروف يربط بين عدم الخصوبة الخاصة بالاتحادات غير المقننة مع عدم الخصوبة الخاص بذريتها غير المقننة ، ونجد أنفسنا منقادين إلى بسط نفس هذه الوجهة من النظر إلى التهاججات الأولى والأنغال ، وثالثاً ، أننا نجد ، وهذا يبدو لى أنه ذو أهمية خاصة ، أن اثنين أو ثلاثة من الأشكال التابعة للنوع نفسه قد تكون موجودة وقد لا تكون مختلفة عن بعضها فى أى اعتبار أياً كان ، سواء فى التركيب أو فى البنية ، بالنسبة إلى الظروف الخارجية ، ومع ذلك فإنها تصبح عقيمة عندما تتحد مع بعضها بطرق معينة . وذلك لأننا يجب أن نتذكر أن الاتحاد بين العناصر الجنسية الخاصة بالأفراد التابعة لنفس الشكل ، على سبيل المثال ، لأشكال ذات قلم السمة الطويل ، هى التى تقود إلى العقم ، بينما الاتحاد بين العناصر الجنسية الصحيحة الخاصة باثنين من الأشكال المتباينة هو الذى يكون خصيباً . وبناء على ذلك فإن الحالة تبدو عند أول نظرة وكأنها العكس

بالضبط لما يحدث ، فى الاتحادات العادية الخاصة بالأفراد التابعة لنفس النوع ومع التهاجمات بين الأنواع المتباينة . ومع ذلك ، فإنه من المشكوك فيه إذا كان الأمر فى الحقيقة بهذا الشكل ، ولكنى لن أتوسع فى هذا الموضوع الغامض .

ومع ذلك ، فإنه من الممكن لنا أن نخمن ، على أساس أنه شىء محتمل ، نتيجة للاعتبارات الخاصة بالنباتات الثنائية والثلاثية الشكل ، أن العقم الخاص بالأنواع المتباينة عندما تتهاجن والخاص بنتاجها المنغل ، يعتمد بشكل تام على الطبيعة الخاصة بعناصرها الجنسية ، وليس على وجود أى اختلاف فى تركيبها أو بنيانها العام . ونحن نقاد أيضا إلى نفس هذا الاستنتاج عن طريق التأمل فى التهاجمات المتبادلة ، والتي لا يستطيع فيها الذكر الخاص بواحد من الأنواع أن يتحد ، أو أنه يستطيع أن يتحد بصعوبة كبيرة ، مع الأنثى الخاصة بنوع آخر ، بينما يمكن إحداث التهاجن المعكوس بسهولة تامة . وهذا المراقب الممتاز "جارتنر" قد استنتج بالمثل أنه عندما تتهاجن الأنواع فإنها تصبح عقيمة نتيجة لوجود اختلافات مقصورة على أجهزتها التوالدية .

الخصوبة الخاصة بالضروب عندما تتهاجن . والخاصة بذريتها

الخلاسية^(١) ، ليست عامة

من الممكن الإصرار على نتيجة لجدال ساحق ، أنه لا بد من وجود بعض التمييز الأساسى بين الأنواع والضروب ، نظراً لأن الأخيرة ، مهما تكن شديدة الاختلاف عن بعضها الآخر فى المظهر الخارجى ، إلا أنها تتهاجن بسهولة تامة ، وتنتج ذرية كاملة الخصوبة . ومع وجود بعض الاستثناءات ، التى سوف يتم تقديمها الآن ، فأنا أعترف بشكل كامل بأن هذه هى القاعدة . ولكن الموضوع محاط بالصعوبات ، وذلك لأنه بالنظر إلى الضروب التى قد تم إنتاجها تحت تأثير الطبيعة ، فإنه إذا

ما وجد أن اثنين من الأشكال التي تشتهر حتى الآن بأنها ضروب عقيمة مع بعضها إلى أى درجة ، فإنها تصنف على الفور عن طريق معظم خبراء التاريخ الطبيعى على أساس أنها أنواع . وعلى سبيل المثال ، فإن نباتات كزبرة الثعلب الزرقاء والحمراء ، التي يتم اعتبارها بواسطة معظم علماء النبات على أساس أنها ضروب ، فإن "جارتتر" يقول عنها إنها عقيمة تماماً عندما تتهاجن ، وبالتالي فإنه قد قام بتصنيفها على أساس أنها أنواع غير مشكوك فى أمرها . وإذا ما عقدنا دائرة للمناقشة فى هذا الموضوع ، فإنه سوف يكون من المحتم بالتأكيد التسليم بالخصوبة الخاصة بجميع الضروب الناتجة تحت تأثير الطبيعة .

وإذا التفتنا إلى الضروب الناتجة ، أو المفترض أنه قد تم إنتاجها ، تحت تأثير التدجين ، فإننا نجد أنفسنا مازلتا محاطين ببعض الشك . وذلك لأنه عندما يقال مثلاً إن بعض الكلاب الداجنة الأصيلة الاستيطان فى أمريكا الجنوبية لا تتحد بسهولة مع الكلاب الأوروبية ، فإن التفسير الذى سوف يطرأ إلى كل فرد ، ومن المحتمل أنه التفسير الصحيح ، هو أنها قد انحدرت عن أنواع أرومية متباينة . وبالرغم من أن الخصوبة المثالية الخاصة بهذا العدد الكبير من الأعراق الداجنة ، التي تختلف بشكل عريض عن بعضها الآخر فى المظهر ، وعلى سبيل المثال هذه الأعراق الخاصة بالحمام ، أو الخاصة بنبات الكرنب ، وهى حقيقة واضحة ، وبالأخص عندما نقلب الفكر فى العدد الكبير من الأنواع الموجودة هناك ، والتي بالرغم من أنها تماثل بعضها بعضاً بشكل حميم إلى أقصى حد ، إلا أنها جميعها تصبح عقيمة عندما تتعرض لتهجين متبادل . ومع ذلك ، فإنه يوجد العديد من الاعتبارات التي تجعل الخصوبة الخاصة بالضروب الداجنة أقل جدارة بالملاحظة . ففى المكان الأول ، فإنه من الممكن أن يلاحظ أن كمية الاختلافات الخارجية الموجودة بين اثنين من الأنواع لا تمثل دليلاً مؤكداً على درجة العمق المتبادل التي قد وصل إليها ، وبهذا الشكل فإن الاختلافات الماثلة فى الحالة الخاصة بالضروب سوف لن تكون دليلاً مؤكداً . ولكنه من المؤكد أنه فى حالة الأنواع فإن السبب يقع بشكل تام على عاتق الاختلافات الموجودة فى بنائها الجيسى . والآن فإن الظروف المتغيرة التي قد تعرضت لها الحيوانات المدجنة والنباتات المستزرعة ، قد كان لها مثل هذا القدر القليل من الميل فى اتجاه تعديل الجهاز التوالدى بطريقة

تؤدى إلى العقم المتبادل ، إلى حد أن لدينا دوافع قوية للاعتراف بالمذهب المضاد مباشرة الخاص "بيالاس" Pallas ، القائل بأن مثل هذه الظروف تزيل عادة هذه القابلية ، وبهذا الشكل فإن الذرارى المدجنة الخاصة بالأنواع ، التى من المحتمل أنها قد كانت فى حالتها الطبيعية عقيمة بدرجة ما عندما تتهاجن ، فإنها قد أصبحت خصيبة تماماً فيما بينها . أما فيما يتعلق بالنباتات ، فإنه بما أن الاستزراع يؤدى إلى قابلية فى اتجاه العقم بين الأنواع المتباينة ، فإن بعض النباتات المعينة فى العديد من الحالات الجيدة التوثيق التى سبق الإشارة إليها بالفعل ، قد تم التأثير عليها بطريقة مضادة تماما ، وذلك لأنها قد أصبحت عقيمة ذاتياً^(١) فى الوقت نفسه الذى مازالت تحتفظ فيه بالقدرة على أن تقوم بالتلقيح وعلى أن يتم تلقيحها بواسطة أنواع أخرى . وإذا ما تم الاعتراف بالمذهب "البالاسى" الخاص بالتخلص من العقم من خلال التدجين المستمر لمدة طويلة ، وهو مبدأ من الصعب نبذه ، فإنه يصبح من غير المحتمل لأعلى درجة أن ظروفًا مماثلة مستمرة لمدة طويلة قد تنجح بالمثل فى إدخال هذه القابلية ، بالرغم من أنه فى بعض الحالات المعينة ، الخاصة بالأنواع التى تمتاز ببنية غريبة ، فإنه من الممكن فى بعض الأحيان أن ينتج العقم بهذا الشكل . وهكذا وكما أعتقد ، فإننا نستطيع أن نفهم لماذا لم يتم مع الحيوانات المدجنة إنتاج ضروب متبادلة العقم ، ولماذا عندما يتعلق الأمر بالنباتات فإنه لم تتم مشاهدة إلا حالات قليلة فقط من هذا القبيل ، التى من الممكن تقديمها على الفور .

والصعوبة الحقيقية فى موضوعنا الحالى ليست هى ، كما يبدو لى ، لماذا لم تصبح الضروب الداجنة عقيمة بشكل متبادل عندما تتهاجن ، ولكن لماذا حدث ذلك بمثل هذا الشيوخ مع الضروب الطبيعية ، بمجرد أن يتم تعديلها بشكل دائم إلى درجة كافية لى تصل إلى توصيفها كأنواع . ونحن أبعد ما نكون عن الإلمام الدقيق بالسبب ، وليس هذا من المثير للدهشة ، عندما نرى إلى أى مدى نحن فى جهالة مطبقة فيما يتعلق بالأداء الطبيعى وغير الطبيعى للجهاز التوالدى . ولكننا نستطيع أن نرى أن الأنواع ، نتيجة لصراعها من أجل البقاء على قيد الحياة مع عدد كبير من الأنواع المنافسة ،

سوف تكون قد تعرضت فى خلال فترات طويلة من الزمن ، إلى ظروف أكثر اتساقاً ، عما تعرضت إليه الضروب الداجنة ، ومن المحتمل أن هذا كان من شأنه أن يسبب اختلافاً عريضاً فى النتيجة . ولأننا نعلم مدى شيوع حدوث العقم بين الحيوانات والنباتات غير الداجنة ، عندما يتم انتزاعها من ظروفها الطبيعية وتعرض للأسر ، فمن المحتمل أن الوظائف التوالدية الخاصة بالكائنات العضوية التى كانت تعيش دائماً تحت تأثير الظروف الطبيعية ، سوف تكون بنفس الطريقة ، حساسة بدرجة بارزة من التأثير الناتج عن أى تهاجن غير طبيعى . وعلى الجانب الآخر ، فإن المنتجات المدجنة ، التى كما يظهر من مجرد الحقيقة المتعلقة بإتمام تدجينها ، لم تكن فى الأصل عالية الحساسية للتغيرات التى تحدث فى ظروفها الحياتية ، والتى بإمكانها الآن فى العادة أن تقاوم بدون انخفاض فى الخصوبة التغيرات المتكررة فى الظروف ، فإنه قد يكون من المتوقع منها إنتاج ضروب ، تكون قابلة بشكل قليل لحدوث تأثير ضار على قدراتها التوالدية ، ويكون ناتجاً عن تأثير عملية التهاجن مع الضروب الأخرى ، التى كانت قد نشأت بنفس الطريقة .

وأنا لم أتحدث إلى الآن عما إذا كانت الضروب التابعة لنفس النوع خصيبة بشكل ثابت عندما تتهاجن بشكل متبادل . ولكنه من المستحيل مقاومة الدليل على وجود كمية معينة من العقم فى الحالات القليلة القادمة ، التى سوف أقوم بتلخيصها باختصار . وهذا الدليل هو على الأقل على نفس القدر من أهمية الدليل الذى نستمد منه إيماننا بالعقم الخاص بعدد كبير من الأنواع . وفى نفس الوقت فإن هذا الدليل مستمد من شهود معارضين ، وهم الذين يعتبرون ، فى جميع الحالات الأخرى ، أن الخصوبة والعقم من المعايير الأمانة الخاصة بالتمييز الدقيق . وقد احتفظ "جارتنر" فى خلال سنوات عديدة بأحد الأصناف المقزمة من الذرة له بذور صفراء ، وضرباً طويلاً له بذور حمراء ، وكلاهما كان ينمو بجوار الآخر فى حديقته ، وبالرغم من أن هذه النباتات لديها عناصر جنسية منفصلة ، إلا إنها لم تتهاجن فيما بينها بشكل طبيعى . وقد قام بعد ذلك بتلقيح ثلاث عشرة زهرة تابعة لأحد الأصناف بلقاح خاص بالآخر ، ولكن رأساً مزهراً واحداً فقط هو الذى استطاع أن ينتج أى بذور ، وهذا الرأس لم ينتج إلا خمس حبوب فقط . ولم يكن ذلك لأن المعالجات اليدوية التى قد تمت فى

هذه الحالة كانت مؤذية، وذلك لأن النباتات كانت لديها عناصر جنسية منفصلة . وأنا أعتقد أنه لا يوجد أحد قد ساوره الشك في أن هذه الضروب التابعة للذرة هي أنواع متباينة، وأنه لمن المهم ملاحظة أن النباتات المنغلة التي قد تمت تربيتها بهذا الشكل كانت هي نفسها مكتملة الخصوية ، وبهذا الشكل فإنه حتى "جارتتر" لم يغامر بأن يقوم باعتبار هذين الضربين على أساس أنهما متباينان على وجه التخصيص .

وقد قام "جيرو دي بوزار ينجس" Girou de Buzareingues بتجهين ثلاثة ضروب من نبات القرع^(١) ، الذي يمتاز مثل نبات الذرة بأن لديه عنصرين جنسيين منفصلين ، وهو يؤكد أن تلاحقهما المتبادل بالقدر نفسه من السهولة كالقدر الكبير من الاختلاف الموجود بينهما . وأنا لا أعلم إلى أي مدى يمكن الوثوق بهذه التجارب ، ولكن الأشكال التي تم إجراء التجارب عليها قد تم تصنيفها بواسطة "ساجريرت" Sageret ، الذي يبني تقسيمه بشكل رئيسي عن طريق الاختبار الخاص بعدم الخصوية ، على أساس أنها ضروب ، وقد توصل "نودين" Naudin إلى الاستنتاج نفسه .

والحالة التالية جديرة بالملاحظة بشكل أكبر بكثير ، وتبدو لأول وهلة أنها غير قابلة للتصديق ، ولكنها النتيجة المستخلصة من عدد مدهش من التجارب التي قد أجريت، خلال العديد من السنوات على تسعة أنواع خاصة بنبات أذان العير^(٢) ، وعن طريق مثل هذا المراقب الجيد ومثل هذا الشاهد المعادي الذي هو "جارتتر" : وهي بالتحديد ، أن الضروب الصفراء والبيضاء عندما تتهاجن فإنها تنتج بذوراً أقل من الضروب ذات الألوان المماثلة التابعة لنفس النوع . والأكثر من ذلك ، فهو يؤكد أنه عندما تتهاجن ضروب صفراء وبيضاء تابعة لأحد الأنواع مع ضروب صفراء وبيضاء تابعة لنوع متباين ، فإن بذوراً أكثر يتم إنتاجها عن طريق التهاججات التي تحدث بين الزهور المتماثلة اللون ، عما يتم إنتاجه من بين تلك الزهور المختلفة في اللون . وقد قام أيضا " السيد سكوت" Mr. Scott بتجارب على الأنواع والضروب التابعة لنبات أذان

Gourd

Verbascum

(١) نبات القرع = اليقطين

(٢) نبات أذان العير = أذان الرب = البوصير - لبيدة

العير ، وبالرغم من عدم قدرته على تأكيد النتائج التي توصل إليها "جارتنر" المتعلقة بتهجين الأنواع المتباينة ، إلا أنه وجد أن الضروب غير المتماثلة فى اللون التابعة لنفس النوع تنتج بذوراً أقل ، بنسبة من ٨٦ إلى ١٠٠ ، من الضروب المتماثلة فى اللون . ومع ذلك فإن هذه الضروب لا تختلف فى أى اعتبار فيما عدا اللون الخاص بزهورها ، ومن الممكن أحياناً استنباط أحد الضروب من البذرة الخاصة بضرب آخر .

وقد أثبت "كولرويتر" ، الذى قد تم التأكد من دقته عن طريق كل مراقب جاء بعده ، الحقيقة الرائعة التى توضح أن أحد الضروب المعينة التابعة لنبات التبغ الشائع كان أكثر خصوبة من الضروب الأخرى ، عندما تم تهجينه مع نوع عريض التباين عنه . وهو قد أجرى تجاربه على خمسة أشكال من المشهور عنها بشكل شائع أنها ضروب ، والتى قد قام باختبارها عن طريق أقصى التجارب ، ألا وهى ، التهاجئات التبادلية ، وقد وجد أن نريتها الخلاسية خصيبة بشكل كامل. ولكن واحداً من هذه الضروب الخمسة ، عندما تم استخدامه سواء بصفته الأب أو الأم ، وتم تهجينه مع نبات التبغ الغروى^(١) ، فإنه كان ينتج دائماً أنغالاً ليست على نفس الدرجة من العقم مثل هذه التى تم إنتاجها من الأربعة ضروب الأخرى عندما تم تهجينها مع نبات التبغ الغروى. وبناء على ذلك فإن الجهاز التوالدى الخاص بهذا الضرب الواحد بالذات من المحتم أنه كان قد تم تعديله بشكل من الأشكال وبدرجة من الدرجات .

والمستخلص من هذه الحقائق أنه من غير المستطاع الاستمرار فى الإصرار على أنه عندما يتم تهجين الضروب فإنها تكون خصيبة تماماً بشكل ثابت . بناء على الصعوبة الشديدة الخاصة بالتأكد من عدم خصوبة الضروب فى البيئة الطبيعية ، فإن أى ضرب مفترض، إذا ثبت عنه انعدام الخصوبة بأى درجة ، فإنه سوف يصنف فى الحال وبشكل شائع على أساس أنه نوع ، - ونتيجة لأن الإنسان ينتبه فقط إلى الصفات الخارجية الموجودة فى الضروب الداخلة الخاصة به ، ونتيجة لأن مثل هذه الضروب

Nicotiana glutinosa

(١) نبات التبغ الغروى = دخان = تمباك

لم يتم تعرضها لفترات طويلة جداً إلى ظروف حياتية متناسقة - فنتيجة لهذه الاعتبارات العديدة المختلفة ، فإنه من الممكن لنا أن نستنتج أن الخصوبة لا تشكل قاعدة للتمييز الجوهرى بين الضروب والأنواع عندما يتم تهجينها . وأن العقم العام الخاص بالأنواع المهجنة ، من الممكن أن ينظر إليه بأمان ، ليس على أساس أنه اكتساب خاص أو منحة خاصة ، ولكن على أساس أنه شىء عارض على تغييرات ذات طبيعة مجهولة موجودة فى عناصرها الجنسية .

مقارنة الأنغال والأخلاس بشكل مستقل عن الخصوبة الخاصة بهما

بشكل مستقل عن التساؤل الخاص بالخصوبة ، فإن الذرية الخاصة بالأنواع والخاصة بالضروب عندما يتم تهجينها ، من الممكن أن تتم مقارنتها من نواح عديدة أخرى . وقد استطاع "جارتنر" ، الذى كان أقصى ما يتمناه هو رسم خط فاصل بين الأنواع والضروب ، أن يجد القليل جداً من هذه النواحي ، وكما يبدو لى ، فإنه قد وجد اختلافات غير مهمة إطلاقاً موجودة بين ما يسمى بالذرية المنفلة الخاصة بالأنواع ، وما يسمى بالذرية الخلاسية الخاصة بالضروب . وعلى الجانب الآخر ، فإنهما يتفقان مع بعضهما بشكل حميم جداً فى العديد من النواحي المهمة .

وسوف أ طرح هنا هذا الموضوع للمناقشة باختصار متناه . فإن أكثر نقاط التمييز أهمية هى : أنه فى الجيل الأول ، فإن الأخلاس تكون أكثر تمايزاً من الأنغال ، ولكن "جارتنر" يعترف بأن الأنغال الناتجة عن الأنواع التى قد تم استزراعها لفترة طويلة من الزمن هى غالباً ما تكون قابلة للتمايز فى الجيل الأول ، وأنا قد شاهدت بنفسى أمثلة لافتة للنظر على هذه الحقيقة . ويستطرد "جارتنر" فى الاعتراف بأن الأنغال المحصورة بين الأنواع الحميمة القرابة جداً أكثر قابلية للتمايز عن تلك الناتجة عن الأنواع الشديدة التباين ، وهذا يبين أن الاختلاف فى الدرجة الخاصة بالقابلية للتمايز يتدرج نحو الزوال . وعندما يتم الإكثار من الأخلاس ومن الأنغال الأكثر خصوبة لأجيال عديدة ، فإنه من الغريب أن ينتج عن ذلك كمية مفرطة من القابلية

للتمايز فى الذرية الناتجة من كلتا الحالتين ، ولكن من الممكن تقديم بعض الأمثلة القليلة الخاصة بكل من الأنغال والأخلاس التى قد احتفظت لفترة طويلة من الزمن بطابع متناسق . ومع ذلك فمن المحتمل أن القابلية للتمايز الموجودة فى الأجيال المتعاقبة من الأخلاس أكبر من تلك الموجودة فى الأنغال .

وهذه القابلية للتمايز الزائدة فى الأخلاس عنها فى الأنغال لا يبدو أنها شىء مذهل بأى حال من الأحوال . وذلك لأن آباء الأخلاس هى فى الأصل ضروب ، وفى الغالب هى ضروب داجنة (القليل جداً من التجارب قد تم إجراؤها على ضروب طبيعية) ، وهو يوحى بأنه كانت هناك قابلية حديثة العهد للتمايز ، والتي كانت تستمر فى الغالب وكانت سوف تزيد من هذه القابلية الناتجة من صنع التهجين . والقابلية البسيطة للتمايز الخاصة بالأنغال فى الجيل الأول ، بالمقارنة مع هذه القابلية فى الأجيال التالية ، هى حقيقة غريبة وتستحق الانتباه . وذلك لأنها تتواكب مع وجهة النظر التى قد قمت باتباعها كواحد من الأسباب الخاصة بالقابلية العادية للتمايز، وهى بالتحديد ، أن الجهاز التوالدى نتيجة لكونه حساساً بشكل واضح إلى ظروف الحياة المتغيرة ، إلا أنه يفشل تحت ضغط هذه الظروف فى القيام بوظيفته الصحيحة الخاصة بإنتاج ذرية مماثلة بشكل حميم فى جميع الجوانب للشكل الأبوى . وهكذا فإن الأنغال فى الجيل الأول قد انحدرت من الأنواع (باستثناء تلك التى قد تم استزراعها لفترة طويلة) التى لم يتم التأثير على أجهزتها التوالدية بأى طريقة ، والتي ليست قابلة للتمايز ، ولكن الأنغال نفسها قد حدث لهم تأثير خطير على أجهزتها التوالدية ، وذراريها قابلة للتمايز بدرجة عالية .

ولكن لكى نعود إلى مقارنتنا بين الأخلاس والأنغال : فإن "جارتتر" يقرر أن الأخلاس أكثر عرضة من الأنغال للارتداد إلى أى من أشكالها الأبوية ، ولكن إذا كان هذا حقيقياً ، فمن المؤكد أنه مجرد اختلاف فى الدرجة فقط . والأكثر من ذلك أن "جارتتر" يقرر بوضوح أن الأنغال الناتجة عن نباتات مستزرعة منذ مدة طويلة أكثر عرضة للارتداد عن الأنغال الناتجة من أنواع تعيش فى بيئتها الطبيعية ، ومن المحتمل أن هذا يفسر الفرق الوحيد فى النتائج التى قد تم التوصل إليها عن

طريق مراقبين مختلفين : وبهذا الشكل فإن "ماكس ويتشورا" Max Wichura يساوره الشك فيما إذا كانت الأنغال قد تردت على الإطلاق إلى أشكالها الأبوية ، وهو الذى قد قام بتجارب على أنواع مستزرعة من أشجار الصفصاف . بينما على الوجه الآخر ، نجد أن "تودين" Naudin ، يصر بأقوى العبارات على القابلية العامة تقريباً للارتداد فى الأنغال ، وهو قد قام بأبحاثه بشكل أساسى على النباتات المستزرعة . ويستمر "جارتتر" فى القول بأنه عندما يتهاجن اثنان من الأنواع ، بالرغم من كونهما على أقصى درجات القرابة الحميمة لبعضهما ، بينما إذا ما تهاجن اثنان من الصروب المتباينة عن بعضها بشكل كبير ، مع نوع آخر ، مع نوع ثالث ، فإن الأنغال الناتجة تكون مختلفة بشكل عريض عن بعضها الآخر ، فإن الأنغال الناتجة لا تختلف كثيراً فيما بينها . ولكن على حسب مقدرتى على الفهم ، فإن هذا الاستنتاج مبنى على تجربة واحدة ، ويبدو أنه مضاد مباشرة لنتائج التجارب العديدة التى قام بإجرائها "كولرويتتر" .

وهذه فقط هى الاختلافات غير المهمة الموجودة بين النباتات المنغلة والخلاسية التى استطاع "جارتتر" أن يشير إليها . وعلى الجانب الآخر ، فإن الدرجات والأوجه الخاصة بالتماثل الموجودة فى الأخلاس وفى الأنغال تجاه الوالدين الخاصين بكل منهما ، وعلى الأخص الموجودة فى الأنغال الناتجة عن الأنواع ذات القرابة الحميمة ، فإنها تتبع ، طبقاً "لجارتتر" ، نفس القوانين . وعندما يحدث تهاجن بين اثنين من الأنواع ، فإن أحدهما أحياناً يكون لديه قدرة استثنائية على فرض مشابهته على الأنغال . وأنا أعتقد أن هذا هو الحال مع الصروب الخاصة بالنباتات ، والشئ المؤكد فى الحيوانات أن أحد الصروب غالباً ما يكون لديه هذه القدرة الاستثنائية بشكل يفوق ما لدى ضرب آخر . وأنغال النباتات الناتجة عن أى تهاجن تبادلى ، تماثل فى العادة بعضها البعض بشكل حميم ، وهذا هو نفس الحال مع أخلاس النباتات الناتجة عن أحد التهاججات التبادلية . ومن الممكن إعادة كل من الأنغال والأخلاس إلى أى من الشكل الأبوى الخاص بهما ، عن طريق تهاججات متكررة فى خلال أجيال متتالية مع أحد هذه الآباء .

ويبدو أن هذه الملاحظات العديدة تنطبق أيضاً على الحيوانات ، ولكن الموضوع يكون هنا أكثر تعقيداً ، وذلك جزئياً نتيجة لوجود الصفات الجنسية الثانوية ، ولكنه بالأخص نتيجة القدرة الاستثنائية الموجودة لنقل المشابهة التى تجرى بشكل أقوى فى

أحد العناصر الجنسية منها في العنصر الجنسي الآخر، في كل من حالات التهجين لأحد الأنواع مع نوع آخر ، وعندما يتم تهجين أحد الضروب مع ضرب آخر . وعلى سبيل المثال ، فأنا أظن أن هؤلاء الخبراء على حق عندما يصرون على أن الحمار لديه قدرة استثنائية أكبر مما لدى الحصان وبهذا الشكل فإن كلا من البغل والشياسي^(١) يماثلان بشكل حميم الحمار أكثر من مماثلتهما للحصان ، ولكن هذه القدرة الاستثنائية تجرى بشكل أقوى في ذكر الحمار عما هي عليه في أنثاه ، وبهذا الشكل فإن البغل ، الذي هو الذرية الناتجة عن ذكر حمار ومهرة ، هو أكثر مشابهة للحمار عن النغل الشياسي ، الذي هو ذرية ناتجة عن حمارة أنثى وحصان ذكر .

تم وضع تأكيد كبير بواسطة بعض الباحثين على الحقيقة المفترضة الخاصة بأن الذرية لا تكون متوسطة في الطابع إلا مع الأخلاس فقط ، ولكنها تماثل بشكل حميم واحداً من والديها ، ولكن هذا يحدث في بعض الأحيان مع الأنغال، ومع ذلك فإنني أؤكد أن هذا يحدث بشكل أقل تكراراً بكثير عما يحدث مع الأخلاس . وبالنظر إلى الحالات التي قد قمت بجمعها من الحيوانات المهجنة التي تماثل بشكل حميم واحداً من الوالدين ، فإنه يبدو أن هذه التماثلات مقصورة بشكل أساسي على صفات هي تقريباً شاذة في طبيعتها ، والتي قد ظهرت فجأة - مثل المهق^(٢) والسفع^(٣) ، والنقصان في الذيل أو القرون ، أو أصابع اليدين والقدمين الإضافية - وأنها ليست متعلقة بالصفات التي قد تم اكتسابها ببطء من خلال الانتقاء. وكذلك فإنه من المرجح جداً مع الأخلاس أن تظهر عليها قابلية ما إلى الارتدادات الفجائية إلى الطابع المثالي الخاص بأى من الوالدين ، اللذين قد انحدرنا عن ضروب غالباً ما كانت قد نتجت فجأة ، علاوة على أنها تكون شبيهة شاذة في الطبع ، وذلك بشكل أكثر من ظهورها مع الأنغال ، التي قد انحدرت عن أنواع قد نتجت بشكل بطيء وبطريقة طبيعية . وفي المجموع ، فأنا أتفق تماماً مع "الدكتور بروسبر لوكاس" Dr. Prosper Lucas ، الذي بعد أن قام

Hinny
Albinism
Melanism

(١) الشياسي : نغل صغير الحجم ناتج عن حصان ذكر وإتان
(٢) المهق : بياض أو فقد صبغة البشرة
(٣) السفع : قتامة البشرة

بترتيب مجموعة هائلة من الحقائق التي تتعلق بالحيوانات ، قد توصل إلى الاستنتاج بأن القوانين الخاصة بالتشابه الموجود بين الطفل ووالديه هي على وتيرة واحدة ، حتى ولو اختلف كل من الوالدين عن بعضهما الآخر بشكل قليل أو كبير ، وبالتحديد ، فيما يتعلق بالاتحاد الخاص بالأفراد التابعة لنفس الضرب أو التابعة لضروب مختلفة ، أو التابعة لأنواع متباينة .

وبشكل مستقل عن السؤال الخاص بالخصوبة والعقم ، وفي جميع الاعتبارات الأخرى ، فيبدو أن هناك تماثلاً عاماً وحميماً في الذرية الخاصة بالأنواع المهجنة ، والخاصة بالضروب المهجنة . وإذا نحن نظرنا إلى الأنواع على أساس أنها قد خلقت بشكل خاص وإلى الضروب على أساس أنها قد نتجت عن طريق قوانين ثانوية ، فإن من شأن هذا التماثل أن يكون حقيقة مذهلة . ولكنها تتوافق تماماً مع وجهة النظر القائلة بأنه لا يوجد هناك اختلاف جوهري بين الأنواع والضروب .

ملخص

الهجائن الأولى الناتجة عن الأشكال ، المتباينة بشكل كاف إلى درجة تصنيفها كأنواع ، مع أنغالها ، هي بشكل عام جداً ، ولكن ليس بشكل كلى ، عقيمة . والعقم هو على جميع الدرجات ، وغالباً ما يكون على قدر كبير من البساطة إلى درجة أن أكثر التجريبيين دقة قد توصلوا إلى استنتاجات متناقضة تماماً فيما يتعلق بتصنيف الأشكال الحية عن طريق هذا الاختبار . والعقم شيء متغاير بشكل فطري متأصل في الأفراد التابعة لنفس النوع ، وهو سريع التأثير بشكل بارز بمفعول الظروف المواتية وغير المواتية . والدرجة الخاصة بالعقم لا تتبع بشكل صارم الصلة التصنيفية ، ولكنها محكومة بواسطة العديد من القوانين الغريبة والمعقدة . وهو عادة ما يكون مختلفاً ، وفي بعض الأحيان يختلف بشكل عريض في التهاجات التبادلية التي تتم بين نفس النوعين . وهو ليس متساوياً دائماً في الدرجة في التهجين الأول وفي الأنغال الناتجة عن هذا التهجين .

وبنفس الطريقة التي يتم بها تطعيم الأشجار ، فإن القابلية الموجودة فى أحد الأنواع أو الضروب لكى يتم تقبله على نوع أو ضرب آخر هى شىء عارض على اختلافات من المعتاد أنها ذات طبيعة مجهولة موجودة فى أجهزتها الخاصة بالنمو ، وكذلك هو الحال فى التهاجن ، فإن السهولة الأكبر أو الأقل الموجودة لدى أحد الأنواع لكى يتحد مع نوع آخر هى شىء عارض على اختلافات مجهولة فى أجهزتها التوالدية . ولا يوجد هناك سبب أكثر من ذلك لكى نظن أن الأنواع قد تم شمولها بشكل خاص بدرجات مختلفة من العقم وذلك بغرض منع تهاجنها وامتزاجها فى الطبيعة ، إلا أن نظن أن الأشجار قد تم شمولها بدرجات مختلفة ومتماثلة بشكل ما من الصعوبة فى إتمام تطعيم بعضها على الآخر ، وذلك بغرض منع تشابك أغصانها فى الغابات .

والعقم الخاص بالتهاجنات الأولى والخاص بالأنغال من ذريتها لم يتم اكتسابه من خلال الانتقاء الطبيعى . وفى حالة التهاجنات الأولى فإنه يبدو أنه يعتمد على ظروف مختلفة ، وفى بعض الحالات فإن جزءاً رئيسياً منه يعتمد على الوفاة المبكرة للجنين . وفى حالة الأنغال ، فمن الواضح أنه يعتمد على حدوث ارتباك فى تعاضيتها الكلية وذلك لكونها مؤلفة من اثنين من الأشكال الحية المتباينة ، والعقم يكون حميم القرابة لهذا الارتباك الذى يؤثر بشكل متكرر على الأنواع النقية ، عندما تتعرض إلى ظروف حياتية جديدة وغير طبيعية . والإنسان الذى قد يستطيع أن يفسر هذه الحالات سوف يكون قادراً على تفسير العقم الخاص بالأنغال . وهذه الوجهة من النظر تلقى دعماً قوياً عن طريق توازن من نوعية مختلفة ، ألا وهو : أنه فى المقام الأول ، أن التغيرات البسيطة التى تحدث فى الظروف الخاصة للحياة تزيد من الحيوية والخصوبة الخاصة بجميع الكائنات العضوية ، وفى المقام الثانى ، أن التهاجن الخاص بالأشكال الحية ، التى تكون قد تعرضت إلى ظروف حياتية مختلفة بشكل بسيط أو التى قد تمايزت سوف يدعم الحجم والحيوية والخصوبة الخاصة بذريتها . والحقائق التى قد تم تقديمها عن العقم الخاص بالاتحادات غير المقننة الخاصة بالنباتات الثنائية والثلاثية الأشكال ولذريتها غير المقننة ، قد تجعل من المحتمل أن يتم تكوين رابطة مجهولة ما

بين جميع الحالات تربط درجة الخصوبة الخاصة بالاتحادات الأولى مع تلك الخاصة بذريتها - والتفكير فى تلك الحقائق المتعلقة بتثنى الشكل ، علاوة على النتائج الخاصة بالتهاجنات التبادلية ، يودى بشكل واضح إلى الاستنتاج بأن السبب الأولى الخاص بالعقم الخاص بالأنواع المهجنة مقصور على الاختلافات الموجودة فى عناصرها الجنسية ، ولكن ما السبب فى حالة الأنواع المتباينة ، فى أن تصبح العناصر الجنسية معدلة تقريباً بهذا الشكل العام ، مما يودى إلى عدم خصوبتها المتبادل ، فإن ذلك هو ما لا نعرفه ، ولكن يبدو أن هذا على علاقة وثيقة بالأنواع التى قد تعرضت لفترات طويلة من الزمن إلى ظروف حياتية متناسقة تقريباً .

وليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن الصعوبة الموجودة فى تهجين أى اثنين من الأنواع ، وأن العقم الخاص بذريتهما المنغلة ، يجب فى معظم الحالات أن يتطابق ، حتى إذا كان ذلك نتيجة لأسباب متباينة : وذلك لأن كليهما يعتمد على كمية الاختلافات الموجودة بين الأنواع التى قد تهاجنت . وهذا الشئ ليس مثيراً للدهشة أن السهولة فى إحداث أول تهاجن ، والخصوبة الخاصة بالأنغال التى قد تم إنتاجها بهذا الشكل ، والقدرة على أن يتم تطعيمها معاً - بالرغم من أن هذه القدرة الأخيرة من المؤكد أنها تعتمد على ظروف مختلفة بشكل عريض - يجب عليها جميعاً أن تجرى ، إلى حد ما ، فى خط متواز مع الصلة التصنيفية الخاصة بالأشكال الحية التى قد تعرضت للتجربة ، وذلك لأن الصلة التصنيفية تتضمن تماثلات من جميع الأصناف.

التهاجنات الأولى بين الأشكال الحية المعروف عنها أنها ضروب ، أو هى متشابهة بدرجة تكفى لكى تعتبر كضروب ، وذريتها الخلاسية ، هى بشكل عام جداً خصيبة ، ولكن ذلك ليس بشكل ثابت كما يتم إعلانه فى كثير من الأحيان . وهذه الخصوبة العامة والمثالية تقريباً ليست مثيرة للدهشة ، عندما نتذكر إلى أى حد نحن معرضون لأن نعقد دائرة جدال فيما يتعلق بالضروب الموجودة فى البيئة الطبيعية ، وعندما نتذكر أن العدد الأكبر من الضروب قد تم إنتاجه تحت تأثير التدجين عن طريق الانتقاء لمجرد الاختلافات الخارجية ، وأنها لم تتعرض بعد لمدة طويلة من الظروف الحياتية المتناسقة.

ومن الضروري أيضاً أن نتذكر دائماً ، أن التدجين المستمر لمدة طويلة يميل إلى استبعاد العقم ، وهو بهذا الشكل قليل الاحتمال لأن يسبب نفس هذه الصفة . وبشكل مستقل عن موضوع الخصوية ، وفيما يتعلق بجميع الاعتبارات الأخرى ، فإنه يوجد هناك أقرب تشابه عام بين الأنغال والأخلاس - فى قابليتهما للتمايز ، وفى قدرتهما على امتصاص أحدهما للآخر عن طريق التهاججات المتكررة ، وفى وراثتهما للصفات المستمدة من كل من أشكاليهما الأبوية . وأخيراً إذن فإنه بالرغم من أننا على هذا المستوى من الجهل للسبب الدقيق الخاص بالعقم الخاص بالتهاججات الأولى والخاص بالأنغال ، وذلك بقدر ما نجهل السبب فى أن الحيوانات والنباتات التى قد يتم نقلها من ظروفها الطبيعية تصبح عقيمة ، إلا أن الحقائق التى يتم تقديمها فى هذا الباب لا تبدو لى مخالفة للإيمان بأن الأنواع كانت موجودة فى حالتها الأرومية فى صورة ضروب .

الباب العاشر

ما يتعلق بالنقص الموجود فى السجل الجيولوجى

ما يتعلق بانعدام وجود الضروب المتوسطة^(١) فى الوقت الحاضر - ما يتعلق بالطبيعة الخاصة بالضروب المتوسطة المنقرضة ، وما يتعلق بعددها - ما يتعلق بمرور الزمن^(٢) ، كما يستدل عليه من المعدل الخاص بالتعرية^(٣) والخاص بالتراكم - ما يتعلق بالفترة الزمنية كما تم تقديرها بالسنوات - ما يتعلق بتواضع المجموعات الإحاثية^(٤) الخاصة بنا - ما يتعلق بالتقطع الموجود بالتكوينات الجيولوجية - ما يتعلق بالتعرية الخاصة بالمناطق الجرانيتية - ما يتعلق بانعدام وجود الضروب المتوسطة فى أى تركيب جيولوجى واحد - ما يتعلق بالظهور الضجائى لمجموعات من الأنواع - ما يتعلق بظهورها الضجائى فى أسفل الطبقات الأحفورية^(٥) المعروفة - القدم^(٦) الخاص بالكرة الأرضية المسكونة .

Intermediate varieties	(١) الضروب المتوسطة *
laps of time	(٢) مرور الوقت أو الزمن *
Denudation	(٣) تعرية = تجريد *
Polaeontological	(٤) إحاثى = متعلق بعلم الإحاثية : علم يبحث فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السابقة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية .
Fossiliferous	(٥) أحفورى = ذو أحافير = محتوى على أحافير
Antiquity	(٦) قدم = عتق *

قمت فى الباب السادس بسرد الاعتراضات الرئيسية التى من الممكن تقديمها بشكل حقيقى ضد وجهات النظر والآراء الواردة بهذا الكتاب . وقد تمت مناقشة معظمها إلى الآن . وأحد هذه الاعتراضات ، وهو بالتحديد التباين الخاص بالأشكال الحية النوعية^(١) ، وكونها لا تختلط مع بعضها عن طريق عدد غير محدود من الحلقات الانتقالية^(٢) ، هى صعوبة شديدة الموضوع . وقد قمت بتعيين الأسباب التى تفسر لماذا لا توجد هذه الحلقات بشكل شائع فى وقتنا الحاضر تحت تأثير الظروف التى من الواضح أنها من أكثر الظروف ملاءمة لوجودها ، وهى بالتحديد ، تواجدها على مساحة شاسعة ومتصلة مع ظروف مادية متدرجة . وقد حاولت أن أبين أن الحياة الخاصة بكل نوع تعتمد بشكل أكثر أهمية على التواجد لأشكال عضوية أخرى محددة من قبل ، من الأهمية الخاصة بالمناخ ، وبناء على ذلك فإن الظروف الحياتية المتحكمة فعلاً ، لا تتدرج فى الزوال بشكل تدريجى مثل الحرارة والرطوبة . وقد حاولت أيضاً أن أبين أن الضروب المتوسطة ، نتيجة لتواجدها بأعداد أقل من الأشكال الحية التى تربط فيما بينها ، سوف يتم فى العادة هزيمتها وإبادتها . فى خلال المسيرة الخاصة باستمرار التعديل والتحسين ، ومع ذلك فإن السبب الأساسى لعدم تواجد حلقات متوسطة لا حصر لها فى كل مكان فى جميع أرجاء الطبيعة ، يعتمد على عملية الانتقال الطبيعى بذاتها ، والتى من خلالها تأخذ الضروب الجديدة بشكل مستمر الأماكن الخاصة ، وتحل محل أشكالها الحية الأبوية . ولكن يجب أن يكون عدد الضروب المتوسطة التى قد سبق أن تواجدت ، عدداً هائلاً بالفعل ، بنفس المعدل الواسع النطاق بالضبط الذى تجرى عليه هذه العملية الخاصة بالإبادة ، . فلماذا إذن لا يكون كل تركيب جيولوجى وكل طبقة فيه مليئة بمثل هذه الحلقات المتوسطة . إن علم طبقات الأرض بالتأكيد لا يفصح عن أى شىء على شاكلة تلك السلسلة العضوية الدقيقة التدرج ، وربما كان هذا هو أكثر اعتراض واضح وخطير من الممكن أن يوضع فى مجال المجادلة ضد النظرية ، وأنا أعتقد أن التفسير لذلك يقع فى النقص البالغ فى السجل الجيولوجى .

Specific forms
Transimital links

(١) الأشكال الحية النوعية *
(٢) الحلقات الاتصالية *

وفى المقام الأول ، فإنه يجب أن يوضع نصب العين ، نوع الأشكال الحية المتوسطة التي يتحتم ، بناء على النظرية ، أنها كانت موجودة فى الماضى . وقد وجدت أنه من الصعب ، عندما أنظر الى أى اثنين من الأنواع ، أن أتجنب رسم صورة فى ذهنى لأشكال حية متوسطة بشكل مباشر فيما بينها . ولكن هذا فى مجموعته وجهة نظر زائفة ، فإنه من الواجب علينا دائماً أن نبحث عن أشكال حية متوسطة موجودة بين كل الأنواع ، علاوة على جد أعلى كسلف مشترك لها ، ولكنه مجهول ، وهذا الجد الأعلى سوف يكون فى العادة قد اختلف فى بعض النواحي عن جميع ذرائه المعدلة . ولكى نعطي مثلاً موضحاً بسيطاً : فإن الحمام ذا الذيل المروحي والحمام العابس قد انحدر كلاهما من حمام الصخور ، وإذا استطعنا أن نضع أيدينا على جميع الضروب المتوسطة التي قد تواجدت على الإطلاق ، فإنه يجب أن يكون لدينا سلسلة مترابطة إلى أقصى حد بين كليهما وحمام الصخور ، ولكن يجب ألا يكون لدينا أى ضروب متوسطة بشكل مباشر بين الحمام ذى الذيل المروحي والحمام العابس ، فلا يوجد منهما ، على سبيل المثال ، ما يجمع بين ذيل منبسط بعض الشيء وحوصلة متضخمة بعض الشيء أيضاً ، وهى الصفات المميزة لهاتين السلالتين . والأكثر من هذا ، أن هاتين السلالتين ، قد أصبحتا معدلتين بشكل كبير إلى درجة أنه إذا لم يكن لدينا أى دليل تاريخى أو دليل غير مباشر يتعلق بأصولهما ، فإنه سوف يكون من المستحيل أن يتم التحديد ، من خلال مجرد المقارنة الخاصة بتركيبهما مع التركيب الخاص بحمام الصخور ، إذا ما كانا قد انحدرتا عن هذا النوع أو عن شكل ذى قرابة له ، مثلما هو الحال مع الحمام الخمرى^(١) .

وبهذا الشكل ، فإنه مع الأنواع الطبيعية ، إذا نظرنا إلى أشكال حية متباينة جداً ، على سبيل المثال ، إلى الجواد والتابير^(٢) ، فلن يكون لدينا أى سبب لكى نفترض أن حلقات متوسطة بشكل مباشر تربط فيما بينهما ، قد كانت موجودة على الإطلاق ، ولكن من المحتمل أن تكون موجودة لتربط بين كل منهما مع أب مشترك مجهول .

Columba oenas

Tapir

(١) الحمام الخمرى *

(٢) التابير: حيوان أمريكي استوائى شبيه بالخنزير *

والأب المشترك لن يكون قد حاز فى مجمل تعضيته الكثير من التماثل العام مع التاير ومع الجواد، ولكنه قد يكون مختلفاً إلى حد بعيد فى بعض المميزات الخاصة بالتركيب عن كليهما ، حتى إنه من المحتمل أن يكون مختلفاً إلى حد أبعد عن اختلافهما عن بعضهما . وبناء على ذلك ، ففى جميع مثل هذه الحالات ، فإننا سوف نكون غير قادرين على التعرف على الشكل الأبوى الخاص بأى اثنين أو أكثر من الأنواع ، حتى إذا قمنا بالمقارنة الدقيقة للتركيب الخاص بالأب مع التركيب الخاص بذرايه المعدلة ، إلا إذا كان لدينا فى نفس الوقت سلسلة شبيه متكاملة من الحلقات المتوسطة .

ومن المحتمل تماماً عن طريق النظرية ، أن يكون واحد من اثنين من الأشكال الحية قد تم انحداره من الآخر ، وعلى سبيل المثال ، أن يكون حصان قد انحدر من تاير ، وفى هذه الحالة فإن الحلقات المتوسطة المباشرة سوف تكون قد تواجدت فيما بينهما . ولكن مثل هذه الحالة قد توحى بأن شكلاً واحداً قد استمر لفترة طويلة جداً بدون تغيير ، بينما قد اجتازت ذرايه كمية هائلة من التغيير ، وسوف يجعل المبدأ الخاص بالتنافس بين كائن حى وكائن حى آخر ، وبين الطفل والأب ، هذا الأمر حدث نادر جداً ، وذلك لأن ما يحدث فى جميع الحالات هو أن أشكال الحياة الجديدة والمحسنة تميل إلى الحلول محل الأشكال الحية القديمة وغير المحسنة .

باتباع نظرية الانتقاء الطبيعى ، فإن جميع الأنواع الحية كانت مرتبطة مع الأنواع الأبوية الخاصة بكل طبقة ، عن طريق اختلافات ليست أكبر مما نراه موجوداً بين الضروب الطبيعية والداجنة التابعة لنفس النوع فى وقتنا الحالى ، وهذه الأنواع الأبوية التى قد اندثرت بشكل عام حالياً ، قد كانت بدورها مرتبطة مع أشكال حية أكثر قدماً ، وهكذا يستمر الحال فى التقهقر ، متقاربة دائماً إلى الحدود العليا المشتركة الخاصة بكل من الطوائف الكبرى . وبهذا الشكل فإن العدد الخاص بالحلقات المتوسطة الانتقالية الموجودة بين الأنواع الحية والباءة ، من المحتم أنها كانت هائلة بشكل لا يصدق . ولكن بالتأكيد ، إذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فإن مثل هذه الكائنات تكون قد عاشت على الكرة الأرضية .

ما يتعلق بالفترة الزمنية ، كما يستدل عليه من المعدل الخاص

بالتراكم والمدى الخاص بالتعرية

بشكل مستقل عن عدم عثورنا على بقايا أحفورية لمثل هذا العدد اللانهائى من الحلقات الرابطة ، فإنه قد يثور اعتراض أن الزمن لا يمكن أن يكون كافياً لحدوث مثل هذه الكمية الهائلة من التغيير العضوى ، فإن جميع التغييرات قد تم إحداثها بشكل بطيء . وليس من الصعب على أن أعيد إلى ذهن القارئ الذى ليس ممارسا لعلم طبقات الأرض ، الحقائق التى قد تقود العقل بحرية إلى استيعاب مرور الزمن . فالذى يستطيع أن يقرأ العمل العظيم الذى قد قام به "السير تشارلس لايل" sir Charles Lyell بكتابه عن "الأساسيات فى علم طبقات الأرض"^(١) ، الذى سوف يتبين المؤرخون فى المستقبل أنه قد أحدث ثورة فى العلوم الطبيعية^(٢) ، ثم لا يعترف بعد ذلك بالمدى الفسيح الذى كانت عليه الفترات السابقة من الزمن ، فإنه من الممكن أن يقوم بإغلاق هذا الكتاب على الفور . وليس بالشئ الكافى لنا أن ندرس كتاب الأساسيات فى علم طبقات الأرض ، أو أن نقرأ مقالات خاصة تمت كتابتها بواسطة مراقبين مختلفين عن التكوينات المنفصلة ، أو أن نقوم بتقييم محاولات كل باحث لكى يعطى فكرة غير واقعية عن الأمد الخاص بكل تكوين ، أو حتى الخاص بكل طبقة . فإن أفضل طريقة نستطيع أن نكون بها فكرة ما خاصة بالزمن الماضى هى عن طريق معرفة العوامل الفعالة ، ودراسة المدى العميق الذى وصل إليه سطح اليابسة من التعرية ، وكمية الترسب الذى قد تم إيداعه . وكما قد علق "لايل" بشكل جيد ، فإن المدى والسماك الخاصين بتكويناتنا الرسوبية^(٣) هما النتيجة والمعيار للتعرية التى قد تحملتها القشرة الأرضية فى مكان آخر . وبهذا الشكل فإن أى إنسان يجب أن يقوم بنفسه بفحص الأكوام العظيمة من الطبقات المتراكمة فوق بعضها ، وأن يراقب الجداول

Principles of Geology
Natural Sciences
Sedimentary formations

(١) الأساسيات فى علم طبقات الأرض *
(٢) العلوم الطبيعية
(٣) التكوينات الرسوبية

المائية^(١) وهى تقوم بترسيب الطين ، والأمواج وهى تزيل بالتدرج الجروف البحرية ، وذلك لكى يفهم شيئاً عن الأمد الخاص بالوقت المنصرم ، الذى نرى آثاره الباقية فى كل مكان حولنا .

ومن الأشياء الجميلة أن تقوم بالتجول على طول ساحل البحر ، عندما يكون متكوناً من الصخور المتوسطة الصلابة ، وأن تقوم بتسجيل عملية التآكل^(٢) فى معظم الحالات فإن موجات المد تصل إلى الجروف الصخرية مرتين فى اليوم وذلك لوقت قصير فقط ، والأمواج تأكل فيها عندما تكون مشحونة بالرمال والحصى فقط ، وذلك لأنه يوجد دليل قوى على أن الماء الضالض لا يحدث أى تأثير فيما يتعلق بنحر الصخور . ويحدث فى النهاية تقوض لقاعدة الجرف الصخرى ، وتسقط أجزاء هائلة منه إلى أسفل ، وهذه الأجزاء تبقى ثابتة فى أماكنها ، ومن المحتم لها أن تزول بالاحتكاك ذرة بعد ذرة ، وبعد أن تتناقص فى الحجم فإنه يصبح من الممكن دحرجتها هنا وهناك بواسطة الأمواج ، وبعد ذلك سريعاً ما يتم سحقها إلى صورة حصى أو رمال أو تراب. وقد يساورنا العجب على كثرة ما نراه من جلاميد^(٣) صخرية مستديرة موجودة على طول القواعد الخاصة بالجروف الصخرية المتقهقرة ، وجميعها مغطى بشكل كثيف بالمنتجات البحرية . وذلك يظهر المدى القليل لتآكلها وندرة احتمال تدحرجها والأكثر من ذلك ، فإننا إذا تتبعنا لمسافة عدة أميال قليلة أى خط خاص بالجرف الصخرى الخاضع لعملية التآكل ، فإننا نجد هنا وهناك فقط ، وعلى مدى مسافة قصيرة أو حول نتوء ، أن الجروف الصخرية تمر حالياً بمرحلة من المعاناة . فإن المظهر الخاص بالسطح والحياة النباتية التى تكسوه توضح لنا أنه قد مرت سنوات طويلة منذ أن غشى الماء قواعدها .

ومع ذلك فقد علمنا من المشاهدات التى أجراها "رامساي" Ramsay وهو فى طليعة العديد من المراقبين الممتازين - مثل "جوكس" Jukes ، و "جيكى" Jeikie و "كرول" Croll ، وآخرين - أن التآكل السطح أرضى^(٤) هو عامل أكثر أهمية عن

Rivulet

(١) جدول مائى = نهير = غدِير

Degradatin

(٢) التآكل = التعرية = الانحلال

Boulder

(٣) جلمود : صخر ضخم أكسبته المياة أو الرياح شكلاً مستديراً

Subarial degradatio

(٤) التآكل السطح أرضى = التآكل التحتوائى *

مفعول الشاطئ ، أو القوة الخاصة بالأمواج . فإن سطح الأرض كله معرض للمفعول الكيميائي الخاص بالهواء والخاص بماء المطر وما يحتويه من حمض الكربونيك المذاب ، وإلى الصقيع فى الأقطار الأكثر برودة . والمواد المفتتة يتم حملها إلى أسفل على المنحدرات المستوية الناعمة فى أثناء الهبوط الغزير للأمطار، وإلى حد أكبر مما قد يمكن أن يتصور ، وخاصة فى المناطق القاحلة ، فإن ذلك يتم بواسطة الرياح . ثم يتم نقل هذه المواد بواسطة المجارى المائية والأنهار ، التى عندما تكون سريعة الجريان فإنها تعمل على الزيادة فى عمق قنواتها ، وتعمل على سحق الشظايا . وفى اليوم الممطر ، حتى ولو كان فى أرض متموجة بلطف ، فنحن نرى التأثيرات الخاصة بالتآكل السطح أرضى واضحة فى الجداول الموحلة التى تسيل على جميع المنحدرات ، وكل من السيدين "رامساي" و "ويتاكير" ^(١) Witaker قد بين ، وهذه الملاحظة من أكثر الأشياء إثارة للانتباه، أن الخطوط الجرفية العظيمة الموجودة فى مقاطعة "ويلدن" Wealden ، وتلك التى تمتد عبر إنجلترا ، والتى كان ينظر إليها فى الماضى على أساس أنها سواحل بحرية قديمة ، لا يمكن أن تكون قد تكونت بهذا الشكل ، وذلك لأن كل خط مكون من نفس التكوين الوحيد الموجود ، بينما تتكون جروفنا البحرية فى كل مكان عن طريق التقاطع بين التكوينات العديدة المختلفة . وبما أن الأمر كذلك ، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الإقرار بأن هذه الجروف مدينة بالجزء الرئيسى من أصولها إلى الصخور المكونة لها التى قد قاومت التعرية السطح أرضية بشكل أفضل من السطح المحيط بها ، وأن هذا السطح قد انخفض فيما بعد بالتدريج ، تاركاً هذه الخطوط المكونة من الصخور الأكثر صلابة بارزة - ولا يمكن لشيء أن يترك تأثيراً فى الأزهان عن المدة الشاسعة من الزمن ، وذلك بناء على الفكرة التى فى خيالنا عن الزمن ، أكثر قوة من الاقتناع المكتسب بهذا الشكل ، بأن العوامل السطح أرضية التى تبدو ظاهرياً أنها تمتلك هذا القدر القليل من القدرة ، والتى يبدو أنها تعمل بهذا البطء الشديد ، قد قامت بإنجاز مثل هذه النتائج العظيمة .

وعندما يتخلف لدينا بهذا الشكل انطباع قوى بالمعدل البطيء الذى تزول به التربة عن طريق الحث من خلال التأثير السطح أرضى والساحلى^(١) ، فإنه من المفيد ، من أجل تقدير المدة الماضية من الزمن ، أن يوضع فى الاعتبار ، من أحد الجوانب ، الكتل من الصخر التى قد تمت إزالتها من فوق العديد من المساحات الشاسعة ، ومن الجانب الآخر السمك الخاص بتكويناتنا الرسوبية . وأنا أتذكر أنه عندما أصبت بالدهشة الشديدة عند رؤيتى للجزر البركانية ، التى قد تم حثها عن طريق الأمواج وتمت تعريتها من جميع الجوانب لتصل إلى تكوين جروف رأسية تتراوح ما بين الألف والألفين من الأقدام فى الارتفاع ، وذلك لأن المنحدر الناعم الخاص بمجارى الحمم البركانية^(٢) ، نتيجة لأنها كانت فى حالة سائلة من قبل ، فإنها توضح من أول وهلة إلى أى مدى كانت القيعان الصخرية الصلبة ، ممتدة فى وقت من الأوقات إلى داخل المحيط المفتوح . ونفس القصة يتم سردها أيضا ، بشكل أكثر وضوحا عن طريق الفوالق الأرضية^(٣) - وهى تلك الشقوق العظيمة التى قد تم رفع الطبقات على مدى طولها إلى أعلى أحد الجوانب ، أو الإطاحة بها الى أسفل الجانب الآخر ، وذلك بالارتفاع أو العمق الذى يقدر بالآلاف من الأقدام ، وقد حدث ذلك منذ أن انشقت القشرة الأرضية ، ولا يوجد هناك فرق كبير فيما إذا كان هذا الجيشان الأرضى^(٤) قد حدث فجأة ، أو كما يؤمن حالياً معظم الخبراء فى علم طبقات الأرض ، بأنه كان بطيئاً وأنه قد تم إحدائه عن طريق العديد من المراحل ، وأن سطح الأرض قد تمت تسويته تماماً ، إلى درجة أنه لم يعد هناك أى أثر خارجى مرئى لهذه الاضطرابات الشاسعة . وعلى سبيل المثال ، فإن صدع كرافتن Craven Foutl يمتد إلى ما يزيد على الثلاثين ميلا ، وعلى طول هذا المسار فإن الإزاحة الرأسية^(٥) للطبقات تتراوح من ٦٠٠ إلى ٣٠٠٠ قدم . وقد قام "الأستاذ رامساي" بنشر وصف خاص بمسقط^(٦) موجود فى "أنجلسى" Anglesea يبلغ ٢٣٠٠ قدم ، وقد أبلغنى بأنه مؤمن تماماً أنه يوجد هناك

Littoral action

Lava

Faults

Upheaval

Vertical displacement

Downthrow

(١) التأثير الساحلى *

(٢) الحمم البركانية

(٣) الفوالق الأرضية = الصدوع

(٤) جيشان أرضى *

(٥) الإزاحة الرأسية *

(٦) مسقط *

مسقط آخر فى "ميريونيشير" Merionethshire يبلغ ١٢٠٠ قدم، ومع ذلك ففى هذه الحالات ، فإنه لا يوجد شىء على سطح الأرض يشير إلى مثل تلك التحركات الهائلة ، فإن أكوام الصخور الموجودة على كل جانب من جوانب الصدع قد تمت إزالتها وتتعيم مواضعها .

وعلى الجانب الآخر ، فإن الأكوام الخاصة بالطبقات الرسوبية الموجودة فى جميع أرجاء العالم ذات سمك مدهش . وقد قمت فى سلسلة الجبال^(١) الخاصة بشمال غرب أمريكا الجنوبية بتقدير أن طول كتلة واحدة من المواد المختلطة^(٢) يبلغ عشرة آلاف قدم ، وبالرغم من أن كتل المواد المختلطة قد تم فى الغالب تجميعها بمعدل أسرع من الرسوبيات الأكثر دقة ، إلا أنه نظراً لأنه يتم تكوين هذه الكتل من حصى متاكل ومستدير ، كل واحدة فيها تحمل خاتم الزمن عليها ، فإنها تعتبر معياراً جيداً لإظهار مدى المعدل البطيء الذى قد تراكمت بواسطته هذه الكتلة مع بعضها . وقد أعطانى "الأستاذ رامساي" السمك الأقصى الخاص بالتكوينات المتتابعة فى أجزاء مختلفة من بريطانيا العظمى ، وذلك مأخوذ من قياسات فعلية فى معظم الحالات ، وقد كانت النتيجة كالتالى :

طبقات المرحلة القديمة^(٣) ١٥٤ ، ٥٧ قدم (غير متضمنة القيعان النارية)^(٤) .

طبقات المرحلة الثانية^(٥) ١٩٠ ، ١٣ قدم .

طبقات المرحلة الثالثة^(٦) ٢٤٠ ، ٢ قدم .

ويصل هذا فى مجموعته إلى ٧٢ ، ٥٨٤ قدماً ، وهذا يعنى رقماً قريباً جداً من ثلاثة عشر وثلاثة أرباع من الأميال البريطانية . وبعض التكوينات التى نجدها فى إنجلترا ممثلة بقيعان رقيقة، فإنها تبلغ الآلاف من الأقدام فى السمك على أرض القارة الأوروبية . والأكثر من ذلك ، فإن لدينا من بين كل اثنين من التكوينات المتتالية ،

Cordillera	(١) سلسلة الجبال (اسم منطقة فى شمال غرب أمريكا الجنوبية) *
Conglomerates	(٢) مواد مختلطة
Palaeozoic strata	(٣) طبقات المرحلة القديمة = الطبقات الباليوزية *
Igneous beds	(٤) القيعان النارية = الطبقات النارية *
Secondary strata	(٥) طبقات المرحلة الثانية = الطبقات الثانوية *
Tertiary strata	(٦) طبقات المرحلة الثالثة = الطبقات الثلاثية *

طبقاً لرأى معظم علماء الجيولوجيا ، عصوراً غفلة^(١) ذات أطوال زمنية هائلة . وبهذا الشكل فإن الكوم الشامخ من الصخور الرسوبية الموجودة فى بريطانيا لا يعطى إلا فكرة غير وافية عن الزمن الذى قد مر فى أثناء عملية تكديسه . والتفكير فى هذه الحقائق العديدة المختلفة يترك تأثيراً على العقل مماثلاً بنفس الطريقة تقريباً ، لما تفعله المحاولة غير المجدية للتشبث بالفكرة الخاصة بالأبدية والخلود .

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا الانطباع خاطئ فى جزء منه . فقد علق "السيد كرول" Mr. Croll فى بحث مثير ، على أننا لا نخطئ فى تكوين تصور كبير جداً فيما يتعلق بالطول الخاص بالفترات الزمنية الجيولوجية ، ولكننا نخطئ فى تقديرها بالسنوات . وعندما ينظر علماء الجيولوجيا إلى ظاهرة كبيرة ومعقدة ، ثم بعد ذلك إلى الأرقام الممتلئة بعدة ملايين من السنوات ، فإن الاثنين يحدثان تأثيراً مختلفاً تماماً على العقل ، ويتم الإعلان على الفور بأن الأرقام صغيرة إلى حد بعيد . وفيما يتعلق بالتآكل لسطح الأرض ، فإن "السيد كرول" قد بين ، عن طريق الإحصاء للكمية المعلومة من الراسب المجلوب سنوياً بواسطة بعض الأنهار ، ونسبتها إلى المساحات الخاصة بتصريفها للحياة ، أن ١٠٠٠ قدم من الصخور الصلبة ، فى أثناء تفككها التدريجى ، سوف تزال بهذا الشكل من المستوى المتوسط الخاص بالمساحة كلها على مدى ستة ملايين من السنين . وهذه النتيجة تبدو مثيرة للدهشة ، وبعض الاعتبارات تؤدى إلى الاشتباه فى أنها قد تكون كبيرة إلى حد بعيد ، ولكنه حتى إذا تم اختزال عدد السنين إلى النصف أو الربع فإنه مازال يبدو مثيراً جداً للدهشة . وبالرغم من ذلك ، فإن قليلاً منا من يعرف ماذا يعنى رقم مليون فى الحقيقة . ويقوم "السيد كرول" بتقديم هذا المثال الموضح : خذ قطعة طويلة ضيقة من الورق ، طولها ثلاث وثمانون قدماً وأربع بوصات ، وقم ببسطها على طول الحوائط الخاصة ببهو كبير ، ثم قم بوضع علامة تبعد عن أحد الأطراف واحد من عشرة أجزاء من البوصة . وهذا العشر من البوصة سوف يمثل مائة عام ، وطول القطعة كلها سوف يمثل مليوناً من السنين . ولكن ما يجب ألا يغيب عن الذهن ، فيما يتعلق بموضوع هذا العمل ، هو ما تعنيه المائة من السنين ، الممتلئة كما هو الحال هنا بواسطة قياس لا علاقة له إطلاقاً بيهو ذى الأبعاد السابق ذكرها .

وقد نجح العديد من مستولدى الحيوانات البارزين ، خلال فترة حياتية واحدة ، فى التعديل إلى حد كبير لبعض الحيوانات العليا التى تكاثر صنفها بمعدل أبطأ بكثير من معدل تكاثر معظم الحيوانات السفلى ، إلى حد أنهم قد شكلوا ما يستحق تماماً أن يطلق عليه سلالة فرعية^(١) جديدة . والقليل من الرجال قد أعطى العناية الكافية إلى أى عترة^(٢) واحدة لأكثر من نصف قرن ، وبهذا الشكل فإن مائة عام تمثل العمل الخاص باثنين من المستولدين على التوالى . والشئ الذى لايجوز أن يكون محتملاً هو أن الأنواع قد تتغير فى البيئة الطبيعية مثلما تتغير الحيوانات الداجنة تحت التوجيه الخاص بالانتقاء المنهجي^(٣) . والمقارنة سوف تكون بكل طريقة عادلة بشكل أكبر مع التأثيرات التى تتبع من الانتقاء اللواعى^(٤) ، وهذا يعنى الاحتفاظ بالحيوانات الأكثر فائدة أو جمالاً ، بدون وجود أى قصد إلى إحداث تعديل فى السلالة ، ولكن عن طريق هذه العملية الخاصة بالانتقاء اللواعى ، فإن العديد من السلالات المختلفة قد تم تغييرها بشكل ملموس على مدى اثنين أو ثلاثة من القرون .

ومع ذلك فإن الأنواع غالباً ما تتغير بشكل أكثر بطأً بكثير ، وفى نطاق نفس القطر فإنه يحدث فيها تغيير قليل فقط ، فى نفس الوقت - وهذا البطء ينبع من أن جميع الأنواع القاطنة فى نفس القطر تكون قد أصبحت متكيفة بشكل جيد مع بعضهم بعضاً ، إلى درجة عدم ظهور أى أماكن جديدة فى المنظومة الخاصة بالطبيعة إلا بعد مرور أزمئة فاصلة طويلة ، وذلك يكون نتيجة لحدوث تغييرات مادية ذات مفعول ما أو تمايزات فردية ذات طبيعة صحيحة ، والتى قد تصبح عن طريقها بعض الكائنات القاطنة معدة بشكل أفضل من أجل شغل أماكنها الجديدة ، تحت تأثير الظروف التى لم تتغير ، ودائماً فإن هذا لا يحدث فى الحال . ومن سوء الحظ أنه ليس لدينا أى وسائل تمكننا من تحديد ، بناء على مستويات السنين ، طول المدة اللازمة لتعديل أحد الأنواع ، ولكن لا بد لنا من العودة إلى موضوع الزمن .

Sub - breed

strain

Methodical selection

unconscious selection

(١) سلالة فرعية *

(٢) عترة

(٣) الانتقاء المنهجي *

(٤) الانتقاء اللواعى * الانتقاء غير المقصود

ما يتعلق بتواضع المجموعات الإحاثية

ودعنا نلتفت إلى أغنى متاحفنا الجيولوجية ، ولنشاهد مدى رداءة المعروض !
أو أنه لمن المعترف به بواسطة كل فرد أن مجموعاتنا غير متكاملة . والتعليق الخاص
بهذا العالم الإحاثي الجدير بالإعجاب المدعو "إدوارد فوربس" Edward Forbes ،
يجب ألا ينسى على الإطلاق ، ألا وهو ، أنه لا يوجد الكثير جداً من أنواع
المستحاثات^(١) المعروفة والتي أطلقت عليها الأسماء نتيجة للعثور على عينة واحدة وفي
أحيان كثيرة على عينات محطمة ، أو بناء على عينات قليلة تم جمعها من على بقعة
واحدة . ولم يتم الكشف الجيولوجي إلا على جزء بسيط من سطح الكرة الأرضية ،
ولم يتم الكشف عن أى جزء بعناية كافية ، وذلك ما تثبته الاكتشافات المهمة التي تتم
كل عام فى أوروبا . ولا يمكن الحفاظ على الكائنات الحية الرخوة فى مجموعها .
والأصداف والعظام تبلى وتختفى عندما تترك على قاع البحر ، فى الأماكن التي
لا تتراكم فيها الرواسب . ومن المحتمل أن لدينا وجهة نظر خاطئة تماماً عندما نفترض
أن الرواسب يتم تراكمها فوق مجموع قاع البحر تقريباً ، بمعدل سريع بدرجة كافية
لكى يطمر ويحفظ البقايا الأحفورية . وفى جميع أنحاء جزء كبير بدرجة هائلة من
المحيط ، فإن درجة اللون الأزرق الصافى الخاص بالماء تنم عن نقائه . والحالات
العديدة الموجودة فى السجلات الخاصة بتكوين قد تمت تغطيته بشكل مماثل ، بعد
مرور فترة شاسعة من الزمن ، بواسطة تكوين آخر يجيء بعده ، وذلك بدون أن يكون
القاع الذى تحته قد عانى فى أثناء هذه الفترة من أى تأثير للبلبلى والتمزق ، يبدو أنه
قابل للشرح والتفسير فقط بناء على وجهة النظر القائلة بأنه ليس من النادر على قاع
البحر أن يبقى منبسطة لعهود طويلة فى حالة ثبات غير متغيرة . والبقايا التي تصبح
بالفعل مطمورة ، سواء فى الرمل أو الحصى ، سوف يتم فى العادة إذابتها عندما تبرز
القيعان إلى أعلى ، عن طريق تخللها بواسطة مياه الأمطار المحملة بحمض الكربونيك
ويبدو أنه من النادر الحفاظ على بعض من الأصناف الكثيرة من الحيوانات التي تعيش
على الساحل الرملى الواقع ما بين علامات الماء العالى والمنخفض (علامات المد والجزر) .

وعلى سبيل المثال ، فإن الأنواع العديدة التابعة للحيوانات الخملوسية^(١) (وهي فصيلة فرعية تابعة للحيوانات هداوية الأرجل الجالسة)^(٢) تغطي الصخور فى جميع أرجاء العالم بأعداد لا نهائية ، وجميعها تقتصر فى وجودها على الساحل فقط ، باستثناء نوع واحد يعيش فى البحر الأبيض المتوسط ، الذى يستوطن المياه العميقة ، وقد وجد هذا النوع فى صورة مستحجرة فى "جزيرة صقلية" Sicily ، بينما لم يعثر على أى نوع آخر حتى الآن فى أى من تكوينات المرحلة الثالثة ، مع أنه من المعروف أن طبقة الحيوانات الخملوسية قد تواجدت أثناء العصر الطباشيرى^(٣) . وأخيراً فإن العديد من الترسيبات الكبيرة التى تحتاج إلى وقت طويل جداً من أجل تجمعها ، خالية تماماً من أى بقايا عضوية ، وذلك بدون أن يكون بإمكاننا أن نحدد أى سبب لذلك ، وواحد من أكثر الأمثلة لفتنا للأنظار هو الخاص بالتكوين الفليشى^(٤) ، الذى يتكون من الطين الصمغى^(٥) والحجر الرملى^(٦) الذى يصل إلى عدة آلاف ، وفى بعض الأحيان إلى ستة آلاف من الأقدام فى السمك ، ويمتد لمسافة ثلاثمائة ميل على الأقل من مدينة قيينا فى سويسرا ، وبالرغم من أن هذه الكتلة الهائلة قد تم التفتيش فيها بدقة متناهية ، فإنه لم يمكن العثور فيها على أى مستحجرات ، فيما عدا البعض القليل من البقايا النباتية .

أما فيما يتعلق بالمنتجات الأرضية^(٧) التى عاشت فى أثناء عصور المرحلة الثانية والمرحلة القديمة، فإنه ليس من الضرورى أن نعلن أن أدلتنا متناثرة بدرجة لا حد لها . وعلى سبيل المثال ، فإنه إلى عهد قريب لم يكن هناك أى أصداف أرضية^(٨) معروف عنها أنها تابعة إلى أى من هذين العصرين الشاسعين ، باستثناء نوع واحد

Chthamliinae	(١) الحيوانات الخملوسية **
Sessile Cirripedes	(٢) الحيوانات هداوية الأرجل الجالسة
Chalk period	(٣) العصر الطباشيرى
Flysch formation	(٤) التكوين الفليشى
Shale	(٥) الطين الصمغى = طفل : صخر مشكل من صلصال ينفلق بسهولة إلى طبقات
Sandstone	(٦) الحجر الرملى
Terrestrial productions	(٧) المنتجات الأرضية = البرية = دنيوية *
Land - shells	(٨) الأصداف الأرضية = أصداف اليابسة *

تم اكتشافه بواسطة "السير س. لايل". Sir C. Lyell و "الدكتور دوسون" Dr. Dawson ، فى الطبقات الكربونية^(١) الخاصة بأمريكا الشمالية ، ولكنه قد تم العثور على الأصداف الأرضية فى التكوينات الياسية^(٢) وفيما يتعلق بالبقايا الثديية^(٣) ، فإن نظرة سريعة على الجداول التاريخية التى تم نشرها فى "موجز لايل" Lyell's Manual ، سوف يظهر الحقيقة المتعلقة بمدى التصادف والندرة المتعلقة بالحفاظ عليها ، وذلك أفضل من قراءة صفحات مطولة مليئة بالتفاصيل . وندرة هذه البقايا الثديية ليست مثيرة للدهشة ، عندما نتذكر إلى أى مقدار كانت النسبة الخاصة بالعظام التابعة لحيوانات المرحلة الثالثة الثديية ، التى قد تم اكتشافها ، فى المخلفات الموجودة إما فى الكهوف أو فى البحيرات^(٤) ، وأنه لا علم لنا بأى كهف أو قاع حقيقى لبحيرة ، تابع إلى العصر الخاص بتكويناتنا الخاصة بالمرحلة الثانية أو المرحلة القديمة .

ولكن هذا النقص الموجود فى سجلنا الجيولوجى ناتج إلى حد كبير عن سبب آخر ، وهو أكثر أهمية من أى من الأسباب السابقة ، ألا وهو ، أنه ناتج عن كون أن العديد من التكوينات المختلفة مفصولة عن بعضها الآخر بواسطة فترات فاصلة واسعة من الزمن. وهذا المبدأ قد تم الاعتراف به بالتأكيد بواسطة العديد من علماء الجيولوجيا والمختصين فى علم الإحاثة ، والذين - مثل "أ. فوربس" E. Forbs - لا يؤمنون إطلاقاً بحدوث تغيير فى الأنواع . وعندما نرى التكوينات مرتبة فى صورة جداول فى الأبحاث المكتوبة ، وعندما نتتبعها فى أرجاء الطبيعة ، فإنه يصبح من الصعب تجنب الإيمان بأنها تكون مجموعة متعاقبة بشكل حميم . ولكننا نعلم على سبيل المثال ، من الأبحاث العظيمة التى أجراها "السير ر. مورشيسون" Sir R. Murchison فى روسيا ، والتى كشفت عن الفجوات الواسعة الموجودة فى هذا القطر بين التكوينات المتراكبة^(٥) فوق بعضها ، وهذا هو الحال فى أمريكا الشمالية ، وفى الكثير من

Carboniferous strata	(١) الطبقات الكربونية = الطبقات الفحمية
Lias	(٢) التكوينات الياسية = متعلقة بتقسيم فرعى من العصر الجوراسى الأوروبى *
Mammiferous remains	(٣) البقايا الثديية *
Lacustrine	(٤) البحيرات
Superimposed formations	(٥) التكوينات المتراكبة (فوق بعضها) *

الأرجاء الأخرى فى العالم . وإذا عمل أكثر علماء الجيولوجيا مهارة ، على حصر انتباهه بشكل مطلق على هذه الأقاليم الهائلة ، فإنه لم يكن ليتطرق إليه الشك فى أنه أثناء الفترات الجيولوجية التى كانت مغفلة وقاحلة فى وطنه الخاص ، فإن أكواما هائلة من الرسوبيات ، مشحونة بالجديد والغريب من الأشكال الحية ، كانت تتجمع فى مكان آخر . وإذا كان من الصعب تكوين أى فكرة ، فى كل مقاطعة على انفراد ، عن المدة التى مرت بين هذه التكوينات المتعاقبة ، فإننا من الممكن أن نخلص إلى أن هذا من الأشياء التى لا يمكن التأكد منها فى أى مكان . التغييرات المتكررة والعظيمة التى تحدث فى التركيب المعدنى^(١) الخاص بالتكوينات المتعاقبة ، يتم عادة عن حدوث تغييرات عظيمة فى الشكل الجغرافى للأراضى المحيطة ، التى قد استمرت منها الترسبات ، وهذا يتوافق مع الإيمان بأن فترات شاسعة من الزمن قد مرت بين كل من التكوينات .

وأنا أعتقد ، أنه من الممكن لنا أن نرى لماذا نجد أن التكوينات الجيولوجية الخاصة بكل منطقة هى متقطعة بشكل دائم تقريبا ، وهذا يعنى أنها لم تتبع بعضها الآخر بتسلسل متعاقب حميم . ومن النادر أن تصدر منى أى حقيقة أكثر من عندما أقوم بفحص العديد من مئات الأميال الخاصة بسواحل أمريكا الجنوبية ، التى قد ازدادت فى الارتفاع لمئات عديدة من الأقدام فى خلال العصر الحديث ، إلا الغياب الخاص بأى ترسبات حديثة واسعة المدى بشكل كاف لأن تبقى حتى ولو لعصر جيولوجى مقيد . وعلى طول كل الساحل الغربى ، المستوطن بواسطة أحياء حيوانية بحرية^(٢) غريبة ، فإننا نجد أن القيعان الخاصة بالمرحلة الثالثة قد تكونت بشكل هزيل إلى درجة أنه من المحتمل ألا يكون هناك أى سجل خاص بالأحياء الحيوانية البحرية العديدة المتعاقبة والغريبة ، محتفظ به إلى عهد بعيد والقليل من التمعن فى التفكير سوف يفسر لماذا ، على طول الساحل المرتفع الخاص بالجانب الغربى لجنوب أمريكا ،

Mineralogical composition

(١) التركيب المعدنى

Marine fauna

(٢) أحياء حيوانية بحرية = حيوانات خاصة بمنطقة البحر *

لا يمكن العثور على تكوينات شاسعة تحتوى على بقايا من الحقبنة الحديثة أو الثالثة ، مع أنه من المحتم أن الإمداد بالرواسب كان ضخماً لفترات طويلة ، وذلك نتيجة للتعرية الهائلة الخاصة بالصخور الساحلية وللمجارى المائية الموحلة التى تصب فى البحر . ولاشك فى أن التفسير الخاص بأن التراكمات فى المناطق الساحلية وشبه الساحلية^(١) تتناقص تدريجياً باستمرار ، بمجرد أن تتم تعليلتها عن طريق الارتفاع البطيء والتدريجى لليابسة ، من خلال المفعول الاحتكاكى الخاص بأمواج الساحل .

وأنا أعتقد أنه من الممكن لنا أن نستنتج أن الرواسب عليها أن تتراكم فى صورة كتل غاية فى السمك والصلابة أو منتشرة على نطاق واسع ، لكى تستطيع أن تتحمل المفعول المتواصل الخاص بالأمواج ، وذلك عند بدء ظهورها ، وفى أثناء التقلبات المتتابعة التى تحدث فى مستواها ، علاوة على التاكل السطح أرضى اللاحق. ومثل هذه التراكمات السميكة والشاسعة للرواسب من الممكن أن تتكون بطريقتين : إما فى أعماق سحيقة للبحر ، وفى هذه الحالة فإن القاع لن يكون مأهولاً بمثل هذه الأشكال الحية العديدة والتى على هذا الشكل من التنوع ، كالموجود فى البحار الأكثر ضحالة ، وعندما تبرز الكتلة للوجود فإنها سوف تعطى سجلاً مطلقاً للكائنات الحية التى كانت موجودة فى المناطق المجاورة فى أثناء فترة تراكمها . أو أنه من الممكن أن تتراكم الرواسب إلى أى سمك أو مدة فوق قاع ضحل ، إذا استمرت فى الزوال بشكل بطيء . وفى هذه الحالة الأخيرة ، فما دام معدل الزوال والإضافة متعادلين مع بعضهما البعض تقريباً ، فإن البحر سوف يبقى ضحلاً ومناسباً لأشكال حية كثيرة ومتنوعة . ومن الممكن بهذا الشكل أن يتم إنتاج تكوين أحفورى غنى ، سميكة بدرجة تكفى لأن يقاوم قدرأ كبيراً من التعرية عندما يتم رفعه إلى أعلى .

وأنا مقتنع بأن جميع تكويناتنا القديمة تقريباً ، التى نجد أنها غنية بالأحافير المتضمنة فى الجزء الأكبر من سمكها ، قد تكونت بهذا الشكل فى أثناء فترات الزوال . ومنذ قيامى بنشر أرائى المتعلقة بهذا الموضوع فى عام ١٨٤٥ ، فقد قمت بمراقبة التقدم الذى يحدث فى علم طبقات الأرض ، وأصبحت بالدهشة عند ملاحظة كيف يتتابع

خبير بعد خبير عند قيامه بمعالجة هذا أو ذلك التكوين العظيم ، فإنه يصل إلى الاستنتاج بأنه قد تراكم أثناء فترة الزوال . ويعن لى أن أضيف ، أن التكوين القديم الوحيد التابع للحقبة الثالثة الموجود على الساحل الغربى الخاص بجنوب أمريكا ، والذي كان من الضخامة بقدر كاف لى يستطيع مقاومة مثل هذا التجريد الذى قد عانى منه إلى الآن ، ولكنه الذى سوف يكون من الصعب أن يبقى إلى عهد جيولوجى بعيد ، قد تم تراكمه فى فترة من فترات الهبوط الخاصة بالتذبذب فى المستوى ، وأنه قد اكتسب بهذا الشكل سمكا كبيراً .

وجميع الحقائق الجيولوجية تدلنا بوضوح على أن كل منطقة قد تعرضت إلى حدوث تذبذبات بطيئة فى المستوى ، ومن الجلى أن هذه التذبذبات قد أحدثت تأثيراً على مساحات واسعة. وبالتالي، فإن التكوينات الغنية بالأحافير وذات السمك والانتساع الكافى لمقاومة التاكل اللاحق ، سوف تكون قد تكونت فوق مساحات واسعة فى أثناء فترات الزوال ، ولكن بشكل مقصور على الأماكن التى كانت فيها كمية الإمداد بالرواسب كافية لأن تحافظ على بقاء البحر ضحلاً ولأن تظمر وتحفظ البقايا قبل أن يتاح لها الوقت الكافى لى تتحلل ، وعلى الجانب الآخر ، فإنه مادام قاع البحر مستمراً فى البقاء بدون تغيير ، فإن التراكمات السميكة لا يمكن أن تكون قد تراكمت فى الأجزاء الضحلة ، التى هى أكثر الأماكن ملاءمة للحياة ، والاحتمال الأقل هو أن يكون هذا قد حدث فى أثناء الفترات المتناوبة فى الارتفاع ، أو ، لى نتكلم بشكل أكثر دقة ، فإن القيعان التى قد تم تكوينها فى ذلك الحين ، سوف تكون قد تم تدميرها عن طريق أنها قد ارتفعت إلى أعلى وتم وضعها فى نطاق الحدود الخاصة بمفعول الشاطئ .

هذه الملاحظات تنطبق بشكل رئيسى على التراكمات الموجودة فى المناطق الساحلية وشبه الساحلية .أما فى الحالة الخاصة بأحد البحار الشاسعة والضحلة ، مثل ذلك الموجود فى الجزء الأكبر من أرخبيل الملايو ، الذى يتراوح فيه العمق من ٣٠ أو ٤٠ حتى ٦٠ قامة^(١) ، فإنه من الممكن تشكيل تكوين شاسع الانتساع فى أثناء فترة خاصة بالارتفاع البطيء ، ولكن السمك الخاص بهذا التكوين لا يمكن أن يصبح

سميكا ، وذلك لأنه نتيجة للحركة الارتقاعية ، فإن سمكه سوف يكون أقل من العمق الذى قد تكون فيه ، وكذلك لن يصبح التراكم متماسكاً بشكل قوى ، ولن يكون متوجاً بتكوينات أكثر مما ينبغي ، وبهذا الشكل فسوف تتوافر لديه فرصة كبيرة لأن يتناقص بالتدريج عن طريق التعرية الجوية والتأثير الخاص بالبحر فى أثناء التذبذبات اللاحقة فى المستوى . ومع ذلك ، فإن "السيد هوبكنز" Mr. Hopkins قد تقدم باقتراح مؤداه أنه إذا حدث زوال فى أحد الأجزاء التابعة للمنطقة ، بعد ارتفاعه وقبل أن تتم تعريته ، فإن التراكم الذى يتم تكوينه فى أثناء حركة الارتفاع ، مع أنه لن يكون سميكا ، فإنه من المحتمل أن تتم حمايته فيما بعد بواسطة تراكمات جديدة ، ويتم بهذا الشكل الحفاظ عليه لفترة طويلة .

وقد عبر "السيد هوبكنز" أيضا عن إيمانه بأن القيعان الرسوبية ذات الامتداد الأفقى الضخم نادراً ما يكون قد تم تدميرها بالكامل . ولكن جميع الجيولوجيين ، فيما عدا العدد القليل منهم الذى يؤمن بأن الصخور المتحولة^(١) من الشيست^(٢) والصخور الجوفية^(٣) الموجودة فى وقتنا الحالى هى التى قد كونت فى وقت مع النواة^(٤) الأصلية للكرة الأرضية ، سوف يقولون بأن هذه الصخور السابق ذكرها قد تم تجريدها مما كان يغلفها إلى حد كبير . وذلك لأنه من الصعب إمكانية أن تكون مثل هذه الصخور قد تصلبت وتبلورت بينما هى غير مغلفة ، ولكن إذا حدث هذا الفعل التحويلي على أعماق سحيقة من المحيط ، فإنه من الممكن أن الغطاء الواقى السابق للصخر لم يكن شديد السمك . وعندما نعرف بأن صخور الناييس^(٥) والشيست الميكائى^(٦) ، والجرانيت ، والديوريت^(٧) وخلافها ، كانت بالضرورة فى وقت ما مغلفة ، فكيف نستطيع أن نجد تفسيراً للمساحات المكشوفة والشاسعة الخاصة بمثل هذه الصخور

Metamorphic rocks

(١) الصخور المتحولة

Schist

(٢) صخور الشيست = الحجر المصفح : صخر متبلر ينشق إلى طبقات

Plutonic rocks

(٣) الصخور الجوفية = الصخور النارية

Primordial nucleus

(٤) النواة الأصلية = الأساسية = البدائية

Gneiss

(٥) صخور الناييس : صخر صوانى

Mica - Schist

(٦) صخور الشيست الميكائى

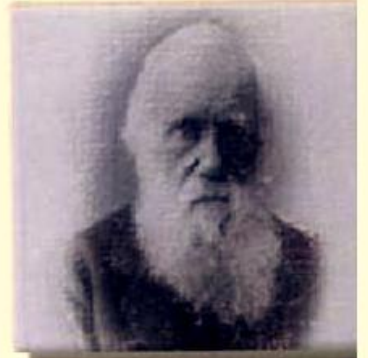
Diorite

(٧) صخور الديوريت : صخر بركانى متبلر

الموجودة فى أجزاء عديدة من العالم ، إلا عن طريق الإيمان بأنه قد تم تجريدها بشكل كامل فيما بعد من جميع الطبقات التى كانت تعلوها ؟ -- ومما لا شك فيه أن مثل هذه المساحات الشاسعة موجودة بالفعل : فإن المنطقة الجرانيتية الخاصة "بپاريم" Parime يصفها "هامبولدت" *Hamboldt* على أساس أنها تبلغ تسعة عشر ضعفاً من الاتساع الخاص بسويسرا . ويصف "بوية" *Boue* مساحة موجودة فى منطقة إلى الجنوب من نهر الأمازون ، تتكون من صخور من هذه النوعية مماثلة للمساحة الخاصة بإسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجزء من ألمانيا علاوة على الجزر البريطانية ، كلها مجتمعة . وهذه المنطقة لم يتم استكشافها بدقة إلى الآن ، ولكن من الشهادات المتواترة الخاصة بالرحالة ، فإن هذه المساحة الجرانيتية ضخمة جداً : ولهذا فإن "قون إشكويج" *Von Eschwege* يقدم مقطعاً مفصلاً خاصاً بهذه الصخور ، يمتد من "ريودى چانيرو" فى خط مستقيم إلى مسافة ٢٦٠ ميلاً جغرافياً إلى داخل القارة ، وقد قمت أنا بالسفر لمسافة ١٥٠ ميلاً فى اتجاه آخر ، ولم أستطع رؤية أى شىء إلا الصخور الجرانيتية . والعديد من العينات التى قد تم جمعها من على طول الساحل الممتد من مكان قريب من "ريودى چانيرو" إلى مصب نهر "لاپاتا" *Lapata* ، وهى مسافة تريبو على ١١٠٠ ميل جغرافى ، والتى قد تم فحصها بواسطة ، كانت كلها تابعة لهذا الصنف . وقد رأيت فى داخلية البلاد ، وعلى طول الضفة الشمالية الخاصة بنهر الپلاتا ، علاوة على القيعان التابعة للحقبة الحديثة الثالثة ، قطعة صغيرة واحدة فقط من الصخور المتحورة^(١) بشكل بسيط ، التى قد تكون بمفردها ممثلة لجزء من التتويج الأسمى الخاص بالسلاسل الجرانيتية . وعندما نلتفت إلى منطقة معروفة جداً ، وبالتحديد إلى الولايات المتحدة وكندا ، وكما تظهر فى الخريطة الجميلة الخاصة "بالأستاذ هـ . د . روجرز" *Professor H.D Rogers* ، فقد قمت بتقدير المساحات بواسطة فصل القصاصات من الخريطة ووزنها ، وقد وجدت أن الصخور المتحولة (مع استبعاد الصخور الشبه متحولة^(٢)) والصخور الجرانيتية ، قد تجاوزت بنسبة ١٩ إلى ١٢,٥ ، مجموع التكوينات الخاصة بالمرحلة القديمة الأحدث عهداً . والصخور المتحولة والجرانيتية الموجودة فى

Metamorphosed rocks
Semi - Metamorphic

(١) صخور متحورة
(٢) شبه متحولة = نصف متحولة = متحولة بشكل جزئى



CHARLES DARWIN

قام تشارلس داروين في كتابه «نشأة الأنواع الحية، بالاعتراض على ما جاء «بمسفر التكوين»، وذلك من خلال محاولاته إثبات سلسلة التحدر الخاصة بالكائنات العضوية». وقد كتب «والت هوايتمان Wan Hutman، تعليقاً على طبعة ١٨٥٩ الأولى أن «النشوء» تلك النظرية القديمة - عندما أعيد فتح موضوعها مجدداً، قد تضاعفت في الواقع ثلاثة أضعاف من خلال الدعاوى القائدة التي تقدم بها داروين». وبالرغم من أنه كانت هناك نظرية خاصة بعلم الأحياء الارتقائي قد تم اقتراحها بواسطة علماء التاريخ الطبيعي الفرنسيين من أمثال جورج لويس بوفون George Louis Buffon في عام ١٨٠٥. وجان بابتيست لامارك Jean Baptiste Lamarck في عام ١٨٠٩، إلا إن تفسير داروين المفصل والشامل الخاص «بالحرب الخاصة بالطبيعة»، قد هن العالم؛ فإنه قد تحدى «الخطة الخاصة بالخلق» في علم الأحياء التي نادى بها عالم اللاهوت، وليام بالي William Paley منذ قرن سابق. وبذلك قاد مسيرة الصراع من أجل تحرير علم التاريخ الطبيعي من قبضة الدين، وفي خلال ما يزيد قليلاً على عقد واحد من الزمان انتشرت التعبيرات الجديدة سريعاً مثل «البقاء للأصلح»، و«الانتقاء الطبيعي» في جميع أرجاء إنجلترا وفرنسا وأمريكا. وسريعاً تمت ترجمتها إلى اللغات اليابانية والهندوستانية. إن إشارة حذرة واحدة من داروين في هذا الكتاب إلى وجود رابطة بين الإنسان والحيوان قد أدت إلى الاستمرار في إثارة أثنى عشر عاماً من الجدل الشخصي، الذي بلغ ذروته بتقديمه كتاب «نشأة الإنسان» إلى الجمهور المذهول.